الجامعة التونسية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

التفجّع في شعر الشريف الرضي

القسم الأول

أطروحة لنيل شهادة التعمق في البحث
(دكتوراه الحلقة الثالثة)

إشراف: الدكتور محمد اليعلاوي إعداد: جليل منصور المريض

السنة الجامعية
1985-1984

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ .

رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَٱحْلُلْ
عُقْدَةً مِن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي .

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

المقدمـــــــــــة

ان شعـــر الشريـــف الرضـــي ملحمـة جسّـد فيهـا الشاعـــــر مأســـاة المثقـف في القـــرن الرابـــع الهجـــري . وبالرغـــــم من الدراســات القديمة والحديثة لحيـاة الرضـي ، فـــــإنّ التفجّـــع الـــذي كاد يصطبـــغ به جـــلّ شعـــره لـم يحـــظ باهتمـــام الباحثيـــن ، وذلـك مـا حفزنـــي لاتخـاذ " التفجـــــع في شعـر الشريـــف الرضـي " موضـــوع دراســة متعمقـة ، وقـــد قلّبـــت الموضـوع على وجوهـــه المختلفـــة ، وحاولـت استقصـــــاء ما كتـب فيـــه من دراسات ، وما قيل عنـه من آراء فوجـــــدت الدراســـات فيـــه مـا هـي الاّ آراء عابـرة متناثـرة هنـــــا وهنـــاك في تلافيـــف الدراســـات التي لـم تكـــن في حقيقتهـــا الاّ تكـــراراً لما قالـه اللاحـــق عن السابـق بأساليـب مختلفـــة لـــذا جـــاءت تلـك الدراسات هامشيـــة لا تتعـــدى لمس السطـح الخارجـــي دون الغـــوص في الأعمـاق . ويرجـع ذلـــك -في اعتقادي- الـــى محاولـة أولئك الباحثيـــن الالمام بكـلّ أبعـــاد تجربـــــة الشريـــف الرضـــي في دراسات مختصـرة ، لا تمكّـن الباحث مـــن اشبـــاع جوانـــب دراسته بحثًا وتمحيصـــًا .

فمن أوائـل مـــن تطرقـــوا لدراسة الشريـــف الرضي الشيـــخ عبد الحسين الحلّي في دراسته " الشريـــف الرضي " وهـي عبـــارة عن ترجمـــة للشاعر ، ذكر فيهـا مؤلفهـــا جميع أدوار حياة الرضي وأسمـــاء شيوخـــه ، وعناويـــن مؤلفاتـــه ، مع دراسة مختصـــــرة لأغـــراض شعـــره من وجهـــة نظـر شيعيـــة ، خاصة وأنّ الدراسة قبل أن تطبـــع منفـــردة في كتاب كانـت تصديـــرًا لتحقيق الجزء الخامـــس مـــن كتاب الشريف الرضي " حقائـــق التأويـــل " وقـــد حرّرهـا المؤلـــف لذلـــك الغـــــرض .

أمّا كتاب " عبقرية الشريف الرضي " لزكي مبارك فقد حوى بين دفتيه من الأفكار ما يمكّن الباحث من المسك بالخيوط المتشابكة المتداخلة في شعر الشريف الرضي ، فزكي مبارك قد وعى ما في ذلك الشعر من كنوز ،الاّ أنّه لم يغص باحثا عن دروها في ذلك البحر المتلاطم ، بل اكتفى بما نستطيع اعتباره سبّاحا سريعا ، لكون ما طرحه في كتابه بجزئية محاضرات قد ألقاها على مستمعيه أثناء وجوده ببغداد .

ومن تطرقوا لدراسة الشريف الرضي في الأربعينيات من هذا القرن ، د . محفوظ في كتابه " الشريف الرضي" الذي كان عبارة عن خواطر حاول الكاتب من خلالها ابداء وجهة نظره في شخصية الشريف الرضي وحبّه وعلاقاته الاجتماعية مع مقارنته بالشاعر الفرنسي " بودلير". والدراسة رغم ما يعتورها من نقص في كثير من الجوانب هي أقرب الى الخواطر منها الى الدراسة المبنية على أسس علمية ، وعلاوة على ذلك فإنّ كاتبها لم يتعرض على الاطلاق الى موضوع التفجّع الذي نحن بصدده.

أمّ دارسة محمد عبد الغني حسن " الشريف الرضي" فلا تعدو كونها دراسة تاريخية مختصرة ، حاول فيها المؤلف استعراض جميع مراحل حياة الرضي بالاضافة الى تصنيف نماذج من أشعاره الى أبواب الشعر التقليدية من مدح ورثاء وفخر وغيرها ممّا أحال تلك الدراسة في جميع جوانبها الى استعراض تاريخي بحت فلم يستطع أن يقول أكثر ممّا قاله سابقه د . محفوظ .

وأما ما تخطينا ذلك الى الدراسة التي قام بها محمد جميل شلش " الحماسة في شعر الشريف الرضي" فبرغم المآخذ الكثيرة عليها من قبل النقاد ، فإنني

لم أجد فيها ما يستحق أن يذكر حول موضوع التفجّع .

أمّا دراسة عبد الفتاح محمد الحلو " الشريف الرضي " فيمكن اعتبارها مصدرًا هامًّا للدراسات التي تناولت الشريف الرضي قديمًا وحديثًا ، فقد حاول فيها مؤلفها الالمام بكلّ ما قيل من آراء وأحكام حول الشريف الرضي وشعره ، مع تخطئة آراء بعض من سبقه من المحدثين دون الاستناد الى أدلة مقنعة وفي دراسته لشعر الشريف لم يأت بجديد ، كما لم يتطرق الى دراسة التفجّع الذي صبغ الكثير من جوانب ذلك الشعر الوفير ، الاّ فيما ندر ، وفي رثاء الأصدقاء والأصحاب خاصة ، وخير دليل على افتقاد الباحث للروح العلمية في تلك الدراسة التي صدر بها الديوان ، ما قام به من تشويه وحذف أثناء تحقيقه للديوان ، ليستجيب ذلك مع ما طرحه من آراء حول عقيدة الاعتزال التي حاول اعتسافا أن ينسب الرضي اليها ، فقد حذف المحقق من روى الهمزة وحده ما يقارب من ثلاثمئة وخمسة وستين بيتا دون أن يذكر مبرراً لذلك في مقدمته ، علمًا بأنّ تلك الدراسة التي صدر بها تحقيقه للديوان هي جزء من بحث نال به الباحث الدكتوراه قبل شروعه في تحقيق الديوان .

أمّا الدراسات القديمة فلم تطرق الى موضوع التفجّع ولا الى غيره من مضامين شعر الشريف الرضي من قريب أو من بعيد ، إذ كان اهتمام مؤلفي تلك الكتب منصبًّا تمامًا على حياة الشعراء ، ويأتي الحديث عن شعرهم عرضاً ضمن تراجمهم مع محاولة تقييمية من وجهة نظر ذاتية .

فعلى الرغم من كثرة مراجع الدراسة من حيث الكم لم تكن لتقدم لموضوع الدراسة الشيء الكثير لتكرار الآراء فيها بنقل الخلف عن السلف في كثير من الأحيان ، وهو ما أدّى بي الى جعل الديوان المصدر الأساسي للدراسة ، خاصة وأن البحوث والدراسات في موضوع (الحزن في الشعر العربي) - والقديم منه على وجه الخصوص - تكاد تكون معدومة ، فان وجدت فإنّها تكاد تقتصر على الرثاء والحكم ، أو على المقدمة الطللية ضمن الدراسات الأخرى ، وبالطبع فإنّ ذلك شكّل صعوبات كبيرة أثناء استنتاجي لأسباب تفجّع الشاعر . إذ تكمن جدّة هذه الدراسة وطرافتها - على وجه التقريب - في اقتصارها على زاوية معينة هي (التفجّع) عند شاعر معين هو الشريف الرضي ، لذا فلا بدّ أن يعتورها النقصان في جوانب أخرى كثيرة .

أمّا بخصوص خطّة الدراسة ، فقد بنيت على تقسيم البحث الى بابين حوى الباب الأول ثلاثة فصول درسنا فيها عصر الشاعر وحياته وشعره . أمّا الباب الثاني فقد تضمّن مدخلا وأربعة فصول ، تعرضنا في المدخل الى دراسة أوصاف الحزن في اللغة . وتناول الفصل الأوّل من الباب الثاني علاقة تفجّع الرضي بتشيّعه أمّا الفصل الثاني فقد خصصناه لدراسة " التفجّع والصوت" في شعر الشريف الرضي . وتعرضنا في الفصل الثالث الى دراسة علاقة تفجّع الرضي بمجتمعه . وفي الفصل الرابع لدراسة " أثر المرأة في تفجّع الشريف الرضي " .

هذا وقد اتبعت في تحليلي للنصوص الشعرية التقديم لها وابراز ايحاءاتها ثمّ ايرادها واظهار ما

تتضمنّه معانيها من تفجّع مستخدما في ذلك منهجاً تكاملياً لما تتضمنّه الشواهد الشعرية من عناصر فنية ونفسية واجتماعية متمازجة ذائبة في كيان ما بين أيدينا من شعر لا يمكن فصل أيّ عنصر عن عناصره الأخرى ، مع تغليب جانب على آخر أثناء العرض والتحليل حسب امكانية انتشاره في الشاهد .

وانني اذ أتقدّم بعملي المتواضع هذا ، أرجو أن أكون قد شاركت في وضع لبنة في صرح الأدب العربي على اعتبار بحثي مرحلة ابتدائية لدراسات متعمقة راجياً أنّ أكون قد أوفيت الدراسة حقّها ،مع قبول اعتذاري عن طول البحث الذي فرضته عليّ وفرة المادة الثرية في ايحاءاتها المتنوعة في أساليبها والله الموفق .

البَابُ الأَوَّلُ

حَيَاةُ الشَّرِيفِ الرَّضِيّ

تمهيد .

الفصل الأول : عصر الشريف الرَّضيّ .

الفصل الثانى : حياة الشريف الرَّضيّ .

الفصل الثالث : شعر الشريف الرَّضى .

الفصـــــــل الاول

عصـــر الشريـــف الرضـــي

تمهيـــــــد :

يكتنف دراسة أيّ أديب أو أي شاعر كثير من الملابسات التي لابد من تسليط الضوء عليها واستطاقها حتى يتمكن الدارس من الكشف عن حقيقة التجربة ومدى صدقها وعمقها وما يحيط بها من غموض. فتجربة الشاعر الحق ، هي التجربة الصادرة من اعماقه ، المعبرة بصدق عن احساساته تجاه نفسه أو أسرته أو مجتمعه ، ومهما بلغت تلك التجربة من الذاتية أو الانتشار ،فلابد من تأثرها ببيئة الشاعر وثقافته ومحيطه الاجتماعي وما ينتابه من هدوء أو اضطراب وتطور أو جمود ، وحب أو كراهية وحياة ضنكة أو رغدة . قد يكون ذلك التأثير مباشرا وقد يكون غير مباشر مهما حاول الشاعر من التخفي أو التصنع ، خاصة وأنه ابان انهماكه في بلورة تجربته عن طريق الكتابة ، فان تلك التجربة الانية التي يعيشها ودون شعور منه تفرض عليه أن يكون ابن بيئته ، اذ لا مجال له من الانفلات من ذلك مطلقا . قد يكون ذلك الاديب أو الشاعر ثائرا على مجتمعه فيحاول تغييره بما أوتي من ملكة نقدية ، وقد تكون ثورته تلك تجسيدا أو اظهارا وكشفا عن عيوب ذلك المجتمع مما يؤدي به الى اتخاذ موقف سلبي من أبناء مجتمعه الذي يحتم عليه في مثل هذه الحالة دراسة تلك العيوب وتعريتها ومن ثم هدمها ، وهو من خلال دراسته تلك يكوّن تجربته فيكون مفعولها في في الكلمة التي يتلفّظ بها . ولكن قد يجنح الشاعر الى الطبيعة يتناجى معها هروبا من واقعه ، وهو من خلال محاولة الهروب تلك انما يعود لسبر أغوار نفسه التي سرعان ما تكشف له انّه جزء من المجتمع الذي يعيشه ، اذ أنّ الطبيعة

التي حاول أن يلقي بنفسه في أحضانها ما هي في حقيقتها الا بيئته أو جزءا من مكوناتها . فمهما بلغت فردية الشاعر أو الاديب فانه من خلال تصرفه اللا ارادي أثناء العمل يعود الى بيئته ومجتمعه ولو في ومضات سريعة مما يجعل من أدبه " أداة التعبير لكل العناصر المتصارعة " (1) داخل نفسه أو خارجها في مجتمعه .

ولمّا كنّا بصدد دراسة " التفجّع في شعر الشريف الرضي " ذلك الشاعر الذي عاش في القرن الرابع الهجري الذي عرفت فيه الامّة العربية فطاحل العلماء كما عرفت فيه بداية التصدع في كيان الامّة الاسلامية فقد تحتّم علينا أن نقف عند عصره مستنطقين حوادث التاريخ عن الاسباب التي أدت بهذا الشاعر الهاشمي الى سلوك محجة الحزن العميق ،ناثرا من دموعه درارا على جبهة الشعر العربي ،علّنا بذلك نصل الى الاسباب التي أدت به الى ذلك على الرغم من مكانته المرموقة ومنزلته العالية في مجتمعه ، وبرغم ما حظي به من مراكز يحسده عليها رجالات عصره ، وبرغم ما كانت تتمتّع به أسرته من سلطان وثراء . أليس ذلك من متناقضات العصر ؟ أم هناك من الاسباب ما نجهله ؟ . . . إنّ الدارس لذلك العصر - القرن الرابع الهجري - سيكشف أنّه عصر متناقضات . . انهيار في هيكل الخلافة الاسلامية وتمزقها الى دويلات . . . . . ازدهار العلم والفكر على الرغم من انعدام الاستقرار السياسي . . ثراء فاحش بجانبه فقر مدقع . . . . زندقة ومجون بجانب زهد وتصوف . . . . .

---

1) عزالدين اسماعيل - في الشعر العباسي الرؤية والفن ص 6

1) الحالة السياسية

بداية الانحراف في سلك الدولة العباسية :

قامت الخلافة العباسية على أساس الدعوة + الى المساواة بين العناصر الاسلامية ، واعادة الاسلام الى الجادة التي حرفه عنها الامويون ابان حكمهم ، ففضلوا العنصر العربي على سواه من العناصر الاخرى ، وأضرموا نار العصبية القبلية بتقديمهم بعض القبائل العربية على البعض الآخر ، ثم إهمالهم القتل والتشريد في آل بيت الرسول مما أدّى بالعرب وغير العرب الى مقاومتهم ومحاولة التخلّص من حكمهم فكانت الثورات المستمرة داخل الدولة على مر العصور ممّا أنهك الجيوش الاموية حتى كانت نهايتهم سنة 132 هجرية ببداية ثورة خراسان بقيادة أبي مسلم الخراساني الذي بفضل جهوده قامت الدولة العباسية صاحبة شعار العدالة ونصرة المستضعفين .

وقد تميّزت هذه الدولة منذ بدايتها بتقريب العنصر الفارسي الذي قامت على أكتافه الدولة . فصار البلاط العباسي يعج بالفرس من جند وكتبة ووزراء ، كما حاول العباسيون منذ بداية ملكهم التشبه بملوك الفرس وأكاسرتهم فاستخدموا نظام الحجابة ، وسكنوا القصور ، وانتقلوا الى الحواضر وما بناء بغداد بالقرب من المدائن عاصمة الاكاسرة إلاّ محاولة من العباسيين للتقرب من الفرس والتمثّل بملوكهم في كل الامور . من هنا بدأت الدسائس والمشاحنات بين العنصرين المتنافسين ، العربي الذي يرى نفسه صاحب السيادة لما له من فضل في نشر الاسلام ، والفارسي الذي يرى أنّ له الفضل في قيام الدولة العباسية ، ولكن لم تتضح جلية هذا الصراع في بداية

+ اعتمدت في دراستي حول قيام الدولة العباسية على عدة مراجع أهمها
1- ابن الاثير - الكامل - ج 3 - ص 235
2 - فان فلوتن - السيادة العربية والشيعة
3 - عزالدين اسماعيل - في الشعر العربي الرؤية والفن
4 - حسن الباشا - دراسات في تاريخ الدولة العباسية

أمره لما كان للخلفاء العباسيين الاوائل من سطوة وهيبة وسلطة طغت على كل الخلافات وغطتها . والامر الهام الاخر الذي سرعان ما انزاح وبدا للعيان جليا ما حاول العباسيون التستر وراءه للوصول الى غايتهم وهو العدل والشورى الى غير ذلك من وعود منها انصاف آل البيت اذ استبدل كل ذلك بالتسلط والاستبداد فالخليفة هو ظل الله في الارض له الامر والنهي لا يشاركه أحد في سلطانه(1) حتى أولئك الذين ساعدوهم في ارساء أسس خلافتهم ، وكان ذلك هو بداية النهاية كما يقال .

فما ان تسنم السفّاح سدة الخلافة عام 132 هـ حتّى بدأ بتصفية حسابهم مع جميع مناوئيهم ، أو حتّى من يشكوا في طموحاتهم السياسية ، فأقدم السفّاح على قتل أبي سلمة الخلال (2) داعي دعاة الدولة العباسية لما كان يشم في أفكاره من رائحة تشيع لآل البيت ـ علما بأن الدعوة العباسية كانت في بدايتها متستّرة تحت راية آل البيت والدعاية لهم بألفاظ يكتنفها الابهام والغموض وأهمها ذلك الشعار الذي مفاده "الدعوة في الناس باسم الامام الرضا من آل محمد " ولكن ما ان توطد الحكم لبني العباس حتى بدأت الابادة الجماعية للعلويين بعد أن تخلصوا من الامويين ، خاصّة بعد أن أفاق العلويون من غفوتهم وشعروا بالغبن الذي وقع عليهم بعد أن جعلهم العباسيون جسرا يعبرونه الى غاياتهم ، فاحساسا بألم الخديعة وعدم الرضا عما قام به العباسيون من خبث خرج محمد بن عبد اللّه بن الحسن (3) في المدينة سنة 145 هـ مطالبا بالخلافة

---

1) يروي ابن عبد ربه الاندلسي في العقد الفريد 99/4 خطبة لابي جعفر المنصور منها قوله " أيها الناس ، انما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ،وتشديده وتأييده ، حارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ،وأعطيه بإذنه .

2) راجع : الطبري ـ تاريخ الرسول والملوك 449/7

3) راجع : ابن قتيبة ـ المعارف ص 213 ، الطبري ـ السابق 7/ حوادث سنة 145 هـ .

فبايعه خلق كثير وعلى رأسهم فقيه المدينة الامام مالك بن أنس (1) كما عاضده أخوه ابراهيم (2) بالبصرة، فما كان من المنصور الا أن وجّه اليهما جيشا بقيادة عمه عيسى بن موسى فقضى على تلك الثورة في مهدها .

الا اننا يجب أن ندرك هنا بأنّ جميع ما قام بثورات شعبية طوال سنني الخلافة العباسية كان من تدبير الجناح الزيري . أمّا الشيعة الامامية فلم يظهروا العصيان أو الثورة على السلطان، بل تمسكوا بالتقية التي مكنتهم من نشر مذهبهم وعقائدهم حسب ما رسم له ذلك امامهم السادس جعفر بن محمد الصادق المتوفي سنة 148 هـ فلقد " حاول الشيعة الامامية أن يهادنوا السلطان فأظهروا اعترافهم ،تقية ، بلطته الزمنية"(3) . على أن محاربة المنصور للشيعة وأعمال السيف فيهم كان المسمار الاول الذي دقّه في نعش الخلافة العباسية ، اذ أثار عليه حنق العرب والفرس الموالين لآل البيت. ثم أن المنصور في مسيرته للتخلّص من مناوئيه اغتال أبا مسلم الخراساني (4) موسس دولتهم وباني مجدهم بعد أن لفق له من التهم ما لفق . وبطبيعة الحال كان لهذا الاغتيال أثره السيء في نفوس الخراسانية خاصة والفرس عامّة ، الاّ أنّ ذلك الاستياء لم يظهر في حينه لما للسلطة من قوة ، وهكذا نمضي مع خلافة محمد المهدي سنة 169 حيث اعتمد اعتمادا كليا على العنصر الفارسي وأطلق يده في تنظيم ادارة الدولة وحاول في ذات الوقت تعقب من سموا

---

1) راجع ابن قتيبة - المعارف ص 499 ، حسن العاني - سياسة المنصور ص 279 .

2) راجع : ابن قتيبة - السابق ص 213 ، الطبري - السابق حوادث سنة 145 هـ ، العاني - السابق ص 274

3) عبد الله فياض - تاريخ التربية عند الامامية ص 41

4) راجع : ابن قتيبة - السابق ص 377 ، الطبري ، السابق 7/ حوادث سنة 137 هـ ، العاني - السابق 126.

بالزندقة (1) واعمل في أعناقهم السيف، علما بأن هذا اللقب هو ذريعة السلطة للتخلص من كل معارض سياسة الدولة .

ويبلغ مجد الخلافة العباسية ذروته ابان عصر الرشيد الذي مكن البرامكة (2) الفرس من كل الامور وفوض لهم السلطة ولكنه سرعان ما عاد وفتك بهم لاسباب متعددة وذلك سنة 186 . فأحدثت النكبة ردتها العنيفة في نفوس النّاس عامّة لما لهذه الاسرة من ايادٍ حميدة على العلم والعدل وحب الخير . وعلى اثر ذلك العمل قامت الثورة في خراسان سنة 190 هـ ولم يتمكّن من القضاء عليها الا في سنة 192 (3) . وممّا قرب الوضع من تدهور الدولة العباسية وضعضعة أركانها ، ما ارتكبه الرشيد من خطإ سياسي فادح بتولية العهد (4) للامين ثم للمأمون من بعده مقدما الاصغر ، فاشتعلت بعد وفاته نار الفتنة بين الاخوين وانتهت بخراب بغداد ومقتل الامين (5) سنة 198 ، وتولّى المأمون فأصبح للفرس الكلمة العليا في عهده فانجسرت سلطة العنصر العربي تماما عن البلاط العباسي ،وامعانا في النكاية بالعرب اتخذ المأمون من خراسان عاصمة لملكه ، ثم انّه جعل من الامام علي بن موسى الرضا - امام الشيعة الاثنى عشرية الثامن (ت 198) - وليا لعهده (6) ، ارضاء لآل البيت

---

1) راجع : اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي 2/ 400 ، العماد الحنبلي - شذرات الذهب 2/ 257 ، اذ يتفق المصدران على تعقب المهدي للزنادقة ومحاولة استئصال شأفتهم . والزنادقة - كما ورد عند بن منظور في لسان العرب المحيط 2/ 31 - مفرد زنديق فارسي معرّب وهم القائلون ببقاء الدهر ، وتعني العامة بقول زنديق : ملحد دهري . وقد استغلّت تهمة الزندقة فيما بعد للتنكيل بكل معارض للسلطة العباسية وان لم يكن كذلك .

2) راجع : ابن قتيبة - السابق ص 382 ،الامامة والسياسة ص 199 ، العماد الحنبلي - السابق 1/ 311 .

3) راجع : الطبري - تاريخ الرسل والملوك 8/ 338 ،حسن الباشا - دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص 35 .

4) راجع : ابن قتيبة - المعارف ص 381 ،الطبري - السابق 8/ 275 .

5) راجع : ابن قتيبة - السابق ص 386 ،الطبري - السابق 8/ 478 المسعودي - مروج الذهب 3/ 420 .

6) راجع : ابن قتيبة - السابق 388 اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي 2/ 448 .

من العلويين ولشيعتهم في خراسان ، فأثار ذلك العمل حنق البيت العباسي عليه ومن وراءهم أهل السنّة ، ولقد حاول وزيره الحسن بن سهل ووالية على بغداد أن يستر تبرم البيت العباسي وغضب أهل السنّة على المأمون وإبقاء لولاية العهد في الامام الرضا ، ولكن الامام أبت نفسه ذلك ،فأطلع المأمون على الأمر ، فما كان منه الا أن بادر باصلاح الامر ، بالتوجّه الى بغداد ، واعادة الأمور وولاية العهد للبيت العباسي ، ولما كان الامام الرضا عقبة في طريق ذلك ، فلقد دسّ له من سمّه (1) تمكان له ما أراد .

وبعودة المأمون الى بغداد ، يدخل المعتزلة معترك الحياة السياسية رافعين شعار القول بخلق القرآن ، وتروق أفكارهم للمأمون ،ويتعدى الاعجاب بها اعتناقها ، وفرضها على عامّة النّاس ففي سنة 212 أصدر المأمون أمرا بالجهر بعقيدة خلق القرآن ،وأرغم جميع رجال الدولة والعلماء على القول بذلك ،وأخذ ينكّل بكلّ من لا يقر بما جاء به المعتزلة من أفكار كانت تدعو في أساسها الى انفلات العقل من ربقة القيود ،فانقلبت الى تسلط واستبداد وقسوة (2) ، ممّا زاد في تمزق الأمّة، اذ جابه أهل السنّة المعتزلة ووقفوا من آرائهم موقف المعارض الشديد المراس. وقد أدى ذلك الى استخدام المعتزلة اسلوب العنف لفرض آرائهم .

ولشدّة تبرم المعتصم سنة 218 من العنصرين العربي والفارسي فكّر في استقدام عنصر جديد للاعتماد عليه في توطيد أركان ملكه ، فكان له ما أراد في استقدام العنصر التركي (3)

---

1) راجع : المسعودي - مروج الذهب 4/5

2) راجع : حول خبر المحنة بالقرآن راجع : الطبري - السابق 8/حوادث سنة 218 هـ. العماد الحنبلي - شذرات الذهب 2/حوادث سنة 217 ففي هذه السنة "امتحن المأمون العلماء بخلق القرآن فأجاب أكثر العلماء على سبيل الاكراه" ومثل ذلك حدث في عهد المعتصم سنة 219 هـ وفي عهد الواثق سنة 230 هـ .

3) راجع : الطبري - السابق 9/18 ، حسن الباشا - دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص 48 وما بعدها .

الذي يمت اليه بنسب من أمّه ، وكأنّ الدولة محتاجة الى عنصر آخر يزيد من فتّ عضدها ويفوّض ما تداعى من أركانها ، وهكذا أضاف المعتصم بفعلته الطائشة تلك ، وبنقله عاصمة الخلافة من بغداد الى سامراء كارثة أخرى الى الكوارث التي تعانيها الخلافة من تمزّق وفرقة .

تسلّط العنصر التركي :

أخذ نفوذ الأتراك يزداد ويطرد حتّى بلغ حدا لا يمكن معه التصدي لسيلهم الجارف ولا يمكن معه أيضا اعادة الهيبة الى الخلافة ، حيث طاب لذلك العنصر البدوي عيش القصور والاغراءات المادية وحب التسلّط ،فأقصوا الخلفاء عن السلطة واستولوا على كل المقدرات . ولمّا حاول المتوكّل (ت 232) اعادة الهيبة للخلافة بطريق التخلّص من الأتراك ومن المعتزلة والتقرّب من السنة عمل السيف والتشريد في المعتزلة كما أخذ في مطاردة الشيعة حتّى لا تنمو قوتهم فيعاودون ثوراتهم ، لكنّه في محاولاته تلك كان أضعف من أن يتصدّى لقوة الأتراك المتنامية حيث كانت نهايته على يد ولي عهده (1) وبعض من ذويه وأقاربه بمساعدة الأتراك الذين بلغ بهم استبدادهم درجة تعيين الخلفاء وعزلهم وقتلهم متى شاءوا ذلك بحيث أصبح الخليفة موضع سخرية وتندر العامة لما آلت اليه الخلافة من ترد وانهيار ومن ذلك ما قاله أحد الشعراء في أبي العبّاس أحمد المستعين باللّه (2) (مجزوء الرجز)

خليفةٌ في قفصٍ بينَ وصيفٍ وبَغَا
يقولُ ما قالا لهُ كما تقولُ الببغَا (3)

---

1) الحنبلي - شذرات الذهب ج 2 - 114

2) السابق - ج 2 - ص 124

3) احمد أمين - ظهر الاسلام ج 1 - ص 11

ومن سخريات القدر انه بعد موت الخليفة السابع عشر المكتفي 289 هـ يعقد أعيان الدولة مشاورة فيما بينهم لتنصيب الخليفة الجديد(1)فيشير بعضهم بتنصيب عبد اللّه بن المعتز (ت 296 هـ) ولكن البعض الآخر يجد في ذلك حدا من سلطتهم فيعولون على تنصيب جعفر أخي المكتفي وكان حدثا لقبوه بالمقتدر ، الا أنّ أمر التنصيب ذلك لم يمر بسلام ، فأخذ البعض يدبّر المكائد لابطال تلك البيعة وقد تحقّق لهم ذلك حين نصبوا ابن المعتز خليفة. الامر الذي لم يرض عنه التركيان مؤنس الخادم ومؤنس الخازن فعاد الامر ثانية الى المقتدر ففتك بابن المعتز وجميع من ناصره ، ويستمر تسلّط الاتراك على مقدرات الخلافة حتّى الثلث الاول من القرن الرابع، ففي سنة 333 هـ يخلع توزون التركي الخليفة المتقي باللّه ويدخله بغداد مسمولا في مكيدة دبرها له (2) .

ويأفل نجم القرن الثالث وتتحول الامبراطورية الاسلامية الى أشلاء ممزقة وتسقط هيبة الخلافة في حين لم يبق منها سوى الاسم أو اللقب الذي يسمح به الاتراك أو الموالي بعد أن يختاره الخليفة لنفسه . يسيطر الامويون على الاندلس وتصبح بلاد المغرب العربي من نصيب الادارسة وبعض قبائل البربر والفاطميين ، ويئول حكم مصر والشام الى كل من الاخشيديين ومن ثم الى الفاطميين ، ويمتلك الحمدانيون الموصل وحلب ، أمّا العراق فتكون تحت امراة الاتراك والحمدانيين والبويهيين ، ويتخذ الصفاريون ثم السامانيون من فارس منطقة لنفوذهم ، أمّا جرجان فيستولي عليها الزياريون ، ويؤول حكم

---

1) مسكويه - تجارب الامم ج 1 - حوادث سنة 295

2) مسكويه - تجارب الامم ج 2 - حوادث سنة 333

ابن الاثير - الكامل ج 7 حوادث سنة 333

الحنبلي - شذرات الذهب ج 3 حوادث سنة 333

كردستان الى الحسنويين ، أمّا منطقة جنوب فارس فتكون من نصيب البويهيين اما الخليج فيخضع لحكم القرامطة، كما يتأرجح حكم الحجاز بين البويهيين والفاطميين والقرامطة ومن الملاحظ ان هذا التصدع كانت بداياته الفعلية في النصف الثاني من القرن الثالث ،الا ان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى ان اول من أتاح فرصة الانفصال عن الخلافة وقيام دولة مستقلّة في جسم الامبراطورية الاسلامية هو الخليفة المأمون حين تغاضى عن عمل قائده طاهر ابن الحسين باستقلاله باقليم خراسان (1) .

- تسلّط البويهيين على الخلافة العباسية :

يئس الخلفاء من محاولة الافلات من ربقة الاتراك الذين كانوا لهم بالمرصاد تجاه ايّة حركة ينوون القيام بها فرضخوا لاستبدادهم . والحقيقة التي يجب ان يشار اليها في هذا الموضع أنّ من أهم الأسباب التي مكّنت الاتراك من التسلّط سوء تدبير البيت العباسي حين كانوا يحيكون الدسائس لبعضهم ممّا أدّى الى بقاء الخلفاء ومقدرات الخلافة تحت رحمة الاتراك حتى سنة 334 حين تمكّن بنو بويه من التغلّب على العراق والاستيلاء على بغداد وحول ذلك يقول عبد الغني حسن " يتميّز القرن الرابع الهجري - فيما يتميّز به من أحداث جسام - بظهور دولة بني بويه التي بدأت في العراق سنة 334 هـ ، حيث نزع رجالها السلطة الحقيقية من أيدي خلفاء بني العبّاس ووضعوها في أيديهم. وأصبح الخليفة العباسي لا يزيد على رئيس ديني لا أمر له ولا نهي ولا كلمة مسموعة وانما الأمر كله بيد السلطان من بني بويه" (2) .

---

1) الحنبلي - شذرات الذهب - ج 2 - ص 16

2) محمد عبد الغني حسن - الشريف الرضي - ص 6

والحقيقة ان الخلفاء العباسيين قد فقدوا سلطانهم السياسي قبل دخول البويهيين بزمن طويل . ولقد سبق الاتراك الى ذلك حيث استأثروا بالالقاب الفخمة ومثلوا بالخلفاء الامر الذي جعل الخلفاء أنفسهم يمهدون لدخول بني بويه . وهذا بطبيعة الحال لا يبرر ساحة بني بويه ويجعلها خلوا من التهم الموجهة اليهم ولكن الحقيقة ان الامراء البويهيين ابتدأوا في معاملتهم للعباسيين بالاحترام والتقدير اذ " أظهر المكتفي باللّه سرورا بموافاة الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه وأعلمه أنّه انما استتر من الأتراك لينحل أمرهم فيحصل الأمر للأمير أحمد بن بويه بلا كلفة " (1) وبعد تفاهم بين الخليفة العباسي والأمير البويهي تعهد خلاله كل منهما بالوفاء للآخر " لبس الأمير الخلع وكني ولقب بمعز الدولة ولقب أخوه أبو الحسن علي بن بويه بعماد الدولة وأخوه أبو علي الحسن بن بويه بركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم " (2) . استطاع البويهيون الوصول الى مأربهم بسهولة لان الأرض كانت ممهدة لهم حيث تنازل الخليفة عن الكثير من سلطاته لهم بمحض ارادته فأطمعهم ذلك التساهل من جانب الخليفة في ابتزاز ما أمكنهم ابتزازه ، خاصّة وأنهم شيعة لا يؤمنون بشرعية خلافة بني العباس . ولكن لا اخالني مخطئا في اعتقادي ، بأنّ الندم كان يحالف معز الدولة بن بويه لو أنّه نفذ ما عزم عليه حين " استشار جماعة من خواص أصحابه في اخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين اللّه العلوي ،

---

1) مسكويه - تجارب الامم ج 2 - حوادث سنة 334 ، ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 7 حوادث سنة 334.

2) نفس المصدرين .

أو لغيره من العلويين ، وكلهم أشار عليه بذلك الا بعضا من خواصه فانّه قال له : ليس هذا برأي ، فانّك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنّه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه "(1) اذ أنّ البويهيين بعد أن توطدت سلطتهم في بغداد عادوا لممارسة ما كان يمارسه الأتراك من ضغط وجبروت اذ لم يكفهم " الاستبداد بالسلطة دون الخلفاء ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فشاركوهم في شارات الخلافة التي تمثل سلطتهم السياسية فصارت أسماؤهم تذكر مع اسم الخليفة في الخطبة منذ عهد عضد الدولة ولم تجر بذلك عادة الأمراء الذين تقدموه " (2). لذا فقد لا نوافق من يجعل تشيع البويهيين السبب المباشر لسوء معاملتهم لخلفاء بني العباس (3) اذ لو كان التشيع هو السبب ، لما ترددوا عن خلعهم واقصائهم خاصّة وان البويهيين كانوا في أوج قوتهم وعظمتهم بالاضافة الى ما سيحصلون عليه من دعم ومساندة من الامارات الشيعيّة التي كانت تحوطهم فيما لو أقدموا على مثل تلك الخطوة ولكنهم في حقيقة الأمر لم " يكونوا جادين في تشيعهم " (4) . لذا فإنّ سبب معاملتهم السيئة للخلفاء العباسيين هو لما كان يكمن في نفوسهم من حب للسلطة والملك ليس غير وذلك حتّى يمكنوا نفوسهم من شهواتها ، حتى ولو كان ذلك على حساب مصير الأمّة .

---

1) مسكويه ـ تجارب الامم ج 2 حوادث سنة 334 ، ابن الأثير ـ الكامل ج 7 حوادث سنة 334.

2) الزبيدي ـ العراق في العصر البويهي ص 38

3) يقول الزبيدي في كتابه (العراق في العصر البويهي ص 38) "ان من أسباب سوء معاملة البويهيين لخلفاء بني العباس تعصبهم للشيعة".

4) عبد الرزاق محي الدين ـ أدب المرتضى ص 115.

فأمر استبداد البويهيين يعود في حقيقته الى حب التملك والافتتان بالسلطة، ولولا ذلك لما نشبت الحروب بين البويهيين والحمدانيين الشيعة ولما حاول بعض ملوك بني بويه سجن بعض العلويين ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم . فالبويهيون في سبيل الوصول الى السلطة ركبوا كل الغايات وقاوموا بكل قوة ووحشية من حاول التصدي لهم فمن ذلك خلعهم للمستكفي بعد سمله حين حاول مقاومة استئثار بني بويه بالسلطة كلها .

وهناك نقطة اخرى حول سياسة البويهيين تجاه خلفاء بني العبّاس تتمثّل في مصاهرة الخلفاء للبويهيين ،فبعض المؤرخين المحدثين يقصرون ذلك العمل على اعتزاز وافتخار البويهيين به (1) ، ولكنا نعتقد أنّ نظرة البويهيين لمثل ذلك لم تكن من البساطة بحيث يقصرونها على الاعتزاز والافتخار ، فطموحاتهم السياسية أبعد عن ذلك بكثير. فتزويج آل بويه لبناتهم من الخلفاء كان في كثير من الأحيان بضغط من البويهيين أنفسهم ، وموافقة الخلفاء على ذلك عادة ما تكون لاتقاء شرهم ودرء الخطر عن نفوسهم بالتقرب اليهم بالمصاهرة ،أمّا ما يرمي اليه آل بويه من وراء ذلك فيكمن في أمرين أساسيين أولهما ما أظهره ابن الأثير بقوله " تجددت وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة فتزوج الطائع ابنته ، وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب " (2). أمّا الأمر الثاني فيتمثّل في جشع بني بويه وحبهم للمال واتباعهم شتّى الطرق لاستحصاله. فاذا لم يجدوا على الخليفة هفوة أو غلطة تبيح لهم مصادرة أمواله يلجأون الى أساليب أخرى منها تزويج بناتهم بأغلى المهور .

---

1) يقول حسن الباشا في كتابه "دراسات في تاريخ الدولة العباسية" ص 93 "كان بنو بويه يعتزون بمصاهرة الخلفاء العباسيين فتزوج الخليفة القادر في سنة 383 هـ من سكينة ابنة بهاء الدولة على صداق قدره مائة الف دينار ،وتزوجت اخت الملك الرحيم من الخليفة القائم".

2) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ج 7 حوادث سنة 369 هـ .

ولكن ذلك لا يعني تغاضي البويهيين عن الخلفاء حتى ولو لم يجدوا عذرا لذلك ، اذ أنهم وفي سبيل المال يهاجمون قصور الخلفاء بسبب أو بدون سبب ومن ذلك أنّه " كان أبو الحسن المعلم - بئس القرين هو - قد كثّر عند بهاء الدولة مال الطائع وذخائره وأطمعه وهوّن عليه أمرا عظيما وجرأه على خطّة شنعاء فقبل منه وقبض عليه " (1) وكان ذلك يوما مشهودا حيث انتهك الخليفة وجميع من في مجلسه من الأعيان وكان من بين اولئك شاعرنا الشريف الرضي الذي تمكّن من الفرار وسجل ذلك الموقف المأسوي فقال من قصيدة : (البسيط)

من بعد ما كان رب الملك مبتسما
الىّ ، أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه
لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني
يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني (2).

وبحكم ذلك الاستبداد المتسلّط لم يبق بيد الخليفة سوى نفوذه الديني الذي تمسّك به واعتبره السلاح القوي الذي يقاوم به استئثار البويهيين بالسلطة .

- الخلاف داخل البيت البويهي وآثاره السياسية :

استخدم البويهيون أبشع أساليب العنف والمصادرة تجاه مناوئيهم من ذوي النفوذ في الدولة وقد زادهم طغيانا تلك الانتصارات المتلاحقة التي تمكنوا من تحقيقها ابّان

---

1) راجع : ديوان الشريف الرضي 2/444 ، الروذراوري - ذيل تجارب الامم ج 3 ،ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج 7 ، العماد الحنبلي - شذرات الذهب ج 3 حوادث سنة 381 هـ.
2) الشريف الرضي - الديوان 2/444 -

فتوة دولتهم. فكانت تلك الانتصارات حافزا لهم في طلب المزيد . فعضد الدولة البويهي - ذلك الملك (1) الذي يحدثنا التاريخ عن مشروعاته العمرانية العظيمة (2) التي أعادت الى بغداد بهاءها بعد أن كادت الفتن والثورات المتلاحقة تطمسها . وسهره على الأمن الأمر الذي جعل النّاس في اطمئنان على أرواحهم وأموالهم . وحبّه للعلم والعلماء الذي ساعد على فتح المدارس والمكتبات في أيامه - لم تكن نفسه لتخلو من قسوة وجبروت يتمثّل في قوله : (الرمل)

عضدُ الدولةِ وابنُ ركنِها
ملكُ الأملاكِ غلابُ القدرْ
سهّلَ اللّهُ لهُ بغيتَهُ
في ملوكِ الأرضِ ما دارَ القمر (3)

وعضد الدولة هذا كان لا يتسامح مطلقا مع مناوئيه من الأمراء حتى ولو طلبوا الأمان وحاولوا ارضاءه والدخول في طاعته . فممّا يحكى عنه في ذلك ، أنّه لمّا دارت الحرب بينه وبين ابن عمّه بختيار وقف أبو تغلب

---

1) يقول صاحب شذرات الذهب في 2/78 ان عضد الدولة" أول من خوطب بـ (شاه نشاه) أي ملك الملوك وهو أول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة " ويؤيد ذلك ما ورد في ذيل تجارب الأمم من تلقيب عضد الدولة بالملك اثناء عرض سيرته في 3/39 وما بعدها . وقد ذكر ذلك المتنبي اثناء مدحه له في قصيدة منها قوله (المنسرح)

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

البرقوقي - شرح ديوان المتنبي 4/409

2) راجع : مسكويه - تجارب الامم 2/ حوادث سنة 369 ،الزبيدي - العراق في العصر البويهي ص 41

3) الثعالبي - يتيمة الدهر - 2/218.

الحمداني بجانب ابن عمّه في تلك الحرب ولكنّه سرعان ما عدل عن ذلك وحاول اصلاح نفسه فالتمس الأمان من عضد الدولة فكان جوابه على ذلك الالتماس : (كامل)

أأفاقَ حينَ وطئتُ ضيقَ خناقِهِ
يبغي الأمانَ وكان يبغي سارِمَا
فلأركبَنَّ عزيمةً عضديّةً
تاجيةً تدعُ الأنوفَ رواغِمَا (1)

ومن عاداته انه لا يثق بأحد من أهله وذويه على الاطلاق اذ " لم يكن يتمتّع بثقة عضد الدولة مع قلّة ثقته وشدة تجبره وقوته على رعيته - الا غلام خصي أسود يسمى شكرا ، فقد كان مستوليا على جميع أموره ، ولم يكن أحد من أولاده يقدر على الدخول اليه في علته مع تطاولها . وقد استشعر ابنه الأكبر شرف الدولة أن أباه قد مات ، وان شكرا يكتم ذلك ، فهجم ودخل الموضع الذي فيه أبوه ، وكان حيّا ، فاستوحش عضد الدولة من ولده ونفاه الى كرمان "(2) . وقد انتحر وزيره المطهر بن عبد اللّه خوفا من بطشه وذلك بسبب التياث الامر عليه في القضاء على أحد أعدائه .

وبسبب خلافات البيت البويهي لم يتمكن العراق من الاستقرار طيلة عهدهم الا في فترات متقطعة اذ كانت طموحاتهم في الاستيلاء عليه وعلى بغداد خاصة قطب الرحى في الحروب التي دارت بين أفراد الأسرة الحاكمة ويطول بنا الحديث لو أردنا تفصيل ذلك . فمن الحروب التي ابتليت بها العراق وبغداد خاصّة في العصر

---

1) الثعالبي - يتيمة الدهر ج 2 - ص 21 ، مسكويه - تجارب الامم ج 2 - حوادث سنة 367 .
2) آدم متز - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج 2 ص 163 .

البويهي تلك التي اشتعلت بين عضد الدولة وابن عمّه عز الدولة وانتهت باستيلاء عضد الدولة على العراق فجعل قاعدة ملكه بغداد وذلك بين عامي 365 - 366 هـ (1) . والحرب التي تطاحن فيها جيشا الاخوين صمصام الدولة وشرف الدولة وكانت نتيجتها في صالح شرف الدولة الذي تمكّن من الاستيلاء على بغداد سنة 377 هـ (2) ، ومنها الحرب التي نشبت بين بهاء الدولة وابن أخيه فخر الدولة وانحسمت في صالح بهاء الدولة سنة 379 هـ (3) وهكذا استمرّ البويهيون في تطاحنهم ومحاربة بعضهم بعضا كل ذلك في سبيل السلطة والهيمنة على الخلافة المهترئة ولقد حاول الصابي تصوير بني بويه في تطاحنهم من خلال رسالة كتبها على لسان بختيار لابن عمّه عضد الدولة منها " وان من أعظم محن هذا البيت ، أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن توتى مراسي أوتاده عن ذوائب عروشه ، وان تدبّ بينهم عقارب الشاحنة ، وتسري اليهم أراقم المناقشة ، وتنبث الدواهي فيهم من ذواتهم ، وقد كانت محسومة من أضدادهم وأعدائهم " (4) .

لقد استشرى داء التسلّط في النفوس فلم يترك مكانا لعاطفة الحب والاخوة ، فالاخ معزز ومكرم مادام بعيدا عن السلطة أمّا اذا حاول ذلك فهو عدو لدود يجب التخلّص منه . فهاهو تحرير خادم شرف الدولة يشير

---

1) مسكويه - تجارب الامم ج 2 - حوادث سنة 365 و 366 ، ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج 7 - حوادث سنة 365و366

2) الروذراوري - ذيل تجارب الامم ج 3 - حوادث 376 و 377 هـ . ابن الاثير - الكامل ج 7 حوادث 376 و 377 هـ .

3) السابقان - حوادث سنة 379 هـ .

4) الثعالبي - يتيمة الدهر ج 2 - ص 250

عليه " بقتل اخيه صمصام الدولة وسمله فامتثل لذلك فسمل أخاه " (1) كل ذلك في سبيل الاستيلاء على العراق والسيطرة على بغداد ذلك الحلم الذي كان يراود جميع مغامري القرن الرابع من الامراء البويهيين والاتراك والحمدانيين وغيرهم من ذوي حب التسلّط والملك. يقول تاج الدولة أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة ممنيا نفسه بالاستيلاء على بغداد (مجزوء الرجز)

أفكرُ في بني أبي ... وفعلِ بعضِ اخوتي
تظنُّ أنّي أحملُ الضَيم ... فابنَ هِمّتي
تقنعُ بالاهوازِ لي ... وواسطٍ والبصرةِ
لستُ بتاجِ الدولةِ ... سليلُ تاجِ الملّةِ
إن لمْ تزُر بغدادَ بي ... عما قليلٍ كبتي
وعسكر عرمرم ... يملكُ كلّ بلدةِ (2)

تلك هي حال اسرة بني بويه المسيطرة على مقاديـر العراق في القرن الرابع ، فلا استقرار ولا عدل اجتماعي في كنفها الا في فترات متقطعة وحالات نادرة لان الاضطراب والفوضى عمت كل أمر من أمور الدولة واستشرت الرشوة وحب المركز في نفوس النّاس وانعكس ذلك الوضع السيء بكل ما فيه من عيوب على دواوين الدولة ووزاراتها ، فأربك تلك الادارة وأدّى بها الى سلوك الطرق المعوجة بعد أن انخزل النظام .

ـ الوزارة في العهد البويهي
==========

حينما يتحدث مؤرخو الأدب عن وزراء آل بويه في القرن الرابع الهجري ، لا يكادون يذكرون سوى الوجه

---

1) الروذراوري ـ ذيل تجارب الامم ـ ج 3 ص 379 . ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج 7 ص 138 .

2) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ ج 2 ص 219

المشرق لذلك المركز الخطير متغاضين عما يسببه ذلك المركز من أرباك في ادارة أمور الدولة ممّا يؤدّي في معظم الأحيان الى انعكاسات خطيرة على حالة النّاس عامّة والطبقة الفقيرة بوجه الخصوص. فاذا استثنينا وزارة الوزير المهلبي (ت 352 هـ) ووزارة ابن العميد (ت 360 هـ) ووزارة الصاحب بن عباد فاننا سنجد أنّ منصب الوزارة أصبح في معظم الاحيان موضع مساومات الطامحين الى الشراء من المتنافسين ففي عام 366 هـ " تجدد لابن بقية طمع في أن يخطب الوزارة ويبذل لبختيار ثلاثمائة ألف دينار يصححها من جهات كتابه وأسبابه وذويه ومن بقايا في النواحي وأن يردّ الى مرتبته " (1). فالطامح في منصب الوزارة ، يقدّم من المال الى الأمير أو الملك البويهي ما يشبع جشعه ،ويساعده في ذلك حاشيته من المنتفعين. فاذا ما تولّى المركز وحصل على بغيته شرع في جمع أضعاف أضعاف ما بذله عن طريق المصادرات والنهب وارهاق عامّة النّاس بالضرائب ،ممّا جعل الوضعين الاقتصادي والاجتماعي يتردیان الى الحضيض. وليت الامر كان مقصورا على بيع منصب الوزارة على واحد فقط ،ولكن الذي يثير الدهشة والاستغراب هو جعل رجلين (2) في منصب الوزارة يؤدّي كليهما نفس المهام ، وليس ذلك الاّ من أجل المال همّ السلطان الوحيد . فأصبح مثل ذلك العمل حديث العام والخاص في المجتمع البغدادي ،فمنهم من

---

1) مسكويه - تجارب الامم - ج 2 - حوادث سنة 366 هـ .
ابن الاثير - الكامل - ج 7 - حوادث سنة 366 .

2) في أمر التنافس على منصب الوزارة وبذل الاموال في سبيل الوصول اليها راجع : الروذراوري - ذيل تجارب الامم - 263/3 وما بعدها .

يستحسنه ومنهم من يستقبحه وقسم ثالث يرى أنّ المال خادم للعز والمركز والعاقل من يبذله في سبيل ذلك ومن اولئك الشريف الرضي الذي يقول (مجزوء الرمل)

اشترِ العزّ بما بيعَ فما العزُ بغالِ
بالقصارِ الصُفرِ إنْ شئتَ أو السُمرِ الطوالِ
ليس بالمجنونِ عقلاً مَنْ شرى عِزّاً بمالِ
انما يُدّخرُ المالُ لحاجاتِ الرّجالِ
والفتَى مَنْ جعلَ الأموالَ أثمانَ المعالي (1)

هذا وقد سرى بيع المراكز على معظم وظائف الدولة السامية ،حتّى نقابة الاشراف لم تسلم من المساومة وبذل المال الوفير في سبيل الحصول عليها . وللشريف الرضي موقف آخر تجاه من بذل المال للحصول عليها . فبينما هو يؤيّد الوزير لما بذله يعود ثانية لهجاء من بذل المال في سبيل النقابة وقد عزل منها سنة 384 (2) لتكون لذلك الذي اشتراها بماله . يقول في هذا الموضع : (الوافر)

اذا خلتِ المنازلُ للمولّي
فيا سُرعان ما عُزِلَ المولّى
وبينا أنْ يقولوا قد تملّى
بها ، حتى يقولوا ما تملّى
بمالكِ نلتَهَا وكفاكَ عاراً
فألا نلتَهَا بالمجد ألاّ (3).

---

1) الشريف الرضي - الديوان 2/244

2) السابق - 2/242 - حيث ينعى الشريف في هذه القصيدة من تقلد النقابة باذلا في سبيلها المال بينما تخلّى عنها هو زهدا فيها .

3) الشريف الرضي - الديوان 2/242 ، 243.

ومن الأمور الغريبة حقّا ، أنّه مهما بذل الوزراء من طاعة واخلاص في سبيل ارضاء ذوي السلطان من البويهيين ، فانهم لم يسلموا من طائلة عقابهم ومصادرة أموالهم والتقليل من قيمتهم بتوجيه الاهانات اليهم . فالوزير أبو محمد المهليي خدم سيده معز الدولة ثلاثة عشر عاما كرسها لتثبيت دعائم الملك . ولكنّه خلال تلك الأعوام لم يسلم من الاهانات التي كانت تصل في بعض الأحيان الى التقريع والضرب (1) ولما مات صادر معز الدولة جميع أمواله ومدخراته ونكل بأهله وأصحابه وجردهم من أموالهم وأملاكهم (2) . كما أن خدمة الصاحب بن عباد واخلاصه له في تثبيت دعائم ملكه وبذل النصيحة له قبل موته حتى لا يخرج الأمر من يده في كل ذلك لم يشفع له عند مولاه فخر الدولة . فما ان أدركته الوفاة حتّى أرسل الملك البويهي الى بيته من يحصي أمواله ويتحفّظ عليها (3) . هذا من ناحية علاقة البويهيين بوزرائهم فما هي علاقتهم بالأتراك أصحاب النفوذ السابق ؟

ـ علاقة البويهيين بالأتراك

لم يكن اعتماد البويهيين مقصورا على الفرس حين دخلوا العراق . فقد كانوا يتوجسون خيفة منهم ممّا جعلهم يعتمدون على العنصر التركي للاستفادة منه في اخضاع الفرس والديلم اذا حدثتهم نفوسهم بالثورة والعصيان وليأمنوا شرهم في نفس الوقت ، ممّا أدّى الى

---

1) راجع مسكويه ـ تجارب الامم 2/145 ، 146 .

2) السابق 2/352 وما بعدها ، آدم متز ـ الحضارة الاسلامية 1/58 .

3) الروذراوري ـ ذيل تجارب الامم ـ ج 3 ـ ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 7 ـ حوادث سنة 385 .

انقسام الجيش البويهي وعدم مجانسة عناصره حيث أصبحت كل طائفة " تتعصب لجنسها ، وتضمر العداء لغيرها " (1) وقد نتج عن ذلك التعصّب نشوب المعارك بين الأتراك والديلم (2) ممّا تسبّب في الفتن العظيمة بين طائفتي السنة والشيعة . فأصبحت العراق كالسفينة القديمة التي أصابها العطب في لجة بحر زاخر العباب . اذ لا يكاد ركابها يصلحون جانبا حتّى يدخلها الماء من الجانب الآخر . فما تكاد تخمد فتنة بختيار وأصحابه (3) حتّى تشب فتنة اخرى بين بختيار وسبكستكين التركي (4) وثالثة بين بهاء الدولة والترك من جهة والديلم وابن بختيار (5) من جهة اخرى اذ " لم تدع هذه الجبهات المتصارعة والأطراف المتنازعة ، مجالا للهدوء في العراق وبغداد فلا يكاد يمرّ يوم دون فتنة تحدث ،أو شغب يقع " (6) فأتاح ذلك الانشغال بالامور الداخلية لاعداء الاسلام أن يعيثوا في الأرض فسادا فهاجم الروم بلاد الاسلام واستولوا عليها وتمّ لهم ما أرادوا " باشتغال ملوك الاسلام بعضهم ببعض فدوخوا البلاد

---

1) احمد أمين - ظهر الاسلام 1 / 120

2) الديلم - جيل العجم كانوا يسكنون نواحي أذربيجان - المعجم الوسيط 1 / 294

3) مسكويه - السابق 2 / 235

4) السابق 2 / 318 وما بعدها .

5) السابق 2 / 312 وما بعدها .

6) - عبد الغني حسن - الشريف الرضي ص 7

وكان قد بنى (ملك الروم) أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه فيضعف البلاد فيملكها " (1).

ولم يكف العراق ما ابتلي به من نكبات سياسية تمثلت في خلافة بالية مهترئة وملوك طفاة ، ووزراء جشعين وخلاف مستمرّ بين أتراك وديلم ، لم يكفه كل ذلك حتى أصبح عرضة لهجمات القرامطة طيلة العهد البويهي ، ففي سنة 375 (2) احتلّوا الكوفة وأقاموا فيها الخطبة لشرف الدولة ممّا أوقع الرعب الشديد في قلوب النّاس. وتغليبا للمصلحة الخاصّة هادنهم البويهيون واجتهدوا في ارضائهم ومسالمتهم " حتى ان عضد الدولة وعز الدولة قبله اقطعاهم اقطاعات براسط وشقي الفرات فكانت مآربهم تقضى ومطالبهم تحضى وابو بكر بن شاهويه صاحبهم يجري بالحضرة مجرى الوزراء في حاله والاصفاء من الملوك راجع الى أقواله وأكابر النّاس يخشونه محتملين لكبره منقادين لأمره ولا سبب الاّ اعتزاؤه الى هؤلاء القوم " (3).

تلك هي حالة العراق سياسيا وقد ركزنا فيها على البيئة التي عاش فيها الشريف الرضي . وقد انعكس هذا الوضع المتردّي على الأمور الاقتصادية مسببا أزمات حادّة فكيف كان ذلك ؟

---

1) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج 7 - ص 38 وحول هجمات الروم على البلاد الاسلامية وما ألحقوا بها من دمار وتقتيل وتشريد . راجع أيضا :: الحنبلي - شذرات الذهب - ج 2 ص 374 و 376 - ج 3 ص 7 ، 26 ، 27 ، 28 ، 29

2) الروذراوري - ذيل تجارب الامم ج 3 - حوادث سنة 375. ابن الاثير - الكامل ج 7 - حوادث سنة 375

3) الروذراوري - ذيل تجارب الامم - ج 3 - ص 109

2) الحالة الاقتصادية

كان للحالة السياسية المتدهورة التي عاشها العراق في القرن الرابع الهجري آثارها السلبية الخطيرة على اقتصاد البلاد حيث تسببت في أزمات اقتصادية مردها عدم تفريق الخلفاء والأمراء والحكام والوزراء بين أموالهم الخاصة وأموال الدولة المتمثلة في بيت مال المسلمين ممّا جرّ البلاد في كثير من الأحيان الى هاوية الافلاس فتعطلت المشاريع الحيوية التي تلبّي حاجات الأمّة وكسدت التجارة وهلك الزرع وعاشت الطبقات الفقيرة تحت طائلة الجوع والمرض ممّا حتّم على كثير من اولئك الفقراء انتهاج جميع السبل غير الشرعية من سرقة وبغاء وتصعلك في سبيل الحصول على ما يبلغ كفاف العيش . فالمتأمّل في توزيع ثروات ذلك العصر يلاحظ انها لم تخرج عن نطاق الخلفاء والملوك والوزراء وقادة الأتراك ورؤساء الجند وأمراء الأقاليم وغيرهم من الاشراف أو من يتصلون برجالات الدولة من متطفلين أو جواسيس أو قضاة جعلوا من الدين متجرا في سبيل ارضاء السلطان وتثبيت شرعية ملكه . ولما كان الاقتصاد مركّزا في أيدي ذوي النفوذ فلقد ارتأينا دراسته عن طريق النقاط التالية :

1) الخليفة وبيت المال

2) موقف الأمراء والملوك والوزراء من تصرف الخليفة

3) أموال خزانة الدولة في القرن الرابع

4) وسائل آل بويه في تنمية ثرواتهم

5) المال وأثره في حياة عمال الدواوين

6) الحالة الاقتصادية وأثرها على الحالة الاجتماعية

1) تصرف الخليفة في بيت المال :

انّ النظرية التي قال بها العباسيون والتي فحواها في أنّ الخليفة هو ظل اللّه في الأرض (1) اعطت خلافتهم صبغة شرعية لجعل جميع شؤون الدولة تحت سلطتهم المباشرة (2) وهذا ما جعل الخلفاء لا يفرقون بين ثرواتهم الخاصّة وما يدخل بيت المال من أموال تجيء من سائر أطراف الدولة الاسلامية . فكان الخليفة العباسي يتصرّف في تلك الأموال كما يشاء (3) دون محاسبة من أحد على الرغم من وجود نظام اداري متطور استحدثه البرامكة . ولكن خلفاء بني العبّاس الأوائل رغم اسرافهم وضعوا معظم ما أنفقوه من مال في مكانه ، حيث شرعوا في بناء عاصمتهم بناء حديثا يتناسب وما كانوا يطمحون اليه من سمو ورقي وأبهة ، فكانت بغداد (4) المنصور أعظم مدن العالم وأجملها وأغناها واستمر هذا التقدم وذلك العمران ينموان بتزايد نفوذ العباسيين واخلاصهم في بناء دولتهم فبنيت القصور ونهضت الزراعة وسادت المشاريع العمرانية جميع أرجاء الامبراطورية وشجع العلم ونشطت ترجمة العلوم بفضل اغداق الاموال عليها . ولكن برغم الاسراف فقد كانت خزانة الخلافة عامرة بالاموال . واستمر ذلك الحال حتى عصر المعتصم الذي كلّف الخزانة أموالا طائلة لبناء عاصمة جديدة له ولاتراكه الذين بذل في سبيل

---

1) راجع : حاشية ص 4 من هذا البحث

2) نكلسن : تاريخ الادب العباسي ص 25

3) العاني : سياسة المنصور أبي جعفر - ص 452 - 453

4) السابق : ص 347 وما بعدها .

جلبهم من بلاد ما وراء النهر وتدريبهم وتربيتهم المال الكثير . منذ ذلك الوقت أخذ الوضع المالي يتردى حتّى جاء عصر المقتدر الذي ولّي الخلافة وهو حدث (1) فأصبحت مقدرات الدولة في يد قهرمانات القصر والموالي من الأتراك والمنتفعين من الوزراء (2) فأتاح ذلك الوضع للجميع التصرف في أموال الخزينة بلا رقيب أو حسيب ممّا أتاح للمقتدر أن يتلف " نيفا وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في موضعه وأخرجه في وجوهه وهذا أكثر ممّا جمعه الرشيد " (3) .

ولما كان المقتدر في حاجة دائمة للمال وكان عليه أن يرضي حاشية القصر من أتراك وقهرمانات حتّى يمكن لنفسه من المركز اتبع أسلوب المصادرة . فصادر وزيره ابن الفرات ثلاث مرات ، بعد كل وزارة يعزل منها ثم اتبع الاسلوب ذاته مع جميع رجالات القصر والوزراء وبعض أعيان البلاد والتجّار (4) علما بأنّه لمّا تقلد الخلافة كانت محتويات الخزينة أربعة عشر ألف دينار (5) ، وهو مبلغ ضئيل اذا ما قورن باحتياجات الدولة ، فالرشيد رغم اسرافه وبذخه خلّف في بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار وهو أكبر مبلغ تركه خليفة عبّاسي لبيت المال (6) .

---

1) راجع : مسكويه - تجارب الامم ج 1 ، الطبري - تاريخ الرسل والملوك ج 10 : حوادث سنة 295 هـ .

2) راجع : مسكويه - السابق ج 1 ، ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج 7 : حوادث سنة 295 هـ .

3 ، 4 ، 5 ، 6) راجع : مسكويه - السابق 1/238 - 239 ، 240 ، 243 .

اتفق الأتراك - بعد مقتل المقتدر - على مبايعة القاهر باللّه سنة 320 هـ ،الذي وجد خزانة الدولة خاوية ، وكان عليه أن يدفع ضريبة المركز لأصحاب الفضل من الأتراك فلم يجد بدا من " دعوة أم المقتدر وتقريرها بالرفق والتهديد حتّى تعترف بما لديها من مال ، وقد ضربها بيده وعلقها بغرد رجل وأسرف في ضربها على المواقع الفامضة من بدنها ولم يراع احسانها له لمّا كان معتقلا عند المقتدر ورغم ما لاقته من تعذيب فانها لم تعترف الاّ بما اعترفت به من مال وملابس أثناء محادثته اياها بالطيب وصادر كل تلك الأموال وسلمها لمؤنس الخادم " (1) ومن ثم صادر أموال جميع أبناء المقتدر وأخذ في تتبّع أتباعه وأنصاره وأقربائه بالقتل والمصادرة .

2) موقف الامراء والملوك والوزراء من تصرف الخليفة في المال

من الملاحظ أنّ الأتراك وذوي النفوذ في البلاط قد تركوا للخليفة امكانية مصادرة أموال النّاس وارهاقهم بالضرائب ومشاركتهم في التركات بعد أن جرّدوه من جميع سلطاته لما في ذلك من فائدة تعود عليهم بتجنبهم المواجهة المباشرة بالتجّار والأعيان وعامّة النّاس ، متخذين من الخليفة قناعا يسترون وراءه نواياهم السيئة وجشعهم الكبير ، ثم انهم أزالوا القناع حين شعروا أنّه بالامكان الاستغناء عن خدمات الخليفة والاستئثار بالنصيب الذي كانوا يدفعونه له فأصبح الخليفة مجرد موظف يتقاضى مرتبا لقاء مركزه الصوري وذلك حين " كف ابن رائق الخليفة الراضي عن بيت المال وبذلك صار الخلفاء بحاجة الى الراتب الزهيد الذي كان قد فرض لهم " (2) .

---

1) راجع : مسكويه - السابق 1/238-239 - 240 - 243 .

2) حسن الباشا - دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص75

ويفلت الزمام كليا من يد الخلفاء في العصر البويهي حين يجردهم البويهيون من جميع سلطاتهم حتى الصورية منها فلم يعد الخليفة بحاجة الى وزير حين نقل البويهيون الوزارة لخدمتهم . فاقتصر الخليفة على توظيف كاتب يدير اقطاعاته وما لديه من أملاك . فمن ذلك ان " معز الدولة قد حدد للخليفة ألف درهم في اليوم " (1) ثم استكثر عليه ذلك فعدل عنه الى تعيين بعض من الاقطاعات التي تدر عليه المال اليسير . أمّا باقي الأموال فيتصرف بها البويهيون ومن قبلهم الأتراك حسب مصلحتهم الخاصّة ممّا جعل خزانة الدولة في عجز دائم عن انجاز المشاريع الحيوية رغم انها لم تعد فقيرة أو خاوية فقد كانت الأموال تصب فيها من مصادر متعددة.

3) أموال خزانة الدولة

ان أهم مصادر بيت المال تتمثّل في :

1- الاموال المختلفة التي يتركها الآباء الأثرياء لابنائهم القصّر في بيت المال بالاضافة الى مدخرات الخلفاء لما كانوا في أوج عزهم وسلطانهم .

2- مال الخراج والضيعات العامّة والأوقاف الذي يجيء من أعمال فارس وغيرها من البلاد .

3- الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة بالاضافة الى الفيء والغنائم .

4- ما يؤخذ من التركات .

5- ما يصادره الامراء والملوك من أموال من الوزراء المعزولين ومن كبار الكتّاب والعمّال وما سيتحصّل عليه من ارتفاع ضياعهم .

---

1) السابق - ص 93

6- ما يدفعه التجّار وأصحاب الأملاك والضياع من ضرائب مقررة .

7- ما كان يستفضله الخلفاء من أموال بعد عزلهم (1) .

4) وسائل الأتراك وبني بويه في جمع المال وانفاقه

لمّا آل الأمر للأتراك أخذوا ينافسون الخلفاء في الحصول على المال ، بل انهم فاقوا الخلفاء في ذلك . ولقد أدّى بهم حبهم لجمع المال الى ابتكار الفنون في خزنها تحسبا للمستقبل غير المستقر بالنسبة لهم ، فصاروا يدفنون المال في أماكن مختلفة في بيوتهم ، وفي الصحاري حتّى يكون تحت تصرفهم في أي وقت . فممّا يحكى عن بجكم (2) **التركي** أنّه كان مغرما بدفن أمواله في الصحراء حيث " يضع المال في صناديق ، ويضمع الرجال الذين يدفنون المال في صناديق أخرى ويسير بالقطار في الصحراء لوحده ثم يفتح الصناديق التي فيها الرجال في الموضع الذي يريده ويدفن المال ثم يعيد الرجال في الصناديق ويعيدهم من حيث أتى بهم " (3)

كان لصلافة طباع الترك وبعدهم عن التحضر أثره الكبير في ضياع المال وتبذير الثروات بسبب خزنه في أماكن متعددة مما جعله عرضة للضياع في معظم الأحيان ، اذ كان الواحد منهم يقتل قبل أن يصل الى ذلك المخزون في الصحراء ، فلا يستفيد منه ولا يفيد غيره . ولكن هذا لم يمنعهم من استخدام أبشع الوسائل للحصول عليه ذلك

---

1) آدم متز - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج 1 - ص219 .

2) بجكم : من كبار قادة الاتراك في عهد المتقي **بالله** العباسي قتل على يد أحد الاكراد بطعنة رمح في خاصرته اثناء رحلة صيد سنة 329- تجارب الامم -ج 1 ص9 ، 10 ،شذرات الذهب ج 2 - ص 218 . 219 .

3) مسكويه - تجارب الامم - 12/2 ،العماد الحنبلي - شذرات الذهب 319/2 .

أنّ توزون (1) التركي - طمعا في المال - سمل الخليفة المتقي ونصب مكانه المستكفي الذي بدأت في أيامه المصادرات ونهب أموال التجار بواسطة قهرمانات القصر (2).

ويستولي البويهيون على بغداد سنة 334 هـ ويقرون المصادرات كمورد أساسي يلجأون اليه كلما دعتهم الحاجة الى المال ، ولا يراعون في ذلك حرمة وزير أو كاتب، مما جعل ذلك النظام يتدرج في مرتبتين " فكان في أوائل القرن الرابع ضربا من ضروب العقاب ، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مشتبها في نقاوة يده ،فكان يصادر بين حين وآخر " (3).

لقد أسرف البويهيون في ابتزاز الاموال ومصادرتها ولكنهم في نفس الوقت أسرفوا في انفاقها على ملذاتهم بعكس الأتراك ،ويرجع سبب ذلك الى تحضّر البويهيين وحبهم للترف والملذات وتشييد القصور وبسبب ثقافتهم وحبهم للعلم أنفقوا قسطا كبيرا من ذلك المال على العلماء والشعراء . وكان لافتتانهم بالترف واقتناء الجواري والخصيان وتمجيد الشعراء لمآثرهم (4) والتغنّي بكرمهم

---

1) توزون : قائد تركي من أتباع بجكم ،تولى امارة الامراء سنة 331 هـ وفي سنة 333 هـ احتال على الخليفة المتقي وسمله وخلعه وولي بدلا منه المكتفي بالله الذي أغراه بالمال (تسنة 334) بداء الصرع - تجارب الامم 2/ 42، 81 ، شذرات الذهب 2/ 335.

2) مسكويه - السابق 2/ 72 حتى 75.

3) آدم متز - الحضارة الاسلامية 1/ 38. وفي هذا الصدد يورد مسكويه في (تجارب الامم) ج 1 : ان المقتدر العباسي قد فوض الوزارة لابن الفرات ثلاث مرات : سنة 296 هـ - 299 هـ - 304 - 306 هـ - 311 هـ - 312 هـ. وكان يصادر جميع امواله وممتلكاته في كل مرة يقصيه عنها ، وقد قتله وقتل ابنه في المرة الثالثة وقد سار على نفس النهج البويهيون ،فصادر معز الدولة جميع اموال وزيره المهلبي وتعقب افراد اسرته واصدقاءه وجردهم من اموالهم و وذلك بعد وفاة الوزير سنة 352 هـ. كما صادر فخر الدولة جميع اموال وممتلكات الصاحب بن عباد بعد وفاته سنة 385 هـ.

4) لكي تدرك مدى انفاق البويهيين على الشعراء ،راجع البرقوقي - شرح ديوان المتنبي 1 / 74 .

وشجاعتهم ما جعلهم لا يأبهون بقرابة أو صداقة في سبيل الحصول على المال الذي يحقق لهم شهواتهم فمن ذلك أنّ معز الدولة " بنى لنفسه دارا جديدة في شمال بغداد ،فكان جملة ما خرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ولم يتردد في أن يصادر بسبب ذلك جماعة من أصحابه . وكان لا يأبه كثيرا لحقوق رعيته ، فاضطرّ الى ضبط النّاس واستخراج الأموال من غير وجوهها ، واقطع قواده وخواصه ضياع السلطان وغيرها " (1) .

5) المال وأثره في حياة عمال الدواوين

انجر ذلك الوضع المتردي على عمّال الدواوين فكثرت الرشوة والسرقات والمزايدات في شراء المناصب السامية - كما مر بنا سابقا - فكان منصب الوزير يباع بكذا ألف ألف درهم ، ومنصب الكاتب له ثمن محدد ، فأثر المال تأثيرا سيئا على أخلاق الوزراء وعمّال الدواوين ، فأصبح لكل شيء ثمنه الذي يبذل فيه ، فصارت قلّة الأمانة والاخلال بالشرف امرا عاديا لا يضير صاحبه ولا ينزل من مكانته ولا يمسّه بشيء في نظر المجتمع. وقد أدّى ذلك الى العسف واستخدام أبشع وسائل التعذيب لاستحصال الخراج والضرائب المالية الاخرى لارضاء السلطان والاستفادة من المركز بتعويض ما أنفق عليه أضعاف مضاعفة . يصف أحمد أمين الحالة فيقول : " نفقات البلاط قد بلغت حدّا لا يطاق من الاسراف والبذخ وصنوف الترف ، وجباية الخراج وسائر الضرائب تباع لأشخاص على سبيل الالتزام ، فيعسفون النّاس حتّى

---

1) آدم متز - الحضارة الاسلامية 1/ 58 . وقد ذكر مسكويه في تجارب الامم 2/ 182 حتى 188 الدور التي هدمها ليبني على مساحتها تلك الدار ،والأموال التي أنفقها عليها وكيفية تحصيلها .

يبتـزوا منهـم أضعـاف مـا دفعـوه " (1) .

وحتّى تتمكّن السلطـة مـن مصـادرة أمـوال النّـاس وانتـزاع املاكهـم تلجـأ الـى جميع الأساليـب الملتوية والحيـل الدنيئـة . ومـن ذلـك ما فعلـه عضـد الدولـة البويهـي حيـن عـزم علـى مصـادرة أمـوال الشريـف أبـى أحمد الموسوي والـد الشريـف الرضـي (2) . وقـد خلـق ذلـك الاسلـوب غـير الانسانـي أزمـة ثقـة فـي نفـوس النّـاس تجـاه السلطـة كمـا أدّى بالأغنيـاء الـى التظاهـر بالفقـر فكان ذلـك سببـا فـي كسـاد التجـارة وتجميـد الأمـوال وانتشـار المتسولـين والدراويـش فـي الأماكـن العامّـة ممّـا خلـق وضعـا اجتماعيّـا خطيـرا للغايـة حيـث أصبـح المـال يجلـب لأصحابـه النكبـات فـي حياتهـم والمصائـب والويـلات علـى ذويهـم وأصحابهـم والمقربيـن اليهـم بعـد مماتهـم (3) ، فـاذا سلـم الغنـيّ مـن المصـادرة وهـو حـي بمداراة السلطـان والتملـق اليـه أو بالتظاهـر بالفقـر الـى غـير ذلـك مـن وسائل ، فـإنّ مماتـه يجـر المصائـب والويـلات علـى ذويـه ، حيـث يتبـع معهـم البويهيـون وطغمتهـم مـن الـوزراء ورؤسـاء الدواويـن كـل وسائـل التعذيـب والعسـف لاستظهـار الثـروات منهـم (4) ممّـا يجعـل الغنـي قبـل مماتـه يقـوم بتقسيـم ثروتـه فـي عـدة مواضـع وعلـى عـدد ممـن يثـق فيهـم مـن أصحابـه (5) ، فكلمـا ابتكـر الحكّـام أساليـب جديـدة للابتـزاز جابهـا أصحـاب المـال بأساليـب أخـرى تبطلهـا .

---

1) أحمـد أمـين ـ ظهـر الاسـلام - ج 1 — ص 120

2) راجع حياة الشريـف الرضـي من هـذا البحـث ص

3 ، 4 ، 5) مسكويـه - تجـارب الامـم - 2/196 - 199 - 294 - 186 حتّـى 188 .

وقد انتفع من هذا الوضع المغامرون ممن يستهويهم البطش وحب المال فتمكنوا " بأن يكونوا ضامنين للبلاد التي يحكمونها " (1) فأرهقوا النّاس بالضرائب " ورقّت أحوالهم فمن بين هارب جال ، وبين مظلوم صابر ، وبين مستريح بتسليم ضيعته الى المقتطع ليأمن شره وبوائقه فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين وامحى أثر الكتابة والعمالة " (2) .

6) أثر الحالة الاقتصادية في الحالة الاجتماعية

تسبّب تردي الحالة الاقتصادية وكساد التجارة وانعدام المال في أيدي طبقات الشعب الفقير أن بلغ الغلاء ذروته ففي سنة 334 انعدم الخبز واضطرّ النّاس الى أكل الحشائش والجيف وروث الدواب ممّا أدّى الى انتشار الأوبئة الخطيرة بين عامّة النّاس (3) ،وفي سنة 392 اجتاحت بغداد مجاعة فـ " بلغت كارة الدقيق الخشكار ثلاثة دنانير مطبعية ثم زادت — وفي خلال شهر واحد — الى خمسة دنانير " (4) .

---

1) آدم متز - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 248 .

2) مسكويه تجارب الامم ج 2 ص 97 و 98

3) السابق - ج 2 - حوادث سنة 334 ،ابن الاثير الكامل ج 7 - حوادث سنة 334 وراجع ايضا : الحنبلي - شذرات الذهب ج 2 - حوادث سنة 330 .

★ الكارة : الكرّ : مكيال لأهل العراق - لسان العرب المحيط 3 / 240 .

★★ الخشكار : الدقيق بنخالته - فارسية معربة - وقد وردت كثيرا في كتب الأدب ،خاصة في كتاب البخلاء للجاحظ .

4) الصابي - تاريخ هلال بن المحسن 8 / 86

وخلاصة القول : أنّ البويهيين ووزراءهم وكتابهم قد ابتكروا أصنافا من الحيل وأشكالا من أساليب الارهاب والبطش والتعذيب للحصول على المال ، فلم يتركوا بابا يوصلهم الى غايتهم تلك الاّ ولجوه (1) غير آبهين بأي وازع انساني ولا مصغين الى ضمير ، فموت أحاسيسهم ومشاعرهم الانسانية أدّى بهم - في سبيل استخراج المال - الى المزايدة برجال الدولة المنكوبين ، فتتافس عمالهم على شراء مثل أولئك ، وابتدعوا لهم فنونا من التعذيب والهوان في سبيل استخراج الاموال منهم .

ونتيجة لذلك اختلت طبقات المجتمع اختلالا بينا انجرّ عنه سوء توزيع أدّى الى وضع المال في أيدي فئة قليلة أخذت تتمتّع به وتنفقه على ملذّاتها بينما عاش بقية أفراد المجتمع في فقر مدقع وخوف مستمرّ ، ممّا أدّى الى مولد طبقات - من بين الفئات المسحوقة - احترفت الاحتيال والاجرام ، من ذلك طبقة الشطار والعيارين الذين اتخذوا من الفتوة والاحتيال طريقا للكسب ، فصارت لاولئك الشطار والعيارين مكانتهم المرهوبة في المجتمع البغدادي (2) ، حيث اعتمد عليهم التجّار في حماية ممتلكاتهم ، وجمع الضرائب لهم ، كما أقضوا مضجع اولي الأمر من الحكّام بما قاموا به من سرقة ونهب وسلب ، هذا وقد أخذ قسم كبير من أفراد تلك الطبقة بالتجول في البلاد بقصد الاستجداء والاحتيال ،وقد مكنت المقدرة الأدبية الكثير منهم الى لفت الانظار لهم والتصدق عليهم . فمن ذلك قول بن حجاج وقد باع ثيابه بواسط (المجتث)

يا سادتي قول ميت في مثل صورة حي
لم يبق في الخرج شيء أتأذنون بشيء (3)

---

1) الروذراوري - ذيل تجارب الامم 3/95 و 189

2) راجع محمد بن عبد الملك الهمذاني - تكملة تاريخ الطبري ص435. يعطينا المؤلف فكرة واضحة عن استيلاء العيارين على بغداد سنة 364 هـ ،وما قام به اولئك من سلب، ونهب انزل الرعب في قلوب العامة.

3) الثعالبي - يتيمة الدهر 3/57 وقد اورد البيتين ضمن نوادر من حجاج في أنواع الكدية .

وقد استخدم افراد اولئك الطبقة لغة خاصّة يتفاهمون (1) بها لتصيّد ضحاياهم والهروب من قبضة الشرطة أثناء مزاولة أعمالهم . هذا وقد صوّر لنا بديع الزمان الهمذاني (ت 398) في مقاماته مهارة أولئك المكدين (2) وطرقهم الملتوية في كسب المال . لذا فان الفقر المدقع والبؤس الذي عاشه السواد الأعظم من الشعب ، وتكديس الثروة في أيدي فئات قليلة قد تسبب في خلق مجتمع متباين في طبقاته وأخلاقه .

---

1) ذكر الثعالبي في عدة مواضع من (يتيمة الدهر) بعضا من القصائد التي تتضمن لغة التفاهم لتلك الطبقة وأطلق عليها المناكاة أي لغة الحمقى ،والنوكي : الاحمق (لسان العرب المحيط 3 / 746 ،القاموس المحيط 3/332) وأطلقوا على لغتهم ذلك لانهم في سبيل سلب الاموال يتظاهرون بالجهل ، كما سمّوا أنفسهم بـ (آل ساسان) و (الساسانية) نسبة الى أحد امراء الفرس الذين فضلوا حياة التصعلك على الامارة والملك ، وكان الصاحب بن عباد يحفظ الكثير من مناكاتهم - راجع اليتيمة 3/117 ، 353 ، 343.

2) ادب المكدين أو الكدية هو ما يصوّر حالة اولئك المحتالين وطرقهم الملتوية في الاستجداء. وخير من صور ذلك في القرن الرابع الهجري بديع الزمان الهمذاني ،الذي حاول في جلّ مقاماته أن يصوّر طرق أولئك المكدين في التسول والاحتيال لسلب أموال النّاس - راجع : - بديع الزمان الهمذاني : مقامات بديع الزمان - المقامة البلخية ص 16 او ما بعدها - الاسدية 29 وما بعدها - البصرية 63 وما بعدها - الكوفية ص 78 وما بعدها .....

3) الحالة الاجتماعية

نتج عن الفوضى السياسية والانهيار الاقتصادي في القرن الرابع الهجري تصدع في المجتمع ،أمال الحكّام الى طغمة من الطغاة ، همّها الوحيد اشباع رغباتها ، والامساك بزمام السلطة ، فضاع الحق في خضم تلك الفوضى وانهارت القيم ، ممّا أحال معظم القضاة الى عصابة من المرتشين ، الذين أضعفوا حبل الدين في نفوس العامّة ، بنفاقهم ،وتمرغهم على أعتاب السلطان ، وتثبيت شرعيّة ملكه بالفتاوي المغلوطة ، واختلاق الاحاديث الكاذبة على رسول اللّه (ص) . فأدّى ذلك الى تمزق الهوة بين أفراد المجتمع ، سواء كان ذلك في النواحي الاخلاقية ، حيث بلغ المجون منتهاه من ناحية ، مُواجه بالزهد والتصوف المتطرف في الطرف المقابل ، أم النواحي المالية حيث الغنى المفرط مقابل الفقر المدقع الى غير ذلك من مهاترات كلامية وحجاج ، ومكايد وقتل وتشريد ،فداس القرامطة بخيلهم مقدسات الاسلام ، وثارت الفتن الطائفية بين سنّة وشيعة ،وبين حنابلة وشوافع ، وبين معتزلة وسنّة ، وكانت السلطة في جميع الحالات تذكي أوار تلك النّار ،حتّى تبقى مشتعلة تلتهم عامّة النّاس ،وهم ينظرون اليها عن كثب ، فاذا ما أحسّوا بلهيبها يهدد مصالحهم ،بادروا باخمادها تاركين جذرتها الى بعد حين ، وقد صوّر لنا الشريف ذلك بقوله (الوافر)

خطوبٌ لا يقاومُهَا البتاءُ ... وأحوالٌ يدبّ بها الضِراءُ
ودهرٌ لا يصحّ بهِ سقيمٌ ... وكيف يصحّ والايامُ داءُ ؟
وأملاكٌ يرونَ الفتكَ غُنمًا ... وفي الاموالِ لو قَنَعُوا فِداءُ
هُمُ استولَوا على النُجباءِ مِنّا ... كما استولَى عَلى العُودِ اللِحاءُ
مقامٌ لا يجاذبهُ رحيلٌ ... وليلٌ لا يجاورهُ ضياءُ (1)

---

1) محي الدين عبد الحميد - شرح ديوان الشريف الرضي 1 / 54 . والديوان 1/36

فأصبحت طبقة العامّة في وضع لا تحسد عليه من جوع وبؤس في سبيل إرضاء السلطان " فالفلاحون العراقيون كانوا في حالة فقر وبؤس بسبب الخراب الذي أخذ ينحدر اليه ذلك الاقليم المزدهر نتيجة الحروب الطويلة العديدة " (1).

فإذا كانت الحروب الأهلية والفتن الداخلية من أهم العوامل التي أدّت الى تمزق المجتمع، فانّ التمييز الطبقي الذي سنّه العباسيون وجذّر أصوله البويهيون فيما بعد، كان عاملا هامّا بل أساسيّا حين أقرّوا لكل طبقة من الطبقات العليا شريفا يرعى شؤونها، فكانت طبقة الأشراف العلويين، وطبقة الأشراف العباسيين، وقيادة الجيش من الترك والديلم الذين أوكل اليهم أمر رعاية مصالح بني جنسهم. فقد أتاح ذلك التقسيم الطبقي شعور أفراد كل طبقة شريفة بالتفوّق في الامتيازات والحقوق ممّا أتاح للكثير منهم استحلال السلب والنهب واسترقاق العبيد والترفع على العامّة، علما بأنّ النقابات بما تحويه من طبقية مشينة حين أقرتها الدولة وسنت القوانين لها، كانت في بداية الأمر حافظة لحقوق أفرادها، وحادة من تعسفهم وسلطانهم في ذات الوقت (2)، ولكن سرعان ما اندثرت تلك القوانين مما تسبّب في ثورات كانت في أغلب الأحيان مدمرة.

ففي سنة 255 هـ تمكّن زعيم الزنج - الذي زعم أنّه من أحفاد زيد بن علي (3) - من استغلال استياء طبقة العبيد والفلاحين في البصرة فقام بثورته ضد الأغنياء وملاك الارض. فكانت ثورة عاتية كادت تعصف بملك بني العبّاس وقد اصطلى بجحيمها الزنوج والفلاحون الذين

---

1) نكلسن - تاريخ الادب العباسي ص 44

2) الماوردي - الأحكام السلطانية - ص 86

3) الحنبلي - شذرات الذهب - ج 2 ص 129، حسن الباشا - دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص 303 وما بعدها.

كانوا يرغبون من وراء ذلك، تحسين حياتهم المعاشية ولم يتمكّن من القضاء على تلك الثورة الا سنة 270 هـ بعد أن تلف المال وهلك الرجال واستباحت حرمات النّاس زهاء الخمسة عشر عاما (1). وما كاد النّاس ينسون ثورة الزنج حتى ظهر بسواد الكوفة سنة 278 هـ (2) القرامطة الذين تمكّن دعاتهم من اقناع الفقراء والمستغلين من عبيد ونبط من الانضمام اليهم فأقلقوا السلطان وروّعوا العباد وداسوا المقدسات الاسلامية. ومن الامور العجيبة في ذلك أن يعزو بعض المؤرخين مثل تلك الثورات الى الشيعة دون بحث الاسباب التي هيأت لها والظروف التي أدّت الى نجاحها فأحمد أمين يعزو توقف القرامطة عن التطلع الى فتوحات جديدة : أولها اكتفاء القرامطة بما فتحوه وملكوه ، وثانيها سقوط الدولة العباسية في يد البويهيين الشيعة الذين هادنوهم وأحسنوا اليهم (3).

والمتأمّل في هذين السببين يجد أنهما لا يصمدان أمام منطق التاريخ ، فالغازي والطامع في النفوذ والسلطة لا يقف طمعه عند حدّ مادام يستطيع الى ذلك سبيلا. أمّا مهادنة البويهيين لهم وفي سنوات قليلة ، فلم تكن بسبب تشيعهم خاصة وأن القرامطة من غلاة الشيعة وهم يخالفون في عقائدهم البويهيين الاثنى عشرية. أمّا المهادنات التي تعقد بين الطرفين فتعود لأسباب سياسية بحتة الهدف منها اتقاء البويهيين شر القرامطة للتفرغ الى مصالحهم (4) . وفي اعتقادي أن سبب انتهاء القرامطة

---

1) الحنبلي - شذرات الذهب - ج 2 ص 155
2) السابق - ج 2 ص 171 ، حسن الباشا - دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص 79 وما بعدها .
3) أحمد أمين - ظهر الاسلام - ج 4 - ص 274.
4) الروذراوري - ذيل تجارب الامم - ج 3 - ص 109.

وثورتهم هو ما آلت اليه قياداتهم من فقدان الشعبية بسبب ما ارتكبوه في حق المسلمين من جرائم وبسبب اعتدائهم على بيت اللّه الحرام (1) بالاضافة الى ما أصاب تلك القيادات من خوار وضعف والاتجاه نحو المادة عن طريق نهب الحجاج والاغارة على المدن الآمنة وترويع الأهالي (2) ممّا جعل الكثير ممن يشايعونهم يتخلّون عنهم خاصّة بعد قيام الدولة الفاطمية في مصر والشّام سنة 358 هـ . وعلى كل فلقد أثرت هذه الثورات على المجتمع العراقي وسلبته الأمن والطمأنينة خاصّة وأنّ تلك الأوضاع المضطربة حالت دون وصول المؤن الى بغداد ممّا تسبّب في المجاعات وانتشار الأمراض ،كما أثّرت تأثيرا سلبيا على الموارد المالية ممّا جعل الأتراك والبويهيون بعدهم يبحثون عن مصادر أخرى يسدّون بها العجز فاتجهوا نحو طبقات الشعب وأرهقوهم بالضرائب (3) فكثرت الفتن واستحالت بغداد الى أطلال وخرائب وتجرأت طبقات الشعب الفقيرة على الخلفاء ونهب قصورهم بتحريض من الأتراك والديلم ،ممّا جعل تجّار بغداد وأشرافها

---

1) مسكويه - تجارب الامم - ج 1 - حوادث سنة 317 ،ابن الاثير - الكامل - ج 7 - حوادث سنة 317 ،الحنبلي - الشذرات ج 2 حوادث سنة 317 .

2) المراجع السابقة حوادث السنوات 311، 312، 315 ، 317.

3) من حوادث سنة 361 هـ أن ابا الفضل وزير عز الدولة بختيار قد احتاج الى المال ليسد به رواتب الجند والحاشية فعمل على مصادرة ما تملكه الرعية من مال ، فابتدأ بمصادرة أهل الذمّة ثم تلى ذلك بمصادرة أهل الملة راجع حوادث سنة 361 هـ في : تجارب الامم ج 2 - الكامل في التاريخ ج 7 . ويدعم ما أخذنا به من رأي قول ابن خلدون عن تزايد الضرائب وأثر على الدولة في أواخر أيامها " وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة ، فتكسد الأسواق لفساد الآمال ويوذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك بتزايد الى أن تضمحل وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية " مقدمة ابن خلدون ص 222 .

يستخدمون العياريين للدفاع عن مصالحهم وجباية الأموال لهم (1) . ولكن ذلك لم يمنع الأتراك في كثير من الأحيان من تجاوز الحد في النهب وسفك الدماء والاعتداء على الاغراض والأموال في غياب السلطة القائمة على تدبير مصالح الأمن . اذ بلغ بهم الأمر الى قتل صاحب الشرطة الموكّل من قبل عز الدولة بختيار(2) .

ولكي يتمكّن الأتراك والديلم من تحقيق مآربهم أشعلوا نار الفتن بين السنّة والشيعة ، ففي سنة 361 هـ ثارت فتنة بين الطائفتين ناصر فيها الأتراك السنّة وناصر الديلم الشيعة فكانت نتائجها ازهاق أرواح الأبرياء واشتعال الحرائق في المساكن والأسواق . فأغضب ذلك الأمر الشريف أبا حمد الموسوي ممّا أدّى به الى تعنيف الوزير ابي الفضل الشيرازي فكان ذلك سببا في عزله عن النقابة (3) .

وقد يطول بنا الحديث لو أردنا الاستمرار في سرد الحوادث والفتن التي نشبت بين السنّة والشيعة طوال العصر البويهي فيما عدا فترات متباعدة ،حيث كان الوضع الاجتماعي في حالة يرثى لها حتّى في سنوات الأمن حين كان للسلطة هيبتها . ففي أيام عضد الدولة البويهي شب حريق في الكوخ مجمع الشيعة ظل أسبوعا كاملا بالاضافة الى ما عاناه النّاس من جوع وغلاء أدّى الى وفاة الكثيرين بسبب انقطاع الأقوات عن بغداد (4) . ولم يكن الخوف مقصورا على

---

1 + 2 + 3 - مسكويه - تجارب الامم ج 2 - حوادث 361 هـ ، ابن الأثير - الكامل ج 7 - حوادث 361 هـ .

4) السابق - حوادث 371 هـ .

عامّة الشعب من الطبقات الفقيرة بل تعدّاه الى الخلفاء وقادة الجيوش والوزراء اذ " كانت العلاقة بين الحكام وبين من يخدمونهم من رعاياهم قائمة على البطش والقهر والايقاع بهم ، متراوحة بين القتل والضرب والعزل" (1) . ولما كان الخليفة موظفا للملك البويهي فقد يضطرّ في بعض الأحيان لبيع كل ممتلكاته ليتجنّب التنكيل (2) . ولاستفحال الفتن حاول النّاس مبارحة بغداد بحثا عن الأمن وهروبا من الجوع . حتّى العلماء لم يعد لهم مكان فيها . فهاهو عبد الوهاب البغدادي أحد علماء المالكية يغادر بغداد قائلا لعلمائها " لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم : (الطويل)

سلامٌ على بغدادِ في كلّ موطنٍ
وحبٌّ لها مني سلامٌ مُضاعَفُ
فواللّهِ ما فارقتُها عن قِلًى لَها
وإنّي بشطي جانبيها لعارفُ
ولكنّها ضاقتْ عليّ بأسرِها
ولم تكنِ الأرزاقُ فيها تُساعِفُ
وكانت كَخِلٍّ كنتُ أهوى دُنُوّهُ
وأخلاقُه تنأى بهِ وتخالِفُ " (3)

---

1) الخولي - أبو الفتح البستي حياته وشعره ص 20

2) مسكويه وابن الاثير - حوادث سنة 361 هـ .

3) ابن خلكان - وفيات الاعيان - ج 1 ص 431 .

وبسبب الجوع والفقر يضطر عالم جليل كأبي علي القالي الى بيع كتبه العزيزة عليه ليقتات هو وعياله من ثمنها ويبارح بغداد وهو يقول : (الطويل)

أنستُ بِهَا عشرينَ حولاً وبعتُهَا
لقدْ طالَ وجدِي بعدَهَا وحنينِي
وَمَا كانَ ظنّي أنّني سَأبيعُهَا
ولوْ خلدتني في السجونِ ديوني
ولكن لضَعْفٍ وافتقارٍ وصِبيَةٍ
صغارٍ عليهم تستهلُ شئوني
فقلتُ ولم أملُك سوابقَ عبرةٍ
مقالةَ مكوِي الفؤادِ حزينِ :
وقدْ تُخرجُ الحاجاتُ يا أمَ مالكٍ
كرائمَ من ربٍّ بهنّ ضنينِ (1)

ولكن هل الهروب والفرار أو حتّى السفر لقضاء فريضة الحجّ بضج ؟ فالحقيقة أن الأمن خارج العراق لم يكن خيرا من داخلها ، اذ أخذت الأعراب تعيث فسادا في الصحراء وتنهب المسافرين كل ذلك بسبب انشغال السلطة بمنازعاتها وحماية مصالحها ففي سنة 393 هـ " خرج بنو هلال وجمع غفير من العرب على الحاج فقتلوا منهم خلقا كثيرا وضاق الوقت فبطل الحجّ " (2) . ولقد حاول بعض من الأمراء البويهيين

---

1) المرتضى - أمالي المرتضى - ج 1 - ص 9 ،محي الدين - أدب المرتضى - ص 82 ، **الصفار** - مقدمة ديوان المرتضى ج 1 - ص 52.

2) مسكويه - تجارب الامم - ج 2 - حوادث سنة 393 هـ .
ابن الاثير - الكامل في التاريخ - ج 7 - حوادث 393 هـ .

اعادة هيبة السلطان في النفوس ممّا جعل الأمن يستتبّ بعضا من الوقت (1).

ولم يكن الظلم الاجتماعي والقهر مقصورا على فئة معينة دون أخرى في العصر البويهي اذ انّه عم جميع أصناف النّاس من الخليفة حتّى أحقر النّاس اذ لم يجد البويهيون غضاضة من نكب بعضهم البعض وتاريخهم مشحون بمثل تلك المآسي. فلقد كان تاج الدولة أبو الحسن بن عضد الذولة من " آدب آل بويه واشعرهم وأكرمهم، وكان يلي الأهواز، فأدركته حرفة الادب، وتصرفت به أحوال أدّت الى النكبة والحبس من جهة أخيه أبي الفوارس فقال في هذه النكبة : (البسيط)

حتى متى نكباتُ الدّهرِ تقصدُني
لا أستريحُ من الأحزانِ والفِكَرِ
إذا أقولُ مضَى ما كنتُ أحذَرُهُ
مِنَ الزّمانِ رمانِي الدهرُ بالغِيَرِ
فحسبيَ اللّهُ في كلّ الأمورِ فقدْ
بُدِّلتُ بعدَ صَفاءِ العيشِ بالكَدَرِ" (2)

---

1) من حوادث سنة 392 هـ انه فوض الى موئيد الملك ابي علي (عميد الجيوش) أمور الاعمال وتقليد العمّال وتحصيل الاموال .... فرفع المصادرات وأزال المجازفات رفعا وازالة (واستتب الامن فممّا يحكى عنه " أنه اعطى غلاما له دنانير وقال : خذها على يدك وسر من النجمي الى الحاصر الاعلى فان اعترض بك معترض مدعه يأخذها واعرف الموضع . فجاء نصف الليل فقال : قد مشيت البلد كله فلم يلقني أحد"- تاريخ هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي ج 8 - ص 110 و 111 وحاشيتها .

2) الثعالبي - اليتيمة - ج 2 - ص 222 .

واذا ما فقد عنصر الرحمة تجاه الاهل والأقرباء فلن يعرف طريقه تجاه غيرهم ، خاصّة أولئك الذين ينحدر نسبهم الى البيت العباسي ، اذ يجد البويهيون فيهم خطرا على مصالحهم ممّا يحتّم ارغامهم على خصاصة العيش حتّى لا تتاح لهم فرص التفكير في أمور أخرى تعود بالندم على المتسلطين من اولئك الذين لا حول لهم ولا قوة . ممّا جعل اولئك البؤساء ينفسون عما في نفوسهم من ألم بالشكوى حيث يقول ابن سكرة الهاشمي : (مجزوء الخفيف)

قد أتى العيدُ لا أتى
فلقد أنهجَ المُهجْ
ليس فيهِ لهاشميٍ
سرورٌ ولا فرحْ
إنّه عيدُ أهلَ قمٍّ
وقاشانٍ والكرجْ
يتلاقى بياضُهم
بقلوبٍ من السبجْ (1)

حيث لم يعد بالامكان التظلم لمسؤول اذ " صارت المضرة فيما دبّره سلطانها أعظم ممّا جناه سفهاؤها " (2) . فتولد عن ذلك نهب الأموال وهتك المحارم واستغلال الانسان ابشع استغلال فتزعزعت القيم حيث " أصبح الدين وقد أخلق لبوسه وأوحش مأنوسه واقتطع مغروسه وصار المنكر معروفا ،والمعروف منكرا وعاد كل شيء الى كدره وفاتره " (3) وبسبب اختلال ميزان القيم في ذلك المجتمع

---

1) السابق ج 3 - ص 32 - والسبج : خرز أسود ،دخيل معرب ويقصد بها الشاعر أن قلوبهم سوداء كالسبج . لسان العرب ج 2 ص 81

2) مسكويه - تجارب الامم - ج 2 - ص 309 .

3) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة - ج 1 - ص 18 .

المتداعي أصبح المقياس الأساسي لوضع الفرد ومكانته بما يملك من مال (1) أما مركزه الاجتماعي فيحدده طرفه وطريقة تعامله مع أفراد المجتمع الراقي ، وما يتقنه من صنوف العاب العصر من شطرنج ونرد وما يحفظه من أشعار خليعة يتفكه بها مع سمّاره في مجالس المجون والخلاعة وما يتصف به من دهاء في تدبير المال من أيّة وجهة يشاء . أما الالم والمعاناة والجوع فمن نصيب الطبقات المسحوقة " لكثرة الضرائب التي كانت تجبى منها وقلة ما كان يعود عليها بالكسب ، وقد يدل ذلك من بعض الوجوه أن الطبيب حين كان يدور من بيت المال الى آخر لمعالجة العامّة كان يأخذ أجرا من كلّ مريض ربع درهم " (2) .

وبسبب الفقر والجوع والاضطهاد لجأ الكثير من الطبقة المسحوقة الى العنف والسرقة واثارة الرعب في نفوس ذوي الاموال ، فنتج عن ذلك طائفة العياريين والشطار التي صارت " من سمات المجتمع البغدادي ، وهي طبقة لها نظمها وتقاليدها ونفوذها في الأوساط الشعبية" (3) وحتى لا يتمكّن الأمن من الايقاع بأفراد تلك الطائفة المنتشرة على طول البلاد وعرضها ، فقد اتخذ أفرادها لغة خاصة بهم ، يتفاهمون بها بين النّاس ،وتعتمد على الاشارات والتلميحات والتفاهم على مواضعات خاصّة ، وقد تمكّن الثعالبي من تفسير بعض هذه الرموز كما

---

1) راجع حكاية المتنبي وبائع الفاكهة - البرقوقي - شرح ديوان المتنبي - 1/ حاشية ص 5 و 6

2) شوقي ضيف - عصر الدول والامارات ص 259

3) سلام - دراسات في الادب العربي / العصر العباسي ص 191 .

المحنا من قبل (1) . وعلى اثر تلك الفوضى الاجتماعية تولدت أزمة الثقة بين الحاكم والمحكوم ، اذ لم يعد السلطان ليطمئن لما يدبّره أفراد الطبقات الدنيا تجاهه مما أدّى به الى خنق الحريات وعد الانفاس عن طريق بث الجواسيس والعيون (2) ، فبلغ خوف الانسان على نفسه حتّى من أقرب أقاربه ، وسقطت هيبة الدين من النفوس وانتشر الالحاد وطفت المادة فأصبح لسان حال الفقير يقول : (الطويل)

تلومُ على تركِ الصلاةِ حليلَتِي
فقلتُ اغرُبِي عَنّ ناظرِيّ أنتِ طالقُ
فواللّهِ لا صليتُ للّه مفلسًا
يُصلي لهُ الشيخُ الجليلُ وفائقُ
وتاشٌ وبكاشٌ وكبباشُ بَعْدَهُ
ونصرُ بنُ ملكٍ والشيوخُ البطارقُ (3)

ان القرن الرابع الهجري كان ثورة على الدين في كثير من الاحيان . ولكن الفقر كافر يؤدّي بالجائع وصاحب الحاجة والمضطر الى انتهاج السبل الشرعية وغير الشرعية ويقول الشيء الكثير في حالات الضيق .

وعادة ما يؤدي الفقر المدقع في مجتمع ما الى تكديس المال عند طبقة معينة - وذلك ما أشرنا اليه

---

1) راجع الحالة الاقتصادية من هذا البحث ص 24
2) الروذراوري - ذيل تجارب الامم ج 3 ص 60 ،آدم متز- الحضارة الاسلامية ج 1 ص 62
3) الثعالبي - يتيمة الدهر ج 4 - ص 157 .

سابقا - حيث استغلّت هذه الطبقة انفاق ذلك المال على اشباع رغباتها ،من بناء القصور الفخمة الى اقتناء الجواري والغلمان والجلوس الى موائد الخمر المحاطة بما لذّ وطاب من الأطعمة حيث الغناء والرقص ونتيجة لذلك " ظهرت الاتجاهات المتحررة التي تدعو الى التحرر من القيود والقيم التقليدية والمتوارثة" (1) فأثر تأثيره البالغ على الأخلاق حين اعلنت الزندقة عن نفسها دون أية مواربة ، كما أصبح المجون ظاهرة عادية ، وقلّما يخلو مجلس أمير أو وزير من طبقة المجان الذين يسرّون عن اسيادهم المترفين لذلك أصبح التهادي بالخمر والنبيذ في المناسبات والاعياد من العادات التقليديّة . فابن سكرة الهاشمي لا يمدح طلبا للمال بل طلبا للنبيذ حيث يقول : (مجزوء الكامل)

يا من ثناهُ وذكرُه
بين الورى مسكٌ وعنبرْ

إنّي كتبتُ وزائري
ظبيٌ مليحُ الدلّ أحورْ

مُتضلِّعٌ في الصحوِ يسـ
ـمَحُ بالبضاعةِ حينَ يسكَرْ

وأرى تعذّرَ أمرِه
في الكفّ إن سُكْرٍ تعذّرْ

فامنُنْ عليّ بقهوةٍ
انفُ الحبيبِ بها يُعفّرْ

فأنالُ منهُ أنَا المُنَى
وتحوز أنتَ ثنا وتُؤجَرْ (2)

---

1) سلام - دراسات في الادب العربي / العصر العباسي ص 193 .

2) الثعالبي - يتيمة الدهر - 3 / 20 و 21

أما الحديث عن دور الطرب والغناء فيطول بحيث نعد ما ذكره أبو الفرج الاصفهاني في كتابه " الاغاني " - قليل من كثير وقد كفانا أبو حيان التوحيدي **مؤونة** التعبير عن ذلك حيث قال " وقد أحصينا - ونحن جماعة في **الكرخ** - أربعمائة وستين جارية في الجانبين ، ومائة وعشرون حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه وسوى ما كنّا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الاّ اذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه وترنّم وأوقع وهزّ رأسه وصعّد أنفاسه وأطرب جلاسه واستكتمهم حاله وكشف عندهم حجابه وادعى الثقة بهم والاستنامة الى حفاظهم " (1)

ونظرا لحاجة المجتمع المترف الى القيان الجميلات الحاذقات والى الغلمان فقد نشطت أسواق النخاسة وبالغ النخاسون في الاهتمام بتثقيف الجواري بألوان شتّى من الآداب والفنون " لأن قيمة الجارية ومكانة النخاس بمقدار ما تتقنه من آداب وفنون ومعارف " (2) . ولم يكن هوى الرجال منصرفا الى القيان والجواري فقط بل ان عشق الغلمان قد لعب دورا هامّا في ذلك المجتمع منذ أن ادخله الفرس(3) فيما أدخلوه من عادات خيرة واخرى سيئة ابان امتزاجهم بالعنصر العربي والعناصر الاسلامية الاخرى في بوتقة الحضارة الاسلامية ،فأصبحت هذه العادة

---

1) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة - ج 2 - ص 183

2) الاطرقجي - المرأة في العصر العباسي - ص 53

3) آدم متز - الحضارة الاسلامية - ج 2 - ص 165 .

السيئة ظاهرة من ظواهر العصر التي لا يعاب عليها الفرد حتى أصبح التغزل بالغلمان أمرا مألوفا بحيث لا نجد اية غرابة حين نقرأ في تاريخ ذلك العصر أخبارا عن امراء انقطعوا لغلمانهم بل رأوا في ابتعادهم زوالا لملكهم (1) ، ولم يكن الولع بالغلمان شأن الخاصّة فقط بل تعداه الى عامّة النّاس بحيث لا نجد من شعراء ذلك العصر، على كثرة عددهم ، الا النزر القليل الذين لم يتغنّوا بجمال الغلمان فحتّى اولئك الذين عرف عنهم الزهد والتمسك بالدين لم يسلم شعرهم من ذلك . فها هو الشريف الرضي يطرق ذلك الباب بعد أن سئل وصف غلام أعجمي : (الطويل)

حبيبيَ ما أزرى بحُبّكَ في الحَشَا
ولا غَضّ عندّي مِنْكَ أنّكَ أعجمُ
وعابَكَ عندّي العائباتُ ظَوالِمًا
وإنّي ، اذا طاوَعتَهُنّ لأظْلَمُ
بنفسيَ مَنْ يستدرجُ اللفظَ عُجْمَةً
كَمَا يمضغُ الضَبيُ الاراكَ ويبغُمُ (2)

ومن طريف الامور ان الواحد من كبار القوم وعليتهم اذا أراد أن يكيد لآخر في منزلته فانّه يكيد له في غلمانه (3) .

---

1) مسكويه - تجارب الامم - ج 2 - حوادث 366 هـ ،ابن الاثير الكامل في التاريخ - ج 7 - حوادث 366 هـ .

2) الشريف الرضي - ديوان الشريف الرضي ج 2 ص266

3) يحكى ان " سبكتكن كان يختص غلاما تركيا من غلمانه ففضب عليه وأمر ببيعه في السوق فنصب الوزير أبو الفضل من اشتراه له بضعف قيمته وتحظاه ونزل عنده منزلة من كان في نفسه منه عشق ثم موّله وأعطاه شيئا كثيرا حتى صار أجل وأيسر من غلمان سبكتكن . فلحقت سبكتكين من ذلك غيرة شديدة وفسد عليه غلمانه الذين في داره بما وصل اليه هذا الغلام " مسكويه - تجارب الامم ج 2 - ص 266 .

ويمكننا ارجاع كل ذلك الانحراف الى تأثير الاتجاهات الاجنبية في ديار الاسلام مما أخضع تلك المجتمعات المتباينة الاهواء والمشارب الى تيارات متعارضة ومتمايزة في تفكيرها ومشاعرها . أضف الى ذلك عدم الاستقرار الذي أثّر تأثيرا عظيما في نفوس النّاس وأخلاقهم ، حيث كانت السلطة متراوحة بين أتراك وفرس ، ممّا أدّى بالنّاس الى محاولة البحث عمّا يسلّي وينسي ، فلجأوا الى اللهو الرخيص حيث " تفشى الهجاء الشخصي المعتمد على السخرية والتهكم والاضحاك على الحركات ، والاستهزاء بالطباع والتشنيع على الاخرين بحق أو بغير حق " (1) ولم يسلم من ذلك الهجاء التهكمي أحد . يقول بن لنكك : (المنسرح)

لا تخدعنّك اللحى ولا الصّور
تسعة أعشارِ من ترى بقرُ
تراهمُ كالسّحابِ منتشرًا
وليس فيهِ لطالبٍ مطرُ
في شجرِ السروِ منهمُ مثلٌ
لهُ رَواءٌ ومالهُ ثَمَرُ (2)

وامعانا في الانغماس في اللذة ومسرات الحياة صار الاحتفال بأعياد الفرس والنصارى عادة جميع طبقات المجتمع . فكان عيد النيروز - مطلع السنة الشمسية الفارسية - يوما مشهودا ، حيث يتبادل النّاس الهدايا ، ويخرجون الى الحدائق والبساتين ويتهادون النبيذ ، ويهنىء الشعراء الملوك والخلفاء والوزراء بمقدسه و " كان الخليفة في بغداد يفرق على النّاس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر " (3) ثم

---

1) شلبي - الشعر العباسي / التيار الشعبي ص 87
2) الثعالبي - يتيمة الدهر - ج 2 - ص 350 .
3) آدم متز - الحضارة الاسلامية - ج 2 - ص 293 .

يعـودون الـى ذلـك فـي يـوم المهرجـان الـذي يخلـع فيـه الخليفـة أو الملـك علـى قادتـه وحاشيتـه الخلـع احتفـالا بمقـدم الشتـاء ويعتبـر " يـوم أحـد الشعانـين يـوم عيـد كبيـر للعامّـة، ولا بـد أنّـه كـان عيـدا قديمـا مـن أعيـاد الاشجـار، خصوصـا أشجـار الزيتـون ... وكانـت الوصائـف فـي يـوم أحـد الشعانـين يظهـرن في قصـر الخلافـة ببغـداد ، متزينـات فـي ثيـاب جميلـة غاليـة وفـي أعناقهـن صلبـان مـن ذهـب، وبأيديهـن قلـوب النخـل وأغصـان الزيتـون " (1). وكـان يـوم الشعانـين فرصـة لاشعال النيـران فـي البيـوت الخاصّـة بهـا ، ممـا يـدل علـى أن ذلك العيـد هـو نتيجـة لامتـزاج العـادات الفارسيـة والعـادات المسيحيـة قبـل الاسـلام وقـد تفاعلـت علـى مـر التاريخ فـلا هـو بالمسيحـي الخالـص ولا هـو بالفارسـي (2) ويتضـح ذلك من وصف الشريف لبيوت النيـران فـي يـوم الشعانـين بقولـه : (البسيـط)

وَرُبَّ يـومٍ صقيـلِ الوجـهِ تَحْسَبُـهُ
مرصَّعًـا بجبـاهِ الخـرُّدِ العِيـنِ
أتـاكَ يقتـادُ عِيـدًا فـي حقائبِـهِ
زادُ السُّـرورِ علـى الطّيـرِ الميامينِ
فالبـسْ جلابيبَـهُ البيـضَ التـي شَرُفَـتْ
واخـرُجْ عـن الصـومِ من اثوابِهِ الدُّونِ
اليكَ يستـنُّ والأحشـاءُ يتبعُهَـا
عـن غـربِ فكـرٍ بغـربِ الشوقِ مقـرونِ
جـاءت تُهنيكَ بالودِّ الّذي عَلِقَـت
منّـا الضمائـرُ لا يـومِ الشّعانينِ (3)

---

1) السابـق - ص 283.

2) لقد حاول آدم متز ان يلبس عيد (يوم الشعانين) طابعا مسيحيا ،لكن اشعال النيران في بيوت خاصة بها عادة فارسية.

3) الشريـف الرضـي - ديوان الشريف الرضي ج 2 ص 509.

وازاء ذلك الميل المتناهي في اغتراف ملذات الحياة أنّى كان مصدرها ، كانت ردة الفعل العنيفة من الجانب الآخر حيث ثار الغيورون من متصوفين وزهاد ورجال دين ، فأخذوا على عاتقهم تبصير النّاس وهدايتهم وتخويفهم من عذاب الأخرة وكانت في حقيقتها ردة عنيفة جدا بحيث صارت الى الزهد والتصوف وشظف العيش أقرب منها الى الحياة التي نص عليها الدين ، فأخذ أولئك المتدينون ينظرون الى ذلك الوضع المتردي نظرة ارتياب وخوف ، وآثروا العزلة بعد أن يئسوا من ارشاد النّاس وتنبيه الحكام الى الهوة التي تردت فيها الاخلاق . ونتيجة للتباين في فلسفة هذين التيارين المتناقضين نشطت الافكار الفلسفية التي أخذت تبحث في ماهية الوجود وطبيعة الانسان والخير والشر حيث تحول الفكر الصوفي من طابعه الديني البحت الى فكر فلسفي له أصوله وخصائصه ،وكان الى جانب ذلك التيار الديني المحلق والمتمثل في الزهد والتصوف تيار ديني واقعي مثله الصراع الفكري المحتدم بين الطوائف الاسلامية من سنّة وشيعة ومعتزلة .

ومن أهم ظواهر هذا العصر الاجتماعية في مجال المذاهب الاسلامية الدور الذي لعبه المذهب الشيعي الامامي في بيئة العراق البويهي . على أن الامر الذي يجب التنبيه اليه ، هو أنّ المذهب الشيعي الامامي قد تأصل واستوت دعائمه منذ عهد الامام جعفر بن محمد الصادق المتوفي سنة 148 هـ مما يتعارض والمقولة التي فحواها أنه أصبح " مذهبا قائم الذات الى جانب السنة التي يمثلها الخلفاء العباسيون " (1) أمّا سبب ظهور

---

1) الشاوش ـ الشريف الرضي والشريف المرتضى نقيبا الطالبيين حوليات الجامعة التونسية ـ العدد 15 ص 17

نشاط الشيعة وازديادة في هذا العصر بالنسبة الى العصور السابقة عليه ، فيرجع الى امور سياسية حيث أمروا من قبل أئمتهم بالتقية حفاظا على أرواحهم وقد تجنّب أئمة الشيعة الاثناعشرية السياسة ولم يتعرضوا للسلطان وانصب جهدهم على تأصيل المذهب ونشره بين أتباعهم منذ عهد الامام جعفر الصادق (1) أمّا سبب ترك الشيعة الامامية للتقية في القرن الرابع الهجري ، فيرجع لوجود بني بويه على رأس السلطة مما مكّن لهم من بث" تعاليم فرقتهم علنا . فالشيخ المفيد الذي انتهت رياسة متكلمي الشيعة اليه في هذا العصر ،كان يعقد مجلس نظر بداره يحضره كافة العلماء وكانت له منزلة عند أمراء الأطراف بميلهم الى مذهبه " (2).

ومن الأمور التي توجب الحذر أثناء مناقشتها خلط بعض المؤرخين بين التشيع السياسي والتشيع العقائدي أثناء محاكمتهم لحوادث التاريخ حيث يرون أنّ تشجيع البويهيين للمذهب الشيعي ونشره كان السبب المباشر في زيادة نفوذ الفاطميين في مصر والشام والحجاز وانتشار التشيع في ايران (3) وهم بذلك لا يفرقون بين المذهب الاسماعيلي الذي كان الفاطميون يعتقدون به والمذهب الامامي الذي كان البويهيون ومعظم أهالي العراق وايران يعتقدون به . لذلك وقف البويهيون موقف المعاداة من الفاطميين مما جعلهم يتمسكون بالسلطة

---

1) راجع فياض - تاريخ الامامية واسلافهم الشيعة - ص 77 وما بعدها .

2) عبد الله فياض - تاريخ التربية عند الامامية واسلافهم الشيعة - ص 84 .

3) راجع الباشا - دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص 98 وما بعدها .

الاسمية للخلافة العباسية مع عدم اعتقادهم بصحتها ، كل ذلك في سبيل تجريد الفاطميين من شرعية الخلافة ،وليس أدلّ على ذلك من موافقتهم على العهد (1) الذي الزم به الخليفة القادر باللّه العباسي كلا من أبي أحمد الموسوي والشريفين المرتضى والرضي وغيرهم من الاشراف ، والذي فحواه الطعن في نسب الفاطميين وبطلان شرعية خلافتهم. وعلى ذلك يمكننا القول بأنّه لا علاقة البتة بين التشيع في مصر والتشيع في العراق. أما انتشار التشيع في ايران فقد كان سابقا للبويهيين بزمن طويل وكان الفضل في ذلك للعلويين لانهم بعد الامام علي " حرموا من أنصبتهم في بيت المال ، وحرموا من تقلد المناصب واضطهدوا ، واعرضوا عن طلب الدنيا ، وعطلوا للّه وللاسلام الحق فحسنت سيرتهم ، ولم يقل أحد فيهم مثل الذي قيل في الأمويين والعباسيين من فساد السيرة نتيجة للانغماس في حب الدنيا وملاذها. فكانوا يرون في العلويين القدوة الحسنة التي سنها النبي (ص) في معاملته لسلمان الفارسي ولبلال الحبشي ولغيرهما من المسلمين غير العرب " (2) فأثر ذلك كله تأثيره البالغ في النفوس مما مكّن للتشيّع وأدّى الى انتشاره على أنّ الشيعة لما مكن لهم البويهيون نشط علماؤهم في التأليف في المباحث الدينية والفقهية كما سيمر بنا في موضوع

---

1) راجع ابن ابي الحديد - شرح نهج البلاغة ج 1 - ص 38 - والحنبلي - شذرات الذهب ج 3 - ص 162

2) الخشاب - التقاء الحضارتين العربية والفارسية ص 116 .

الحياة الثقافية . بالاضافة الى ذلك سمح البويهيون للشيعة بممارسة طقوسهم بكل حرية فأخذوا في " تعليق الثياب واظهار الزينة في يوم الغدير، واشعال النّار في ليلتيه ونحر جمل في صبيحته "(1) كما أقاموا التعاني وفتحوا مآتم النياحة وأغلقوا الاسواق في يوم عاشوراء حدادا على الامام الحسين ، وقد شارك البويهيون في ذلك مشاركة فعلية " فأول من سن ذلك معز الدولة البويهي حيث أمر بالاحتفال في الثامن عشر من شهر ذي الحجة بعيد الغدير ، كما أمر النّاس أن يغلقوا الدكاكين ويبطلوا البيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قبابا عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منتشرات الشعور مسودات الوجوه وقد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي اللّه عنهما " (2). وقد أحدثت تلك الأعمال ردة فعل لدى طائفة السنّة التي لم ترض عما تعرض له الخلفاء الراشدون من تجريح وشتم خاصة وأن البويهيين قد دعوا لذلك (3) ، ممّا فجّر الوضع ونشبت الفتن ودبّ الخلاف بين الطائفتين ، وكانت بداية ذلك ما أظهرته طائفة السنّة من تحد تمثّل في جعل السادس والعشرين من ذي الحجة يوم عيد " الغار " فاحتفلت بذلك اليوم احتفالا عظيما ، ثم أنّها اتخذت من يوم الثامن عشر من محرم مناسبة عزاء ومناحة على مقتل

---

1) الصابي - تاريخ هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي - ج 8 - ص 7 و 8 .

2) مسكويه تجارب الامم ج 2 و ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج 7 - حوادث سنة 352 .

3) راجع : الحنبلي — شذرات الذهب - ج 3 - ص 7 .

مصعب بن الزبير (1) ، ثم تفاقم الوضع مؤديا الى الاقتتال والنهب ومن ذلك انه " ثارت فتنة عظيمة بين الشيعة والسنّة جرح فيها الكثير ونهبت الأموال " (2) سنة 353 هـ . وبطبيعة الحال فإنّ مثل تلك الفتن لم تكن من تدبير طبقات الشعب الفقيرة ولا من صالحها ، بل ترجع أسبابها الى ما للحاكم من رغبة في الضغط على الخليفة السني اذا ما حال بينهم وبين أطماعهم ، والخليفة بدوره يعزف على ذات الوتر اذا ما وجد اشتطاطا من قبل البويهيين الشيعة تجاهه . واتسع نطاق االفتن حتّى شمل طبقة الفقهاء المعول عليهم في رأب الصدع بل تعدّى ذلك الخلاف السنّة والشيعة الى الخلاف بين مذاهب السنّة ذاتها مما " جرّ البلاد الى الخراب فكل مملكة تقتسمها المذاهب المختلفة "(3) وكان للحنابلة دورهم الكبير في اشعال نار الفتن والاقتتال مع الشيعة ومع أصحاب الامام مالك وقد جعلهم التعصّب لمذهبهم في بغداد يتنقلون " من بيت الى بيت يدخلون الرعب في قلوب المواطنين . وكان مزاجهم التعصبي قد بلغ حدّا لم يسمح

---

1) راجع : الصابي - تاريخ هلال بن المحسن ج 8 ، ابن الاثير - الكامل ج 7 ،الحنبلي - شذرات الذهب ج 3 - حوادث سنة 389 هـ .

2) مسكويه - تجارب الامم - ج 2 ،ابن الاثير - الكامل ج 7 - حوادث سنة 353 . :

3) احمد امين - ظهر الاسلام ج 2 ص 4 ، راجع أيضا آدم متز - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 394 .

بأجراء مراسيم الدفن المعتادة للطبري الفقيه والمؤرخ المشهور عندما مات سنة 324 هـ / 923 م " (1) وازاء كل ذلك لم يجد الخليفة بدا من اصدار كتاب يسفه فيه أعمالهم ويتهددهم بالقتل والتشريد (2).

أمّا المعتزلة فقد تمكنوا من بسط أفكارهم وتطوير مناهجهم في ظل بعض كتاب بني بويه وبعض وزرائهم الذين ينحون منحى اعتزاليا وقد نأوا بأنفسهم وأفكارهم عن الفتن فاشتغل مفكروهم بالتآليف الكلامية والفقهية .

وخلاصة القول : أنه نتيجة لذلك الوضع المتردي ، خسرت الاخلاق ، وضاعت القيم ،واضطربت أحوال النّاس ، وشاعت الخرافات ،وصارت عادات الفرس والهنود والروم والترك - بما حوت من متناقضات - جزءا من الحضارة الاسلامية ، مما طبع ثقافة القرن الرابع الهجري بطابع تلك الثقافات الوافدة ، حيث لم يعد الأدب وغيره من العلوم الاخرى مقصورا على العرب وحدهم ،بل أخذت الأمم الأخرى تساهم في اثرائه .

لذا فانّ ذلك التمزق الذي حدث لدولة الاسلام لم يحل دون قيام حضارة اسلامية عالمية الطابع عربية اللغة، فالى أي مدى ساهم علماء هذا العصر في بناء الثقافة ؟ أو بالأحرى كيف كانت حالة الثقافة والفكر في خضم هذه الدوامة من الانقسامات والتفكك الاجتماعي ؟...

---

1) نكلسن - تاريخ الادب العباسي ص 178.

2) راجع نص هذه الرسالة عند مسكويه - تجارب الامم - ج 1 - ص 522 .

4) الحالـــــة الثقافيـــــة

تمكـن الاسـلام فـي ظـرف قـرن مـن الزمـان أن يبسط نفـوذه علـى رقعـة شاسعـة مـن المعمـورة ممّـا أتـــاح للعنصـر العربـي تصـدر القيـادة فـي بدايـة الأمر،حيـث كـان يـرى أنّ لـه الفضـل فـي نشـر الديـن الاسلامـي الأمـر الـذي أدّى الـى شعـوره بالتميّـز عـن العناصـر الأخـرى فـي الحقـوق ، ولكـن سرعـان مـا انهـارت تلـك الارستقراطيـة العربيـة بانهيـار دولـة بنـي أميّـة ، ولـم يعـد للعنصـر العربـي أيـة ميـزة علـى غـيره مـن العناصـر الاخـرى ، ممّـا جعـل العـرب يرفضـون ذلـك الواقـع بشتّـى الطـرق ولكـن ذلـك الرفـض تحطّـم علـى صخـرة العناصـر الاخـرى المناديـة بالمسـاواة خاصّـة العنصـر الفارسـي الـذي أبـى الاّ أن يتسـاوى مـع العـرب فـي كـل الحقـوق. بـل ورأى وجـوب التفـوق عليهـم لمـا لـه مـن حضـارة ومـا يمتلـك مـن ثقافـة ولمـا بذلـه مـن جهـد فـي سبيـل قيـام الدولـة العباسيـة،فتقبـل العـرب ذلـك الواقـع علـى مضـض لان العباسييـن أرادوا ذلـك. فمكّـن ذلـك مـن ذوبانهم شيئـا فشيئـا مـع الشعـوب الاخـرى فـي بوتقـة الاسـلام الواحـد ،متفاعليـن معهـا ،مكتفيـن بسلطـان اللغـة العربيـة التـي مكنـت لنفسهـا مـن جميـع الشعـوب الاسلاميـة،فأتـاح لهـا ذلـك الاتسـاع والتطـور مـا طوعهـا لاستيعـاب روافـد الحضـارات الاخـرى الثقافيـة والعلميـة .

اذن فلقـد اطمـأنّ العنصـر الأجنبـي لمكانتـه فـي المجتمع الجديـد ،فأتـاح لـه ذلـك الاستقرار النفسـي الـذي كـان يبتغيـه،اذ لـم يكـن قبولـه للاسـلام الا لمـا وجـد فيـه مـن عدالـة وحريـة ورأي كـان يبحـث عنهـا بعيـدا عـن نظـم الحكـم التـي كـان ضحيتهـا . وعلـى اثـر ذلـك الاستقرار

النفسي ، أخذ العنصر الأجنبي يغذي الحضارة الاسلامية بما لديه من خبرات علمية وفكرية كان لها الأثر العظيم في البناء الحضاري . كما وقد استغل ذلك العنصر حماس الخلفاء وحبهم للعلم واغداقهم عليه فأخذ هو بدوره يغدق من فيض فكره دونما بخل ، ممّا أتاح للفكر زادا عظيما في مجال العلم والأدب والفن ، كما أدت الترجمة من اللغات الأخرى خدمات عظيمة للمفكرين العرب فكان ذلك حافزا على ابتكار وتطوير عدة علوم كالرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والحيوان والنبات والكيمياء . علما بأنّ جميع هذه العلوم وغيرها كانت موجودة في الحضارات الأخرى قبل الاسلام ،ولكنها لم تجد طريقها الى العلمنة والتطور والانتعاش الا في ظل الاسلام . كما واستطاع علماء الاسلام اقتباس المنطق والفلسفة من الحضارة اليونانية وتطويرهما بما يتناسب وروح العصر بحيث لم يمض وقت طويل حتّى تمكّن المسلمون من استخدامها في كثير من العلوم كعلم الكلام وعلم أصول الفقه وعلم النحو وغير ذلك من علوم .

وما ان أطلّ القرن الرابع الهجري حتّى كانت شجرة تلك العلوم تغدق من فيض ثمارها اليانعة مما حدا بجميع مؤرخي الأدب والفكر الاسلاميين الى تسمية ذلك القرن بالعصر الذهبي للحضارة الاسلامية اذ تجمعت فيه حصيلة قرون متعاقبة من الجهد تعددت العلوم خلالها واستقرت اسسها ، فلم يبق لعلماء القرن الرابع سوى تطوير تلك العلوم والتوسّع فيها واكمال جوانبها الناقصة ، وشرح ما غمض منها واختصار ما اسهب فيه ، وقد أدّى أولئك العلماء دورهم كاملا ولم يتوانوا عن ذلك ، حبّا في العلم وامتثالا لرغبات أولي الأمر الذين احتضنوا تلك النهضة ورعوها بالمال وبفتح

المكتبات وبتهيئة الاجواء العلمية للعلماء . ولما كنا لا نستطيع التعرض لكل أنشطة الحركة الفكرية والثقافية لذلك العصر، فسنقصر دراستنا على ما بلغته علوم الدين والكلام والادب من ازدهار، لما لذلك من صلة وطيدة بموضوع بحثنا متخذين من النقاط التالية منهاجا :

1 - اتساع مواطن العلم

2 - أثر السلطة في العلم والأدب

3 - تطور العلوم والآداب

4 - حالة الشعر

أ) مميزات الشعر من حيث اشكاله

ب) مميزات الشعر من حيث مضامينه

1 - تعدد مواطن العلم :

ان تجزئة بلاد الاسلام الى دول وامارات لم تحل دون تنقل العلم والعلماء ، فبرغم تسلط الملوك والأمراء والحكّام وجبروتهم فقد كانوا يدركون ان كل بلاد الاسلام كانت وطنا للعلم . لأن الفكر لا يمكن بأي حال من الأحوال حده بحدود أو سجنه في منطقة ما . فبالرغم مما كانت الدولة الاسلامية تعاني من تحلل سياسي واقتصادي واجتماعي الا أنّه " قد نبع المفكرون والمشتغلون في العلم والادب من الشعراء والأدباء والمنشئين والمؤرخين واللغويين والفلاسفة في مدائن كثيرة من المملكة الاسلامية من أقصى تركستان في الشرق الى

أقصى الأندلس في الغرب " (1) ممّا جعل رجال السياسة وذوي السلطان يرضخون للعلم الذي صارت به المدن العربية ميدانا خصبا تتبارى فيه العقول بفيض علومها وآدابها الزاخرة مما جعل كل امارة تفخر على غيرها بما فيها من علماء ، فأثّر ذلك تأثيره البالغ في نشاط الحركة الفكرية وكان في ذلك حافز للعلماء على المضي في الأخذ بكل جديد مبتكر ، ممّا أتاح للعلوم الاسلامية والترجمة أن تمد " الأدب بكثير من المعاني والأفكار والأخيلة والموضوعات والأساليب " (2) فمكّن ذلك لعلوم الأدب من التجذر والرسوخ اذ بلغت حركة التاريخ الأدبي ذروتها على يد أبي الفرج الاصفهاني (ت 356 هـ) كما تمكّن أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) من تحليل بواعث الشعر وتبويبها في كتابه " ديوان المعاني "(3) وظهرت ايضا في ذلك العصر كتب الموازنات بين الشعراء والكتب التي اتخذت من البلاغة موضوعا سلكت في معالجة موضوعتها شكلا منهجيّا ، كما ظهرت الدراسات التي انصبت عنايتها على خصائص الأسلوب وقد بلغت ذروتها في كتاب " اعجاز القرآن " للباقلاني (ت 403هـ) وهكذا شهد هذا العصر أبرز أدباء الاسلام وعلماءه الذين تزخر كتب تاريخ الأدب بأعمالهم التي ساهمت في بناء صرح الحضارة الاسلامية . ومن مميزات العصر البارزة اختصاص بعض العلماء والشعراء ببعض من

---

1) زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - ج 2 - ص 530

2) خفاجي - الآداب العربية في العصر العباسي الثاني - ص 21

3) راجع : محمد خلف اللّه - من الوجهة النفسية في تفسير الأدب - ص 145

الامـراء يوثـرون مصاحبتهـم ، والتفـرغ اليهـم ،ولكنهـم سرعـان مـا ينبو بهم المكـان فيهجـرون مـن عـاشوا فـي كنفـه ويبارحـون الأوطـان التـي رعتهـم واحتضنتهـم ، فيكون لهـم فـي بـلاد الاسـلام متسع وفـرح لضيقهـم ، وقـد مـرّت بناقصـة أبـي علـي القالـي (1) ومـا آل اليـه أمره مـن ضيـق فـي الـرزق أثنـاء استيطانـه بغـداد فلـم يجـد بـدا مـن مغادرتهـا فدخـل الأندلـس حيـث سعـد حالـه وتألّـق نجمـه فـي ظـل دولـة بنـي أميـه هنـاك وهاهـو المتنبّـي يغـادر بـلاط سيـف الدولـة مكرهـا بعـد أن تقلـب فـي نعيمـه ردحـا مـن الزمـن وهـو يقـول : (بسيط)

يَـا مَـن يَعُـزُّ علينَـا أنْ نفارقَهُـم
وجداننَـا كـلّ شـيءٍ بعدكُـمْ عَدَمُ

ويعـاود الكـرّة مـع كافـور الاخشيـدي فـي مصر،ثـم يهجـره ويستقـرّ فـي بـلاط عضـد الدولـة بـن بويـه فـي شيـراز ، وهكـذا يـرى كـل عالـم وأديـب وشاعـر أنّ بـلاد الاسـلام علـى اتساعهـا وطـن لـه ، فيحـط رحالـه حيـث راحـة البـال والطمأنينـة والمـال ، وبرغـم صعوبـة الاتصـال وبعـد المسافـات كـان محبـو العلـم والشعـر يجـرون وراء اقتنـاء الكتـب ، ويبذلـون فـي سبيـل الحصـول عليهـا المـال الوفيـر ، فقـد بـذل سيف الدولـة ألـف قطعـة مـن الذهـب مشفوعـة باظهـار الأسـف لأبـي الفـرج الاصفهانـي فـي سبيـل الحصـول علـى نسخـة مـن كتـاب " الأغانـي " (2) . وقـد بلـغ الشغـف بـالادب

---

1) راجع الحالـة الاجتماعيـة من هـذا البحـث ص 36

2) راجع نكلسـن - تاريـخ الادب العباسي - ص 40

غايته عند الامراء والوزراء والاغنياء فكانوا يرسلون من يقوم باستنساخ الكتب الجيدة مهما بعدت المسافات. ومن ذلك أن تقية بنت سيف الدولة، قد كانت معجبة بما يصل الى مصر من شعر الشريف الرضي، فكتبت اليه تلتمس نسخة من ديوانه، فحملها اليها (1)، كما فعل ذلك مع الصاحب بن عباد (2). ولولوع عامّة النّاس بشعر الحسن بن أحمد بن الحجاج بيعت النسخة من ديوانه بأربعين دينارا وتصل الى سبعين في بعض الأحيان (3).

وهكذا ارتقى العلم والأدب وأخذ يشق طريقه الى الازدهار والتألّق في طول البلاد الاسلامية وعرضها غير مكترث بحدود ممّا أتاح له الانتشار والتجذر متحديا بسلطانه القاهر كل تفكّك وانحلال كان يعتمل في أرجاء الدولة ممّا حتم على الملوك والأمراء أن تحني رؤوسها اجلالا له واحتراما لآدابه فكان لهذا الاحترام وذلك التقديس أثره البعيد في العلم والعلماء.

2 - تشجيع الحكام للعلوم والأدب :

أخذت عواصم العلم الجديدة في القرن الرابع الهجري تزاحم بغداد في تقريب العلماء والأدباء والاغداق عليهم مما شجعهم على التنافس، وحدا

---

1) راجع : الشريف الرضي - ديوان الشريف 2/212

2) راجع : السابق 1/285

3) راجع : الثعالبي - يتيمة الدهر 3/34

بهم الى التنقّل من قطر الى قطر ، بحثا عن مناهل جديدة للعلم والمعرفة وجريا وراء انتشار الصيت وطلبا في جزيل العطاء ، فنالوا ما يطمحون اليه بكل اطمئنان وحرية في ظل ملوك وأمراء الأطراف " فكان من حسن حظ العلم والأدب في هذا العصر أنّ الملوك دائما يحبّون أن يتنافسوا في الاستكثار من الأدباء والشعراء والعلماء حولهم وتقريبهم من بلاطاتهم. وكان هذا التنافس في حد ذاته من مصلحة العلم والأدب " (1).

ولم يكن حب العلم والأدب هو الحافز الوحيد للملوك والأمراء على تشجيعه واتساع آفاقه بل كان الكثير من أولئك الملوك والأمراء علماء وأدباء وشعراء. ولقد عقد الثعالبي - في يتيمة الدهر - بابا خاصّا لملوك بني بويه الادباء الذين نظموا الشعر وطرحوا القضايا العلمية والأدبية -على بساط البحث والمناقشة - في مجالسهم، وذلك من أمثال عضد الدولة البويهي ، وعز الدولة أبي منصور بختيار وتاج الدولة بن عضد الدولة (2).

وكانت ثقافة الأمراء والملوك وحبهم للعلم والعلماء دافعا قويا لاستيزار العلماء والكتاب ولقد تميّز بذلك بعض ملوك بني بويه في كل من فارس والعراق ، ففي همذان واصفهان كان وزير ركن

---

1) محمد عبد الغني حسن - الشريف الرضي ص 16

2) راجع : الثعالبي - يتيمة الدهر - ج 2 - القسم الثاني الذي عقد لملوك آل بويه ص 216 - 218 - 219 - 222 .

الدولة الكاتب والأديب المشهور أبا الفضل محمد بن الحسين بن العميد (1) ، كما اتخذ معز الدولة البويهي من الأديب الشاعر الحسن المهلبي (2) وزيرا له ، واستوزر عضد الدولة البويهي سابور بن اردشير الذي أنشأ بدوره خزانة كتب جلب اليها من جميع الآفاق نفائس الكتب وأوقفها للنّاس. ففي أوج عظمة البويهيين وابّان حكم الأقوياء منهم اتخذوا من القدرة الادارية ،والقدرة البلاغية أساسا في اختيار وزرائهم ومن طريق هذا الحكم الصائب قدموا للعلم والأدب خدمات جليلة وكان لتعصبهم للعربية رغم فارسيتهم الأثر العظيم على تطورها وازدهارها ،وكانوا بحكم تشيعهم ميالين الى الفلسفة (3) مما جعل الكثير من وزرائهم يعتقدون التشيّع ويميلون الى الاعتزال ، فساعد ذلك على التوسّع في علمي الكلام والمنطق .

---

1) في فضل بن الفميد ومنزلته وعلمه راجع : الثعالبي - يتيمة الدهر - ج 3 - ص 154 وما بعدها وراجع : مسكويه - تجارب الامم - ج 2 - ص 275 .

2) حول سبب اختيار الحسن المهلبي للوزارة راجع : تجارب الامم - ج 2 - ص 124 .

3) يجعل عبد الرزاق محي الدين التشيع منحى من مناحي الاعتزال ونحن لا نوافقه على ذلك اذ أنّ المعتزلة يتفقون مع الشيعة في بعض النواحي ولكنهم يختلفون معهم في نواح أخرى - راجع : الفصل الثاني - عقيدة الشريف الرضي للرد على مقولة عبد الرزاق محي الدين - أدب المرتضى

صفحة 39

ولم يكتف البويهيون بتعيين العلماء والكتّاب في مناصب الوزارة فحسب بل اتخذوا من أولئك العلماء والأدباء - الذين تعجّ بهم الدولة - رؤساء لدواوينهم وكتّابا لما لمسوه من أهمية الأقلام في ذلك العصر، فمن أولئك الكتّاب أبو القاسم بن عبد العزيز ابن يوسف الذي " جمع أدوات الرياسة وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيّامه معدودا من وزرائه " (1) ، ومن كتّاب بني بويه الأدباء ، أبو أحمد عبد الرحمان بن الفضل الشيرازي وهو " روضة مجد وشرف وحديقة فضل وأدب " (2) وكان يكتب لمعز الدولة البويهي ، ومن كتّابهم أيضا علي بن القاسم القاشاني " بقية مشيخة الكتاب المتقدمين في البراعة المالكين لأزمة البلاغة " (3) ويطول بنا البحث لو وقفنا عند جليل أعمال البويهيين تجاه العلم والعلماء، وقد يظنّ أن مثل تلك الحركة الثقافية والنهضة العلمية ، كانت مقصورة على العراق حيث البويهيون ولكن وقائع تاريخ ذلك العصر تشير الى أنّ من مميزاته الأساسية حب السلطة للعلم وتشجيعه في جميع أقطار الاسلام ،وقد وقفنا عند اقليم العراق طويلا لنتمكّن من رسم صورة متكاملة للبيئة التي عاش في كنفها شاعرنا الشريف الرضي، وكي نتمكّن من الدخول في أعماق نفسيته ومعرفة خباياها ، ومدى تأثير بيئته بكل ما حوته من خير وشر على شخصيته .

---

1) الثعالبي - يتيمة الدهر - ج 2 - ص 312

2) السابق - ص 325

3) السابق - ص 329

ولو نحن تخطينا العراق الى حلب بالشام حيث الأمير سيف الدولة (ت 356 هـ) ، لما بارحنا العجب والاعجاب " لدى تأملنا المجتمع الفريد للمواهب التي التأم شملها آنذاك في حلب نظرا لقصر حكمه وقلّة موارده نسبيّا " (1) فقد اختصّ بتلك البيئة علماء وأدباء من أمثال المتنبّي الشاعر ، وأبي نصر الفارابي الفيلسوف (ت 339 هـ) ، وعالم اللغة الكبير أبي الفتح بن جنّي (ت 392 هـ) وابن خالويه النحوي (ت 370 هـ) ، وأبي فراس الحمداني (ت 357 هـ) وغيرهم كثير .

كما صارت الاندلس محط رجال العلم والشعراء والمغنّين ، حيث هيّأ لهم الأمويون من الجو العلمي والفكر الحر ما جعلهم يبتكرون ويجددون في كثير من العلوم ، وخاصّة الشعر موضوع بحثنا . فكان على أرض الاندلس مولد الموشحات التي أثرت الغناء العربي . وحتّى تتمكّن الحركة العلمية في المغرب والاندلس من التفوق على مثيلتها في المشرق ، دأب الخلفاء الأمويون على تزويد مكتباتهم بكل جديد في حينه " فكان الحكم صاحب الاندلس يبعث رجالا الى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها " (2) .

وفي مصر أعطى الخلفاء الفاطميون من جهدهم وأموالهم ما مكّن من انتشار العلم والرفع من قدر العلماء ، وانشاء المكتبات وايقافها على محبّي العلم

---

1) نكلسن - تاريخ الأدب العباسي - ص 40

2) آدم متز - الحضارة الاسلامية - 322/1

" فكانت للخليفة العزيز (ت 386 هـ) خزانة كتب كبيرة ، وقد ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد ، فأمر خزّان دفاتره ، فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة منها بخط الخليل " (1) ، كما أنشأ الحاكم بأمر اللّه (ت 441) مكتبة دار العلم(2) .

هذا وقد حاول بعض أمراء الأمصار في المشرق اغراء بعض وزراء الممالك الأخرى بالمال لاستخدامهم لما توسموه فيهم من اتساع ثقافي وحسن تصرّف ، فممّا يحكى من ذلك أنّ نوحا بن منصور ملك خراسان (ت 387) كتب الى الصاحب بن عباد (ت 385هـ) يدعوه الى منصب الوزارة واضعا نصيب عينيه كل المغريات (3) ، ولكن الوزير العالم اعتذر عن ذلك برد لبق جميل .

وكانت خوارزم في ذلك العصر مركزا علميّا عظيما بفضل أمرائها وعلى رأسهم مأمون خوارزم ، اذ كانوا يجلون العلم ويحيطون العلماء بكل رعاية وتقدير واحترام ، ممّا جعل البيروني وابن سينا وأبا سهل المسيحي وابن الخمّار الطيب ، وعالم الرياضة أبا

---

1) السابق

2) العماد الحنبلي - شذرات الذهب - 3/158

3) من المغريات التي وضعها ملك خراسان أمام الصاحب ليقبل الانضمام اليه : القاء مقاليد المملكة لعهدته واعتماده كوزير مفوّض يتحكّم في ثمرات البلاد كما يشاء - راجع : الثعالبي - يتيمة الدهر - 3/192 ، العماد الحنبلي - شذرات الذهب - 3 / 115 .

نصر العرّاق ، يختصّون بخدمة تلك الدولة والجلوس الى أمرائها ، وقد حاول محمود الغزنوي (ت 421) استمالتهم الى جانبه " فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته فلبّاها ابن العرّاق وابن الخمّار والبيروني ورفضها أبو سهل وابن سيناء وولى الأخير وجهه نحو قابوس بن وشكمير الزياري صاحب طبرستان " (1) .

وهكذا خضع الأمراء و الملوك - رغم تجبرهم - لسلطان العلم ، وأصبحوا خدّاما ورعاة له ، فأفسح المجال للعلماء لينيروا بصفاء عقولهم وفيض نفوسهم ما كادت تطمسه ألاعيب السياسة وزيف الحضارة .

3 - تطور العلوم والآداب :

ليس في وسعنا البحث في جميع العلوم العقلية والنقلية التي تطورت واكتملت مناهجها في القرن الرابع الهجري ، لما في ذلك من استطراد لا يمت بأية صلة الى موضوع بحثنا (التفجّع في شعر الشريف الرضي) . ولما كان الغرض من هذا المدخل التاريخي هو القاء الضوء على جوانب من حياة الشريف الرضي ، لذا فسنقصر دراستنا على تطوّر العلوم والآداب التي شارك فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة وأهمها :

1 - علم تفسير القرآن الكريم
2 - علوم الحديث الشريف
3 - علم الفقه

---

1) شوقي ضيف - عصر الدول والامارات - ص 552 ، وراجع ايضا - أحمد أمين - ظهر الاسلام - 1/286

4 ـ علـــم الكـــــلام

5 ـ علـــم النحـــو

6 ـ علـــم اللغـــة

7 ـ الأدب والنقـــد

1 - علـــم التفسيـــــر :
++++++++++++++++++++

يعتبـر علـم التفسيـر سابقـا لجميـع علـوم القرآن الكريـم حيـث كـان موضـع اهتمـام جميـع المسلمـين منـذ عهـد الرسـول (ص) ، اذ كـان (ص) " يبيـن المجمل والناسـخ والمنسـوخ وبعـض مـا يغمـض عليهـم ومـا كـان يعينهم على فهـم أسبـاب النـزول " (1) لمـا فـي ذلـك مـن أهميـة تتعلّـق بأمـور دينهـم ودنياهـم ، خاصّـة وأنّ القـرآن الكريم هـو مصـدر التشريـع للديـن ، ممّـا جعـل الرعيـل الاول يتحملـون عـبء هـذا العلـم وعلـى رأسهـم الصحابـي الجليل عبـد اللّـه بـن عبّـاس (ت 68 هـ) الـذي يعتبر تفسيـره مـن أقـدم التفاسيـر بالأثـر (2) ، كمـا ينسـب الشيعـة لسعيـد بـن جبـير التابعـي (ت 95 هـ) (3) تفسيـرا مأثـورا .

ويعتبـر " جامـع البيـان فـي تفسير القرآن " لابن جرير الطبـري (ت 310 هـ) (4) مـن أجـل التفاسيـر بالأثـر

---

1) ابـن خلـدون ـ المقدمـة ـ ص 403
2) راجع : جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية 1 / 214
3) يذكر حسن الصدر في كتابه " تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام " ص 324 أن مقتل سعيد بن جبير كان سنة 64 هـ ثم يعود ليكرر ذلك في كتابه الثاني " الشيعة وفنون الاسلام " ص 13 وهو بذلك يخالف وقائع التاريخ ، اذ من المعروف أنّ الحجاج هو الذي أمر بقتل سعيد . وقد تولّى الحجّاج امارة العراق سنة 75 هـ. راجع : قصة قتل سعيد بن جبير- ابن قتيبة ـ الامانة والسياسة 2/ 51 ،ابن خلكان ـ وفيات الاعيان 2/ 372
4) راجع : ابن النديم ـ الفهرست ـ ص 292 ، جرجي زيـدان تاريخ آداب اللغة العربية 2 / 521

وأعظمها فائدة لما حواه من أقوال الصحابة والتابعين . ذلك بالنسبة للمذاهب السنية الاربعة ، أمّا بالنسبة للشيعة والامامية منهم على وجه الخصوص ، فقد ظلّ تفسير القرآن من اختصاص أئمتهم الاثنى عشر حتّى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع وكان ذلك التفسير يعتمد على المأثور من الحديث النبوي أو من حديث أئمّة أهل البيت . وكان بجانب مدرسة التفسير بالأثر مدرسة أخرى ، اتخذت من الرأي تفسيرا للقرآن الكريم ، وتزعم هذه المدرسة المعتزلة وعلى رأسها واصل بن عطاء (ت 181 هـ) الذي ألّف كتاب " معاني القرآن " (1) ، كما ألّف أبو علي الجبائي (ت 283) " تفسير متشابه القرآن " وقد أطلق عليه الشريف الرضي " تفسير متشابه الأخبار التي ظاهرها التشبيه والتجسيم وصريحها التجويز والتظليم " (2) .

وما ان بدأ القرن الرابع الهجري حتّى كانت مدرسة التفسير بالأثر السنية قد ضربت بجذورها واستقرّت دعائمها على يد الطبري الآنف الذكر ، وترسخت دعائم مدرسة التفسير بالأثر الشيعية بالنسبة للامامية منهم بعد أن ترك أئمتهم الاثنى عشر زادا عظيما لدى التابعين لهم من علماء الشيعة ، فأخذ أولئك العلماء ذلك الزاد واعملوا عقولهم فيه ، فنتج عن ذلك تفسيرات كثيرة وغنية ، من أهمها تفسير الشريف الرضي " حقائق التأويل في متشابه التنزيل " (3) . اضافة الى ذلك الكثير من آيات القرآن الكريم التي

---

1) راجع : ابن خلكان - وفيات الاعيان 11/6

2) الشريف الرضي - المجازات النبوية - ص 23

3) راجع الفصل الثاني من هذا البحث " حياة الشريف الرضي "

فسّرهـــــا الشريـف المرتضـى (ت 436 هـ) فـي كتابـه " امالـي المرتضـــى " (1) .

أمّـا بالنسبـة لمدرسـة التفسيـر بالـرأي ، فقـد ازدادت نشاطـا فـي هـذا القـرن ، حيـث قـام المعتزلـة بتأليـف كتـب التفسيـر ذات الصبغـة العقليـة المتناسبـة وعقائدهـم وبلغـت تفسيراتهـم المئـات ، ولكنهـا ضاعـت كلهـا (2) . ولمـا كـان المعتزلـة يتفقـون مـع الشيعـة الاماميـة فـي بعض مـن عقائدهـم ، فقـد خلـط مؤرخـو الحضـارة والأدب بيـن هـؤلاء وأولئـك ، ممّـا جعلهـم يصنفـون الكثيـر من مفسّـري الشيعـة فـي عـداد المعتزلـة معتمديـن فـي ذلك علـى تفسيـر الآيـات التـي يتفـق الشيعـة والمعتزلـة على تفسيرها ، كمسألـة العـدل ، ومسألـة التوحيـد ، وهـذا مـا حـدا بمؤلّـف " ظهـر الاسـلام " أن يصنـف الشريـف المرتضـى فـي عـداد المغتزلـة (3) ، كمـا حـاول محقّـق كتـاب " امالـي المرتضـى " أن ينسبـه اليهـم أيضـا بقولـه " وترجـع قيمـة مـا عـرض لـهُ الشريـف فـي هـذه المجالـس من تأويل الآيـات الـى أنهـا تعد صورة لتفسيـر القرآن الكريم عند علماء المعتزلة ، مما لـم يصـل الينـا من كتبهـم الا القليل النـادر"(4) ولذات السبب حاول البعض ان ينسب الشريف الرضي الى المعتزلة أيضا .

---

1) "غرر الفوائـد ودرر القلائـد " هـو الاسـم الحقيقـي لكتـاب امالـي المرتضـى . حققـه أبـو الفضـل ابراهـيم ، وقامـت بنشـره فـي طبعتـه الثانيـة دار الكتاب العربي - بيروت - 1967

2) راجـع - احمـد أميـن - ظهـر الاسـلام 2/ 40

3) راجـع السابـق 2/ 40

4) أبـو الفضـل ابراهـيم - مقدمـة تحقيـق " امالـي المرتضـى " 1/ 18 .

وعلى كل فلقد تمكنت مدارس التفسير الثلاث : السنية ، والشيعية ، والمعتزلية - أن تنهض بعلم التفسير في القرن الرابع نهضة نشيطة ، وتكمل ما نقص من جوانبه. واستطاع الشريف الرضي أن يقدم جهدا كبيرا في هذا المجال بتفسيره الضخم الآنف الذكر وكتابه " تلخيص البيان في مجازات القرآن " الذي غلب عليه الطابع البلاغي ولكنّه لم يخل من تفسير.

تلك هي بايجاز خلاصة جهود القرن الرابع في علم التفسير ، وقد كانت مبنية على التوسع في الشروح اذ لم يكن ثمة جديد بالنسبة لمدرسة التفسير بالأثر، وخاصة السنية منها ويرجع سبب ذلك الى اغلاق السنة باب الاجتهاد منذ بداية مطلع ذلك القرن (1).

2 ـ علوم الحديث الشريف :

الحديث الشريف هو كل " ما ثبت عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم من قول أو فعل أو تقرير " (2) ، وقد حاول كثير من المسلمين في عهد الرسول (ص) كتابته، ولكنه (ص) نهى عن ذلك في أول الأمر قائلا " لا تكتبوا عنّي غير القرآن ، ومن

---

1) يتفق مؤرخو الحضارة والأدب على أنّ مذاهب أهل السنة قد سدوا باب الاجتهاد منذ بداية القرن الرابع. يقول آدم متز - الحضارة الاسلامية 1/387 " كان هذا القرن أهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الاسلامي فيقال انه في هذا القرن وقف التكوين المستقل للتشريع الاسلامي المبني على الاجتهاد المطلق وعلى الحكم بالرأي في فهم القرآن والحديث" . وحول ذات الموضوع راجع رأي ابن خلدون الذي طرحناه في مناقشتنا لموضوع (علم الفقه) من هذا البحث في الصفحات الموالية

2) سالم البهنساوي - السنة المفترى عليها ص 44

كتب غير القرآن فليمحه " (1)، وكان سبب هذا المنع خشيته (ص) من اختلاط السنة بالقرآن، ثم عاد و أذن بذلك .

ويرى الشيعة الامامية أن أول من كتب الحديث الشريف باملاء عن رسول الله (ص) هو الامام علي أمّا أول من جمعه من الصحابة حسب رأيهم فهو أبو رافع مولى رسول اللّه (ص) (ت 35 ه) (2).

أمّا بالنسبة لمذاهب السنة فيرون أن أول من جمع الحديث الشريف كتابة هو عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت 74 هـ) (3)، وان أول من جمع السنّة ودونها ابن شهاب الزهري (ت 101 هـ) وذلك بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت 101 هـ) .(4) ولا يسعنا هنا استقصاء تاريخ جمع الحديث وتدوينه، فقد أخذ المسلمون على عاتقهم القيام بذلك العمل العظيم طيلة العصور الاسلامية، حيث تكلّف الرواة مشقة السفر والسماع لحفظة الحديث ممّا جعله يبلغ حدا من الضخامة يفوق ما روي عن الرسول (ص) بكثير، وبطبيعة الحال لم يقبل العلماء كلّ ما سمعوا ودوونوا من أحاديث على علاتها، خاصة وان المذاهب والأهواء السياسية

---

1) السابق ص44

2) راجع - الصدر - الشيعة وفنون الاسلام - ص29

3) راجع - البهنساوي - السابق ص 45 وما بعدها

4) راجع - الصدر - السابق ص 30، مصطفى الرافعي - تاريخ آداب العرب - 1/277 ، 278 .

أدخلت على الحديث الشريف الكثير من المفتريات والموضوعات التي تتناسب وتلك الاهواء والميول ، ومن ذلك ما أشار اليه الشريف الرضي أثناء عرضه للمجاز في أحد الأحاديث بقوله " وقد حدثنا بهذا الحديث أيضا سهل بن أحمد بن عبد اللّه بن سهل الديباجي عن محمد بن يحي الصولي فيما صنفه ممّا رضيه خلفاء بني العبّاس من أحاديث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم " (1) علما بأنّ الحديث الشريف في تاريخ جمعه الطويل لم يسلم من الوضع من قبل جميع الفرق الاسلامية وغير الاسلامية (2) التي كانت تهدف امّا لتأييد آرائها وتدعيم مبادئها ، وامّا للدس على الاسلام ، ممّا حتم على الغيورين من علماء الاسلام ابتكار علم يحصّن الحديث من الوضع وينقيه من الشوائب التي ادخلت عليه ، فكانت العناية

---

1) الشريف الرضي - المجازات النبوية - ص 165

2) من أولئك : المانوية وهي بدعة مسيحية ثنائية صريحة موءسسها فيلسوف فارسي يدعى ماني في القرن الثالث الميلادي . وقد قال عن نفسه انه رابع ثلاثة تقدموه هم : المسيح وزرادشت وبوذا - معجم المصطلحات العلمية والفنية ص 624 - ولما انتشر الاسلام بقي بعض أولئك المناوية على ديانتهم متسترين بالاسلام . ومن أولئك عبد الكريم بن العوجاء الذي أقرّ بأنّه افترى على الرسول (ص) بوضعه أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة وذلك لما أمر أبو جعفر المنصور بقتله بعد اكتشاف أمره. راجع - الشريف المرتضى - امالي المرتضى - 1/127 وما بعدها .

بالمتن والسند ، ممّا أوجد علما جديدا هو " علم الرجال " فألفت في ذلك العلم الكتب العلمية الدقيقة التي منها كتاب " معرفة علوم الحديث"(1) للحاكم النيسابوري (ت 143 هـ) الذي عالج فيه صاحبه رواية الحديث وتفريعه الى أنواعه المعروفة، هذا بالاضافة الى كتابي " المدلسين " و " الضعفاء " لأبي عبد الله جعفر المديني (ت 258 هـ) (2) ، ولا نذهب بعيدا فكتب المسانيه الكثيرة التي أخذت مكان الصدارة بين كتب الحديث بعد النصف الأول من القرن الثاني ، لدليل واضح على محاولة العلماء لتحصين الحديث واهتمامهم بمعرفة صحيحه .

ذلك بالنسبة لمذاهب أهل السنّة، أمّا بالنسبة للشيعة الأمامية فقد شرعوا في تأليف الكتب الكثيرة في مجال علم الرجال وذلك بعد تمكنهم من تدوين السنّة بعد انقطاع عهد الامامة، وبعد أن بلغ جمع الحديث عندهم الذروة ، فألّف أبو الحسن القمي (ت 360هـ) كتاب " الممدوحين والمذمومين من الرجال " (3) كما ألّف أبو جعفر بن بابويه (ت 381 هـ) كتاب " الرجال المختارين من أصحاب النبي " (4) .

---

1) راجع : أحمد أمين - ظهر الاسلام 2/ 47 ، حسن الصدر الشيعة وفنون الاسلام - ص 39 .

2) ابن النديم - الفهرست - ص 286 .

3 و 4) حسن الصدر - الشيعة وفنون الاسلام - ص 41

على أنّ علم الحديث كعلم مستقل بذاته لم يتضح ويتم تكوينه الا في بداية القرن الثالث الهجري اذ كان في بداية أمره مختلط بالعلوم الفقهية، فقد كان الامام مالك فقيه المدينة ، ومحدثها في آن واحد ، كما كان الامام أحمد بن حنبل لا يفتي الا من خلال مسنده ممّا جعل ابن جرير الطبري لا يعده من الفقهاء حيث عدّه وأتباعه من أصحاب الحديث (1) ، ومن الفقهاء المحدثين أيضا محمد بن عبد الرحمان بن أبي ذيب (ت 159) ومن مصنفاته كتاب " السنن " الذي قال عنه ابن النديم بأنّه " يحوي على كتب الفقه "(2) واستمرّ الحديث على تلك الحال الى أن برزت الى الوجود كتب الحديث الستة المعول عليها لدى مذاهب السنّة وهي :

1- الجامع الصحيح : لابي عبد الله البخاري (ت 256) (3)
2- الجامع الصحيح : للامام مسلم بن الحجاج (ت 261) (4)
3- السنن : لمحمد بن ماجه (ت 273 هـ) (5)
4- السنن : لأبي داود (ت 275 هـ) (6)
5- الجامع الصحيح : للحافظ الترمذي (ت 279 هـ) (7)
6- سنن النسائي : لابي عبد الرحمان النسائي (ت 303) (8)

---

1) راجع : عباس القمي - الكنى والالقاب 232/1
2) ابن النديم - السابق ص 281
3 حتّى 8) راجع : ابن النديم - الفهرست ص 286 ، 288 ، 289 ، - العماد الحنبلي - السابق 134/2 ، 144 ، 164 ، 167 ، 174 ، 239 .

أمّا الشيعة الأمامية فلم يكن لهم كتب حديث يتداولونها الا في القرن الرابع الهجري بعد أن انقطع عهد الامامة بغيبة الامام المهدي الثاني عشر بعد (سنة 265 هـ) (1) حيث كانوا قبل تلك الغيبة يأخذون الفتاوي في قضاياهم الدينية عن أئمتهم مباشرة. وبعد الغيبة في مطلع القرن الرابع نشطوا نشاطا عظيما في تأليف الكتب الخاصّة بتشريعاتهم فكان أن ظهر في هذا العصر كتابا الحديث المعول عليهما من أربعة كتب (2) وهما :

1- الكافي في الحديث - لابي جعفر الكليني (ت 328 هـ) (3)

2- من لا يحضره الفقيه - لمحمد بن بابويه القمي (ت 381 هـ) (4).

وعلى هذا نجد أنّ القرن الرابع الهجري قد قصر فيه نشاط العلماء في مجال الحديث الشريف على دراسة رجاله، وتنقيته من الضعيف والدخيل من ناحيتي المتن والسند ، علما بأنّ هذه العلوم قد عرفت طريقها وأخذت مكانتها بين العلوم الدينية قبل هذا القرن ، وللشريف الرضي في مجال دراسة الحديث كتاب " المجازات النبوية " قصره على دراسة المجاز البلاغي في الحديث

---

1) عبد الله فياض - تاريخ الامامية وأسلافهم الشيعة ص 160

2) أما الكتابان الاخيران فهما (تهذيب الاحكام) و(الاستبصار) لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي المتوفي 540 - الشيعة وفنون الاسلام ص 36، راجع : شذرات الذهب - ج 3 - ص 126.

3) الصدر - الشيعة وفنون الاسلام - ص 36

4) السابق.

الشريف ، ممّا يدلّ على مدى ما بلغه الحديث من تطور واكتمال بحيث لم يعد هناك مجال للاستفاضة في تلك العلوم التي أشبعها المسلمون درسا واستنباطا .

3- علم الفقه :
++++++++++++++++

يعتبر منتصف القرن الثالث الهجري النقطة الحاسمة بالنسبة للفقه السني حيث اكتملت جوانبه وتأصلت مباحثه (1) . أمّا بالنسبة للشيعة الأمامية فهم لا يزالون يعيشون عصر النص الذي بدأ عندهم " ببعثة الرسول (ص) وينتهي بغيبة الامام الثاني عشر حوالي 329 هـ " (2) . وقد بقي الشيعة الامامية متمسكين بالنص حتى بداية القرن الرابع الهجري لانهم يرون " أنّ الامام ليس مجتهدا كباقي المجتهدين وانه لا يكتسب العلم كغيره من العلماء عن طريق النظر ، والكتب والشيوخ ، بل يكتسب المعارف والاحكام الشرعية إمّا عن طريق الامام الذي قبله وإمّا عن طريق الالهام "(3) . وفي الوقت الذي كان يعيش فيه الشيعة عصر النص كانت المذاهب السنية الاربعة آخذة طريقها الى التطور أو التبلور بعد أن ثبّت الأئمّة الأربعة أصولها ، وكان ذلك التطور بين أخذ وردّ ، فداود الظاهري (ت 270هـ) اتخذ من انكار القياس عمادا لمذهبه ، مستندا الى أنّ في الكتاب والسنّة من العموميات ما يفي بمعرفة الواجبات والمحرمات ممّا جعله يأخذ بظواهر الآيات والحديث منكرا التعليل العقلي للاحكام (4) ، أمّا محمد

---

1) محي الدين - أدب المرتضى - ص 36

2) عليان - العقل عند الشيعة الامامية - ص 47

3) السابق - ص 57

4) راجع : ابن النديم - الفهرست 272 .

بن جرير الطبري (ت 310) فلم يقلد أحدا (1) على أن تلك الاجتهادات لم تكن لتحد من مسيرة المذاهب الاربعة ، فقد تلقى المذهب الحنفي على التوالي كل من أبي الحسن عبد اللّه الكرخي (ت 340) (2) ، وأبي بكر الرازي (ت 370هـ) (3) الذين قاما بتأليف الكتب التي توسع في أصوله وترد الشبهة فيما غمض من أحكامه وقضاياه ناهجين الطريق الذي رسمه الامام أبو حنيفة (150 هـ) ، فاتسعت مباحثه حيث بلغت ذروتها في منتصف القرن الرابع الهجري ، فاقتصر علماؤه فيما بعد على الشروح والحواشي .

وكان أصحاب الامام مالك (ت 179 هـ) يسيرون في نفس الاتجاه العلمي ، اذ عكفوا على استنباط الاحكام وتطوير المذهب بما يتناسب وتطور العصر ، وكان الفضل في ذلك لعلماء اجلاء على رأسهم الفقيه اسماعيل بن حماد (ت 282 هـ) فهو الذي أخذ عنه أهل العراق فقهه المالكية (4) ، كما قام بتصنيف الكثير من كتب الفقه المالكي وعلوم القرآن ، وتلاه في ذلك الفقيه أبو الحسن بن القصار (ت 347 هـ) الذي كرّس جهوده على توطيد أركان المذهب ، ومن أهم مؤلفاته " مسائل الخلاف" المشهور عند المالكية (5) .

---

1) راجع ابن خلكان - وفيات الاعيان 4/191 ، ابن النديم السابق - ص 292 .

2) راجع الحنبلي - شذرات الذهب - ج 2 - ص 358

3) السابق - ج 3 - ص 71

4) راجع : ابن النديم - الفهرست - ص 252

5) راجع: أحمد أمين - ظهر الاسلام - 1/224 .

أمّا فقه الشافعي فقد حمل لواءه بعد الامام محمد بن ادريس (ت 204 هـ) ، علماء اجلاء من أعظمهم شأنا - كما يحدثنا صاحب شذرات الذهب - القاضي بن سريج (ت سنة 306 هـ) ، فقد تحمّل عبء تجذير فقه المذهب وارساء أصوله بتصانيفه الكثيرة (1) . هذا وقد بلغ فقه الشافعي ذروته بفضل جهود الماوردي (ت 450) ومن مؤلفاته كتاب " الاقناع " وكتاب " أدب الدنيا والدين " وكتاب " الاحكام السلطانية " وكتاب " الحاوي " الذي يعتبره الشوافع من أهم الكتب التي يعولون عليها في فقههم (2) .

وبالنسبة للحنابلة فقد أحكموا سلطتهم على العراق وكان على رأس المذهب بعد الامام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) ابنه عبد اللّه (ت 290 هـ) وقد جلس مجلس أبيه وروى عنه المسند والتفسير (3) ، ثم تلاه على رياسة الحنابلة أبوبكر السجستاني (ت 316) وهو من كبار حفظة الحديث في بغداد (4) ؛ ومن أهم مميزات القرن الرابع الهجري بالنسبة للفقه ، شيوع المختصرات الفقهية ، فمن ذلك كتاب " المختصر في فقه الحنابلة " (5) لابي القسم الخرقي الحنبلي (ت 334) . ويتضح من ذلك أنّ الكتب الفقهية قد بلغت من

---

1) راجع العماد الحنبلي - السابق 2/247

2) راجع العماد الحنبلي - السابق 3/285 ، جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - 2/642 .

3) راجع العماد الحنبلي - السابق - 2/203

4) راجع احمد امين - السابق - 1/226

5) راجع العماد الحنبلي - السابق - 2/336

الاتساع والشمول ما جعل الحاجة ماسة الى المختصرات والحواشي والشروح دون الاجتهاد في استنباط الاحكام فقد " وقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسدّ النّاس باب الخلاف وطرقه لمّا كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ، ولمّا عاق عن الوصول الى مرتبة الاجتهاد ، ولمّا خشي من اسناد ذلك الى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز وردوا النّاس الى تقليد هؤلاء " (1).

ذلك بالنسبة لمذاهب أهل السنّة، أمّا بالنسبة لمذهب الشيعة الامامية فقد فتح باب الاجتهاد ببداية القرن الرابع، أي بعد انقطاع عصر الامامة ، فنشط علماء الشيعة في تآليفهم الفقهية، وكان على رأسهم أبو بشر أحمد بن ابراهيم القمي (ت 350)(2) وقد بلغ الفقه الامامي أوج عظمته على يد استاذ الشريفين الرضي والمرتضى شيخ الطائفة محمد النعماني المفيد المعروف بابن المعلم (ت 409 هـ) (3) ، ويعتبر الشريف المرتضى (ت 435) من أغزر الشيعة الامامية علما ، حيث مكنه سعة اطلاعه ، وغزارة علمه ونبوغه في مختلف فروع الفقه الاسلامي من تأليف المصنفات التي أثرت المذهب الشيعي الامامي ووسعت من آفاقه ومن تلك المصنفات كتاب " ابطال القياس" وكتاب

---

1) ابن خلدون - المقدمة - ص 355

2) راجع - الصدر - الشيعة وفنون الاسلام - ص 55

3) راجع - ابن النديم - الفهرست - ص 247 ،حسن الصدر - السابق - ص 55 .

" الذخيرة في الاصول " و " الخلاف في الاصول " و " الذريعة في أصول الفقه " و " شرح مسائل الخلاف " (1) ، هذا وقد عادت زعامة الطائفة (2) اليه بعد وفاة شيخه المفيد . ولكن فتح باب الاجتهاد كان مقصورا على فئة من الامامية دون اخرى اذ " أصبح الاثناعشرية بعد غيبة الامام الثاني عشر سنة 339 هـ / 940 م (3) امّا ميالين الى التفقه في الدين والاجتهاد في تأسيس أنواع العلوم ، وامّا متهالكين في حفظ الاحاديث المروية عن الأئمّة (ع) وادخارها للأجيال اللاحقة متابعين روح المحافظة " (4) .

---

1) راجع : الجابري - الفكر السلفي عند الشيعة الاثناعشرية ص 214 ، ابو الفضل ابراهيم - مقدمة تحقيق امالي المرتضى 1/12 ، 13 ، 14 .

2) راجع : الصدر - السابق ص 56 .

3) يلاحظ اختلاف في تاريخ غيبة الامام المهدي بالنسبة للشيعة الامامية وقد أرخنا بتلك التواريخ المختلفة ففي ص78 من هذا البحث أرخت الغيبة بما بعد سنة 265 ،وفي ص79 أرخت بحوالي سنة 329 هـ ، اما في هذه الصفحة فقد ارخت ببعد سنة 339 . وفي اعتقادي ان عامي 265 هـ و 339 هـ هما الصحيحان ذلك لان للامام المهدي - حسب اعتقاد الشيعة الامامية - غيبتين :
1- الغيبة الصغرى : ويؤرخها البعض بوفاة والده الامام الحسن العسكري سنة 265 ، اما الشيعة فيؤرخونها بسنة مولده 255هـ وتنتهي بانقطاع السفارة بينه وبين شيعته بوفاة السفراء الاربعة وامتدت 75 سنة .
2- الغيبة الكبرى : وهي بعد الاولى ،وقد بدأت بعد سنة 339 وفي آخرها يقوم الامام المهدي بالسيف ليملأ الارض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا . وعليه فالذين يؤرخون سنة 265 فهم يريدون بذلك غيبته الصغرى على اعتبار انها بدأت بامامة المهدي بعد وفاة ابيه العسكري ،اما الذين يؤرخونها بسنة 255 فهم يريدون بذلك ايضا غيبته الصغرى ولكنهم يؤرخونها بمولده ،اما من يؤرخ الغيبة بسنة 339 فهو يقصد بذلك الغيبة الكبرى التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا . ويقول الشيعة الامامية ان الامام الحسن العسكري قد كتم خبر مولد الامام المهدي الا عن بعض ثقاته ،كما كتم أولئك الثقاة امر مولده وغيبته حتى لا يصاب بمكروه من قبل بني العباس واحد أولئك الثقاة كبير سفراء الامام بينه وبين شيعته عثمان بن سعيد العمري - راجع ابن خلكان - وفيات الاعيان 4/176 ، محسن الامين - في رحاب اهل البيت 5/15 وما بعدها ، الزنجاني - عقائد الشيعة الامامية 1/221 وما بعدها ، محمد حسن آل ياسين - المهدي المنتظر ص44 وما بعدها .

4) الجابري - السابق - ص 193

كان هذا عرضا وجيزا لعلم الفقه خلال القرن الرابع الهجري ، وكان أهم حدثين بارزين في تاريخه في ذلك العصر هما : اغلاق باب الاجتهاد عند علماء السنّة وفتحه عند علماء الشيعة وقد أثر ذلك تأثيره البالغ في تحصيل الشريف الرضي كما ترك بصماته واضحة فيما خلف من مؤلفات وأهمّ مشاركة للرضي في مجال الفقه تأليفه كتاب" تعليق الفقهاء ".

4- علم الكلام :

" هو علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية على الغير " (1) وهو علم يقدم الرسالة المحمدية في رأي بعض الفرق الاسلامية ، اذ يرى الشيعة أنّ أول من ناظر في علم الكلام هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري (ت 23 هـ) وذلك حين عقد مناظراته في الشّام حول المال " وهل هو مال اللّه أم مال المسلمين " (2). على أنّ علم الكلام واستخدام الجدل المدعم بالحجج والبراهين من صلب المذهب الشيعي ، فالقارئ للرسائل والخطب التي كان الامام علي (3) يرسلها أو يلقيها يجد فيها ما فحواه مقارعة الحجّة بالحجّة، كما كان الامام زين العابدين علي بن الحسين (ت 95 هـ) معلما لعلم الكلام ، وقد أخذ

---

1) عبد الرحمان بدوي - مذاهب الاسلاميين 39/1

2) راجع العماد الحنبلي - السابق 39/1

3) راجع : الصدر - السابق ص 45 ، فياض- تاريخ الامامية واسلافهم الشيعة - ص 96 - 97

عنه ذلك قيس الماصر (1) ، وكان الامام جعفر الصادق (ت 148 هـ) يشجّع هشام بن الحكم (ت 179 هـ) قائلا فيه " هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده " (2) ذلك بسبب مناظراته أهل الفرق وافحامهم فاتهم بالفساد والضلال والغلو .

أمّا أهل السنّة فيردون نشأة علم الكلام الى أيّام الامام أبي حنيفة ، ويعدون كتابه " الفقه الأكبر " من أقدم ما ألّف في علم الكلام (3) .

" هناك من يرى أنّ نشأة علم الكلام مرتبطة بتاريخ الاعتزال الفعلي على يد رأس المعتزلة واصل بن عطاء (ت 131) والمتمثّل في بداية الأمر بوجهة النظر الكلامية حين " قالت الخوارج بتفكير أهل الكبائر ، وقالت أهل السنّة بفسقهم قال واصل بن عطاء : لا مؤمن ولا كافر فطرده الحسن البصري من مجلسه " (4) . أمّا محمد طاهر النيفر - وهو من المحدثين - فيحدد ظهور علم الكلام باستقرار الدولة العباسية ويرجع نشأته الى " أسباب كثيرة بعضها

---

1) قال عنه حسن الصدر في " تأسيس الشيعة لفنون الاسلام " ص 350 " هو من شيوخ الشيعة في علم الكلام ، وهو أحسن كلاما من هشام بن الحكم وحمدان الأحول ، كان تعلم الكلام من علي بن الحسين عليهما السلام ، وروى له موقفا مع الامام الصادق بسند عن أبي جعفر الكليني ولم يحدد سنة وفاته ، كما لم اعثر على ترجمة عند ابن النديم ولا عند ابن خلكان ولم يؤرخ لوفاته صاحب شذرات الذهب

2) عباس القمي - الكنى والالقاب 1/ 35 ، حسن الصدر - تأسيس الشيعة لفنون الاسلام ص 361 .

3) راجع : جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية 2/ 517

4) ابن خلكان - السابق 6/ 8 ، الحماد الحنبلي السابق 1/ 183

داخلية وبعضها خارجية " (1).

فالداخلية من وجهة نظره متمثلة في " ما صدر من طبيعة الاسلام والمسلمين أنفسهم " (2) أمّا الخارجية فتتمثّل في دخول أهل الملل الاخرى في الاسلام فمع كونهم أهل ديانات أخرى نشأوا على تعاليمها فقد دخلوا في الدين الجديد واستقرّت نفوسهم فعاودوا التفكير في التعاليم القديمة وأخذوا يلبسونها بلباس الاسلام ممّا جعل البلاد الاسلامية ساحة تعرض فيها كل الآراء ويتجادل على أرضها كل أصحاب الملل ولا شك أنّ الجدل يستدعي النظر والتفكير .

ولو نحن أردنا الربط بين التاريخ الذي حدد به محمد النيفر ظهور علم الكلام بالاسباب الداخلية التي ربطها بالاسلام لوجدنا تناقضا في مقولته فالجدل وعلم الكلام كان سابقا تلك الفترة بوقت طويل جدا اذ أنّ أوّل من دعى الى المجادلة الحقة في الاسلام هو النص القرآني وهناك من الشواهد الكثيرة التي توئيّد ما نقوله في ذلك فمن ذلك قوله تعالى " وجادلهم بالتي هي أحسن " (3) وقوله تعالى " قالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون " (4) كما ثارت الكثير من القضايا الكلامية حول الخلافة والامامة بين الصحابة بعد وفاة الرسول (ص) أضف الى ذلك المجادلات الكلامية التي دارت بين الفرق

---

1 + 2) محمد الطاهر النيفر - أهم الفرق الاسلامية ص 33 ، 34 ، 35 .

3) النحل 125 .

4) الزخرف 58 .

الاسلامية من مرجئة وخوارج وشيعة في العصر الأموي وهاشميات الكميت خير مثال على المحاجات الكلامية المؤيدة لحق آل البيت في العصر الأموي ، كل ذلك قد سبق مولد الدولة العباسية بزمن طويل وما ضربنا من أمثلة هو قليل من كثير . كما وان معاودة بعض من دخلوا الاسلام الى التفكير في عقيدتهم بعد أن استقرّت نفوسهم لم يكن وليد العصر العباسي بل لم يكن وليد فترة محددة اذ أنّه تبلور في النفوس منذ دخول تلك الأجناس غير العربية في الاسلام ،وما المحاورة التي دارت بين الخليفة عمر بن الخطّاب وبين أبي لؤلؤة المجوسي والتي راح ضحيتها الخليفة الثاني الاّ بداية من تلك البدايات وان بقيت كامنة في النفوس وقد طفحت على السطح منفسة عن نفسها بعد أن تسامح العباسيون مع العناصر الأخرى .

اذن نستطيع القول : بأن علم الكلام قد نشأ عربيا لم تشبه أيّة شائبة ، وقد كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالعقيدة الاسلامية حتى لا نكاد - في بداية الأمر - نستطيع الفصل بينه وبينها اذ كانت بداياته منطلقة من قضايا اسلامية بحتة، كقضية المال عند أبي ذر الغفاري ، ومحاجة الفرق الأخرى في أمور الامامة والعقيدة عند الشيعة، وارتباطه بالفقه عند الأحناف ومناقشة قضية الكفر والايمان عند المعتزلة وقبلهم الخوارج .

انّ علم الكلام لم يكن وليد العصر العباسي كما لم يكن طارئا أو جديدا على الفكر الاسلامي ، ولكنّه اتخذ أسلوبا جديدا في طريقة عرضه ومجالاته الفكريّة بعد ترجمة العلوم وانتشار الفلسفة والمنطق في القرن

الثاني الهجري تمشيا مع روح العصر وسنّة التطور، حيث أخذت المذاهب الفقهية تتطور عن طريقه، كما اتضحت معالم التوحيد الذي يرجع في أصوله الجدلية الى علم الكلام، واتسعت المجادلات الكلامية حول ماهية الكون وهل هو قديم أم محدث ممّا أدّى الى الكلام في تنزيه اللّه سبحانه وتعالى فتولد عن كل ذلك مسألة خلق القرآن، فاحتدم على أثر ذلك الجدل بين علماء المسلمين من سنّة وشيعة ومعتزلة. وقد أثرت الترجمة من اليونانية أثرها في الفكر الاسلامي عامّة وفي فكر المعتزلة منهم بشكل خاص.

ولما كان الاعتزال يتناسب وسياسة العباسيين في توطيد ملكهم - خاصة وأن المعتزلة قد وقفوا وسطا بين السنّة والشيعة في مسألة الامامة - فقد اتخذ الخلفاء العباسيون من أفكارهم أساسا لتسيير أمور الدولة الدينية وقد شجع ذلك أيضا، ما كان للمعتزلة من أفكار تتناسب وميول بعض خلفاء بني العبّاس من ذوي الفكر الحر من أمثال المأمون، ولكن هذا لا يعني أنّ المأمون هو أوّل من حاول تقريب المعتزلة، فقد حاول جدّه المنصور من قبله ولكنه لم يفلح في مسعاه، وذلك حين أراد أن يجعل من عمرو بن عبيد (ت 144) أحد رؤوس المعتزلة أحد جلاسه، ولكن عمرا رفض ذلك العرض بكل اصرار (1).

ومن الأسباب المباشرة التي أدّت الى تبنّي العباسيين للاعتزال موقف كل من أهل السنّة والشيعة المعارض لخلافتهم منذ البداية.

---

1) راجع: ابن عبد ربه الاندلسي - العقد الفريد 3/164، 165 - ابن خلكان - السابق 3/461، 4/222

فبالنسبة للسنّة فقد أحلّ الامام مالك أعناق أهل المدينة من بيعتهم لأبي جعفر المنصور لما استفتوه في ذلك سنة 145 هـ (1)، كما توفّي الامام أبو حنيفة مسموما (2) لعدم تعاونه مع المنصور، أمّا الحنابلة فيكفي شاهد على موقفهم من بني العبّاس ما أصاب الامام احمد بن حنبل من اضطهاد.

وقد وقف الشيعة من خلافة بني العبّاس موقفين متباينين وكلاهما معارض للسلطة : ويمثّل الموقف الأول الفرع الحسني الذي أبى أن يهادن السلطة فكانت ثورته بقيادة محمد النفس الزكية سنة 145 هـ (3)، أمّا الموقف الثاني فيمثله الفرع الحسيني الذي نأى بأنصاره عن مشاكل السياسة اذ " حاول أئمّة الشيعة الأمامية أن يهادنوا السلطان فأظهروا اعترافهم تقية بسلطته الزمنية وقال الامام موسى الكاظم (ت 183 هـ) "اننا حين ندعي ولاء جميع الخلائق لنا نعني ولاء الدين وهؤلاء الجمال يظنّون ولاء الملك " (4).

وكان لتبنّي العباسيين مذهب المعتزلة سنة 212 هـ في خلافة المأمون، ما جعلهم يرغمون جميع رجال الدولة والعلماء على القول بخلق القرآن. وعلى كل فلقد نشط علم الكلام في تلك الفترة، وشاركت في اثرائه جميع الفرق الاسلامية، ثم مني بنكسة عظيمة في القرن

---

1) راجع: الطبري - تاريخ الرسل والملوك 7/ 560، العاني - سياسة المنصور - ص 279

2) راجع : العماد الحنبلي - السابق 1/ 228

3) راجع: الطبري - تاريخ الرسل والملوك 7، ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج 5 - حوادث سنة 145 هـ.

4) عبد الله فياض - تاريخ التربية عند الامامية ص 41.

الثالث في خلافة المتوكّل (ت 247 هـ). الاّ أنّ ذلك لم يحد من استمرارية الجدل ممّا جعل علم الكلام يسير في مراقي التطور بفضل جهود المتكلمين من المعتزلة وعلى رأسهم أبو علي الجبائي (ت 303) الذي تتلمذ عليه الكثير من علماء العصر الذين نبغوا في علم الكلام، ومنهم أبو الحسن الأشعري (ت 327 هـ) الذي تمكّن من علوم المعتزلة وأساليبهم في الجدل ،، ثم خالفهم بعد ذلك في الكثير من مبادئهم خاصة في قولهم : بالاختيار المطلق ، ووجوب العدل على اللّه وخلق القرآن ، فنشأ عن ذلك مذهب حمل اسم الأشعري ذاته (1) ، واستقطب ذلك المذهب الكثير من علماء العصر ومن أشهرهم القاضي أبو بكر الباقلاّني (ت 405 هـ).

ويطلّ القرن الرابع الهجري " وعلم الكلام يمشي الى علیائه بقوة وفتاء بعد أن أصابته نكسة في عهد المتوكّل " (2) وكان للجدل والحوار الذي دار بين الفرق الاسلامية من أشاعرة ومعتزلة وسنّة وشيعة أثره الكبير في تطور علم الكلام، فبلغ ذروته في هذا القرن، ويرجع الفضل في ذلك الى قاضي القضاة عبد الجبّار (ت 415 هـ) وقد كان مالكيا في بداية أمره ثم تحول الى الاعتزال ونبغ فيه وكان لمواظبته على التدريس والاملاء سبب في انتشار آرائه في جميع أرجاء البلاد الاسلامية (3) والكلامية منها على وجه

---

1) راجع : ابن خلكان ـ السابق 3/ 284 ، العماد الحنبلي ـ السابق 2/ 303 ،عبد الرحمان بدوي ـ مذاهب الاسلاميين 1/ 492

2) عبد الرزاق محي الدين ـ أدب المرتضى ـ ص 39

3) راجع : العماد الحنبلي ـ السابق 3/ 203 .

الخصوص. هذا وقد ساهم الشيعة الامامية مساهمة فعالة في تطوير علم الكلام في القرن الرابع والقرون التي قبله، حيث ألفوا كتبا في ذلك من أهم ما تمتاز به الجدل العقلي المبني على البراهين والحجج حول العقيدة والرسل والانبياء والأوصياء، ومن أهم متكلميهم في هذا العصر أحمد بن ابراهيم القمي (ت 350 هـ) الذي ضمّن مؤلفاته الكثير من القضايا الفقهية والاخرى الكلامية خاصّة في كتابه " محن الأنبياء والأوصياء والأولياء " (1). كما لا يفوتنا أن ننوه ببراعة شيخ الطائفة في القرن الرابع أبي عبد اللّه محمد النعماني في تبسيط علم الكلام (2). كما ساهم كل من الشريفين المرتضى والرضي بنصيب وافر من الآراء الكلامية المدعمة بالحجج والبراهين فيما خلفوه من مؤلفات (3) حيث كان تفاعل كل منهما تامّا مع ما تمخّض عنه هذا القرن من حصيلة فكريّة عظيمة قامت على أركانها الحضارة الاسلامية.

5- علم النحو :
++++++++++++++++

اهتم النحاة في القرن الرابع بعلم النحو، وأولوا مباحثه كل عناية، الا أنهم لم يأتوا بأي جديد فيه، وكأنّه قد وصل الى الذروة، واكتملت جوانبه، بحيث لم يعد يستدعي اضافة اليه، ولكن عدم الابتكار،

---

1) الصدر - الشيعة وفنون الاسلام - ص 55

2) السابق - ص 55

3) راجع امالي الشريف المرتضى المتوفي سنة 36 هـ بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - نشر دار الكتاب العربي وحقائق التأويل في متشابه التنزيل للشريف الرضي نشر منتدى النشر بالنجف الأشرف 1355 هـ.

وبقاء أبواب النحو على ما كانت عليه في العصور السابقة دون اضافة الجديد ، لا يعني جمودها وعدم تطورها . صحيح أنّ معظم جهود العلماء اقتصرت على الشروح والتفاسير والمختصرات والحواشي ، ولكنهم بذلك الجهد المضني ، حاولوا تفسير الغامض، وتذليل العقبات ، وحل الكثير من المشاكل النحوية التي استحالت في عصورها السابقة الى مجادلات كلامية ، وقد استفاد علماء هذا العصر ممّا أتيح لهم من ثقافات متعددة مكنتهم من تطوير النحو ، فاكتمال علمي الفقه والكلام ، وتضلع العلماء فيهما ، أتاح لهم الأخذ بمبدإ القياس في اللغة ، ممّا أفادها وفتح مجال اثرائها وتطويرها .

ومن أهم مميزات هذا العصر التي كان لها عميق الأثر في تطور النحو : النتاج اللغوي والنحوي الوفيران والمتسمان بالعلمنة الخالية من التعصّب والمتولّد عن تقارب مدرستي البصرة والكوفة المتنافستين ، حيث أدّى ذلك التقارب الى ظهور مدرسة جديدة مثلتها بغداد. وقد عمد علماء هذه المدرسة الى الأخذ من كلتا المدرستين ، فتولّد عن ذلك الاندماج كثير من الدراسات العلمية الخالية من التعصّب لمذهب معيّن لذا فاننا نظلم العصر ونظلم علماءه اذا وافقنا أحمد أمين على مقولته التي قصر فيها جهود أولئك العلماء على " جمع لمتفرق ،وتفريق لمجموع،أو شرح لغامض ،أو تحديد لمتشتت"(1) .

فمن ذلك كتاب " في أنّ العرب تتكلّم طبعا لا تعلّما " لمؤلفه ابراهيم بن محمد الملقّب بنفطويه (ت323)

---

1) ظهر الاسلام - 2/125 .

وهو من شيوخ المدرسة التي خلطت بين المذهبين (1).
ويعتبر أبو سعيد السيرافي (ت 368) من اشهر علماء النحو في القرن الرابع اذ تتلمذ عليه الكثير من شيوخ العصر ومنهم : الشريف الرضي وأخوه المرتضى وقد قام بشرح كتاب سيبويه كما شرح شواهد " الكتاب " وكان بصري المذهب (2). ومن شيوخ النحو في ذلك القرن ، الحسين بن خالويه (ت 370) الذي وصفه الثعالبي " بقطب رحى العلم في مجلس سيف الدولة " (3) وقد ذكر له ابن النديم عشرة كتب في اللغة والنحو وقال عنه أنّه " خلط بين المذهبين " (4) ، ويبلغ النحو أوجه بفضل جهود العالم الجليل ابي الفتح بن جني (ت 392) ومن أشهر مؤلفاته كتاب " الخصائص " " الذي لم ينفك علماء اللغة في مختلف العصور يثنون عليه ويقتبسون منه " (5) وكتاب " سر صناعة الأعراب " وكتاب " علل التثنية " (6) وقد ذكر له ابن النديم كتبا أخرى (7) ، ومن القضايا الملفتة للنظر عند ابن جني ولعه الشديد بالقياس اللغوي (8) وهو يعكس طبيعته الاعتزالية التي تؤمن بتفتيق الكلام.

---

1) راجع : ابن النديم - الفهرست ص 90

2) راجع : ابن خلكان - السابق 2/ 78

3) الثعالبي - يتيمة الدهر 1/ 107

4) ابن النديم - السابق ص 92

5) عبد القادر المهيري - مقدمة تحقيق كتاب " علل التثنية " حوليات الجامعة التونسية 2/ 37

6) حقق هذا الكتاب الاستاذ عبد القادر المهيري ونشر في حوليات الجامعة التونسية 2/ من ص 40 حتى 56.

7) راجع : ابن النديم - السابق ص 95

8) راجع : حسام النعيمي - الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص 46.

لقد تجمعت في هذا العصر عوامل وأسباب كثيرة جعلت النحو يتطور ويأخذ مكانته بين بقية علوم العصر الأخرى : من ذلك نضوج العقلية العربية واكتمال مناهج علمي الفقه والكلام، تخطي اللغة العربية مرحلة التجميع واستخدام القياس المنطقي بشكل واسع.

هذا وقد وقف الشريف الرضي على جميع آراء عصره النحوية واستفاد منها حيث تتلمذ على فطاحل علماء العصر من أمثال أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي والربعي وابن جني ، فأثر ذلك تأثيرا بينا فيما تركه من آثار علمية (1).

5- علوم اللغة :
++++++++++++++++++

من الصعب على الباحث أن يفصل بين علم اللغة وعلم النحو في القرن الرابع وذلك بسبب تداخل مباحثهما. فعلى اثر النهضة العلمية التي شهدها هذا العصر نشطت علوم اللغة وتطورت تطورا لم تشهد له مثيلا في العصور السابقة ويرجع ذلك لأسباب من أهمها :

أ) استحداث مصطلحات خاصة للعلوم الاسلامية المستحدثة مما اقتضى تجوزا استعمال الألفاظ لمعان لم يكن للعربية بها سابق عهد وانتهت أخيرا الى أن تصبح حقائق عربية .

ب) التعريب اللغوي المتولّد عن انصهار جميع الشعوب الاسلامية في بوتقة واحدة ممّا أتاح للدخيل أن يأخذ

---

1) راجع الفصل الثاني من هذا البحث - مصادر ثقافة الشريف الرضي .

مكانه في اللغة ، فكان رافدا من روافد اثرائها حيث قوّم علماء العربية ذلك الدخيل وطوّعوا اشتقاقاته ليتناسب والقواعد اللغوية المصطلح عليها ، فانفتح المجال لأبواب جديدة أطلق اللغويون عليها مصطلحي : المعرّب والدخيل .

ج) الانتهاء من مرحلة جمع اللغة وتبويبها في رسائل خاصة في العصور السابقة مثل رسائل الاصمعي (ت 214) في " الدارات " وفي " السلاح " وفي " الخيل " وفي " أسماء الوحوش" وفي " المشترك اللفظي "(1) ورسائل بن دريد (ت 321) في " السحاب " وفي " الغيث " وفي " صفات السرج واللجام " (2) .

ومن ظواهر هذا العصر المميزة : نضوج العقلية العلمية وتقبلها للجديد وتطويعه مما ساهم مساهمة فعالة في ارتقاء علوم اللغة ، اذ تطورت العقلية العربية بتجاوزها مرحلة الجمع الى مرحلة الدراسة والتصنيف المنهجي، فأعمل العلماء عقولهم فيما تركته الأجيال السابقة من تراث لغوي ، فظهرت الدراسات اللغوية المتعددة ، ولكنها لم تتعدّ الدراسة التاريخيّة، التي تبحث في تطور تاريخ اللغة من الجوانب الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، وتطور أدوار حياتها . وقد تمثلت هذه الدراسات في عدة اتجاهات ، أهمها اتجاهان أساسيان :

- الاتجاه الأول :

ويتمثّل في دراسة نشأة اللغة، وهو موضوع قديم وقد اعتبره ابن فارس (ت 395) أصل الدراسات اللغوية

---

1) راجع : ابن خلكان - السابق 3/ 176

2) راجع : ابن خلكان - السابق 4/ 324 ، جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية 2/ 497 .

بقولـه " أمـا الأصـل فالقـول علـى موضـوع اللغـة وأوليتهـا ومنشئهـا " (1). وحـول نشـأة اللغـة انقسـم العلمـاء الـى فريقيـن :

1- فريـق محافـظ يـرى أنّ اللغـة توقيفيـة، ولا يمكـن لبشر أن يحيـط بهـا مهمـا كـان علمـه سـوى الأنبياء ويمثـل هـذا الفريـق بـن فـارس فـي كتابـه " الصاحبي " (2).

2- أمّـا الفريـق الثانـي فيرجـع نشـأة اللغـة الـى نظريـات ثـلاث : فهـي وان كانـت توقيفيـة الا أنهـا فـي ذات الوقت اصطلاحيـة، وفيهـا مـا هـو محاكـاة للطبيعـة، اذ أنّ أصحاب تلـك النظريـة يدعـون الـى محاولـة التوفيـق بيـن النظريات الثـلاث (3) ويمثـل هـذا الفريـق أبـو الفتـح بـن جنـي فـي كتابـه " الخصائـص ".

- الاتجـاه الثانـي :

يتمثّـل الاتجـاه الثانـي فـي ضبـط الألفـاظ وترتيـب معانيهـا علـى نسـق معيّـن يقبلـه الـذوق لمـا فيـه مـن بساطـة فـي التصنيـف ، فكـان انجـاز المعجـم هـو أكبـر حـدث لغـوي يتميّـز بـه هـذا العصـر. فبعـد مرور اللغة بمراحلهـا المتعـددة مـن سمـاع، وجمـع، وتدويـن ،وتصنيـف استطـاع اللغويـون تسيـق ذلـك التـراث الضخـم فـي معاجم لغويـة منهـا : " التهذيـب " للازهـري (ت 370) و " المجمل" لابـن فـارس، و " الصحـاح " للجوهـري (ت 400) ، و " فقـه

---

1) ابـن فـارس- الصاجـي - ص 29

2) راجـع : السابـق ص 31 ومـا بعدهـا

3) راجـع : رشـاد الحمـزاوي - تقديـم كتاب " نظريـات ابـن جنـي النحويـة " حوليات الجامعـة التونسية 13/231

اللغـــة " للثعالبـــي (ت 429) .

لقـــد أثـــرى ذلـــك التطـــور اللغـــوي قامـــوس علمـاء العصـر وشعرائـــه ، ولكـــن هـــذا لا يعنـــي أنّ الشريـــف الرضـــي قـــد استقـــى مادتـــه مـــن تلـــك المعاجـــم أو أخـــذ عنهـــا ، لأنّـــه لـــم يذكـــر فـــي جميـــع مؤلفاتـــه التـــي بيـــن أيدينـا أيّ معجـم مـــن معاجـــم عصـــره ، وسبـــب ذلـــك أنّـــه كـــان يعيـــش عصـــر نهضـــة اللغـــة مثلـــه مثـــل غيـــره مـــن العلمـــاء الذيـــن صنفـــوا تلـــك المعاجـــم ، فكانـــت المصـــادر التـــي استقـــى منهـــا لغتـــه ـ أثنـــاء تعرضـــه للقضايـــا اللغويـــة فـــي مجـــال التصنيـــف ـ هـــي ذات المصـــادر التـــي بنـــي عليهـــا المعجـــم اللغـــوي فـــي القـــرن الرابـــــع .

6 ـ الأدب والنقـــــد :
++++++++++++++++

لـــم نجـــد بـــدا مـــن مـــزج الأدب بالنقـــد أثنـــاء الحديـــث عـــن كليهمـــا ، ذلـــك أنّ علمـــي الأدب والنقـــد ـ ان صحّ لنـــا اطـــلاق كلمـــة علـــم عليهمـــا ـ قـــد أصبحـــا فـــي العصـــر الـــذي نتحـــدّث عنـــه ملتحمـــين التحامـــا كامـــلا لمـــا لهمـــا مـــــن وشائـــج قربـــى ، وهـــذا مـــا جعـــل معظـــم أدبـــاء وشعـــــراء العصر هم النقـــاد وأربـــاب البلاغـــة ، بـــل لا نغالـــي اذ قلنـــا أنّ كثيـــرا مـــن اللغويـــين والنحوييـــن كانـــوا أدبـــاء وشعـــــراء ونقّـــادا فـــي ذات الوقـــت ، والمتصفّـــح ليتيمـــة الدهـــــر (1) ـ موسوعـــة شعـــراء القـــرن الرابـــع ـ سيجـــد بيـــن دفينهـــــا الكثيـــر مـــن الشواهـــــد .

---

1) راجـع : الثعالبـي ـ يتيمـة الدهـر 1/107 ، 108 ، 289 ، 2/50 ، 70 ، 214 - 3/109 ، 154 ، 188 ، 397 ، 4/388 ، 406 . عبـد المنعـم خفاجـي ـ مقدمـة كتـــاب نقـد الشعـر لقدامـة بـن جعفـر ص 44

ففي القرن الرابع الهجري بلغ الأدب مرحلة من النضج بفرعيه الشعر والنثر ، وسنبدأ الحديث عن النثر مرجئين الشعر .

1) النثر :

يمكن تقسيم نثر هذا العصر الى قسمين أساسيين : أولهما : النثر الفنّي ، ونعني به نثر الرسائل الفنية التي تعتمد الصناعة اللفظية والبيانية أثناء نسجها ،وليس ذلك بالشيء الغريب في عهد تجلّى فيه الحس المرهف بالجمال والادراك الدقيق لنواحي الفن والابداع حيث أتاح لهم ذلك الفيض الزاخر من الجمال ألوانا من الأساليب التعبيرية التي صبغت ذلك النثر بصبغة تتناسب وما وصلت اليه الحضارة من رقي ورقّة في مجالي الفن والعمادة. وقد ساعد في تألقه تنوع أغراضه، من رسائل اجتماعية ،وأخرى سياسية، ومقامات، ومقدمات الكتب التي ألّفت لطبقات معينة.

ترعرع ذلك النثر الفنّي في أحضان الطبقة المترفة التي أتاح لها الثراء التمتّع بنعيم الحياة داخل القصور والتقلّب بين الجواري والقيان والغلمان ، وقضاء الساعات الطويلة في مجالس الشراب تحت ظلال الأشجار وعلى ضفاف الأنهار بين الزهور والرياحين ، فانعكس كل ذلك على أساليب النثر الفنّي الذي بلغت الرسائل فيه " أدقّ آية من ازدهار الفن الاسلامي ،ومادتها هي نفس ما عالجته يد الفنّان وهي اللغة، ولو لم تصل الينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في

هـذه الرسائـل مبلـغ تقديـر **المسلمين** للرشاقـة وامتلاكهـم لناحيـة البيـان فـي صورتـه الصعبـة " (1) ويرجـع فضـل ذلـك فـي العـراق لامـراء وملـوك بنـي بويـه المثقفيـن والذيـن اختـاروا للـوزارات وادارة دواويـن الدولـة أعظـم أدبـاء العصـر ومفكريـه، فتكونـت منهـم مدرسـة رأسهـا أبـو الفضـل بـن العميـد (ت 360) والصاحـب بـن عبـاد، وأبـو اسحـاق الصابـي (ت 364).

أمّـا مقدمـات الكتـب التـي صيغـت بذلـك الاسلـوب المزخـرف فيصعـب حصرهـا ويكفـي الاشـارة الـى مقدمـة كتـابُ " الوساطـة بيـن المتنبّـي وخصومـه " (2) للقاضـي الجرجانـي (ت 366) وخطبـة كتـاب " زهـر الآداب " (3) لأبـي اسحـاق القيروانـي (ت 413)، ومقدمـة كتـاب

---

1) آدم متز - الحضـارة الاسلاميـة 1/ 447

2) التفاضل - أطال اللـه بقاءك - داعيـة التنافس، والتنافـس سبب التحاسد، وأهـل النقـص رجلان: رجـل أتـاه التقصير من قبلـه، وقعـد بـه عـن الكمال اختيـاره، فهـو يساهـم الفضلاء بطبعـه، ويحتـوي علـى الفضـل بقـدر سهمـه، وآخـر رأى النقـص ممتزجـا بخلقتـه، ومؤثّـلا فـي تركيب فطرته، فاستشعـر اليـأس مـن زوالـه، وقصـرت بـه الهمـة عـن انتقالـه، فلجـأ الـى حسـد الأفاضـل، واستغـاث بانتقـاص الأماثـل، - القاضـي الجرجانـي - الوساطـة ص1

3) وبعـد، فهـذا كتـاب اخترت فيـه قطعـة كافيـة مـن البلاغـات، فـي الشعـر والخبـر، والفصـول والفقـر، ممّـا أحسـن لفظـه ومعنـاه، واستـدل بفحـواه علـى مغـزاه، ولـم يكـن شـاردا حوشيـا ولا ساقطـا سوقيـا - أبـو اسحـاق القيروانـي - زهـر الآداب - 1/1.

" التمثيل والمحاضرة " (1) للثعالبي (ت 429) ، وخطبة كتاب " العمدة في محاسن الشعر " (2) لابن رشيق القيرواني (ت 456) . ومن الكتب الأدبية التي عمت الزخرفة البديعية أرجائها " مقامات بديع الزمان الهمذاني " (ت 398) .

أمّا القسم الثاني من النثر فهو ما استخدم في تأليف الكتب ، وشرح المتون ، ومن أهم ميزاته تجنّب الزخرف البديعي والابتعاد عن الاغراق في الخيال والجنوح الى الواقعية، ويعود ذلك الى عدم تكلّف الأديب أثناء الكتابة. اذ يترك نفسه على سجيتها ويستخدم اسلوبه العادي ، لأنّ عنايته أثناء الكتابة منصبة على عرض الحقائق ليس غير، وقد شاع استخدام ذلك الاسلوب في الموسوعات الأدبية ك " كتاب الأغاني " وغيره من الكتب والمؤلفات ذات السمة العلمية مثل كتاب " نقد الشعر " لقدامة ابن جعفر (ت 337) وكتاب " تجارب الامم " لمسكويه (ت 421) .

وبخصوص النقد فلم يعد كما كان في عصوره السابقة متمثّلا في الملاحظات المتفرقة التي يبديها العلماء والشعراء واللغويون والنحويون كل حسب اتجاهه وميوله ،ففي هذا العصر أصبح النقد علما قائما بذاته ،

---

1) وبعد : فلمولانا الامير (الاجل) شمس المعالي - (أدام الله علوه ،وكبت عدوّه) - عبيد ينتمون الى شرف خدمته وان اقعدتهم العوائق عن كعبة الملك من حضرته - حرسها الله وآنسها - ومنهم العبد الذي شعاره الاعتزاء الى خدمته (والاعتزاز) بالعبودية لسدته - الثعالبي - التمثيل والمحاضرة - ص 4

2) أما بعد ، فان حق من جنى ثمر الالباب ،واقتطف زهر الآداب ، متنزها في عقول الحكماء ،متفكها في اقاويل العلماء ،بالغا بمهمته اعلى المراتب خاطبا لنفسه أسنى المطالب ، مستقرا في أرفع ذروة ، متمسكا بأوثق عروة ،من عرض للعلم حقه وفضله وسلك به طرقه وسبله - ابن رشيق - العمدة - 1/15 .

لـه أصولـه وقواعـده، وقـد اختـصّ بـه أربـاب الأدب مـن متذوقـي الشعـر دون سواهـم مـن النحويين واللغويين الذين صـارت عنايتهـم بالنقـد الأدبـي ضئيلـة لا تكـاد تحسّ ،لأنّ الشعـراء والنقّـاد لـم يعـودوا يحفلـون بنقـد أولئك لمـا يكتنفـه مـن تعسـف لا صلـة لـه بـروح الشعـر. يقـول القاضي الجرجانـي عـن ذلـك أثنـاء دفاعـه عـن المتنبّي " انّ المعترضيـن عليـه أحـد رجليـن : امّـا نحـوي لغـوي لا بصـر لـه بصناعـة الشعـر ، فهـو يتعـرض مـن انتقـاد المعانـي لمـا يـدلّ علـى نقصـه ويكشـف عـن استحكـام جهلـه... أو معنـوي مدقّـق لا علـم لـه بالاعـراب واتسـاع اللغـة" (1).

اذن فلقـد استطـاع النقـد أن يتخطـى معظـم معوقاتـه وأن يشـقّ طريقـه علـى أيـدي كتـاب الأدب والمثقفيـن مـن الشعـراء، ممـن لديهـم دربـة ودرايـة بمعرفـة دقائـق الأدب والشعـر. ومـن أهـم مظاهـر النقـد الأدبـي فـي هـذا العصـر شيـوع الموازنـات بيـن الشعـراء ، ك " الموازنـة بيـن أبـي تمـام والبحتـري " للآمـدي (ت 370) " الوساطـة بيـن المتنبّـي وخصومـه" للقاضـي الجرجانـي . كمـا كثـرت شـروح الشعـر فـ " شـرح ابـن جنـي لديـوان المتنبّـي مشهـور وقـد سمّـاه ، الفسـر، ويعـد التبريـزي مـن أكثـر شراح الشعر آثـارا " (2). اضافـة الـى ذلـك فلقـد نشـط ادبـاء العصر ونقّـاده فـي تجميـع آراء مـن سبقهـم مـن نقّـاد ولغوييـن وشعـراء، اعملـوا فيهـا فكرهـم وأضافـوا عليهـا ونقدوهـا .

---

1) ـ الوساطـة بيـن المتنبـي وخصومـه ـ مـن ص 434 حتـى ص 438.

2) طـه حسيـن ـ حديـث الاربعـاء 37/2

ونظرا للتطور الحضاري وتأثير الفلسفة اليونانية في العقلية الاسلامية، وتباين الشعراء في أساليبهم ومناهجهم وفكرهم، بين محافظ على عمود الشعر، ومجدد يحاول استلهام الحضارة بما حوته من زخرف وعلوم، فقد اتسم الكثير من شعر هذا العصر بتلك السمات التجديدية وعلى اثر ذلك وبحكم التطور، انقسم النقّاد الى مدرستين نقديتين مختلفتين .

مدرسة النقد المتأثر بالذوق الأدبي ذي الطابع العربي الخالص من شوائب الثقافات الاخرى ، ومن أعلامها : أبو الفرج الاصفهاني (ت 356 هـ) الذي ضمن كتابه " الأغاني " جميع الملاحظات النقدية المأثورة عن العرب منذ العصر الجاهلي ، اضافة الى آرائه وتعليقاته الذوقية الخالصة (1) ، ومنهم القاضي الجرجاني الذي قدم في وساطته فصلا عن الشعر وملابساته، وأثر التحضر فيه (2) مستندا في ذلك على المأثور من النقد ، مستخدما ثقافته وذوقه أثناء عرض مثل تلك الملاحظات. ومنهم أبو علي الحاتمي (ت 388) في " الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبّي في شعر كلام أرسطو في الحكمة" حيث لم يخرج من دائرة الملاحظة النقدية القديمة، وان حاول أن يبدي وجهة نظره واعمال ذروته أثناء ذلك معتمدا على ثقافة ذات طابع موسوعي (3).

---

1) راجع : سعيد سلوم ـ نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع ص 80 ، 81 ، 82.

2) راجع : القاضي الجرجاني ـ الوساطة بين المتنبّي وخصومه ـ ص 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 18 .....

3) راجع: سعيد سلوم ـ السابق ص 354 ، 355.

أمّا المدرسة الثانية فهي تلك التي حاولت علمنة النقد الأدبي معتمدة في ذلك على التقسيمات المنطقية متأثرة بما وفد على العربية من علوم الفلسفة والمنطق. ممّا طبع النقد بالروح العلمية التي أحالته الى آراء ونظريات جافة، وعلى وجه الخصوص عند قدامة بن جعفر (ت 337) في كتابه " نقد الشعر " الذي " أخذ الشعر بتقسيمات المنطق والسير في دراسته بالروح العلمية المحضة ونسيان الذوق والحساسة الفنية" (1) كما تبنى ذات المنهج العلمي الصاحب بن عباد في رسالته " الكشف عن مساوئ المتنبي " ولكنه حاول أن يخفّف من جفافه بإعمال ذوقه (2) ، كما تمكّن أبو هلال العسكري (ت 395) أن يوازن بين الفلسفة وبين الذوق العربي (3) في كتابيه " الصناعتين " و " ديوان المعاني " .

وللشريف الرضي بعض الملاحظات النقدية المنبثة في مؤلفاته وهي تمثّل انتماءه الى أصحاب الذوق العربي الذين يرون أنّ قيمة الشعر في : متانة اسلوبه، وجزالة ألفاظه، وما يحويه من مضمون اخلاقي. وقد لخّص آراءه النقدية في الشعر بقوله : (من السريع)

وُمستهلاتٍ كصوبِ الحَيَا تَبْقَى وأقوالُ الفَتَى تُفْنَى
منتصباتٍ كالقَنَا لا نَرَى عَيْباً مِنَ القَوْلِ ولا أفْنَا
لا يَفضُلُ المعنَى عَلى لفظِهِ شَيئاً وَلا اللفظُ على المَعنَى (4)

---

1) طه ابراهيم - تاريخ النقد الأدبي عند العرب - ص 143
2) راجع: محمد عبد المنعم خفاجي - مقدمة تحقيق كتاب نقد الشعر ص 44 .
3) راجع : السابق - نفس الصفحة
4) الشريف الرضي - الديوان - 2/555 .

وعلى أساس القاعدة السابقة بنى اعجابه بأبيات النمر بن تولب (من الطويل)

يودّ الفتى طولَ السلامةِ والغِنَى
فكيفَ يرى طولَ السلامةِ يَفْعَلُ (1)

وعن قضية المضمون الخلقي للشعر، يقف الشريف من امرىء القيس - موقف الرسول (ص) في قوله في كلام ذكر فيه " يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النّار " ففي حديثه عن المجاز البياني ، في الحديث الشريف ما يدل على اقراره بشاعرية امرىء القيس وتفوقه على الشعراء رغم ما يحويه شعره من معان مناقضة للاخلاق (2) .

وعلى هذا يمكن القول : بأنّ موقف الشريف النقدي لم يكن يبتعد عن محيط الثقافة العربية الاسلامية المحافظة، التي لم تتأثّر بالثقافات الاجنبية .

ولا يعني هذا بأنّ الشريف لم يكن على دراية بتلك الثقافات، فكتبه - التي بين أيدينا - بما حوته من مجادلات كلامية تدل على تضلعه في الفلسفة وعلم الكلام، الا أنّ تمسكه بالتراث واعتزازه بالعربية ابيا عليه الاّ أن يأخذ بما جاء به العرب في مجال صناعتهم، ممّا جعله ينأى - في هذا الجانب - عن كل ما يحس بأنّ فيه مساسا باصالة

---

1) الشريف الرضي - المجازات النبوية - ص 280 .

2) راجع : السابق - ص 112 .

الأدب العربي ، وممّا يؤكّد ذلك دراسته للمجاز البياني في كل من القرآن الكريم والحديث الشريف . وكأنّه يريد أن يقول لأدباء عصره الذين حاولوا اظهار براعتهم البيانية : بأنكم لم تأتوا بجديد ، فكل ما قلتموه وتكلفتموه انما هو تقليد لذنيك المصدرين .

2 ـ الشعر : أ) حالته :

بقي الشعر متألقا في القرن الرابع الهجري ،وزاد الاهتمام به أكثر من ذي قبل ، حيث تغلغل في وصف أدق دقائق الحياة ، فنقلها في صور نابضة ، معبرة عما في ذلك المجتمع من خير وشرّ ، فكان جزلا قويا تفوح من تعبيراته رائحة الاباء والبطولة والشمم ، حيث الفخر والمدح ووصف المعارك ، رقيقا منسابا عذبا حيث النسيب والغزل ، سهل العبارة بذيئها حيث الخلاعة والمجون والتهتّك ، مؤثرا مفجعا حيث الرثاء والتظلم والشكوى ، عميقا تأمليا حيث الحكمة والتصوف والفلسفة.

وكان وراء ذلك السيل المتلاطم من الشعر من يشجعه من ملوك ،وأمراء ، ومترفين ، وفلاسفة ، وتأمليين ، ومجّان ، وفقراء ،وعشّاق ،كل حسب مذهبه ، وطبقته وثقافته ، ممّا مكّن للشعراء ـ على كثرتهم ـ من نفوس الخاص والعام وقد " فتح لهم الثعالبي في كتابه اليتيمة ثم في تتمة اليتيمة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم في العراق عنده أكثر من سبعين شاعرا ممّا يصور ازدهار الشعر حينئذ " (1) .

---

1) ضيف ـ عصر الدول والامارات ـ ص 293 .

ب) مميزاتـــــــه :

اتسعـت مساحـة الشعـر ممـا طبعـه بمميـزات مختلفـة عمّـا كـان عليـه سابقـا مـن حيـث الشكـل ومـن حيـــث المضمـــــون :

1- فمـن حيـث الشكـل كـادت المقدمـة الطلليـة ان تندثر ويسـدل الستـار عليهـا ، بعـد أن كانـت بيـن أخـــذ وردّ ، ومـدّ وجـزر فـي القرنيـن الثانـي والثالـث الهجرييـن ، واستعيض عنهـا بالمقدمـة ذات الصلـة الوثيقـة بغـرض القصيـدة ، وقـد أشـار بـن طباطبـا الـى ذلـك بقولـه " ومـن الابيات التي تخلص بهـا قائلوهـا الـى المعانـي التـي أرادوهـا مـن مديـــح وهجـاء وافتخـار وغيـر ذلـك ولطفـوا فـي صلـة ما بعدهـــا بهـا فصـارت غيـر منقطعـة عنهـا مـا أبدعـه المحدثـون مـن الشعـراء دون غيرهـم " (1) والربـط بيـن المقدمـة وغـــرض القصيـدة أعطاهـا ميـزة الدخـول المباشـر لـذاك الغـرض دون اطالـة أو معاضلـة، أو حتّـى احتيـال للمسـك بطـرف الخيـط ممّـا أحكـم لحمتهـا ، ووحّـد بيـن أجزائهـا ، فصـــارت كـــلاّ مكتمـــــلا .

أمّـا مـن حيـث موسيقـى الشعـر : فلقـد عـزف الشعـراء علـى جميـع البحـور ، وفـي جميـع الأغـراض، بغـضّ النظـــر عمّـا قيـل عـن طبيعـة البحـور، ومناسبـة كـل منهـا لأغـراض معينـة (2) اذ تمكّـن أولئـك الشعـراء - بمـا لديهـم مـــن

---

1) سعيد سلوم - نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة - ص 215. 216 .

2) راجع : ابراهيم أنيس - موسيقى الشعر ص 176. 177. 178 - حيث يعطي لكل بحر من بحور الشعر العربي خصائص معينة مستوحيا تلك الخصائص من الشعر العربـــي وموضوعاته في أدواره المختلفة الا أنّ تلك الخصائـــص لا يمكن تطبيقهـا على شعر القرن الرابع الهجـري .

قاموس لغوي متسع، وأفق ثقافي رحب، وذوق شفّاف - من تطويع تلك البحور لتتناسب وأغراضهم ،فاستخدموا - على سبيل المثال - بحري الطويل والبسيط (1) في الغزل ووصف مجالس الخمرة وغيرها من الأغراض الهامسة التي تناسبها البحور الخفيفة ومجزوءات البحور (2) التي تناسب الغناء والزهد والشكوى .

وكان لحياة الترف واللهو دور أساسي في أساليب الشعر ، حيث الحدائق الغنّاء ، والقصور الفخمة ،والجواري والقيان والغلمان مما جعل الشاعر العباسي يتأنق في اختيار الألفاظ ويحرص على أن تكون ممثلة لموضوع القصيدة تمثلا ظاهرا .

ووجهت مجالس الانس والمجون والخلاعة الشعر وجهة تتناسب وحياة تلك الطبقة اللاهية، التي كان همها التمتّع بأكبر قدر من ملذات الحياة ، فترك ذلك أثرا بينا على اللغة، اذ شاع استعمال العامي والدخيل ، لأنّ استخدامهم لمثل تلك الأساليب " لم يؤذهم أو ينال منهم ،فهم كانوا لا يعنون في هذه المجالس باجادة أو اتقان ، وانما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم "(3).

---

1) راجع : الثعالبي - يتيمة الدهر - 1/258، 259، 260 ، 229/2، 406 ، 407 ، 11/3 ، 38 ، 13/4 ، 14 .

2) محمد زغلول سلام - دراسات في الادب العربي/العصر العباسي ص 205

3) طه حسين - حديث الاربعاء - 37/2.

وبسبب التطور العظيم الذي حدث للقاموس اللغوي راضت أساليب اللذة للشعراء ، فتمكنوا من نظم القصائد الطوال ، ممّا جعل أسلوب الشعر يقترب من أساليب الكتابة في الشرح وتوليد المعاني ، وتوسيع صور عرضها .

وخلاصة القول : انّ الشعر في القرن الرابع قد تمكّن من استيعاب القاموس اللغوي ،فكان ذلك باعثا له ، لأن يغطّي جميع شؤون الحياة ، التي صار بها رفيقا وأنيسا لجميع طبقات الشعب ، حيث لم يعد مختصّا بطبقة معينة من النّاس ، ممّا جعل مضامينه تتسع وتتشعّب لتمثّل كل موضوع من موضوعات المجتمع الحياتية .

فلقد كان الشعر أنيس المجان والمتهتكين في مجالسهم التي كانوا يطرحون فيها رداء العفّة والوقار في سبيل اغتراف اللذة كما يقول الحسن التتيسي :

(من الكامل)

جانبتُ بَعدَكَ عِفّتي وقَارِي
وخلعتُ فِي طُرُقِ المُجُونِ عَذَارِي (1)

حتّى الصلاة لم تعد في عرف أولئك المجان الا عادة يؤديها الفرد منهم ليتفرغ لملذاته كقول أحمد الدمشقي : (من الخفيف)

قَدْ عَدَونَا الَى صلاةِ الغَداةِ
ثم ملنَا مِنْهَا الى الحَانَاتِ (2)

---

1) الثعالبي - يتيمة الدهر - 1/ 374

2) السابق - 1/356

وهو بجانب ذلك رفيق الزاهد المتعفف الهارب من هذه الدنيا خوفا من رزاياها كقول ابو سهل الصعلوكي : (من مجزوء الرجز)

دع الدّنيَا لعاشِقِها ستصبحُ مِن ذبائِحِهَا
ولا تغُرُرْكَ رائحةٌ تُصيبكَ مِن روائِحِهَا
فمادِحُهَا بغفلتِهِ يَصِيرُ إلى فضائِحِهَا (1)

وهو أيضا صديق الغنى الذي كان يرى فيما يملك من ثروة قوة سحرية تمكّن له من كل ملذات الحياة وفي هذا الشأن يقول أبو الفتح البستي : (متقارب)

دعوتُ الغِنَى ودعوتُ المُنَى
فلمّا أجابَا دعوتُ القَدَحْ
إذا بلَغَ المرءُ آمالَهُ
فليسَ لَهُ بعدَهَا مُقْتَرَحْ (2)

و سلوة الفقير حيث يحاول عن طريقه التخفيف من الآلام التي تسوء نفسه بها فينفس عن ذلك امّا بالشكوى أو بالتهكّم المرير كقول ابن سكرة الهاشمي (مجزوء الرمل)

قيلَ ما أعددتَ للبر دِ فقد جاءَ بشدّه
قلتُ دِرّاعَةَ عِرِي تَحْتَهَا جُبّة رُعْدَه (3)

---

1) السابق - 419/4
2) السابق - 185/3
3) السابق - 25/3

وانشودة العالم التي يحاول بها أن يسبغ على ظمبه كل قوة وهيبة كقول أبي الفتح البستي : (من الطويل)

إذا أقسمَ الأبطالُ يوماً بسيفِهم
وعدّوهُ ممّا يُكسِبُ المجدَ والكَرَمْ
كفَى قلمُ الكُتّابِ مجداً ورِفعَةً
مدى الدّهرِ أنّ اللّه أقسَمَ بالقَلَمْ(1)

وهو أيضا تعبير عن واقع مؤلم يمسك فيه ارائل الناس بأزمة الأمور مما يحتم على الشاعر نقد ذلك المجتمع كقول بن لنكك (من الوافر)

زمانٌ قَدْ تفرّغَ للفضولِ
يُسوّدُ كلّ ذِي حُمْقٍ جَهُولِ
فإن أحببتم فيهِ ارتياحاً
فكونُوا جاهلينَ بلا عُقُولِ(2)

وهو تعبير عن ثورة نفس أنهكها الكبت فانفجرت بعد صبر طويل على الضيم والهوان ، يقول أبو اسحاق الصابي : (من الطويل)

ألا قل لأهل الدولة النذلة التي
ثوى داؤها فينا واعيا دواؤها
لقد كبت الدنيا على أم وجهها
فنحن لها أرض وأنتم سماؤها
فلا تفرحوا بالحظ منها فانّه
قليل على هذا المحال بقاؤها(3)

---

1) الحصري القيرواني - زهر الآداب - 1/432
2) الثعالبي - السابق 2/349
3) السابق - 2/285

كما أنّه ملهم المرفّه المتقلّب في نعيم الحياة وغضارتها فالطبيعة بكل ما فيها من جمال وحسن مبتهجة رائعة. يصف التاشي التوخي دجلة عند المساء بقوله : (من الكامل)

لم أنسَ دجلَةَ والدُّجَى متصوّبُ
والبدرُ في أفقِ السّماءِ مغرّبُ
فكأنّها فيهِ بساطٌ أزرقٌ
وكأنّهُ فيها طرازٌ مُذهّبُ (1)

وهو ميدان تتبارى فيه قرائح المحتالين من مكدين وعيارين ولصوص ومن ذلك قول الأحنف العكبري مفتخرا : (من البسيط)

قد قسّم اللّهُ رزقي في البلادِ فَمَا
يَكَادُ يُدْرَكُ الا بالتفاريقِ
ولستُ مُكْتَسِبًا رزْقًا بفلسفَةٍ
ولا بشعرٍ ولكنْ بالمخاريقِ
والنّاسُ قد عَلِمُوا أنّي اخو دَجَلٍ
فلستُ أُنْفِقُ إلاّ في الرّساتيقِ (2)

ويطول بنا البحث لو حاولنا استيعاب موضوعات شعر القرن الرابع الهجري خاصّة وأنّ شعراء ذلك العصر قد دسوا أنوفهم في كل موضوع من موضوعات الحياة حتى يخيّل للمرء - وهو يقرأ أدب تلك الفترة - انّ جميع أفراد ذلك المجتمع ينظمون الشعر .

---

1) السابق - 2/339.

2) السابق - 3/119.

2- من حيث المضمون :

تمكّن شعراء القرن الرابع الهجري من استيعاب جميع الأغراض التقليدية القديمة من مدح وفخر ورثاء ووصف ..... الا أنّ ساحة ذلك الشعر قد تقلصت في بعض من تلك الأغراض، فعلى سبيل المثال : لم يعد الفخر كما كان عليه في السابق ،ويرجع ذلك الى ذوبان الروح العربية، وانصهارها مع بقية الأجناس،حيث خمدت الروح العصبية التي تهيء لمثل ذلك الشعر، الا في بعض الشعر المتسم بالارستقراطية العربية حيث نفس الصحراء لازال قويا كما نجده عند المتنبّي وأبي فراس الحمداني والشريفين الرضي والمرتضى .

وقابل ذلك التقلّص في ساحة بعض المضامين اتساع وابتكار مضامين جديدة خلقتها حاجة العصر، ويرجع ذلك الى النزعة الواقعية تمكنت من شعراء العصر ما جعلهم يتغنّون بما هو معاش منطلقين من رؤية واحساس ومعايشة مما فتح لهم مجال القول في أغراض جديدة ومكّن لهم من تطوير أغراض أخرى كانت مطروحة من قبل .

فمن تلك الأغراض : الشعر الصوفي الذي ارتقى على أيدي شعراء ذلك العصر من الصوفية ، اذ لم يعد مقصورا على معاني الزهد والتقشف (1) بل تعدّى تلك المرحلة البسيطة الى الجنب الفلسفي البعيد الغور اذ كان ظاهرة غزلا وهياما ووجدا ، أمّا الباطن فيعني ذلك الوجد اللا متناهي والذوبان في غرام الذات الالهية

---

1) راجع : محمد البهلي النيال - الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي ص 82 وما بعدها - عمر فروخ - التصوف الاسلامي - ص 103 و 105 .

الى حد الثمالة ، ممّا جعل ذلك الشعر يمتلىء بشحنات من مصطلحات الفلسفة الصوفية كقول الحلاّج (ت 309) (من البسيط)

الكأسُ سهّل لي الشّكوى فبحتُ لكمْ
وما على الكأسِ من شُرّابِها دَرَكُ
هَبْنِي ادّعيتُ بأنّي مُدنَفٌ سَقِمٌ
فما لمضجعِ جنبي كلّهُ حَسَكُ
هجرٌ بسوءٍ ووصلٌ لا أسرّ بهِ
مالي يدورُ بما لا أشتهي الفَلَكُ
فكلّما زادَ دمعيْ زادني قَلَقًا
كأنّني شَمْعَةٌ تَبْكِي فتسبكُ (1)

كما تولّد عن احتكاك الفكر العربي بالفكر الأجنبي الشعر الفلسفي والشعر الحكمي ، وقد تجلّى وضوح الفلسفة وعمقها واتساعها عند شاعر المعرة أبي العلاء المعرّي أمّا الحكمة فقد بلغت ذروتها عند كل من المتنبّي والشريف الرضي رغم التباين في وجهات النظر بين الشاعرين بانسبة للحياة (2) .

وبسبب التفكّك في طبقات المجتمع ، والتباين بين أفراده في حياتهم المعيشية ، أصبح شعر شكوى الزمان بابا قائما بذاته ، بينما كان في السابق عبارة عن أبيات تتخلّل قصيدة الشاعر ، لذلك لم نجد شاعرا من شعراء ذلك العصر الاّ وله قصائدا ومقطوعات في هذا

---

1) محمد بن عبد الملك الهمذاني - تكملة تاريخ الطبري - 11/221 .

2) راجع الفصل الثالث من هذا البحث - شعر الشريف الرضي .

البـاب، حتـى الـوزراء والأمـراء وكبـار رجـالات الدولـة (1).

وكـان لتقلّب الطبقـات المترفـة فـي النعيـم أثـره على الشعـر، حيـث الزهـور والرياحيـن والمياه الجاريـة ممّا ولّد أبوابـا شعريّة خاصّة، تمثـل ذلـك التـرف بكـل أبعـاده، فنتـج عـن ذلـك شعـر الزهريـات وشعر الخمريـات ووصـف القصـور هـذا بالاضافة الى شعـر وصف الطبيعة(2).

وأخـذ الشعـر فـي كثيـر مـن الأحيـان يقـوم مقام النثـر الفنّـي، فاستخدمـه الأدبـاء والكتّـاب فـي التراسـل فيمـا بينهـم، فتولّـد عـن ذلـك فـن جديـد يمكننـا تسميتـه بالاخوانيات الشعريـة، حيـث استخـدم فـي التهانـي بالمواليـد، وبالـزواج وبالاعيـاد، والتهـادي بالفاكهـة والاطعمـة والنبيـذ والزهـور والعطـور وورق الكتابـة الـى غيـر ذلـك مـن موضوعـات يطرقهـا الأحبّـة والأصدقـاء والأقـارب فيمـا بينهـم بمناسبات مسراتهم(3).

كمـا ملـىء شعـر العصـر بالمجـون والخلاعـة، والوصـف الحسّـي الفاضـح دون أيّـة مواربـة أو خجـل وكـان موضـوع

---

1) راجـع: الشريـف الرضـي - الديـوان 1/321، 560- الثعالبـي اليتيمـة - 2/222 - 3/54، 55.

2) راجـع: البرقوقـي - شـروح ديـوان المتنبّـي - 1/263، 2/117، الحصـري القيروانـي - زهـر الآداب - 1/527، الثعالبـي - اليتيمـة - 2/260، 261، 266، 267.

3) راجـع: الشريـف الرضـي - الديـوان - 2/266، 534. الثعالبـي - اليتيمـة - 1/97، 98 - 2/503.

الجواري والقيان والغلمان من أوسع أبواب الشعر التي طرقت، اذ يندر أن نجد شاعرا من شعراء القرن الرابع الهجري لم يطرق بابا من تلك الأبواب وبسبب ذلك فقد " خسرت الأخلاق من هذا التطور ، وربح الأدب ، فلم يعرف العرب عصرا كثر فيه المجون وأتقن الشعر التصرّف في فنونه وألوانه كهذا العصر " (1) .

ذلك هو العصر الذي عاشه الشريف الرضي ،وتلك هي بغداد المدينة التي احتضنته منذ طفولته حتّى آخر يوم في حياته، فما مدى تفاعله مع تلك البيئة بكل ما ضمّته من خير وشرّ ؟ ؟

---

1) طه حسين - حديث الاربعاء - 32/2

الفصل الثاني

حياة الشريف الرضي

ـ نسبه :

انّه لمن العسير جدّا أن يوفق ذوو المرامي العالية والآمال الكبيرة الى الموازنة بين آمالهم المحتشدة داخل نفوسهم المشحونة بالطموحات، وبين ما يقف حائلا دون تحقيق تلك الآمال، ممّا يولّد لديهم صراعات نفسيّة تؤدي في نهاية الأمر الى التمرّد على المجتمع وقيمه .

وفي اعتقادي : أنّ من أهم الأمور التي تضرم ذلك الصراع داخل النفس، انتماء الشخص الى أسرة عريقة في النسب، واقتناعه بهذه العراقة في مجتمع يقرّ التمايز الطبقي ، الاّ أنّه في سبيل تغليب مصلحة فئة معينة،يتجاهل تلك القيمة قوم عندهم القوّة والجاه والسلطان ، فلا حقّ الاّ لأولئك الذين وصلوا الى كرسي السلطة بسيوفهم ودهائهم .

لذا لا نعجب حين نرى أنّ انتماء الشريف الى نسب عريق كان سيفا ذا حدّين ، فبقدر ما مزقه من الداخل وجعل نفسه تتضج ألمًا ، بقدر ما جعل شاعريته سيالة بفيض من الشعرالمفعم بالأحاسيس الصادقة حيث جعله ذلك النسب يتغنّى بالشعر وهو دون الحادية عشرة ومن ذلك قوله : (من البسيط)

المجدُ يعلمُ أنّ المجدَ مِنْ أَرَبِي وَلَوْ تماديتُ في غيٍ وفي لعبِ
إنيّ لَمِنْ مَعْشَرٍ إنْ جُمِّعُوا لِعُلىً تفرّقوا عن نبيٍ أو وصيّ نبيِ (1)

---

1) محي الدين عبد الحميد ـ شرح ديوان الشريف الرضي 1/ 247

أجل لقد أصبح ذلك النسب العريق سيفاً مسلطاً على نفس الشريف التي لم يقرّ لها قرار ولم تجد الطمأنينة أو الهدوء طيلة السبع والأربعين سنة التي عاشها ، وقد استفاد الأدب والشعر من ذلك ايما فائدة حيث خلّف لنا من الشعر ما يمكن اعتباره من أصدق التجارب الوجدانية في الشعر العربي ، اذ لم يكن ذلك الفخر بالنسب صادر عن مباهاة أو غطرسة جوفاء ، بل كان محاولة من الشاعر لتبيان حق مهضوم من وجهة نظره وانطلاقاً من عقيدته ممّا يجعله يلحّ عليه ويستميت في اظهاره ، فهو يتحدّى الخليفة ويرى نفسه ندّاً له حين يقول : (من الكامل)

عَطْفاً أميرَ المؤمنين فإنّنَا
في دوحةِ العلياءِ لا نتفرّقُ
ما بيننَا يومَ الفَخَارِ تفاوتٌ
أبداً كِلانَا في المعالي مُعْرِقُ
إلاّ الخلافةَ ميّزتْكَ فإنّني
أنا عاطلٌ منْهَا وأنتَ مُطوّقُ (1)

وعليه فتغنّي الرضي بنسبه ليس مما تمجه النفس لما فيه من صدق الاحساس وعمق التجربة ، والشعور بالظلم . وهنا قد يتبادر للباحث سؤالان :

أولهما : ألم يكن أخوه الأكبر المرتضى أحق منه بالافتخار بذلك النسب اذ أنّ كلاً منهما ذو شاعرية فذّة ، وهما شقيقان من أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدة ؟ فلِمَ لَمْ يؤثر عن المرتضى مثل ذلك الفخر ؟ ولِمَ لم يَتحدّ المرتضى أحداً ؟ ولِمَ لم يعانِ كما عانى أخوه الرضي ؟

---

1) الشريف الرضي - ديوان الرضي - 42/2 .

انّ الجواب على ذلك يتمثّل في أنّ الطباع الانسانية ليست واحدة، ومشارب البشر في هذه الحياة متباينة، فالمرتضى قد تمكّن من ترويض نفسه على التعامل مع المجتمع الذي عاش فيه، حيث وجد في العلم بغيته(1)، فلم يحاول أن يدس أنفه في شؤون سياسة عصره، مكتفيا بزعامة طائفته الروحية التي تبوأها عن جدارة.

أمّا السؤال الثاني ففحواه: ألم يكن هناك في عصر الشريف من العلويين من هو أولى منه بالمطالبة بحق آل البيت؟

والجواب على ذلك يكون بالنفي. لأنّ نسب الشريف الرضي صريح في صعوده الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من ناحية أبيه وأمّه، فهو " أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى ابن محمد ابن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم المعروف بالموسوي " (2).

ولا يختلف أحد ممن ترجم للشريف الرضي في نسب أبيه، حيث يرجعون أصله الى الامام موسى الكاظم عن ابنه ابراهيم الملقّب بـ " المجاب " (3) والمدفون

---

1) راجع عبد الرزاق محي الدين - أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص 66

2) ابن خلكان - وفيات الأعيان - 4/414

3) ابن خلكان - وفيات الاعيان - 7/414، الخطيب البغدادي تاريخ بغداد 2/246، ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 1/31، ابن عتبه - عمدة الطالب - ص 207، عبد الحسين الاميني الغدير 4/181، يوسف البحراني - لؤلؤة البحرين - ص 323 والكشكول 1/313، عبد الحسين الحلي - مقدمة كتاب حقائق التأويل - ص 22 وحياة الشريف الرضي ص 5، محمد باقر الخوانساري - روضات الجنات 6/190 =

بجوار ضريح الامام الحسين بكربلاء، هذا وقد أشار الشيخ عبد الحسين الحلي في ترجمته للشريف الرضي بقوله " لا قعدد مثل أبيه في علو النسب وصراحته ورسوخ خدوده الا الامام المهدي الذي هو الخامس من ولد موسى بن جعفر" (1)، فمن ملاحظتنا للرسم التوضيحي المصغر لشجرة النسب سنجد أنّ أبا الشريفين يقع بالنسبة لصراحة نسبه في عين الموقع الذي يقع فيه أمام الشيعة الثاني عشر المهدي المنتظر، أي في الجيل الثاني عشر بالنسبة للامامة، وهذه المنزلة تجعل لاسرة النقيب أبي أحمد مكانة عظيمة في قلوب الشيعة الاثني عشرية.

أمّا أسرته لأمّه فلا تقلّ صراحة في نسبها، الا أنّ هناك اختلافا في سلسلة نسب جده السابع لأمّه فابن أبي الحديد يرد جده السابع (عمر) الى الامام علي بن أبي طالب (2)، أمّا بقيّة المراجع التي تلت ابن أبي الحديد فقد تأرجحت بين ردّ

= احمد الحسيني - أمل الآمل 1/261، 262، جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - 2/567، محمد محي الدين عبد الحميد - شرح ديوان الشريف الرضي - 1/5، عبد الفتاح الحلو - مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي 1/13، محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن العشرين 4/251، جواد شبر - أدب الطف - 2/220 .....

1) حياة الشريف الرضي ص 5.

2) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 1/32.

(عمر) الى الامام علي وبين عزوه الى حفيده الامام زين العابدين (1) .

هذا وقد عرض السيد محسن الامين في كتابه (أعيان الشيعة) لتلك القضية وناقشها من جميع وجوهها وظهر بنتيجة مفادها أنّ جد الشريفين السابع (عمر)

---

1) لم يذكر المسعودي في مروج الذهب 4/ 373 اسم (عمر) بل ردّ نسب والد ام الشريفين الى الامام الحسن بن علي بن أبي طالب ، وقد جانب الصواب في ذلك ، امّا ابن ابي الحديد فقد ذكر في (شرح نهج البلاغة) 1/ 32 (عمر) الجد السابع للشريفين من أمهما ، ولكنه نسبه الى الامام علي بن ابي طالب مباشرة ، وتابعه في ذلك كل من عبد الحسين الاميني في (الغدير) 4/ 181 ، ومحي الدين عبد الحميد في مقدمته لشرح ديوان الشريف الرضي 1/ 4 . أما صاحب (أعيان الشيعة) السيد محسن الاميني فقد أثبت - وبعد محاكمات لوقائع التاريخ - بأن جدّ الشريفين (عمر) هو ابن الامام زين العابدين حفيد الامام علي بن أبي طالب ، كما ذكر ذلك الحلي في (حياة الشريف الرضي) ص 5 ، واتفق معهما رشيد الصفار في مقدمته لتحقيق ديوان الشريف المرتضى 1/ 46 ، وأخذ بالرأي الاخير ايضا الحلو في مقدمة تحقيقه لديوان الشريف الرضي 1/ 13 . ويلاحظ اننا وقفنا عند هذه القضية طويلا لسبب دقيق يتعلق بنسب الشريف الرضي ، لان انتماء (عمر) الى الامام علي مباشرة يحرم امهما من الاتصال بالنسب الى فاطمة الزهراء وهذا بدوره يحرمهما من الاتصال بذلك النسب اذ من المعلوم جيدا بأن فاطمة الزهراء لم تنجب غير الحسن والحسين اما اتصال نسب الام بالامام زين العابدين فيجعلها حفيدة للزهراء . وهذا يعني أنّ الشريف الرضي يتصل بنسبه الى علي والزهراء من الام والاب فهو (علوي) حسب التعريف الدارج عند عامة الشيعة الامامية لانهم يقسّمون آل البيت الى مراتب ثلاث :

1- العلوي : وهو من اتصل نسبه بعلي والزهراء من ابيه وامه ويأتي في المرتبة الاولى بالنسبة الى الاحترام والتبجيل والتقديم في أمور الدين اذا كان متبحرا فيها .

2- السيّد : وهو من اتصل نسبه بعلي والزهراء من أبيه دون أمه ويأتي في مرتبة ثانية بعد العلوي .

3- الميرزا : وهو من اتصل نسبه بعلي والزهراء من أمه دون أبيه ويأتي في مرتبة ثالثة بالنسبة لموقعه من آل البيت (هذه المصطلحات من الامور الدارجة عند الشيعة الامامية) .

هو ابن الامام زين العابدين علي بن الحسين (1) وبذلك حل الاشكال الذي كثيرا ما وقع فيه المؤرخون أثناء بحثهم في حياة كل من الشريفين الرضي والمرتضى .

وأسرة أمّه تلك ذات مجد عريق في نشر الاسلام فجده الأكبر الحسن بن علي (ت 17 ؟) الملقّب بالاطروش " قد كان أقام في الديلم والجبل سنين وهم جاهلية ومنهم مجوس ، فدعاهم الى اللّه تعالى فاستجابوا وأسلموا الاّ قليلا منهم " (2) وقد أشار الرضي الى ذلك في رثائه لأمّه بقوله : (من الكامل)

آباؤكِ الغُرّ الذينَ تفجّرَت
بهُمُ ينابيعُ مِن النَّعْمَاءِ
مِنْ ناصرٍ للحقِّ أو داعٍ الى
سُبُلِ الهُدَى أو فارجِ الغمّاءِ
نزلُوا بِعَرعَرةِ السّنامِ من العُلَى
وَعلُوا على الأثباجِ والأمطاءِ (3)

---

1) راجع السيد محسن الأميني - أعيان الشيعة 22/393

2) المسعودي - مروج الذهب - 4/373

3) الديوان - 1/28 والثبج : وسط الشيء ومعظمه وأعلاه والجمع أثباج . الأمطاء : مفرده مطا : الظهر .

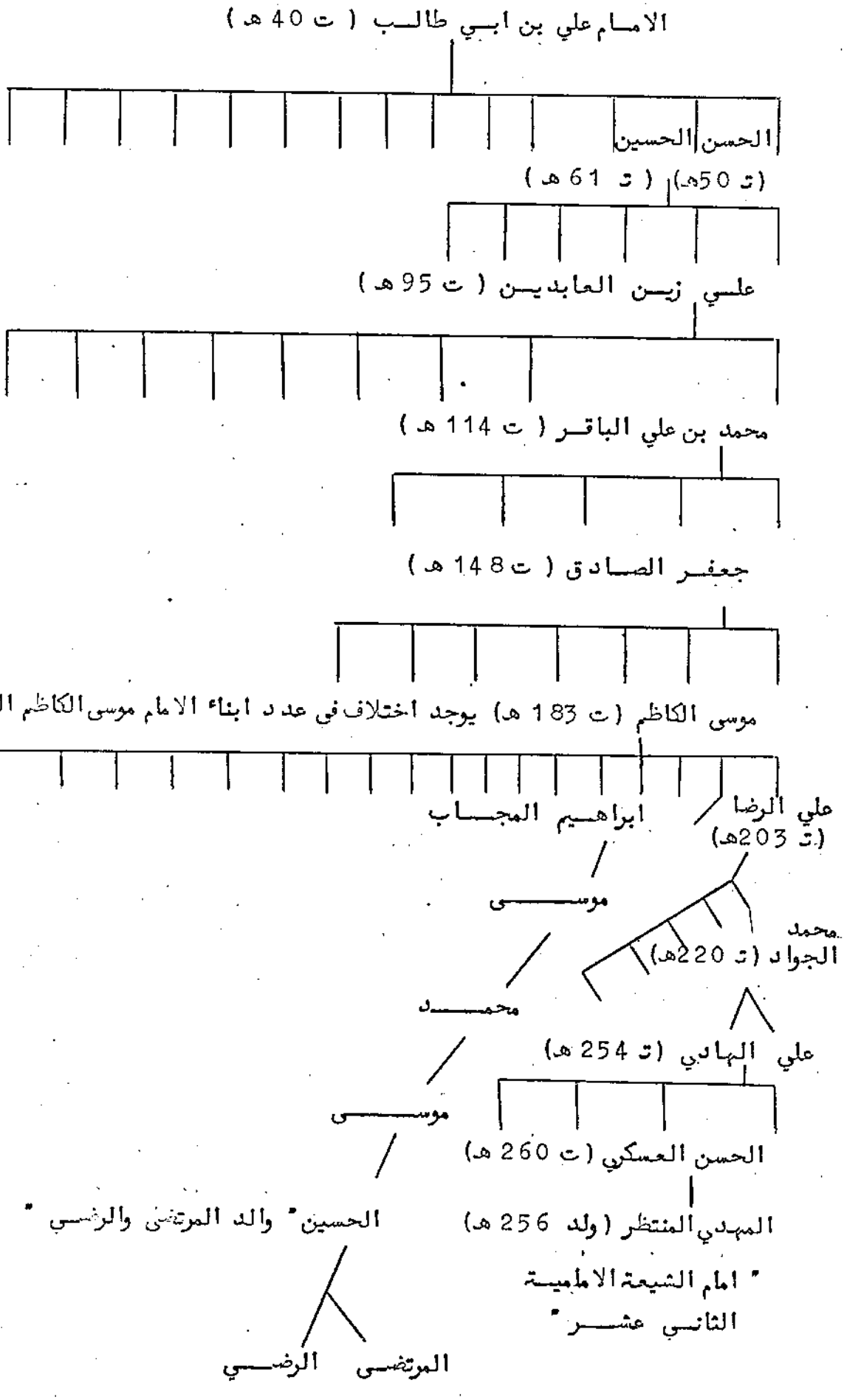

(نموذج مصغر لشجرة نسب الرضي من ابيه)

لقد كوّن ذلك النسب الضارب بجذوره في الاصالة من الشريف الرضي مثالا حيّا لمأساة آل البيت، لما لقيه من تجاهل ، وما واجهه من صدود حين دعا لارجاع الحق الى أهله، في عصر خرج فيه الشيعة عن تقيتهم التي طالما استتروا وراءها خوفا من جور السلطان وبطشه، فكيف كان ذلك ؟ وما مكانة أسرته في مجتمع القرن الرابع ؟

مكانة أسرته ومنزلة أبيه :

في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كانت بغداد وبقية مدن العراق تعيش مخاض التغيير وتتأهب لقيام الفتن والثورات بين الترك والديلم (1) ومن ثم بين أبناء العمومة من آل بويه (2) الذين يملكون زمام السلطة في العراق وفارس، وكان على الاشراف والنقباء خاصّة ذوي المكانة العالية من أولئك الذين وضع الحكام وعامة النّاس ثقتهم بهم أن يتأهبوا للتصدي لتلك الأحداث الجسام ، فهم العدة التي يذخرها الملوك والأمراء لمثل تلك الأمور الخطيرة .

---

1) بدأت الأحداث تتوالى على العراق بعد أن شهد نوعا من الاستقرار في عهد معز الدولة البويهي . راجع مسكويه ـ تجارب الامم 2/ 278، 283 ؛ 283، 295، 296، 307 .....

2) راجع : محمد بن عبد الملك الهمذاني ـ تكملة تاريخ الطبري ص 434 وما بعدها .

في غمرة ذلك المخاض المنذر بالمآسي والفتن وفي عام 359 ولد محمد بن الحسين الملقّب بالشريف الرضي ، وكانت ولادته بعد أخيه المرتضى بأربع سنوات، ويقال أنّ لهما شقيقا ثالثا لم تذكره المصادر التاريخيّة، ولا نعرف سوى لقبه الذي ذكره أبو العلاء المعرّي في مرثيته لأبي أحمد الموسوي والد الشريفين وذلك في قوله : (من الكامل)

ساوى الرضيُّ المرتضَى وتقاسمَا
خُطَطِ المُلا بتناصفٍ وتصافِ
حِلفَا ندىً سبقَا وصلّى الأطهُر الـ
مرضيُّ فَيَا لِثلاثةٍ أحلافِ
أَنتُم ذوو النسبِ القصيرِ فَطُولَكُمُ
بادٍ على الكُبراءِ والأشرافِ (1)

اذن فقد كان مولد الشريف الرضي " في أيّام تفيض بالنكبات وتموج بالدماء " (2) وكان أبو أحمد الموسوي - والد الشريف الرضي - زعيم العلويين وقيمهم في ذلك الوقت ، ممّا ألقى على كاهله عبئا ثقيلا، ومسئوليات جساما تجاه الحكومة وتجاه طبقات المجتمع العراقي في نفس الوقت، فاضطرّ الى التصدّي لألاعيب

---

1) شروح سقط الزند - وزارة الثقافة والارشاد القومي - القسم الثالث ص 1264 . والرضي والمرتضى سبقا ، والمرضي صلّى ان لحق فهو يصغرهما سنّا فيكون الترتيب المرتضى الرضي ، المرضي .

2) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي 1 / 93 .

الحكّام والأمراء، ومحاولة الاصلاح فيما شجر بينهم من خصومات، وتحمّل عبء المفاوضات بينهم وبين جيرانهم من حكّام الأقاليم.

والباحث في تاريخ تلك الفترة، يجد ما لأسرة الشريف من دور كبير في ادارة سياسة الدولة، فيحدّثنا ابن أبي الحديد عن مكانة أبي أحمد الموسوي والد الرضي فيقول " كان السفير بين الخلفاء وبين الملوك من بني بويه والأمراء من بني حمدان وغيرهم، وكان مبارك الغرة ميمون النقيبة، مهيبا نبيلا، ما شرع في اصلاح أمر فاسد الا وصلح على يديه، وانتظم بحسن سفارته وبركته وهمته وحسن تدبيره ووساطته" (1).

هذا وقد حاول الشريف الرضي أن يسجل لنا - من خلال مدائحه في أبيه التي ربت على الثلاثين قصيدة - تلك المواقف التي ما كانت لتتأتى الاّ للنبلاء ذوي النفوذ والسلطان. من ذلك قوله فيه عندما تصدّى للفتنة التي حدثت بين السنّة والشيعة سنة 380 هـ : (من الطويل)

وخطبٌ على الزوراءِ ألقَى جرانَهُ
مديدِ النّواحي مدلهمّ الجوانبِ
وأضرمَهَا حمراءَ ينزُو شَرارُهَا
الى جنباتِ الجوِّ نزوَ الجنادبِ
سللتَ عليهِ الحزمَ حتّى جلوتَهُ
كمَا انجابَ غيمُ العارضِ المتراكبِ
وقدْ عُلِمَ الأعداءُ أنّك تحتَهُ
غلبتَ وَما كانَ القضاءُ بغالبِ (2)

---

1) شرح النهج - 31/1

2) الديوان - 91/1.

وبسبب موقفه الصارم تجاه ذلك الحدث ، عرّض النقيب أبو أحمد نفسه للعزل من النقابة (1) ، ولما نشب القتال بين الأمير البويهي عز الدولة بختيار وابن عمّه الملك عضد الدولة حول الهيمنة على مقدرات العراق كان أبو أحمد الموسوي السفير بين المتقاتلين فحاول جاهدا تقريب وجهتي نظر الطرفين المتناحرين وقد أفلح في بعض من الأمور ، وفشل في أمور أخرى أهمها ابقاء العراق تحت امارة عز الدولة بختيار الذي يمت اليه بنسب (2).

---

1) يصف مسكويه في تجارب الامم 309/2 حالة الرعب والنهب والمصادرات التي كان سكان بغداد يعيشونها في ظل عز الدولة بختيار ووزيره أبي الفضل سنة 361 هـ الى أن يقول " وكان في حجّابه رجل يعرف بصافي نديم الأخلاق دنيء النفس يتعصب لأهل السنّة، فضرب محلّة الكوخ - وهي مجمّع الشيعة ومسلم التجار - بالنار، فعظم الحريق ، وتلفت البضائع، وصارت المضرّة على الرعية فيما دبّر سلطانها أعظم مما جناه سفهاؤها . وكان بين أبي أحمد الموسوي (وهو الحسين بن موسى ويتولّى نقابة الطالبيين) وبين أبي الفضل الوزير مناظرة فيما جرى على الشيعة فأظهر امتعاظا وخرج في المناظرة الى المهاترة فصرفه الوزير عن النقابة "

2) راجع عبد الفتاح الحلو - مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي 14/1 فقد أشار الى أنّ لأبي أحمد الموسوي صلة نسب بالبيت البويهي لأنّ صهره هو ابن خالة عز الدولة بختيار أمير العراق وقد أشار الشريف لذلك النسب في مجال تهنئة خاله بمولودة ولدت له وذلك في قوله (من البسيط)

بَاشِرْ بِطَلْعَتِهَا العَلْيَاءَ مُقْتَبِلاً
فإنّهَا دُرّةٌ فِي حِلْيَةِ النَّسَبِ
وَاسْعَدْ بِهَا واشْكُرِ الأقْدَارَ أنْ حَمَلَتْ
إلَيْكَ قُرّةَ عَيْنِ العُجْمِ وَالعَرَبِ

الديوان 101/1

ولقد عادت سفارته تلك بالخسران ، اذ كان يدرك في قرارة نفسه ما سيؤول اليه مصيره لو انتصر عضد الدولة وملك بغداد ، فقرابته من عز الدولة بختيار وتمهيده الامر في بغداد لمعز الدولة (1) عم عضد الدولة دون والده ركن الدولة، ومكانته الرفيعة في نفوس العامّة، كل ذلك جعله يحسب للامور حسابها ويتوقّى الشرّ من عضد الدولة، الذي ما كاد يستتبّ له أمر بغداد حتّى أخذ في التخلّص من مناوئيه، وممن يتوجس منهم خيفة على ملكه، فكان أبو أحمد من أولئك الذين أصابهم ظلم عضد الدولة، الذي افق

---

1) راجع عبد الحسين الحلي - حياة الشريف الرضي ص 14 ، ومحمد عبد الفتاح الحلو - تحقيق ديوان الشريف الرضي 1 هامش ص 15. وقد أشار في ذلك الهامش الى أن صلات ابي أحمد الموسوي بالبويهيين قبل دخولهم بغداد وتمهيد الأمر لهم فيها ، أمر هو أقرب الى الظن منه الى الرجحان ، وهذا بطبيعة الحال يتعارض ومقولته في ص 14 التي فحواها : ان زواج أبي أحمد من فاطمة أم الشريفين "كان زواجا سياسيا وطّد به أبو أحمد صلته بالبيت البويهي" فالمعلوم أنّ أبا أحمد قد كان متزوجا بفاطمة قبل دخول البويهيين العراق بزمن اذ أنّ زوجته تلك قد أنجبت له بنتا ذكرها الحلو في ص 21 ورجح أن تكون هي زينب التي عمرت الى أكثر من تسعين سنة ورثاها أخوها المرتضى . كانت تكبره في السن ،والمعلوم أنّ معز الدولة البويهي قد دخل بغداد سنة 334 هـ بينما توفيت ابنة أبي أحمد وشقيقة الشريفين سنة 419 وقد بلغت من العمر نيفا وتسعين سنة "راجع ديوان المرتضى 3/186" وهذا يعني انها ولدت سنة 326 أي قبل دخول البويهيين بغداد . وهذا يعني أنّ أبا أحمد قد تزوّج فاطمة قبل استيلاء البويهيين على بغداد مما يؤكد صلته بهم قبل ذلك بزمن . وهذا يؤيّد رأي عبد الحسين الحلي الذي أراد الحلو أن يدحضه خاصة وأن حياة أبي أحمد ومتانة علاقاته بالبويهيين لم تكن وليدة دخولهم بغداد وانما كان لها أبعاد سابقة.

له تهمة افشاء أسرار الدولة (1)، فقبض عليه وعلى أخيه وصادر أموالهما وأملاكهما وحبسهما في سجن القلعة بشيراز.

وكان غرض عضد الدولة من وراء ذلك كسر شوكة تلك الأسرة، وبث الرعب في قلوب من تسول لهم نفوسهم العصيان والتمرّد، وليس كما زعم بعض الباحثين المعاصرين: بأنّ الهدف من اعتقال عضد الدولة لأبي أحمد الموسوى تعريض أسرته للاحتياج (2)، لأنّ عضد الدولة يدرك جيّدا أنّ عائلة الشريف من آل بيت الرسول ولها الخمس في أموال الشيعة الأماميّة الذين لا يتوانون في دفعه الى مستحقيه وفي مقدمتهم أسرة النقيب أبي أحمد هذا بالاضافة الى ما تملكه ربّة الأسرة أم الشريفين من مال، خاصّة وأنها تنتمي في بعض فروعها الى الديلم.

---

1) يقول ابن الأثير في الكامل 7/103 في حوادث سنة 369 " فيها قبض عضد الدولة على النقيب أبي أحمد الموسوي والد الشريف الرضي وعلى أخيه أبي عبد اللّه وعلى قاضي القضاة أبي محمد " ثم يورد ناشر الكتاب تعليقا على ذلك في حاشية الصفحة ذاتها يقول فيه " اتهم بأنّه يفشي الأسرار وأنّ عز الدولة (بختيار) أودع عنده عقدا ثمينا ووجدوا كتابا بخطّه في افشاء الأسرار فأنكر أنّه خطّه وكان مزورا عليه واعترف بالعقد فأخذ منه وعزل عن النقابة وولّوا غيره وكان مظلوما " ثم يأتي في ص 109 قوله " فيها توفي علي بن محمد الأحدب المزور وكان يكتب على خط كل واحد فلا يشكّ المكتوب عنه أنّه خطّه، وكان عضد الدولة اذا أراد الايقاع بين الملوك، أمره أن يكتب على خط بعضهم اليه في الموافقة على من يريد افساد الحال بينهما ثم يتوصّل ليصل المكتوب اليه فيفسد الحال وكان الأحدب ربما ختمت يده لهذا السبب " وهذا يجعلنا لا نشكّ بأنّ عضد الدولة قد استخدم ذلك الأسلوب الدنيء مع النقيب أبي أحمد لمّا أعيته الحيل في القبض عليه.

2) راجع طه عبد الرؤوف سعد - مقدمة تحقيق المجازات النبويّة ص 14.

اذن فالسبب الرئيسي في مصادرة أموال أبي أحمد الموسوي وزجّه في السجن الخوف ممّا كان له من مكانة في قلوب العامّة، ممّا قد يسبّب تمردا أو عصيانا على الحكم الطارئ على بغداد ، ممّا حتّم على عضد الدولة اتخاذ موقفه ذاك .

بقي أبو أحمد مسجونا بالقلعة الى أن مات عضد الدولة . وقد أرّخ الشريف الرضي وفاته بمقطوعة منها : (من الخفيف)

أبلِغَا عنّيَ الحسينَ ألوكاً
أنّ ذا الطّودِ بَعْدَ عهدِكَ سَاخَا
والشّهابُ الذي اصطليتَ لظاهُ
عكسَتْ ضوءَهُ الخطوبُ فباخَا
والفنيقُ الذي تدرعَ طولَ ال
أرضِ خوَى به الرّدَى فأناخَا
إنْ تَرِدْ موردَ القذى وهوَ راضٍ
فبما يكرعُ الزّلالَ النّقاخَا (1)

فلقد استخدم الشاعر لغة الرمز ولم يحاول الاعلان عن فرحته والتصريح باسم المتوفّي ، بل كنّى عنه بالطود ، والشهاب ، والفنيق ، اضافة الى قوّة التعبير وعمق القاموس اللغوي والروي النادر الوعر (2) ، مما يدلّ على صدور الأبيات عن معاناة واحتباس نفسي كابدهما الشاعر فوجد في المناسبة متنفسا لهما .

---

1) الديوان - 1/ 267 وألوكا : رسالة ، ساخ ، غاص في الأرض ورسب ، باخ : سكن وفتر ، الفنيق : الجمل الفتي الضخم النقاخ : الماء العذب البارد .

2) من الملاحظ أنّ المقطوعة من روي الخاء وهي احدى مقطوعتين في الديوان ، ونظن أنّ استخدامه لمثل هذا الروي - في المقطوعة - نابع من معاناته وألمه المحض الذي كبته طيلة سنوات سجن أبيه . وهو روي تجنبه الكثير من الشعراء وقد استخدمه الشريف في سنّ مبكرة

الاّ أنّ ذلك الحدث الذي كان الشاعر يتمنّاه لم يحل دون تأرجح نفسه المعذبة - بالشوق الى لقاء الوالد - بين الأمل واليأس، فبرغم انزياح الصخرة فإنّ الأمر ما يزال غامضا ، والخطر محدقا ، وقد علّل الشاعر ذلك بقوله :

وَالعُقابُ الشقواءُ أهبطَهَا النيـ
ـقُ وقد أرعتِ النجومَ سِمَاخَا
أعجلَتْهَا المَنُونُ عنّا ولكنْ
خلّفتْ في ديارِنَا أفرَاخَا
وَعلَى ذلِكَ الزّمَان بِهِم عا
دَ غلامًا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ شَاخَا (1)

وغلب الأمل اليأس وعادت الطمأنينة الى أسرة أبي أحمد بعد أن أطلق شرف الدولة بن بويه سراحه واستصحبه في جملة رجاله وقدم به الى بغداد سنة 376 بعد أن انتصر على أخيه صمصام الدولة .

وما ان عاد الى بغداد حتّى استقبله الخليفة الطائع بالترحاب (2) ، وردت اليه جميع أملاكه ، وعاد لمزاولة أعماله السابقة في النقابة والمظالم وامارة الحج وأصبح المدافع عن ملك شرف الدولة وابنه بهاء الدولة لما لهما من جميل عليه وعلى أولاده وعاود سفاراته السابقة بين أمراء الأطراف، وكان هدفه الأساسي توطيد ملك ذلك الفرع من الجناح البويهي الذي كان له

=إذْ كان سنه حين أرسل تلك المقطوعة لأبيه فوق الثلاث عشرة بقليل ، كما أشير الى ذلك في الديوان ، وعلى سبيل المقارنة لم ينظم بشار أو المتنبي على هذا الروي ،وقد نظم عليه المرتضى مقطوعة واحدة من ثمانية أبيات (ديوان المرتضى 1/215) .

1) الديوان - نفس الصفحة.

2) انظر القصيدة الميمية التي شكر بها الرضي الخليفة على حسن قبوله لوالده - الديوان 2/333.

اليد الطولى في فكّ اسراه واعادة مكانته وثروته. اذ لم يتكّر رب تلك الأسرة العريقة في نسبها للجميل حيث أخذ أبو أحمد وولداه الرضي في تأييد ذلك الفرع من البويهيين بالقول والفعل، أمّا القول فتبيّنا عنه القصائد المتتالية في مدح بهاء الدولة من قبل الشريفين المرتضى والرضي، اذ لم يتركا مناسبة سعيدة تمرّ الاّ وكان لكلّ منهما فيها قصيدة تهنئة أو مدح أو شكر (1)، أمّا الفعل فتشهد عليه مواقف أبي أحمد الموسوي واخلاصه لبهاء الدولة وقد ذكر الروذراوري طرفا منها (2).

من كل ذلك ندرك ما كان لتلك الأسرة العلوية من دور فعّال في ادارة سياسة المجتمع العراقي في القرن الرابع الهجري. وهذا بطبيعة الحال ينبهنا الى أنّ تلك الأسرة الشريفة، لم تكن من تلك الأسر التي كانت تحاول الكيد والدسيسة للوصول الى مآربها، فقد كان أبو أحمد الموسوي وولداه الرضي والمرتضى واضحين في مواقفهم ازاء سياسة العصر انطلاقا من عقيدتهم، وكان الورع الشديد والتخلّق بأخلاق آل البيت، من الأسباب الرئيسيّة التي مكّنت لهم في نفس العام والخاص (3)، ممّا مكّن لأحد أفراد الأسرة في نهاية

---

1) يكفي أن نقول بأنّ الشريف الرضي قد مدح بهاء الدولة بأكثر من عشرين قصيدة واستمرّ بمدحه من سنة 381 هـ حتّى سنة 402 هـ ثم رثاه بقصيدة صادقة سنة 403 هـ أي استمرّ مخلصا له منذ بداية ملكه حتّى آخر يوم في حياته.

2) ذيل تجارب الأمم - 3/326.

3) حول ورع الشريف الرضي وأخلاقه راجع: ابن عنبة عمدة الطالب - ص 207. أما حول ما قيل عن أخلاق ابيه وورعه فراجع: عباس القمي - الكنى والألقاب 1/3

المطاف من زعامة الطائفة الشيعية الامامية (1)، ويرجع كل ذلك الى وضوحهم وعلمهم وزهدهم واقتدائهم في أقوالهم وأفعالهم بجدهم علي بن أبي طالب الذي لم يحاول مطلقا أن يفرق بين الأخلاق والمعاملة في كل من الدين والسياسة (2).

لذلك فنحن لا نرافق من قال : " كان آل (أبي أحمد النقيب) ساسة محترفين بكل ما في الكلمة من معنى، يكيدون ويكادون، وينفعون ويضارون ويحشون الى مآربهم السياسة في سر وفي علن، بحسب ما تقتضيه الظروف والحالات " (3) اذ لو كانوا على هذه الصفة لما كانت لهم تلك المكانة الروحية السامية في نفوس الطائفة الشيعية الامامية التي مازالت تعوّل على ما في كتبهم من فقه وفتاوى شرعية.

في "ذلك المحيط المفعم بالنقباء والأمراء والعلماء والأدباء، هم أسرة أبيه بني (موسى بن جعفر الصادق)

---

1) راجع : العماد الحنبلي - شذرات الذهب 3/256 فقد أشار الى زعامة الشريف المرتضى للشيعة بقوله : " الشريف المرتضى نقيب الطالبيين وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق " وقد عادت اليه زعامة الطائفة بعد وفاة شيخه المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (ت 413).

2) في نهج البلاغة 2/180 بشرح محمد عبده يقول الامام علي " والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى النّاس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة. ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة. والله ما أستغفل بالمكيدة. ولا أستفخر بالشديدة ".

3) عبد الرزاق محي الدين - أدب المرتضى ص 250

امام الفقهاء، وأسرة أمّه بني الناصر الكبير أبي محمد الحسن الأطروش صاحب الديلم وشيخ الطالبيين" (1) ولد الشريف محمد بن الحسين الرضي ونشأ فكيف كانت نشأته ؟ وما الذي تزوّد به من تلك الأسرة أثناء رحلة عمره القصيرة ؟

مراحل حياة الشريف الرضي :

في خضمّ تلك الأمداد المتناقضة، ومن المحيط العلمي المتسم بالاباء والشمم وعراقة النسب، كان الشريف الرضي يبحث عن ذاته، وعن مكانته في مجتمعه ومنزلته بين افراد أسرته، وعن السبل التي تمكنه من اصلاح ما فسد في مجتمعه، لقد كانت نفسه الرقيقة تحمل أحلاما واسعة حاول تحقيقها على أرض الواقع ولكن الظروف كانت له بالمرصاد في جميع مراحل حياته.

أ) مرحلة الصبا :

لابدّ هنا أن نتصوّر مكانة الأبي في الأسرة كي نتمكن من خلال ذلك التصور، من تسليط الأضواء التي يمكننا بهديها سبر أغوار نفسه، فهو يأتي في المرتبة الثانية بعد أخيه المرتضى، وكان لربّ الأسرة - الشخصية المهابة ذات المكانة العالية في المجتمع - الأثر العميق في أقرب النّاس اليه، ولديه الذين يهدف من تربيتهما وتنشئتهما، اعدادهما الاعداد المناسب الذي يتيح لهما تسنم المكانة المرموقة - التي تنتظرهما - عن جدارة، وكي

---

1) عبد الحسين الحلي - حياة الشريف الرضي ص 8

يعول عليهما في القيام ببعض المسؤوليات والمهام الملقاة على عاتقه حين يحتاجهما في شيخوخته، ممّا أتاح للشريف الرضي ابّان طفولته مصاحبة أبيه الى الكثير من مجالسه ، بمعايشة مهامه عن كثب، وقد تكون له بعض المشاركة بما يتناسب وسنّه من تلك المهام، خاصة وأنّ حدّة ذكائه وحساسيته المفرطة واعتداده بنسبه ، وطموحه وعشقه المجد ، كل تلك الأمور جعلت منه شخصا جادا منذ صباه، اذ لم يكن ليحفل بما يحفل به أترابه من لهو وهزل ، بل كانت لعبته المفضّلة الرفعة والعلو، وقد استطاع أن يحقّق ذلك لنفسه من خلال شخص أبيه، وقد تمكّن الشريف من تصوير ذلك في شعره أصدق تصوير ، بحيث يمكننا من خلال ذلك الشعر دراسة تركيب شخصية الرضي الصبي ، وأثر ذلك التركيب في جميع مراحل حياته، فمن قوله في صباه : (طويل)

أبرّ على الأنواءِ فَضْلي ونائلي
وطالَ على الجوزاءِ قدري ومحتدي
يَدي ألفت بَذْلَ النّوالِ فلو نَبَتْ
عن الجودِ يومًا قلتُ : مَا هذهِ يَدي (1)

وارتباط الرضي بأبيه ، وتعلقه به، جعله يحاول تقليده والتشبه به، ومجاراته في تصرفاته وأفعاله، الأمر الذي أيقظ في نفسه - ومنذ نعومة أظفاره - حب العلا والتطلّع الى الرفعة ، ممّا أدّى به في النهاية الى عدم التردّد من اعلان طموحه في الوصول الى ما وصل

---

1) الديوان - 357/1

اليه أبوه من مراكز عالية ، فيقول لأبيه ضمن احدى مدائحه : (متقارب)

طلبتَ لنفسِكَ ، فاطلُبْ لَنَا
مِنَ العِزّ، إنّ المُحامِي طَلُوبُ
وإنْ كُنْتَ تأنَفُ مِنْ حبّه
فإنّ العَلاءَ إلَيْنَا حَبِيْبُ
وَمَا نَحْنُ أنْتَ وكلٌّ إلى
دُعَاءِ العُلَى طَرِبٌ مستَجِيبُ
وَنَحْنُ قِسَامٌ إلَيْنَا الشّبَابُ
وأنْتَ قِسَامٌ إليكَ المَشِيْبُ
عَلى أنّه أنْتَ عَيْنُ الزّمَان
وَعَيْنٌ بِلا ناظِرٍ لا يَطِيبُ (1)

الطلب الذي يقصده الشاعر في هذا المقام ليس من قبيل مد اليد أو الاستجداء، لأنّه لايتفق والعزة التي يتوق الرضي اليها ، فالشريف الطموح يقصد بالطلب تمكينه من فرصة ابراز قدراته في ميدان الشرف والمجد الذي حاز منه أبو أحمد ما غطّى كل من حوله، بما في ذلك ولده، بحيث أصبحت المراكز الرفيعة والألقاب أمرا عاديا بالنسبة اليه، أمّا ابنه الرضي فمازال يخطو خطواته الأولى على أعتاب الحياة، فهو ظمآن لما يرتو لذا فانّه يطلب من أبيه أن يمكنه من بلوغ غاياته ، فالأمور التي يجدها الأب عادية، هي حبيبة الى نفس الشاعر الشّاب ، فليسلم الأب راية العز والشموخ الى الشباب حتّى تظل شابة فتيّة ومهتدية في الوقت نفسه

---

1) الديوان 1 / 77.

بهذي ذلك الأب العظيم الذي صوّره الشاعر بعين الزمان ، وفي مجال اعتداد الشاعر بنفسه ، وشعوره بالزهو في حضرة أبيه فانّه يخاطبه بصيغة المفرد " طلبت - نفسك ، كنت، أنت " بينما يتحدّث عن نفسه باستخدام ضمائر جمع المتكلمين في صيغتيها المتصلة والمنفصلة " لنا ، الينا ، نحن " ، فالشاعر شديد الاعجاب بنفسه فهو يرى أنّه يستطيع تخطي أبيه الموصول الى المراتب الرفيعة لولا احترامه لأبيه يمنعه من ذلك. فهو يقول : (طويل)

جَرَى مَا جَرَى قَبْلِي ، وما أَنَا خَلْفَهُ
الى الأمدِ الأقصَى أَعِدُّ و أُوجِفُ
ولولا مُراعَاةُ الأبوّةِ جُزْتُهُ
ولكِنْ لغَيرِ العَجزِ مَا أتوقّفُ (1)

تلك هي نفسية صبي رضع المجد وتكحلت عيناه بالنعيم ، فجنحت به أحلامه الى ما هو أبعد من الواقع فتصوّر أنّ جميع أمور الحياة طوع بنانه ، ورهن ارادته ، مادام يستظلّ دوحة ثابتة الأصول ، وارفة الظلال ، مغداقة العطاء ، لا يمكن النيل منها أو زحزحتها ، فلقد صوّرت له أحلامه بأنّ انتماءه لآل البيت وقرابته بالنسب من آل بويه حكام العراق الفعليين ، وامرة أسرته في جميع الطالبيين ، ومكانة أبيه ، وسلطته وهيبته وعلاقته الوطيدة بالخلفاء والوزراء والحكّام ، ما يستحيل معه تعرض تلك الاسرة لأحداث الدهر ، أو مس ربها ولو بقيد أنملة من الأذى ، لقد كانت خيالات الطفولة والصبا آسرة عليه حياته بحيث جعلته يقول - وهو دون الحادية عشرة

---

1) السابق 2/21 - وأعد و أوجف : أجري وأسرع

سنة - لأبيه : (كامل)

ولأنتَ مثلُ السّيفِ في مُضَرٍ،
عَاذَتْ بِقَائِمِهِ مَنَ الذُّلِّ
وإذا هتفتَ بِهِمْ لنائِبَةٍ
جَذبُوا وراءَكَ بالقَنَا الذُّبْلِ
لا يُسلِمُونَ من اتقى بِهِمُ
قرعَ القَنَا ومَوَاقِعَ النُّبْلِ (1)

ولكن سرعان ما ينثلم ذلك السيف، ويسلمه من كان يظنّ نصرتهم، ويقلب الدهر ظهر المجن للحامي وربّ الأسرة، فيصاب الصبي بردة فعل عنيفة، اذ لم يتصوّر أنّ أباه - ذلك الطود العظيم - سيجرد من جميع مناصبه، وتصادر أمواله وأملاكه، ويقاد مصفدا بعد أن يهان ويهزأ بنسبه الشامخ .

فيعود الصبي من رحلة أحلامه مثخنا بالجراح يملأ الألم نفسه ويعتصر فؤاده. فيلجأ الى الشعر يصرخ من خلال كلماته محتجّا : (خفيف)

نحنُ في عصبةٍ ترى الجورَ عدلاً
وتسمّي الضلالَ دارَ رشادِ
في رجالٍ تهزأ بوفدِ المعالي
وديارٍ تسطو على الوارّدِ (2)

لقد بلغ الحزن والأسى بالرضي حدّا جعله يجنح الى الوحدة، ممّا سبّب له العيش في جوّ ملؤه

---

1) السابق 2/165.

2) السابق 1/298.

العداء وتخلّي الأصدقاء خوفا من التهمة، وشماتة به، فعاش حياة ملؤها القلق والأسى، وامتدّت تلك الفترة المظلمة من عام 369 هـ حيث كان عمره عشر سنوات حتّى عام 376 حين بلغ السابعة عشرة (1)، اذ لم يستقر حال الصبي ولا يعود الاطمئنان الى نفسه المعذبة الاّ بعد أن أطلق سراح أبيه " واستصحبه (شرف الدولة) في جملة رجاله وقدم به الى بغداد سنة 376، حينما انتصر على أخيه صمصام الدولة" (2).

---

1) في كتابه (الشريف الرضي، ص21، يرى محمد عبد الغني حسن : انّ اطلاق سراح أبي أحمد الموسوي والد الشريف الرضي - كان سنة 376، وهو بذلك يريد تصحيح وهم وقع فيه احسان عباس في كتابه (الشريف الرضي) الذي لم يسعفنا الحظ من الاطلاع عليه. اذ يرى احسان عباس انّ سجن أبي أحمد استمرّ أربع سنوات بينما يرى عبد الغني حسن أنّ ذلك السجن دام سبع سنوات، وما قاله احسان عباس هو الصواب، اذ أنّ أبا أحمد قد مكث في السجن أربع سنوات هي المدة التي حكم فيها عضد الدولة العراق - أي من عام 369 حتى عام 372 هجرية بعدها أطلق سراحه شرف الدولة فمكث عنده بشيراز حتى عام 376 حيث عاد معه الى بغداد بعد أن تمكّن من أخيه صمصام الدولة ويؤيد ذلك قول ابن أبي الحديد في نهج البلاغة 1/32 حيث يقول :
" ولاستعظام عضد الدولة أمره، وامتلاء صدره وعينه به حين قدم العراق ما قبض عليه وحمله الى القلعة بفارس، فلم يزل بها الى أن مات عضد الدولة، فاطلقه شرف الدولة ..... ولما توفي عضد الدولة ببغداد كان عمر الرضي أبي الحسن أربع عشرة سنة" كما يعضد قول ابن أبي الحديد، قول الشريف الرضي في مدح أبيه سنة 374 أي قبل رجوعه بعامين من أربعة أعوام قضاها في بلاط شرف الدولة بشيراز والقصيدة (طويل) :

زَمَانَ الهَوَى مَا أَنْتَ لِي بِزَمَانِ،
وَلَا لَكَ مِنْ قَلْبِي أَعَزُّ مَكَانِ

فتعليق ناسخ الديوان في مقدمة القصيدة السابقة يؤيد قول احسان عباس / الديوان 2/495.

2) محمد عبد الغني حسن - الشريف الرضي - ص22.

اذن لم يعد والد الرضي الى بغداد بعد وفاة عضد الدولة مباشرة، وقد حاول الابن أن يزفّ البشارة لأبيه في الأسر، مظهرا بذلك السرور المشوب بالحذر، لأنّه كان يدرك أنّ أبناء عضد الدولة سيجرون على السنّة التي رسمها أبوهم في معاملتهم للرجال. فكم عذّب الطفل فراق أبيه، وكم آلمت نفسه كلمات المطهّر (1) - وزير عضد الدولة - التي وجهها لأبيه حين وصف جدث رسول اللّه الطاهر وأجداث آل البيت الكرام بالعظام النخرة، لقد بكى الرضي يعاني ويكبت حتّى واتته فرصة التنفيس، فسالت نفسه الجياشة بشعر ينضح ألما ممتزجا بالشماتة، وحسب الانتقام تجاه ذلك الوزير محاولا الثأر منه بسبب ما لحق به من مهانة وضيم في شخص أبيه، اذ يقول في فورة من الغضب الملتاع

(طويل)

يدلُّ بغيرِ اللّه عَضْداً وناصِرًا
وناصِرُكَ الرحمانُ، والمجدُ عاضِدُ
تعيّرُ ربَّ الخيرِ بالي عِظامِهِ
ألا نَزِّهَتْ تلكَ العظامُ البَوائِدُ
ولكنْ رأى سبَّ النبيّ غنيمةً
وما حولَهُ إلاّ مريبٌ وجاحِدُ
ولو كانَ بينَ الفاطميّينَ رفرفتْ
عليهِ العَوالي والظُّبَى والسواعِدُ (2)

---

1) المطهر بن عبد الله - أحد وزراء عضد الدولة المقربين مات منتحرا سنة 369 خوفا من عضد الدولة حين فشل في مهمة كلّفه الملك البويهي بها - راجع تجارب الأمم 2/409 وما بعدها ، والمطهر هو الذي قام بالقبض على الشريف أبي أحمد الموسوي وقال له " كم تدل علينا بالعظام النخرة " الديوان 1/305

2) نفسه - 1/307.

فالمبادلة بين الناصر والعضد ، والعضد والناصر في كلا مصراعي البيت الأول ، فيهما دلالة على العلاقة الوشيجة التي تلح على نفس الشاعر ويحاول تجسيدها ، فالعضد في المصراع الأول كناية عن عضد الدولة، صاحب الأمر الذي يعني التسلّط والقهر والقوّة ، وقد جعله في مقابلة النصر الالهي . فالوزير يستمدّ قوته من جبروت ذلك المتسلّط أمّا أبوه فيستمدّ قوته من ايمانه باللّه سبحانه وتعالى ، وهنا تبرز بساطة الشاعر في محاولته الهروب من مواجهة قوة الخصم ، متعزيا بما يحاول الضعيف التستّر وراءه حين يهزم . إلاّ أنّ ما حزّ في نفس الطفل وأجّج المعاناة داخلها ، تطاول الوزير على النبي (ص) وآل بيته امام الاشهاد وهو في حمى سيّده عضد الدولة . فهو يرى في قول الوزير جريمة لا تغتفر خاصّة وأنّ حاشيته لم تبخس ببنت شفة دلالة على رضوخها واستكانتها ، فيهرب الشاعر بأمنياته الصغيرة بعيدا حيث يعقد الآمال على الفاطميين الذين يتصوّر أنهم سيرعون حقه وحقّ أبيه وآل بيته .

ب) مرحلة الشباب :
==========

ونستطيع تحديدها بالمدّة ما بين سنة 376 هـ - بعد عودة أبيه من منفاه بصحبة شرف الدولة البويهي - حتّى سنة 381 : السنة التي عزل فيها الطائع العباسي وسلبت داره ، وامتهن أكثر القضاة والأشراف (1) .

---

1) راجع : حوادث سنة 381 عند المؤرخين وفي الديوان 2 / 144 .

وفي هذه المرحلة تعود للشاعر الشاب الطمأنينة وينعم ببعض راحة البال فقد عاد والده، وردّت اليه جميع أملاكه، وردّ اليه اعتباره بمزاولة أعماله التي عزل عنها، كل ذلك بفضل شرف الدولة وابنه بهاء الدولة وبمعاضدة صادقة من لدن الطائع العباسي الذي كان الشريف يبادله الحبّ والصداقة.

وتستمر هذه المرحلة بما يقارب من الخمس سنوات اذ تنتهي ببلوغ الشاعر عامه الثاني والعشرين، ومن الملاحظ أنها مرحلة قصيرة اذا ما قيست بعمر الزمن والذي يقال عن هذه الفترة أنّ الرضي تمكّن فيها أن يتبوأ أعمالا هامّة ومناصب سامية نيابة عن أبيه.

فلقد عادت الأيّام شابة فتية، بعد أن كاد خريف اليأس أن يقضي على ما في النفوس من بقية أمل ممّا جعل الشاعر يترنّم طربا في حضرة أبيه (كامل) :

انظُرْ الى الأيامِ كيفَ تعودُ
والى المعالي الغُرّ كيفَ تزيدُ
والى الزمانِ نَبا، وعادَ عطْفَهُ
فارتاحَ ظمآنٌ، وأورقَ عودُ
نِعَمٌ ظَلعنَ عَلَى العدوّ بفيظِهِ
فتركنَهُ خَمِرَ الجَنَانِ يَميدُ (1)

---

1) الديوان 1/310 وحمر، بفتح وكسر = تحرّق غضبا وغيظا.

أجل عادت الأيام جديدة، وأورق ربيع الزمان ، واطمأنّت نفس الشاعر المعذبة حين قويت أواصر الصداقة والحبّ بين الخليفة العباسي وبين الشريف الشّاب وتحطّمت تلك العلاقة كل الحواجز والحدود ،اذ لم تكن علاقة الرضي بالطائع علاقة شريف علوي أو نقيب بخليفة. بل هي علاقة روحيّة، حين أخذ الرضي يكيل المدائح النابغة بالصدق والحبّ للخليفة الطائع، فكانت المناسبات والأعياد مهرجانات يشيد الشاعر فيها بمفاخر البيت العباسي في شخص الطائع. ومن ذلك قوله في عيد الاضحى لسنة سبع وسبعين وثلاثمائة (طويل) :

جزاءُ أميرِ المؤمنينَ ثَنائِي
على نِعَمٍ مَا تتقَضِي وَعطَاءِ
أقامَ اللّيالي عن بَقَايَا فريسَتِي
ولَمْ يَبْقَ مِنْهَا اليومَ غيرُ ذَمَاءِ (1)

فصدق حبّه جعله يهجم على موضوعه هجوما ، دون أن يمهد لذلك بمقدمة تقليديّة رغم طول القصيدة التي بلغت خمسة وخمسين بيتا .

انّه يحاول هنا ردّ بعض الجميل ، والخليفة العباسي لا ينكر جميل النقيب أبي أحمد أيضا ، وذلك في مواقفه المشرفة مع أبيه المطيع .

وهكذا وجد الخليفة بغيته في الشريف كما وجد الشريف نفسه في الخليفة، فكان يمدحه متى شاء،

---

1) محمد محي الدين عبد الحميد - شرح ديوان الشريف الرضي 1/1، و الديوان 9/1

ويعاتبه العتاب المر متى شعر بتقصير في حقّه، ويتقبّل الخليفة منه ذلك راضيا مبتسما، لأنّه يدرك مدى الحب والاخلاص الذي يكنّه الشاعر الشاب اليه.

لكن مأساة أبيه التي تسببت في نكبته مازالت ماثلة لعينيه، فقد اكتوى بنارها وعاش لظاها، لذلك لم يكد يسمع عمّا دار في مجلس الخليفة من دسّ عليه أثناء غيابه حتّى بادره بالقول تحاشيا للشرّ وحفاظا على الودّ (كامل) :

ونمى اليَّ من العجائب أنّه
لعبت بعقلك حيلة الخوّان
وتملكتك خديعة من قولة
غرّارة الأقسام والأيمان
حقاً سمعت. ورُبَّ عَيْنَيْ ناظرٍ
يقظٍ تقوم مقامها الأذنان
أين الّذي أضمرته من بُغْضِه
وعقدته بالسرّ والأعلان
أم أين ذاك الرأيُ في إبعاده
حَنَقاً، وأين حميّة الغضبان (1)

فالقصيدة كما نلاحظ موجهة من صديق الى صديقه. اذ أنها بعيدة عن التعقيد صريحة في مرماها لم يرد الشاعر من ورائها الاّ الحفاظ على الودّ، والترفع بالصداقة الى أسمى معانيها، لذلك فلا عجب أن تربو مدائح الشريف في الطائع خلال هذه الفترة القصيرة على الثلاث عشرة قصيدة (2).

---

1) الشريف الرضي - الديوان 2/521.
2) راجع : حياة الشريف الرضي الاجتماعية من هذا البحث.

ويكاد الجرح الذي خلفته نكبة الأب في نفس الشاعر أن يندمل. حيث رسب كل ذلك الحزن والأسى في أعمق أعماق الشاعر، وعادت بسمة الطفولة الى محيّاه الحزين.

ولكن أنى لهذا السرور أن يستمرّ، والدهر يأبى الاّ أن يكون له بالمرصاد، فهاهو يعيش نكبة أبشع من النكبة الأولى، وهي هذه المرّة في شخص الخليفة الذي أخلص اليه وأحبّه، فتعاود الأحزان ثانية نفسه الرقيقة ويحتدم الصراع داخله، فلقد عاش ذلك الحادث البشع. وشاهد الخليفة وهو يُجرّ من سريره كالأسير المهان، ولكنّه هرب فارّا بجلده، وهاهو ضميره يعذّبه،لأنّه لم يقم بالواجب تجاه من أحبّ، فيعود لتبرير فراره علّه يريح تلك النفس من بعض عنائها. فالشريف لا ينكر فراره من قصر الخليفة يوم الحادث، لأنّه يدرك أنّه لن يتمكّن من القيام بأي عمل ينقذ الموقف، فهو أضعف من أن يتصدّى لأولئك العتاة، ممّا يلجئه الى الحزن والأسى الذي يدفن فيه نفسه ثانية حيث يقول متذكرا ذلك الحادث (بسيط) :

أعجِبْ لمسكتِ نفسٍ بَعْدَمَا رُمِيَتْ
مِنَ النّوائبِ بالأبكارِ والعُونِ
ومِنْ نجائِيَ يَومَ الدّارِ حينَ هَوَى
غَيْرِيْ ولَمْ أَخْلُ مِن حزمٍ يُنَجّيني
مَرَقْتُ مِنْهَا مروقَ النّجمِ مُنكَدِرًا
وَقَدْ تَلَاقَتْ مَصَارِيعُ الرّدَى دُونِي
وكنتُ أوّلَ طَلّاعٍ ثَنيّتَهَا
ومِنْ ورائِيَ شرٌّ غيْرُ مأمُونِ

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ ربُّ المُلكِ مبتسِماً
اليَّ ، أدنوهُ في النّجوَى ويُدنِيني
أمسيتُ أرحمُ مَنْ أصبحتُ أغبِطُهُ
لَقَدْ تَقَارَبَ بَيْنَ العزِّ والهُونِ (1)

وهكذا يعاود الألم والمرارة نفس الشريف الرضي حين فقد ذاته بنكبة الطائع الذي ركن اليه وهدأت تلك النفس الشاردة بجانبه .

ج) مرحلة الكهولة :

قد يؤخذ علينا هنا جعل الشريف في هذه المرحلة المتقدمة من السنّ قبل أوانه ، فهو في أيّام عزل الطائع العباسي لم يتجاوز بعد الثانية والعشرين ، أي أنّه لم يزل في عنفوان الشباب ، ولكننا نرد على ذلك القول بأنّ حساب السنين يتعارض وحساب الأحداث ، فالأحداث التي مرّت بالشريف ، والمعاناة التي عاشها منذ طفولته كل ذلك جعله يصير الى الكهولة قبل ذلك السن الزمني المحسوب بعدد السنين . فلقد عاش الشريف الرضي أحداثا وشهد نكبات زعزعت أعماق نفسه وعجلت به الى سنّ الكهولة حيث غزا الشيب رأسه ومازال هو يخطو في مرحلة الشباب وبهذه المناسبة يقول : (سريع)

عجلتَ ، يَا شيبُ ، على مفرقِي
وأيّ عُذرٍ لَكَ أنْ تَعْجَلا
وكيفَ أقدمتَ علَى عارضٍ
ما استغرقَ الشعرَ ، ولا استكملا

---

1) الديوان 2/446 ، 447 .

كنتُ أرى العشرينَ لي جُنَّةً
من طارقِ الشّيبِ إذا أقبَلا
فالآنَ سِيّانِ ابنُ أمِّ الصّبا
ومن تسدّى العُمُرَ الأطوَلا (1)

وعلى ذلك فتقديرنا لهذه المرحلة لم يكن بعدد السنوات. لأنّ الرضي في هذا السن، يقف على أعتاب مرحلة جديدة تختلف عن سابقتيها. لقد كسب الشريف من المرحلتين السابقتين تجارب افادته في مرحلته الراهنة، الأمر الذي جعله يقف من محيطه - خاصّة في مجال علاقاته بالسلطة - موقف الحذر، فاتخذ موقفا وسطا بين طرفي السلطة، واتبع اسلوب الملاينة ومحاولة ارضاء الفئتين المتسلطتين، والمتمثلتين في : الخليفة العباسي من جهة والملك البويهي من الجهة الثانية لكن سياسته مع جانب الخليفة العباسي قد فشلت، لانعدام الثقة بينه وبين الخليفة الجديد (2)، أمّا الجانب البويهي فقد مكّن للشريف الكثير من طموحاته وأحلامه، الاّ أنّ كل ذلك لم يجعل الرضي ينفتح انفتاحا تامّا على البويهيين، فقد حاولوا معه جاهدين قبول " صلاتهم فلم يقبل، وكان يرضى بالاكرام وصيانة الجانب واعزاز الأتباع والأصحاب " (3) لذلك لا نعجب من تصرفه سنة 400 هـ حين يطلب من بهاء الدولة " أن يعفيه من تدبير الأعمال التي ناظرها به ويسأله صونه عنها "(4)

---

1) الديوان 224/2

2) راجع : حياة الشريف السياسية - علاقاته بالخليفة القادر العباسي .

3) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - 33/1.

4) الديوان - 301/2.

لأنّه وجد فيها ثقلا على كاهله. ولكنّه في هذا المجال لا ينكر فضل الملك البويهي حين يقول : (سريع)

يا مُلبِسي النِّعْمى التي أورقتْ
عودي مِراراً وكستْ أعْظُمي
ومُطْلِعي في رأسِ عاديّةٍ
تخسأ طرفَ الجَذَعِ الازلَمِ
نزعُ العُلَى عنّي كالباسِهَا
والغُنْمُ بالبُذْلَةِ كالمَغْرَمِ
أُكْرَمُ عَنْهَا ، وبِهَا مرّةً
كِلاهُمَا عِنْدِيْ مَنَ الأَنْعُمِ (1)

فهو لا ينكر فضل بهاء الدولة ونعمه المتتالية التي أعادت الحياة الى نفسه بعد أن كاد يقضي عليها الألم والحرمان ، فسمّى ذلك الاكرام وتلك النعم بالشريف وجعلته في الذرى التي يكلّ طرف الدهر ازاءها .

ويمكن أن نستخلص من الأبيات أيضا ما يعانيه الشاعر من صراع داخلي ، فبقدر حبه للعلى وتعلقه بالمجد ينتابه الخوف والتردّد ممّا قد يؤول مصيره اليه فبحكم تجاربه الطويلة والمريرة ، أدرك أنّ الملوك يعملون بما تمليه عليهم أمزجتهم ، ممّا جعله يلحّ في طلب اعفائه ممّا تلد من مراكز سامية ، ويرى في موافقة الملك على طلبه ذاك اسداء الجميل اليه .

---

1) السابق 2 / 305 — والأزلم الجذع = الدهر الشديد البلايا .

لذا فهو يرجو اكرامه بالاستجابة لطلبه وتحقيق رغبته، وقد انتهج - للوصول الى مآربه - أسلوبا في غاية اللياقة، ينم عن تجربة عميقة بالحياة وحتّى تكتمل الصورة التي أغدق عليها الشاعر من فيض خياله وعاطفته كي تبلغه مراده نعود لمتابعة قوله في ذات القصيدة :

وَكَيْفَ نومُ المرءِ من تحتهِ
دونُ الكَرَى مُضطَرَبُ الارقمِ
بين خِصَافِي نَعليهِ شوكةٌ
إنْ شدَّدَ الوطءَ عليْهَا دَمِي
فاملِكْ بِهَا رِقّي وحرِّرْ بِهَا
عُنقِي ، ورقُّ الحُرِّ للمُنْعِمِ
وَحُزْ بِهَا مَا بَقِيَ العُمْرُ لِيْ
صَفَاءَ قَلْبِي ، وَصَفَايَا فَمِي
غَوثَكَ مِنْهَا يَا غِيَاثَ الوَرَى
قَدْ ثَقُلَ العِبءُ عَلى المُهْرَمِ (1)

تلك صورة من صور المرحلة الثالثة اقتطعناها من شريط معاناته الطويل المتمثّل في شعره. لقد كانت هذه المرحلة مليئة بالأحداث والنكبات المؤلمة التي زعزعت نفسه وحطمت كيانه وعجلت به في نهاية الأمر نحو النهاية الحتمية، التي طالما خاف منها واشتاق اليها وهو في طريقه لوداع أحبته وأصحابه .

ويتمثّل الحدث الأول في النكبة التي أصابت صديقه وحبيبه الخليفة الطائع، حيث ظلّ ذلك الحدث المؤلم

---

1) السابق 2 / 305 .

ماثلا أمام عينيه في كل لحظة من لحظات حياته، خاصة وأن شعوره بالتقصير والنكوص عن نصرته في ذلك اليوم، جعله يعيش المأساة والشعور بالذنب حتّى نهاية عمره . فهاهو برغم عزل الطائع يتذكره عن طريق رثاء أيّام سعيدة عاشها في كنفه بقوله :

(مجزوء الكامل)

لَهْفِي عَلَى مَاضٍ قضَى
ألاّ تَرَى منهُ بديْلا
وزوالُ مُلكٍ لَمْ يَكُن
يوماً يُقَدَّرُ أنّ يَزُولا
ومنازلٍ سَطَرَ الزّمـ
نُ على معالِمِها الحُؤُولا (1)

ويجسد الحدث الثاني وفاة والدته التي كانت بمثابة الحياة بالنسبة اليه ولأخيه في أحلك الساعات اذ كانت بمثابة الأب والسند طيلة فترة النكبة التي ذاقت الأسرة مرارتها ، اذ برغم المضايقات التي عاشتها الأسرة ، فانّ تلك الأم لم تذخر جهدا في انشائهما واعدادهما للمستقبل المرتقب فكانت الأم والأب والمدرسة التي تعلّم منها الرضي وهاهي تبارحه ومازال في حاجة لصدرها الحنون ، الذي طالما لجأ اليه لدفن أحزانه حين يعظمه الدهر .

لذا لم يتمكّن الشاعر من التماسك ازاء ذلك المصاب الجليل فلجأ للدموع علّه بذلك يطفيء النّار المتأججة

---

1) السابق - 2 / 195 .

بيـن جوانحـه بعـد وفاتهـا سنـة 385 : (كامـل)

أبكيـكِ لـو نقـعَ الغليـلُ بُكائِـي
وأقـولُ لـو ذهـبَ المقـالُ بدائِـي
وأعـوذُ بالصّبـرِ الجميـلِ تعزيّـًا
لـو كـانَ بالصّبـرِ الجميلِ عَزائِـي (1)

ثـم يتلـو ذلـك وفـي هـذه المرحلـة، وفـاة زوجتـه التـي ذاقـت بجانبـه حـلاوة الحيـاة ومرارتهـا ، وصبـرت متقبلـة سخطـه ورضـاه، وتفانـت فـي جلـب السعـادة الـى نفسـه الحزينـة، وجاهـدت حتّـى حققـت لـه مـا أراد وذلـك بانجـاب الابـن المنتظـر سنـة 400 هـ، وهاهـي تبارحـه بعـد أن حققـت لـه حلمـًا طالمـا اكتـوى شوقـا فـي انتظـاره تاركـة ايّـاه وطفلـه الصغيـر فـي صـراع مـع أمـواج الحيـاة ممّـا يضاعـف لـه الأحـزان : (متقـارب)

ذكرتـُكِ ذكـرةَ لا ذاهـلٍ
ولا نـازعٍ قلبـُهُ والجَنَـانُ
أُعـاوِدُ مِنْـكِ عِـدادَ السّليـمِ
فيـا دِيـنَ قَلْبـِيَ مَـاذا يُـدانُ
عواطِـفُ مـن مُقْلِقَـاتِ الغَـرا
مِ يـومَ دُمُوعـي بِهَـا أَرْوِنَـانُ (2)

ومـا يكـاد الدهـر يتركـه وحالـه اذ تكـون الفاجعـة الرابعـة بوفـاة أبيـه النقيـب أبـي أحمـد الموسـوي وذلـك سنـة 400 هـ أيضـا والـذي يقـول فيـه باثّـا ايّـاه

---

1) الديوان - 1 / 26 .

2) الديـوان - 2/ 473 وعـداد = العـداد المشاهـدة وقـت المـوت. أرونـان = شـدّة الأرونـان : الشـدّة في كل شيء.

شكـــواه ومـا عطـــه الزمـــان فيـــه مـــن بعـــده وذلـــــك فـي قولـــه : (كامـــل)

أعريـتَ ظَهْـــري للعِـدَا ، ولـــو اتقـى
بزُهـــاءِ مزدحـــمِ العديـــدِ عرمـرَمِ
وكشفـتَ للأيّـــامِ عـــورةَ مقتلـــــي
حتّـى رددنَ علـيَّ بعَـدَكَ أسهُمِـي
قـد كنـتَ مـا بينِـي وبيـنَ سِهَامِهَـا
فاليـومُ لا يُخطيـــنَ شَاكِلَـة الرّمِـي
هَـلْ تسمعـنّ مِـنَ الزّمـانِ ظلامتـي
فيمَـا جنَـى ، وإلَـى الزّمـانِ تظلّمِي (1)

لقـد اكتـوى الشريـف الرضـي بلظـى نيـران عصـره وعاشهـا امّـا راغمـا أو ثائـرا ، وفـي كلتـا الحالتيـن كـان الاحسـاس بالخيبـة والفشـل ، فـلا السكـوت والتغاضي حـدّ مـن معاناتـه ولا ثورتـه مكّنـت لـه مـن تحقيـق طموحاتـه .

ورغـم اتسـاع علاقاتـه السياسيـة والاجتماعيـة التـي شملـت جميـع طبقـات الشعـب ، ومختلـف الفئـات الاجتماعية الاّ أنهـا لـم تحقّـق لـه سـوى الشكـوى والأنيـن فكيـف كانـت مسيـرة حياتـه فـي عصـره المضطـرب ؟

---

1) الديـوان - 2 / 296 ، وشاكلـة الرمـي = الشاكلـة أي الخاصـرة. أي خاصـرة مـا يرمـى عليـه السهـم فهـو رمـي .

حيـــاة الشريـف الرضـــي السياسيـــة :

انّ الاحبـاط الـذي مضـي بـه الشريـف الرضـي في جميع مراحـل حياتـه، لـم يـؤد بـه الـى العزلـة والانفصـال عـــن محيطـه. فقـد عـاش ذلـك المجتمع بكـل أبعـاده السياسية وشـارك مشاركـة فعّالـة فيـه، محافظـًا علـى مكانتـه ومركـــزه فلـم يحـاول الاسفـاف لا بالقـول ولا بالعمـل اذ كـان يعـرف مقامـه ويـدرك جيّـدا أنّـه " مـن شجـرة عريقـة النسـب فلـم يستطـع مخالفـة التقاليـد " (1) ممّـا مكّـن لـه مـن قلـــوب الخـاص والعـام ولفـت الـى نفسـه الأنظـار باقتفائـه آثـــار أبيـه فـي محاولـة التوسّـط بيـن الأطـراف **المتناحرة** مـــن سنّـة وشيعـة، والقيـام بأعبـاء النقابـة بحـزم، وادارة ديـــوان المظالـم، وامـارة الحـج، كـل تلـك الأعمـال جعلتـه علـــى صلـة وثيقـة بأولـي الأمـر مـن خلفـاء وملـوك وأمـراء ووزراء، الأمـر الـذي أدّى بـدوره الـى التداخـل بيـن حيـاة الشريف السياسيـة وحياتـه الاجتماعيـة ممّـا جعـل الفصـل بين الحياتين صعبـا. ولكـن الدراسـة المنهجيـة تحتّـم علينـا ذلك الفصـل التعسفـي الـذي لابـدّ منـه للتمكّـن مـن رسـم صـــورة متكاملـة لحيـاة الشريـف خاصّـة وأنّ موقفـه مـن بعـض الأمـور السياسيـة جعلـه موضـع انتبـاه المحيـط الـذي عـاش فيـــه بالاضافـة الـى مـا خلفـه ذلـك الموقـف مـن جـدل ونقـــاش حتّـى يومنـا هـذا.

فقـد عـاش الشريـف الرضـي سبعـة وأربعيـن عامـــا، عاصـر (2) خلالهـا مـن الخلفـاء العباسييـن ثلاثـة هـــم

---

1) آدم متـز ـ الحضـارة الاسلاميـة 1/ 504 .

2) اعتمدنـا فـي توثيـق تواريـخ الوفيـات علـى : العمـاد الحنبلـي ـ شـذرات الذهـب ج 3 . مسكويه ـ تجارب الأمم ج 3، 4 . وديـوان الشريف الرضي ج 2 .

المطيع لله ابن المقتدر (ت 364 هـ) والطائع للّه ابن المطيع (ت 393 هـ)، والقادر باللّه ابن المقتدر (ت 422 هـ)، كما عاصر من أمراء بني بويه وملوكهم كلاّ من: عز الدولة بختيار (ت 367 هـ)، وعضد الدولة (ت 372 هـ)، وشرف الدولة (ت 379)، وبهاء الدولة (ت 403 هـ)، وسلطان الدولة أبا شجاع بن قوام الدين (ت 413 هـ)، هذا غير الوزراء والأمراء وكتّاب الدواوين الذين ذكرهم في شعره. وبالنسبة لعلاقاته بالخلفاء والملوك، فقد كانت بين مدّ وجزر، فكانت معاملته مع كل واحد بحسب موقفه من أسرته.

أ) علاقته بالخليفة العباسي المطيع وبالأمير عز الدولة بختيار:

تولّى المطيع الخلافة سنة 334 هـ بعد خلع المستكفي (1) بتدبير من الأمير البويهي معز الدولة (ت 356)، وظلّ قابضا على زمامها حتّى سنة 363 حين أجبر على التنازل بعد أن " ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه "، فولي من بعده ابنه الطائع.

وباستطاقنا لتاريخ تلك الفترة سنجد أنّ عمر الشريف - في السنة التي تنازل فيها المطيع - أربع سنوات مما يجعل معاصريه تلك هامشية، اذ لم يكن له أيّ دور يذكر بحكم صغر سنّه وعدم فاعليته للحياة بعد. وكذا ينطبق على معاصرته للأمير البويهي عز الدولة بختيار الذي آلت اليه مقاليد السلطة بالعراق سنة 356 (2) بعد

---

1) راجع: حوادث سنة 334 في: مسكويه - تجارب الأمم - ج 2، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج 7، العماد الحنبلي شذرات الذهب - ج 3.

2) راجع حوادث سنة 356 - مسكويه - تجارب الأمم - ج 2، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج 7.

وفاة أبيه معز الدولة . وانتهت سلطة عز الدولة بختيار باستيلاء ابن عمّه عضد الدولة على بغداد سنة 368 (1) .

ب) علاقته بالملك عضد الدولة البويهي :

تمكّن عضد الدولة من الاستيلاء على مقاليد الحكم في عاصمة الخلافة بغداد مرتين : كانت الأولى سنة 364 (2) وبارحها بعد أن أجبره أبوه ركن الدولة (ت 365) على ذلك وظلّ الأمل في العودة اليها يراوده ، وتحقّق له ذلك بالفعل بعد وفاة والده الذي كان قد صيّر جميع أمور ممالكه تحت امرته وأخذ عهدا على بقية أبنائه بتنفيذ تلك الوصية والسمع والطاعة له ، ومشاورته في جميع أمورهم (3)

انتهز عضد الدولة تلك الفرصة فسيّر جيوشه نحو العراق سنة 366 هـ ، وتمكّن من بسط نفوذه على بغداد وسائر الأمصار المجاورة لها سنة 368 هـ حيث تفرّغ في سنة 369 هـ لمناوئيه ممّن وقف بجانب ابن عمّه

---

1) السابقان - حوادث سنة 368 .

2) في سنة 364 دخلت جيوش عضد الدولة مع بقية الجيوش الفارسية لمساعدة ابن عمّه عز الدولة بختيار على استعادة سلطته بالعراق ، ولكن عضد الدولة وجدها فرصة سانحة لبسط نفوذه على العراق واتخاذ بغداد عاصمة لملكه ولكنّه لم يتمكّن من ذلك بسبب اصرار أبيه على اعادة السلطة لابن أخيه عز الدولة بختيار ممّا اضطرّ عضد الدولة الى ترك الأمر لابن عمّه ومبارحة العراق قافلا الى مملكته بشيراز . راجع : تجارب الأمم 2/ 344 حتى 352 .

3) راجع السابق - 2/ 361 حتى 365 .

بختيار أو حتى ممن كان يشمّ فيهم رائحة القوّة والسلطان ومن بينهم النقيب أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي فسجنه .

في هذه الفترة الحرجة من حياة أسرة الرضي كان عمره عشر سنوات، أي أنّه لم يزل صغيرا عن تحمّل المسؤولية ، لكن شعوره بالفراغ الذي خلّفه اعتقال أبيه ، جعله يعيش الحدث المؤلم بكلّ احساساته ، ممّا فتق شاعريته في تلك السن المبكرة. فانحصر دوره السياسي في الاحتجاج بالقول ، وفي ذلك دلالة على معايشته لأحداث عصره بكل أبعادها ، والمقطوعة التي بشّر بها والده في معتقله بموت عضد الدولة (1) خير دليل على متابعته للاحداث ومراقبته لتطوراتها .

ج) علاقته بالخليفة الطائع للّه العباسي :

حاولنا أثناء مناقشتنا لمراحل حياة الرضي أن نتحدث عن علاقته بالطائع العباسي ، وقد نظرنا الى تلك العلاقة من زاوية الصداقة ، وأرجأنا الحديث عن العلاقات السياسية: الى مكانها الذي نحن بصدده ، اذ يمكننا من خلال مدائح الرضي في الطائع أن نرجح أنّ العلاقة بينهما بدأت عام 374 هـ ، وذلك من قصيدة المدح التي مطلعها (وافر) :

أَغَارُ عَلى ثَرَاكَ مِنَ الرِّيَاحِ
وَأُسْأَلُ عَنْ غَدِيرِكَ وَالمَرَاحِ (2)

---

1) راجع ص 129 من هذا البحث

2) الديوان 1/ 240 .

وقد قالها الشاعر في حضرة الطائع بعد أن بلغ الخامسة عشرة سنة، أي بعد وفاة عضد الدولة وكأنّه يمهد لشيء ما، خاصة بعد أن تأكّد من اطلاق سراح أبيه، وأنّه لا محالة راجع الى بغداد بمعية شرف الدولة. لذلك أخذ الرضي يمهد لعودة أبيه عند الخليفة. والملاحظ على تلك القصيدة أمران هما :

1) محاولة الشاعر التصدّي لأعدائه وأعداء أبيه الذين طالما أسكته عنهم سلطان القهر المتمثّل في احتمائهم بعضد الدولة. ومن ذلك قوله : (وافر)

فمالي تطلبُ الأعداءُ حربي
ويصبحُ جانبي غرضُ اللّواحِ (1)

2) محاولة الرضي التقرّب من الخليفة والدخول في حاشيته التي تصوّر الشاعر أنها ستمكّنه فيما بعد من الوصول الى غاياته والتصدّى الى الذين طالما شمتوا به وبأسرته ابّان النكبة.

ثم يخفت صوت الشاعر لمدة عام كامل، لأنّ الأمور مازالت مبهمة، بسبب استمرار الحرب بين الأخوين شرف الدولة وصمصام الدولة، كما أنّ المشاورات مستمرّة بين الطرفين المتحاربين لحسم الخلاف (2). وكلّ من الرضي والطائع يعرف جيّدا أنّ عقد أواصر الصداقة بينهما متوقف على نتيجة هذه الحرب، كما أنّ كلا منهما يتمنّى أن تحسم في صالح شرف الدولة فالطائع

---

1) السابق - 1 / 241 .

2) الروذراوري - ذيل تجارب الأمم - 3/ حوادث سنة 375 .

وان حاول أن يظهر أمام الرضي بمظهر الخليفة صاحب السلطة، يدرك في قرارة نفسه أنّه مجرّد ألعوبة عند من يملك زمام السلطة في بغداد. وكفة الحرب راجعة لصالح شرف الدولة، ولكن بغداد مازالت في يد صمصام الدولة، الذي خلّفه عليها عضد الدولة فإذا صار الأمر اليه فسيعيد سيرة أبيه، ولن يرحم من يصادق أعداء أبيه أو يقربهم اليه حتّى ولو كان ذلك الشخص هو الخليفة. أما وقد انجلى الأمر سنة 376 هـ وحسمت القضية في صالح شرف الدولة (1) فقد كان البادئ في هذه المرّة هو الخليفة الذي تحتّم عليه السياسة ادراك ما لوالد الشريف من مكانة في نفس شرف الدولة، ممّا جعله يبادر باكرامه فأجابه شاكرا صنيعه : (كامل)

وإذا أميرُ المؤمنينَ أضافَ لِي
أَمَلي نزلتُ على الجوادِ المُفضِلِ
بالطائِعِ الميمُونِ أُنْجِحَ مطلَبِي
وعلوتُ حتى ما يُطَاوِلُ مَفْقَلِي (2)

بتلك السياسة الحكيمة، هيّأ الطائع نفسية النقيب أبي أحمد الموسوي، الذي ما ان دخل بغداد حتّى احتضنه مجلس الخليفة فمهد ما أسداه الطائع للوالد من الجميل الى ارتباط الابن بالخليفة ارتباطا متينا صادقا .

---

1) راجع : حوادث سنة 376 عند الروذراوري - ذيل تجارب الأمم - ج 3 ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج 7 .

2) الديوان 2/ 115 .

لقد كان الشريف الرضي ثائرا حانقا ، يودّ لو أنّه تمكّن من تغيير كل الأوضاع، وذلك قبل اتصاله بالطائع، ولكن سرعان ما هدأت نفسه واطمأنّ جانبه ، لمّا وجد في الخليفة الصورة المطلوبة وقد عمل الطائع بدوره جاهدا للمحافظة على المكانة التي احتلها من نفس الشاعر ، حيث أفسح له من نفسه ومجلسه المكانة التي كان الرضي يتوق اليها ، فانعقدت أواصر الودّ بين الطرفين .

ولا أظنني مخطئا في تشبيه علاقة كلّ منهما بالآخر بعلاقة سيف الدولة الحمداني بأبي الطيب المتنبّي ،وان كان هناك بون شاسع **بين الرجلين والشاعرين** من حيث المركز والمكانة الاجتماعية، فسيف الدولة أمير يدين بالولاء للخليفة، بينما الطائع خليفة يدان له بالولاء ، والمتنبّي شاعر مغامر **ما** تزال الأقوال متضاربة حول نسبه ، بينما الشريف ينتمي في نسبه الصريح الى الدوحة العلوية وقد أشار ابن أبي الحديد الى علاقة الطائع بالشريف في قوله " وكان الطائع أكثر ميلا اليه من القادر وكان هو أشدّ حبّا وأكثر ولاء للطائع منه للقادر "(1)

والحقيقة أنّ الطائع - بما لديه من حنكة وبعد نظر سياسي - **استطاع أن يحتوي ثورة الرضي** ، وأن يمتص غضبه وتبرمه ، حيث هيأ له ظروف الوصول الى المراكز العالية السامية وذلك بموافقة آل بويه ومساعدتهم . فأخذ الشريف بدوره يتغنّى بذلك ويمجّد الطائع ، حتّى بلغ قوله فيه : (كامل)

---

1) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 1/33.

للـــهِ ثُـم لـــكَ المحـــلُ الأعظَـــمُ
واليـــكَ يَنْتَسِبُ العَـــلاءُ الأقـــدمُ
ولـــكَ التُـــراثُ مـــن النبـــيّ محمـــدٍ
والبيـــتُ والحجـــرُ العظيـــمُ وزمـــزمُ (1)

كمـــا تمكّـــن الطائـــع أن يجلبـــب الشريـــف باللبـــاس الأسود شعـــار العباسييـــن (2)، وذلـــك برضـــى الشريـــف، وفـــي هـــذا مـــن الـــدلالات القويّـــة علـــى تمكّـــن الطائـــع مـــن السيطـرة عليه وجعلـــه يتفرغ لمدحـــه مـــن اللقـــاء الأول بينهمـــا سنـــة 374هـ حتّـى سنـــة 381 هـ (3).

واستمرّ الرضـي فـي ولائـه للطائـع حتّـى بعـد عزلـــه حيـــن أرخ نكبتـــه بقصيدة رائعة(4) تنـــم عـــن طيـــب عنصـــــره وصـــدق اخلاصـــه، كمـــا تـــلا ذلـــك بقصيـــدة رثـــاء تتناســـــب ومقـــام المتوفـــى (5) ، غيـــر آبـــه فـــي ذلـــك بالظـــروف السياسية التـــي كانـــت أسرتـــه تعيشهـــا، أو حتّـــى ببهـــاء الدولـــة الملـــك

---

1) الديـــوان 2/341.
2) راجـع : ديـوان الشريف 2/524، ابـن عتبـه ـ عمدة الطالـب ـ ص 207، يوسف البحراني ـ لؤلؤة البحرين ص 326، الكشكول 1/314
3) مدح الشريف الرضي الخليفة الطائع بخمس عشرة قصيدة موزعة على الديوان في جزئيه بتواريخها، ففي عام 374 مدحه بقصيدة واحدة في ج 1/240 أما في سنة 375 فقد سكت الشريف عن مدحه، ثم عاود المديح بقصيدتين سنـة 376 = 2/114، 333، ثم تلا ذلك بخمس مدائح في سنة 377 1/9، 269، و2/119، 142، 586. أما في عام 378 فقد مدحه بقصيدتين = 1/51، 2/516، وفي عام 379 مدحه بقصيدة واحدة. كما توجد في الديوان 2/339 قصيدة مدح في الطائع لم يؤرخ لهـا ونرجح أن تكون أولى مدائحه في الخليفة العباسي أي أنها قيلـــت عام 374 أو قبل ذلك بقليل، ونرجع ذلك لأسباب من أهمها قصـــر نفس الشاعر وطريقة التناول التي مازالت تنم عن استحياء الرضي وقلـــة خبرته بمدح الخلفاء، فالقصيدة خالية من التصريع الذي كان يستهل به جميع مدائحه في الخليفة، أضف الى ذلك خلو القصيدة من التدفق والحيوية اللتان تمتاز بهما مدائح الطائع، فمعظم صور القصيدة تقريرية لأن علاقة الشاعر بممدوحه لم تتوطد بعد ولأن القصيدة هي أولى مدائحه فـي غيـــر أبيـــه
4) الديـــوان - 2 / 444 .
5) السابـــق - 1/ 30

البويهي الذي تمّ عزل الطائع على يده ، ثم أنّه لم يكتف بذلك بل بادر في قصيدة ثالثة الى رثاء أيّام الطائع (1) ، وكان بذلك يرثي مجده السياسي حيث كان باب قصر الخلافة مشرّعا أمامه والخليفة رهن اشارته.

وبطبيعة الحال لم يكن الخليفة الطائع هو صاحب الفضل الوحيد على أسرة الشريف في اعادة مجدهم السياسي ، اذ كان من وراء الطائع من يدفعه لذلك ويشجّعه على الاستمرار فيه ، وهو شرف الدولة الذي دخل والد الشريف بغداد بصحبته بعد أن أطلق سراحه ممّا يحتّم معرفة علاقة الشاعر به .

د) علاقة الشريف الرضي بشرف الدولة البويهي :

استمرّت سلطة شرف الدولة على العراق مدّة ثلاث سنوات كانت بدايتها سنة 376 حين دخل بغداد بعد أن أزاح عن حكمها أخاه ، وقد بدأت علاقة الشريف الرضي بشرف الدولة بدخوله بغداد حين مدحه بقصيدة مطلعها (بسيط)

أحظى الملوكِ من الأيّام والدّولِ
مَنْ لا يُنَادِمُ غَيرَ البيضِ والأَسَلِ
وأشرفُ النّاسِ مشغولٌ بهمّتِهِ
مُدَفَّعٌ بِيَمَنَ أطرافِ القنَا الذُّبُلِ
تَطْغَى على قَصَبِ الأبطالِ نَخْوَتُهُ
وقائمُ السّيفِ مندوبٌ الى القُلَلِ (2)

---

1) راجع ص 632 من هذه الدراسة

2) الديوان 2/128 وقد ورد في مقدمة القصيدة ما مفاده أنّ الشريف " قد عمل القصيدة في مدح شرف الدولة وشكره على ما عمله مع أبيه من الجميل والتفضل . . . . . ولم ينفذها اليه وذلك عند دخوله مدينة السلام سنة 376 "

=

وهي قصيدة طويلة ذكر فيها أفضاله وأياديه البيضاء على والده، قارنًا نفسه بذلك الوالد العظيم ناصحًا ايّاه بالاعتماد عليه في الملمات، لِما له من رأي سديد وقلب جريء . والقصيدة بما حوته من مدح مستفيض ومتانة في الأسلوب، يمكن اعتبارها فاتحة لعلاقة يرغب الشاعر بكل ما أوتي من بيان على توطيدها الاّ أنها القصيدة اليتيمة في مدح شرف الدولة في الديوان ، ونرجع ذلك لسببين رئيسيين هما :

1) قصر الفترة التي ملك فيها شرف الدولة العراق وانشغاله في هذه الفترة بتوطيد دعائم ملكه والقضاء على مناوئيه ممّا لم يمكّن للشاعر من الاختلاف اليه .

2) يتمثّل في أنّ صلة الشريف الرضي بشرف الدولة كانت تتم عن طريق والده النقيب أبي أحمد الموسوي . ولا يمكن للرضي أن يتخطاها حفاظا على العرف السائد واحتراما لمكانة أبيه. ولكن الشريف تمكّن بذكائه وفطنته أن يتجلّى للضوء اعتمادا على شاعريته الفذّة، حيث أتاحت له الظروف أن يظهر اخلاصه للبيت البويهي أمام بهاء الدولة في رثائه لشرف الدولة بقصيدة مطلعها : (بسيط)

هَلْ كَانَ يومُكَ إلا بَعضَ أيّامِ
سبَقتَ فيهَا بإنْعَامٍ وإرغَامِ
وهلْ أزالكَ عَنْ هذا سوَى قدرٍ
تناوَلَ الأُسْدَ من غِيلٍ وآجامِ (1)

= وقد علق عبد الحسين الحلي في ترجمة الشريف الرضي لمقدمة ج 5 من كتاب (حقائق التأويل) ص 35 بقوله " انشأ في مدح شرف الدولة سنة 376 قصيدته (أحظى الملوك من الأيام والدول) يشكره فيها على انزاله أباه وعمه من القلعة، وله فيه غيرها . ." والحقيقة انها القصيدة الوحيدة في مدح شرف الدولة كما سبق وأن أشرنا في المتن والقلل = مفرد قلّة كل شيء أعلاه وخص بعضهم به أعلى الرأس.

1) الديوان - 2/ 413 .

ولا شكّ أنّه بتلك القصيدة أسمع صوته وارث ملك العراق بهاء الدولة ، وأنّه تمكّن عن طريق ذلك الصوت أن يعلن حزنه وحزن أسرته على الملك الراحل ذي الأيادي البيضاء على أسرته ، ممّا جعل الملك الجديد ينتهج ما رسمه أبوه لتلك الأسرة العلوية. ووضح ذلك في الاكرام المعنوي والسياسي الذي أغدقه على الشريف الرضي . وقد وقف الرضي من كل ذلك مواقف متباينة ، كادت في بعض الأحيان تؤدّى بمستقبله السياسي ، وخير مثال على ذلك موقفه من الخليفة القادر العباسي .

هـ) علاقة الشريف الرضي بالقادر العباسي :

تسنّم القادر سدة الخلافة بعد خُلْع ابن عمّه الطائع سنة 381 هـ. وتصفه المصادر التاريخية بالزهد والورع وكثرة العبادة ، ومجاراته للعوام في ملبسهم ومأكلهم (1) ، وهو الخليفة العباسي الوحيد في هذه الفترة الذي استطاع أن يمسك بزمام الخلافة حتّى وفاته دون أن يخلع أو يهتز كرسي الخلافة من تحته ، هذا بالاضافة الى أنّ المدة التي قضاها كانت أطول الفترات التي قضاها خليفة عباسي منذ قيام الخلافة العباسية (2) ، مجنبا نفسه غضب البويهيين والأتراك وسخطهم ، وطبيعة الحال

---

1) راجع الروذراوري - ذيل تجارب الأمم - 3/ 204 وما بعدها العماد الحنبلي - شذرات الذهب 3/ 221 ، 222 .

2) مكث القادر في الخلافة فترة امتدّت 41 عاما بدأت بسنة 381 هـ وانتهت بسنة 422. راجع : حوادث سنة 422 عند ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج 7 ، العماد الحنبلي - شذرات الذهب ج 3.

لم يتأت له ذلك الاّ بعد أن روّض نفسه على عدم الخوض في الأمور التي كانت تثير سخطهم أو حاسيتهم والمتمثلة في النواحي والأمور المادية. فلجأ الى التقشّف والورع، وبهذا كفّ عن نفسه الأذى، اضافة الى امتصاص نقمة الملك البويهي بمصاهرته (1)، والانعام عليه سنة 392 بلقب " قوام الدين صفي أمير المؤمنين " (2) بعد أن كان قد أنعم عليه الطائع سنة 379 بلقب " بهاء الدولة " كما تمكّن القادر سنة 391 هـ من أن يسمي ابنه أبا الفضل خليفة له مع تلقيبه بـ " الغالب " والدعاء له في خطبة الجمعة (3)، وهذا ما لم يجرؤ عليه أحد من خلفاء بني العبّاس طيلة العهد البويهي .

انّ الأمور السابقة تدلّ دلالة قاطعة على بعد نظر سياسي كان الخليفة القادر يتحلّى به، ومن هذا المنطلق لا يمكننا موافقة القائلين بانعزال القادر عن أمور السياسة (4).

---

1) راجع : الروذراوري - ذيل تجارب الأمم - 3/ 254 ، العماد الحنبلي - شذرات الذهب 3/ 104 .

2) الهلال بن المحسن الصابي - تاريخ هلال بن المحسن 8/ 86

3) راجع حوادث سنة 391 هـ ،الروذراوري -ذيل تجارب الأمم ج 3 ،ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج 7.

4) يرى عبد الحسين الحلي في كتابه (حياة الشريف الرضي) ص 20 أنّ القادر كان زاهدا منعزلا عن السياسة في أغلب الأحيان لأنّه صاحب جدل وكلام . وأنّ سبب ملاينة الطائع للشريف ،جعله أكثر ولاء منه للقادر. ووقائع التاريخ التي بيناها تثبت مدى رسوخ قدم القادر في السياسة. وحكاية الحلم الذي رأى فيه الامام علي ، فبشّره بالخلافة وطول العمر، ووصّاه بالاحسان الى ولده وشيعته، فيها من الدلالات الواضحة على حدة ذكاء القادر في محاولته لكسب ود البويهيين الشيعة والتقرب من نفوس العلويين ذوي النفوذ والهيبة والسلطان ، اذ نعتقد بأنّ القادر قد اختلق ذلك الحلم ليكون احدى وسائله في محاولة امتصاص نقمة الحكّام الشيعة واضفاء الشرعية على خلافته . عن الحكاية راجع الروذراوري - ذيل تجارب الأمم - 3/ 204 .

يمكن اعتبار ما سبق مدخلا لعلاقة الشريف الرضي بالقادر العباسي ، فلقد كان القادر على خلاف **مع ابن عمّه** الطائع أيّام خلافته وتروى الأحداث التاريخيّة أنّ الطائع أراد القاء القبض على القادر بسبب وشاية ولكنّه أفلت منه (1) . كما أنّ القادر يدرك مدى تعلّق الشريف بالطائع، وحبّ واخلاص كل منهما للآخر، فالوقائع التاريخيّة التي كانت تحدث في بغداد أعظم من أن تخفى على أحد ، ولا أظنّ أنّ هناك مجلسا من مجالس الطبقة الأرستقراطية في المجتمع البغدادي في القرن الرابع لم يسمع بمدائح الشريف المتتالية في الطائع، الذي أسبغ الشاعر على خلافته من الشرعية ما يمكن تصور الشريف من خلاله مادح وممدوح في آن واحد فضه قوله : (كامل)

للّهِ ثم لكَ المحلُّ الأعظمُ
واليكَ يَنتسِبُ العَلاءُ الأقدمُ (2)
ولكَ التُّراثُ مِن النبيّ محمدٍ
والبيتُ والحجرُ العظيمُ وزمزمُ

فماذا سيقول في القادر بعد ذلك ،؟ فالشريف الرضي هجا أعداء الطائع في معرض مدحه له، وكان القادر أحد أولئك الأعداء الذين طلبهم ولم يظفر بهم، فبماذا عساه أن يبرّر ذلك ؟

---

1) راجع : الروذراوري - ذيل تجارب الأمم 3/148 .

2) السابق - 2 / 341 .

إنّ كلا من الشريف والقادر يعرف دخيلة نفس الآخر تجاهه، فالرضي ذلك الشخص الوفي لا يمكنه نسيان أفضال الطائع على أبيه وعليه في يوم وليلة، كما لا يمكنه التنكّر للأصدقاء وإن أوقع الدهر بهم محنه، والقادر يرغب في قرارة نفسه أن يكون من الشريف الرضي بمنزلة أخيه الطائع، مع ادراكه أنّ ذلك من الأمور المستحيلة، وبالفعل فقد شعر الشريف باهتزاز مكانته في نفس الخليفة الجديد، فحاول أن يحني رأسه للعاصفة، ويتكيّف مع وضع لم يكن مقتنعا به، فمدح القادر في أوّل جلسة له على أشلاء عرش أخيه المعزول وذلك بقصيدة مطلعها : (كامل)

شرفُ الخلافةِ يا بني العبّاسِ
اليومَ جدّدهُ أبو العبّاسِ (1)

والملاحظ على تلك القصيدة أنها قد أعدّت اعدادا جيّدا لمثل هذه المناسبة، حيث كدّ الشاعر فيها بنات أفكاره، وقدح زناد عقله، لتكون متسقة مع مناسبتها العظيمة. ولكن ذلك البناء المتين كان خاليا من العاطفة الصادقة ازاء الممدوح. اذ ركّز الشاعر القول على استعادة الخلافة لمجدها بعد أن آلت للخليفة الجديد، وارث المجد والبطولة والكرم عن أجداده الشجعان أولئك الذين أخذوها عنوة من بني أميّه. فلحق أمير المؤمنين، وليدم مجده العظيم، الى غير ذلك من صفات الكرم والشجاعة التي يستطيع أيّ شاعر اسباغها على أيّ أمير أو رئيس قبيلة، فأين منها قول الرضي في أخي

---

1) السابق - 1 / 546 .

الخليفة المخلوع : (كامل)

لا تهتدي نوبُ الزّمانِ لدولةٍ
اللّهُ فيها والنبيُّ وأنتُمُ (1)

أدرك القادر منذ أول لقاء له بالشريف، أنّ قصيدته لم تكن خاصّة في مدحه هو، كما كان يفصل مع ابن عمّه ، وانما هي في مدح بني العبّاس عامّة بما فيهم غريمه القادر ، كما أدرك بحاسته الشعريّة، وذوقه الأدبي مقدار ما كسيت معانيها من صنعة وتكلّف فبدأ الجفاء يأخذ طريقه الى النفوس، فأوصد الخليفة بابه في وجه الرضي ، فألم ذلك التصرّف نفسية الشاعر الرقيقة ، اذ بينما كان قطب الرحى في مجلس الطائع، أخذ نجمه يأفل في مجلس القادر، ممّا جعله يتجه بكل احساساته نحو بني بويه، علّه يجد في حماهم ما فقده من مجد ومكانة عند الخليفة العباسي .

حاول الخليفة تجاهل الشريف الذي عرف السبيل الى مكابرته علّه يلين ويرضخ ويعيده الى المنزلة التي كان يحتلّها أيّام الطائع، فلم يستطع القادر صبرا على ذلك، فأخذ يتصيّد السقطات على الشريف علّه يعثر على واحدة لا يغفرها له البويهيون، فأدرك الشريف أبعاد اللعبة، فأخذ يغالب نفسه في تجنّب السقطات السياسيّة، التي قد تودى بمستقبله ، كما أودت بصديقه الحميم الطائع وكادت أن تؤدّى بأبيه من قبل ، فكظم غيظه صابرا على مضض، ولكن شاعريته الجياشة ونفسه المرهفة أبتا عليه الاستقرار والذكرى تعاوده لأيّام سعيدة عاشها في كنف الطائع، فهامي خيالاته تنبش الماضي لتذكره بلذّة ممزوجة بالأسى أيّام كان المجد يملأ

---

1) السابق 2 / 342 .

عليه جنبات حياته. فما الذي سيعود للدهر لو عادت تلك الأيّام ؟ انّ الجواب على ذلك تمثله قصيدة الشريف التي منها : (مجزوء الكامل)

إنْ عادَ يوماً عادَ وجـ
ـهُ الدّهْرِ مقتبِلاً جميلا (1)

كان الشريف يتمنّى عودة أيّام الطائع من أعماق نفسه، وهذا يعني عند القادر زوال خلافته، اذ لابد وأنّه قد سمع بتلك القصيدة وكتمها في نفسه، أو على الأقلّ باح باستيائه من مضمونها الى بعض جلاسه، فنمى خبر تبرم الخليفة للشريف، فحاول أن يرأب الصدع ولو بمجاملة الخليفة، فانتهز جلوسه لوفد الحجاج الخراسانيين سنة 382، وكان يوما مشهودا، أشادت كتب التاريخ بذكره فمدحه بقصيدة اهتزّ لها الجمع طربا ولكنّه ختمها بما أثار سخط الخليفة وغضبه على مشهد من الوفود، ولا أظنّ الاّ أنّه قال ذلك متعمّدا لأنّ القصيدة كانت معدّة للمناسبة، وكانت الأبيات من ضمنها، لم يرتجلها الرضي في ذلك الحشد حين أسفر عن طوية نفسه تجاه الخليفة بقوله : (كامل)

عطفاً، أميرَ المؤمنينَ، فإنّنَا
في دوحةِ العلياءِ لا نتفرّقُ
ما بيْنَنَا يومَ الفَخَارِ، تفاوتٌ
أبداً كلانا في المعالي مُعرِقُ
إلاّ الخلافةَ ميزتَك، فانّني
أنَا عاطلٌ مِنْهَا وأنتَ مطوّقُ (2)

---

1) السابق 2 / 196 .

2) السابق 2 / 42 .

بلغ غيض الخليفة وحنقه الذروة، ولم يحر جوابا ازاء ذلك التطاول، فما وجد في تلك المناسبة غير قول " رغم أنف الشريف " (1) .

وعلى اثر ذلك الموقف أصبحت العلاقات شبه مقطوعة بين الخليفة والشريف، فعاش الرضي وضعا سيئا بسبب التجاهل الذي صار اليه، فحاول ثانية أن يطوّع نفسه أو يلين من عريكتها، علّه ينفلت من الصراع الداخلي الذي يعيشه ومن الضغط الخارجي المسلّط عليه، فكانت فرصة اظهار مودته وحبّه، أثناء رثاء نقيب العباسيين الشريف علي بن الحسين الزينبي (ت 384) حيث قال ضمن تلك المرثية : (طويل)

ألسْنَا بَنِي الأعمامِ دُنيا، تَمازَجَتْ
بأخلاقِهِم أخلاقُنَا والضّرائبُ
جميعاً نمانَا في رُبى المجدِ هاشمٌ
وأنجبَ عُرقينا لؤيٌّ وغالبُ
اذا عُمّموا بالمجدِ لاثتْ بهامِنا
عمائمُهُم، أعراقُنَا والمناسبُ
وكمْ داخلٍ ما بيننَا بنميمةٍ
تقطّرَ لمّا زاحمتهُ المصاعبُ (2)

ولكن محاولة الشريف في مسايرة الوضع لم تجد - فيما أظنّ - نفعا، فقد كان الخليفة مصرّا على ازلال الرضي وارغام أنفه في التراب، ولولا تسلّط بني بويه، لما تردّد في ذلك، كما لا يمكن للشريف أن يتنازل عن أكثر ممّا تنازل عنه. فعزّة نفسه تأبى

---

1) ابن أبي الحديد - شرح النهج 1 / 34 ، ابن عتبه - عمدة الطالب ص 210 .

2) الشريف الرضي - الديوان 1 / 144 .

عليه ذلك، وحبّه الصادق يحول بينه وبين نسيان الطائع، ذلك الشبح الذي وقف حائلا بينه وبين كسب ثقة القادر، ممّا جعله يترصّد الأيّام علها تعود ثانية، لكن نبأ وفاة الطائع كان أسبق من عودة أيامه، فألم ذلك الشريف الرضي ولم يتردد في رثائه دون خوف أو وجل رغم وجود من عزله على رأس السلطة. ويهمنا من تلك المرثية قوله : (رمل)

قمتَ عنهَا بعدَمَا عَجّ بِهَا
وَرَمَى أوْسُقَهَا بُزْلُ الجِمَالِ
وانتزعتَ النّصلَ مِن مُقْلَتِهَا
بعدَ غاياتِ نِزاعٍ وَمَطَالِ
ليتَهُم أعطوكَ إنْ لم يعدِلُوا
بُسلَةَ الرّاقِي مِن الدّاءِ العُضَالِ
نَتَجُوا في المجدِ ما القحتَهُ
رُبّما أوقدَ نارًا غيرُ صالِ (1)

لم يرض ذلك الرثاء القادر - خاصة وأنّ الشاعر قد وضعه في المؤخرة - حين جعل كل الأمجاد التي تعيشها الدولة من صنع ذلك المتوفّي، ناعيا على أعدائه ومن احتل مكانه، تجاهلهم له في حياته، وانكارهم أياديه الخيرة وجميله بعد مماته. ممّا زاد من تبرمه وضيقه فالشريف الرضي لا يترك مناسبة تمرّ إلاّ ويعلن فيها - وبطريق غير مباشر - عدم شرعية خلافة القادر.

---

1) الديوان 2 / 198 والبسلة بالضمّ : أجرة الراقي خاصّة.

وممّا زاد الأمر تعقيدا اعلان الشريف الرضي أحقيته في الخلافة (1) وبكل صراحة، اذ انتشرت تلك الاشاعة في المجتمع البغدادي انتشار النّار في الهشيم، فأخاف ذلك الادعاء الخليفة، ونغص عليه حياته، اذ قد يأتي الوقت الذي تكون الاشاعة فيه واقعا حيّا، فالذي نصّبه في المركز قادر على خلعه، ووضع من يرتضيه، فالمهزلة قد تكررت مع **عمّه** المطيع حين استبدل **بابن عمّه** الطائع ومع **ابن عمّه** الطائع حين نصّبه بهاء الدولة بدلا منه.

فأخذ الحقد يستشري داخل نفس القادر كاتما معاناته التي ما لبثت أن طفحت على السطح، حينما فلت لسانه في احدى جلساته قائلا للشريف، وقد رآه يعبث بلحيته ويقربها الى أنفه ليشمها " أظنّك تشم فيها رائحة الخلافة، فقال : بل رائحة النبوة " (2). وتلك صفعة أخرى **لم يتوقعها** الخليفة من الرضى، اذ بهذا

---

1) راجع : الرضي والخلافة من هذا البحث

2) الصفدي - الوافي بالوفيات - 7/374، محمد باقر الخوانساري روضات الجنات 6/191، يوسف البحراني - الكشكول 1/316، جواد شبر - أدب الطف 2/217، محمد عبد الغني حسن - الشريف الرضي ص 43. وقد أخذ محمد عبد الغني حسن قول الشريف " أشم فيها رائحة النبوة " على أنّه اجتراء على جلال الخلافة ومقام النبوة أمّا الخلافة فقد **كانت في عصر** الشريف اسميه والكل يعرف ذلك حتّى الخليفة نفسه، وبالنسبة للنبوة فإنّ الشريف بقوله لا يقصد سوى الفخر على الخليفة بأنّه أرفع منه مقاما لأنّه ينتمي الى آل بيت النبي. وقد يكون الأرجح في هذا المقام ما أورده سيد محفوظ في كتاب (الشريف الرضي) ص 3 قول القادر له " ماذا تشم في جبتك هذه ؟ ... رائحة الخلافة ؟ فأجاب بجرأة (لا بل رائحة النبوة) " اذ قال جبتك ولم يقل لحيتك -

الرد الخاطف ، المشحون بالتحدّى حين جعل الخليفة في منزلة دون منزلته ، وهو دليل على أنّ صبر الرضي تجاه الخليفة قد نفذ ، وازداد الوضع - بين الطرفين - سوءً ، فلم يطق الرضي صبرا على استفزازات الخليفة ، فانفجرت شاعريته كالسيل الهادر بعد احتباس طويل ، لا لتجابه القادر وحده بل لتتعداه الى جميع البيت العباسي بقوله : (متقارب)

وعَرِّجْ على الفُرِّ مِنْ هاشمٍ
فأهدِ السلامَ لهُمْ عِنْ كَثَبْ
وقُلْ لِبَني عَمِّنَا الواجدين
بني عَمِّنا بعضَ هذا الغَضَبْ
أمَا آنَ للرّاقدِ المُستمِرِّ
في ظُلَمِ الغَيِّ أنْ يَسْتَهِبْ
سَرَحتُم سَفاهَتكُم في العُقوق
وَلم تَحْفِلوا الحِلْمَ لمّا غَزَبْ (1)

ولمّا بلغ السيل الزبى ، وفاضت نفس الشاعر بحيث لم يعد في مقدوره السكوت على ما لحق به من ضيم وهوان - تحت سمع البويهيين وبصرهم - لم يجد بدا من البوح بما في نفسه من صراع دفين ، دبا عن كرامته وهروبا من وطأة الذلّ والهوان ، فقال : (خفيف)

مَا مُقامي على الهَوانِ وَعِندِي
مِقْوَلٌ صَارِمٌ وأنفٌ حَمِيٌّ
وَاباءٌ مُحَلِّقٌ بي عَنِ الضَّيمِ
كَمَا رَاغَ طائرٌ وحشيٌّ

---

1) الديوان 1/128 .

أَلبسُ الذلَّ في ديارِ الأعَادي
وبمِصرَ الخليفةُ العلَوِيُّ
من أبوهُ أبي ومولاهُ مولا
يَ ، إذا ضامَنَي البعَيدُ القصيُّ
لَفَّ عِرقِي بِعِرقِهِ سيِّدا النّا
سِ جميعاً محمدٌ وعليٌّ (1)

فلم لا يكون الرضي مثل طائر وحشي عشق الحريّة فاتخذ من قمم الجبال سكنا ومن الانطلاق في الفضاء الفسيح ملاذا ، لم لا يفرّ بنفسه حيث الكرامة والشمم والاباء والنسب العريق ؟ فلتكن مصر وجهته ، وليكن أبناء عمومته الفاطميين ملاذه ، ذلك ما صدر عن الشريف من قول بعد كبت طويل كاد يقتله أسى ، فكانت فرصة القادر المؤاتية لاخراج ما في نفسه من ضغن ، اذ تمكن عن طريق ذلك الشعر من مجابهة أسرة الشاعر ومحاسبتهم دون أن يحرك البويهيون ساكنا ، فالديار التي قال عنها الرضي : (ديار الأعادي) قائمة أساسا على **أكتاف** البويهيين ، وموافقتهم على لجوء الشريف للفاطميين معناه بطلان علني للخلافة التي يحمونها ، وهذا بطبيعة الحال يثير عليهم طائفة السنّة في جميع الأمصار التي تحت امرتهم باسم خلافة العباسيين الشرعية وهو ما كانوا يتجنبونه طيلة فترة حكمهم بمحاولة الممازجة في عسكرهم بين الديلم الشيعة والأتراك السنّة .

فعلى اثر شيوع تلك الأبيات أحضر القادر الشريف أبا أحمد الموسوي - والد الشريفين - وعاتبه عتابا مرّا ثم صرفه عن النقابة التي كان الرضي والمرتضى ينوبان

---

1) السابق - 2 / 576 .

عنه في القيام بأعبائها (1)، ويرجع سبب ذلك الى اصرار الرضى على عدم توقيعه المحضر الذي يثبت براءته ممّا قال في نسب الفاطميين وشرعية خلافتهم(2) بعد أن وقّع على ذلك المحضر كلّ من أبيه وأخيه. فقد تكون مقاطعة الشريف الرضي تلك وتهديده بمبارحة العراق الى مصر، من الأسباب المباشرة التي جعلت الخليفة القادر يلزم جميع أشراف بغداد على توقيع محضر القدح في نسب الفاطميين وشرعية خلافتهم سنة 402. وقد وقعه كل من الشريفين المرتضى والرضي (3).

---

1) يرى عبد الحسين الحلي في (الشريف الرضي) ص 22 بأنّ المعزول عن النقابة سنة 384 هو الشريف الرضي والصواب ما أوردته المصادر التاريخية في حوادث سنة 384 فهي تشير الى أنّ المعزول هو والد الشريفين المرتضى والرضى، وكانا ينوبان عنه في تحمّل أعبائها أما قوله بأنّ ذلك العزل قد تمّ دون علم بهاء الدولة فانّه لا يستند على دعائم علمية، لأنّ لا مجال للمجاملات في الأمور السياسية، ومواقف البويهيين من بعضهم البعض فيه من الدلالات الواضحة على ذلك، فميل الشريف للفاطميين أو حتّى تلميحه بذلك فيه ما يمسّ من شرعية الخلافة العباسية وهذا يعني المساس بسلطة آل بويه، لذلك فنحن لا نشكّ بأنّ بهاء الدولة كان على علم بما جرى بين الخليفة وبين أسرة النقيب أبي أحمد.

2) لقد أنكر الشريف نسبة الأبيات اليه بسبب ما أثارته من ضجّة في الوسط البغدادي وبسبب غضب الخليفة، الاّ أنّه عارض التوقيع على محضر يقول ببراءته منها مدعيا الخوف من غيلة دعاة الفاطميين - راجع الديوان 2/576 ابن أبي الحديد - شرح النهج - 1/37، 38.

3) راجع حوادث سنة 402 - ابن الأثير - الكامل، ابن الجوزي - المنتظم - العماد الحنبلي - شذرات الذهب.

ممّا سبق نستطيع أن نخلص الى : أنّ وضع الرضي السياسي لم يكن مستقرا طيلة الفترة الباقية من عمره والتي عاشها في كنف خلافة القادر، حيث كان موزّع الفكر بين مجابهة الخليفة العباسي، الذي حاول جاهدا أن يحول بينه وبين طموحاته السياسية (1)، وبين الملك البويهي بهاء الدولة الذي أتاح للشريف الرضي من الفرص ما مكنه في بعض الأحيان أن يكون خليفته على بغداد أثناء غيابه عنها (2).

و) علاقة الشريف الرضى ببهاء الدولة البويهي :

استمرّ الشريف يمدح بهاء الدولة اثنتين وعشرين سنة أي من سنة 381 الى نهاية سنة 402 هـ (3)، ورثاه سنة 403 هـ. من ذلك نستطيع أن نعرف متانة العلاقة التي

---

1) يرى عبد الفتاح الحلو في ترجمته للشريف الرضي ص 60 من الجزء الأول لديوان الرضى الذي حققه : أنّ نشاط الشريف السياسي " لم يكن متجها الى قصر الخلافة، وانما وئد هذا النشاط من السنوات الأربع الأولى " والحقيقة أنّ الشريف الرضي لم يتجه الى البويهيين الاّ بعد أن يئس من الخليفة القادر، وقد سردنا من شواهد شعره الكثير، فطموحات الشريف ليست كما يتصورها الاستاذ الحلو والتي من أجل اثباتها وجه النصوص حتّى تتفق ومقولته التي خلاصتها اصرار الشريف على المطالبة بالخلافة - راجع الشريف الرضي والخلافة -

2) راجع ديوان الشريف الرضي 2 / 454 .

3) مدح الشريف الرضي بهاء الدولة أو (قوام الدين) بثلاثين قصيدة كل قصيدة مؤرخة بمناسبتها فيما عدا ثلاث قصائد لم تؤرخ - راجع الجداول التفصيلية لطبعات الديوان **الملحقة بالفهارس.**

كانت تربط الشريف بالملك البويهي. فإذا ما استثنينا مدائح الشريف في أبيه، فإنّ بهاء الدولة يأتي في المرتبة الأولى من بين ممدوحي الشريف. والمتأمّل لتلك المدائح يمكنه معرفة الجانب الآخر من حياة الشريف السياسية في عهد القادر وبهاء الدولة، اذ كانت تلك الحياة تسير في اتجاهين متعاكسين، فبينما كانت علاقته السياسية مع الطائع متردية وسيئة، كانت متألقة ومزدهرة في ظلّ بهاء الدولة.

ينبئنا الديوان بأنّ اللقاء الأول بين بهاء الدولة والشريف الرضي كان سنة 381 هـ، أي بعد عامين من جلوس الملك البويهي على عرش العراق، وبعد خلع الطائع ومبايعة القادر. ويصوّر ذلك اللقاء طموح الشريف السياسي المتمثّل في أن يكون أحد مستشاري بهاء الدولة المقربين : (وافر)

فجربْني تجدْني سيفَ عزمٍ
يُصَمِّمُ غربَهُ ، وزِنَادَ راءِ
واسمَرَ شارِعًا في كلّ نحرٍ
شروعَ الصِّلّ في ينبوعِ ماءِ
اذا عَلِقَتْ يداكَ به حِفاظًا
ملأتَ يَدَيْكَ مِنْ كَسْرِ الفَنَاءِ
يُعَاطيكَ الصوابَ بلا نفاقٍ
ويَمحضُكَ السّدادَ بلا رِيَاءِ (1)

---

1) ديوان الشريف الرضي 1 / 16 ، 17 .

ثم أنّه في اللقاء الأول هذا يبثّ شكواه لبهاء الدولة طالبا منه رفع الضيم والغبن الذي وقع عليه بتقدّم من هم دونه أهلية ومنزلة بقوله: (وافر)

فَلِمْ أَنَا كالغريبِ وراءَ قومٍ
لو اختُبِرُوا لَقَدْ كانُوا وَرائي (1)

من ذلك اللقاء أدرك بهاء الدولة - ببعد نظره - طموحات الرضي، فأمسك بطرف الخيط الذي مكّنه من المحافظة على علاقاته بالشريف متينة وقويّة طيلة فترة ملكه، وتلك سياسة لا تتأتّى الاّ لمن تمرّس بمخالطة النّاس، والدخول الى خباياهم، والتعامل معهم من منطلق الفهم السليم لتلك الطبيعة، وبهاء الدولة سليل شرف الدولة، ذلك الملك الذي استطاع بدهائه ومكره وصلابته أن يستولي على بغداد وأن يسمل أخاه **بعدما** تنازل له عن الملك والسيادة طواعية حتّى يمكّن لنفسه من البقاء حيّا .

ولكن الشريف أيضا قد تمرّس بمعرفة طبيعة الملوك فأوصلته تلك الخبرة الى نتيجة خلاصتها، الحذر واليقظة في بناء علاقاته بهم . لذلك نجد أنّ علاقة الشريف بملوك بني بويه والقادة الأتراك تختلف اختلافا جذريّا عن علاقته بالخلفاء، فهو يعاتب الخليفة الطائع عتابا مرّا، ويتجرّأ على الخليفة القادر، بل ويهدّد العباسيين بالثأر منهم لآل البيت (2)، وسبب ذلك كلّه ادراكه

---

1) الديوان 1 / 17 .

2) راجع الديوان 1 / 209 ، 213 ، 214 .

لضعف الخلافة في عصره، الاّ أنّه كغيره من الأشراف والأعيان، يحسب للبويهيين والأتراك ألف حساب، لأنّ السلطة الفعلية في أيديهم، ممّا جعله يتجنّب سخطهم، ولا يتردّد في مدحهم حين سافر الى الكوفة، فشاعت الأقاويل بأنّه عازم على التوجّه الى مصر:

(طويل)

أآلَ بُوَيْهٍ، ما نَرَى النّاسَ غيرَكُمْ
ولا نَشتَكي للخَلقِ أولاكُمُ فَقْدَا
نرى مَنْعَكُمْ جُوداً ومطلَبكُمُ جَدّا
وإذلالَكُم عِزّاً وإمرَارَكم شَهْدَا (1)

من ذلك نستنتج أنّ معظم مدائح الشريف الرضي في بهاء الدولة من باب المدح الرسميّ المعد الذي تمليه على الشاعر المصلحة الشخصيّة وان لم يكن يرجو من وراء ذلك مالا (2)، لأنّ المركز المؤدّى الى المجد والرفعة والعلو هو غاية الشريف. ولو قمنا باستعراض مدائح الشريف في قوام الدين، فسنجد أنها في معظمها تقوم على محاور ثلاثة:

1) الحاح الشريف الرضي في المطالبة بالمركز وانجاز الوعد. (3).

2) شكر الشاعر واعترافه بجميل بهاء الدولة (4)

3) تصوير هيبة بهاء الدولة وشجاعته والتصغير من منزلة أعدائه ومناوئيه (5).

---

1) السابق 1/401.
2) راجع ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 1/33
3) راجع الديوان 1/13، 549، 553، 599- 2/282، 297.
4) السابق 1/53، 57، - 2/45، 131، 546.
5) السابق 1/13، 549، 599، - 2/135، 145، 454، 546، 552.

1) الحاح الشريف في المطالبة بالمركز وانجاز الوعد :

في البحث عن العلى والمعالي لم يقصر الشريف نشاطه على بهاء الدولة، بل تعدّاه الى وزراء بني بويه العظام سواء من كان منهم في فارس أو في العراق ، والشواهد على ذلك في ديوانه أكثر من **أن** تحصى ، فمن ذلك قوله للصاحب بن عباد : (طويل)

دَعَاني اليكَ العِزُّ حتّى أجبتُهُ
وَمَن طلبتْهُ جُمَّةُ الماءِ أوردَا
وإنّي لأرجُو مِنْ جِوارِكَ فُعْلَةً
أغيظُ بِهَا الحُسَّادَ مشىً وَمَوْحَدَا (1)

كما يقول لأبي علي وزير بهاء الدولة : (طويل)

فَهَذي المَعالي الآنَ طوْعى لأمرِكُمْ
وَفِي يَدِكُمْ أرسَانُهَا ورِقَابُهَا
إذا لَمْ أُرِدْ فِي عِزّكُمْ طلَبَ العُلى
فَفِي عِزّ مَن يُجدى عَلىّ طِلابُها (2)

ويقول للوزير سابور بن أردشير أيضا : (طويل)

وإنّي لأرجُو من عَلائِكَ دولةً
تُذَلّلُ لي فِيهَا الرِّقَابُ الموانِدُ
ويوماً يُظِلّ الخَافقَيْنِ بِمزنةٍ
رذاذٍ غَوَاديهَا الرؤوسُ الشوارِدُ (3)

---

1 - 2 - 3) **الديوان** 1/ 284 ، 70 ، 292 .

وتلك الظاهرة قد شاعت وتأكّدت في معظم مدائح الشريف في بهاء الدولة والسبب هو امتلاكه لزمام السلطة ممّا يجعله المؤهّل الأول في تحقيق طموحات الشاعر .

2) شكر الشاعر واعترافه بجميل بهاء الدولة :

الشكر والامتنان ، والاعتراف بالجميل هو المقابل الذي يدفعه الرضي لبهاء الدولة كلما أصاب منه صنيعا من صنائعه المتتالية التي لم تنقطع قطّ (1) ، والمتمثلة في محاولة بهاء الدولة التجاوب وطموحات الرضي بتمكينه من المراكز السامية التي كان أعيان بغداد وأشرافها يبذلون الأموال الطائلة للوصول اليها ، كنقابة الطالبيين في جميع أمصار الدولة العباسية ، والنظر في المظالم ، وامارة الحج ، والنيابة على خلافة بغداد أثناء غياب الملك البويهي عنها ، هذا بالاضافة الى الألقاب التي شرّفه بها دون غيره من الأشراف ، وهنا يجدر التنبيه الى أنّ شعر الشريف الرضي في مثل هذه المناسبات ليس شعرا رسميّا ، بل هو من الشعر الوجداني النابع من صدق احساسه ازاء الممدوح ، وهو الملك الأديب بهاء الدولة الذي تهزه الكلمة ويطربه المديح النابع من شاعر صادقة ، ممّا جعله لا يكفّ عن اكرام الشريف بمناسبة أو غير مناسبة ، وهذا بدوره دفع بشاعرية الرضي للتغنّي بأمجاد الملك وكرمه ، وشكر المنعم جبلة مغروسة في كرام الرجال الذين يأسرهم الاحسان ، فكيف بالشريف الرضي سليل المجد العلوي ؟

---

1) راجع **الديوان** 1/ 53 ، 273 ، 574 - 2/ 141 ، 297 ، 308 . فانّ مناسبات هذه القصائد شكر الشاعر لبهاء الدولة لانعامه عليه بالمراكز والألقاب.

3) تصوير هيبة بهاء الدولة وشجاعته والتصغير من منزلة أعدائه ومناوئيه :

ينطلق الشريف في تغنيه بتلك الصفات من نقطتين أساسيتين :

أ- تجربة الشاعر المعاشة : وحول هذه النقطة يستحضر الشاعر - أثناء نظمه القصيدة - ما أوقعه الملك البويهي من نكبات في أعدائه ومناوئيه من الخلفاء والأمراء وأخوة وأقارب وقد عايش الشاعر بعضا من تلك النكبات فصارت مصدرا من مصادر الهامه أثناء نظمه لذلك المديح ، وكان يقصد من وراء ذلك بث الرعب في نفوس أعداء الممدوح .

ب) اعجاب الممدوح بمثل ذلك الشعر والحاحه في طلب المزيد منه : فإنّ دراية الشريف بطبائع ذوي السلطان - لكثرة المعاشرة والمخالطة - مكّنته من دراسة نفسيات ممدوحيه مع ادراكه بأنّ الفروسية والشجاعة محور من محاور المدح التي يعشقها القادة والفرسان ، والملك البويهي - بطبيعته الحربية - متعطش لمثل ذلك المدح الذي يدخل الروع في نفوس أولئك المتربصين بملكه داخل العراق وخارجها ، وقد تمكّن الشريف من اضفاء صفات الهيبة والشجاعة والفروسية ما يروي ظمأ الملك ويشبع غروره .

ممّا سبق يتضح بأنّ رابطة الصداقة بين الرضي والملك البويهي كانت متينة ولكنها لم تتعدّ في جميع حالاتها علاقة الاحترام والود القائمة بين الاثنين مع ادراك كلّ منهما لمنزلة الآخر ، ولقد حاول بعض من ترجموا للشريف الرضي من المحدثين اعطاء تلك الرابطة حجما

أكبر من حجمها حين أسبغوا عليها بعدا سياسيا خطيرا يجعلها علاقة خليفة بملك (1)، وهذا يتناقض تماما مع ما مدح به الشريف بهاء الدولة اذ لم يحاول اطلاقا وفي جميع مدائحه أن يرفع نفسه الى مقام الملك، فكيف يصحّ أن يقال بأنّ بهاء الدولة يتعامل مع الشريف كتعامله مع خليفة ؟ وهل يصحّ من خليفة أن يقول لمن هو دونه ؟ (طويل)

إذا كُنتَ لي غيثاً فأنتَ غرستَني
ومورقُ عُودي بالندى مثلُ غارسي (2)

انّ بهاء الدولة وهو الممدوح يعرف ما لشخصية الشريف من مكانة سامية لكنها دون مكانة الخليفة والملك، ثم أنّ الخليفة لا يُمدَح بل يُمدح ويُضح لا يُضح.

والشريف الرضي مدح الملك البويهي، وطالبه بتحقيق آماله وطموحاته. فهل من المعقول - وهو الذي يعتبر وجها للدولة في منزلة الخليفة - أن يقوم بمدح من هو أقلّ منه منزلة، مطالبا ايّاه بحقوقه وانصافه من مجتمع لا يعرف للكفاءات مكانتها .

من كل ذلك نخلص الى نتيجة مفادها أنّ الشريف الرضي بمدحه بهاء الدولة كان يؤدّي واجب الشكر وواجب المجاملة وواجب المركز حتّى يتمكّن من الثبّات في مركزه السياسي والمحافظة على مكانته الاجتماعية في مجتمع مضطرب

---

1) راجع : عبد الحسين الحلي - حياة الشريف الرضي ص22

2) الديوان - 1 / 553 .

ملـيء بالنكبـات. ونستطيـع الاستـدلال علـى صـواب نتيجتنـا مـن مواقـف الشريـف الرضـي الكثيـرة، منهـا : مدحـه الطائـع العباسـي مدحـا صادقـا، ثـم رثـاؤه لـه ولأيامـه علـى مسمـع ومـرأى ممـن خلعـه، وهـو بهـاء الدولـة، وقـد سبـق أن فصلنا القـول فـي ذلـك .

إنّ حـبّ الشريـف للمغامـرة فـي سبيـل المجـد ، جعلـه يجـاري عصـره، ويخضـع لأهوائـه السياسيـة، التـي زجّ بنفسـه فـي أتونهـا فلـم يربـح مـن وراء ذلـك سـوى المعانـاة والألـم الّـذي صـوّره فـي شعـره أصـدق تصويـر، اذ لـم يكـن مؤهّـلا للدخـول فـي دهاليـز السياسـة المظلمـة، لمـا امتـاز بـه مـن دماثـة خلـق ومـن حسن طوية وصراحـة وصدق ورقّـة احسـاس وكـل تلـك مـن الصفـات التـي تتعـارض وشخصيـة السياسـي فكـان أن فشـل سياسيـا فطبـع ذلـك الفشـل شعـره برنّـة حـزن ويـأس وأسـى . لذلـك فنحـن لا نجانـب الصـواب اذا قلنا أنّ بهـاء الدولـة قـد كسـب مـن الشريـف الرضـي أضعـاف أضعـاف مـا أعطـاه وتلـك طبيعـة الساسـة، ولكـن قبـل أن نختم الحديـث فـي حيـاة الشريـف الرضـي السياسيـة لابـدّ مـن مناقشـة قضيـة الشريـف الرضي والخلافـة، تلك القضيـة التـي شغلـت كـل مـن ترجـم لـه مـن المحدثيـن .

ـ الشريـف الرضـي والخلافـة :

قبـل الشـروع فـي خـوض الموضـوع يجـدر بنـا المـرور سريعا بمـا أنيـط بـه مـن أعمـال ومـا تقلـد مـن مناصـب(1)

---

1) راجع : الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ 3/ 132 . وحوادث سنة 406هـ عند : ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الجوزي ـ المنتظـم ، العماد الحنبلي ـ شذرات الذهب، ابن خلكان ـ وفيات الأعيان 4/ 415 ، ابن ابي الحديد ـ شرح نهج البلاغة 1/ 38 ،ابن عتبه ـ عمدة الطالب ص 207 ، محمد باقر الخونساري ـ روضات الجنات 6/ 194 ، عبد الحسين الاميني ـ الغدير 4/ 204 ، عبد الحسين الحلي ـ مقدمـة

=

يمكن استخلاصها من مقولة الخليفة القادر في عتابه لوالد الرضي بسبب مطلوعته التي أشاد فيها بالفاطميين وهدّد العباسيين بمبارحتهم فممّا ورد في ذلك العتاب الخاطب " قل لولدك محمد : أيّ هوان قد أقام عليه عندنا! وأيّ ضيم لقي من جهتنا ! وأيّ ذلّ أصابه في مملكتنا ! وما الذي يعمل معه صاحب مصر لو مضى اليه ؟ أكان يصنع اليه أكثر من صنيعنا ؟ ألم نوله النقابة ! ألم نوله المظالم ! ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلناه أمير الحجيج " (1) ، فمن خلال تقلده لتلك المهام والمناصب أصبح احتكاكه بالخلفاء والملوك والوزراء وحكّام الأطراف وشيوخ القبائل أمرًا محتمًا ، ممّا أتاح له التّعرف على دخائل الأمور ، فأوقعه طموحه في شراك السياسة ، التي تسببت له في الكثير من المآسي ، وكانت قضية مطالبته بالخلافة - التي أعلن عنها في شعره بكل صراحة - من أهمّ القضايا التي اتخذها كتّاب سيرته مدخلا لدراسة حياته السياسية ممّا أربك الجميع في الموائمة بين طموحه السياسي وبين معتقده المذهبي ، فانتماؤه الى مذهب الشيعة الأماميّة ، يتعارض معارضة تامّة مع مطالبته بالخلافة (2) ،

= حقائق التأويل 78/5 وما بعدها ، أحمد الحسيني - أمل الآمل ص 26 ، دائرة المعارف الاسلامية 285/13 ، الموسوعة العربية الميسرة ص 1083 .....

1) راجع : الديوان 576/2 ، ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 38/1.

2) لمعرفة هذه المعارضة راجع ص 205 من هذا البحث

فكيف استطاع التوفيق بين المتناقضين ؟ وهل كان جادا في مطالبته بالخلافة ؟

يقف دارسو سيرته من مطالبته بالخلافة مواقف تكاد تكون متباينة، فعبد الحسين الحلي (1) يجزم بمطالبة الشريف بالخلافة وتوقّع تقلّدها بين آونة وأخرى ويرجع ذلك الى أسباب يستقيها من شعره ومن علاقاته السياسية والاجتماعية يمكن اجمالها فيما يلي :

1) ادلاله بالفخر والطول المتكون من علو نسبه

2) قبض البويهيين المخلصين والمقدرين له على مخانق الخلافة .

3) امارة الحجّ فهي التي نبهت هواجسه ونمّت طموحاته .

4) علاقته بالبدوي ابن أبي ليلى الذي قيل أنّه داعيته في البادية .

أمّا زكي مبارك فيرى أنّ مطالبة الشريف بالخلافة ما هي الاّ من صنع خيال الأدباء الذين يسرهم بأن يكون أحدهم خليفة (2)، ويدعّم رأيه بدراسة حال من شجّع الرضي على ذلك ومكانته الاجتماعية والسياسية، هذا اضافة الى حديثه عن ضعف الخلافة بسبب تسلّط البويهيين والأتراك عليها، ممّا جعلها عديمة القيمة، بحيث لم يعد لأيّ صاحب نفس طموحة طمع فيها (3).

---

1) راجع : حياة الشريف الرضي ص 47 وما بعدها

2-3) راجع : عبقرية الشريف الرضي 1/ 130 وما بعدها .

ويقف عبد الرزاق محي الدين من القضية موقف الحائر في التوفيق بين عقيدة الرضي وبين مطامحه في الوصول الى كرسي الخلافة عند مقارنته بأخيه المرتضى فيقول " ولكن أخاه (الرضي) فيما يبدو من شعره وفيما يحدثنا التاريخ عنه، كان راغبا في الخلافة، يترقبها ويتوقعها لنفسه، وهو أمر - ان صحّ - لا أدرى كيف أوفّق بينه وبين عقيدته الأمامية " (1).

أمّا عبد الغني حسن فينظر الى القضية من منظورين متناقضين، ففي الوقت الذي يؤكّد فيه فكرة تعلّق الرضي بالخلافة في قوله أنّه " لم يتوهم نفسه خليفة جالسا على عرش الخلافة وحسب، بل تصور أنّ الخليفة العباسي يحسده، والحاسد لا يحسد الاّ من هو فوقه مجدا وعظمة "(2) ويتخذ من قول الشريف : (طويل)

يقِرّ بَفضْلِي كُلّ بَادٍ وحاضرٍ
وَيَحسُدُنِي هَذا العَظيمُ المُحجَّبُ (3)

ما يؤيّد مقولته تلك، ثم يعود مرّة أخرى - وبعد جولة في شعر الشريف يؤكّد من خلالها اصراره على الخلافة - ليقول " واذا تأملنا قصّة طموح الشريف الى الخلافة ونظرنا اليها بعين الجد والتحقيق وجدنا أنها لم تعد أن تكون مجرد أمنيات ومطامح وأحلام يصورها له شعره " (4).

---

1) أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص 73

2) الشريف الرضي ص 35

3) الديوان 1/83

4) الشريف الرضي ص 40

وقضية طموح الشريف الرضي الى الخلافة من أهم محاور دراسة عبد الفتّاح الحلو، خاصّة حين اعتبر الرضي مطالبا بالخلافة قولا وعملا، بل وراح الى أبعد من ذلك حين ربط القضية ربطا محكما بجميع أدوار حياة الشاعر بزعمه بعدم امكانية فصلها " عن مسيرة المجد لديه، هذه المسيرة تنتظم حياته كلها. ولا أكون مبالغا حين أقول: أنها تكاد تنتظم شعره كلّه " (1) وفي سبيل تدعيم مقولته وظّف جميع مدائح الرضي في الوزراء والأمراء لذلك الغرض، حتّى كاد يوهمنا في نهاية الأمر بأنّ العلاقة الوطيدة بين الشاعر وبين بهاء الدولة لم تكن الاّ لوصول الرضي الى غرضه وتحقيق مأربه.

تلك هي خلاصة الآراء التي تمحورت حولها قضية الرضي والخلافة عند المحدثين من الأدباء، فمن أين استقوا معلوماتهم التي بنوا على أساسها أفكارهم ودعموها ؟ وكيف كانت معالجتهم لتلك المعلومات ؟

لقد اعتمد أولئك الدارسون - خاصّة المؤيدين لوجهة النظر القائلة بمطالبته بالخلافة - على مصدرين أساسيين هما :

1) شعره الذي ضمّنه أمانيه بتولّي الخلافة

2) ما أوردته بعض المصادر من اشارات تنبئ عن ذلك (2)، وقد اعتمدت تلك المصادر في استقائها تلك المعلومات على شعره أيضا.

---

1) مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضى 1/ 73 وما بعدها.

2) من ذلك ما أورده ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة 1/ 34 " وكان الرضي لعلو همته تنازعه نفسه الى أمور عظيمة يجيش بها خاطره وينظمها في شعره، ولا يجد من الدهر عليها مساعد، فيذوب كمدا ويفنى وجدا، حتى توفي ولم يبلغ غرضا " كما أشار ابن عتبه في " عمدة الطالب " الى قول الرضي بأحقيته بالخلافة، وقد أورد ابن عتبه الخبر منكرا قول القائلين بزيدية الرضي . راجع : عمدة الطالب 210.

اذن فالقضية ترجع في الأساس الى ما قاله الشريف من شعر في ذات الموضوع ولكن حتّى نجلو عن تلك القضية ما أحيط بها من غموض، لنطرح على أنفسنا أسئلة كادت تغيب عن كل أولئك الباحثين أثناء بسط القضية .

فنحن لا ننكر أنّ للشريف شعرا يؤيّد ويدعّم وجهة نظر القائلين بمطالبة الشريف الرضي بالخلافة، ولكننا نسألهم عن الوقت الذي كانت فيه تلك المطالبة،والظروف التي كانت تحيط بذلك الوقت، هذا من ناحية. ثم نعود لنسأل عن موقف البويهيين من الخلافة، ثم عن الخلافة وتيمتها في القرن الرابع، وهل كان الرضي يرضى لنفسه أن يكون خليفة وهو يلاحظ تلاعب الأتراك والبويهيين بالخلافة ؟ ومن ثم هل من المفروض في رجل يطالب بأمر خطير أن يعلن عن مآربه وبكل صراحة في مثل ذلك الجو السياسي المليء بالدسائس ؟ وهل ستمرّ مطالبته العلنية تلك بسلام اذا كانت جادة ؟ وأخيرا وهو الأهم، ما هي عقيدة الشريف وهل كانت تلك العقيدة ستسمح له بالمطالبة بالخلافة ؟

من خلال تقصينا لشعر الرضي حول موضوع الخلافة أمكننا تقسيم ذلك الشعر على مراحل حياته الثلاث (الصبا الشباب - الكهولة) . ففي مرحلة المراهقة وبداية طور الشباب عادة ما يكون لكل شاب أحلام وخيال خصب خاصّة اذا كان الشّاب يعيش في كنف أسرة ذات مجد عريق ، يرى أفرادها أنّ الخلافة هي حقهم المغصوب،الذي لابدّ من عودته اليهم عاجلا أم آجلا ،وفي هذه المرحلة من السنّ

يحلق الخيال الخصب بصاحبه الى أودية من الأحلام اللذيذة، فيحاول تحقيقها ناسجا حولها فنونا من ابداعاته، وهذا ما حدا بشاعرية الشريف - سليل بيت النبوة - أن يحلم، مجسّدا أمانيه بحماس الشباب الفوار: من ذلك قوله وهو في سن الخامسة عشرة (متقارب)

وانّي شقيقُ الوَغَى والنّدَى
رَضيعُ لِبَانِ المَعَالي الجِسَام
إذا مُضَرٌ ظللتْنِي القَنَا
وَسَالَتْ قَبَائِلُهَا مِنْ أمَامِي
لَبِسْتُ بِهَا جُنّة لا يُفَـ
ـضُّ مَسْرُودُهَا بِنِبَالِ المُرَامِي (1)

وممّا زاد في استسلامه لتلك الأحلام تسنمه لمنصب النقابة نيابة عن أبيه وهو في الثامنة عشرة، حيث صورت له تلك الأحلام أنّ بامكانه الوصول الى قمّة المجد. فالنّاس يبجلونه ويقدمونه وقد قبلوه نقيبا وهو في هذه السن المبكّرة لأنّه أهل للمركز، فمادامو قدّموه في هذه الأمور الهامّة، فلابدّ أنّهم سيرتضونه خليفة. كلّ ذلك جعل أحلام اليقظة تجنّح به بعيدا حين تصوّر نفسه خليفة وذلك في قوله : (كامل)

هذا أميرُ المؤمنينَ محمّدُ
كَرُمَتْ مغارسُهُ وطابَ المولِدُ
أوَ مَا كفَاكَ بأنّ أمّكَ فاطِمٌ
وأَبُوكَ حَيْدَرَةٌ وَجَدّكَ أحمدُ
يُمسِي ومنزِلُ ضيفِهِ لا يُحتَوَى
كَرَمًا، وَبَيْتُ نُضَارِهِ لا يُقْلَدُ (2)

---

1) الديوان - 2 / 371 .

2) الديوان - 1 / 409 .

لكن سرعان ما أفاق من ذلك الحلم اللذيذ ،وعاد للواقع، بعد أن أدرك أنّ ذلك الواقع يلزمه بقبول ما قبله أبوه وأجداده من قبل ، فأخذ يوطد علاقاته بالخليفة الطائع، فأصبح من أخلص أصدقائه كما مرّ بنا ، فلم يحاول على الاطلاق - في فترة الطائع - أن يطالب بالخلافة، بل أقرّ في كثير من شعره بشرعية خلافة العباسيين ارضاء لصديقه الحميم، كما أنّه أول طالبي لبس السواد شعار الدولة العباسية، واستمرّ في اعتقاده بشرعية خلافة الطائع حتّى بعد مماته، الاّ أنّه عاود المطالبة بالخلافة بعد وفاة الطائع في عهد القادر بعد أن سكت عن ذلك ابّان خلافة الطائع، فلماذا هذه الرجعة المفاجئة بعد مدحه العباسيين والاقرار بشرعية خلافتهم في الكثير من شعره كما في قوله : (متقارب) ؟

إذا مَا أتَيْنَا الى ابن المطيع
حَمِدْنَا السُّرَى وأطَلْنَا المُقَامَا
إمَامٌ تَرَى سِلْكَ آبَائِه
بَعَيْدَ الرَّسُولِ، إمامًا إمامَا (1)

تكمن الاجابة عن ذلك في العلاقة المتوتّرة بين الشريف وبين القادر العباسي ، الذي قبل الجلوس على انقاض عرش **ابن عمّه** وقد خلعه البويهيون بطريقة مهينة بشعة، بقيت ماثلة للرضي طيلة حياته، بعد أن عايشها ، وكاد يضيع في خضم أحداثها كما ضاع غيره من الأعيان ، فالقادر العباسي - كما مرّ بنا - يدرك أنّ الرضي لن يكون مخلصا وصادقا بمثل ما كان مخلصا وصادقا لأخيه الطائع، فحاول اقصاءه وتجنبه، كما آثر الرضي المهادنة لادراكه بعدم تعادل كفتي الميزان ، فجنح الى المهادنة ولكنّه لم يستطع صبرا ، بعد أن أصبحت القطيعة بين

---

1) السابق - 2 / 321 .

الطرفين أمرا محتما ، فعمل كل منهما على اشارة الثاني ، فأشار الشريف الرضي تهيئة مطالبته بالخلافة، وغرضه اشارة القادر، الذي ما فتئ يكيد للرضي ، وقد علا صوت الرضي بالمطالبة بالخلافة بعد أن ضاق ذرعا بمعاملة القادر له، فاتخذ من أحقية آل البيت ذريعة لزعزعة نفس القادر ومن ذلك قوله : (كامل)

رُدّوا تُراثَ محمّدٍ رُدّوا
ليسَ القضيبُ لكُمْ ولا البُرْدُ
هَلْ عرّقَتْ فيكُم كَفَاطمةٍ
أمْ هَلْ لكُمْ كمحمّدٍ جَدٌّ (1)

وبالفعل فقد تمكّن الشريف بمثل ذلك الشعر وغيره أن يثير الخليفة ويزعزع نفسيته، وممّا زاد من غيظ القادر تلك المقطوعة التي قالها الصّابي في مدح الشريف الرضي متنبئا له بالخلافة ومطلعها : (طويل)

أبَا حَسنٍ لي في الرّجالِ فراسَةٌ
تَعَوّدتُ منهَا أنْ تَقُولَ فتصدُقَا
وَقَدْ خَبّرتْنِي عَنْكَ أنّكَ ماجِدٌ
سَتَرْقَى مِنَ العَلْيَاءِ أبْعَدَ مُرْتَقَى (2)

والمقطوعة من الأدلّة التي استند عليها القائلون بجدية مطالبة الشريف بالخلافة ، اذ هي في نظر بعضهم بمثابة المبايعة المبدئيّة (3) ، ولكنهم لم يتأملوا أسلوب المقطوعة

---

1) **الديوان** 1/407.

2) **الديوان** 2/89، ورسائل الصابي والشريف الرضي ص

3) راجع : عبد الحسين الحلي - حياة الشريف الرضي ص51، محمد باقر الخوانساري - روضات الجنات - 6/202

ومتى قيلت، فالملاحظ على أسلوبها الاستعطاف وطلب العون بعد أن طعن الصابي في السن وعضه الجوع والفقر ونرجح أنّ الصابي قد قالها بعد عام 382 هـ أى بعد خلع الطائع، اذ كان في الفترة الأخيرة من حياته - أى قبل سنة 384 - كثير الشكوى للشريف من العجز والعدم(1) وكان الشريف بدوره يواسيه محاولا التخفيف من محنه، ويقال أنّ الصابي لمّا أحسّ بما ستجلبه له تلك المقطوعة من مصائب لا قبل له بها أنكرها (2). ولكن الشريف يؤكّد صحّة نسبتها له بالردّ عليه في قصيدة طويلة على نفس الوزن والروي :

سننت لِهَذا الرّمح غَرْبًا مُذلّقَا
وأجريتُ في ذا الهِندُوانيّ رَوْنَقَا
وَسَوّمتُ ذا الطّرْفَ الجَوَادَ وإنّمَا
شَرَعْتُ لهُ نَهْجًا فَخَبّ وأعنَقَا (3)

والملاحظ على القصيدة بأنها متينة في أسلوبها منتخبة في عباراتها عميقة في نفسها، ممّا يرجح أنّ الشريف قد أتعب نفسه وأظناها، وقدح زناد فكره في سبكها ليكون لها الدوي العظيم في نفس خصمه القادر، الذي قدر في نهاية الأمر أن يطفىء النّار المتأججة في نفسه بالانتقام من الشريف، وقد سبق أن فصلنا القول في تلك الخصومة التي

---

1) الشريف الرضي - رسائل الصابي والشريف الرضي ص 40.
2) راجع : ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - 1/ 37
3) الديوان - 2 / 90 .

نعتقد انها الاساس في معاودة الرضي بالقول في المطالبة بالخلافة، اذ بفراسته، كان يدرك بأنّ الانسان الذي يرضى بالجلوس على انقاض عرش أزيل ابن عمّه عنه سيكون في اضطراب دائم، وهواجس مستمرّة، خوفا على ذلك العرش من أي شخص، حتّى وان أراد النيل منه بالقول دون الفعل، وخلاصة القول انّ شعر الشريف في الخلافة لم يكن في مراحله الأولى الاّ أحلاما وخيالات كانت تراود الشاب في وقت كان يتصور أنّ مقاليد الأمور طوع ارادته حيث أحلام اليقظة اللذيذة المجنحة. أمّا دور المطالبة الثاني فيمثّل التحدي اذ لم يقصد الشريف من وراء ذلك الشعر الوصول الى منصب الخلافة بقدر ما كان يبغي إثارة القادر واقضاض مضجعه، فلو كان الرضي يطلب الخلافة - وهذا مستبعد - لأخذ في تدبير الأمر في سرية وحيطة وحذر، لأنّ من يطلب أمرا خطيرا مثل الخلافة، يجدر به أن يدبّر له في الخفاء، فيحتاط لنفسه، ويكتم أمره عن أعدائه ومناوئيه، وسيرة الرضي لم تحدثنا أنّه دبّر مثل ذلك الأمر في السرّ.

ومن ثم فهل من الممكن أن يتفاضى البويهيون عن الرضي لو كان جادّاً في مطالبته ؟ بالطبع لا، لأنهم إن مكّنوه من ذلك فسيسعون للقضاء على سلطانهم، لأنّ تشيعهم يحتّم عليهم في هذه الحالة الرضوخ اليه وعدم معارضته في أيّ أمر صغير أو كبير وهذا يتعارض وحبهم للسلطة، ذلك من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب الادراك بأنّ البويهيين يستمدّون شرعية سلطتهم من حمايتهم للخلافة الشرعية الممثلة في البيت العباسي، ولو أنهم قاموا بتحويلها الى بيت آخر لألبوا عليهم الشعوب الاسلامية في جميع الأقطار.

ولنفرض أنّ البويهيين قد وافقوا على تنصيب الرضي خليفة، فهل سيرضى لنفسه أن يكون ألعوبة في أيديهم يفعلون به ما يشاؤون وهو الذي عايش نكبة الطائع وخرج منها بنتيجة خلاصتها قوله : (بسيط)

هيهاتَ أغترُّ بالسلطانِ ثانيةً
قد ظلّ ولاّجُ أبوابِ السلاطينِ (1)

ولنفرض أنّ الشريف قد قبل بذلك الهوان، ورضي بالتكيّف مع الوضع، - وهذا مستبعد في شخصيته - فهل ستسمح له عقيدته بالاجتهاد الذي يخوّل له حق الخلافة ؟

عقيدة الشريف الرضي :
++++++++++++++++++++

قبل الشروع في بسط عقيدة الشريف يجب أن نزيل لسببين وقع فيهما بعض من ترجموا له

الأول : نسبته الى المذهب الزيدي، وقد أشار الى ذلك ابن عتبه بقوله " ووجدت في بعض الكتب أنّ الرضي كان زيدي المذهب وانّه كان يرى أنّه أحق قريش بالامامة "(2) هذا وقد نقل نص العبارة صاحب روضات الجنّات (3)، كما أشار الى ذلك عبد الحسين الحلّي (4) في معرض دفاعه عن عقيدة الرضي .

---

1) السابق 2/447
2) عمدة الطالب ص 210
3) محمد باقر الخوانساري 6/196
4) مقدمة تحقيق " حقائق التأويل " 5/75

والحقيقة أنّ نسبة الشريف للمذهب الزيدي بعيدة كل البعد عن الصواب، لأنّه وان كان علويّا لم يحمل سيفا ولم يقاوم السلطان، وهو شرط أساسي في المطالب بالخلافة من آل البيت، عند الزيدية (1)، وسيرته شاهدة على قولنا، اذ لم يذكر المؤرخون لا القدامى ولا المحدثون خوضه لمعركة أو اشهاره سيفا، أمّا ما نقرأه في شعره من فروسية وشجاعة فما هو الاّ مجرّد أمنيات شاعر داعبت نفسه الطموحة فتغنّى بها في شعره. اضافة الى ذلك فإنّه لا يجوّز امامة المفضول مع وجود الأفضل (2) والشاهد على ذلك قوله : (خفيف)

كمْ الى كمْ تعلُو الطغاةُ، وكمْ يَحْـ
ـكُمُ في كلّ فاضلٍ مفضولُ (3)

وبانتفاء شرطي خروجه داعيا لخلافته، وقبول فكرة جواز تقديم المفضول مع وجود الأفضل، ينتفي انتماء الشريف للمذهب الزيدي .

الثاني : المحاولة التي قام بها عبد الفتاح الحلو في اثبات الاعتزال للشريف عن طريق مؤلفاته التي بين أيدينا، معتمدا في ذلك على نتائج مسبقة أجملها في قوله " انّ المعتزلة قد عرفوا بمسائل خالفوا فيها الفرق الأخرى هي : صفات اللّه عزّ وجلّ، والارجاء والوعيد، وخلق الجنّة والنّار، والحسن والقبح والصلاح والأصلح، ورؤية

---

1) يشير ابن خلدون في (المقدمة) ص 156، الى أنّ الزيدية يسوقون الامامة " في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ويشترط أن يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته، وهؤلاء هم الزيدية نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين السبط. وقد كان يناظر أخاه محمد الباقر على اشتراط الخروج في الامام، فيلزمه الباقر الا يكون ابوهما زين العابدين اماما لأنّه لم يخرج ولا تعرّض للخروج " .

2) السابق ص 156- يجوّز الزيدية " امامة المفضول مع وجود الأفضل)

3) الديوان - 2 / 189 .

اللّه تعالى وقد وافقهم الرضي في هذه المسائل كلها ماعدا المسألة الأولى " (1). ولعدم ايماننا بالنتائج المسبقة سنضع تلك المقولة موضع المناقشة على ضوء ما لدينا من مؤلفات الشريف الرضي والتي يمكننا عن طريقها تحديد عقيدته. فمن المسائل التي خصّ الحلو بها المعتزلة دون غيرهم من الفرق الاسلامية: صفات اللّه تعالى، الاّ أنّه لم يجد للرضي قولا في ذلك (2)، ولو تصفحنا كتاب الرضي (حقائق التأويل) لما خاننا الحظ في العثور على أمثلة متناثرة تبيّن رأي المؤلّف في صفات الخالق جلّ شأنه (3). ففي الفصل الذي تعرّض فيه لتفسير قوله تعالى " ويحذركم اللّه نفسه والى اللّه المصير " (4) ينفي صفات الأجسام وعلامات المحدثات عن اللّه تعالت قدرته (5)، كما يذكر بهاء الدين العاملي في كشكوله فقرة للشريف في معنى تحقيق العلم والمعرفة يتعرض فيها لصفة من صفات الخالق جلّ شأنه وذلك بقوله " انّ هاهنا معنيين آخرين الاشارة في الكتاب اليهما: احداهما أنّ المعرفة تطلق على الادراك الذي بعد الجهل، والثاني أنّها تطلق على الأخير من

---

1) مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي 1/57

2) راجع السابق نفس الصفحة

3) الشريف الرضي - حقائق التأويل - 5/78

4) آل عمران - 30.

5) الشريف الرضي - حقائق التأويل - 5/82

ادراكين لشيء واحد يتخلّل بينهما عدم، ولا يعتبر شيء من هذين القيدين في العلم، ولهذا لا يوصف الباري تعالى بالعارف ويوصف بالعالم" (1).

والكلام في صفات الباري جلّ شأنه، ليس من ابتداع المعتزلة أو من اختصاصاتهم دون غيرهم، اذ سبقهم الى ذلك الامام علي، وفي ((نهج البلاغة))(2) من الشواهد الكثيرة، كما أنّ المتصفّح لكتب عقائد الشيعة الأمامية سيجد أنهم يفردون أبوابا خاصّة للكلام عن صفات الله تعالى (3)، وعليه فإنّ الشريف حين يتعرض الى تنزيه اللّه - سبحانه وتعالى - عن الصّفات المحدثة (4)، لم يكن ينطلق في ذلك من عقيدة اعتزالية، بل هو ينطلق في ذلك من صلب عقيدة الشيعة الأمامية، أمّا استشهاده بأقوال بعض المعتزلة فإنما

---

1) الكشكول - 1/ 397

2) راجع شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 1/ 158 وما بعدها

3) راجع المطهر الحلي - نهج الحق وكشف الصدق ص 77 وما بعدها، الزنجاني الموسوي - عقائد الامامية - 1/ 28 وما بعدها

4) حول تنزيه الله عن الصفات المحدثة يقول المطهر الحلي - السابق ص 77 - " وقول الأمامية في التوحيد يضاهي قولهم في العدل، فانهم يقولون : انّ اللّه عز وجلّ واحد لا قديم سواه ولا اله غيره، ولا يشبه الأشياء ولا يجوز عليه ما يصح عليها من التحرك والسكون..." وهذا ما يأخذ به المعتزلة في تنزيه اللّه سبحانه وتعالى عن الصفات المحدثة - راجع عبد الرحمان بدوي - مذاهب الاسلاميين 1/ 413 وما بعدها. فالأمامية والمعتزلة يتفقون في ذلك ممّا يبطل القول بأنّ الرضي قد أخذ برأي المعتزلة سواء أكان ذلك في صفات اللّه تعالى أو تنزيهه سبحانه وتعالى عن الصفات المحدثة -

يريد به تعضيد رأيه، ووضعه في قاعدة متسعة لا تقتصر على رأي الشيعة فقط، كما أنّ استشهاداته لم يقصرها على آراء المعتزلة دون غيرهم، بل كان يعرض آراء الشوافع والأحناف وغيرهم من الفرق والمذاهب الاسلامية وذلك أثناء حديثه في العقيدة، فعلى سبيل المثال يقول في كتابه المجازات النبويّة " وكنت سألت شيخنا أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمي ...." (1) والخوارزمي - كما نعلم - من كبار فقهاء المذهب الحنفي (2)، فهل قول الشريف كلمة (شيخنا) تعني أنّه حنفي المعتقد، ولو نحن أخذنا بهذا الرأي لوجدنا أنّ الشريف الرضي يعتقد بجميع المذاهب الاسلامية، لأنّه يعظّم شيوخه ويحيل على الكثير من آرائهم.

ويذهب الشريف مذهب المعتزلة بالقول بالارجاء (3)، وقد دخل الى ذلك عن طريق تفسير قول اللّه تعالى " إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك باللّه فقد افترى اثما عظيما " (4) فقد أخذ في تفسيره للآية الكريمة برأي المعتزلة الذين يخالفون الأمامية في ذلك، فالمعروف عن الأمامية قولهم بـ" غفران الكبيرة مع عدم التوبة لمن شاء اللّه أن يغفرها له تفضلا. أما مع التوبة فالجميع على الغفران امّا تفضلا كما هو المعروف عند الأمامية، أو وجوبا كما ذهب المعتزلة (5).

---

1) المجازات النبوية ص 108
2) راجع العماد الحنبلي - شذرات الذهب - 3/ 170.
3) القول بالارجاء فحواه عدم موافقة المعتزلة للمرجئة في قولهم أنّ " الايمان قول بلا عمل، كأنّهم قدموا وأرجئوا العمل، أي أخروه - لأنهم لو لم يصلّوا ولم يصوموا لنجّاهم ايمانهم ".
4) النساء - 48.
5) محمد رضا آل كاشف الغطاء - حاشية حقائق التأويل 5/ 362

والأخذ برأي يعتقد الرضي بصوابه لا يعني الحاقه بفرقة المعتزلة.

وبخصوص خلق الجنّة والنّار وهل هما مخلوقتان أم أنهما ستخلقان من بعد ؟ أخذ الشريف في ذلك برأي القائلين : بأنهما تخلقان فيما بعد وهو رأي اتفق عليه القلّة من الأمامية وأكثر المعتزلة (1).

وبالنسبة للحسن والقبح فقد فصّل الشريف الرضي القول فيهما عند تفسيره قول اللّه تعالى " زُيّن للنّاس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة" (2). فبعد الاسهاب في تفسير الآية عقد فصلا لدرس (شهوة القبح) حيث فرّق في ذلك الفصل بين القبح والحسن ، وعلّق فعلهما على قدرة الانسان وصحّة اختياره (3). وهو في هذه المسألة يأخذ برأي أهل العدل ، وهم الشيعة الأمامية والمعتزلة كما أسلفنا اذ يتفق الشيعة الأمامية والمعتزلة على القول " بحسن الفعل وقبحه ، وانهما عائدان لأمر حقيقي امّا بالذات أو وصف ملازم ، أو لوجوه واعتبارات" (4).

---

1) قضية خلق الجنّة والنّار ليست ممّا اختصّ به المعتزلة، اذ فيهم من خالف ذلك الرأي وأخذ بقول : انهما مخلوقة، منهم أبو علي الجبائي ، وبشر بن المعتمر كما وافق رأي القائلين : بأنها ستخلق بعد ، الشريف المرتضى زعيم طائفة الشيعة الأمامية في القرن الخامس الهجري - راجع السابق - حاشية ص 245.

2) آل عمران - 14

3) راجع الشريف الرضي - حقائق التأويل 5/ 54 وما بعدها.

4) رشدي عليان - العقل عند الشيعة الأمامية ص 141.

ويقسم الفريقان نوعية الادراك بالنسبة للحسن والقبح الى ثلاثة أقسام :

" 1) ما يدرك بضرورة العقل كحسن انقاذ الغرقى والهلكى ، وقبح الكفر ، وايلام البري" ، والكذب الذي لا غرض فيه .

2) ما يدرك بنظر العقل كحسن الصدق الذي فيه ضرر ، وكقبح الكذب الذي فيه نفع .

3) ما يدرك بالسمع كحسن الصلاة والصوم وسائر العبادات " (1) .

ولو تمعنا فيما كتبه الشريف حول (الحسن والقبح) لوجدنا أنّ آراءه لم تخرج عمّا اتفق الفريقان عليه وهذا ينفي ما قيل حول اعتزاله ، أمّا استشهاده بآراء المعتزلة في هذا الموضع وغيره فلهدف أساسه كما نعتقد أن يمكن لكتبه الانتشار والسيرورة لدى جميع الطوائف الاسلامية ممّا حتّم عليه مناقشة جميع الآراء الفقهية دون استثناء .

وعن تفسيره لقوله تعالى " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا . . . الآية " (2) أكّد الحلو اعتزال الشريف (3) ، وكأنّ المعتزلة وحدهم اختصّوا بتأويل آيات القرآن الكريم ، ولو رجعنا الى تفسير ذات الآية الكريمة عند المرتضى لوجدنا اتفاق الأخوين في التأويل (4) ، فيما عدا التوسّع

---

1) السابق ص 141 .

2) آل عمران - 18 .

3) راجع : محمد عبد الفتاح الحلو - مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي 1 / 53 .

4) راجع امالي المرتضى 2/ 26 وما بعدها وقارن تفسيره بتفسير الرضي - حقائق التأويل - 5/ 15 وما بعدها .

والاطناب الذي امتاز به الرضي ، والاختصار في تفسير المرتضى ، فكلاهما ينسبان الازاغة الى الانسان ذاته ، لتنزيه الخالق جلّت قدرته عن الظلم ، وهذا ما وافقهما عليه مفسّر شيعي امامي محدث هو محمد الحسيني الشيرازي (1) ، ممّا يدلّ على أنّ تفسير الرضي للقرآن الكريم ، وتأويل آياته ، ينطلق عن عقيدة شيعيّة امامية.

أمّا بالنسبة لقضية الصلاح والأصلح وقد عالجها الشريف من خلال تعرضه للمجاز في قول الرسول (ص) " العين حق تستنزل الخالق " (2) ، فقد ناقش الرضي القضية مستخدما أسلحة علماء الكلام في ذلك ، وبسبب استخدامه لتلك الأسلحة الكلامية جعل في رمزة المعتزلة (3) وكأنّ علم الكلام مقصور على المعتزلة ، ولو تروّى أولئك الباحثون الذين ينسبون علم الكلام للمعتزلة ، لوجدوا للشيعة باعًا طويلاً فيه (4) ، ويكفينا تدليلا على صحّة قولنا : اسم زعيم طائفة الشيعة الامامية - في عصر الرضي - الشيخ المفيد ، الذي كان من أعظم متكلمي عصره (5) ، ولا يخفى

---

1) تفسير تقريب القرآن 3/ 53 وما بعدها .

2) الشريف الرضي - المجازات النبوية - ص 242 .

3) راجع : الحلو - مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي 1/ 57 .

4) راجع : حسن الصدر - الشيعة وفنون الاسلام ص 550 ، الزنجاني - عقائد الامامية الاثنى عشرية - 3/ 205 .

5) راجع : العماد الحنبلي - شذرات الذهب - 3 / 199 ، 200 .

علينا هنا أنّ الشريف قد تتلمذ عليه منذ نعومة أظفاره لذلك فاكتسابه علم الكلام لم يكن عن طريق المعتزلة وحدهم، وقضية الصلاح والأصلح، كانت موضع نقاش جميع الفرق الاسلامية، مثلها في ذلك مثل مقولة الزيديّة " جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل " (1) التي رفضها الشيعة الامامية بينما قبلتها جميع الفرق الاسلامية بما فيهم المعتزلة، ولو تصفحنا أحد كتب التفسير الشيعية لوجدنا أنهم يأخذون برأي الشريف ضمنا في قضيّة الصلاح والأصلح في تفسيرهم لقوله تعالى " فانطلقا حتّى اذا ركبا السفينة خرقها ... الآية " (2) فحين سار موسى عليه السلام بصحبة العبد الصالح على ساحل البحر وجدا سفينة راسية فطلبا من صاحبها أن يحملها معه، فأجابهما لذلك، ولكن ما ان توسّطت لجّة البحر حتّى خرقها العبد الصالح في مكان يتسرب الماء منه فذعر موسى من فعلته تلك وعاتبه عليها فذكّره العبد الصالح بشرط السكوت الذي تعاهدا عليه، وقد عاود موسى الاستكبار بعد أن قتل العبد الصالح الغلام ومن ثم بعد بنائهما الجدار المتهدّم دون مقابل، فلمّا وجد العبد الصالح أن لا طاقة لموسى بمصاحبته أعلمه بسرخرقه السفينة، فقد كانت لمساكين يعيشون في بلاد يأخذ ملكها من رعيته كل سفينة صالحة بالاكراه، لذلك خرقها حتّى يلحق العيب بها وتبقى عند أصحابها ليسترزقوا منها، فصلاح السفينة في بقائها سليمة ولكن الأصلح من ذلك الحاق العيب بها لتبقى مصدر رزق لأصحابها،

---

1) ابن خلدون - المقدمة - ص 156.

2) الكهف - 71.

وصلاح الأبوين الصالحين في بقاء الابن ولكن الأصلح لهما قتله، وأيضا بناء الجدار (1)، فهل هذا يعني أنّ كلّ الشيعة من المعتزلة ؟

أمّا بالنسبة لقضية رؤية اللّه تعالى بالأبصار، وقد كثر حولها جدل جميع الفرق والمذاهب الاسلامية، فإنّ الشريف المرتضى يعقد فصلا لها يبيّن فيه رأي أئمّة الشيعة الاثنى عشرية، فينقل عن الامام علي قوله " لا تشبهه صورة، ولا يُحسّ بالحواس الخمس، ولا يُقاس بقياس النّاس" (2) ثم يتلو ذلك بقول عن الامام الصادق (ت 148) حين " سأله محمد الحلبي، فقال له: هل رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ربّه ؟ قال : نعم رآه بقلبه، فأمّا ربنا جلّ جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين " ثم يُعقّب على ذلك برواية عن الامام علي بن موسى الرضا (ت 204) مفادها بطلان القول برؤية الخالق جلّ شأنه (3)، واذا ذهبنا مع الشريف في رأيه حول قضية رؤية اللّه سبحانه وتعالى، سنجد أنّه يأخذ بطريق أجداده من أئمّة آل البيت اذ لم ينحرف عن ذلك قيد انملة، ففي كتابه (تلخيص البيان) وبعد استخراجه الاستعارة من قوله تعالى " ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والاكرام " (4) يعلّق قائلا عن الوجه " ولو كان الكلام محمولا على ظاهره

---

1) راجع : محمد جواد مغنية ـ تفسير الكاشف ـ 5 / 146 وما بعدها .

2) أمالي المرتضى 1/148 .

3) السابق - 1/149 .

4) الرحمان 22 .

لكان فاسدا مستحيلا على قولنا وقول المخالفين لأنّه لا أحد يقول من المشبهة والمجسّمة الذين يثبتون للّه سبحانه أبعاضا مؤلفة، وأعضاء مصرفة ان وجه اللّه سبحانه يبقى وسائره يبطل ويفنى تعالى عن ذلك علوا كبيرا (1).

والحقيقة أنّ كلّ من قال باعتزال الشريف الرضي مجانب للصواب، وقد نبّه الى ذلك الخلط الكثير من المحدثين، الاّ أنّ دارسي الأدب لم يضعوا ذلك في اعتبارهم أثناء دراستهم للكثير من علماء الشيعة وشعرائهم، هكذا يشير حسن الصدر الى خلط السيوطي بين الشيعة والمفتزلة بقوله " وما قال السيوطي من ميل الغرّاء الى الاعتزال لعلّه مبني على خلط أكثر علماء الجمهور بين أصول الشيعة والمعتزلة " (2) أمّا شوقي ضيف فيقول " من يرجع الى مصنفات الشيعة في عقيدتهم يجدهم يفردون فصولا طوالا للحديث عن التوحيد والعدالة على غرار ما يصنع المعتزلة " (3) وكأنّه يريد أن يقول : أنّ المعتزلة أسبق من الشيعة في القول بالعدل والتوحيد، وهو واهم في ذلك، اذ لو رجع الى عقائد الشيعة منذ تأسيسها لوجد أنّ أئمتهم قد سبقوا المعتزلة وغيرهم من الفرق الاسلامية الأخرى

---

1) الشريف الرضي - تلخيص البيان في مجازات القرآن ص321

2) الشيعة وفنون الاسلام ص 20

3) عصر الدول والامارات ص 509

بالقـــول فـــي ذلـــك (1).

اذن فاشتـراك الشيعـة الاماميـة مـع المعتزلـة فـي بعـض العقائـد لا يبـرر القـول: بـأنّ الشريـف الرضـي من المعتزلـة اذ أنّ للشيعـة مـن العقائـد مـا يتفـردون بـه عـن بقيـة المذاهـب الاسلاميـة، بالاضافـة الـى الآراء والعقائـد التـي يتفقـون فيهـا مـع المعتزلـة، اضافـة الـى ذلـك فـانّ جميـع مصنّفـات الشريـف - التـي بيـن أيدينـا مـن شعـر ونثـر - ليـس فيهـا أثـر مـن قـول المعتزلـة فـي (المنزلـة بيـن المنزلتيـن) (2) وهـذا يبطـل الادّعـاء باعتـزال الرضـي لأنّ مـن وجـوب اعتنـاق الاعتـزال العمـل بأصولـه الخمسـة: التوحيـد، العـدل، الوعـد والوعيـد، المنزلـة بيـن المنزلتيـن، الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، يقـول المسعـودي " هـذا مـا اجتمعـت عليـه المعتزلـة، ومـن اعتقـد مـا ذكرنـا مـن هـذه الأصـول الخمسـة كـان معتزليـا، فـان اعتقـد الأكثر أو الأقـل لـم يستحـق اسم الاعتـزال، فـلا يستحقّـه الاّ باعتقاده هـذه الأصـول الخمسـة " (3).

---

1) يقـول الشريف المرتضى فـي اماليه 1/148 " اعلـم أنّ أصـول التوحيـد والعـدل مأخوذة من كـلام أميـر المؤمنيـن - صلـوات اللـه عليـه - وخطبـه، فانهـا تتضمّـن مـن ذلـك مـا لا زيـادة عليـه، ولا غايـة وراءه، ومـن تأمّـل المأثور فـي ذلـك من كلامه علـم أنّ جميع ما أسهـب المتكلمـون من بعـده فـي تصنيفـه وجمعـه، انمـا هـو تفصيـل لتلـك الجمـل، وشـرح لتلـك الأصـول، وروي عـن الأئمّـة من أبنائـه عليهـم السـلام من ذلـك ما يكـاد لا يحـاط بـه كثـرة".

2) هـو الأصـل الرابـع من أصـول المعتزلـة الخمسـة، وقـد فصـل القـول فـي أصلـه وتاريخـه واختـلاف الفـرق الاسلاميـة فـي القـول فيـه عبـد الرحمـان بـدوي فـي كتابـه مذاهـب الاسلاميـيـن 1/64.

3) مـروج الذهـب 3/235.

ممّا سبق عرفنا انتماء الشريف الرضي في عقيدته ومذهبه الكلامي الى طائفة الشيعة الامامية، وحاولنا تفيذ مزاعم من قال باعتزاله، بعرضنا للأصول المشتركة بين الشيعة الأمامية والمعتزلة، واستكمالا لذلك العرض لابدّ لنا من الوقوف على الأصول التي ينفرد بها الشيعة الامامية دون غيرهم من الفرق والمذاهب ويعتقدها الشريف الرضي .

الأصول التي ينفرد بها الشيعة الامامية، ويعتقدها الشريف الرضي :

- الامامة :

يتفق المعتزلة وأهل السنّة في اللزوم بانعقاد رأي الامة على اختيار الامام المكلّف بشؤون الدين والدنيا، وعلى هذا الرأي فالامامة من الأمور الدنيوية التي تعتمد أساسا على الاختيار الذاتي لأفراد الأمّة .

أمّا الشيعة الامامية فيرون أنّ الامامة منصب الهي يختاره اللّه بسابق علمه ويأمر النبي أن يدلّ عليه الأمّة، ويأمرهم باتّباعه وطاعته، اذ لا دخل للبشر اطلاقا في اختيار الامام، يقول ابن خلدون عن الامامة عند الشيعة " الامامة ليست من المصالح العامّة التي تفوض الى نظر الأمّة ويتعيّن القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه الى الأمّة بل يجب عليه تعيين الامام لهم " (1) ،

---

1) مقدمة ابن خلدون ص 155 .

ويكاد قول ابن خلدون أن يتطابق مع اعتقاد الشيعة الامامية بالامامة، فيما عدا بعض التفيير، فالنبي لا يعيّن الامام وانما يصدع لأمر ربّه، وهم يعتمدون في ذلك نصوصا جليّة وأخرى خفيّة في كل من القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة (1). وفي مؤلفات الشريف الرضي التي بين أيدينا ما يؤيّد اعتقاده بامامة آل البيت حسبما نصّت عليه العقيدة الامامية، ففي (المجازات النبوية) يورد حديثين شريفين نصّ أولهما على قول الرسول (ص) لعلي " انّ لك بيتا وانّك لذو قرنيها " (2) وقد علّق الرضي على الحديث بقوله " فكأنّه عليه الصلاة والسلام قال : وانّك رأس هذه الأمّة، لأنّ الرأس هو ذو القرنين، لأنّ القرنين انما يكونان فيه ويظهران عليه، وهذا الخبر على هذا التأويل من الأخبار الدالّة على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أفضل النّاس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه

---

1) راجع - المطهر الحلي - نهج الحق وكشف الصدق ص 168 وما بعدها، عبد الحسين الأميني - الغدير 2/ 47، وما بعدها، السيد ابراهيم الزنجاني - عقائد الشيعة الامامية 1/ 72، محمد باقر الصدر - مقدمة كتاب تاريخ الامامية وأسلافهم الشيعة ص 3 وما بعدها .

2) المجازات النبوية ص 71 ، 149 ، 150 .

وآلـه اذ كـان رأس أمتـه ورئيـس أسرتـه (1) ، والحديث الثانـي قولـه (ص) فـي خبـر يـوم الغديـر " مـن كنـت مـولاه فعلـي بـولاه ، اللهـم وال مـن والاه وعـاد مـن عـاداه واخذل مـن خذلـه وانصـر مـن نصـره " (2) ومـن الملاحـظ أنّ الشريف قـد استطـرد لهـذا الخبـر أثنـاء استخراجـه للمجـاز فـي حديـث الثقليـن (3) ، فختـم ذلـك الاستطـراد بقـول الرسـول (ص) " علـى ولـي كـل مؤمـن مـن بعـدي " 4) مشيـرا الـى نـصّ الحديـث صراحـة علـى ولايـة علـي والقيـام بالأمـر بعـد الرسـول (ص) . ويعضـد انتمـاءه الـى مذهـب الشيعـة الاماميـة مـا ورد فـي شعـره مـن تذكـر مشبـع بالعاطفـة الصادقـة نحـو أئمّـة الشيعـة الاثنـى عشريـة (وافـر)

---

1 + 2) المجـازات النبويـة ص 71 ، 149 ، 150 .

3) هـو أحـد الأحاديـث النبويـة الشريفـة الكثيـرة التـي يعـول عليهـا الشيعـة فـي أحقيـة آل بيـت الرسـول فـي الخلافـة دون غيرهـم. ونـص الحديـث قـول رسـول اللـه (ص) " انـّي قـد تركـت فيكـم مـا ان تمسكتـم بـه لـن تضلّـوا بعـدي : الثقليـن ، واحدهمـا أكبـر مـن الآخـر ، كتـاب اللـّه ، حبـل ممـدود مـن السمـاء الـى الأرض ، وعترتـي ، أهـل بيتـي ،ألا وانهمـا لـن يفترقـا حتـّى يـردا علـيّ الحـوض" هـذا وقـد ذكـر الرضـي سلسلـة أسنـاده فـي (المجـازات النبويـة ص 50) كمـا ذكـره باختـلاف رواياتـه وبأسانيـده المختلفـة : المطهـر الحلـي فـي (نهـج الحـق وكشـف الصـدق) ص 225 ومـا بعدهـا .

4) المجـازات النبويـة ص 151 .

سَقَى اللّهُ المدينةَ من مَحلّ
لُبَابَ الماءِ والنّطَفِ العِذابِ
وَجَادَ على البَقيعِ وساكِنيهِ
رَخِيُّ الذّبْلِ مَلآنُ الوِطَابِ
واعلامِ الفَريّ وَما استباحَتْ
معالِمُهَا مِنَ الحَسَبِ اللُّبَابِ
وَقَبْراً بالطُّفُوفِ يَضُمُّ شِلْواً
قَضَى ظَمَأً الى بردِ الشّرابِ
وَبَغْدَاداً وَسَامرّا وطوساً
هَطُولَ الوَدقِ مُخْرِقَ العُبَابِ (1)

- العصمة : (2)

انّ الاعتقاد بالامامة عند الشيعة الامامية، يوجب الاعتقاد بتنزيه أئمتهم " عن جميع القبائح والفواحش، من الصغر الى الموت، عمدا أو سهوا، لأنهم حفظة الشرع والقوامون

---

1) الديوان 1/114، 115 ويقصد بالمدينة والبقيع قبر الرسول (ص) وقبر الامام الثاني الحسن بن علي بن أبي طالب (ت 50هـ) والامام الرابع علي بن الحسين (ت 94هـ) والامام الخامس محمد الباقر (ت 119) والامام السادس جعفر الصادق (ت 148)، ولباب الماء : خالصه، والنطف العذاب الماء الصافي العذب السائغ الحلو المذاق، ورخي الذبل : مملوء المطر، والوطاب: السقاء المعد للبن اذا كان من الجلد، والفري : مقبرة بالنجف قرب الكوفة بها قبر أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب (ت 40هـ)، ويقصد بالطفوف : بقعة كربلاء التي قتل فيها الامام الحسين بن علي السبط، الامام الثالث (ت 61هـ) أمّا بغداد فيقصد بها قبري الامامين السابع موسى الكاظم (ت 183هـ) والتاسع محمد الجواد (ت 120هـ) والمقصود بسامرّا : مدينة سر من رأى العراقية وتحوى قبرى الامام العاشر علي الهادي (ت 254) والامام الحادي عشر الحسن العسكري (ت 260هـ) كما يوجد بها مكان غيبة الامام الثاني عشر المهدي المنتظر ( ) والمقصود بطوس: وهي مدينة مشهد الايرانية حاليا - قبر الامام الثامن علي بن موسى الرضا (ت 202 هـ).

2) العصمة عند الشيعة الامامية ليست من الأمور التي تضطرّ الانسان الى الطاعة اللاارادية وتمنعه من المعصية اللاارادية، ولو كانت كذلك لبطل

=

بـــه" (1) وقـــد بيّـــن الشريـــف الرضـــي اعتقـــاده بـــ صمـــة الأنبياء أثنـــاء استخراجـــه للمجـــاز مـــن قولـــه تعالـــى " ألـــم نشـــرح لك صدرك ....الآيـة" (2) فقـــال بعـــدم جـــواز الصـــائر أو الكبائر " لأنّ اللـــه سبحانـــه وتعالـــى قـــد نزهـهـــم عـــن موقـــات الآثـــام ومستحقّـــات الأفعـــال اذ كانـــوا أمنـــاء وحيـــه والسنـــة أمـــــره ونهيـــه وسفـــراءه الـــى خلقـــه" (3) ومـــن الملاحـــظ هنـــا أنّ الشريـــف لـــم يذكـــر شيئـــا عـــن عصمـــة الأئمّـــة ، الا أنّـــه أشـــار

= الثواب والعقاب، ولفقد الانسان ارادته وأصبح مقـادا لـذا فهـم يـرون أنّ عصمة الأنبياء والأئمّة رياضة نفسية متناهية في العظمة، حيث يتمكّن أولئك من تزيـــه أنفسهم عن المعاصي والآثام، يقول الشريف المرتضـى " اعلم أنّ العصمة هي اللطف الذي يفعلـه اللّـــه تعالى ، فيختار العبد عنده الامتناع عـن فعـــل القبيـح ، فيقـال على هـذا : انّ اللّه تعالـى عصمـه بـأن فعل له ما اختار عنده العدول القبيـــح ، ويقـال : انّ العبد معصوم ، لأنّـه اختـار عند هـذا الداعي الـذي فعـل لـه الامتناع من القبيـــح" أمالـي المرتضـى 2 / 347 .

1) المطهـر الحلـي - نهـج الحـق وكشف الصـــدق- ص 164 .

2) الانشـــراح - 1-2 - 3 .

3) تلخيـص البيـان فـي مجـاز القـــرآن ص 368 .

أثناء حديثه عن عصمة الأنبياء الى أنّه استقصى الكلام عن ذلك (1) في كتابه (حقائق التأويل) وقد تعرّض هذا الكتاب الى الضياع عدا الجزء الخامس منه ، وعلى كلّ ، فانّ اعتقاده بامامة الاثنى عشر اماما يوجب عليه الاعتقاد بعصمتهم ، لأنّ العصمة جزء لا يتجزّأ من الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية .

ـ المهدي المنتظر :

من أسس عقيدة الشيعة الامامية ، غيبة الامام المهدي ـ الثاني عشر من أئمتهم ـ وانتظار خروجه في آخر الزمان " حين يعمّ العالم الجور والظلم وتنعدم الانسانية ويسود الضلال بين النّاس وتضمحلّ المقاييس ، فيخرج مؤيّدا بمشيئة اللّه ويطلك شرق الأرض وغربها ، فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا " (2) . واعتقاد الشريف بامامة علي بن أبي طالب وآل بيته يوجب عليه الاعتقاد بالمهدية وان كانت مؤلفاته التي بين أيدينا لا تتحدث عن ذلك الآ بمجرد تلميحات ، ففي تقليبه لوجوه تأويل قول الرسول (ص) لعلي ابن أبي طالب " انّ لك بيتا وانّك لذو قرنيها " (3) وفي قصيدة يرثي بها الشريف الحسين السبط يقول : (رمل)

مَعْشَرٌ مِنْهُمْ رسولُ اللّهِ والـ
ـكاشفُ الكَرْبِ إذا الكَرْبُ عَرا
صِهْرُهُ البَاذِلُ عنه نَفْسَهُ
وَحُسامُ اللّهِ في يومِ الوَغَى

---

1) راجع السابق نفس الصفحة

2) الزنجاني ـ عقائد الامامية الاثنى عشرية 1/222 .

3) المجازات النبوية ص 71 ، 72 .

أولُ النّاسِ الى الدّاعي الـذي
لَمْ يُقَدِّمْ غَيْرَهُ لَمّا دَعَا
ثُمّ سِبْطَاهُ الشهيدانِ فَذا
بِحَسَا السّمّ وهذا بالظُّبَى
وعلـيٌّ وابنُهُ الباقِرُ والصـ
ـادِقُ القولِ، وَمُوسى وَالرِّضَا
وعلـيٌّ وأبـوهُ وابنُـهُ
والـذي يَنْتَظِرُ القومُ غَدا (1)

فقد بدأ الرضي أبياته بذكر الرسول (ص) ثم تلى ذلك الائمّة الاثنى عشر الذين ختم ذكرهم بقوله (والذي ينتظر القوم غدا) ويعني الامام المهدي المنتظر .

- موقفه من الصحابة :

يرتبط حسب الشريف للصحابة - كما هو عند جميع الشيعة الامامية - بمدى ارتباط حبهم وولائهم للامام علي ولأبنائه من الأئمّة المعصومين استنادا على قول الرسول (ص) لعلي بن أبي طالب " لا يحبّك الاّ مؤمن ولا يبغضك الاّ منافق " (2) ويتضح ذلك من قول الشريف (وافر)

أُجَلّ عَنِ القَبَائِحِ غَيْرَ أَنّي
لَكُمْ أَرْمِي وَأُرمَى بالسِّبَابِ
فأَجْهَرُ بالولاءِ ولا أُوَرّي
وأُنطِقُ بالبراءِ وَلا أُحابي (3)

---

1) الديوان 1/47

2) المطهر الحلي - نهج الحق وكشف الصدق ص 219

3) الديوان - 1/117 . ويقصد بالولاء = ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآل بيته، كما ويقصد بالبراء = البراءة ممن لا يقولون بحق آل البيت بالامامة.

فهو يربأ بنفسه عن فعل القبيح والاسفاف بالقول ، ولكنّه في سبيل آل البيت لا يبخل بنفسه في التصدّي لمن يحاول سبهم أو النيل منهم ، فولاؤه لآل البيت وتعلقه بهم يمتاز بالصدق والصراحة والوضوح ، لذا فهو لا يحابي أو يجامل في القول ببراءته من مغتصبي حقهم وموقفه من شاعر الرسول (ص) حسّان بن ثابت شاهد على ذلك اذ يقول عنه " كان قوله (أي حسّان) يسرّ المؤمنين ويغيظهم ، ويسوء المنافقين ويزعجهم ، وهذا الكلام عندنا في حسان متعلّق بوقت مخصوص، وهو زمن النبي صلّى اللّه عليه وآله ، فأمّا حين ظاهر أمير المؤمنين عليه السلام بعدواته ، ورماه بمعاريض القول في أشعاره فقد خرج من أن يكون حجازا بين الايمان والنفاق ، وتحيز الى جانب الضلال " (1) .

من كلّ ذلك يتضح أنّ الشريف الرضي شيعي امامي سواء أكان ذلك من حيث المعتقد أم من حيث المنهج الكلامي ، اذ لا مجال على الاطلاق لعزوه الى الزيدية ولا الى المعتزلة ، ومطالبته بالخلافة لم تكن سوى أحلام ينسجها خياله الخصب ابّان فورة الشباب ، أمّا المرحلة الثانية فلم تكن الاّ للنكاية بالخليفة القادر لما وجده عنده من جفاء ومحاولة للحطّ من قدره .

حياته الاجتماعية :

ساد مجتمع الشريف الانحلال والتصدّع في معظم جوانبه (2) ، وكان على الشاعر أن يعيش ذلك المجتمع

---

1) المجازات النبوية ص 99 - 100 .

2) راجع عصر الشريف الرضي - الحياة الاجتماعية في الفصل الأول من هذا البحث .

ويتفاعل معه رضي ذلك أم أباه، وقد حاول هو ذاته - ومن خلال شعره - أن يرسم - بخطوط بارزة - علاقاته الاجتماعية المتمثلة في : علاقاته بأسرته، وعلاقاته بأفراد مجتمعه خارج نطاق الأسرة .

1) علاقاته بأسرته :
++++++++++++++++++++

في مجال حديثنا عن علاقات الشريف الرضي العائلية سنتناول بالبحث النقاط التالية :

أ) علاقته بأبيه وأثر ذلك على نفسيته

ب) علاقته بأمّه وأثر ذلك على نفسيته

ج) علاقته بأخيه المرتضى وأثر ذلك على نفسيته

د) علاقته بزوجته

هـ) علاقته ببقية أفراد أسرته وعشيرته من العلويين

أ) علاقته بأبيه وأثر ذلك على نفسيته :

من خلال قراءتنا في شعر الشريف الرضي يمكننا تحديد نظرته لأبيه من زاويتين :

أولاهما : النسب العلوي العريق الذي يتحدر منه ذلك الأب ، ولقد تغنّى به في جميع مدائحه لأبيه، بل جعله ذلك النسب يشعر بالعلو والتفوق على أقرانه فكان افتخاره بذلك هو قطب الرحى في جميع فخرياته الحماسية ومن ذلك قوله : (مجزوء الكامل)

إنّا نعيبُ ولا نُعابُ
ونُصيبُ منكَ ولا نُصَابُ
آلُ النبيّ ومَنْ تقلّبَ
في حجورهِمُ الكِتَابُ (1)

---

1) الديوان 1/117 .

ملأ ذلك النسب العلوى الشامخ روح الشريف بالحماس فصدح به وطرب وأطرب، وصرح بأنّ المدح الصادق لا يكون الاّ في آل النبي الذين يمثلهم أبوه فيقول :

(طويل)

إذا قلتُ فيكَ الشّعرَ جَوّدَ مادِحٌ
وأكثَرَ وصّافٌ وأعْرَقَ مُطْنِبُ
وغيرُكَ لا أُطْرِبِه إلاّ تَكلّفًا
وغيرُ حَنيني عِندَ غَيرِكَ مُصْحِبُ
بَغِيضٌ إلى الأيّامِ أنّكَ لِي حِمًى
وَغَيْطُ بَنِي الأيّامِ أنّكَ لِي أبُ
أبَعْدَ النَبيّ والوصيّ تَرُوقُنِي
مَناسِبُ مَنْ يُعزَى لمجدٍ وَيُنْسَبُ (1)

أمّا الزاوية الثانية في علاقة الرضي بأبيه، فتتمثّل في نظرة الاجلال والاكبار التي حظي بها ذلك الأب في مجتمعه، لما كان له من أدوار هامّة وخطيرة على الصعيدين السياسي والاجتماعي (2)، ممّا جعل تلك الأدوار مصدر الهام للشاعر، فورد صداها في شعره سيالا من غير تكلّف، لأنّ الشاعر عاشها بكلّ احساساته وجوارحه فنعم بايجابياتها، واكتوى بما جلبته لأبيه من مصائب وتألم بما أحدثته من نكبات. وقد استمرّت علاقة الشريف

---

1) الديوان 1/ .

2) يقول ابن أبي الحديد في نهج البلاغة 1/31 عن والد الشريف " وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليل القدر عظيم المنزلة في دولة بني العبّاس ودولة بني بويه " راجع أيضا حوادث سنة 400 هـ عند : ابن الأثير - الكامل ج 7 ، العماد الحنبلي - شذرات الذهب - ج 3 .

بأبيه قويّة ومتينة منذ أن بدت للعيان في سنّ مبكّرة، حتّى سنة 396 التي تمثلها آخر قصيدة مدح في أبيه من بين المدائح المؤرخة في الديوان (1)، ومن الملاحظ أنّ هذه العلاقات شابها التوتّر خلال سنتي 384، 385 هـ، بسبب موقف الرضي من مطلب أبيه في : التوقيع على صحيفة القدح في نسب الفاطميين بعد أن انتشرت على الملأ أبياته التي مدحهم فيها وتهدد العباسيين باللجوء اليهم، فكان أن رفض ذلك المطلب، ممّا تسبّب في اغضاب أبيه وأخيه فعزما على مقاطعته تجنبا لسخط الخليفة ونقمة البويهيين .

لم يسجّل لنا التاريخ غير ذلك الموقف، الذي يمثل الشريف متمرّدا، ولكن هذا التمرّد لم يكن نابعا من الخروج عن طاعة أبيه، وانما يمثّل ارادة الشريف الحرّة واستقلاله في اتخاذ المواقف. والمتمعّن لموقف الرضي من القضيّة وأبعادها، يدرك جيّدا أنّه لم يرد من وراء ذلك تحدّي أبيه أو الخروج عن طاعته، وانما كان هدفه الأساسي وضع حدّ لتدخّل القادر في شؤونه الخاصّة،

---

1) مدح الشريف الرضي أباه بثلاث وثلاثين قصيدة جلها مؤرخة، كانت أولاها سنة 370 هـ على وجه التقريب أمّا اخر قصيدة مدح مؤرخة في أبيه فكانت في سنة 396 هـ ومن ثم رثاه سنة 400 هـ. على أننا لا نجد للشريف مدائح في أبيه في الفترة بين عامي 384-386 ثم يعود ليمدحه بواحدة سنة 387. ونعتقد بأنّ سبب قلّة مدائح الشريف في أبيه في أواخر الثمانينات وشطر كبير من التسعينات يعود لانشغال الشريف بأعباء النقابة ومعاناته في حياته الخاصّة وصدود والده عنه بسبب حادث القصيدة- لمعرفة أوسع حول مدائح الشريف في أبيه راجع : الجدول المفصّل لطبعات ديوان الشريف الملحق بالفهارس .

والدليل على ذلك موافقته على توقيع محضر سنة 402 بمحض اختياره (1). اذن فعلاقة الرضي بأبيه كانت علاقة احترام واكبار، ولم تكن علاقة ابن بأبيه فحسب، وتلك العلاقة المتينة أيقظت حواس الشريف، وفتحت عينيه على الحياة في سنّ مبكرة، فرأى من خلالها المجد والعظمة، كما ذاق طعم الذلّ والهوان، ممّا تسبّب في حيرته وألمه وعرف حقيقة مجتمعه وهو في العاشرة من عمره، فشبّ قبل أوانه، وتحمّل عبء المسؤولية في سنّ كان هو فيه أحوج الى الحنان ورعاية الأب. فكان الأمل الممزوج بالمرارة والألم (2).

ب) علاقته بأمّه وأثر ذلك على نفسيته :

لسنا بحاجة الى تكرار ما قلنا عن نسب أم الشريف، الذي لعب أيضا دورا كبيرا في **حياته** وان لم يتح له التغنّي به، الاّ في مناسبات أربع، الأولى منها أثناء رثائها، أمّا الثلاث الباقيات ففي مدح خاله وتهنئته بمولودة وولد رزقهما (3)، لكن يتجلّى لنا عظمة تلك الأم وحسن رعايتها، وارتباط الشريف المتين بها من حديثين اثنين :

الأول : ما رواه زعيم طائفة الشيعة الامامية في القرن الرابع الهجري - الشيخ المفيد - من أنّه قد رأى في

---

1) راجع : ص 173 من هذا البحث

2) راجع حياة الرضي السياسية من هذا البحث

3) راجع : الديوان - 1/98، 461، و 2/534 .

ضامنه (1) : أنّ فاطمة الزهراء قد جاءته في حلقته في المسجد بصحبة الحسن والحسين ، وسلمتها اليه ، طالبة منه أن يعلمها ، فما ان أهلّ الصباح حتّى وردت الى المسجد فاطمة بنت الناصر بصحبة جواريها ، ومعها ابناها المرتضى والرضي ، فطلبت منه أن يعلمها ، فبكى لذلك ،وأخبر أمّ الشريفين بالحلم ، ومفاد تلك الحكاية ما كانت الأم توليه من رعاية لابنيها أثناء غياب أبيهما ، اذ لم تحل النكبة دون رعاية شؤون الولدين رغم قلّة الموارد الماديّة ، ورغم الضيق الذي أصاب الأسرة بسبب بعد الوليّ عنها .

الثاني : وتمثله قصيدة الرثاء التي قالها الرضي في والدته ، وهي من القصائد النادرة في الشعر العربي في رثاء الأمهات (2) ، والقصيدة بما حوته من عاطفة جيّاشة وتفجّع مرّ ، تبيّن لنا متانة رابطة الشاعر بأمّه ومدى تعلّقه بها رغم اشتداد عوده ، فهي ملاذه وملجأه الذي يحتمي به من نكبات الزمان كما في قوله : (كامل)

وَمَنْ المُعَوّلُ لي إذا ضاقَتْ يَدِي ؟
وَمَنِ المُعَلّلُ لِي مِنَ الأدْواءِ ؟
وَمَنِ الّذي إنْ ساورتْني نَكْبَةٌ
كانَ المُوقّي لِي مِنَ الأسْوَاءِ (3)

---

1) راجع ابن أبي الحديد - شرح النهج - 41/1

2) تقول واجده الاطرقجي في كتابها (المرأة في أدب العصر العباسي) ص105 : " ولعل من أصدق الرثاء وأجمل الوفاء للأمهات قصيدة الشريف الرضي في والدته السيّدة فاطمة بنت الناصر ".

3) الديوان 28/1 .

وهي الستر الذي يحميه من حوادث الأيّام، لذا فلا عجب حين يرى أنّ الحياة مصيبة مزدوجة بوفاة الأمّ وبقائه هو فيقول :

أَمْ مَنْ يَلِطّ عليّ سِتْرَ دُعَائِهِ
حَرَمًا مِنَ البأسَاءِ والضّرّاءِ ؟
رُزآنِ يَزْدادانِ طُولَ تجدّدٍ
أَبَدَ الزّمانِ : فناؤهَا وَبَقائي (1)

لذا فقد الشريف بوفاة أمّه، أبرّ نصير يعتمد عليه في عصره المضطرب، خاصّة في مواقفه ازاء أسرته، ممّا يجعلنا نعتقد بأنها لم تكن امرأة عاديّة، بل كانت ذات شخصيّة مهيبة، وكلمة مسموعة عند أفراد أسرتها .

ج) علاقته بأخيه المرتضى وأثر ذلك على نفسيته :

اذا ما أردنا التحدّث عن علاقة الشريف الرضي بأخيه المرتضى ، لابدّ من معرفة مدى التباين والاتفاق بين شخصيتهما ، وليس ذلك بالأمر الصعب مادام ديواناهما بين أيدينا ، اضافة الى بعض مؤلفاتهما التي تتيح لنا فرصة تلك المعرفة ولو من بعيد .

فمن دراستنا لشعر الشريف المرتضى ، سنجد أنّ طابع العقلانية هو الغالب عليه، أى أنّ الصنعة هي السائدة فيه، ولا نعني بالصنعة هنا الأساليب البديعية، ولكن نقصد من ذلك طريقته في خلق المعاني بكدح الفكر ممّا يغلب على ذلك الشعر الطابع العقلي والصياغة العلميّة، ولقد حاول معارضة أخيه الرضي في بعض قصائده

---

1) الديوان 1/28 .

ولكن شاعريته خانته، لأنّه لم يؤت ما أوتي شقيقه من شاعريّة، ففي مجال النسيب حاول أن يعارضه في قصيدته التي مطلعها : (بسيط)

يَا ظبيةَ البانِ تَرْعَى فِي خمائِلِهِ
لِيَهْنَكِ اليَوْمَ إنّ القَلْبَ مَرْعَاكِ (1)

الاّ أنّه أخفق ، فمن ذلك قوله : (بسيط)

مرّت بِنَا بِمُصَلَّى الخيفِ سانحةٌ
كظبيةٍ أفلتتْ أثناء أشواكِ (2)

وهو بهذا يريد معارضة بيت الرضي السابق (يا ظبية البان) ، وقد اعتمد في نظم بيته على الأسلوب الخبري بالاخبار في مطلع البيت بالفعل الماضي (مرّت) في محاولة لاسترجاع مشهد علق بمخيلته الاّ أنّه لم يتمكّن من بثا شوقه واشراكا في معاناته لما اصطبغ به الأسلوب من تقريرية، بينما اعتمد أخوه الرضي على المزاوجة بين الانشاء والخبر ممّا منح الأسلوب تدفقا وحيويّة حين صدر المصراع الأول بأسلوب انشائي بتعبيره بالنداء عن تولهه وشدّة هيامه وقد أردف ذلك بأسلوب خبري أفاض على المعنى الاستمرارية والدوام باستخدامه الفعل المضارع (ترعى) ثم أنّه صدّر مصراعه الثاني بأسلوب انشائي آخر بثّ من خلاله دعاءه لذلك المحبّ بالهناء مازجا ذلك الدعاء بالشوق وقد عبّر عن كل ذلك بالفعل المضارع المقرون بلام الأمر في قوله (ليهنك

---

1) الديوان 1/107 .

2) الشريف المرتضى - ديوان المرتضى 2/373 .

اليوم) وتلا ذلك أيضا بجملة خبرية مؤكّدة لما يكنّه ذلك القلب من حب فياض في قوله (انّ القلب مرعاك) .

ومقارنة أخرى بين الصورة البيانية في كلا البيتين نتبيّن أنّ المرتضى قد شبّه محبوبته بالظبية مستخدما أداة التشبيه (الكاف) اضافة الى عدم استقرار تلك الحبيبة في قلبه بسبب انفلاتها بسرعة من أرض ذات أشواك ممّا لم يتح له تأملها فهي مجرّد ذكرى خاطفة نعم الشاعر بمشاهدتها ، ولكن حبيبة الرضي منعمة البال هادئة فهي ظبية قد استقرّت في قلب ينبض بالحبّ واتخذت من براح ذلك القلب مرعى مع ملاحظة أنّ الشريف الرضي لم يتوسّل بأي ضرب من ضروب البيان الظاهرة فجاءت صورته عفوية رقيقة تنبض بالحبّ، بينما بقيت صورة المرتضى باهتة لما اعتورها من تكلّف مبني أساسا على التقليد .

وتبرز رقّة شعور كلا الأخوين وتأجّج عاطفة كلّ منهما في ذكر مكان حبيبته ، فموضع المرتضى لا يتناسب وعاطفة الحبّ مطلقا ، فالمصلى مكان عبادة يتوجّه فيه المؤمن بكلّ جوارحه نحو خالقه ممّا يحول بينه وبين النظر الى ما سوى ذلك ، بينما أخذت ظبية الرضي ترعى في مكان شاعري يخفق فيه القلب للحبّ فتلك الحبيبة ترعى في خمائل ذات ظلال وارفة ناعمة وخالية البال وقس على ذلك الكثير من قصائد الغزل والنسيب والرثاء (1) عند المرتضى ، ثم انّ رقّة شعور

---

1)في مقدمة ديوان المرتضى ص12 يقول رضى الشبيبي " للشريف المرتضى مدائح كثيرة ومراث في ذويه وأهله وبالأخص منهم والده وخاله ، وقصائده في هذا القبيل لا تخلو من حماسة وفخر ولكن هذا الباب أعني الفخر والحماسة في شعره قليل بالنسبة الى ما

=

الرضي ، ورهافة احساسه جعلته يهتزّ من أعماقه لكل حدث عاشه في حياته، فلم يترك نكبة من نكبات مجتمعه الاّ وسجلها شعرا ، كما امتلأ ديوانه الضخم بالمراثي والتعازي في حين غلب على ديوان المرتضى المدح ومحاولة اظهار المقدرة الشعرية .

من ذلك نخلص لمدى التباين بين شخصية الشاعرين فالمرتضى ذو عقلية علمية هادئة، تحاول تمحيص القضايا لاستخلاص النتائج ممّا طبع حياته بالهدوء ، والركون الى الدعة والاستقرار فكان ذلك من العوامل التي جنبته المشاكل ونأت به عن المعاناة وأبعدته عن مزالق السياسة (1) ، بينما تسببت رقّة الشعور وشفافية الاحساس للشريف الرضي في الثورة والشعور بالظلم والألم وانشغال القلب .

= جاء في شعر أخيه المرتضى " ولادراك مدى التفاوت فى رثاء كل من الاخوين قارن قصيدة الشريف الرضى الهمزية في رثاء الامام الحسين والتي مطلعها " كربلاء لازلت كربا وبلا " الديوان 1/ 44 ، بقصيدة المرتضى فى رثاء الامام الحسين والتى مطلعها : (طويل)

أَأُسقى نميرَ الماءِ ثم يَلَذّ لِي
وَدُورُكُم آلَ الرّسولِ خلاءُ

ديوان المرتضى 1/ 13

1) أتاحت حياة الهدوء والاستقرار للشريف أن يؤلف ما يقارب من 71 مؤلفا فى التفسير والفقه وعلم الأصول ، وعلم الكلام واللغة والأدب ،ولا يتأتّى ذلك الاّ لمن تفرّغ تفرغا كاملا للعلم والتحصيل راجع : مقدمة تحقيق ديوان الشريف المرتضى لرشيد الصفار 1/ 117 وما بعدها .

بذلك التباين في الطباع اختلفت نظرة كل منهما للحياة، فاتجه الأكبر اتجاها علميا بحتا، واستطاع عن طريق ذلك الاتجاه أن يحقّق طموحاته وأن يصل الى مبتغاه (1)، أما الرضي فقد أدّى به شعوره المحلّق للجري وراء سراب المركز، فاصطدم بالواقع، فكانت الخيبة والاخفاق، ويعود سبب ذلك لمثاليته المتناهية التي لا تتفق وأساليب السياسة الملتوية.

ومن الأمور التي توضح الاختلاف في شخصيتي الأخوين، قبول المرتضى التوقيع - مع أبيه - على محضر نكران القصيدة التي هدّد فيها الرضي بمبارحة بغداد الى الفاطميين، والمتضمّن القدح في نسب الفاطميين أيضا وذلك لدرء سخط الخليفة العباسي، ومحاولة مهادنة السلطة بينما رفض الرضي التوقيع على ذلك، رغم أنّ المشكلة قد ثارت بسببه. لذا لا نستغرب أن يطول الجفاء بين الأخوين، ويكثر العتاب بينهما، ولكن ذلك ليس عن قلى أو كره، فذلك ما نستبعده من كليهما، ولكن اختلاف طباع كل منهما قد أثّر في تلك العلاقة فالمرتضى بنظرته العلمية يرى نقد الأشخاص أمرا عاديا بل هو من روح العلم، لذلك فهو لا يتحرج من نقد

---

1) ينقل ابن خلكان - وفيات 3/313 عن ابن بسام الأندلسي قوله عن الشريف المرتضى " كان هذا الشريف امام أئمّة العراق، بين الاختلاف والاتفاق، اليه فزع علماؤها، وعنه أخذ عظماؤها، صاحب مدارسها، وجماع شاردها، وآنسها، ممّن سارت أخباره، وعرفت له أشعاره ".

تصرفات أخيه، بينما يرى الرضي في ذلك النقد تجريحا لشخصه، وخدشا لاحساسه الرقيق، فيثور ويتألم ويلجأ للشعر يفنس به عمّا يمطرع في نفسه من ألم (طويل)

وأعظَمُ مَا الفيت شجوًا ولوعَةً
عِتَابُ أخٍ قَلّ الزّمانُ بهِ حَدّي

أقيكَ الرّدى ماكان عن قلى
ولكِنْ هَنَاتٌ كِدْنَ يَلْعَبْنَ بالجَلدِ

ولا تحسبن القلب جازت كلومه
إلَى القَلْبِ إلاّ بَعْدَ مَا حزّ في الجِلْدِ (1)

أمّا الأبيات التي بعث بها اليه أخوه المرتضى فيسيطر الهدوء والعقلانية عليها : (طويل)

أُصَاحِبُ حُسنَ الظنّ والشّكُّ مقبِلٌ
بوَجهي الى حيثُ استرثْتَ عُرا الودّ

إذا اتّسعَتْ في خُطّةِ الصّدِ فكرَتي
تَجلّلَنِي همٌّ يضِيقُ بهِ جِلْدِي

وإنْ نَاكرَتْنِي خلّةٌ من خِلالِهِ
تعرّضَ قلبي يَفْتَدِيهَا مِنَ الحِقْدِ (2)

من ذلك يتبيّن لنا أنّ علاقة الرضي بشقيقه المرتضى بين مدّ وجزر، نتيجة أسباب تكوينيّة في طباع كلا الأخوين . أمّا محاولة الرفع من قيمة الرضي على

---

1) الديوان 1/ 317 - 318 .

2) ديوان الشريف المرتضى 1 / 255 .

حساب أخيه المرتضى (1)، فيتنافى وواقع حياة كلّ منهما .

---

1) تروي لنا مصادر ترجمة الشريف الرضي حكاية مفادها : أنّ الرضي دخل على أحد وزراء بني بويه، فأكرمه وعظّمه، ودخل على ذات الوزير أخوه المرتضى فلم يعظّمه ذلك التعظيم، ولاحظ اختلاف المعاملة أحد جلاّس الوزير فسأله عن سبب ذلك، فأوضح له أنّه قد أرسل للرضي ألف دينار ذهب كهدية بمناسبة مولود له، فردّها أمّا المرتضى فقد حاور ذلك الوزير في ضريبة مقدارها عشرون درهما فُرِضتْ عليه، والتمس منه إعفاءه منها برسالة طويلة، اطلع السائل عليها . والحكاية في اعتقادي ملفقة يُراد بها الرفع من مقدار الرضي على حساب أخيه المرتضى، وأرجِعُ سبب عدم صحتها للاختلاف في سندها، فابن أبي الحديد في الجزء الأول من شرح النهج ص 39، 40، يرويها قراءة عن محمد بن ادريس الذي سمعها من أبي حامد الاسفراييني الذي بدوره شهد الحادث في مجلس فخر الدولة وزير بهاء الدولة أمّا بن عتبة في كتابه عمدة الطالب ص209 فيرويها عن أبي اسحاق الصابي الذي شهد الحدث في مجلس الوزير المهلبي بينما يختلط الأمر على صاحب (روضات الجنات) في 6/203 فيروي أنّ الحكاية قد وقعت في مجلس الوزير المهلبي، ثمّ يعود ليدافع عن المرتضى من مطالبته فخر الدولة باعفائه من الضريبة وعلاوة الى ما في الرواية من اضطراب في السند، فانّ فيها مخالفة لواقع التاريخ، فكلّ الروايات تقرّ بأنّ مولد الشريف الرضي كان سنة 352 هـ. 359 هـ، وأنّ وفاة الوزير المهلبي كان سنة 352 هـ. لذلك فانّ تقديم الرضي على أخيه المرتضى، يرجع - في اعتقادي - الى ظهور الرضي مع أبيه في المحافل السياسية، ونيابته عنه في القيام ببعض ما يناط به من مهام، والزجّ بنفسه في أمور سياسة عصره، وشعره الذي جعله ألصق بمجتمعه .

د) حياتـــه الزوجيـــــة :

نعنـي بحيـاة الرضـي الخاصّـة ، علاقتـه الزوجيـة ونسبـه ، وحـول هـذا الموضـوع ليـس لدينـا الاّ نتـف متناثـرة مـــن الأخبـار ، ومـن قصيـدة ومقطوعتيـن أشـار جامـع الديـــوان ، بأنهـا قيلـت فـي رثـاء أمـر يخصّـه (1) وجميـع ذلـك لـم يـؤرخ لـه ممّـا يوقعنـا فـي اللبـس ، الاّ أنّ اللبـس حـــول تأريخهـا سرعـان مـا يـزول ، فالأمـر الـذى يخصّـه هـــو زوجتـه التـي يمكـن تحديـد وفاتهـا عـن طريـق ما أشـارت اليـه المصـادر التاريخيّـة والتـي تحدثنـا عـن انجاب الرضـي لولـده الوحيـد سنـة 400 هـ (2) أى أنّ زوجتـه قد توفيـت بعـد سنـة 400 وانّ مقطوعـات الرثـاء الآنفـة الذكـر قـــد قيلـت بعـد ذلـك العـام ، وممّـا يؤيّـد قولنـا ذلـك : مـــا نشعـر بـه مـن رنّـة حـزن يائسـة ، صـادرة عـن رجـــل هـدّه الألـم وزهـد الحيـاة فهـو يقـول فـي احـدى تلـك المقطوعـــات : (طويـــل)

وممّـا يُطيّـبُ النّفْـسَ بَعـدَكِ أنّنـي
علـى قـربٍ مـن ماءٍ وردكِ أو قُربُ (3)

---

1) راجـع الديـوان 1/ 170 - 508 ، 2/ 473 .

2) راجـع ابـن الأثيـر - الكامـل ج 7 - ابـن الجـوزى - المنتظـم ج 7 ، حـوادث سنـة 400 هـ .

3) محـي الديـن عبـد الحميـد - شـرح ديـوان الشريـــف الرضـي 1/ 405 . وقـرب بفتـح القـاف والراء : أن لا يكـون بينـك وبيـن المـاء الاّ ليلـــة .

لقد أحبّ الشريف زوجته حبّا عظيما ، وكان مخلصا لها كل الاخلاص، وتصور مراثيه فيها حقيقة ذلك حيث استمرّ يتألّم لفقدها وذكرى الأيّام التي عاشها معها لا تبارحه طيلة السنوات القليلة التي عاشها بعدها (طويل)

وقالوا : أرِحْ قَرْحَ الفُؤادِ وإنّمَا
أحَبُّ فؤادي انطَوَى دُونَه البَرَى

كَفَى جَانِبَ القبرِ الّذي أنتِ ضِمْنَهُ
زَفِيرِي وَدَمْعِي أنْ يُراحَ وَيُمْطَرَا

وما ضرّ قلْبي إذْ غَدَا مِنكِ آهلاً
تأمّلُ عَيْنِي مِنكِ مُقفِرَا

ذَكَرْتُكِ والأرضُ العريضةُ بَيْنَنَا
وشرٌّ على ذي الوجدِ أن يتذكّرا (1)

لكن ما علاقة ذلك بموضوع التفجّع الذي نحن بصدد دراسته ، وهو لا يساوي الاّ مساحة زمنية قصيرة من حياة الشاعر ، تمثلت في تلك السنوات القليلة والأخيرة من حياته ؟ الجواب على ذلك يحتّم علينا أن نعود الى علاقة الشريف الزوجية منذ بدايتها وهنا سنواجه بعلامات استفهام كثيرة : متى تزوّج الرضي ؟ ومن هي زوجته ؟ وهل أراد أن يتزوّج غيرها ؟

---

1) الديوان 1/ 508 - 509 . البرى بفتح الباء والراء : التراب .

ليس بالامكان تاريخ زواج الشريف الرضي ، لفقدان ما يؤيد ذلك في المصادر التي بين أيدينا ،ولكن هذا لا يمنع من اللجوء الى التقدير في تحديد ذلك التاريخ . اذ من الثابت أن الشريفين الرضي والمرتضى قد قاما بأمور النقابة والنظر في المظالم نيابة عن أبيهما سنة 380 هـ (1) .

وبديهي أن تتوفر في مثل من يقوم بتلك المهام الخطيرة شروط منها : كون القائم بتلك المهام محصنا . ومن المستبعد أن يبلغ الرضي الثانية والعشرين من العمر دون أن يتزوج ، اضافة الى كل ذلك فإن ابن عتبة في كتابه (عمدة الطالب) يشير في معرض حديثه عن أبي الحسن محمد النهر سابسي،بأنّه قد ولي النقابة بعد أن أقصي عنها الشريفان ،وأنّ الرضي كان ختنه (2) . فاذا ما ضممنا تلك الاشارات الى ما أورده ابن الجوزى في حوادث سنة 384 بقوله " في ذى القعدة عزل أبو أحمد الموسوي وصرف الرضي والمرتضى عن النقابة وكانا ينوبان عن أبيهما أبي أحمد " (3) فسنظهر بنتيجة مفادها أنّ الشريف الرضي قد كان متزوجا قبل 384 هـ ويرجح أن يكون ذلك الزواج قبل عام 379 هـ ، ومعنى ذلك أنّ الشريف ظلّ متحرقا الى الانجاب طيلة أكثر من عشرين عاما ،لان الانجاب وكثرة النسل من الامور الهامة والاساسية في حياة العلويين ، اذ لولا انتهاجهم سبيل التزاوج وكثرة النسل ، لانقرضوا

---

1) راجع : ابن الجوزى - المنتظم 7/153 .

2) راجع : ابن عتبة - عمدة الطالب - ص 28

3) ابن الجوزى - المنتظم 7 / 174 .

بسبب المذابح التي حلت بهم طيلة العصور السابقة لذا لا نستبعد أن يلح ذلك الامر على الشريف الرضي ، ومما يؤيده كثرة قصائد التهاني بالمواليد ، خاصة بالنسبة لافراد أسرته كأخيه وخاله (1) ، وبطبيعة الحال لا يمكننا اغفال أثر ذلك على نفسيته ، الامر الذى جعله يفكّر جديّا في الزواج من جديد وبالفعل فقد حاول مرتين ولكنه فشل في كلتيهما :

أما محاولته الاولى فقد كانت بعقد قرانه على ابنة سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة ، وحدث ذلك قبل وفاة أبي اسحاق الصابي سنة 384 هـ . اذ أنه كتب عهدا لسابور من الحسين بن موسى - والد الشريف - وضمنه مصاهرة الرضي للوزير (2) .

وفي اعتقادنا أنّ عقد المصاهرة ظل قائما حتى عام 386 ولم يتم الزواج بسبب الاضطراب السياسي الذي عاشه الوزير في تلك الفترة ، وقد انفسخ بعد أن ساءت علاقة سابور بأبي أحمد ، على اثر السفارة التي قام أبو أحمد بها بين بهاء الدولة وبين أبي القاسم

---

1) راجع الديوان 1/323 ومن الطريف في الامر أنّه أعدّ هذه القصيدة ليهنئ بها أخاه السيد المرتضى بمولود ، فجاءته بنت فصرفها عنه الى بعض أصدقائه ، وراجع أيضا الديوان 1/465 ، 610 . 2/534 .

2) أورد القلقشندى نص العهد في (صبح الاعشى) 14/97 وجاء فيه " هذا كتاب لسابور بن اردشير كتبه له الحسين بن موسى الموسوى وولده محمد بن الحسين الموسوى .

=

علي بن أحمد لتمكينه من الوزارة التي كان سابور يطمع فيها (1) . وقد استطاع في نهاية الامر الوصول الى مراده ، مما أفشل سفارة أبي أحمد الموسوي فاستاء كثيرا من ذلك ، ممّا أزّم العلاقة بين الطرفين ، ففسخ الوزير عقد القران .

وقد حاول الشريف الرضي أن يرأب الصدع، وأن يعيد المياه الى مجاريها ، بشي الوزير عن قراره الذى اتخذه بصدد عقد القران ويصور ذلك قوله للوزير : (طويل)

قعوداً الى الحِلم الذي أنتَ أهلُهُ
فمِثْلُكَ بالاحْسَانِ بَادٍ وعائِدُ

وحَامٍ على مَا بَيْنَنَا مِنْ قرابةٍ
فإنّ الّذي بيني وبينَكَ شَاهِدُ

وأَرْعِ مَقَالي منك أُذناً سميعةً
لهَا بلِقَاءِ السّائلينَ عَوَائِدُ

وَمُرْ بجوابٍ يُشْبِهُ البدءَ عَوْدُهُ
ليُرْدِيَ عَدُوّاً ، أو ليكبتَ حاسِدُ (2)

= انا واياك - عندما وصله الله بيننا من الصهرة والخلطة، ووشجه الحال والمودة - آثرنا أن ينعقد بيننا وبينك ميثاق مؤكّد ، وعهد مجدد ،تسكن النفوس اليهما ، وتطمئن القلوب معهما وتزداد الالفة بهما على مر الايام ، وتعاقب الاعوام ،ويكون ذلك أصلا مستقرا نرجع اليه جميعا ،ونعول ونعتمد عليه .....

1) راجع الروذراورى - ذيل تجارب الامم - حوادث سنة 385 - 386 .

2) الديوان 1/ 293 - وردت في الديوان (عدوّا) بالنصب مع بناء الفعل يردى للمجهول والصواب (يردى عدوّا) ببناء الفعل للمعلوم كما ورد في طبعة الاعلمي 1/ 227 .

ولكن محاولته تلك لم تجد نفعا ، فعاود الكرّة علّه يستطيع اعادة التوازن الى نفسه التي هدها الشعور بالخيبة . فها هو العمر يمضي ، والبياض أخذ يغزو ليل شعره ، ولابد من أن يترك وراءه من يحمل اسمه قبل أن يودع دنياه .

ففي سنة 388 هـ على أقرب ترجيح ، خطب الشريف ابنة أبي علي ابن اسماعيل وزير بهاء الدولة الملقّب بالموفق ، وقد وافق الوزير على ذلك ، وعقد القران ، الا أنّ الزواج لم يتم هذه المرة أيضا ، بسبب الاحداث السياسية المضطربة التي اضطرت الوزير الى مبارحة بغداد بصحبة الملك بهاء الدولة لاعادة سلطة الدولة المركزية على فارس وقد كشفت تلك الحروب عن مقدرة الموفق ، فتألق نجمه ، واستطاع أن يملك قلوب الجند من ديلم وترك " فتجبّر تجبّرا لا توجبه السياسة ولا تقتضيه " (1) ، مما جعل أحد رجال البلاط يقول للملك بهاء الدولة في مجلس أنسه على سبيل الدعابة " زينك الله يا مولاى في عين الموفق " (2) .

وفي غمرة نشوة الانتصار نسي الموفق كل عهد قطعه على نفسه ومن بين تلك العهود : عقد النكاح الذى قطعه للرضي حيث كانت علاقته بالوزير متينة حتى عام 390 هـ ذلك العام الذى تمكّن فيه الموفق من قطع دابر أعداء بهاء الدولة بفارس مما جعل الملك ينعم عليه

---

1) الروذراورى - ذيل تجارب الامم 3/329 .

2) السابق 3 / 330 .

بلقب " عمدة الملك " (1) فكانت فرصة للشريف لتهنئته وتذكيره بالعهد الذى بينهما (متقارب)

لقد نالَ من عِزّكَ الابعدونَ
وقرّبَ من شأنِهِ غَيرُ شَانِي

فَرِشني أكُنْ لكَ سَهمَ النّضَالِ
واغضِبْ عليّ يَدَيْ مَنْ بَرَانِي

وحُكْ لِيَ بُرْدَ العُلى ضافياً
أحُكْ لكَ أمثالَهُ من لِسَانِي

اذا كُنتَ عونِي فَمَنْ ذَا الّذي
يُثَبّطُنِي عن بُلُوغِ الامانِي (2)

ولكن في خضم الانبهار ببريق السلطة والالقاب تَحلّل الموفق من قرابته بالرضي فكان نبأ فسخ العقد في المرة الثانية كالصاعقة التي افقدت الشاعر الرقيق لبّه ، فحاول تدارك الامر بثني الوزير عن قراره ، مذكرا اياه بما ستؤول اليه تلك القرابة من صلة بآل بيت الرسول (ص) : (طويل)

وأقربُ ما بَيْنِي وبينَكَ حُرْمَةً
تَدانِي نُفُوسٌ ودُّهَا وَحِبابُهَا

وَمَا بَعدَ ذَا مِنْ آصِراتٍ إذا انتَهَتْ
يكونُ إلى آلِ النّبيّ انتِسَابُهَا

شَوَاجِرُ أرْحَامٍ إذا مَا وَصَلْتَهَا
فعِنْدَ أميرِ المُؤمنينَ ثَوابُهَا (3)

---

1) راجع الديوان 492/2

2) الديوان 495/2

3) محي الدين عبد الحميد - شرح ديوان الشريف الرضي 126/1، والديوان 71/1

وعـاد الشريـف مـن محاولتـه الثانيـة مهيـض الجنـاح .

ولكـن سرعـان مـا تبسّمـت الحيـاة لـه ، فأنجبـت لـه زوجتـه العلويـة ولـدا ، فعلـت وجهـه الحزيـن بسمـة سرعـان مـا بددهـا الحـزن ، اذ مـا هـي الا ومضـات خاطفـة انطفـأت علـى اثرهـا حيـاة زوجتـه ،فعـاودت الكآبـة تلـك النفـس التـي لـم تألـف السـرور الا فـي لحظـات متقطعـة مـن عمـر الزمـن ولـم يحـاول الشريـف اثـر ذلـك اعـادة التجربـة فـي الـزواج ثانيـة ،فتفـرغ لتربيـة ذلـك الطفـل الـذى حـرم حنـان الام ولـم يـزل يـدرج ولكـن سرعـان مـا تركـه بوفاتـه يصطـرع مـع أحداثهـا ولما يبلـغ السابعـة مـن سنـي حياتـه .

هـ ـ علاقتـه بأفـراد أسرتـه مـن العلوييـن :

مـن الطبيعـي أن تكـون للشريـف الرضـي علاقـات وطيـدة بالعلوييـن فـي جميـع أنحـاء العـراق ، ان لـم تكـن فـي جميـع أنحـاء البـلاد التـي تستظـل برايـة الدولـة العباسيـة فـي القرن الرابـع الهجـرى (1) ، وذلـك بحكـم منصبـه كنقيـب للطالبييـن .

---

1) فـي سنـة 403 هـ أمـر بهـاء الدولـة ، بـأن يضـاف الـى أعمـال الشريـف الرضـي النظـر فـي أمـور الطالبييـن بجميـع البـلاد ، ولـم يبلـغ ذلـك أحـد مـن آل البيـت فـي زمـن العباسييـن سـوى الامـام علـي بـن موسـى الرضـا الـذى نصّبـه المأمـون وليـا لعهـده ـ راجـع: الديـوان 1/ 273 .

والدارس لطبيعة العلويين في ذلك العصر سيجد أنهم كانوا مصدر قلق دائم للسلطة (1) ،مما جعلها تتجنب الاحتكاك بهم ، حيث أوكلت أمرهم الى نقيب منهم من أهم أعماله : رعاية مصالحهم ، والنظر في أمورهم وردعهم والزامهم الحدود ،والحكم فيما بينهم (2) .

ولا تتأتى تلك الامور ، الا لمن له هيبة في النفوس ، وشخصية قوية يمكنها ضبط الامور بحزم ، بالاضافة الى سعة اطلاعه ودرايته بأحكام الدين والتاريخ والانساب ولو لم تتوفر تلك في الشريف لما فوّضت له النقابة في سن مبكرة كما يشهد قوله : (مجزوء الكامل)

وَلِيَ النقابَةَ خَالُ أ مّي قَبْلُ ، ثمّ أبي وجَدّي
وَوَلّيتُهَا طِفْلاً فَهَلْ مَجْدٌ يُعَدَّدُ مِثْلَ مَجْدِي (3)

وبالفعل فقد تمكّن من ذلك رغم صغر سنّه ، خاصة في القضايا التي تتعلّق بأمور الدين والاخلاق فممّا يحكى

---

1) راجع عصر الشريف (الحياة الاجتماعية) من هذا البحث .

2) راجع الماوردى - الاحكام السلطانية - باب : في ولاية النقابة على ذوى الانساب ص 85 وما بعدها لمعرفة الشروط التي يجب أن تتوفّر في النقيب واختصاصاته .

3) الديوان 1/358 .

عنه " أن امرأة علوية شكت اليه زوجها وانه يقامر بما يتحصّل له من حرفة يعانيها ، وانّ له أطفالا وهو ذو عيلة وحاجة ، وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت ، فاستحضره الشريف وأمر به فبطح ، وأمر بضربه والمرأة تنتظر أن يكفّ ، والامر يزيد حتّى جاوز مائة خشبة ، فصاحت المرأة : وأيتم أولادى ، كيف تكون صورتنا اذا مات هذا ؟ فكلمها الشريف بكلام فظ فقال : أظننت أنك تشكينه الى المعلم" (1) .

فمن تلك الحكاية تبدو القسوة بادية على الرضي ، فموقفه الصارم وافراطه في العقاب ، لا يتناسب وما يسيل شعره به من رقّة وعذوبة لا تصدران الا عن عاطفة تبذ العنف ، وتميل الى العطف والحنو ولكن موقف الشريف ذاك ، أملته عليه روح المسؤولية التي أنيطت به ، ممّا يحتّم عليه التجلّد ، ومغالبة نفسه ، حتّى لا يفلت الزمام من يديه ،اذ أنّه بحزمه وصرامته تلك يخالف طبيعة جُبِلَ عليها ، وينحو نحوا يجعله مبغوضا من أبناء عشيرته ، وقد أدرك هو ذلك وصوره في شعره مجسدا ما يضطرم في داخله من صراع بين العقل والعاطفة ، مبينا عدم تفهّم أقاربه وأبناء عمومته لطبيعة مركزه ،فهم يريدونه أن يتهاون ، والتزامه بالدين وبالعهد الذى قطعه على نفسه يفرضان عليه سلك محجة الصواب رغم وعورتها ، وفي ذلك يقول : (وافر)

---

1) ابن عتبة - عمدة الطالب - ص 210 .

كَفَانِي أنّنِي حَرْبٌ لقَوْمِي
وَذَلك لي مِنَ الضّرّاء كَافِ

حَطَمْتُ صِعادَهُمْ حَتّى استَقَاموا
مُجَاوَزَةً بِهِمْ حَدَّ الثّقَافِ

فصِرْتُ لِذَمّهِمْ غَرَضاً رجيماً
يُرَامُونِي بمِثْلِ حَصَى القِذَافِ

وأُكْذِبُ بالتصوّنِ مُدّعِيهِم
وأُلجِمُ قَائِلِيهِمْ بالعَفَافِ (1)

وازاء صراحته ووضوح موقفه جابهه اولئك الاقارب بمواقف ملتوية ، ظاهرها المحبّة والمودّة ، وباطنها الحقد والكذب والزيف . فمعظمهم من منتهزى الفرص الذين يتصيدون سقطاته ، ومحاولة التعرف على مكامن ضعفه ، علهم بذلك يجبرونه على الاستجابة لرغباتهم التي تتنافى وأخلاقه (سريع)

أقَارِبُ إنْ وَجَدُوا غَمْزَةً
رَاشُوا إلى قَلْبِيَ مِرْطَ السّهَامْ

ويعرقونني بالأذى كُلّمَا
لانَ لَهُمْ مَسّيَ عَرْقَ العِظَامْ (2)

فلا عجب اذن أن يعيش الشاعر غريبا بين أهله بنفس ملؤها الاسى وقلب يخفق بالحب الصادق لابناء عشيرته الذين لا يعرفون من الحب ،الا تقليب المصالح

---

1) الديوان 15/1 .

2) السابق 315/2 .

الشخصيـة ، والجـرى وراء المـرض الزائـل ، فكانـت غربـة الشاعـر الحقيقيـة ممثلـة فـي قولـه : (بسيـط)

ليـس الغريـبُ الـذي تنـأىَ الديـارُ بـه
انّ الغريـبَ قريـبٌ غيـرُ مـودودِ (1)

2- علاقتـه بمجتمعـه :
++++++++++++++++

عـاش الشريـف فـي مجتمـع متبايـن فـي طبقاتـه ، متفـاوت فـي المستـوى المعيشـي لافـراده. وبحكـم انتمائـه لطبقـة الاشـراف ، وجـب عليـه أن يجالـس الخلفـاء والملـوك والامـراء والـوزراء وبقيـة عليـة القـوم مـن ذوى الجـاه والنفـوذ وبحكـم المناصـب التـي تقلدهـا ، حتّـم عليـه الاحتكـاك بطبقـات عريضـة ومتمايـزة مـن أفـراد المجتمـع وجلوسـه للتدريـس أتـاح لـه التعـرف علـى الكثيـر مـن التيـارات الفكريـة المتصارعـة والمتنافسـة فـي مجتمعـه ، وعلـى اثـر كـل ذلـك تمكّـن مـن تكويـن صداقـات واسعـة مـن مختلـف المستويـات الاقتصاديـة والفكريـة ومكنتـه دماثـة خلقـه ، وطبيعتـه الخيـرة ، ونفسـه الجياشـة بالحـب ، وخبرتـه بالحيـاة ، أن يؤلّـف بيـن تلـك الصداقـات المتباينـة فـي جميـع الامـور الحياتيـة ، وان يصهرهـا فـي بوتقـة مـن الحـب العفـوى ، ذلـك الحـب الـذى لا يقدّر الانسـان ، ويعـرف قيمتـه الحقـة الا مـن خـلال حبّـه للانسانيـة واخلاصـه للصداقـة الحقـة ، التـي تنـأى عـن جميـع الامـور الماديـة بكـل مـا فيهـا مـن بريـق .

---

1) الديـوان 1/ 313 .

فأساس المعاملة عند الشريف الحب والصدق والاخلاص وصيانة العرض من الدنس بحفظ ماء الوجه ، وهي الخصال التي تمكّن للفرد من قلوب جميع النّاس مهما تباينت مشاربهم وطباعهم لذا فقد اتخذ الرضي من تلك الخصال مرتكزا في معاملته مع جميع من كان يحتك بهم من أفراد مجتمعه (1) ولم يحاول أن يتظاهر بخلاف ما هو عليه في معاملته مع الجميع فهو على سبيل المثال يمنح بقدر استطاعته ، فمسألة الكرم والبخل مسألة نسبية من وجهة نظره ، فالقليل عند امتلاك الكثير شح وبخل ، أما الجود بما تستطيع وأنت لا تملك غيره ، فذلك غاية الجود وذروة الكرم لذالم يأنف من اعطاء القليل لمن مدحه وهو في ضائقة مادية .

حدث الشاعر الحسن بن علي الخالع قال " مدحت الرضي بقصيدة فجاءني غلامه بتسعة وأربعين درهما . فقلت : لاشك أنّ الغلام قد خانني ، فلما كان بعد أيّام اجتزت سوق العروس فرأيت رجلا يقول لاخر : أتشترى هذا الصحن فانّه يساوي خمسة دنانير. ولقد أخرج من دار الرضي فبيع بتسعة وأربعين درهما ، فعلمت أنّي مدحته وهو مضيق فباع الصحن وانفذ الثمن " (2) .

---

1) يروى ابن الجوزي في (المنتظم) 279/7 " اشترى (الرضي) في بعض الايام جزازا - الوريقات التي تعلق فيها الفرائد - من امرأة بخمسة دراهم . فوجد فيه جزءا بخط عليّ بن مقله . فقال للدلال : احضر المرأة ، فأحضرها ،فقال لها : قد وجدت في هذا الجزاز جزءا بخط ابن مقلة ،فإنْ أردت الجزء فخذيه وانْ اخترت ثمنه فهذه خمسة دراهم . فأخذتها ودعت له وانصرفت".

2) السابق ص 280 . الخالع أحد شعراء القرن الرابع . راجع اليتيمة 121/3 ، أما الصحن فهو العس العريض القصير الجدار كالجام - أي الطبق أو الماعون .

انّ موقفه الواضح من المادة مكنه من كبح جماح نفسه ، لادراكه بأنّ قبول أعطيات الاخرين عن طريق التزلف والمدح مذلّة ، فالمال ليس أساس العلو ولا مصدر السعادة .

فالشاعر يخالف في رؤيته من يعنيهم بقوله (وافر)

يريدونُ الغِنى والفقرُ خيرٌ
اذا ما الذُّلَ أعقبهُ الطّلابُ

وبعضُ المُدمِ مأثرةٌ وفخرٌ
وبعضُ المالِ منقصةٌ وعابُ (1)

ولكن قد يبدو ثمة تناقض في موقف الشريف من المال وذلك حين نقرأ مدائحه الكثيرة في الملوك والخلفاء والوزراء . فالمعروف أنّ المدح في الشعر العربي مصدر أساسي من مصادر التكسب للشعراء الاّ أننا بالتأمّل في تلك المدائح ندرك أن ليس الغاية من ورائه المال بل الغاية هي الوصول الى المجد (متقارب)

أريدُ الكرامةَ لا المَكْرُمَاتِ
وَنَيْلَ العُلى لا العَطايا الجِسَامَا (2)

الا أنّ تيارات الاهواء المتضاربة ، في ذلك المجتمع المضطرب ، كانت من القوة بحيث لم تمكّن تلك المبادئ

---

1) الديوان 1/125 .

2) السابق 2/323 .

من الصمود ، فضاع صوت الشريف في ذلك البحر المتلاطم فعاد منكفئا على نفسه يحمل جراحات الغربة في وطنه وبين أفراد مجتمعه بعد أن ذاق مرارتها بين أفراد أسرته فيعود لنفسه ليسألها : (وافر)

فلِمْ أَنَا كالغريبِ وراءَ قومٍ
لو اختبِروا لَقَدْ كانُوا ورائِي (1)

فتؤدي به الحيرة الى محاولة معرفة أسباب الغربة فتكشف له حقيقة ذلك المجتمع ، فيجزع ايما جزع ،لانها حقيقة تتناقض ومثاليته المتناهية ، التي لا وجود لها بين النّاس الذين يعيش بين ظهرانيهم الا في النادر القليل ، مما يجعله يدرك بعد لأي أنّ غربته لم تكن متولدة عن نقص في شخصه ،بل عن عدم انسجام طباع أبناء مجتمعه مع المبادئ السامية التي يلح عليها فلقد كانت لَذّات الحياة منثورة امامه في كل ناحية وصوب ، ولكنّه تجنبها ايثارا لصون النفس والعرض ، لأنّه يرى نفسه غير أولئك الذين يقول عنهم : (متقارب)

أبي النّاسُ الا ذميمَ النّفاقِ
إذا جرّبُوا أوْ قبيحَ الكَذِبْ

كِلابٌ تُبصبِصُ خوفَ الهوانِ
وتنبحُ بينَ يَدَيْ مَنْ غَلَبْ

أذُمّ لوَجْهِي عَلَى مابِهِ
ولا يعدِلُ الذّلّ عندي النّشَبْ (2)

---

1) محي الدين عبد الحميد - شرح ديوان الشريف الرضي 1 / 19 ، والديوان 1/17

2) السابق 1/13

انّ العيش في أحلام المثالية ، حقيقة كانت نفس الرضي تلح عليها ، ولكن الواقع يفرض عليه أن يعيش ذلك المجتمع وأن يتفاعل معه ، اذ لا سبيل الى الانزواء . التفاعل مع ذلك المجتمع يفرض عليه ما لا يحب ، فهو مجبر على العيش في بيئة يعاني من زيفها ولتحاشي الضرر ، واتّقاء للشر لابدّ من معاشرة من يعرف حقيقتهم فيضطرّ الى مدح من لا يستحقّ المدح فيقول : (بسيط)

وَما مدحتُهُمْ أنّي رَجوتُهُمُ
لكنّه عَوَذٌ مِنْ شَرّهِمْ وَرُقَى

كَفَى بقومٍ هجاءً أنّ مادِحَهُمْ
يُهدي الثّناءَ الى أعراضِهِمْ فَرَقا (1)

فالحقيقة التي تجلّت للشاعر هي انّ الصدق والكذب سببان في مجتمع لا يأمن الانسان فيه على نفسه ، فهاهي النكبات تتوالى على الاصدقاء والاحبّة ، وقد تدور الدائرة عليه اذا هو لم يجامل فما أكثر الاعداء وكم حاول تجنبهم ، ولكن كم من النّاس يتجنّب : (متقارب)

لحىَ اللّهُ دهرًا كثيرَ العدوّ
حتّى الظلامُ يُعادي النّهارَا

تَصَفّحتُ أوجُهَ أبنائِهِ
فَلَمْ يَجِدِ اللحظُ فيهِم قَرارَا (2)

---

1) الديوان 84/2 ورقى : رقيت فلانا اذا تعلقت له وسللت حقده .

2) السابق 441/1 .

وحتى يستطيع الرضي العيش في ذلك المجتمع براحة بال واطمئنان ، حاول أن يوزّع حبّه بين كلّ النّاس ، كما حاول في ذلك الركام من القيم الضهارة أن يبحث عن الصداقة الحقة بين جميع الاجناس بغض النظر عن المكانة والعرق والدين ، فقد ظلّ مخلصا للصابي طيلة حياته كما تدل مراثيه فيه (1) ، كما تمسك بصداقة أبي بكر بن شاهويه القرمطي ، رغم ادراكه بما ستجلبه عليه تلك الصداقة من عداء (2) ، وظل يتألّم للطائع بعد أن خلع ، وازداد وجده عليه بعد مماته ، ورغم اتساع صداقاته بقي الرضي دائم البحث عن الصديق ، واصطدم بالحقيقة المرة فعاد من بحره الزاخر بالامال معزّق الشراع يردّد بنفس بدّد الاسى مراحها : (طويل)

كفى حزناً أنّي صديقٌ وصادقٌ
ومَا لِيَ مِنْ بينِ الانامِ صديقُ

فكيفَ أريغُ الابعدينَ لخلّة
وهذا قريبٌ غادرٌ ، وشقيقُ (3)

اذن فمثالية الرضي عادت عليه بالشقاء والالم ، فعاش مأساة عصره ،فانبجست دموعه مدرارة ، وحاول الهروب من غربته حين أدرك أن لا مكان له : (كامل)

---

1) راجع الديوان 1/381 ، 2/27 ، 579 .
2) راجع السابق 1/498 ، 660 .
3) السابق 2/ 80 .

مَالي الى الدُّنيَا الغرُورةِ حاجَةٌ
فليخْسَأ ساحِرُ كَيْدِها النَّفَاثُ

طلقتُهَا ألفًا لأحسم دَاءَهَا
وطلاقُ مَنْ عَزَمَ الطلاقَ ثَلاثُ

سكناتُها محذورة ، وعهودُهَا
منقوضةٌ ، وحِبالُهَا أنْكَاثُ (1)

3- حياته العلمية
++++++++++++++++++

لم تقتصر مشاركة الرضي في عصره على الامور السياسية ،التي لم يتمكّن من تحقيق آماله وطموحاته من خلالها ، بل تعدت ذلك الى حقل الثقافة الذى ساهم فيه بنصيب وافر ،دلّ على رسوخ قدمه ،وترك للمكتبة العربية الكثير من الاثار في ميادين التفسير والفقه والادب والبلاغة ،وتجلّت شخصيته في معظم تلك المجالات كأديب وناقد ،وعالم لغوى ومتكلّم صاحب فكر متزن حر ينهل من معين العلم أنّى كانت مصادره ،وقد أفاضت المراجع - التي ترجمت للشريف - في التحدث عن ثقافته وعما ألّف من كتب ، الا أنها لم تتوقّف متأتية ومتعمقة عند مصادر تلك الثقافة ،ممّا جعل البعض من تلك المراجع يطلق من الاحكام ما لا يتفق وواقع حياة الرضي الثقافية ، لذا رأينا لزاما علينا أن نبدأ بالتعرف على مصادر ثقافته ، التي يمكن اعتبارها مدخلا أساسيا نشرع منه في الحديث عن ثقافته .

---

1) الديوان 1/228 .

- مصـــادر ثقافتـــــه :

حينمـا يشـرع الـدارس فـي استعـراض حيـاة الرضـــي الثقافيـة ، تصادفـه حكايـة مفادهـا أنـه " أحضـر الـى بـــن السيرافـي النحـوى وهـو طفـل لـم يبلـغ عشـر سنيـن فلقنـه النحـو ، وقعـد معـه يومـا فـي حلقتـه ، فذاكـره بشـيء مـن الاعـراب علـى عـادة التعليـم ، فقـال لـه : اذا قلنـــا " رأيـت عمـر " فمـا علامـة النصـب فـي عمـر ؟ فقـال لـه الرضـي : بغـض علـيّ ....." (1) ويدلّـل الجميـع مـن قدمـاء ومحدثيـن ، بـأن تلـك الحكايـة تـدلّ علـــى حـدة خاطـر الشريـف وسرعـة بديهتـه ولكـن لـو أمعنّـــا النظـر فيهـا لوجدنـا أنهـا تمدنـا بمصدريـن مـن مصـــادر ثقافـة الشريـــف :

أولهمـا : وهـو المهـم ، ويتمثّـل فـي البدايـات التـــي نهـل منهـا تعلّـم القـراءة والكتابـة اذ لا يعقـل اطلاقـــا ان يوجـه طفـل لتعلـم النحـو علـى يـد عالـم كبيـر كالسيرافي الا اذا كـان متمكنـا مـن القـراءة والكتابـة ،لذلـك لـم نجـد بـدا مـن افتـراض تعلمـه القـراءة والكتابـة علـى يـد معلميـن حبسـوا أنفسهـم علـى تعليـم أبنـاء الاشـراف والـذوات فـــي منازلهـم ، ويستفـاد مـن سيـرة المتنبّـي أنّـه درس أثنـــاء طفولتـه فـي مدرسـة اختصّـت بتعليـم أبنـاء العلوييـن بالكوفة (2)

---

1) راجـع : ابـن خلكـان - وفيـات الاعيـان 4/ 416 ، العمـاد الحنبلـي - شـذرات الذهـب 3/ 182 ،الخوانســـارى - روضـات الجنـات 6/ 191 ..... الـخ

2) عبـد الرحمـن البرقوقـي - مقدمـة شـرح ديـوان المتنبّـي 1 / 23 .

وهـذا يعنـي أنّ الشريـف وهـو مـن أبنـاء العلويين أخذ مبـادءة الاوليـة فـي القـراءة والكتابـة مـن معلمين خاصين كانـوا يعلمونـه وأخـاه ، وذلـك لاعدادهـم للتفتّح علـى العلـوم الاخـرى .

أمّـا المصـدر الثانـي فتمثلـه اجابـة الشريـف علـى سـؤال السيرافـي ، فهـو ان دلّ علـى سرعـة بديهـه ،فإنّـه ينـم أيضـا عـن ثقافـة شيعيّـة واسعـة ، استطـاع الطفـل أن يلـم بهـا فـي سـن مبكـرة ، فكيـف تمكّـن من ذلـك ؟

للاجابـة علـى السـؤال يجـدر بنـا العـودة الـى حيـاة الشيعـة الاجتماعيـة ، فمـا أصـاب آل البيـت مـن نكبـات جسام جعلـت الشيعـة يؤرخـون لتلـك المصائـب ، ويجـددون ذكراهـا فـي مجالـس خاصّـة كانـت تعقـد لذلـك الغـرض ، فيستعرضـون فيهـا تاريـخ آل البيـت ، ومآثرهـم ، وكراماتهـم ، وحقهـم السليـب فـي الخلافـة ، والاساليـب البشعـة التـي استخدمـت فـي تقتيلهـم ، ومـدى الظلـم الـذى حـاق بهـم ، وقـد كانـت هـذه المجالـس مفتوحـة لجميـع الشيعـة صغـارا وكبـارا ممّـا مكّـن لاطفالهـم أن يرضعـوا تلـك الثقافـة وأن يتأثـروا بهـا ، وبطبيعـة الحـال كانـت تلـك المجالـس سريّـة فـي بدايـة أمرهـا ، خوفـا مـن فتـك الامويين والعباسيين ،الا انها أصبحـت علنيـة بعـد أن تمكّـن بنـو بويـه مـن الحكـم فـي العـراق ، فأتاحـوا للشيعـة مزاولـة طقوسهـم بكـل حريـة (1)

---

1) راجـع حـوادث عـام 352 مسكويـه ـ تجـارب الامـم ، ابـن الاثيـر ـ الكامـل فـي التاريـخ ،ابـن الجـوزى ـ المنتظـم ،العمـاد الحنبلـي ـ شـذرات الذهـب . اذ تتفـق تلـك المراجـع علـى أنّ معـز الدولـة ـ وهـو أول مـن حكـم العـراق من البويهيين ـ الـزم أهالـي بغـداد بالنـوح علـى الامـام الحسيـن كمـا أمـر بغلـق الاسـواق وتعلـق المسـوح . وقـد تمكـن مـن ذلـك بعـد بسـط نفـوذه واحكام سيطرتـه علـى العـراق .

ولا أظن أنّ أسرة الشريف - بحكم تشيعها - قد تخلفت عن المشاركة في تلك الطقوس ، مما أتاح للرضي ثقافة شيعية المحت الى بعض منها قصته مع السيرافي .

وفي تتبعنا لمصادر سيرة الشريف الرضي ، سنجد أنّ أمّه قد صحبته وأخاه المرتضى الى المسجد ، وطلبت من الشيخ المفيد أن يعلمهما (1) ، وهذا يعني أنّ الام قد صحبت الولدين وهما ما يزالان صغيرين ، ومن تلك الحادثة نخلص الى أنّ الرضي قد شرع في تعلم الفقه الامامي ، وعلم الكلام وهو في سن مبكّرة ، لان الذى يتمكّن من الجلوس في حلقات النحو لعالم كبير كالسيرافي ، ويستوعب منه وهو في سن العاشرة ، لابد أن يكون قادرا على فهم ما يناقش ويطرح في حلقات علم الكلام والفقه ، لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض في كثير من الاستنتاجات .

وهناك حادثة ثالثة ترويها المصادر أيضا ، ويراد منها اظهار ابداء الرضي وعزة نفسه ، وهي حكاية الدار التي وهبها له شيخه ابراهيم بن أحمد الطبرى (ت 393) (2) لنباهته ومفادها أنّ الرضي قد حفظ القرآن على كبر (3) ، والرواية تتناقض مع

---

1) راجع ص 217 من هذا البحث

2) العماد الحنبلي - شذرات الذهب - 142/3 .

3) راجع : ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - 34/1 ، ابن خلكان - وفيات الاعيان - 416/4 ، ابن عتبة - عمدة الطالب - ص 208 ، العماد الحنبلي - شذرات الذهب - 142/3 .

ما قيل عن حضور الشريف حلقات السيرافي في النحو وحلقات المفيد في الفقه وعلم الكلام ، اذ لا يعقل اطلاقا أن يدرس النحو والفقه وعلم الكلام ، اذا لم يكن على دراية جيدة بقراءة القرآن (1) ، أما اذا كان المراد (حفظ القرآن) فذلك مستبعد أيضا اذ لا يحتاج من لديه دراية جيدة بقراءة القرآن الى من يحفظه اياه ، والمرجح في اعتقادنا من قولهم أنّه حفظ القرآن على كبر ، بأنّه قد أخذ علوم القرآن وتفسيره على المذهب الشيعي الامامي أثناء طفولته ولما كبر درس علوم القرآن وتفسيره في المذاهب السنية على يد ابي اسحاق الطبرى الآنف الذكر ، خاصة وأننا سنعرف بعد حين بأنّ الرضي لم يكن ضيق الافق في بحثه عن المعرفة ،وانتهال العلوم .

واذا ما مضينا مع الرضي في البحث عن مناهل ثقافته فسنجد أنها ثرة متنوعة لا تخضع في الاخذ

---

1) تعتبر المدرسة التقليدية في الاسلام أن تعلم القرآن هو المرتكز الاساسي الذى يستوجب على المبتدئ أن يأخذه ، يقول ابن خلدون في (المقدمة) ص 447 " صار القرآن أصل التعليم الذى ينبني عليه ما يحصل من الملكات وسبب ذلك أنّ تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده ..... "

لفكر معين ، فهي حرّة ، تتوخّى الحقيقة ، وتجنح الى الموسوعية ، ففي مجال اللغة والنحو لم يكتف الشريف بما أخذه عن السيرافي ، بل نذر نفسه للأخذ من أساطين النحو واللغة في عصره ، فحضر حلقات الرّماني (ت 384) (1) ، كما قرأ على أبي علي الفارسي (ت 377) (2) كتابه (الايضاح) (3) ، وتتلمذ أيضا على أبي الفتح بن جنّي (ت 392) (4) وحضر حلقات علي بن عيسى الرّبعي (ت 400 هـ) (5) .

أتاح ذلك الاتصال بشيوخ اللغة والنحو للشريف الرضي ثقافة واسعة في مجالي اللغة والنحو ، فأخذ ينمي تلك الدراسات بقراءاته في كتب الاسلاف ، ومن ذلك قراءته كتاب " الالفاظ " (6) لابن السكيت (ت 244 هـ) (7) ، وكتاب " غريب الحديث " لأبي عبيد (ت 223 هـ) (8) هذا بالاضافة الى قراءته في ديوان الشعر العربي في عصوره المختلفة .

---

1) ابن خلكان - السابق 3/299 وقيل انه توفي سنة 382 هـ نفس المصدر .

2) السابق 2/82 .

3) الشريف الرضي - المجازات النبوية - ص 97 .

4) السابق ص 32 ، 59 ، 255 ، وحول تاريخ وفاة ابن جني راجع مرثية الشريف فيه - الديوان 2/63 .

5) السابق ص 255 ، وعن ترجمة الربعي راجع ابن خلكان - السابق 3/336 .

6) راجع : الشريف الرضي - المجازات النبوية ص 148 - 264 .

7) راجع ترجمته عند ابن خلكان - السابق 6/395 .

8) راجع الشريف الرضي - السابق ص 76 ، 167 ، 172 ، 198 . وتوجد ترجمة ضافية لابي عبيد عند ابن خلكان - السابق 4/60 .

ومن الملاحظ أنّ ثقافة الشريف اللغوية والنحوية ، لم تكن ضيقة الافق ولا مقصورة على مدرسة دون أخرى فشيوخه - سواء من قرأ عليهم أو من درس في كتبهم - ينتمون الى مدارس لغوية ونحوية مختلفة، فمنهم الكوفي (1) ، كالضبي (ت 168) (2) وابن الاعرابي (ت 231) (3) وابن السكيت (ت 234) (4) ، ومنهم البصرى (5) كالسيرافي (ت 368) والفارسي (ت 377) ومنهم البغدادى (6) كابن جنّي (ت 392) ، وقد مكنته تلك الثقافة اللغوية من التحكّم في مادته أثناء التأليف في علوم التفسير والبلاغة والادب ، لما لها من صلة وثيقة بعلمي النحو واللغة .

وفي مجالي علوم القرآن الكريم والحديث الشريف لم يكتف بما أخذه عن رأس طائفته المفيد ، بل راح يسعى حثيثا لدراسة ذينك العلمين بطرق جميع مدارس العلمين في عصره ، فمن شيوخه في علوم القرآن : أبو اسحاق الطبرى المالكي ، وأبو حفص الكناني (ت 390 هـ) (7)

---

1) راجع بروكلمان - تاريخ الادب العربي 2/ 201 ، 203 ، 205

2 ، 3 ، 4) راجع ابن خلكان 4/ 306 ، 205 و 6/ 295 .

5) راجع بروكلمان - السابق 2/ 187 ، 190 .

6) السابق 2/ 244 .

7) راجع الشريف الرضي - المجازات النبوية - ص 33. وعن ترجمة الكناني يراجع - العماد الحنبلي - شذرات الذهب 3/ 134 .

أمّا الحديث النبوى الشريف فقد أخذه عن سهل بن أحمد الديباجي (ت 380 هـ) وهو من المحدثين الشيعة (1) وعن أبي حفص الكناني وهو من المحدثين السنّة ، كما نصّ في مقدمة كتابه " المجازات النبوية " (2) على المصادر التي اعتمدها أثناء الجمع والتأليف ، وبنظرة فاحصة لتلك المصادر ندرك مدى ما بذله الشريف من جهد لتثقيف نفسه في ميدان علوم الحديث .

أمّا الفقه فقد تتلمذ فيه على أشهر فقهاء عصره فبعد أن بدأ حياته بدراسة الفقه الامامي ، شرع في دراسة فقه مذاهب السنة الاربعة ، فمن ذلك ما سمعه من فتاوى وما قرأه من كتب شيخ المذهب الحنفي أبي بكر الخوارزمي (ت 403) (3) ، كما أخذ الفقه الحنفي أيضا عن محمد بن يحي الجرجاني (ت 398) (4) ،وتفيدنا بعض مؤلفاته ،بأنه على اطلاع

---

1) راجع الشريف الرضي - السابق ص165 . وبسبب تشيعه فقد اتهمه العماد الحنبلي بالكذب - شذرات الذهب 3/ 96 .

2) راجع الشريف الرضي - السابق ص 29 .

3) نستشف من مؤلفات الشريف أنه قرأ على أبي بكر الخوارزمي كتاب " الطهارة " كما قرأ عليه الكثير من المسائل الفقهية على المذهب الحنفي ، هذا بالاضافة الى قراءته عليه " مختصر الطحاوى " أيضا - راجع المجازات النبوية ص 71 ، 108 وحقائق التأويل 5/ 86 ، 105 وقد وردت ترجمة الخوارزمي في شذرات الذهب 3/ 170 .

4) راجع الشريف الرضي - المجازات النبوية - ص 133 ، 134 ، حقائق التأويل 5/ 296 ، 297 ،وترجمة الجرجاني عند القاضي البغدادى - تاريخ بغداد 3/ 433 .

واسع في فقه الشافعي رغم قلّة أتباعه في العراق في القرن الرابع (1) ، فالشريف في سلوكه تلك المحجة يقصد العلم لذاته ، لا يرجو من وراء ذلك منفعة مادية ولا مكسبا سياسيا .

وليتمكن الرضي من استيعاب أكبر قدر من ثقافة عصره الدينية ، راح ينهل من الفكر الاعتزالي فتتلمذ على شيخ المعتزلة في القرن الرابع القاضي عبد الجبار وقد نصّ الشريف على ذلك في مواضع متعددة من مؤلفاته (2) كـ " حقائق التأويل " و " المجازات النبوية " و " تلخيص البيان في مجازات القرآن ".

وعن دراية الشريف بعلم الكلام تنبئنا مؤلفاته أنّه لم يكتف بما أخذه عن المفيد والقاضي عبد الجبّار بل راح يعب من أساليب ذلك العلم معتمدا على نفسه اذ نعر بالكثير من أسماء أعلام الكلام والاعتزال أثناء تصفحنا لمؤلفاته من أمثال النظّام (ت 221) (3) و العلاف (ت 235) (4) والجبائي (ت 303) (5).

---

1) راجع آدم متز - الحضارة الاسلامية - 392/1 ، زكي مبارك عبقرية الشريف 126/1.

2) راجع الشريف الرضي - حقائق التأويل 32/5، 41، 68، 116. المجازات النبوية ص 46، 192 . تلخيص البيان ص212، 242.

3، 4، 5) راجع الشريف الرضي - حقائق التأويل 98/5، 92، 97 .....

أمّا حول ثقافته البلاغية والادبية ، فتشير بعض المراجع أنّه درس ذلك في طفولته على ابن نباته (ت 374) (1) الا أنّ الشريف لم يذكره في مؤلفاته ولا في شعره ، ويرجع سبب ذلك في اعتقادي الى الاخذ عنه في سن مبكرة على أنّ الثقافة الادبية والبلاغية التي تكونت عند الشريف لم تكن من تحصيل الحلقات الدراسية كما هو الشأن بالنسبة للعلوم الدينية واللغوية ، فتذوق الادب يحتاج الى الطبع والموهبة اللتين تصقلان بالاطلاع والقراءة والبحث والدربة والمران ،وذلك ما شعر به الشريف منذ نعومة أظفاره ، ممّا جعل

---

1) ذكرت ذلك الكثير من المراجع نذكر منها على سبيل المثال : الاميني- الغدير 4/ 184 ،عبد الرزاق محي الدين -أدب المرتضى ص 113 ،محمد عبد الغني محسن - الشريف الرضي ص 31 ، ويلاحظ أنّ الرضي قد عاصر علميين كنية كليهما (ابن نباته) وشيخ الشريف هو : أبو يحي عبد الرحيم بن نباته الفارقي خطيب سيف الدولة وصاحب الخطب الجهادية ،سمع عن المتنبي بعض ديوانه ،وكان من العلماء المقربين في مجلس سيف الدولة ، وقد التبس على الاميني تاريخ وفاته حين جعل ذلك سنة 392 ،والصواب ما ذكره كل من ابن خلكان في وفيات الاعيان 3/ 157 ،والعماد الحنبلي في الشذرات 3/ 83 . أمّا ابن نباته الثاني فهو عبد العزيز بن عمرو التميمي (ت 405) وهو شاعر مداح وصفه العماد الحنبلي بجودة الشعر - راجع الشذرات 3/ 83.

كتبه تزخر بأسماء كتب المغازى والتاريخ والادب ،التي يمكن اعتبارها رافدا من روافد ثقافته ، بالاضافة الى الاستشهادات الشعرية الكثيرة في مجال الادب واللغة ، فتلك الشواهد في حد ذاتها دليل على سعة اطلاع الشريف في ديوان الشعر العربي ، كما أنّ أسلوبه المتين المتزن البعيد عن التكلّف ، يدلّ على بساطة نفسه ، وقد حاول من خلال تلك الثقافة أن يرسم لنا صورة للمثقف الحقيقي في عصره ، اذ لم تكن تلك الثقافة " موقوفة على ما وعت الكتب والمصنفات ، وانما امتدّ بصره فدرس الدنيا وخبر النّاس" (1) ، ممّا أعطى كتاباته النثرية والشعرية طابع الصدق ، فأتت معبّرة عن طبيعة عصره من نواحيه السياسية والثقافية والاجتماعية لذلك فاننا لا نبالغ اذا قلنا انّ حياة الشريف الرضي الثقافية ما هي الا خلاصة للثقافة الحقة التي كان طالبو العلم في عصره يطمحون اليها وحتى يمكننا استجلاء تلك الثقافة على حقيقتها يجدر بنا أن ندرس أسلوبه في التأليف .

أسلوب التأليف عند الشريف الرضي :

لسنا بصدد تكرار ما قيل عن مؤلفات الرضي ، فذلك ما أفاضت بذكره المصادر والمراجع التي ترجمت له . فابن عتبة (2) يذكر له عشرة مؤلفات ، ويذكر

---

1) زكي مبارك ـ عبقرية الشريف الرضي 2/47 .

2) راجع ابن عتبة ـ عمدة الطالب ص 207 ، 208 .

الاميني (1) له تسعة عشر مؤلفا ، أمّا عبد الحسين الحلي (2) فيذكر أربعة عشر مؤلفا ، ولم تذكر له دائرة المعارف الاسلامية (3) سوى مؤلفين اثنين اضافة الى ديوانه ، وتذكر له الموسوعة العربية الميسرة (4) اثنى عشر مؤلفا ، أمّا محمد عبد الغني حسن (5) فيذكر له أحد عشر مؤلفا .

وفي تتبعنا لحديث تلك المصادر والمراجع عن مؤلفات الشريف نجدها جميعا تتفق في نسبة تلك المؤلفات اليه ماعدا كتابي "نهج البلاغة" (6)

---

1) راجع عبد الحسين الاميني ـ الغدير 4/186، 198، 199.
2) راجع عبد الحسين الحلي ـ مقدمة تحقيق حقائق التأويل ـ ص 88 وما بعدها .
3) راجع دائرة المعارف الاسلامية 13/286.
4) راجع الموسوعة العربية الميسرة ص 1083.
5) راجع محمد عبد الغني حسن ـ الشريف الرضي ص 82 ـ 87.
6) مما لا شك فيه انّ كتاب (نهج البلاغة) من جمع الشريف الرضي ،وقد نص هو بنفسه على ذكر ذلك في عدة مواضع من مؤلفاته ، وليس من المعقول أن ينسب لنفسه ما هو حق لغيره ،فذلك لا يتفق وما عرفناه فيه من أمانة واخلاص . ففي كتابه حقائق التأويل 5/167 يقول عن بلاغة القرآن الكريم " واني لا قول أبدا : انه لو كان كلام يلحق بغباره ،أو يجرى في مضماره ـ بعد كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لكان ذلك كلام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام . . . ومن أراد أن يعلم برهان ما أشرنا اليه من ذلك ،فليمعن النظر في كتابنا الذى ألفناه ووسمناه ، (نهج البلاغة) ،وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع الينا ، من كلام أمير المؤمنين (ع) في جميع الانحاء والاغراض" ويعود الشريف ثانية الى نسبة (نهج البلاغة) الى نفسه في كتابه (المجازات النبوية) ص 146 ، ويكرر ذلك مرة ثالثة في

=

و " طيـــف الخيـــــال " (1) .

ولكـن معظـم تلـك المؤلفـات قـد ضـاع، ووصلنـا بعـض منهـا ناقصـا مثـل كتابـه (حقائـق التأويـل) (2) الـذى وصفـه الشريـف فـي عـدة مواضـع مـن كتابـه (المجـــازات النبويـة) (3) و (تلخيـص البيـان) (4) بالكبـر والشمـول وقـد قيـل عنـه أنّـه بلـغ عشـرة مجلـدات ،لـم يصلنـا منهـا سـوى المجلّـد الخامـــس .

= مقدمة (نهـج البلاغـة) ذاتـه بعـد أن يذكـر أول كتاب ألّفـه وهـو (خصائـص الائمـة) ذلـك الكتـاب الـذى نسبـه الـى الشريـف الرضـي جميـع مـن ترجمـوا لـه وذكـروا مؤلفاتـه. راجـع ابـن أبـي الحديـد ـ شـرح النهـج 1/ 44. وقـد وهـم بروكلمـان فـي كتابـه (تاريـخ الادب العربـي) 2/ 64 حيـن نسـب الكتاب لاخيـه المرتضـى ،معتمـدا علـى مقولـة بـن خلكـان فـي وفيـات الاعيـان 3/ 313 التـي يقـول فيهـا " وقـد اختلـف النـاس فـي كتـاب (نهـج البلاغـة) المجمـوع مـن كـلام الامـام علـي رضـي اللـه عنـه ـ هـل هـو جمعـه أم جمـع أخيـه الرضـي ". أمـا حـول نسبـة (نهـج البلاغـة) للامـام علـي فقـد أشبعـت دراســة بحيـث لـم يعـد شـك فـي صحّـة نسبتـه ، وقـد ذكـر عبـد الحسيـن الاميـني ذلـك فـي الغديـر 4/ 186 ومـا بعدهـــا .

1) ينسـب البعـض ممـن ترجمـوا للشريـف الرضـي كتـاب (طيـــف الخيـال) منهـم جرجـي زيـدان فـي تاريـخ آداب اللغـة العربيـة 2/ 568 وقـد صحـح هـذا اللبـس فـي دائـرة المعـارف الاسلاميـة 13/ 286 حيـث نسـب الـى مؤلفـه الحقيقـي الشريـف المرتضـى الـذى ألفـه بعـد وفـاة أخيـه الرضـي ، راجـع الشريـف المرتضـى طيـف الخيـال ص 13 ، 14 ، 62 .

2) قـام منتـدى النشـر بالنجـف باصـدار هـذا الجـزء الـذى كتـب مقدمتـه عبـد الحسيـن الحلـي وحققـه محمـد رضـا آل كاشـف الغطـاء وطبـع علـى مطابـع دار المهاجـر ببيـروت فـي التاسـع مـن جمـادى 1355هـ = 1963 م.

3) راجـع الشريـف الرضـي ـ تلخيـص البيـان فـي مجـازات القرآن ص 123 ، 135 ، 143 .

4) راجـع الشريـف الرضـي ـ المجـازات النبويـة ـ ص 23 ، 25 ، 27 .

أمّا المؤلفات الكاملة التي هي في متناول الايدى الآن فهي : ديوانه الذى نرجئ الحديث عنه الى الفصل الثالث ، وكتاب (تلخيص البيان في مجازات القرآن) و (مجازات الآثار النبوية) و (كتاب رسائله مع أبي اسحاق الصابي) و (نهج البلاغة) .

ومن خلال ما بقي بين أيدينا من مؤلفاته وما ذكرته كتب التراجم من مؤلفات لم تصلنا ، يمكن تقسيم منحاه في التأليف الى أقسام خمسة :

1- تاريخي :

ويتمثّل في ثلاثة كتب هي :

1- سيرة أبيه

2- خصائص الأئمة

3- أخبار قضاة بغداد

ولم يصلنا من هذه الكتب سوى عناوينها ويمكننا القول بأنّ المنهج التاريخي في التأليف لدى الشريف الرضي ، كان من أسبق مراحل الكتابة عنده ، اذ هو يمثّل بداية التأليف وقد بنينا استنتاجنا ذلك على ما أورده هو في مقدمة (نهج البلاغة) بقوله " فانّي في عنفوان السن ،وغضاضة الغصن ، ابتدأت تأليف كتاب في خصائص الائمّة " (1) الاّ أننا نستثني من

---

1) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 1/ 44 .

استنتاجنا ذاك كتابه (أخبار قضاة بغداد) ، وان كان ينحو منحا تاريخيا فقد ألفه في سنّ متأخّرة ، بعد أن عايش الحياة في بغداد ،وعرف رجالها ، اذ لابدّ له من اطلاع واسع في حياة الرجال حتى يتمكّن من الكتابة عنهم ،وذلك لا يتأتّى الا لمن يتمرّس بمخالطة الرجال ، والدخول في أخص خصوصيات المجتمع ،ولم يتمكّن الشريف من ذلك الا بعد أن عايش القضاة بتوليه ديوان المظالم والقيام بالعمل فيه مدة طويلة .

أمّا بخصوص كتاب (خصائص الأئمة) فان دلّت أقواله على أنّه لم يتمه (1) .

وعليه فإن طريقة الرضي في تعامله مع السيرة التاريخية يتمثّل في : عرض شامل لحياة المترجم له ، من مولده الى وفاته ،ثم يختم بفصول من مآثره وآدابه وأعماله (2) وهو منهج تقليدي لم يأت الشريف فيه بجديد والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا هي ، أنّ الشريف في مجال تأليفه في التاريخ ، اهتمّ بموضوعات معينة لها علاقة مباشرة بحياته ، فبحكم انتمائه لآل البيت واعتقاده بمذهب التشيع ألّف كتاب (خصائص الأئمّة) ، وبحكم علاقته بأبيه ألّف كتابا في (سيرة أبيه) ،وبحكم انتمائه الى طبقة الأشراف وتعامله مع القضاة بعد أن تولّى ديوان المظالم ألّف كتابه (قضاة بغداد) .

---

1) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 1/ 44 .

2) راجع السابق نفس الصفحة .

2- مختـــــارات أدبيـــــة :

وتتمثّل فـي شكليـن اثنيـــن :

1- مختـــارات نثريـــــة

2- مختـــارات شعريـــــة

1- مختاراتـه النثريـــة : قـد اقتصـر فيهـا علـى جمـــــع مختـارات مـن كـلام الامـام علـي أطلـق عليهـا اســـــم (نهـج البلاغـــة) وقـد أعجـب محمـد عبـده بهـذا الاسـم فقـال " لا أعلـم اسمـا أليـق بالدلالـة علـى معنـــــاه منـــه " (1).

وفـي توزيعـه للمـادة داخـل الكتـاب رسـم الشريـــف لنفسـه منهجـا مرنـا ، يـدلّ علـى حسّ تأليفـي رفيـــق ، ومقـدرة تنظيميّـــة قـــذّة . فبعـد جمعـه المـادة واعمال الفكـر فيهـا وجدهـا تـدور " علـى أقطـاب ثلاثـة : أولهـا الخطـب والأوامـر ، وثانيهـا الكتـب والرسائـل ، وثالثهـا الحكـم والمواعـــظ" (2) فشـرع - بعـد أن اختـار مـن كـلّ صنـــف محاسنـه - فـي تقسيـم الكتـاب الـى ثلاثـة أبـواب خـصّ كـلّ بـاب منهـا بقطـب مـن الأقطـاب الثلاثـة التـي ذكرهـا (3).

وكـان الرضـي واعيـا لفائـدة ذلـك التقسيـم ، مدركـــا مـا سينتـاب منهجـه مـن اضطـراب ستظطـره اليـه طبيعـــة المـادة ، فعلـى سبيـل المثـال ، حـاول جاهـدا أن يصنـــف

---

1) محمـد عبـده - شـرح نهـج البلاغـة 1/4.

2 ، 3) ابـن أبـي الحديـد - السابـق ص 48.

بعضا من محاورات الامام علي وأجوبته عن أسئلة سائليه ، فيما يتناسب وأغراض الابواب التي بنى الكتاب على أساسها ، الاّ أنّ ذلك الترتيب لم يمنع من ورود بعض من الخطب والحكم البليغة التي لا تتفق ومنهجه ، ممّا حتّم عليه أن يأتي في الكتاب بـ" فصول غير متسقة ، ومحاسن كلم غير منتظمة" (1) وقد أوردها رغم خروجها عن المنهج ، ويرجع السبب الى غلبة الطابع البلاغي الذى كان مسيطرا على تفكيره ، لأنّه كان يهدف الى إبراز بلاغة الامام علي ليس غير.

ذلك هو القالب الذي صبّ الشريف فيه مادة الكتاب ، ولكن هل وقف من تلك المادة موقف الناقل ، أم كان متأثّرا بها ؟ الحقيقة أنّه لم يكن يهدف الى دراسة أساليب الامام البلاغية ، وقد وضّح ذلك في المقدمة ، فبيّن مقصده من تأليف الكتاب وهو عرض كلام الامام دون التعليق عليه الا فيما يخصّ اضطراب الروايات أو ما أصاب بعض النصوص من تصحيف وتحريف ، وسقط لبعد العهد بين مصدر الرواية والشريف ، الا أنّ ذلك لم يمنع الرضي الأديب والعالم اللغوى من ابداء رأيه أثناء عرض المادة ، امّا بشرح عبارة ، أو لابراز بلاغة قول أو حكمة معينة (2).

---

1) ابن أبي الحديد - السابق ص 48.

2) للاطلاع على بعض تعليقات الشريف الرضي راجع على سبيل المثال - نهج البلاغة 1/37 ، 59 ، 73 ، 9/2 ، 76 ، 186.

2- مختاراته الشعرية ويمثلها كتابان :

1- الحسن من شعر الحسين
2- مختار شعر أبي اسحاق الصابي

اضافة الى ما جمعه من " الزيادات في شعر ابن الحجّاج " و " الزيادات في شعر أبي تمام " ،لم يصلنا شيء من تلك الكتب الاّ أننا نعرف من اليتيمة أنّ الحسين بن الحجّاج من الشعراء المجّان الذين يستظرف شعرهم (1) ، فأتاح ذلك الاستظراف لذلك الشعر سعة الانتشار في مجتمع القرن الرابع، ولما كان الشريف أحد أقطاب الأدب والنقد في ذلك القرن ، فقد تحتّم عليه أن يعايش نهضة عصره الأدبية، وأن يقرأ معظم حصيلة الانتاج الأدبي لذلك العصر وأن يحتكّ بشعرائه وأدبائه ، ويبدو أنّ علاقته بابن الحجّاج كانت وطيدة رغم مجونه ، وهذا بطبيعة الحال لم يخل بمكانة الرضي الاجتماعية ، فالذى يجمع بينه وبين الشاعر الماجن أواصر الأدب ، لذا لم يجد الرضي حرجا في رثائه حين نعي اليه (2) ، وقد أشاد بشاعريته في ثنايا ذلك الرثاء ، وهذا يعني أنّ الشريف معجب بشعره بغضّ النظر عمّا ورد فيه من سخف ومجون ، وهنا نخلص الى نتيجة وهي أنّ نظرة الشريف

---

1) راجع الثعالبي - اليتيمة 3/ 30 وما بعدها وقد قال عنه ابن خلكان في الوفيات 2/ 168 " كان فرد زمانه في فنّه ، فانّه لم يُسبق الى تلك الطريقة، مع عذوبة الألفاظ وسلامة شعره من التكلّف ".

2) راجع الديوان 2/ 441.

الى شعر ابن الحجّاج نظرة فنية ذواقة لمناحي استخدام اللغة والتصرف في تعابيرها لاستجلاب الصور المشرقة (1) ، فهذه الصفات دعته الى قراءة ديوانه - رغم ضخامته (2) - واختيار ما خلى من المجون والسخف ، وفي اعتقادنا أنّ الرضي كان يهدف من اختياره الى هدفين أساسيين :

أولهما فنّي : فيتمثّل في ابراز مقدرة الشاعر الفنيّة في التصرّف في فنون الكلام وتمكنه من تجسيد صورة في يسر وعفوية .

الثاني أخلاقي : وهو أن يضع بين يدى القارئ شعرا مستملحا فكها ، خاليا من المجون والسخف وقد عمد الى شعر ابن الحجّاج لسيرورته بين النّاس .

أمّا طريقة تبويبه لتلك المنتخبات فليس بين أيدينا ما يمكننا من وصفها ولكننا نعتقد أنها لم تخرج عمّا رسمه أبو تمام في " حماسته " من أبواب طوّعها الشريف لتتناسب وأغراض شعر القرن الرابع ، بحيث يمكن تصوّر المنهج على الشكل التالي :

- باب الوصف
- باب الأدب
- باب المديح
- باب الهجاء
- باب الملح
- باب الغزل

---

1 ، 2) قيل عن شعر ابن الحجّاج أنّه في درجة شعر امرئ القيس ، كما قيل أنّ ديوانه قد بلغ عشرة مجلدات . راجع ابن خلكان - وفيات الاعيان 2/168 ، 169 .

وهي الابواب الاساسية التي يتمحور حولها شعر ابن الحجّاج كما هو واضح من ترجمته عند الثعالبي (1).

أمّا " مختارات شعر أبي اسحاق الصابي " فتمثله الرسائل الشعرية والنثرية المتبادلة بينهما ، وتمثل تلك الرسائل مدى الصداقة المتينة والحب الصادق بين الشريف الشاب والصابي الشيخ كما تصور شكوى الصابي من تقلّب الدهر ومن المرض والهرم والفقر وقد جمع الرضي تلك المختارات الشعرية مع رسائل الصابي كما اعتقد في كتاب أسماه " رسائل الصابي والشريف الرضي " (2) وينقسم هذا الكتاب الى قسمين :

الأول : يتضمن الرسائل المتبادلة بين الصديقين شعرا من سنة 376 الى سنة 384 ويحتوى على ثمان قصائد أربع منها للصابي والاربع الاخر للشريف، وهي مبثوثة في الكتاب كالتالي (3) :

---

1) راجع يتيمة الدهر 3/30 وما بعدها .

2) قامت بطبع هذا الكتاب في طبعة جيدة بورق مصقول ، دائرة المطبوعات والنشر بالكويت في سلسلة التراث العربي بتحقيق محمد يوسف نجم سنة 1961.

3) راجع رسائل الصابي والشريف الرضي من ص 7 الى ص 62 .

1- من الصابي الى الشريف في الاعتذار عن تأخّره عن زيارته بسبب علة عرضت له سنة 376 ومطلعها : (خفيف)

أقعدتا زمانةٌ وزمانُ
جائرٌ عن قضاءِ حقّ الشّريفِ (1)

2- اجابة الشريف على الأبيات والرقعة الملحقة بها بقصيدة مطلعها : (خفيف)

كَمْ ذَميلٍ اليكُمُ ووجيفِ
وصُدورٍ عَنّا لكُمْ وَصُدوفِ (2)

3- مدح الصابي للشريف وشكواه من الزمن بعد أن أصبح محمولا على محفة سنة 384 مطلعها : (طويل)

إذا مَا تَعَدّتْ بي وَسارتْ محفّةٌ
لَهَا أرْجُلٌ يُسْعَى بِهَا رَجُلانِ (3)

4- ردّ الشريف : (طويل)

ظَمَائي إلى مَنْ لَوْ أَرادَ سَقَاني
وَدَيْني عَلَى مَنْ لو يشاءُ قَضاني (4)

5- تهنئة الصابي الشريف بعيد الفطر سنة 384، والقصيدة مقرونة برقعة اعتذار عن تأخّره عن قضاء حاجة الشريف طالعها : (طويل)

أبَا كُلِّ شيءٍ قِيلَ في وَصْفِهِ حَسَنْ
إلى ذَاكَ يَنْحُو مَنْ كَنَاكَ أبَا الحَسَنْ (5)

(1، 2، 3، 4، 5) رسائل الصابي والشريف الرضي ص 7، 8، 15، 21، 27

6- جواب الشريف على القصيدة في وزنها دون رويها : (بسيط)

دَعْ مِنْ دُمُوعِكَ بَعْدَ البَيْنِ لِلدِّمَنِ
غداً لدارِهِمِ ،واليومَ للظُّعُنِ (1)

7- قصيدة من الصابي يمدح بها الشريف ويتنبأ له فيها بالخلافة : (طويل)

أَبَا حَسَنٍ لي في الرِّجالِ فراسةٌ
تعوّدتُ مِنْهَا أنْ تَقُولَ فَتَصْدُقَا (2)

8- ردّ الشريف على تلك القصيدة ووعده ايّاه بتحقيق آماله اذا ما صدقت النبوءة وطالعها : (طويل)

سَنَنْتُ لِهذا الرُّمْحِ غَرْبًا مُذَلَّقَا
وأجْرَيْتُ في ذا الهُنْدُوَانيِّ رَوْنَقَا (3)

وختم هذا القسم بثلاث قصائد في رثاء الصابي نظم اثنتين سنة 384 أما الثالثة فنظمها سنة 393.

القسم الثاني ويضم اثنتي عشرة رسالة نثرية، احدى عشرة منها متبادلة بين الشريف والصابي ، أما الرسالة الثانية عشرة فهي عبارة عن تأبين للصابي كتبه الشريف الى بعض الاصدقاء ، ومضامين تلك الرسائل لا يخرج عن اطار الرسائل الاخوانية في القرن الرابع الهجرى الدائرة في فلك التعزية والتذكّر والاشتياق والتهاني وطرح بعض من الامور النقدية ، أمّا أشكالها فلا يتعدّى ما خبرناه من أسلوب الزخرفة والاسجاع التي اتسم بها النثر الفنّي في ذلك العصر ، ومن تلك الرسائل قول

1، 2، 3) السابق ص 35، 40، 41.

الشريف في تعزية الصابي في وفاة ابنه سنان " لويت عناني في عشية امسنا عن حضرة سيدى الشيخ أطال الله بقاءه ، وأدام عزّه وتأييده وسعادته ، وسلامته ونعمته ، وأنا المساهم له في تحمل النازلة ، والآخذ معه بأوفر الأقسام من النائبة .. وانضاف الى وجدى بمن اهتصر عوده الزمان ، واختصر غصنه الحدثان ، قلقي بما وجدته عليه ، ايده الله ، من الأصحاب في عنان القلق ، والانقياد بزمام الحرق " (1) ، ولقد رتبها الشريف في الكتاب بحسب التسلسل التاريخي ، أمّا أهمّ ما يمكن الاستفادة منها فتتمثّل في امكانية دراسة تجربة الرضي الشعرية التي وصفها وصفا دقيقا (2) كما يمكن التعرف على مفهوم السرقة الشعرية عند الشريف (3) الى غير ذلك من ملاحظات نقدية تميز بها القرن الرابع الهجري بالاضافة الى أنّ تلك الرسائل في حد ذاتها ذات قيمة **وثائقية** في دراسة فن الرسالة الاخوانية في عصر الشريف .

---

1 ، 2 ، 3) راجع - الشريف الرضي - رسائل الصابي والشريف الرضي ص 63 ، 101 ، 88 .

3- دراسات بلاغية : وتتمثّل في كتابين هما :

1- تلخيص البيان عن مجاز القرآن (1)

2- مجازات الآثار النبوية (2)

ويعتبر الكتابان أول دراستين للمجاز بمعناه الاصطلاحي في البلاغة العربية وقد اتبع في كلا الكتابين منهجا واحدا الهدف منه دراسة ما في القرآن الكريم والحديث الشريف من المجاز البلاغي متجنبا التعريفات والقواعد مكتفيا بالاشارة الى موضع المجاز في الآية الكريمة أو الحديث الشريف ، وقد أتاحت له ثقافته الواسعة اجلاء ذلك وبيان قيمته البلاغية وأثره على المعنى ، ولعله يقصد بذلك وضع علم البيان حيّز التطبيق بعد أن

---

1) طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد عبد الغني حسن على مطابع عيسى الحلبي بالقاهرة سنة 1955 ، ولم يعد طبعه ، ويقول الحلو في مقدمته لتحقيق الجزء الأول من ديوان الرضي ص 94 بأنّ هناك طبعة ثانية لهذا الكتاب عن نسخة مخطوطة أتم وأكمل من النسخة التي اعتمدها محمد عبد الغني حسن وقد حقّق هذه النسخة محمد الحيدرى ومكي السيد جاسم وتكفلت دار المعارف ببغداد بنشره سنة 1955.

2) طبع هذا الكتاب بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد على مطابع الحلبي بالقاهرة سنة 1971 وقد أهمل المحقق ادراج فهارس الاعلام وفهارس الشواهد والكتب التي اعتمدها الشريف هذا بالاضافة الى رداءة الورق الذى طبع عليه الكتاب .

غلب التنظير على معظم علماء عصره من أمثال السيرافي في كتابه " صنعة الشعر والبلاغة " (1) والمرزباني (ت 384) في كتابه " المفصل في البيان والفصاحة" (2) كما كان يهدف باظهار المجاز في كلام الخالق سبحانه وتعالى وفي حديث الرسول (ص) الى تطبيق عقيدته الشيعية في نفي التجسيم والتشبيه عن الله سبحانه وتعالى ، اذ بورود المجاز في كثير من آيات القرآن الكريم يمكن تأويل اليد والوجه والكلام والنظر تأويلا ينفي تلك الصفات العارضة عن الخالق ، وهو أمر يتعارض وفكرة المشبهة الذين يثبتون الرؤية والكلام والتجسيم ، ممّا يجعلهم يعتقدون بأنّ اللجوء الى المجاز في اللغة مرجعه القصور في التعبير لدى المتكلّم عن توصيل وجهة نظره الى المتلقي فيلجأ الى التصوير وهذا - في نظرهم - يخالف قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، وعلى كل فانّ أفراد الرضي كتابين للمجاز يصدر عن غرضين :

الأول : عقائدي يهدف كما افترضنا الى تنفيذ مزاعم المجسمة في أنّ المجاز لم يرد في القرآن الكريم .

الثاني : جمالي يهدف الى تبيان الصورة في القرآن والحديث وأثرهما في نفس القارئ والسامع .

---

1) ابن النديم - الفهرست ص 68 .

2) داود سلوم - نظرة في نمو الفكرة النقدية وتطورها مقالة من كتاب نصوص النظرية النقدية ص 23 .

وعلى الرغم من ضياع مقدمة كتاب " تلخيص البيان عن مجازات القرآن " (1) وهو الكتاب السابق من الدراسات البلاغية عند الشريف (2) الا أننا لا نعدم في مقدمة " المجازات النبوية " المنهج الذى رسمه الشريف لدراسة المجاز فهو ينصّ في تلك المقدمة على وجود " كثير من الانتقادات البديعة ، ولمع البيان الغريبة وأسرار اللغة اللطيفة " (3) في كلّ من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقد عمد الى استخراجها من أكمّتها في كتابه " تلخيص البيان " كما شرع في اماطة اللثام عن دقّة التعبير بها في " المجازات النبوية " (4) وكان واعيا بأنّ عمله ريادىّ ، وأشار الى ذلك بقوله " فيكون هذان الكتابان بإذن الله لمعتين يستضاء بهما ، وعرينين لم أسبق الى قرع بابهما " (5).

---

1) اعتمدنا في دراستنا على نسخة عيسى الحلبي التي حققها محمد عبد الغني حسن ، وهي مبتورة المقدمة وتبدأ بالحديث عن المجاز في الآية السابعة من سورة البقرة - راجع الكتاب ص 113.

2) يقول الشريف في مقدمة كتاب " المجازات النبوية " ص 21 " فانّي عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيئة التي اطلعتها والدفينة التي أثرتها من كتابي الموسوم بـ " تلخيص البيان عن مجازات القرآن " وانى سلكت من ذلك محجة لم تسلك ، وطرقت بابا لم يطرق ، ورغبت اليّ فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله " وهذا يعني أنه قد شرع في تأليف كتاب " المجازات النبوية " بعد فراغه من كتاب " تلخيص البيان " واطلاع الناس عليه .

3، 4، 5) الشريف الرضي - المجازات النبوية ص 21 ، 22.

ولكن كيف تمّت معالجة المادة في كلا الكتابين ؟ انّ الشريف بعقليته العلمية المنظمة في مجال البلاغة استطاع أن يضع لكلا الكتابين منهجا بسيطا وعظيم الفائدة في ذات الوقت" اذ انّه بدأ بجمع المادة التي عزم على معالجتها ، فبدأ بتجريد الآيات الكريمة التي ستكون محور دراسته ، ورتب المجاز في القرآن الكريم بترتيب السور ثم الآيات أى أنّه بدأ بسورة البقرة وانتهى بسورة الانشراح .

وبعد أن جمع المادة ورتبها أعمل العقل فيها مستنجدا بما لديه من ثقافة واسعة في ميدان اللغة والنحو وعلم الكلام والفقه والتفسير فتمكّن من أن يبرز ما يهدف اليه بيسر .

ويمكن تلخيص طريقة الشريف في عرض المادة ومناقشتها في :

1- ايراده للآية الكريمة أو الحديث الشريف في مطلع الفقرة المخصصة لها شريطة أن تحوي الآية أو يحوي الحديث مجازا بلاغيا .

2- يلي ذلك استخراجه لذلك المجاز سواء أكان استعارة أم تشبيها أم كناية ، وينصّ على ذلك نصًّا صريحًا ، اذ يبيّن موضع التشبيه أو مكان الاستعارة أو الكناية ، وحتّى لا يفلت منه زمام الموضوع تجنّب الاستطراد ، الا في النّادر القليل حين تُحتم عليه المادة أن يسلّط الضوء على ذلك المجاز الذى هو

بصدد دراسته ، وقد يناقش أثناء حديثه عن ذلك المجاز ، بعضا من القضايا الفقهية أو الكلامية أو اللغوية أو النحوية ، وهو في هذا المجال ملتزم بالامانة العلمية ، اذ يرجع كل رأى الى صاحبه ، حتى الشاهد اللغوى أو النحوى الذى استشهد به سيبويه ، يرجعه الشريف الى سيبويه بعد ذكر اسم شيخه الذى أخذ عنه ذلك الشاهد ، ولكن يجب أن لا يتصور أنّ الرضي في عرضه لتلك الآراء والشواهد مجرد ناقل ، بل هو حين يعرض لآراء المذاهب الاسلامية أو للقضايا اللغوية المختلف فيها ، يقتلها مناقشة ويبيّن وجهات النظر المتخاصمة ، ومن ثم يبدى رأيه ويبيّن موقفه ، وفي كثير من الأحيان يخرج من تلك المناقشات بنتائج جديدة ينصّ عليها في شيء من الفخر بقوله " وهذا لم يسبقني اليه أحد " (1) .

وعن الشاهد اللغوى أو النحوى لم يحاول الشريف الرضي أن يتجاوز فترة الاحتجاج التي أجمع اللغويون والنحويون عليها ، وقد بقي محافظا حين تمسّك بتلك الفترة ، وعلى هذا لم يورد في كتابيه شاهدا لغويا أو نحويا لشاعر مولّد أو عبّاسي ممّن لم يحتج بشعره .

---

1) راجع الشريف الرضي - تلخيص البيان في مجازات القرآن ص 179 ، 208 والمجازات النبوية ص 31 ، 178 .

أمّا أسلوب المعالجة فقد استخدم فيه الشريف لغة سهلة ، بعيدة عن التكلّف ، ففي دراسته للمجاز في أحد الأحاديث النبوية الشريفة يقول " ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام حين أتاه الفضل بن العباس وابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب يسألانه عن أبويهما السقاية فتواكلا الكلام ، فقال عليه الصلاة والسلام " أخرجا ما تصرّان " وفي هذا القول استعارة لأنّه عليه الصلاة والسلام أراد : أظهرا ما تكتمان في قلوبكما وصرّحا بما تلجلج به ألسنتكما ، فجعل القلب بمنزلة الوعاء والكتمان بمنزلة الوكاء والأمر المكتوم بمنزلة الشيء الموعى . وكل شيء جمعته فقد صررته ومنه قيل للأمير : مصرور اذا جمعت يداه بالغل وقدماه بالحجل " (1) ، فقد حلّل كلمة " تصران" تحليلا بلاغيا بينا ثم عاد لشرح معناها في اللغة ، واتبع في ذلك أسلوبا علميا ، تحدد فيه الكلمة أو العبارة بموضعها الذى يخدم الغرض المقصود ، لذا جاء الكتابان صغيرين في حجمهما ممّا يتيح للقارئ قراءتهما دون جفاء أو ملل .

والحقيقة أنّ الشريف قد تمكّن بتأليفه هذين الكتابين أن يخطو خطوة عملية في وضع أسس علم البيان موضع التطبيق ، والابتعاد به عن التعقيدات الفلسفية والكلامية التي أخذت بتلابيبه ، الا أنّ هذه الخطوة لم يمكن لها من السيرورة والانتشار بسبب الغبن الذى أصاب الشريف وأمثاله لتعصب علماء العصور التي تلته لطائفة دون أخرى ، فمكّنت من انتشار كتب هؤلاء رغم تأخرها على حساب كتب أولئك على الرغم من ريادتها ودسامة مادتها .

---

1) المجازات النبوية ص 31 ، 32.

4- دراسات في التفسير

يقول ابن خلكان : انّ الشريف الرضي " صنّف كتاباً في معاني القرآن الكريم يتعذر وجود مثله دلّ على توسعه في علم النحو واللغة " (1) ، كما يقول الخوانساري نقلا عن شاهد عيان : " شاهدت مجلدة من تفسير منسوب اليه للقرآن مليح حسن يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطبري " (2) ذلك هو كتاب " حقائق التأويل في متشابه التنزيل " الذى سمّاه ابن عتبة " المتشابه في القرآن " (3) وقد أحالنا عليه الشريف في مواضع كثيرة من كتابيه (4) " تلخيص البيان " و " المجازات النبوية " وكان يطلق تارة " حقائق التأويل " وتارة أخرى " كتابنا الكبير " ، وثالثه " كتابنا في علوم القرآن " ، ويقال أنّ هذا الكتاب قد بلغ عدة مجلدات (5) لم يصلنا منها سوى المجلد الخامس

---

1) وفيات الاعيان 4/416 .
2) روضات الجنات 6/194 .
3) عمدة الطالب ص 207 .
4) راجع - تلخيص البيان ص 123 ، 135 ، 143 . والمجازات النبوية ص 23 ، 25 ، 27 .
5) اختلط الأمر حول هذا الكتاب على صاحب موسوعة " الغدير " وذلك حين جعل " حقائق التأويل " غير " معاني القرآن " - عبد الحسين الاميني - الغدير 4/168 . والراجع لمؤلفات الشريف سيدرك من احالاته انّ كلا العنوانين لكتاب واحد هو " حقائق التأويل " الذى أطلق عليه ابن خلكان "م معاني القرآن " وعلى هذا فللشريف في القرآن كتابان هما " تلخيص البيان " و " حقائق التأويل " لا ثلاثة كما وهم صاحب الغدير .

الذى بدأه الشريف بتفسير قوله تعالى " هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات" (1) وختمه بتفسير قوله تعالى " انّ الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ..... الآية " (2) ومن تصفحنا لذلك الجزء يمكن رسم صورة واضحة لمنهج الشريف في التفسير .

فكتاب " حقائق التأويل " على هذا الأساس مقسّم الى مسائل أساسية ،قد تلحق بها بعض الفصول هي فروع لتلك المسائل .

أمّا المسائل (ومفردها مسألة) فهي عبارة عن سؤال يسأله سائل معيّن ، في آية معينة ، فيقوم الرضي بالاجابة عليه من خلال تفسير تلك الآية من جميع جوانبها ، فيتعرّض للتراكيب النحوية وأثرها في المعنى ثم يتلو ذلك بشرح التراكيب اللغوية ،وقد تغرض عليه طبيعة الآية الحديث في بلاغة التراكيب وبعد أن يشبع ذلك شرحا وناقشة ، يعود للاجابة عن السؤال الاساسي ، حيث يقوم بشرح معاني مفردات الآية ، مستخدما براعته اللغوية في تفتيق المعاني وردّ الكلمات الى أصولها وطرق الاشتقاق منها ، مدعما

---

1) آل عمران 7، وراجع حقائق التأويل 1/5 من بعد المقدمة وترجمة المؤلّف .

2) النساء 48 ، وراجع السابق ص 361.

آراءه بشواهد ممّن سبقه ومن عاصره من كبار المفسرين والنحويين والمحدثين وأصحاب القراءات وأصحاب المغازى وقد يتعرض في أثناء ذلك لآراء فقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم اذا كانت الآية موضع التفسير تحتاج لذلك ، حيث تستغرق بعض المسائل صفحات عديدة ، بينما لا يستوعب تفسير بعض الآيات سوى بضع صفحات.

أمّا الفصول التي هي فروع للمسائل - كما يوضّح لنا منهج الكتاب ذلك - فيتعرض الشريف فيها ، امّا لقضايا محورية مرتبطة بالآيات التي هو بصدد تفسيرها ممّا يحتّم عليه الاستطراد بالحديث في موضوع معيّن حتى لا يعود للخوض فيه مرة أخرى ، حين يتصدّى لتفسير آية أخرى تعرض لذات الموضوع ، أو قد تكون القضيّة التي يعقد لها الرضي فصلا جزئية لا تمّت لموضوع تفسير الآية التي هو بصددها الا من بعيد وهنا يجد الشريف نفسه مضطرّا لذلك ، اتماما للفائدة التي يرغب في توصيلها للسائل.

لذلك يمكن اعتبار هذه الفصول تكملات وملاحق للمسائل اذ أنّ الفصل الواحد منها لا يرد في الكتاب الا بعد أن يتمّ المؤلّف مراده من تفسير الآية ، أي أنّ هذه الفصول لا تأتي الا بعد الانتهاء من التفسير الاساسي ، وكأنها ملاحظات يراد بها الاكمال.

وخلاصة القول بأنّ الشريف الرضي - في كتابه هذا - كان واعيا كل الوعي لما يقول ويعرض من آراء ، فعلى الرغم من ضخامة الكتاب ووفرة مادته وتفرعها ،فقد تجنّب

التكرار ، وما احالاته الكثيرة حول آراء وقضايا معينة - الى أجزاء سابقة من ذات الكتاب - الا دليل على ما يتمتع به من عقلية منهجية منظمة ، هذا بالاضافة الى ثقافته المتنوعة ، مع التحلّي بروح جدلية متزنة لا تعرف العداء ، ولا تجنح الى تغليب العاطفة على العقل ، مع اعتزاز بالرأى ووضوح في الفكر ، دون استحياء من الحق ، أو مجاملة لارضاء استاذ أو صديق .

5- دراسات في الفقه :

شارك الشريف الرضي فقهاء عصره بتأليف كتاب " تعليق الفقهاء " الذى مازال في طي الغيب بحيث لا يمكننا الحديث عنه الا بالافتراض من خلال عنوانه (1) فقد يكون الكتاب جدليا عرض فيه الشريف لمناقشة آراء فقهاء عصره ، وقد يكون تحليليا شرح فيه ما صدر في ذلك العصر من أحكام فقهية .

ولكن ما الاسباب التي دعت الشريف لتأليف الكتاب؟ ليس بين أيدينا ما يمكننا من الاجابة عن هذا السؤال ، لكن يمكن استنتاج الاجابة بالرجوع الى المناصب والاعمال التي وليها ومن بينها منصب صاحب المظالم وهذا المنصب يحتم معرفته للاحكام في جميع المذاهب

---

1) من معاني كلمة " علّق " التي تتفق وعنوان كتاب الشريف الرضي حسب اعتقادى الجدل أو ما يذكر في حاشية الكتب من شروح للنصوص - وعن تلك المعاني راجع ابن منظور - لسان العرب المحيط 2/865 ، المعجم الوسيط 2/622 .

الاسلامية ،كما لا ننسى أنّه صاحب مدرسة يرتادها طلاب العلم من جميع الطوائف الاسلامية ، ممّا يحتّم عليه أن يعد لتلك المدرسة مناهج متطورة يمكنها استيعاب أفكار واهتمامات عصره الدينية ، ليتسنّى لها مواكبة نهضة العصر العلمية ، فأوحى له ذلك حسب اعتقادنا تأليف ذلك الكتاب ليكون مرجعا له ولطلابه للتعويل عليه في معرفة وجهات النظر الفقهية المختلفة. لذا يمكن القول بحيطة وحذر أنّ كتاب " تعليق الفقهاء" يمكن أن يجمع بين دفتيه أحكام المذاهب الفقهية في عصر الشريف خاصة وأن ثقافته المتعددة المصادر تؤهله للقيام بمثل ذلك العمل .

تلك هي حصيلة موجزة لما تركه الشريف من فكر لم ينل القسط الوافي من الدراسة رغم ما له من ريادة في بعض المجالات ، وما تمتاز به مؤلفاته من فكر حر بعيد عن التعصّب المقيت. الا أنّ كل ذلك لم يشفع له ، فقد بقي على الهامش ، بعيدا عن الشهرة فعلى سبيل المثال لم يذكره علماء البلاغة وهم يتعرضون لمن سبقه ومن لحقه. مما جعل كتابيه في البلاغة التطبيقية يركنان في الظل ، بينما أخذت الكثير من الكتب النظرية في ذلك المجال صدارتها في المكتبات العربية برغم ما حوته من صعوبة وتعقيد وجفاف، وبالرغم من اشادة القدماء بوفرة اللغة واتساع أفق الرضي في علم النحو ، لم يتعرض أحد من القدماء ولا من المحدثين الى ما ورد عنده من آراء في ذلك المجال ،

كما أهملت آراؤه الفقهية ، كل ذلك بسبب تشيعه الذى لا يزال الرضي يدفع ضريبته حتى يومنا هذا .

ان الشريف الرضي وهو يقوم بتلك الاعمال الجليلة خدمة للعلم ، كان في ذات الوقت يحمل عبئ النقابة وديوان المظالم وامارة الحج ، بينما كان المجتمع تتعالى فيه صوت القوة والبطش ، فأراد أن يكون شيئا ، ولكن صوته ضاع وتبدد في خضم الأصوات والانّات والآلام وقهقهات البطش ، فحاول أن ينجو بنفسه لانه " كان يفهم جيدا أنّه معرض للأكاذيب والاراجيف ... بسبب حيرته في بيداء الحياة السياسية ، فلم يكن له بد من تمزيق الحبائل التي ينصبها أعداؤه وحاسدوه ، وكذلك أقبل على التأليف بعزائم الفحول ليقيم الأدلّة والبراهين على أنّه أهل للتشريف باسم العلم والدين "(1) ولكنّه لم يصل الى غايته رغم ذلك المجهود العلمي الجبّار ، فعاد من رحلته تلك منكفئا ينعى مجتمعه بقوله " انّ القلوب في هذا الزمان ضعيفة عن تحمّل أعباء العلوم الثقيلة والاجراء في مسافات الوسائل الطويلة ، لأنّه لم يبق من الفضل الا الذماء ، ومن الفضلاء الا الأسماء " (2) .

وهكذا بقي الشريف مغبونا في مجال العلم ،فإنّه وإن أصاب بعض النجاح في تسنم بعض المناصب كالنقابة

---

1) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي 2/ 210 .

2) الشريف الرضي - المجازات النبوية ص 22 .

والمظالم وامارة الحج ، الا أنّه لم ينل نصيبه الوافي من الدراسة كمفسّر وفقيه ومتكلّم وعالم لغوي ورائد من رواد علم البيان التطبيقي ، اذ لم يبق الا الشريف الشاعر ، وحتى شعره لم يعط حقه من الدراسة والبحث .

انّ السبع والأربعين سنة التي عاشها الشريف لم تكن بشيء في حساب الزمن . ولكن بنظرة فاحصة لما ترك من أعمال جليلة في تلك المدة القصيرة ، تجعلنا نقف مدهوشين لما كان يتمتّع به ذلك الرجل من عبقرية ، فبرغم ما أنيط به من أعمال هامة ، لم يتخلّف عن المشاركة في بناء صرح الثقافة ، حيث أغدق على العلم والمعرفة من فيض فكره الكثير ، بالاضافة الى ديوان شعره الزاخر بشتى المعاني التي تنساب الى النفس وكأنها الماء القراح في يوم قائظ.

لقد حاول الشريف في رحلة عمره القصيرة أن يوائم بين ما في داخله من صراعات ، وما في مجتمعه من متناقضات ، فأخفق ، وعاد من تلك الرحلة محملا بأعباء الحياة ، حيث لم يبق له من محاولاته تلك الا الشعر ، وفي اعتقادي أنّه - يحدسه الشفاف - كان يدرك أنّ حياته قصيرة ، فأخذ يجري في بيداء الضياع سابقا الزمن ، علّه يدرك غاياته ، ولم يحاول أثناء ذلك الجري أن يجعل لنفسه محطة راحة يسترد فيه أنفاسه ، استعدادا لمتابعة المسيرة بحثا عن العلياء والمجد ، ولقد شعر هو بتلك السرعة في بعض الأحيان ، فهاهو يخاطب الزمن عام 398 علّه يستجيب ويتوقّف قليلا : (وافر)

فَيَا حادِيَ السِّنين قفِ العطايَا
فهنّ على طريقِ الأربعينَا (1)

انّ المسؤوليات التي تحمّل عبئها في حداثة السن ، كانت بمثابة الفاصل بين مرحلتين أساسيتين من مراحل حياته اذ نقلته تلك المسؤوليات الجسام من مرحلة الشباب الى مرحلة الكهولة التي فخر بها قائلا : (طويل)

فتىً سنّهُ عن خمسَ عشرةَ حِجّة
تُربّي لهُ فضلاً ومجداً وَمَحْتِداً

فتيُّ الصِّبَا كَهلُ الفَضَائلِ مَا مَشَى
الى العُمرِ إلا احتلّ في الفَضْلِ مقعدَا (2)

لكنّه سرعان ما أفاق من نشوته وعاد يطلب ما أضاعه وهو يجرى وراء سراب المجد الذي لم ينل منه الا الأحلام ، فوقف في منتصف الطريق حائرا ، وحاول الالتفات الى الوراء علّه يدرك ما فات ، وذاك مستحيل (بسيط)

ضاعُ الشبابُ فقُلْ لي أينَ أطلُبُهُ
وازورّ عنْ نظري البيضُ الرعاديدُ (3)

---

1) الديوان 2/546 .
2) السابق 1/284 .
3) السابق 1/270 .

وهكذا حاول كتّاب سيرته تعليل أسباب موته المبكّر على الرغم من انتمائه الى أسرة جل أفرادها من المعمرين ، فعزا بعضهم ذلك الى اعتلال في صحته (1) ولا نجد في ديوانه ما يؤيّد فكرة المرض أو ضعف البنية الاّ بيته الوحيد : (طويل)

ولولا الجوَى لم أبغِ إلا مُدامةً
بطعنِ القَنَا ، ابريقُها الودجانِ (2)

وهناك من يرد موته المبكّر الى عوامل نفسية (3) مرجعها المعاناة التي عاشها في مجتمع لا يقدر للكفاءات قيمتها ، مما جعل حجافل الحزن والأسى تهاجم نفسه

---

1) دائرة المعارف الاسلامية 13/284.

2) الديوان 2/523 . وفي لسان العرب المحيط 1/537 ، والقاموس المحيط 2/315 ،وأساس البلاغة ص106 أن أحد معاني الجوى : هو المرض المستمر ، ومن الملاحظ أنّ الشريف يشير في البيت بأنّ الجوى كان حائلا بينه وبين تحقيق طموحاته ، مما يعني أنّه قد كان يشكو من علة مزمنة أو مرض عضال ، وقد اقتطعنا هذا البيت من قصيدة موضوعها تذكر وشكوى من الشيب .

3) يورد الخوانساري في كتابه روضات الجنات 6/206 ما يرجع سبب وفاة الرضي الى العامل النفساني بقوله " قيل أنّ الوجه (الوجهة) توجه الحواس الباطنة بكلتيها الى التأمّل فيما يكون النفس بصدده ، وسقوط تصرفاته اللازمة في قوام الأبدان ".

المشبعة بالطموح ، فكان أمام خيارين : امّا قبول الأمر الواقع والسير في التيار كبقية النّاس ، وامّا التصدّي لمغالبة ذلك التيّار ، فكان قدره في اختيار الأمر الثاني الذي سرعان ما حطّمه .

وقسم ثالث يرجع موته المبكّر الى عبقريته وذكائه الخارق ، وللعامل النفسي دوره الأساسي في هذا الرأي اذ يعتقد أنّ العبقرية تؤدّي بصاحبها الى الضياع وتعجّل به نحو النهاية الحتمية حين يجد نفسه غريبا في مجتمعه (1) ، ويستند قول أولئك ممن يزعمون بأنّ وفاته المبكّرة بسبب عبقريته على حكاية مفادها قول أبي حسن العمري " دخلت على الشريف المرتضى فأراني بيتين قد عملهما وهما : (طويل)

سَرَى طيفُ سُعدَى طارقًا فاستفزّني
هبوباً وصحبي بالفلاةِ رقُودُ

فقلتُ لعينيّ عَاودِي النومَ واهجعِي
لعَلّ خيالاً طارِقًا سيعودُ

فخرجت من عنده ودخلت على أخيه الرضي فعرضت عليه البيتين فقال بديهيا

فردتْ جواباً والدموعُ بوادرُ
وقد آنَ للشّمِلِ المُشتّتِ ورودُ :
فَهَيْهَاتُ مِنْ لُقْيَا حبيبٍ تعرّضَتْ
لنَا دونَ لُقْيَاهُ مهامهُ بيدُ

---

1) يرجع عبد الرحمن بدوى - في كتابه الموت والعبقرية - أسباب موت العباقرة المبكر لما يتميزون به عن غيرهم من طموح وأحاسيس مرهفة - راجع ترجمته لبعض العباقرة في ذلك الكتاب .

فعدت الى المرتضى بالخبر فقال : يعز عليّ ،أخي قتله الذكاء ،فما كان الا يُسيرا حتى مضى الى سبيله " (1) .

ولو جمعنا الثلاثة الاقوال وضمناها لبعضها بعضا لخلصنا الى نتيجة مفادها قول ابن أبي الحديد " كان الرضي لعلو همته تنازعه نفسه الى أمور عظيمة يجيش بها خاطره وينظمها في شعره ، ولا يجد من الدهر عليها مساعدة ، فيذوب كمدا ويفنى وجدا حتى توفى ولم يبلغ غرضا " (2) .

فكانت وفاته يوم الاحد السادس من المحرم سنة 406 هـ وحضر جنازته جميع الأعيان والأشراف والقضاة ، وصلى عليه فخر الملك (3) ورثاه " غير واحد ممّن عاصروه وفي مقدمتهم أخوه علم الهدى بقول " (4)

---

1) يوسف البحراني -لؤلؤة البحرين ص326 ،كما أورد هذه الحكاية بزياده الخوانسارى - السابق 119/6 .

2) شرح نهج البلاغة 34/1 .

3) فخر الملك أبو غالب بن الصيرفي محمد بن علي بن خلف ،من أعظم وزراء آل بويه على الاطلاق بعد ابن العميد والصاحب بن عباد ، كان واسع النعمة فسيح مجال الهمّة جم الفضائل ،مدحه الشعراء وأشادوا بذكره ولد سنة 354 هـ وتوفي سنة 407 . العماد الحنبلي - شذرات الذهب 185/3 .

4) عبد الحسين الاميني - الغدير 211/4 .

(كامـــــل)

يا لَلرّجالِ لفجعةٍ جَذَمَتْ يَدِي
و وددتُها ذهبتْ عليّ برأسي
مازلتُ أحذرُ وردها حتّى أتَتْ
فحسوتُها في بعضِ ما أنا حاسِ (1)

كما رثاه تلميذه مهيار الديلمي بقصيدة مطلعها : (كامل)

مَنْ جَبَّ غَارِب هَاشِم وسَنَامَهَـــا
ولوى لُؤيّا واستزلّ مقامَهَـــا (2)

ولقد أغضبت قصيدة مهيار السابقة بعض من سمعها من أقارب الرضي وأصحابه لما تضمنته من مآثر الرضي ، فنكاية بهم عاود رثاءه بقصيدة أخرى مطلعها : (كامل)

أقريشُ لا لفم أراكِ ولا يدِ
فتواكلي غاضَ النّدَى وخلى الندِي (3)

كما رثاه الوزير المغربي (4) بقصيدة منها قوله : (كامل)

أَذْكَرْتَنَا يا ابنَ النبيِّ محمّدٍ
يوماً طوَى عنّا أبَاكَ محمّدا (5)

---

1) الشريف المرتضى - ديوان المرتضى 2/131 .
2) ديوان مهيار الديلمي 3/366 .
3) السابق 1/182 .
4) أبو القاسم الحسين بن علي المعروف بالوزير المغربي ، شاعر كاتب ذو خط بديع وكان من الدهاة العارفين قصد العراق هاربا من الحاكم بأمر الله ،توفي سنة 418 .
راجع ابن خلكان - وفيات الاعيان - 2/172 .
5) الصفدى - الوافي بالوفيات 3/379 .

لقد استمرّ الغبن على الشريف حتّى بعد موته " فلم يشتهر الاشتهار الواجب لمثله ، ولم تنشر كتبه ، حتّى ديوانه الذى حوى الأعاجيب من فنون القول "(1) بقي دون تحقيق متكامل أمين حتّى يومنا هذا .

---

1) طه عبد الرؤوف سعد - مقدمة تحقيق المجازات النبوية ص 17 .

الفصـــــل الثالـــــث

شعـــر الشريـــف الرضـــي

قبـل الشـروع فـي دراسـة شعـر الشريـف يجـدر التعـرف علـى ديوانـه مـن ناحيـة :

1) مخطوطاتـــه

2) تحقيقـــه

3) طبعاتـــه

1) مخطوطـــات الديـــوان (1) :

لديـوان الشريـف الرضـي الكثيـر مـن النسـخ الخطيـة موزعـة فـي مكتبـات العالـم شرقـا وغربـا ، اذ توجـد منـه فـي مصـر سـت نسـخ ، كمـا توجـد نسختـان فـي سوريـا ، وخمـس

---

1) اعتمدت في هذا المجال على : دائرة المعارف الاسلامية 286/13 ،بروكلمان - تاريخ الأدب العربي 63/2 ، فهرست المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد 96/3 ، مجلة المكتبة (مكتبة المثنى) العدد 86 السنة العاشرة ،عبد الفتاح محمد الحلو - مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي 131/1 وما بعدها .

نسخ في العراق ، كما توجد في السعودية نسختان ، وثلاث نسخ بالمكتبة الملكية بالرباط ، هذا عدا النسخ الكثيرة المتوفّرة في مكتبات الهند وايران ، وتركيا وألمانيا وفرنسا ، وأسبانيا ، وبريطانيا وهولندا ، وعلى الرغم من توفّر ذلك العدد الكبير من نسخ الديوان الخطية ، فانّ الديوان لم يحظ بالتحقيق الكامل حتّى يومنا هذا .

2) تحقيق الديوان

ان أول محاولة لتحقيق ديوان الشريف وشرحه كانت سنة 1949 ، وقد قام بها المرحوم محمد محي الدين عبد الحميد (1) ، الا أنها لم تكتمل ، وتوقف العمل بعد صدور الجزء الأول المتضمّن رويّ الهمزة والألف اللينة والباء .

---

1) صدر الجزء الأول من شرح ديوان الشريف الرضي ، تأليف محمد محي الدين عبد الحميد سنة 1949 عن دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ،وقال عبد الفتاح الحلو في مقدمة تحقيقه لديوان الشريف ص 162 بأنّ المرحوم محي الدين عبد الحميد قد اعتمد على طبعتي بيروت والهند وان لم يشر الى هذا وقد رمز الى طبعة بيروت بالحرف " ب " والى طبعة الهند بالحرف " هـ " وربما أوهم هذا انه يرجع الى مخطوطتين ،والحقّ أنّه لم يرجع الى المخطوطات في عمله هذا .

أمّا المحاولة الثانية فهي التي قام بها عبد الفتاح محمد الحلو سنة 1977 ، وقدّم لها المحقّق بمقدمة طويلة وضافية عن حياة الشاعر ، حاول خلالها الحاقه بالمعتزلة ، وقد ناقشنا ذلك في الفصل الثاني ، ولما كان الديوان يحوى الكثير من القصائد التي تتعارض ومقولة الاعتزال التي أرادها ، فقد وجد المحقق نفسه مضطرّا لحذف تلك القصائد ، والغريب في الأمر أنّ معظم ما تعمّد حذفه هو ما ورد في رثاء آل البيت وبعض أفراد أسرته ، ومن ذلك قصيدته المشهورة في رثاء أمّه ومطلعها : (كامل)

أبكيكِ لو نقعَ الغليلُ بُكائِي
وأقولُ لو ذهبَ المقالُ بدائِي (1)

وهي من غرر الشعر العربي في رثاء النساء ، وقد أثبت الثعالبي (2) المعاصر للشريف بعض أبياتها في اليتيمة ، ولو أنّ المحقّق أورد - لاستقاط تلك القصائد - مبررات علمية مقنعة لقبلنا منه ذلك ، فهو لم يشر في هذا الصدد الا لمواضع قليلة جدا يمكن تفنيد معظمها ، وقد حصرها في التالي :

1- اعتبار قصيدة الشريف الهمزية في رثاء الامام الحسين منحولة عليه (3) مطلعها : (رمل)

---

1) الديوان 1/36.

2) يتيمة الدهر 3/145 .

3) راجع الحلو - مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي 1/170 وما بعدها .

كَرْبَلا لازلت كرباً وبَلا
ما لقي عندكِ آلُ المصطفى (1)

وقد عزا أسباب النحل الى :

1- تشكيك بعض النساخ في نسبتها للرضي

2- المعاني التي وردت في القصيدة لا تتناسب ومتانة قاموس الشريف

3- الليونة في بعض أبياتها لا تجعلها في مصاف قصائده الأخرى

والمرجح في اعتقادنا صحة نسبة القصيدة للشريف ونعتمد في نسبتها على الحجج التالية :

1- انّ تشكيك بعض النساخ في نسبة القصيدة لصاحبها لا يقوم على دعائم علمية ، فقد أورد المحقّق ذاته أنّه جاء في حاشية النسخة التي رمز اليها بـ (ي) في تحقيقه ، بأنّ أحد القائلين بالتشكيك في نسبتها هو من الزيدية (2) ، والواضح أنّ هناك من ينسب الشريفين الرضي والمرتضى الى المذهب الزيدي (3) ، وانّ ما ورد من ذكر الائمة الاثنى عشر في القصيدة يخالف عقيدة الزيدية ممّا يجعل ذلك الناسخ الزيدي يقول بالشك في القصيدة لعدم ملائمتها وزيدية الشريف .

---

1) الديوان 1/44.
2) راجع - الحلو - مقدمة تحقيق ديوان الشريف الرضي ص 164
3) راجع الحلي - حياة الشريف الرضي ص 58.

2- أمّا بخصوص المعاني الواردة في القصيدة ،فانها مناسبة تماما للمجالس الحسينية التي يعقدها الشيعة في العشرة الأولى من شهر محرم من كل عام تجديدًا لذكرى مقتل الامام الحسين ، فقد أصبحت عادتهم - منذ أن أتيحت لهم فرصة عقد مثل تلك المجالس - أن يلطموا ويبكوا بحرارة على ما أصاب الحسين وآله في ذلك اليوم المشهود ، وهذا بطبيعة الحال أفسح المجال لشعراء الشيعة - على مدى الدهور - للتعبير عن اساهم وحزنهم في وصف ذلك المصاب بأساليب ملؤها اللوعة والأسى ، وهدفهم من ذلك تصوير المصاب بكلّ أبعاده المأساوية لاثارة السخط والنقمة على كل من غصب آل البيت حقهم وحال بينهم وبين الوصول الى ما شرّعه الله سبحانه وتعالى لهم ، ومثل تلك القصائد الحزينة تحتاج الى لغة سهلة وعبارات رقيقة تستقر بيسر في أعماق الانسان العادي ، لذا فليس من المستبعد أن يشارك الرضي - وهو الشيعي الامامي - في نظم بعض المقطوعات والقصائد المناسبة لمثل تلك المجالس الحسينية ، وأظن القصيدة واحدة من تلك القصائد التي لم يثبتها الشاعر في ديوانه ، لذا أضافها أولئك الذين أكملوا الديوان بعد وفاة الشاعر (1).

---

1) تشير نسخ الديوان التي بين أيدينا الى بعض القصائد والمقطوعات التي لم يتمكّن الشاعر من ادراجها في الديوان فأضيفت بعد وفاته وأطلق عليها عبارة الزيادات واللواحق ، كما تشير تلك النسخ الى اسقاط الشاعر بعض من شعره بقصد التنقيح ، راجع محي الدين عبد الحميد - شرح ديوان الشريف الرضي 69/1 ، 247 ،ديوان الشريف الرضي 572/2 ، 586 . ط ، الأعلمي .

3- أمّا الليونة في بعض أبيات القصيدة والتي جعلت " بعض الباحثين يظنونها منحولة على الرضي ، وليست من الانتحال في قليل ولا كثير ، اذ هي سهولة مقصودة لتخفف على ألسنة الناحة والنّاس" (1) وأظنّ أنّ من قال بنحلها بسبب بساطة معانيها قد نسي أنّ قصائد النواح تنظم لتلقى على مسامع عامة النّاس الذين لا تهمهم - في مثل تلك المواقف - سوى الكلمة التي تثير المشاعر وتستدر الدموع ، فالقصيدة في الأساس مصوغة بأسلوب عاطفي خالص، ومن طبيعة الاسلوب العاطفي السهولة والابتعاد عن الجفاف وقد تمكّن الشريف من بلوغ غايته باتباع تلك الليونة أو بالأحرى البساطة المتعمدة .

أمّا بالنسبة لقول الرضي (طويل)

عتبتُ على الدنيَا وقلتُ الى متى
أكابدُ فقراً همّهُ غير منجلِ
أكلّ شريفٍ من عليٍّ نجارهُ
حرامٌ عليهِ اليُسر غير محللِ
فقالتْ نَعَمْ يَا ابنَ الحسينِ رميتُكُمْ
بسهمِ عنادٍ منذُ فارقني علي (2)

---

1) شوقي ضيف - عصر الدول والامارات ص 374

2) الأبيات غير موجودة في نسخ الديوان المطبوعة وقد ذكرها الحلو في مقدمة تحقيقه لديوان الشريف نقلا عن بعض المخطوطات . راجع مقدمة تحقيق ديوان الشريف 1/173 .

فلقد حاول المحقّق أن يقصيها عن شعر الشريف بحجة :

1) أنها ليست من رواء شعره ولا عزة معانيه

2) انّ الشريف رغم شكواه من الزمن لم تنبعث من خلال ديوانه الشكوى من الفقر قط (1) .

والحق أننا لا ندرى ما المقصود من الرواء وعزة المعاني ؟ اذ لو تمعنّا في الأبيات لوجدنا أنها للشريف لأنّ ما ورد فيها من شكوى يتناسب تماما وشعره ، فالشريف من آل البيت الذين يرون حقهم في امامة النّاس ، والملاحظ أنّ الأبيات تمثّل بصدق موقف الامام علي من الدنيا المتمثّل في أقواله الكثيرة ومنها " يا دنيا اليك عني ، أَبِيٌّ تَعَرضتِ ، أم اليّ تشوقت ، لا حان حينك ، هيهات غُرّيٌ غيرى لا حاجة لي فيك ، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها " (2) فالبيت الثالث كما هو ملاحظ يعني بكل وضوح ما قصده الامام وما رمى اليه .

فالأبيات الثلاثة بما حوته من صدق العاطفة ، وعمق المعنى تمثّل مأساة آل البيت فمن يتمعّن في معانيها ويقارنها بشعر الشريف يصل الى نتيجة مفادها أنّ الأبيات ليست غريبة عن شعر الشريف : فالفقر الذى يعنيه الشريف ليس الفقر المادي ، وانما هو الفقر المعنوي

---

1) السابق ص 173 .

2) نهج البلاغة 16/4 بشرح محمد عبده .

المتمثّل في هضم الحكّام والخلفاء لحقهم . ثم انّ القول بأنّ الشريف لم يشكّ العُدم في ديوانه يدحضه قوله في الديوان (رمل)

آه منْ دائين عدمٌ ومشيبْ
ربّ سقمٍ لا يُداوى بطبيبْ (1)

وعلى كلّ فإنّ ما نسبه المحقّق من شعر ضحول على الشريف لا يتعدّى العائة بيت ممّا يتنافى وما حصل في الديوان بعد تحقيقه من نقص مريع (2).

تلك هي المحاولة الثانية لتحقيق الديوان والتي لم تكتمل بعد (3).

---

1) الديوان 205/1.

2) من التشويه الذى أصاب الديوان حذف المحقّق ما يقارب من 431 بيتا من روي الهمزة ، وأكثر من ألف بيت من روي الباء ، والغاء روي كل من التاء والثاء ، والاقتصار على ذكر قصيدتين ونتفه مكونة من ثلاثة أبيات في روي الحاء ، وتناسي ما ورد من شعر على روي الخاء ، والغاء أكثر من ألف بيت من روي الدال دون أن يذكر أيّ مبرر لهذا الحذف ، أمّا من ناحية التنسيق فلم يضف أيّ جديد فقد سار على نسق النظام الوارد في تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد وما ورد في نسخ الديوان المطبوعة وغير المحققة . راجع جدولة الديوان الملحقة بهذا البحث.

3) ختم الجزء الأول بروي الدال قائلا "آخر الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله : بقية باب المديح قافية الراء" السابق ص 357.

3) طبعـــات الديـــوان

لديـوان الشريـف الرضـي خمـس طبعـات غيـر محققـة :

ـ الأولـى ـ طبعـة بمبـاى (سنـة 1306 هـ) وتقـع فـي مجلّـد واحـد عـدد صفحاتـه 549 صفحـة مـن الحجـم العـادى تحتـوى كـل صفحـة علـى 30 سطـرا .

ـ الثانيـة ـ طبعـة بيـروت (سنـة 1307) وتقـع فـي مجلديـن عـدد صفحاتهـا 986 صفحـة مـن الحجـم العـادى مجمـوع أبياتهـا : 16 169 بيتـا .

ـ الثالثـة ـ طبعـة دار البيـان ـ بغـداد ـ بـدون تاريـخ ـ نسخـة طبـق الأصـل عـن طبعـة بيـروت ، وتمتـاز بمقدمة ضافيـة عـن حيـاة الشريـف منقولـة عـن مقدمـة تحقيـق حقائـق التأويـل وهـي مـن تأليـف عبـد الحسيـن الحلـي .

ـ الرابعـة ـ طبعـة مؤسسـة الأعلمـي ـ بيـروت ـ وتقـع أيضـا فـي مجلديـن وهـي نسخـة مصـورة عـن طبعـة بيـروت أيضـا .

ـ الخامسـة ـ طبعـة دار صـادر وتقـع فـي مجلديـن عـدد صفحات الأول 625 صفحـة أمّـا الثانـي فعـدد صفحاتـه 599 صفحـة ، وتمتـاز عـن سابقاتهـا بعنوانيـن للقصائـد مجتـزأة مـن القصائـد ، وفهـارس للـروي مرتبـة حسـب أحـرف الهجـاء ، أمّـا تنسيـق القصائـد بيـن دفتـي الديـوان ، فـلا فـرق فيمـا بيـن هـذه النسخـة ومثيلاتهـا مـن النسـخ الأخـرى سـوى فـي ترتيـب بعـض الأبيـات ، وعـدد أبياتهـا 16 170 بيتـا أى أنهـا تزيـد علـى الطبعـات الأخـرى ببيـت واحـد .

الاختلاف بين الطبعات الخمس :

لا توجد أيّة اختلافات بين طبعة بيروت وبين طبعة دار البيان وبين طبعة الأعلمي ، لا في عدد الصفحات ، ولا في محتوى كل صفحة لا من حيث عدد الأبيات ولا من حيث شرح المفردات .

والاختلاف بين الطبعات الثلاث السابقة وبين طبعة دار صادر ، يكمن في احتواء طبعة دار صادر على فهارس للأشعار وزيادة في عدد الصفحات بالاضافة الى اختلاف طفيف لا يكاد يلمح في تقديم بعض المقطوعات والأبيات وتأخير البعض الآخر (1) .

أمّا طبعة بعباى فتختلف اختلافا كبيرا عما عداها من طبعات ، لما تحويه من عيوب تحول دون الاستفادة منها فبالاضافة الى ما فيها من تحريف وأخطاء يصعب حصرها فانّ النقص يعتورها بسبب سقوط قصائد كاملة منها اضافة الى نسيان الكثير من المقاطع في قصائد أخرى ، فهي قليلة الفائدة (2) .

---

1) حتى تتمكن من ادراك تلك الاختلافات الطفيفة راجع جدولة الديوان الملحقة بهذه الدراسة .

2) لم أتمكّن الا من تصفّح هذه النسخة عند أحد الخواص بالبحرين فهو لم يشأ أن يعيرني اياها بسبب قدمها وتمزق صفحاتها ، كما لم أتمكّن من العثور على نسخة منها في تونس ، وعلى كل فهي عديمة الفائدة من الناحية العلمية وقد أشار الى ما اعتورها من عيوب وبالتفصيل كل من محمد جميل شلش في كتابه " الحماسة في شعر الشريف الرضي " ص 110 ، والحلو في مقدمته لتحقيق ديوان الشريف ص 160 .

تنسيـــــق الديـــــوان :

من تصفّح جميع نسخ الديوان المحققة وغير المحققة نجد أنها مرتبة على نسقين متداخلين :

1- تنسيق القصائد حسب الموضوعات ، وهو نسق صبّت فيه قصائد الديوان حتّى نهاية روي اللام فقط .

2- أمّا التنسيق الثاني فيتمثّل في ترتيب القصائد حسب الروي ابتداء بالهمزة وانتهاء بالياء .

فترتيب الديوان بجزئيه الأول والثاني وحتّى نهاية روي اللام هو كالتالي :

روي الهمزة : باب المديح ، باب الفخر ، باب الرثاء ، باب الغزل والنسيب وشكوى الزمان ، باب العلاقات الاجتماعية ، الزيادات في روى الهمزة ، وعادة ما تكون الزيادات مكونة من أبيات ومقطوعات في موضوعات شتّى .

ويلاحظ داخل هذا التنسيق المزدوج تنسيق ثالث يختصّ ببابي المدح والرثاء ، فالقصائد مرتبة في البابين ترتيبا تدريجيّا حسب المنزلة والمكانة . فالمدح على سبيل المثال يبدأ في الديوان بالخلفاء ثم بملوك بني بويه ثم بمدح الأمراء والوزراء والقادة ، ويلي ذلك مدائحه في أبيه فأفراد أسرته ويختم الباب بمدح الأصدقاء من كتّاب وعلماء وغيرهم .

ونستخلص من ذلك التنظيم المتقن ، ومن مقدمات الكثير من القصائد المتضمنة تاريخ كل قصيدة ومناسبتها ،

انّ عملية التنسيق الدقيقة تلك كانت من عمل الشريف الرضي نفسه ، ويؤيّد هذا الرأي شدة عناية الشريف بشعره ، واهداء نسخ من ديوانه الى بعض الوزراء والأدباء المعجبين بشعره (1) ويعضد ذلك أيضا قول أخيه المرتضى " لما تصفحت شعره - رضي الله عنه - لاخراج ما يتعلّق بالطيف في هذا الوقت وهو سنة نيف وعشرين وأربع مائة ، وجدت هذه الأبيات البائية ملحقة بخطّه - رحمه الله - في الجزء الثاني من شعره في حاشية ، فنقلتها كما وجب ، لأنها بخطّه الذى لا أشكّ فيه " (2) ممّا يؤكّد أنّ شعر الشريف الرضي كان مجموعا وموزعا على أجزاء وبخط صاحبه في العام الذى ذكره المرتضى ، أمّا السبب في عدم اكتمال ذلك التنسيق فناتج حسب اعتقادى الى وفاة الشاعر قبل أن يتسنّى له اتمام ذلك ، وقد قام ابنه عدنان (3) من بعده باضافة ما لم يتمكّن هو من اضافته ،كما قام أكثر من عالم وأديب - من بعد ابنه - باتمام جمع المتفرق من شتات شعره واضافته للديوان ، الاّ أنّ الجميع لم

---

1) لادراك مدى اهتمام الرضي بشعره ، ومتابعة المهتمين به استنساخه لمن يطلبه راجع الديوان 1/285، 660، 2/212.

2) الشريف المرتضى - طيف الخيال ص 62.

3) ابن عتبة - عمدة الطالب ص 211.

ينتبهوا لذلك التنسيق ، مما جعل القصائد التي وردت في الديوان بعد روي اللام تختلف تمام الاختلاف في تنسيقها عمّا سبق من شعر ، ولو أنّ جامعي الديوان هم الذين قاموا بذلك العمل ، لجاء الترتيب فيه على نسق واحد من بدايته حتى نهايته ، ولأدرجوا الزيادات داخل الديوان بحسب موضوعاتها ، " وقد عني بجمع ديوان الشريف الرضي .... جماعة ، وأجود ما جمع الذي جمعه أبو الحكيم الخبرى " (1) .

التطور في تجربة الرضي الشعرية :

اذا ما أردنا الدخول الى دراسة تطور تجربة الشريف الشعرية فلابدّ من تأمّل في قول الثعالبي بأنّه قد " ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل" (2) .

---

1) ابن خلكان - وفيات الاعيان 4/416 وأبو الحكيم الخبرى نسبة الى خبر قرية من قرى شيراز وهو عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله المعلم ، كان يعرف العربية ، ويكتب الخط الحسن ويضبط الصحيح ، وشرح الحماسة وعدة دواوين ... أدركته منيته وهو يكتب في مصحف سنة 476 - طبقات الشافعية الكبرى 5/62 .

2) الثعالبي - يتيمة الدهر 3/131 وقد نقل عبارته تلك بالزيادة أو النقصان كل من ترجم للشريف من بعده .

أى أنّ شاعريته قد ابتدأت بالتدفق في فترة مبكرة جدا بالنسبة لأي انسان موهوب ، اذ قد تكون الموهبة كامنة في النفس ، ولكنها وحدها لا تكوّن الفنّان ، فلابدّ حينئذ من ثقافة موسوعية متعددة الجوانب لتؤازر الموهبة وتمكّن لها ، ولو رجعنا لحياة الشريف الرضي الثقافية لوجدنا بأنّ حدة ذكائه قد مكنته من دراسة النحو والجلوس في حلقات أبي سعيد السيرافي وهو ابن عشر سنين (1) ، ولا يتأتّى ذلك الاّ لمن لديه المام غير قليل بالأدب ، لذا فإننا لا نجانب الصواب اذا قلنا بأنّ الشريف قد استطاع أن يصقل موهبته الشعرية بثقافة ، مصدرها الدراسة والتحصيل ومجالسة العلماء والأخذ من المجالس الحسينية الى غير ذلك من مصادر يمكن لأيّ انسان في مقامه أن ينهل منها .

ممّا سبق نلاحظ أنّ معنى الثقافة يكمن في محصلة الفرد من القراءة والاطلاع وهو مفهوم ضيق لأنّ الثقافة بمعناها العام تشمل بالاضافة الى الاطلاع الواسع ، جميع الأمور الحياتية المتعلقة بالفرد أثناء تعامله مع المحيط الذي يعيش فيه ، فكلّ رؤية جديدة مهما كانت ضئيلة تثري محصّلة الفنّان الثقافية ،فقصر العمل الفنّي على الموهبة والثقافة بمعناها الضيّق الذي نتصوره ، لا يمكن أن يمنح للأدب الحياة والخلود ، فالشاعر الحق هو من يتعدى بمحصلته الثقافية مرحلة القراءة

---

1) راجع مصادر ثقافة الشريف بالفصل الثاني .

والاطلاع في الكتب الى مرحلة الاحتكاك المباشر بالحياة ليتعلّم الكثير ، والشريف الرضي في سنّه المبكرة تلك لم يكن حسب تصوّرنا قد استطاع أن يلمّ بتلك الثقافة حسب مفهومها الشمولي الواسع الذي نقصده ، فمهما كانت سعة اطلاعه فتجاربه مازالت محدودة ، وقد تكون مأساة آل البيت كامنة في قرارة نفسه الاّ أنها لم تستقر ولم تنضج بعد ، فهي مازالت محتاجة الى البلورة والتجميع والاثارة عن طريق الاحتكاك المباشر بالمجتمع ، لذا فقد تميزت بداياته الشعرية بالفخر الذاتي المحض الممزوج بأحلام الطفولة لأنّ نفسه مازالت في هدنة مع محيطه فهو لم يصطدم بالواقع بعد - لنقرأ قوله (بسيط)

المجدُ يعلمُ أنّ المجدَ من أربي
ولو تعاديتُ في غيٍّ وفي لعِبِ (1)

فتجربة الشاعر في هذه القصيدة مازالت معتمدة على ثقافته المتولّدة عن القراءة والاطلاع ومحفوظه الشعري فهو لم يحتك بالواقع فالعبارات قويّة متينة البناء ولكن ينقصها النبض المتولّد عن المعاناة ، لذا فإنّ الشاعر قد سكت طويلا بعد هذه القصيدة ، وهذا لا يعني أنّ جذوة الشعر قد انطفأت في نفسه ،بل كانت موجودة في حالة هدوء تنتظر من يضرمها ، اذ تشير مقدمة المقطوعة السابقة الى أنّه قد قالها وهو ابن

---

1) الديوان 1/112 .

عشر سنين ، وقد حاولنا العثور على مقطوعة أخرى ممّا نظمه الشاعر في هذه السن المبكرة ، فلم نعثر على شيء من ذلك . فمن المحتمل أن يكون الشاعر قد تغاضى عن إدراج تلك التجارب الأولية في ديوانه لاحساسه بضعفها ،فالشاعر بعد أن جاوز الثالثة عشرة من عمره يعود ليفاجئنا بمقطوعة مختلفة أبياتها بما يمكن أن نطلق عليه الرمز بمفهوم النقد الحديث ، يبشّر فيها أباه بوفاة عضد الدولة (خفيف)

أبلغَا عنّيَ الحسينَ ألوكًا
ان ذا الطود بعدَ عهدِكَ سَاخا (1)

فبعد أن سكت عن الشدو مرغمًا طيلة سجن أبيه فإنّ هذا السكوت قد منح تجربته الشعرية عمقًا ، فخلال فترة الاختمار تلك ، فتح الرضي عينيه على واقع الحياة وخبر الأيام فكسب الكثير من التجارب التي عرّفته بطبائع قطاع كبير من أفراد مجتمعه ، فالمقطوعة الخائية ، هي البداية لشعر الشريف الصادر عن معاناة كابدها كما نعتقد .

فاذا صحّ افتراضنا بأنّ المقطوعة الخائية هي أوّل وآخر مقطوعة نظمها الشاعر في عهد عضد الدولة الذي استمرّ حكمه للعراق زهاء الخمس سنوات كان الشريف خلالها صامتا ، فانّ نظمه للشعر بعد تلك الفترة

---

1) الديوان 1/ 267 .

سيكون متولّدا عن معاناة عاشها الشاعر في سن مبكرة، ممّا عكس هذا الألم وتلك المعاناة على شعره الممثّل لجميع أدوار حياته .

لذا فلا غرابة من أن يجسد ذلك الشعر مآسي الشريف والامه تحت طائلة ازدواجية الحكم المتمثلة في الخليفة العباسي من ناحية ، وملوك بني بويه وأتباعهم من ناحية أخرى ، ممّا جعله موزعا بين ارضاء هؤلاء ومحاولة التقرب الى أولئك ، اتقاء للشر في كلتا الحالتين فقصائده التي نظمها بعد الثالثة عشرة والمتعددة المضامين ، تدلّ على تجربة زاخرة بفيض من العواطف الانسانية ، حاول الرضي من خلالها أن يعبّر عن نفسيّة انسان القرن الرابع الهجرى المثقّف ، الذي يعيش في مجتمع لا يقيم وزنا الا للأمور المادية .

انّ مآسي آل البيت التي رضعها الشاعر ، والحيف الذي وقع على أبيه دونما جريرة ، وما صادفه في حياته العاطفية والسياسية من احباط ، وما شاهده من تمزق في مجتمعه ، ومن نكبات تعرض لها الكثير من رجال عصره ، كل ذلك نجد صداه فيما نظمه من شعر، فاستطاع أن يصور المجتمع البغدادى على حقيقته ،دون طلاء أو تزويق ، ولكن هل كان ذلك الشعر متسقا مع تجربة الشاعر بحيث لا نشعر فيها بأي تفاوت من الناحية الفنية خلال مراحل حياته المختلفة ؟

بطبيعة الحال فانّ الاجابة تكون بالنفي ، اذ ليس من المعقول أن تستمرّ تجربة الفنّان على وتيرة واحدة دونما تطور طيلة حياته ، لأنّ ذلك الاستمرار يعني

الجحود ، وعلى هذا فالقصيدة عند الشريف في تطور مستمرّ ، وحتّى نتمكّن من التحقّق من ذلك التطوّر وجدنا لزاما علينا أن ندرس نماذج من شعره متفقة في الموضوع مختلفة في تواريخ النظم ، على أن يمثّل ذلك الاختلاف مراحل حياة الشاعر متدرجة وقد اخترنا تلك النماذج من باب الفخر لثرائه بالنصوص من حيث تطور تجربة الشاعر ، ثم لأنّه الباب الذي دخل منه الشريف الى الشعر منذ البدايات الأولى ، ولقد اخترنا لذلك ثلاثة نماذج تمثّل التطوّر الذى طرأ على شعره أثناء مراحل حياته :

النموذج الأول :

قال الشريف وهو ابن عشر سنين مفتخرا (بسيط)

المجدُ يَعْلَمُ أنّ المجدَ من أربي
ولو تماديتُ في غيٍّ وفي لَعِبِ
إنّي لَمِنْ معشرٍ إنْ جُمّعوا لعُلًى
تفرقوا عن نبيٍّ أو وصيّ نَبِي
إذا هممتُ فتشْ عن شَبا هِمَمي
تجدهُ في مُهجاتِ الأنجمِ الشُّهُبِ
وان عزمتُ فعزْمي يستحيلُ قذىً
تُدمي مسالكُهُ في أعيُنِ النّوبِ (1)

ينبئنا الشاعر في سنّ مبكرة بما يعتمل في نفسه من توق الى العلياء ومن شغف بالسير في مراقي المجد ، فيطل علينا في أبياته باضفاء حيوية على المجد

---

1) الديوان 112/1 والشبا بفتح الشين - جمع شباة ، وهي حدّ كلّ شيء .

حيـن يجعلـه ذا شعـور وعلـم بمـا تحملـه نفسـه الطموحـة ، ويعـزز ذلـك التـوق تصميـم الشاعـر وعزمـه الـذي يكمـن فـي الكنايـة التـي أوردهـا فـي بيتـه الرابـع ، فاصـراره علـى بلـوغ الغايـات وعزمـه الصـادق يتحـول الـى قـذى يدمـي مسالـك عيـون الدهـر ، اذا مـا حـال بينـه وبيـن تحقيـق طموحاتـه ، الاّ أنّ غلبـة الأنـا باستخـدام ضميـر المتكلّـم المفـرد جعلـت المقطوعـة تجنـح الـى التقريريـة التـي يتميّـز بهـا الأسلـوب الخبـري ، اذ أنّ الأبيـات لا تتعـدّى فـي معانيهـا حمـاس الشاعـر وامتـلاء نفسـه بالفخـر بنسبـه العريق، وتوقـه الـى المجـد وأنّ همّتـه عاليـة تتعـدّى فـي سموهـا كبـد النجـوم . أمّـا مـن حيـث الأخيلـة والصـور فهـي قليلـة الـورد ، تنبئنـا عـن درايـة الشاعـر وتمكنـه من أساليـب البلاغـة منهـا قولـه (المجـد يعلـم) فقـد بـثّ فـي المجـد وهـو الأمـر المعنـوى حياة كمـا جعـل المعنـوى حسيـا فـي قولـه (عزمـي يستحيـل قـذى) ، وقـد ورد البديـع المعنـوى فـي موضـع واحـد تمثلـه المطابقـة بالتضـاد فـي قولـه (ان أجمعـوا لعلـى تفرقـوا عـن نبـي أو وصـي نبـي) وقـد مكّنـت هـذه المطابقـة للشاعـر مـن السمـو بنسبـه ، فجمـال تلـك المطابقـة يكمـن فيمـا تضمنتـه مـن معنـى محاولـة الاستفـادة مـن قيمـة المتناقضيـن ، فالمتضـادان فـي البيـت يهدفـان لابـراز سمـو نسـب الشاعـر فليـس غـرض الشاعـر مـن ابرازهمـا اظهـار حسـن الشـيء بمقابلتـه بضـدّه كمـا هـو معهـود فـي الشعـر العربـي ، ومـن مميـزات المقطوعـة لغتهـا المتينـة التـي قـد تحملنـا علـى الشـكّ فـي كونـه طفـلا ولكـن رأينـا فـي دراستنـا لأفقـه الثقافـي يزيـل مـا فـي نفوسنـا مـن شـكّ .

فالأبيات تدلّ على ما تميّز به الشاعر في طفولته من موهبة فذّة وحماس متدفّق يدعّمه قاموس لغوي ثر بعيد عن التعقيد ، وصور بيانية رائقة ولكن ينقصها العمق الايحائي المتولّد عن التجربة التي لم يعانيها الشاعر بعد ، كما وردت الصنعة البديعيّة منسجمة مع معاني الفخر التي قصدها الشاعر ، وقد قوّى كلّ ذلك استنجاد الشاعر بموسيقى هادئة تعتمد على بحر واسع ممّا يدلّ على تمكنه من موسيقى الشعر في سن مبكرة.

النمـــوذج الثانـــي :
==========

قال الشريف سنة 379 أي بعد بلوغه العشرين (وافر)

أَرى نفسِي تتوقُ الى النّجومِ
سَأحملُهَا على الخَطرِ العَظيمِ
ولي أملٌ كصدرِ الرّمحِ ماضٍ
سوى أنّ الليالي مِنْ خُصُومي
وَمَا أوفتْ على العشرينَ سِنّي
وقدْ أوفى عَلى الدّنيا غريمي
ويعرِفُني العدُوُّ بوَقْعِ رُمْحي
إذا ما الوَجْهُ مُوّه بالسُّهُومِ
وما لي هِمّةٌ إلاّ المَعالي
وذبُّ الضّيمِ عَنْ نَسَبٍ صَميمِ (1)

---

1) الديـــوان 2/408 .

في هذه المرحلة يسبر الشاعر أغوار نفسه التواقة للعلياء فيعزم على حملها على السير في طريق المجد المحفوفة بالمصاعب ، فأمله قويّ وعزيمته صادقة الاّ أنّ ظروف الحياة له بالمرصاد فهاهو محاط بالأعداء والغرماء ولما يبلغ العشرين بعد ، ولكن مضاء عزمه وعزّة نفسه تحتمان عليه الذود عن عرضه والترفع به عما يدنسه ، وهذا ما جعله غرضا لأعدائه الذين يعرفون تغانيه في سبيل كرامته ، والملاحظ أنّ روح الحماس مازالت آخذة على الشريف تلابيب نفسه فالعلا والمعالي همته الوحيدة ولغته لا تكاد تختلف عن لغة المقطوعة السابقة من حيث معاني السمو والرفعة ، الاّ أنّ استخدام المفردة طرأ عليه بعض التطور بسبب تطور شخصية الشاعر واتساع محيطه الثقافي فلم يعد طريق المجد سهلا كما في قوله السابق :

المجد يعلم أنّ المجد من أربي
وان تعاديت في غيّ وفي لعب

بل أصبح أمنية عاشق رغم ادراكه لما يكتنف طريقه من مشاق وصعاب وفي قوله (سأحملها على الخطر العظيم) تصميم على ادراك الغايات مهما كانت التضحيات ، فأصبحت رؤيته أكثر واقعية لادراكه بأنّ تحقيق الآمال وبلوغ الغايات النبيلة ليس أمرا سهلا فعقبات الحياة تحول بينه وبين طموحاته وفي قوله (سوى أنّ الليالي من خصومي) ما يشي بمعاناته ، فلم يقل أنّ الزمن خصمه أو الدهر عدوه بل قال الليالي لما في ظلام الليل من مجهول ورهبة تحتم عليه شقّ طريقه في مغامرة مجهولة وهو محاط

بالأعداء والغرماء ، فالصورة كما نلحظ أصبحت أكثر عمقا من ذى قبل ، فالتوق الى النجوم كناية عن عشقه للعلياء ، والتشبيه في قوله كصدر الرمح دلالة على قوة العزيمة ، ومقابلة السلب في قوله (وما أوفت ، وقد أوفت) تحمل معاني النضج واكتساب الخبرة وهو في عنفوان الشباب ، أمّا أسلوب الشاعر في توصيل المعاني فلم يتغيّر عن ذي قبل ، فبرغم صوره البيانية الايحائية وبرغم تمكنه من استخدام الصنعة المعنوية باحكام ودونما اسراف فانّه مازال يدور في فلك التقريرية بالاتكاء على الأسلوب الخبرى ، وقد جنحت الموسيقى الى شيء من الهدوء والاتزان لأنّ الحياة أخذت تتكشّف أمامه ممّا جعل تجربته تتغلف بمسحة من الحزن فلم تعد موسيقاه صاخبة وان لم يفتر الحماس فيها .

النموذج الثالث :
==========

من فخريات الرضي سنة 388 قوله (كامل)

قومي الأولىٰ لحبوا الى نيل العلىٰ
وضحَ الطريق لمنجدٍ أو غائرِ
أخذوا المعالي عن متونِ قواضبٍ
تردُ الغِوار وعن ظهورِ ضوامرِ
وعَنِ الرّماحِ يشطّ في أطرافِها
بالطّعنِ كلّ مفامرٍ ومغاورِ
قومٌ اذا اشتجرتْ عليهم خطّةٌ
زَعَموا النوائبَ بالقنا المتشاجرِ
واذا التقتْ أيديهُمُ في أزمةٍ
ساجلن أذنبَةَ السّحاب الماطرِ (1)

---

1) الديوان 1/481 ، 482 .

في هذه المرحلة من حياة الشاعر ومن خلال النص السابق أستجد أمران :

1- خفوت حدة الأنا لدى الشاعر ، فقد كانت قويّة واضحة في شعر المرحلتين السابقتين ، وبانخفاض حدتها خفّت معها فورة الشاعر وأخذت ثورته تجنح الى الرزانة ممّا يعني اكتمال نضوج التجربة وبلوغها مرحلة ذوبان الأنا في كيان الجماعة .

فالشاعر وان كان يشعر بتفرده وغربته في مجتمعه الاّ أنّ واقعه يحتّم عليه الاعتراف بأنّه فرد من أفراد مجتمعه ، ولكن نظرته لذلك المجتمع ظلّت ضيقة ، مثلها مثل نظرة الشاعر الجاهلي حين يفخر بقبيلته ، اذ مازال الشاعر ينظر الى المجتمع من خلال منظاره الأرستقراطي المميّز لآله وأسرته والقليل من فخره ما يتعدّى ذلك الى الفخر بمحيطه العربي بالمعنى الواسع وحتّى وان فخر بالقبائل العربية ، فانّه يقصر ذلك الفخر على القبائل التي ينتمي اليها كقوله (متقارب)

بني عمّنَا أين قحطانكُمْ
إذا عبّ بحرُ نزارٍ ومدّا
مضَنَاكُمُ إذْ عَدَدْنَا قريشًا
ونلهُمكمْ إذْ بلغنَا مَعَدّا
بنا أنقذَ اللّهُ هذا الغَرِيبَ
حتّى استقامَ الى الدّين قَصْدَا (1)

---

(1) الديوان 1/345 .

فالفخر هنا مقصور على القبائل العربية ذات النسب المتصل مباشرة بآل بيت الرسول (ص) ، وسلوكه مثل هذا الطريق في فخره يجنّبه سخط الغرس والأتراك فليس في الافتخار بالنبي وآله ما ينقص من قيمتهم أو ينال من مكانتهم ، كما أنّ مثل ذلك الفخر سيجنبه سخط أبناء عمومته من بني العبّاس أيضا ، فافتخاره بالهاشميين وبنسبهم انما هو افتخار بهم لأنهم فرع أصيل في الشجرة الهاشمية .

2- ازدادت تجربة الشاعر عمقا وثراء بسبب اتساع محيطه الثقافي والتنوع في علاقاته الاجتماعية ، فأثرى كلّ ذلك قاموسه اللغوي وعمّق معانيه ، فأصبحت عباراته ذات أبعاد مختلفة وأوجه متعددة ، ممّا يحتّم تأويلها بحسب الاختلاف في وجهات النظر ، فاستخدامه للعبارة لم يعد بسيطا ، لأنها تحولت الى مرآة عاكسة لاتجاهات متعددة ونعزو ذلك لمحاولته في تطويع العبارة لتوائم طموحاته وليفرغ فيها طاقاته النفسية المحتبسة ، مع تجنبه ما يمكن أن تسببه من مردود سلبي يؤثّر على علاقاته الاجتماعية ، وتأويل العبارة ، مع تقليبها على عدة وجوه من صلب عقيدة الشريف ، أليس شيعيا اماميا ، والامامية يقولون بالتقية وتأويل آيات القرآن الكريم .

انّ الاتساع والشمولية في رؤية الشاعر ، انعكس على صوره الفنية فازدادت تعقيدا بتركيبها من عناصر متعددة جُلبها في مجال الفخر فللسيوف متون ، والخطط تختلف والرماح تتشاجر ، وهو مزج يدلل على ما يفتعل في نفس الشاعر من حماس وطموح لا يمكن للعبارة بمعانيها

الحقيقية التعبير عنهما ، فاللجوء الى الصورة هو الوسيلة المثلى التي استخدمها الشاعر للتعبير عمّا تعجز عنه المفردة بمعناها القاموسي للافصاح عمّا في نفسه من تزاحم انفعالي .

وتوظيف المحسن البديعي في القصيدة لم يعد الهدف الأساسي منه الغاية الجمالية أو الاغراب في المعاني ، فالمطابقة في البيت الأول بين منجد وبين غائر لها من الدلالات الايحائية ما يعني سعة انتشار تأثير قومه في غيرهم من النّاس .

لقد أخذت تجربة الشاعر تتجه نحو الاستقرار والشمولية بعد أن بلغت مرحلة النضوج ومالت نفسه الى الاندماج في الجماعة بعد أن كان الشعور بالتفرد هو المهيمن ابّان المرحلتين الأولى والثانية ، ممّا أدّى بشاعريته الى الاستمرار في التألّق والسمو ، ففي سن الأربعين ازداد بناء القصيدة الفنّي متانة ، وطال النفس الشعري ، وأصبحت صوره أدوات تعبير صادقة عمّا يجول في نفسه ،الاّ أنّ نظرته للحياة بدأت في التحول ، فخفت الفخر في شعره ، ومال الى الرثاء ، حتّى اننا لم نجد له في الفخر خلال هذه الفترة سوى قصيدة واحدة نظمها حين وقف على منازله سنة 404 هـ ، فذبول الآمال والشعور بقرب النهاية بدا يداخل نفسه ، حتّى انّه امتنع عن المدح بعد وفاة بهاء الدولة ، الا أنّ أبا شجاع خلف بهاء الدولة الحّ عليه في ذلك ، فعاود مدحه بقصيدة واحدة هي آخر ما قاله في مدح الملوك (1) .

---

1) راجع الديوان 9/2 .

أمّا آخر ما أرّخ من نظم الشاعر في ديوانه فهو المقطوعة التي رثى بها صديقه أحمد ابن علي البتي سنة 405 هـ (1) ، فبلوغ الرضي سن الأربعين خفت الحماس في شعره ممّا جعله يقول في قصيدة مدح له سنة 398 (وافر)

فيا حادى السنين قف المطايا
فهن على طريق الأربعينا (2)

فاذا كنّا قد وقفنا على تطور تجربة الشاعر ، فلابدّ من استنطاق شعره لمعرفة مدى تأثّره بمن سبقه من الشعراء.

تأثّر الرضي بمن سبقه من الشعراء :

لابدّ للشاعر في تجاربه الأولى من المرور بمرحلة التقليد والتأثّر ، وهذا لا يعني تكرار لما قيل بصيغ مختلفة ، ولكن قد يرد على خاطره ومن غير قصد الكثير من المعاني التي وردت عند من سبقه من الشعراء ، فحفظه للتراث لابدّ أن يترك أثره البيّن خاصّة في التجارب الأولى ، ممّا يؤدّى الى بزوغ الكثير من التراكيب والصور التي سُبِقَ اليها ، فاذا كان الشاعر موهوبا ، فلابدّ له من التصرف في مثل تلك التراكيب ، ينيرها بقبس من روحه ، وبفيض من نفسه ، ما يحيلها الى شيء جديد

---

1) راجع الديوان 1/ 170 ، والبتي هو أبو الحسن أحمد بن علي من أحب أصدقاء الشريف كان كثير التشوق اليه ، الديوان 1/ 193 .

2) السابق 2/ 547 .

مبتكر فيتحاشى التهمة بالسرقة ، يقول الشريف في هذا الصدد " فأمّا المُحدث الذى نحل الأشعار الكثيرة وتصفح الدواوين القديمة ، وكان متّبعا لا مبتدعا ، وحاذيا لا مخترعا فلا ينبغي له أن يتعرّض لمعنى قد سبق اليه فيورده على جهته من غير زيادة عليه " (1) .

والزيادة التي يعنيها الشريف ، هي المقدرة على التصرف في المعاني بحيث تصطبغ بأسلوب الشاعر المتبع فيتحول الى مبتدع ولو بنسبة يمكنه أن يخفي خلفها بعض تأثره ، فالشريف الرضي يعترف ضمنا بأنّه قد سلك الطريق الطبيعي الذى يتحتّم على كلّ شاعر أن يسير فيه أثناء تجاربه الأولى ، فالتأثّر بالآخرين شيء لابدّ منه ، ولكن " ربّ وارد على ساقة الشعراء في الزمان ، وهو على مقدمتهم في التجويد والاحسان "(2) فالمقدرة على التصرف بما يتناسب والموقف المملى من التجربة المعاشة يحيل الاتباع الى ابداع .

والشريف الرضي لا ينفي تأثره بالكثير ممّن سبقه من الشعراء ، وفي شعره شواهد كثيرة تنبئ عن ذلك التأثّر ، الاّ أنّ الرضي لم يتخذ من شاعر معيّن مثالا يحتذى كما يتصور البعض (3) ، لأنّه كان على دراية

---

1) الشريف الرضي - رسائل الصابي والشريف الرضي ص 88

2) نفس المصدر ص 88

3) يقول شوقي ضيف في كتابه الفن ومذاهبه ص 353 عن الشريف " انّ كلّ من يقرأ ديوانه يحسّ الصلة واضحة بينه وبين المتنبّي ،فقد كان يحتذى على شعره احتذاء" وهو قول مبالغ فيه بطبيعة الحال لأنّ تأثّر الشريف بالمتنبي اقتصر على مرحلة معينة .

واسعة بالشعر العربي في جميع عصوره ، ففي كتابه " المجازات النبوية " من الدلالات التي تشير الى اهتمامه واعجابه بالشعر الجاهلي ، كما أنّ في ديوانه الاشارات الكثيرة الدالة على سعة اطلاعه على الشعر العربي . وفي جمعه لـ " اضافات شعر أبي تمام " واهتمامه بشعر معاصره (الحسن بن الحجاج) (1) ما يدلّ على اهتمامه بالشعر في جميع عصوره .

وفي مجال المعارضات ينبئنا ديوانه بما له من قدرة على الابداع ، فرسائل الصابي الشعرية وردود الشريف عليها ما يمكن اعتباره في عداد المعارضات التامة والناقصة ، ومحاولته احراز قصب السبق على ابن الرومي في قصيدته - في وصف الجارية السوداء - تعتبر من قبيل المعارضة الناقصة (2) .

---

1) من مؤلفات الشريف الرضي : الزيادات في شعر ابن الحجّاج والزيادات في شعر أبي تمام . راجع الغدير 199/4 .

2) المعارضة أن ينظم الشاعر قصيدة لشاعر آخر يتفق معه في بحرها ورويها وموضوعها ، سواء أكان الشاعران متعاصرين أم غير متعاصرين . وأى انحراف يسير أو كثير بين القصيدتين يعدّ من قبيل المعارضات الناقصة . راجع : محمود رزق - عصر السلاطين المماليك 447/8 ومحمد محمود نوفل - تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 13 .

فتجارب الرضي الأولى لم تكن وليدة الصدفة كما لم تكن مقتصرة في تأثرها على شاعر معيّن فمصادر تأثّره متعددة الجوانب :

1 ـ تأثّر الرضي بالشعر الجاهلي :

يمكن للباحث استشفاف أثر الشعراء الجاهليين في شعر الشريف الرضي من عدة مصادر :

ـ من مؤلفاته : فقد ذكر في كتابه (المجازات النبوية) حديثا شريفا يتعلّق بشاعرية امرئ القيس ، كما أظهر اعجابه الشديد ببعض المعاني الجاهلية في موضع آخر من الكتاب (1) ، بالاضافة الى استشهاداته الكثيرة بالشعر الجاهلي والاسلامي ، أثناء معالجته القضايا اللغوية في كتب التفسير والمجاز .

ـ ديوان شعره : ويمثّل أفضل المصادر التي تدلّنا على تأثّره بالشعر الجاهلي في استيحاء المعاني من زاويتين :

الأولى : افتخاره بتكافؤ شاعريته بشاعرية فحول الجاهلية كزهير بن أبي سلمى كما في قوله (بسيط)

أنا زهيرٌ فمن لي في زمانِك ذا
ببعضِ ما افترقتْ عَنْهُ يدا هَرِمِ (2)

---

1) ناقشنا تلك النقطة في الفصل الأول " الحياة الثقافية " .

2) الديوان 2/388 .

الثانيـة : استخدامـه فـي فخـره معانـي لـم يستخدمهـا الا الجاهليـون لمـا فيهـا مـن جفـاء أخلاقـي يرفضـه الاسـلام مثـال قولـه (سريـع)

دونكُـم فابتـدِروا غُمَهَـا
دُمـىً مُباحـاتٍ ومـالٌ مُبَـاحْ
فإنّنَـا فـي أرضِ أعدائنـا
لا نطـأُ المـذَراءَ الاّ سَفَّـاحْ (1)

وقولـه : (كامـل)

ولأدخلـنّ علـى النّسـاءِ خدورَهَـا
واليـومُ ليـلٌ بالعَجاجَـةِ أليـلُ (2)

فتلـك المعانـي ممـا لا يمكـن لشاعـر مسلـم أن يقولهـا ، اذ ليـس مـن طبيعـة الاسـلام ولا مـن أخلاقـه الاباحـة لفرسانـه وجنـوده التصـرف فـي أعـراض النّـاس ، وعلـى كـلّ فالشاعـر يتمثّـل هنـا معانـي الفروسيـة المنتزعـة مـن صميـم الجاهليـة فهـو فـارس كـلام ليـس غيـر .

2- تأثّـره بالشعـر الأمـوي :

تشيـر مؤلفـات الشريـف التـي بيـن أيدينـا الـى استشهاداته الكثيـرة مـن الشعـر الأمـوى (3) ، كشعـر الأخطـل ، وجريـر ،

---

1) الديـوان 1/ 254 .
2) السابـق 2/ 156 .
3) راجـع حقائـق التأويـل فـي متشابـه التنزيـل 5/ 161 ، 340 ، 298 ، 250 ، 207 ، 221 . فالصفحـات المذكـورة تشيـر الـى بعـض الشواهـد مـن شعـر الشعـراء المذكوريـن فـي المتـن حسـب ترتيـب ذكـر الأسمـاء .

وذي الرمة ، والعرجي ، وكثيّر والكميت والفرزدق ، وهذا يعني أنّه حفظ شعر ذلك العصر وتأثّر به وقد رأى نفسه جارا للفرزدق أو لجرير في قوله (مجزوء الكامل)

وقصيدةٍ عذراءَ مثـ
ـلِ تألّقِ الرّوضِ النّضيرِ
فرِحَتْ بمالِكِ رِقّهَا
فرَحَ الخميلةِ بالغديرِ
وكأنّهُ في رَصْفِهَا
جَارُ الفرزدقِ أو جريرِ (1)

والاعجاب بالشيء يؤدّي الى التأثّر به أو تقليده، وبالفعل فقد بان أثر كل من الفرزدق وجرير واضحا في تجاربه الأولى فمن أمثلة تأثّره بجرير قصيدته في مدح الطائع العباسي سنة 374 ومطلعها (وافر)

أغارُ على ثراكَ من الرّياحِ
وأسألُ عن غديرك والمَراحِ (2)

فقصيدة الرضي قد وردت على وزن قصيدة جرير في مدح عبد الملك ابن مروان ورويها (وافر)

أتصحوا أم فؤادكَ غيرُ صاحِ
عشيةَ همّ صحبُك بالرّواحِ (3)

---

1) الديوان 1/ 231 .
2) الديوان 1/ 240 .
3) محمد الصاوي - شرح ديوان جرير ص 98 .

وبغضّ النظر عن تشابه القصيدتين في الوزن والروي فإنهما متشابهتان في المناسبة وفي جلّ المعاني ومنها قول الشريف :

وسيّالُ اليدينِ من العطايَا
مهيبُ الجِدّ مأمونِ المُزَاحِ (1)

أخذه من قول جرير :

ألستمُ خيرَ من رَكِبَ المطايَا
وأندَى العالمينَ بُطونِ راحِ (2)

الاّ أنّ الشريف لم يوفّق في مدحه الطائع كتوفيق جرير في مدحه عبد الملك لأنّ الشريف قد أسبغ على ممدوحه صفات مباشرة ككرم وهيبة وشجاعة ، أمّا جرير فقد أسبغ على ممدوحه صفات مطلقة ليس لها حدود ممّا جعل لمدحه قوة واستمرارية ، وقد نجد عذرًا للشريف فهو مازال في بداية الطريق .

ويتجلّى تأثّره بالفرزدق في البدايات من فخره ،اذ نجد نفس الفرزدق وفخره المجلجل يملآن نفس الشريف حين يقول : (طويل)

لنا الدولةُ الفرّاءُ مازال عندَهَا
من الجورِ واقٍ أو من الظُلمِ منصفُ
بعيدةُ صوتٍ في المُلى غيرُ رافعٍ
بها صوته المظلوم والمتحيّف (3)

---

1) الديوان 242/1 .
2) محمد الصاوى - شرح ديوان جرير ص 98 .
3) الديوان 19/2 .

أليس مأخوذا من قول الفرزدق؟ (طويل)

لنا العزّةُ القعساءُ والمددُ الذي
عليه اذا عُدّ الحَصى يتخلّفُ
ولا عزّ الا عزّنا قاهرٌ لَهُ
ويسألنا النصفَ الذليلُ فيُنْصَفُ (1)

3 ـ تأثّره بالشعر العباسي :

للشعر العباسي ـ في أدواره المختلفة ـ أثر كبير على البدايات الأولى من تجربة الرضي ، ويمكننا تبيان ذلك الأثر من خلال أمرين :

الأول : ملاحظات الشريف النقدية ، فهي تدلّ على مدى استيعابه للشعر العباسي ، ودراسة معانيه ومقارنتها من حيث الجودة بغيرها من المعاني المقاربة لها أو المستوحاة منها .

الثاني : اشادته بفصاحة شعراء العصر العباسي تدلّ على اعجابه الشديد بهم مقارنا بين شعره وشعر البحتري وأبي نواس (وافر) .

وَصَلْتُ جواهِرَ الألفاظِ فيهِ
بأعراضِ المقاصدِ والمَعَاني
فجاءتْ غضّةً الأطرافِ بِكْرًا
تخيّرَ جيدُهَا نَظْمَ الجُمَانِ
كأنّ أبَا عُبَادَةَ شقّ فَاهَا
وقبّلَ ثَغْرَهَا الحَسَنُ بنُ هَانِي (2)

---

1) عبد الله الصاوي ـ شرح ديوان الفرزدق ص 566 .

2) الديوان 2 / 50 .

وفي ديوانه الكثير من الشواهد التي تدلّ على محاولته احراز التفوق في معاني أثّرت عن بعض الشعراء العباسيين ، كوصف الجارية السوداء لابن الرومي (1) ووصف طيف الخيال المأثور عن أخيه المرتضى (2) ، كما أشار الثعالبي الى تأثّره ببعض معاني ابن الرومي والمتنبّي بمقارنة بعض معانيه ببعض معاني كلا الشاعرين (3).

---

1) في زهر الآداب 229/1 ذكر الحصرى القيرواني بعض أبيات قصيدة ابن الرومي المشهورة في وصف الجارية السوداء ومنها (منسرح)

وصفتُ فيها الذي هويتُ على الـ
وهم ولم نَخْتَبِرْ ولم نَذُقِ

ثم عقّب عليها بقوله " وهذه أبيات من قصيدة له - أى لابن الرومي - ووصف فيها السواد واحتجّ بتفضيله على البياض حتى أغلق فيه الباب بعده ، ومنع أن يقصد فيه أحد قصده الاّ كان مقصّر السهم عن غرض الاحسان ".

وقد أسرف بعض حاضري مجلس الشريف الرضي " في استحسان ما وصف به ابن الرومي الجارية السوداء في قصيدته القافية المشهورة " فارتجل في نفس الغرض (طويل)

ولا مثلُ ليلي بالشقيقةِ والهَوَى
يَضُمُّ إلى نَحْري غَزَلاً مُنَعَّمَا

الديوان 312/2

2) حول تأثّر الرضي بأخيه المرتضى وصف الطيف ، راجع - الشريف المرتضى - طيف الخيال ص 62 .

3) راجع الثعالبي - يتيمة الدهر 133/3 ، 137 .

وقد يكون تأثّره بالمتنبّي هو الأكثر عمقا ، لاشتهار شعر المتنبّي ، وانتشاره في الآفاق ، فقد عاش الرضي موجة الخلاف الدائرة حول ذلك الشعر ، وكان على صلة مباشرة ببعض أقطاب ذلك النزاع ، فهو تلميذ اللغوى ابن جنّي أحد شرّاح ديوان المتنبّي المعجبين بشعره ، كما كان على علاقة جيّدة بعدو المتنبّي اللدود الصاحب بن عباد أضف الى ذلك اتفاق الشاعرين في الطموح ، فقد أدّى بدوره الى تأثّر الرضي بالمتنبّي ، فكان ذلك التأثّر واضحا في البدايات الأولى من شعره ، على أنّه أخذ في الانحسار تدريجيّا بيد أنّه ما فتئ يظهر بين آونة وأخرى حتّى في موضوع الرثاء الذي اختصّ به الشريف ، فمن أمثلة تأثّره بحماسة المتنبّي قوله : (طويل)

تغرّب لا مستقبحاً غيرَ قوتهِ
ولا قائلاً إلاّ لِمَا يَهَبُ المَجْدُ (1)

فانّه متأثّر بقول المتنبّي : (طويل)

تغرّب لا مستعظماً غيرَ نَفْسِهِ
ولا قابلاً إلاّ لخالقهِ حُكْمَا (2)

فقد حاول الرضي تحوير المعنى ولكن لم تؤاته شاعريته في مجاراة المتنبّي ، لأنّ تغرّب المتنبّي يرجع الى استعظام نفسه وعدم الرضوخ الاّ لحكم الله سبحانه وتعالى ، أمّا تغرّب الشريف فينتابه التناقض حين يراه هروبا من

---

1) الديوان 1/335 : وقائلا : مستكينا ، ساكتا

2) البرقوقي - شرح ديوان المتنبّي 4/233 .

الـذلّ ثـم يعـود للاستكانـة فـي سبيـل مـن يهبـه المجـد علمـا بـأنّ المجـد لا يوهـب ، ومـن تأثّـره أيضـا قولـه (كامـل)

نَثَرَتْ على بيضِ الكُماةِ دَراهِمًا
فَنُثِرْن ضربًا ، وَهْيَ لَمْ تتنثّر (1)

أخـذه مـن قـول المتنبّـي (طويـل)

نثرتَهُمُ فوقَ الأحيدَبِ كلّهُ
كما نُثِرتْ فوقَ العروسِ الدّراهمِ (2)

فلقـد كانـت أرض المعركـة - عنـد المتنبّـي - منتشيـة بفرحـة النصـر ، فهـي عـروس يتـلألأ عليهـا بريـق الدراهـم المتمثلـة فـي سيـوف قتلـى الـروم ولاماتهـم ودروعهـم ، أمّـا صـورة الرضـي فـلا تتعـدّى محاولـة تكثيـر القتلـى ممّـا يجعلهـا تتضـاءل بجانـب صـورة المتنبّـي الـذى كـان معايشا للمعركـة وذائقـا حـلاوة النصـر ، أمّـا الرضـي فلـم يكـن سـوى ناقـل للصـورة ، ممّـا يجعـل حكـم الرضـي فـي الأخـذ يعـود عليـه لأنّـه تعـرض لمعانـي المتنبّـي وأوردهـا علـى " جهتـه مـن غيـر زيـادة " (3) .

---

1) الديـوان 1/471 .
2) البرقوقـي - شـرح ديـوان المتنبّـي 4/104 .
3) الشريـف الرضـي - رسائـل الصابـي والشريـف الرضـي ص 88 .

ولكن يجب أن نلاحظ بأنّ مرحلة التأثّر تلك لم تتعد فترة التكوين المتمثلة في أشعاره التي نظمها ما بين عامي 369 ،و 379 وكانت مقصورة في الغالب على الفخر والمدح ، وأخذ ذلك التأثّر في الاختفاء في قصائده في الفترات التالية بعد نضوج شاعريته واستقلال شخصيته ، الاّ أنّ ذلك التأثّر ما برح يظهر على شكل ومضات سريعة بين آونة وأخرى . ومن أمثلته قصيدة في رثاء تقية بنت سيف الدولة سنة 399 ومطلعها : (وافر)

نغالبُ ثم تغلبُنَا الليالي
وكَمْ يَبْقَى الرّمّي على النّبالِ (1)

وهي معارضة لقصيدة المتنبّي في رثاء والدة سيف الدولة سنة 337 ومطلعها : (وافر)

نعدُّ المشرفيّةَ والعوالي
وتقتلُنَا المنونُ بلا قِتَالِ (2)

الاّ أنّ شاعرية الشريف في هذه الفترة أصبحت متألقة بحيث يمكننا من خلال المقارنة بين المرثيتين أن نعدّ مرثيّة الرضي أبعد أثرا في النفس من مرثيّة المتنبّي ، وسبب ذلك ما تحمله نفس الشريف من أسى في تلك الفترة بينما كانت نفس المتنبّي مطمئنّة راضية في كنف سيف الدولة ، كما أنّ رهافة احساس الشريف

---

1) الديوان 2 / 212 .

2) البرقوقي - شرح ديوان المتنبّي 3 / 140 .

يقابلهـا الاصـرار عنـد المتنبّـي وقـوة شكيمتـه ، وقـد أدّى ذلك الـى التبايـن فـي نظرتهمـا للحيـاة ، فعلـى سبيـل المثـال فقـد تخلّـل شعـر كـل منهمـا الكثيـر مـن الأبيـات الحكيمـة التـي توضّـح موقـف كليهمـا مـن محيطـه ونظرتـه الـى الحيـاة لأنّ الحكمـة لا تـرد اعتباطـا فـي شعـر الشاعـر ، والاّ كانـت متكلفـة لا تـؤدّى الغـرض ولا تخـدم الموضـوع ممّـا يحيلهـا الـى نـوع مـن الاقحـام المضـر ببنـاء القصيـدة ، فالعنصـر الدخيـل لا يمكـن أن يتجانـس مـع عناصـر الجسـم الأخـرى ، ولمـا كانـت الحكمـة عنصـرا أساسيـا عندهمـا ، فلابـدّ مـن دراسـة مصادرهـا عنـد الرضـي لمعرفـة مـدى اصالتهـا بمقارنتهـا بحكمـة المتنبّـي .

شعـر الحكمـة بيـن المتنبّـي وبيـن الشريـف الرضـي :

تتولّـد الحكمـة فـي الأدب ووالشعـر مـن تفاعـل العاطفـة بالعقـل ، فهـي مزيـج مـن الاستنـارة بهـدي العقـل أثنـاء تأمّـل الشاعـر فـي شـؤون الحيـاة وانصهـار فـي بوتقـة النفـس أثنـاء الصياغـة . يقـول الحاتمـي (ت 388 هـ) " ثبـت أنّ النظـر فـي النفـس مفصـح عمّـا تنـاول علمـه العقـل ، وهـو علـى ضربيـن : ضـرب منـه منثـور الألفـاظ ، مبثـوث المعانـي ، تتصـرّف النفـس فـي اجتلابـه مـن حيـث يسنـح ، وضـرب منـه منظـوم موجـز مفهـوم " (1) والـذى يعنينـا هنـا هـو الضـرب الثانـي بالنسبـة لكـل مـن المتنبّـي والشريـف ، فكلاهمـا قـد طعّـم شعـره بالحكمـة فبـرزت فـي شعرهمـا كشواهـد متألقـة علـى عبقريـة كـلّ منهمـا فـي صياغـة نظرتـه للحيـاة ، الاّ أنّ الحكمـة عنـد الشريـف قـد بقيـت فـي الظـلّ ، بينمـا

---

1) الحاتمي : الرسالة الحاتمية ص 23 .

نالت حِكَمُ المتنبّي الشهرة وسعة الانتشار ، وسبب ذلك هو اشتغال النقّاد بشعر المتنبّي في كلّ العصور بينما لم ترزق حكم الشريف الذيوع ويبقى السؤال مطروحا لماذا درسوا الحكمة عن هذا وأهملوها عن ذاك ؟

فمن خلال احصائيتين قمنا بهما في شعر كل من المتنبّي والشريف الرضي ، وجدنا أنّ أبيات الحكمة عند المتنبّي يقارب عددها 238 بيتا ،أى ما يعادل 4،36 ٪ من مجموع شعره ، أمّا عدد أبيات الحكمة عند الشريف فتقارب 318 بيتا أى ما يعادل 1،96 ٪ من مجموع شعره (راجع الجدول رقم 1) ، وبالمقارنة بين النسبتين نرى أنّ ما حواه شعر الشريف من حكمة يكاد يكون ضئيلا اذا وضع بجانب ما نظمه من شعر، فلا مجال للقول بتفوقه على غيره من الشعراء في هذا الباب ، ولكن التفاوت في نسبة حكمة الشاعرين ، لا يعني القصور في شاعرية الشريف ، لأنّ الحكمة في شعر الشاعر المطبوع ، ترد في سياق القصيدة عفوية ، الهدف منها تصوير خبرات الشاعر وتجسيد نظرته للحياة فيكسب ذلك العمل معانيه أبعادا انسانية عميقة ، ممّا يحتّم ورود الحكمة زائبة في كيان القصيدة ، فإذا ما وردت غير ملتحمة بالسياق العام للقصيدة ،فلا جدوى من ورودها ، لذا فليس المفروض من الشاعر أن يجهد نفسه ويكد عقله ليختلق الحكمة ، لأنّ الموقف ومضمون القصيدة هما اللذان يمليان المعاني على الشاعر أثناء عملية الخلق والابداع، فكثرة الحكمة أو قلتها في الشعر ليست مقياسا للشاعرية.

وترد الحكمة في سياق الشعر العربي على أشكال متعددة منها :

الشاعر	المتنبّي		الشريف الرضي	
العدد / البحر	المجمل	الحكمة	المجمل	الحكمة
الطويل	1490	82	4585	131
المديد	-	-	59	-
البسيط	736	32	1455	48
مخلع البسيط	11	-	28	1
الوافر	762	33	1631	24
مجزوء الوافر	-	-	108	-
الكامل	955	33	2830	55
مجزوء الكامل	9	-	477	5
الهزج	-	-	156	2
الرجز	156	1	655	3
مجزوء الرجز	3	-	268	2
الرمل	14	-	421	3
مجزوء الرمل	-	-	215	-
السريع	57	7	612	7
المنسرح	449	7	319	3
الخفيف	477	34	737	19
مجزوء الخفيف	-	-	105	-
المضارع	-	-	-	-
المقتضب	-	-	-	-
المجتث	39	-	80	-
المتقارب	298	9	1329	15
المتدارك	-	-	-	-
المجموع	5465	238	16170	318

جدول رقم (1) جدول توضيحي يبيّن عدد أبيات الحكمة عند كلّ من المتنبّي والشريف ومقارنتها بعدد ما نظمه كل منهما في كلّ بحر .

1- الحكمة المندرجة في مجال النصح والارشاد ومصدرها الأساسي الأمثال والأقوال المأثورة ، وعادة ما تكون متأثّرة أو مصوغة من مثل دارج ، فحين يلتقط الشاعر ذلك المثل ، يسبغ عليه من عقله وعاطفته ما يعيد اليه الحياة بالباسه ثوبا جديدا كقول الشريف (مجزوء الكامل)

وَمِن دواءِ الدّاءِ أنْ مَاطَلَ كَيٌّ عَاجِلُ (1)

وهو مأخوذ من القول المأثور " آخر العلاج الكي "

2- حكمة مندرجة في مجال التجارب الانسانية العامة كالاعتماد على القوة في سبيل الوصول الى الغايات الشريفة والأهداف النبيلة مثل المطالبة بالحرية أو الارتفاع بالنفس واعزازها كقول الشريف : (بسيط)

مَنْ يَعْشَقُ العِزَّ لا يعنو لفانيةٍ
في رَوْنَقِ الصّفوِ مَا يُغْني عن الكَدَرِ (2)

3- حكمة مندرجة في مجال علاقة الانسان بالطبيعة بما تحويه من نبات أو حيوان أو جماد فيحاول عن طريق المقارنة أو المشابهة بين حياته كانسان وبين ما يشاهده من تغيير في الطبيعة أن يصل الى شيء ما يجهله كقول الشريف : (خفيف)

إنّما المرءُ كالقضيبِ تَرَاهُ
يَكْتَسِي الأخضَرَ الرّطيبَ ليَعْرَى (3)

---

1) الديوان 2 / 139 .
2) السابق 1 / 458 .
3) السابق 1 / 500 .

4- حكمة مندرجة في مجال رؤية الحياة بمنظار فلسفي ماورائي أو واقعي كالبحث عن سر الخلود ومعرفة ما بعد الموت والسرور والحزن الى غير ذلك من متناقضات حياتية تعترك في نفس الشاعر فيحاول التعبير عنها كقول الشريف (طويل)

وما العَيْشُ إلاّ غُمّةٌ وارتياحَةٌ
ومُفتَرَقٌ بَعْدَ الدّنُوّ ومُلتَقَى (1)

وتعتمد الحكمة في سياق القصيدة عند الشاعر على عنصرين أساسيين :

1- عنصر ثقافي ويتمثّل في سعة اطلاع الشاعر ومدى استلهامه للتراث الانساني ومدى قربه من قضايا انسان مجتمعه وتوظيف كل ذلك في شعره .

2- عنصر نفسي : ويتجلّى أثناء عملية الابداع وله الدور الأكبر في صهر الحكمة في السياق العام للقصيدة لأنّ عملية صهر الحكمة في السياق تحتاج الى نفس شاعرة ، فالحكمة في حد ذاتها مكونة من عناصر فكريّة نابعة في الأساس من تجربة الشاعر التي هي جزء من ثقافته ، وتكمن عبقرية الشاعر في مزج تلك العناصر الفكرية بالسيل العاطفي النابع من النفس أي مجانسة الفكر بالعاطفة ممّا يعطي الحكمة دورا فعّالا في اثارة الشعور والتأمّل الباطني ، فينجذب العقل لسبر أغوار مضمونها الفكري ، ثم أنها في ذات الوقت تثير العاطفة من خلال اتساقها ومعاني القصيدة .

---

1) الديوان 2 / 71 .

على ضوء العنصرين السابقين يمكن وضع الحكمة عند كل من المتنبّي والشريف في موضعها المناسب.

فبالنسبة للمتنبّي فلقد أشبع النقّاد شعره دراسة ونقدا وتمحيصا وأثبتوا بالدراسة والتحليل والمقارنة مدى تأثّر حكمته بالفلسفة اليونانية ممّا يعني سعة اطلاعه في مجالي الفلسفة والمنطق ، وممّن تكفّل باظهار تأثّره في في حكمته باليونانيين الحاتمي ومن قوله في ذلك " وجدنا أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي قد أتى في شعره بأغراض فلسفية ، ومعان منطقيّة ، فإن كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث فقد أعرق في درس العلوم ، وإن يك ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والألفاظ الغريبة .... وقد أوردت في ذلك ..... ممّا أتى في شعره موافقا لقول أرسطاطاليس في حكمته " (1) ، ونظرا لذلك التأثّر اصطبغت حكمة المتنبّي بالشمولية والعمق ، ممّا جعل ادراكها يحتاج الى تأمّل وتفكير عميقين من خلال البناء الفنّي العام للقصيدة ، وان فهمها كحكمة أو كخلاصة لتجربة انسانية ليس بالأمر العسير اذا ما اجتزأت من سياق القصيدة ولكن فنيتها تكمن في ملائمتها للموقف الذى يلح على نفس الشاعر ، وهذا ما وفق اليه المتنبّي الى أبعد الحدود .

ومن الملاحظ أنّ جُلّ ما ورد من حكمة عند المتنبّي كان من افراز علاقاته بالأمراء والملوك وشيوخ القبائل

---

1) الرسالة الحاتمية ص 22 . جميل سعيد وزميله - السابق ص 354 ، 355 ، 356 .

الذين احتكّ بهم احتكاكا مباشرا حتّى لا نكاد نجد لتلك الحكم الا النزر القليل الذى ورد في قصائده الذاتية الخالية من مدح أو رثاء أو هجاء ، وذلك يؤدّي بنا الى نتيجة مفادها بأنّ حكمة المتنبّي ، يمكن اعتبارها حكمة طبقة معينة من المثقفين ، اذ لا يمكنها الاندراج في اطار الادراك العام لجميع الطبقات ، وهذا لا يعني أنّ حكمة المتنبّي لا تعبّر عن التجارب الانسانية فهي على عكس ذلك والدليل أننا نتجاوب معها ، ولكن الذي نقصده هو أنّ التعبير الفلسفي لتلك الحكمة يجعلها بعيدة عن فهم الانسان العادي ويرجع السبب لصياغتها لا الى محتواها .

أمّا الحكمة في شعر الشريف فترجع جذورها الى الثقافة العربية الأصيلة وتستقي أصولها من مصدرين أساسيين :

1- حياة العربي في البادية : فيستلهم الرضي في شعره روح الصحراء وصلابة انسانها ، فيعبد الينا من خلال حكمته حياة البادية في صور حيّة نشم منها رائحة الشعر الجاهلي بكل تعبيراته وأخيلته ومنها قوله : (كامل)

وَتَداولُ الأيّام يُبلِيْنَا كَمَا
يُبلي الرّشَاءَ تَطَاوُحُ الأرْجَاءِ (1)

2- الاسلام : بمراجعتنا لحياة الشاعر الثقافية ندرك مدى تأثّر شعره بالثقافة الاسلامية ممّا طبع الكثير

---

1) الديوان 1/ 27 والرشاء : الحبل الذى يتدلّى منه الدلو ، تطاوح : ترامي ، الأرجاء : مفردها رجاء حافة البئر .

من حكمه بطابعها كاشارته الى بعض أحكام الطهارة (طويل)

وَمَنْ غَرَّهُ مَالٌ رَضِي بِبَشَاشَةٍ
وَعَادِمُ مَاءٍ قَانِعٌ بالتّيمّمِ (1)

أو الى صيام رمضان (وافر)

إذا مَا المَرْءُ صَامَ عَنِ الدّنَايَا
فَكُلُّ شُهُورِهِ شَهْرُ الصّيامِ (2)

أو الى الصلاة والى القبلة (وافر)

وكيْفَ تَتِمّ في بَلَدٍ صَلاةٌ
وجلّ بِقَاعِهِ قِبَلَ الفُجُورِ (3)

أمّا أهم ما تتميّز به حكمة الشريف فهو :

1- التحامها التام بغرض القصيدة بحيث لا يمكن ملاحظتها وفصلها عن بقية الأبيات الا بعد تأمّل لانها لا تشدك بحيث تجعلك تنسى بقية الأبيات المكونة لموضوع القصيدة لانها تابعة هي وبقية أبيات القصيدة من مجرى نفسي واحد .

---

1) الديوان 2 / 405 .
2) السابق 2 / 418 .
3) السابق 1 / 443 .

2- السهولة والبساطة في تكوين عناصرها ممّا تجعلها قريبة من فهم كلّ الطبقات لِما لها من التصاق بالحياة التي يعيشها ، فصوّرت حكمته بذلك أحاسيس الصديق والأخ والعم والكاتب والثائر والوزير والمرأة والطفلة والشّاب والشيخ في كل الطبقات على اختلاف المراكز والأجناس والعقائد ، فهي قريبة من نفوس الجميع ، ولو كتبت لها ما كتب لحكمة المتنبّي من الذيوع والانتشار لكان لها من الشهرة والانتشار ما لمثيلتها تلك .

اذن فالمقارنة بين حكمة المتنبّي وبين حكمة الرضي لا تؤدّي في نهاية الأمر الى تفضيل احداهما على الأخرى ، فهذه لها نكهتها وتلك لها نكهتها لأنّ كلا منهما ينظر الى الحياة بمنظار خاص به ، ومادامت الحكمة هي خلاصة التجربة الانسانية ، فلكل انسان منظاره الذى ينظر من خلاله الى هذه الحياة ويعكس عن طريقه تجاربه التي تتفق ونزوعه ، فألم الشاعر وحزنه يصبغ حكمته بالحزن والتبرّم ، واخفاقه في الحياة يضفي عليها نوعا من التشاؤم ، أمّا حياة الفروسية فتضفي على الحكمة نوعا من القوّة ،كما ويفلفها الموت بغشاء من التأمّل الحزين في الوجود والكون ، وعلى هذا فالحكمة وان كانت مقولة شاملة تصلح للفرد في كلّ زمان الاّ أنّ اختلافها من شاعر الى آخر يكون بحسب نفسيته وثقافته ، وهذا ما يجعل المفاضلة بين الشاعرين في مجال الحكمة غاية في الصعوبة (1) ، فتأثّر الشريف في بداياته بالمتنبّي لم

---

1) لذلك فنحن لا نوافق زكي مبارك في مقولته بتفضيل الشريف على المتنبّي في مجال الحكمة بقوله " أستطيع أن أجزم بأنّه في هذه الناحية أشعر من المتنبّي ، لأنّ المتنبّي كان يقصد الى الحكمة قصدا ، ويتعمدها وهو متكلّف ، أمّا الرضي فكانت الحكمة تسبق الى خاطره من فيض السجية والطبع فيرسلها عفوا بلا تصنع ولا اعتساف " . عبقرية الشريف الرضي 1 / 24 .

يبرز الحكمة ، فقصائده الأولى تكاد تخلو من أبيات الحكمة ، ولم تبرز الحكمة في شعره الاّ بعد أن تلاشى ذلك التأثير وبرزت شخصية الرضي كشاعر له أسلوبه الخاص، لذا فبروز الحكمة في شعره سببه اكتمال شخصيته الفنية وتفرد تجربته ، وليس أدلّ على ذلك من ظهورها في شعر المرحلة الثانية ، وتجليها بكلّ وضوح في شعر المرحلة الثالثة .

وملاحظة أخيرة فحواها صدور الحكمة عند المتنبّي في معظم أحوالها عن تعال وقوة ، بينما يصدر الشريف معظم حكمه في مجال الشكوى والتبرم ممّا يسمها بمسحة من الأسى والحزن ، ومرجع ذلك عند كليهما العلاقات الاجتماعية ومدى تفاعل كلّ منهما مع هذه العلاقات من ناحيتي الايجاب والسلب .

شاعرية الشريف الرضي :

انّ أول من تحدث عن شعر الشريف ، وأشاد بشاعريته معاصره الثعالبي (1) ، ومن ثمّ نقل عنه كتّاب التراجم اشاراته المقتضبة تلك امّا بالزيادة أو بالنقصان ، فلم يأت أحدهم بجديد ، وكأنّ ما ورد في اليتيمة هو القول الفصل .

ثم أتى من بعدهم المحدثون الذين تناولوا حياة الشريف وشعره بالدرس ، فصدّر جلّ أولئك دراساتهم لشعره بما أورده الأسلاف من قول عن شاعريته ، وهكذا توقفت دراسة شعره عند قول الثعالبي في القرن الرابع الهجرى ولم تتجاوز ذلك الاّ في حدود ضيّقة جدّا .

---

1) يتيمة الدهر 131/3 وجاء فيها عن شعر الشريف " ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل 1 وهو اليوم من أبدع أبناء الزمان ، وأنجب

=

لقد كان الأجدى بأولئك الدارسين أن ينظروا الى شعر الرضي من الداخل ، ويربطوا دراساتهم تلك بما أورده الشاعر من قول عن تجربته الابداعية ، ومدى انطباق ذلك القول على ما خلّفه من شعر من ناحيتي مضامينه وأشكاله . فضمن رسالة كتبها الرضي لشيخه وصديقه الصابي ، يقول الشريف في وصف عملية الابداع عنده " ومن عادتي أني أجرى مع بديهته كيف جرت ، وأعشو الى أول ايماضه ، والاّ أردّ عنانه اذا انطلق ، ولا أسدّ ينبوعه اذا تدفّق ، ولا أحمله على أسلوب ولا أعدل به عن طريق الى طريق ، طلباً لاسماحه بعفوه ، وتجنّباً لاستكراهه على غير طبعه " (1).

انّ حالة الشريف الوجدانية أثناء اندماجه في عملية الابداع لتذكرنا بوصف الشعراء المحدثين لحالاتهم النفسية أثناء عمليات الابداع لديهم (2) ، فالرضي يرى أنّ الالهام هو العنصر الأساسي لميلاد العمل الفنّي عنده ، فإذا

= سادة العراق ... ثم هو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم المغلقين ..... يجمع الى السلامة متانة ، والى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جناها ويبعد مداها .

1) الشريف الرضي - رسائل الصابي والشريف الرضي ص 101 ، 102 .

2) مصطفى سويف - الاسس النفسية للابداع الفني - قارن على سبيل المثال وصف عملية الابداع عند كل من الشاعر خليل مردم ص 218 ، ومحمد بهجت الاثرى ص 221 بقول الشريف بشأن القصيدة عنده ستجد أنّ الاختلاف يكمن في التعبير فقط .

ما شعر في قرارة نفسه بالومضة الأولى ، فانّه يصبح في حالة شبه غيبوبة فيترك النفس على سجيتها منفعلا بالموقف دون أيّ تحكّم منه في العملية الابداعية أثناء تدفقها ، وهذا يعني أنّ عنصر الابداع عند الشريف وجداني بحت ، فترك الشعر يتدفق من النفس على سجيته ، معناه سيطرة العاطفة سيطرة تامّة على تجربة الشاعر ، ممّا يجعلنا نتحفّظ بعض الشيء ونحن نقرأ ذلك الوصف لتجربة الشاعر .

فمن خلال قراءة متأنية لشعره ، نجد أنّ العنصر الوجداني هو الغالب على القصيدة ممّا يبعدها عن التكلّف ، الاّ أنّ للعنصر العقلي دوره أيضا ، وليس أدل على ذلك من أبيات الحكمة الضسابة في أرجاء الكثير من قصائده ، فهي وان كانت مصطبغة بعاطفة الرضي ووجدانه الاّ أنّ خلاصتها كتجربة انسانية من ابداع العقل الخلاّق ، فالمتأمّل لتلك الحكمة ينظر اليها من زاويتين ، زاوية استجابة الشاعر النفسية ، وزاوية مدى تمثيل تلك الحكمة لواقع الحياة .

ثم أنّ هناك بعض القصائد المتكلفة ، ومثل تلك القصائد وان كانت لا تخلو من عاطفة صادقة ، الا أننا نشعر من تسلسل معانيها ما انتاب الشاعر من ارتباك خاصّة في مجال المدح حين يحاول المؤاءمة بين انفعالاته النفسية وبين ما يريده ممدوحه من صفات يجد الرضي حرجا في اسباغها عليه ، ويقر الشريف ذاته بذلك ، ففي عدة قصائد يشير الى أنّ بعضا من مدحه مفتعل كقوله

لأبيه : (طويل)

إذا قُلْتُ فَيْكَ الشّعرَ جَوّدَ مَادِحٌ
وَأَكْثَرَ وَصّافٌ وأعرَقَ مُطْنِبُ
وَغَيْرُكَ لا أُطْرِيهِ إلاّ تكلّفاً
وغيرُ حَنِينِي عِندَ غَيْرِكَ مُصْحَبُ (1)

فالشاعر واع تمام الوعي لما هو حقيقي وما هو مصطنع

(طويل)

أُهَذِّبُ في مَدْحِ اللّئامِ خَواطِري
فأصْدُقُ في حُسنِ المَعاني وأكذِبُ
وما المَدْحُ إلاّ في النّبيّ وآلِهِ
يُرامُ ، وَبَعْضُ القَوْلِ ما يُتَجَنّبُ (2)

فممّا سبق يمكن تقسيم شعر الرضي الى قسمين :

1- الشعر الوجداني : وهو ما تغنّى فيه الشاعر بامالِه وآلامه من فخر ورثاء وشكوى الزمان ، ونسيب ومدح في أبيه وبقية أفراد أسرته الى غير ذلك من موضوعات تتعلّق به تعلّقا مباشرا .

2- الشعر الرسمي : وهو شعر المناسبات ،اذ أنّ علاقاته الواسعة ومركزه الاجتماعي المرموق حتّما عليه مدح الخلفاء والملوك وكبار رجال عصره ، وتقديم التهاني لهم في المناسبات والأعياد ورثاء الأصدقاء والأحبّة ممّا يجعله يعدّ القصائد ، بالاضافة الى محاولته بذّ الشعراء في

---

1) الديوان 1/82 ، 83 . ومصحب : ذليل منقاد .

2) السابق : 1 / 112 .

بعض المعاني التي اشتهروا فذلك أيضا يعدّ من الشعر المصنوع .

ولكننا نظلم الشريف لو أدرجنا جميع شعر المناسبات عنده في باب الشعر المتكلّف ، لأنّ من ذلك الشعر ما عبّر فيه الرضي عن عاطفة صادقة ممّا يحتّم ادراجه ضمن شعره الوجداني ، فمدائحه في الطائع العباسي لا يمكن اعتبارها من شعره الرسمي لما تضمنته من معان مشحونة بالحب والوفاء (1) ، كما أنّ الكثير من مدائحه في بهاء الدولة تندرج ضمن الشعر الوجداني المعبّر عن عاطفة جيّاشة تزخر بآيات الشكر والعرفان ، لما أبداه الملك البويهي من نعم على الشاعر ، ولِما حظي به من مكانة لديه أضف الى ذلك معظم مقدمات قصائد

---

1) لنا بعض التحفظات حول رأى عبد الحسين الحلي في مدائح الشريف حين اعتبر كل ما ورد عند الشريف من مدح هو من باب المبالغات والأكاذيب لأنّ جل مدائحه في الطائع العباسي كانت بعيدة عن الرياء والتزلّف ، واستمرارية تحسّره على أيّام ذلك الخليفة المخلوع - 2/ 194 - ورثاؤه بقصيدتين - 1/ 30 ، 2/ 197 - فيها دلالة على اخلاص الشاعر له. راجع مقدمة تحقيق حقائق التأويل 5 / 99 وما بعدها . وراجع أيضا تحليلنا في اسباغ صفات الامامة على الطائع ص155 من هذا البحث

المدح والتهاني وارتباطها الوثيق بنفسية الشاعر ، فهي وان كانت مقدمات لموضوعات خطط الشاعر مسبقا لها ، الاّ أنها ثريّة بالنبض والحيوية لما حوته من تعابير صادقة في محاولة الشاعر للمواءمة بين الواقع وبين ما تطمح اليه نفسه ، فمقدمة قصيدة المدح في كثير من الأحيان كانت تعبيرا عن مأساة الرضي خاصّة في حالة الشعور بالاخفاق والفشل تجاه قضية ما ، وخير ما يمثّل ذلك قصيدته في مدح الموفّق وزير بهاء الدولة ومطلعها : (طويل)

امانِيُّ نَفْسٍ مَا تُنَاخُ رِكَابُهَا
وغيبَةُ حَظٍّ لا يُرَجّى إيَابُهَا (1)

ففشل الشريف في توطيد علاقته بممدوحه أضفى على المقدمة مسحة من الأسى والحزن سببها معاناة الشاعر عقب انفساخ عقد قرانه بابنة الممدوح .

فالقسم الثاني من شعر الشريف والذى أطلقنا عليه اسم شعر المناسبات أو الشعر الرسمي لا يمثّل الاّ نسبة قليلة من شعره اذا ما قيس بما نظمه الشاعر طيلة حياته ، لذا لا يكن الفصل بين شعره وحياته ، فالمعاناة الصادقة التي تنساب في جلّ أشعاره هي التي ملكت عليه إحساسه ووسمت تجربته الابداعية منذ بدايتها بالأصالة والعمق لأنّ وصفه للحياة وما يكتنفها من متناقضات ، كان وليد معايشة ومعاناة

---

1) الديوان 1 / 69 .

مضامين شعر الشريف الرضي :

انّ الثراء في تجربة الشاعر عادة ما يؤدّى الى تعدد في مضامينه الشعرية ،لأنّ النظرة الشاملة الى الحياة تقود الى اتساع في الافق وشمولية في الرؤية فينفتح الباب واسعا للانطلاق في عالم رحب متعدد الضاحي مما ينأى بالشاعر عن التقوقع في باب معيّن من أبواب القول ، وعدم قصور رؤيته على زاوية معينة في الحياة ، فكلّما اتسعت علاقات الشاعر بمحيطه زادت خبراته ، فالتحامه بمجتمعه يعطي تجربته أبعادا انسانية أرحب وأعمق ، وذلك ما نستطيع استخلاصه من قراءتنا في شعر الشريف فبنظرة فاحصة لجدول المضامين (جدول رقم 2) يمكن ادراك مدى اتساع تجربته وشموليتها .

جدول رقم (2) مضامين شعر الشريف الرضي

الرقم	الموضوع	عدد الأبيات
1	المديح	5513
2	الرثاء	2875
3	الفخر	2034
4	الشكوى وذم الزمان	1560
5	النسيب والغزل	794
6	الهجاء	534
7	التذكر والحنين والاشتياق	448
8	التعازي	363
9	التهاني	318
10	العتاب	301
11	الصديق والصداقة	286
12	الوصف	242
13	الشكر	154
14	نكبات العصر	137
15	الشباب والشيب	67
16	النصح والارشاد	53
17	الزهد	27
18	الشماتة	7
19	موضوعات عامة (مختلط)	457
المجموع العام		16170

فمن هذا الجدول نرى أنّ المدح يأتي في المرتبة الأولى من بين مضامينه وذلك طبيعي بالنسبة لشخصيّة مثله تعيش في وسط اجتماعي يتهافت على المدح ويطلب المزيد منه ، فقلما وجد شاعر في القرن الرابع لم يسلك للمدح طريقا ، فأكثر من نصف شعر المتنبّي في المدح ، وأغلب شعر الشريف المرتضى في المدح أيضا ، كما يغلب المدح على شعر مهيار الديلمي تلميذ الشريف ، ولقد اتخذ جلّ شعراء هذا العصر - اسوة السابقين - الشعر متجرا يتكسبون منه الاّ الشريف الرضي فإنّه لم يحاول أن يتكسب بالشعر لأنّه يرى في ذلك امتهانا لكرامته وحطّا من قدره، وهو القائل للمدوحه (متقارب)

أُريدُ الكَرَامَةَ لا المَكْرُمَاتِ
وَنَيْلَ العُلا لا العَطايَا الجِسَامَا (1)

ويمكن تقسيم مدحه الى قسمين :

القسم الأول : مدح أبيه وبعض أفراد أسرته : وشعر هذا القسم يربو على نصف مدائحه ، اذ بلغت قصائده في مدح أبيه 34 قصيدة بلغت ألف وتسعمائة وتسعة أبيات ، أضف الى ذلك قصائده في مدح أخيه وخاله فسيزيد مجموع مدحه في أهل بيته على الالفين بيت ومعلوم أنّ مدحه لأبيه وأخيه وخاله هو ألصق بالفخر منه الى المدح ، وفي قوله لخاله ما يؤيّد ذلك (بسيط)

إذا مدحتُكَ لم أمنُنْ عليكَ بهِ
فالمَدْحُ باسمِكَ والمَعنى بهِ نَسَبِي (2)

---

1) الديوان 2/323 .

2) السابق 1/101 .

القسم الثاني : مدح الخلفاء وغيرهم من أفراد السلطة الحاكمة في العراق وبعض أجزاء فارس : وهذا القسم ما يمكن أن نطلق عليه المدح حقيقة وكان الشريف يعدّ له القصائد في مناسبات معينة ، لأنّه لم يكن من أولئك الذين جعلوا الشعر متجرا ، فقصيدة المدح بالنسبة اليه عبارة عن بطاقة شكر أو معايدة يبعثها لأولي الأمر ، وكان لا ينشد قصائده بين يدي ممدوحيه على الاطلاق ، ولهذا السبب حاول لبعض الوشاة الايقاع بينه وبين بهاء الدولة مدعين تكبّره على الملك البويهي ، فلما نمى اليه الخبر كتب الى الملك (طويل)

جَنَاني شُجَاعٌ إنْ مَدَحْتُ وإنّما
لساني إنْ سِيمَ النشيدَ جَبَانُ
وَمَا ضرّ قوّالاً أطاعَ جَنَانَهُ
إذا خَانَهُ عِندَ المُلُوكِ لِسَانُ (1)

ومدائح الشريف طويلة نسبيا اذا ما قيست بمدائح غيره من شعراء عصره ، فعلى سبيل المثال فانّ أطول قصيدة مدح عند المتنبّي بلغت (66 بيتا)(2) ،بينما بلغت قصيدة المدح عند الشريف (119 بيتا)(3) ، ممّا يدلّ على طول نفسه الشعري وقدرته على الابتكار والتوليد .

---

1) الديوان 552/2 .

2) راجع البرقوقي - شرح ديوان المتنبّي 202/2 في قصيدته التي مطلعها : (وافر)
طوال قنا تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووغى بحار
و 217/3 (طويل)
ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل

3) الديوان 1 / 441 .

وتمثّل معاني المجد والعلا الجانب الأساسي في قاموس الشريف بالنسبة للمدح والفخر ونادراً ما تخلو قصيدة مدح أو فخر من معنى من تلك المعاني أو مشتقاتها ، حتّى أنّه يستحق عن جدارة أن نطلق عليه اسم (شاعر المجد والعلا)، فعلى سبيل المثال وردت كلمة (مجد) في احدى مدائحه ثلاث مرّات كما وردت كلمة (العلياء) في القصيدة ذاتها ثلاث مرات أيضا ، ووردت كلمة (العز) مرتين (1) ، وفي قصيدة مدح أخرى وردت كلمة (العلا) ومشتقاتها : تسع مرات (2) ، وفي قصيدة مدح ثالثة وردت كلمة (مجد) ومشتقاتها أربع مرات ، أمّا كلمة (العلا) ومشتقاتها فقد استخدمها الشاعر في نفس القصيدة احدى عشرة مرة (3)

ولا يرد استخدام الكلمة عند الشاعر اعتباطا ، خاصّة اذا كانت لها ايحاءات عميقة ، فالمجد والعلا من الأمور التي شغلت نفس الرضي منذ طفولته ، لذلك فانّ ترنمه بهما أثناء المدح ، ليس الاّ لأنّ نفسه الشاعرة الطموحة توّاقة اليهما ، فلئن تغنّى بها لغيره فهو انما يترنّم بحلم يراود نفسه الطموحة وينظر الى ذلك الحلم من خلال غيره ، فالشريف الرضي في لحظة ترنمه بالمجد والعلا لغيره يعيش نوعاً من الازدواجيّة ، فهو يحقّق طموحاته من خلال الحلم ، ورضوخ لواقع لا يمكن الهروب منه وهو الممدوح الّذي يسلبه أخص خصوصياته ولا يستطيع ابداء أيّ حراك تجاهه ، ممّا يولّد في نفسه الصراع والتمزق ، لذا فإنّ اسباغ صفات الامامة والخلافة

---

1 ، 2 ، 3) الديوان 5/2 ، 341 ، 446/1 .

على الخليفة الطائع ، ليس من باب المبالغة والكذب كما يرى بعض النقّاد المحدثين (1) فقول الشريف للطائع (كامل)

لِلّهِ أيُّ مَقَامِ دِينٍ قُمْتَهُ
والأمرُ مَرْدُود القضيّةِ مُبْرَمُ
فكأنّمَا كُنْتَ النّبيّ مُجَاجِزًا
بالقَوْلِ ، أو بِلِسانِهِ تتكلّمُ (2)

انما يتمثّل المعاني النابعة من أعماقه لاشباع حاجة في نفسه ، لأنّه في مثل هذا المدح انما يتصور نفسه مادحا وممدوحا في آن واحد وليس أدلّ على ذلك من قوله في نفس القصيدة :

لا تَهْتَدِي نُوَبُ الزّمانِ لِدَوْلَةٍ
اللّهُ فِيهَا والنّبِيُّ وأنْتُمُ (3)

---

1) ينطلق الشيخ الحلي في حكمه على قول الشريف بامامة الطائع وشرعية خلافته من منطلق مذهبي اذ يرى أنّ الشريف في هذا المقام يغرر بالطائع وبعامة النّاس حينما يثبت له الاحقية في الامامة ، لذا فهو يعتبر أنّ ما ورد من مدح عند الشريف في هذا الباب من المبالغات الممقوتة التي تصل الى حد الاغراق الفاحش . راجع مقدمة حقائق التأويل 5/101 .

2) الديوان 2 / 342 .

3) الديوان 2 / 342 .

ثم أنّ هناك مدح الملوك والوزراء وغيرهم من رجال الدولة وساستها ، وكان الشريف يهدف منه الى تسيير أموره وشكر الصنيع على ما يحظى به من تكريم يتمثّل في اسناد بعض الأعمال الهامّة لشخصه كالنقابة وامارة الحج والانعام عليه بالألقاب اضافة الى أنّه يجد في المدح وسيلة لكفّ الأذى .

ومن أهم ممدوحيه الذين اختصّ بهم بهاء الدولة البويهي ، فقد أتت مدائحه في المرتبة الثانية بعد والد الشاعر ، ويرجع ذلك الى العلاقة الوطيدة التي كانت تربط الاثنين ، فنال الرضي الشيء الكثير ممّا يتمنّاه في ظلّ الملك البويهي ، كما نال الملك من الشاعر مدائح خلّدت ذكره ، وكاد الشاعر أن يسكت عن المدح بعد وفاة بهاء الدولة لولا الحاح الملك الجديد في طلب مدحه فامتثل لأمره في قصيدة فائية (1) .

ومن مميزات مدح الشريف في بهاء الدولة ، اضفاء روح الفروسية على ممدوحه ، من شجاعة وسخاء وكرم ضيافة ، فأساليب مدحه فيه لا تخرج عن تلك المعاني مع صبغ معظمها بالطابع البدوى ، حتّى يظنّ أنّ الشاعر قد نظمها في شيخ قبيلة عربية لا في ملك فارسي فمن ذلك قوله (الرجز)

نُورُ الفَواشِي وَمِسَاكُ الارماق
مِنْ مَعْشرٍ باتُوا بلَيْلِ العُشّاق
إلى المَعالِي والنّدَى والأشْوَاقْ
كَانُوا إذا أظلَمَ لَيْلُ الطّرّاقْ
شهبَ الدّيَاجِي ونُجومَ الآفاقْ
بِيْضُ وجوهٍ كالظُّبَى والأعنَاقْ (2)

---

1) راجع الديوان 9/2 .

2) الديوان 43/2 .

ويكرر الشريف ألقاب الممدوح في معظم مدائحه، ويوظف تلك الألقاب توظيفا فنيّا كما في قوله (مجزوء الرمل)

يَا قوام الدّين والفَارِجَ للدّين مَضيقَهْ
أَنْتَ راعِيهِ وَهَادِيهِ إذا ضَلّ طَرِيقَهْ (1)

وقد يؤدّى استغراق الرضي في المدح الى تصوير مدى الرهبة من آل بويه في النفوس بقوله (منسرح)

لا عَجَبٌ أنْ نَقِيكُمْ حَذَراً
نحنُ جُفُونٌ وَأنْتُمُ مُقَلُ (2)

ولكنّا قد نجد المذر للرضي اذا ما عرفنا الأسباب التي جعلته يسلك ذلك الطريق ، مع أنّه لم يكن ينتظر من وراء المدح مكسبًا ماديًا ، ولكن ما حيلة المضطر الاّ الرضوخ للأمر الواقع فقد كانت تلك المدائح من الوسائل التي يتحاشى بها أذى السلطة ، وتجعله في مأمن من النكبات ، وتمكن له من بلوغ طموحاته ، أضف الى ذلك انّ المبالغة في المدح من الأساليب التي ترضي غرور أولئك الذين أدّى بهم زهوهم وخيلاؤهم الى فتح أبواب قصورهم للشعراء والاغداق بلا حدود وكان على الشريف في هذه الحالة ، أن يبذل أقصى طاقاته في تجويد القول حتّى يمكّن لنفسه في حلبة المدح المزدحمة بالمتنافسين ، فالمدح في رأى الشريف متفاوت في جودته كقوله لأبيه : (كامل)

---

1) الديوان 2 / 4 .

2) السابق 2 / 135 .

شرّفتَ مَدحي فاعتَلى بكَ طَوْدُهُ
وَمِنَ المَدائحِ فائِقٌ وَمَفُوقُ
شَهِدَتْ لَهُ خَيْلُ الخَواطِرِ أنّهُ
خَيْرُ الصّهيلِ، وَمَا سِوَاهُ نَهيقُ (1)

واهتمام الشريف بمدائحه وتجويده لقوام الدين البويهي حتّم عليه قدح زناد فكره واستخدام كل طاقاته اللغوية لتوليد معاني المدح ، مع تخيّر للكلمات ذات الجرس الذي يهز النفس ، والعزف على الكثير من البحور الملائمة لمدحه المتسم بطابع البداوة كالرجز ومجزوء الكامل .

ويبلغ مدح الشريف الرضي ذروته من حيث الكم والجودة في أبيه ، لذا فلا يعتقد بأنّ هناك شاعرًا من بين شعراء العربية قد مدح أباه بمقدار ما مدح الشريف به أباه ، وحتّى شقيقه المرتضى لم يمدح أباه بذلك القدر الذي بلغ 34 قصيدة بلغت (1899) بيتا هذا عدا المدح الذي يرد عرضًا أثناء افتخاره وينقسم مدح الشريف في أبيه الى قسمين :

الأول : وهو ما نظمه الرضي في أبيه ما بين عامي 369 - 375 وهي الفترة التي قضاها أبوه بعيدا عن أسرته ، إمّا في السجن وامّا في فارس بصحبة الملك البويهي شرف الدولة في انتظار الفرصة المؤاتية لعودته ، وأهم ما يميّز قصائد هذه الفترة الشوق القويّ المغلف بالحزن والشكوى ، ومرجع ذلك الأسى اضطراب نفس الشاعر أثناء وجود أبيه في السجن وتأرجحها بين

---

1) الديوان 2 / 53 .

اليأس والأمل بعد اطلاق سراحه ، فمن قصائد تلك الفترة قصيدته التي مطلعها : (طويل)

نُصافِي المعالِي والزّمانُ مُعَانِدُ
وننهضُ بالآمَالِ والجَدُّ قَاعِدُ (1)

وهي قصيدة طويلة بلغت 78 بيتا ، وقد قُدِّمَ لها بما مفاده أنّ الرضي قد نظمها وسنّه فوق العشر بقليل ، أي في فترة سجن أبيه ، وهي تصور الشاعر وقد فاضت نفسه بالحزن المشحون بالانتقام والشماتة كقوله :

يقرُّ بعيني أنْ أرى أرضَ بابلٍ
تخوضُ مغانيهَا الجِيَادُ المَذَاوِدُ
وأسحبُ فيهَا بُرْدَ جَذلانَ شامِتٍ
إذا شاءَ غنّته الرّقَاقُ البَوَارِدُ (2)

ويبلغ الشوق بالشاعر منتهاه بعد أن أُطلق سراح الأب ، وطال مكثه في الغربة بعيدا عن الأهل والوطن ، وعلى الرغم من الفرحة العارمة التي ملكت على الشاعر جميع احساساته ، الاّ أنّ الحزن لم يبارح تلك النفس فالصبر ممض ومؤلم ، وطول الانتظار يقتل في النفس سعادتها ، فمازالت العبرات تنهمر كلما هفا القلب لذكر الحبيب الغائب ، ونظرة واحدة الى وجه ذلك الحبيب ، تكفي لاعادة الاطمئنان الى النفس التي هدها الانتظار ففي قصيدة مدح كتبها لأبيه وهو بفارس سنة 375

---

1 ، 2) 305/1 ، والمذاود : الدفاعون عن حماهم ويقصد بالجياد : فرسان الخيل ، والرقاق البوارد : السيوف القتالة .

يقـــــول : (كامـــــل)

هَـبْ لـي وَحسبـي نَظْـرَةً أرْنُـو بِهَـا
فَمَقَرُّهَـا وَجْـهُ الحُسَيـنِ الزّاهِـرُ
فَلَثَـمَّ أبْلَـجُ إنْ أهـــلّ جَبِينُـــــهُ
جَمَحَـتْ اليـهِ خَواطِـرٌ وَنَواظِـــرُ (1)

الثانـي : وتمثلـه القصائـد التـي نظمهـا الرضـي فـــي مـدح أبيـه بعـد عـام 375 أى بعـد دخـول أبيـه بغـداد بمعيـة شـرف الدولـة سنـة 376 ، وأهـم مـا يميّـز قصائـــد هـذه الفتـرة ، التفتّـح والأمـل والقـوة ، بعـد أن اطمأنّـــت النفـس وتبـدد الخـوف وزالـت الوحشـة باجتمـاع الشمـل ويصـور ذلـك قولـــه : (متقـــارب)

طُلُـوعٌ هَـداهُ إلَيْنَـا المَغِيـبُ
وَيَـوْمٌ تَمَـزّق عَنْـهُ الخُطُـوبُ
لَقِيتُـكَ فـي صَـدْرِهِ شَاحِبـــاً
وَمِـنْ حِلْيَـةَ العَرَبـيّ الشّحُـوبُ
إلَيْـهِ تمـجّ النّفُـوسَ الصّـدُورُ
وَفيـهِ تُهَنّـي العُيُـونَ القُلُـوبُ (2)

وتستمـر تلـك الاشراقـة ، وتلـك السعـادة تغمـر نفـس الشاعـــر خـلال جميـع مدائـح الفتـرة الثانيـة ، فحـدث ردّ أبيـه الـــى أعمالـه القديمـة التـي جُـرّد منهـا يملأ عليـه كـل احساساتـه لقـد أعـادت تلـك العـودة الـى نفـس الشاعـر السرور والنشوة

---

1) الديـــــوان 1 / 435 .

2) السابـــــق 1 / 75 .

فسجّل ذلك في قصائد منها قوله : (كامل)

قَدْ عَاوَدَ الأيّامَ مَاءُ شَبَابِهَا
فالعَيْشُ غضٌّ، واللّيَالِي غِيدُ
إقبالُ عِزٍّ كالأَسِنّةِ مُقْبِلٌ
يَمْضِي، وَجَدٌّ فِي العَلاءِ جَدِيدُ
وعُلىً لأَبْلَجَ مِنْ ذُؤابَةِ هَاشِمٍ
يُنْتِي عَلَيْهِ السّؤْدُدُ المَعْقُودُ (1)

ويتميّز مدح الشريف في أبيه عمّا عداه من مدح بعدة مزايا منها : صدق العاطفة الذى نشعر به من خلال نفحات الحب الصادق التي تسرى في كلّ معنى من معاني ذلك الشعر لأنّ الشاعر في موقفه تجاه أبيه انما يقول فيه ما يقول بفيض من عاطفة الحب ولا ينتظر من وراء ذلك المدح أىّ كسب معنوى ، فهمّه الأول الاشادة بمآثر ذلك الأب والمباهاة بما له من أيادٍ حميدة على مجتمعه ، والشريف في هذا المقام يعترف بأنّ مدحه في أبيه يختلف عن مدحه في غيره فيقول : (طويل)

إذا قُلْتُ فِيكَ الشّعرَ جوّدَ مَادِحٌ
وأكثَرَ وصّافٌ وأعرقَ مُطْنِبُ
وَغَيْرُكَ لا أُطربهِ إلاّ تكلّفًا
وغيرُ حَنيني عندَ غَيرِكَ مُصْحِبُ (2)

من تلك المميّزات ما حتّمه المحيط الاجتماعي على الشريف بالتغنّي بمزايا وصفات حقيقية يتحلّى بها ذلك الأب ، لذا لم يحاول أن يمدحه بما ليس فيه فهو

---

1) الديوان 1 / 310 .
2) السابق 1 / 82 ، 83 .

صادق في كل ما قاله فيه وان شاب الكثير منه الغلو ، خاصّة في مجال المقارنة بين مكانة أبيه ومكانة رجال الدولة الآخرين ، فهو يخرج في هذا المقام عن المعقول ، فالانتماء لذلك الأب ذي المكانة العالية في مجتمعه ، والنسب العريق جعل الشاعر يتصوّر أنّه موضع حسد الخلفاء والملوك (طويل)

يُقِرُّ بِفَضْلِي كُلُّ بادٍ وحاضرٍ
وَيَحْسُدُنِي هَذا العَظِيمُ المُحَجَّبُ(1)

ويدور مدح الشريف في أبيه على ثلاثة محاور نابعة من واقع أسرته :

1- التغنّي بعراقته العربية وانتمائه لآل البيت وهذا المحور من أهم المحاور التي دار عليها ذلك المدح ، فعن صراحة نسبه يقول : (طويل)

لأَمْجَدِ فَرْعٍ فِي عَرانِينِ هَاشِمٍ
وأنجَبِ عُودٍ مِنْ لؤيّ بن غالب (2)

أمّا الانتماء الى الدوحة النبوية فهو القطب الذى يرتكز عليه ذلك المدح فهو تارة يجعله في ذؤابة هاشم (3) وتارة ينسبه الى الرسول (ص) مباشرة (بسيط)

---

1) الديوان 1/3 ويعني بالعظيم - الخليفة العباسي كما أعتقد .

2) السابق 1 / 90 .

3) يقول في مدح أبيه (كامل)

وعلى لأَبْلَجَ مِنْ ذُؤابَةِ هَاشِمٍ،
يُشِي عَلَيْهِ السُّؤْدُدُ المَعْقُودُ 1/310

يَـا ابـنَ النّبـيّ مَقَـالاً لا خَفَـاءَ بِـهِ
وأحسـنُ القـوْلِ فِينَـا قَـوْلُ مُخْتَصِـرِ (1)

وتلـح قضيّـة اغتصـاب الخلافـة علـى نفـس الشريـف ، فتؤجّـج ذكـرى الغـدير لواعـج الأحـزان والأسـى ، فتتـرك بصمـات واضحـة علـى مدائحـه فـي أبيـه ، اذ يقـول لـه مهنئـا بمـرور تلـك المناسبـة العظيمـة فـي تاريـخ الشيعـة (مجزوء الكامل)

وإذا عَزَانَـا نَاسِـبٌ نَسَـبَ الشّمُـوسَ إلـى البُـدُورِ
غَـدَرَ السّـرُورُ بِنَـا ، وكَـانَ وَفَـاؤُهُ يَـوْمَ الغَـدِيْـرِ
يَـوْمَ أطَـافَ بِـهِ الوصِـيُّ وَقَـدْ تَلَقّـبَ بِالأَمِيْـرِ (2)

2- مكانـة أبيـه الاجتماعيـة : ان المكانـة الاجتماعيـة العظيمة التـي حظـي بهـا أبـو أحمـد الموسـوى ، جعلتـه موضـع ثقـة الجميـع واحترامهـم ومكنـت لـه فـي قلـوب العامـة علـى اختـلاف عقائدهـم ، فهيـأ لـه فـرص الوساطـة والاصـلاح بيـن الأطـراف

---

1) الديـوان 1 / 460 .

2) السابـق 1 / 430 . والغدير ، هـو غديـر خـم موضـع قريـب مـن الجحفـة بناحيـة رابـغ فيـه أوصـى الرسـول (ص) بوحـي مـن اللـه سبحانـه وتعالـى بخلافـة المسلميـن مـن بعـده لعلـي حسـب اعتقـاد الشيعـة الاثنـى عشريـة وكـان ذلـك بعـد حجّـة الـوداع فـي الثامـن عشـر مـن ذى الحجّـة سنـة 11هـ ويـوم الغديـر مـن أعظـم أعيـاد الشيعـة الدينيـة حتّـى اليـوم .

المتنازعة ، فأصبحت تلك المكانة مصدر الهام للشاعر فتغنّى بأعمال أبيه العظيمة في تلافي الفتن واصلاح ذات البين .

3- شجاعة أبيه وفروسيته : فمن المشهور عن أبي أحمد الموسوى أنّه فارس شجاع لذا اعتمد عليه الملوك والأمراء في سفاراتهم ، كما مكنته هيبته من فرض سلطته وحماية قوافل الحجيج التي كانت تسير للحج (2) تحت امرته .

ومن مميّزات مدائح الشريف في أبيه ارتباط معظم القصائد ارتباطا وثيقا بالمدح النابع أساسا من اختفائه بالمناسبة ، ممّا يضفي على القصيدة نوعا من الانسجام بين عناصرها مرجعه اندماج روح الشاعر في الموقف أثناء عملية الابداع .

فمقدمة قصيدة المدح وان كانت على ما يبدو تقليديّة لم تخرج عن اطار التذكر والحنين ووصف الرحلة ، الاّ أنها تعكس حالة الشاعر النفسية ، فعن طريق تلك المقدمة يمكن استجلاء الوضعين الاجتماعي والسياسي الذين يعيشهما الأب أثناء نظم الشاعر لكل قصيدة مدح فيه ، كما يمكن من خلال بعض تلك

---

1 ، 2) حول منزلة أبي أحمد الموسوى - والد الشريف - راجع الديوان 1/88 ، 245 ، 309 وراجع أيضا في الفصل الثاني من هذا البحث : منزلة أبيه ص 123 .

المقدمات تحديد وضع والده الاجتماعي أو السياسي ، كما تبيّن لنا متانة علاقة الشاعر بأبيه ، فمن هذا الطالع (متقارب)

طلوعٌ هداهُ الينَا المغيبُ
ويومٌ تمزّقَ عَنْهُ الخُطُوبُ (1)

يمكننا أن نستوحي أنّ القصيدة قد نظمت في مناسبة لقاء حار تمّ بعد غياب طويل كان الشاعر يتحرق اليه ، وانّ العلاقة بين الشاعر وبين ممدوحه علاقة قويّة بغضّ النظر عمّا تضمّنه المدح من علاقات أبوية أمّا مطلع قصيدته (طويل)

نُصافي المعالِي والزّمانُ معانِدُ
وننهضُ بالآمالِ والجَدُّ قَاعِدُ (2)

فينبئنا بما كان يعتلج في نفس الشاعر من ألم وهو يتذكّر سجن الممدوح بعد مصادرة أمواله فجميع أبيات المقدمة يغلفها الحزن والكآبة .

ومن مطلع مدحة أخرى : (كامل)

انظرْ الى الأيّامِ كيفَ تعودُ
والى المعالي الغرِّ كيفَ تزيدُ (3)

---

1) الديوان 1 / 75 .
2) السابق 1 / 305 .
3) السابق 1 / 310 .

تنعكس بهجة الشاعر واشراقته وسروره بسبب استرجاع **الممدوح** أملاكه المصادرة وردّه الى جميع أعماله القديمة بعد عودته من منفاه ، ممّا يجعل جميع أبيات القصيدة تفيض فرحًا واستبشارًا .

4- ومن مميّزات قصيدة المدح في أبيه بروز طابع فخر الشاعر بنفسه من حيث الشجاعة وقوة الشاعريّة ، اذ يندر أن تخلو قصيدة من مثل ذلك الفخر فعن شجاعته يقول في قصيدة مدح لأبيه (طويل)

عَليَّ دِمَاءُ البُدْنِ إنْ لَمْ أُثِرْبِهَا
رَعِيلاً يَشُقّ الأرضَ بعدَ رَعِيلِ
فآخُذَ حَقّي أو يَثُورَ غُبَارُهَا
مِنَ القَاعِ،عَنْ أرضٍ بِشَرّ مَقِيلِ
وَمَا حاجَتي إلاّ المَعالي وَقلّمَا
يَضِيعُ رَجَائي، والطّعَانُ رَسُولِي (1)

5- وتمتاز مدائحه في **أبيه** بالجزالة في ألفاظها والفزارة في قاموسها اللغوى ، والفخامة في بحورها ، فنادرا ما استخدم في ذلك المدح بحورا قصيرة .

أمّا في مدائحه في الوزراء والكتّاب فلم تخرج عن اطار المدح التقليدى من كرم وشجاعة وحسن تدبير الى غير ذلك من صفات تتوق نفوس الممدوحين الى سماعها ، وكان هدف الشريف من ذلك المدح الابقاء على أواصر الود المتينة القائمة بينه وبين أولئك ، أو اتقاء مكرهم وشرهم في معظم الأحيان ، واذا ما تركنا المدح فإنّ الرثاء يأتي في مرتبة ثانية ولكن سنرجئ الحديث عنه.

---

1) الديوان 2 / 150 .

2- الفخـــر : يمثّـل الفخـر عنصـرا رئيسيّـا فـي شعـــر الشريـف الرضـي ، فالأبيـات الفخريـة التـي يشيـر الجـــدول اليهـا إنّهـا هـي القصائـد التـي خصصـت بأكملهـا للفخـر، فلـو أضفنـا اليهـا مـا ورد فـي بقيّـة شعـره مـن حماسـة وفخـر ، لرجحـت كفّـة الفخـر علـى بقيّـة المضاميـن بمـا فيهـا المـدح ، وتعـود ضخامـة الفخـر فـي شعـر الشريـف الـى التفـرد الطاغـي علـى تجربتـه الشعريـة ، فالأنـا منتشـرة فـي جميـع أرجـاء شعـره وهـذا مـا أوقعـه فـي مشاكـل مـع الكثيـر ممّـن مدحهـم ، فقـد أغضـب الخليفـة القـادر بالأبيـات التـي ختـم بهـا قصيدتـه القافيّـة (1) ، كمـا أنّ قولـه : (بسيـط)

اذا مَدَحتُكَ لَمْ أَمْنُنْ عَلَيْكَ بِهِ
فالمَدْحُ باسمِكَ والمَعْنَى بِهِ نَسَبِي (2)

قـد أغضـب خالـه فعـاد يعتـذر اليـه فـي قصيـدة أخـرى مطلعهـا : (بسيـط)

لـكَ السوابِـقُ والأوضـاحُ والغُـرَرُ
وَنَاظِـرُ مَـا انْطَـوَى عَنْ لَحْظِـهِ أَثَرُ (3)

ففـي مجـال الفخـر والحماسـة ينسـى الشاعـر مـن هـم حولـه حتّـى لا يكـاد يشعـر الاّ بنفسـه ، فهـو يـرى أنّـه قـــرن

---

1) راجـع ص 167 مـن هـذا البحـث فقـد ذكرنـا الأبيـــات والحكايـة المتعلقـة بهـا .

2) الديـــوان 1 / 101 .

3) السابـــق 1 / 461 .

لأبيه ولكن الاحترام والتبجيل يفرضان عليه افساح المجال عن غير عجز كما في قوله : (طويل)

وَلَوْلا مُرَاعاةُ الأبوّةِ جُزْتُهُ
وَلَكِنْ لغَيرِ العَجْزِ مَا أتَوَقّفُ (1)

ويرتكز الفخر في شعر الشريف على ثلاث نقاط :

الأولى : الفخر بالانتماء لآل البيت وهذه النقطة هي المرتكز الأول في فخرياته ، فمن فخره بآل البيت (طويل)

أَبونا الذي أبدَى بِصِفينَ سَيْفَهُ
ضُفَاءَ ابنِ هِندٍ، والقَنَا يَتَقَصّفُ
وَمِنْ قَبلِ مَا أبْلَى بِبَدرٍ وغَيرِهَا
وَلا مَوقِفٌ إلاّ لَهُ فيهِ مَوقِفُ
وَرِثْنَا رَسُولَ اللّه عُلوِيّ مَجْدِهِ
وَمُعْظَمُ مَا ضَمّ الصّفَا والمُعَرّفُ (2)

ولو تتبعنا فخره بآل البيت لوجدناه لا يخرج عن التغنّي باصالة النسب ، والشجاعة والتفاني في سبيل توطيد دعائم الاسلام ، وحقهم الشرعي في خلافة النّاس ، وهو ينظر الى كل ذلك من خلال ذاته لأنّه يتصوّر بأنّه أحق النّاس بالخلافة في عصره .

الثانية : الفخر بما تقلّده من مراكز وما نال من مراتب : فمن المعلوم أنّه قد تقلّد مراكز هامّة كما

---

1) الديوان 2 / 21 .

2) الديوان 2 / 19 ، 20 وابن هند = معاوية ابن أبي سفيان .

نـال ألقابـا مشرّفـة وهـو فـي سـن مبكـرة فصـارت تلـك الأعمـال مصـدرا مـن مصـادر فخـره (مجـزوء الكامـل)

وَلِـيَ النّقابَـةَ خَـالُ أُمّـي قبـلُ، ثـمّ أبـي وَجَـدّي
وَوُلِيّتُهَـا طِفْـلاً، فَهَـلْ مَجْـدٌ يُعَـدّدُ مِثْلَ مَجْدِي (1)

والنقابـة بالنسبـة للشريـف ليسـت مركـزًا فخريـًا ، اذ استطـاع عـن طريقهـا أن يقيـم أود العلوييـن وأن ياخذهـم بالحـزم كمـا فـي قولـه : (كامـل)

أوفيـتُ معتليـًا عليكُـمْ واضعـا
قَدَمِـي عَلَـى قَصَـرِ السّمَـاءِ المُوفِـي
وَوَلِيتُكُـمْ فحززت فـي عِيدانِكُـمْ
حَتّـى أقَـامَ مُيِلَهَـا تثقيفـي (2)
وفطمتكـم بالزّجْـرِ عـن عاداتِكـمْ
وَرَدَدْتُ مُنكَرَكُـمْ إلـى المَعْـرُوفِ

الثالثـة : الفروسيـة والشجاعـة : لـم تكـن فروسية الشريف الاّ كلاميـة ، أمّـا الفروسيـة بمعناهـا الحقيقـي فلـم يكـن لـه فيهـا شـأن يذكـر ، ومـا كـان مـن أربابهـا ، ولكننـا نجـد فخـره يزخـر بمعانـي الشجاعـة والفـداء ممّـا يتنافـى وواقـع حياتـه ، ولكـن قـد نجـد لـه عـذرًا فـي تخيلاتـه تلـك ، فقـد كـان يحلـم بـأنْ يكـون فارسًـا شجاعًـا ، حتّـى يتمكّـن مـن تحقيـق طموحاتـه فـي المجـد والمعالـي لأنّـه كـان يـدرك أنّ القـوة هـي الطريـق التـي لابـدّ أن تسلـك لتحقيق الغايات

---

1) الديـوان 1 / 358 .

2) السابـق 2 / 14 .

والوصول الى الأهداف ، ولما لم يتأت له ذلك في الواقع فقد بقي الأمل يراود نفسه ويملأ عليه حياته ، فاستطاع تحقيقه في الخيال عن طريق الشعر حين تعذر تحقيقه في الواقع فقام بعملية تعويض جسّد من خلالها فروسيته بالكلمة أصدق تجسيد ، حتى ليظنّ من لم يقرأ سيرته وسمع شعره أنّه من أرباب السيف الذين دوخوا البلاد : (سريع)

أَنَا الَّذي يُوطِئُ أكنافَهَا
مَا رَنَّ رُمْحٌ بِيَدَيْ مَارِدِ
أَنَا الَّذي يُضْرِمُ آفَاقَهَا
كأنَّهَا مُعْصَفَةُ الوَاقِدِ
أَنَا الَّذي يُوجِرُ أبطَالَهَا
ضرباً كخَبْطِ الجَمَلِ الوَارِدِ
مَا أنَا للعلياءِ إنْ لَمْ يكنْ
مِنْ ولَدي مَا كَانَ مِنْ وَالِدِي (1)

على أنّ الفروسية لم تقتصر عليه وحده ، فهو أيضا قائد لفرسان أشدّاء ، مستقرهم ومأواهم سروج الخيول ، وراحة أكفهم في مصافحة الرماح ، فأحلامه المجنّحة تطير به بعيدا عن أرض الواقع فيمتطي صهوة الكلمة لينسج منها ملاحم بطولية كما في قوله (سريع)

نَبَّهْتُهُمْ مِثْلَ عَوَالِي الرِّمَاحْ
إلَى الوَغَى قبلَ نُمُومِ الصَّبَاحْ
فَوَارِسٌ نالُوا المُنَى بِالقَنَا
وَصَافَحُوا أعْرَاضَهُمْ بِالصِّفَاحْ

---

1) الديوان 1 / 348 .

لِغَـارَةٍ سَامِـعُ أنْبَائِهَـــا
يَغَـصُّ مِنْهَـا بالـزّلالِ القَـرَاحْ
دُونكُـمُ، فابْتَـدِرُوا غُنمَهَـــا
دُمـىً مُباحـاتٍ ومالٌ مبـــاحْ (1)

انّ التفجـر الحماسـي فـي فخـر الشريـف لـم يكـن طارئـــا علـى نفسـه الطموحـة ففـي محاولتـه الوصـول لقمّـة المجـــد ، وضـع نصـب عينيـه مثليـن يحتـذى بهمـا وكلاهمـا مرتبـط بـــه ارتباطـا وثيقـــا . :

1- فمـن خـلال استلهامـه لتاريـخ أجـداده مـن آل البيت استوقفتـه جلالـة جـدّه الامـام علـيّ وهيبتـه ، فأخـذ يتأمّـــل مـا فـي جوانـب هـذه الشخصيـة مـن عبقريـة ، وحـــاول أن يستظـيء بقبسهـا ، فأصبحـت شخصيـة الامـام مثلـه المحتـــذى فـي فخـره وحماستـه (طويـــل)

فَتَـى هاشِـمٍ بَعْـدَ النّبـيّ وَبَاعُهَـا
لمَرْمَـى عُـلاً أوْ نَيْـلِ مَجْـدٍ وسُـؤْدَدِ
وَلَـولا علـيٌّ مَـا عَلَـوْا سَرَوَاتِهَـــا
وَلا جَعْجَعُـوا مِنْهَـا بمرعـى وَمْـوِرِدِ (2)

2- أمّـا قدوتـه الثانيـة فهـي أبـوه ، فقـد عـاش الرضـــي مواقـف ذلـك الأب امّـا عـن معاينـة أو عـن سماع ، فأصبحـــت مآثـر أبيـه رافـداً مـن روافـد فخـره وحماستـه (طويـــل)

وَهَـذا أبـي الأدْنَـى الـذي تَعْرِفُونَـهُ
مُقـدّمُ مَجْـدٍ أوّلٌ ومخلّـــفُ
مؤلّـفُ مَـا بَيْـنَ المُلـوكِ إذا هَفَـوْا
وأشْفُـوا عَلَـى حَـزّ الرّقابِ وأشرَفُوا (3)

---

1) الديـــوان 1/ 254 .
2) الديـــوان 1/ 359 .
3) الديـــوان 2/ 20 .

وهنـاك رافـد هـام مـن روافـد فخـر الشاعـر لابـدّ مـن الاشـارة اليـه : وهـو التغنّـي بشاعريتـه فطالمـا فخـر بهـا خاصّـة أثنـاء مدحـه (كامـل)

قَـدْ كَـانَ هَـذا الشّعـرُ ينـزعُ في الدُّنَـا
عَنْهُـم ، فكـانَ عِقَالُـه مِيـلادي (1)

تلـك هـي الروافـد التـي غـذت فخـر الشريـف ، ويلاحـظ أنهـا مرتبطـة ارتباطـا وثيقـا امّـا بنسبـه وامّـا بواقـع حياتـه ، فمـا ورد منـه مرتبطـا بنسبـه فـلا مجـال في مناقشتـه أمّـا الفخـر الـذى تغنّـى فيـه بشجاعتـه وفتوتـه فقـد كـان مبالغـا فيـه الـى حـد الاسـراف خاصّـة حيـن يفخـر بشعـره وشاعريتـه .

وينبنـي فخـر الرضـي علـى قامـوس لغـوى زاخـر بفيـض مـن معانـي الشجاعـة والقـوة والطمـوح فـي الجـري وراء آمالـه التـي استحالـت الـى سـراب لـم يبـق منـه سـوى شعـره النابـض بالحيويّـة والصـدق ففـي تصويـر فروسيتـه يقـول : (طويـل)

فسـوفَ تَرانـي طائـرًا في غُبارِهَـا
علـى سابـحٍ تَهْفُـو غدائـرُ لِمّتِي
بيـومٍ كثيـرٍ بالغُبَـارِ عُطَاسُـهُ
إذا ثَـوّبَ الدّاعي قَليـلُ المشمّـتِ
معـارِكُ يُخدِجـنَ المِهـارَ وَبَعْدَهَـا
مَنَاعي رجـالٍ مُلْقِيَـاتُ الأجنّـةِ (2)

---

1) الديـوان 1 / 341 .
2) الديـوان 1 / 208 .

فالقاموس اللغوى كما يلاحظ ثري بكلمات الفروسيّة من غبار وسابح وغدائر ومعارك يخدجن المهار الى غير ذلك من كلمات تكاد تكون مصورة لمشهد معركة حامية الوطيس فارسها الشاعر .

ومن الخصائص المميّزة لحماسته مقدرته الفائقة على مزج الحزن بالحرب ، والمزاوجة بين الغزل العذري والفروسية كما في قوله : (طويل)

تُضَاجِعُنِي الحَسْنَاءُ والسّيفُ دونَهَا
ضَجيعَانِ لي وَالسّيفُ أدناهُمَا مِنّي
إذا دَنَتِ البَيْضَاءُ منّي لِحَاجَةٍ
أبَى الأبيضُ المَاضِي فأبعدَهَا عَنّي (1)

3- الهجاء : يأتي الهجاء عند الرضي - من حيث الكم - في مرتبة سادسة ومرجع ذلك اقتصارنا على احصاء قصائد الهجاء القائمة بذاتها ، أو قصائد الفخر التي بناها الشاعر على المفاضلة ، أمّا أبيات الهجاء التي ضمنها الشاعر قصائد المديح ، أو الأبيات العارضة في قصائد الفخر الخالص فلم تدخل ضمن الاحصائيّة .

وبالنسبة الى طريقته في الهجاء يرى آدم متز أنّ أقوى ما ورد من هجاء عند الشريف هو وصفه لمغنّ بارد قبيح الوجه (2) : (كامل)

---

1) الديوان 2/484 ولمعرفة أسباب ذلك راجع فصل المرأة وأثرها في تفجّع الشريف ص 308 وما بعدها .
2) راجع الحضارة الاسلامية 1/505 .

نَـزْوي الوُجُـوهَ تَفادِيـًا مِـنْ صَوْتِـهِ
حَتّى كـأنّ سَماعَـهُ إسْمَـاعُ
وكـأنّ ضَرْبَ بَنانِـهِ ضَـرْبُ الطُّلَـى
وكأنّمـا إيقاعُـهُ إيقَـاعُ (1)

والحقيقـة انّ مثـل هـذا الوصـف الهـازل لا يدخـل ضمـن هجـاء الشريـف ، لأننـا لـم نعهـده صاحـب مجالـس طـرب وقيـان ، وكمـا هـو ملاحـظ فـإنّ الأبيـات الستّـة التـي وصـف بهـا ذلـك المغنّـي لـم تكـن سـوى استجابـة لطلـب سئـل فيـه ، لـذا فالابيات أقرب الى التفكه منها الى الهجـاء ، ممّـا يـدلّ علـى اخفـاق المستشهـد بهـا فـي معرفـة روح الشعـر العربـي وحقيقتـه الهجائيّـة .

فالرضـي يـدرك جيّـدا حقيقـة الهجـاء ، ومواضـع التأثيـر والايـلام بـه ، لذلـك تجنّـب فـي هجائـه الأقـوال الساقطـة والكلمـات البذيئـة ، والخـوض فـي الاعـراض وذكـر العـورات ، كما هـو سنّـة شعـراء عصـره ، لأنّ مثـل ذلـك ليـس مـن الهجـاء فـي شـيء ، أو هـو مـن الهجـاء المسفّ الـذي لا قيمـة لـه عنـد أولئـك الشعـراء الذيـن يلتزمـون عمـود الشعـر العربـي مبنـىً ومعنـىً ، فالهجـاء الحقيقـي فـي عرف العربـي هـو مـا بنـي أساسًـا علـى المفاضلـة وقـد أشـار ابـن رشيـق الـى ذلـك بقولـه " أشـدّ الهجـاء ، الهجـاء بالتفضيـل وهـو الاقـذع عندهـم " (2)

---

1) الديـوان 1/664 والأَسْمَـاع : الشتـم ، والطُّلَـى : الأعنـاق
ايقـاع : مـن أوقـع بـه غـدره وأهلكـه .

2) ابـن رشيـق ـ العمـدة 2/172

لذا فإنّ معظم ما ورد من هجاء عند الشريف هو المقرون بالفخر والمبني على المقارنة بينه وبين غريمه ، فهو حين يفتخر بفضائل نفسيّة معينة ، يحاول في ذات الوقت سلبها من مهجوّه (خفيف)

أيُّهَا العَاجِزُ المُكدّرُ وِرْدي
رُبّما عَرّفتَكَ تِلْكَ الجُمَامُ
فانتَفِقْ في الوِجَارِ، واقعُدْ ذَلِيلاً،
قَدْ كَفَاكَ الجُلّى رِجالٌ قِيَامُ (1)

وتنقسم أهاجي الشريف الى قسمين :

1- هجاء فردي : يعمد فيه لهجاء فرد بعينه يذكر اسمه كما في قوله لرجل سمّاه سليمان (طويل)

فَمَنْ مالُهُ في ذِمّةٍ كَيفَ يَجْتَدي
وَمَنْ أَصْلُهُ في ظُلمةٍ كَيْفَ يُمْدَحُ (2)

وقد يستعيض بكنيّة مثال قوله : (وافر)

أَبَا مطرٍ، وَجِذْمُكَ مِنْ مَعَدٍّ
كَذاتِ العُرّ في السّرْحِ السّليمِ
سُرَاةُ أَدِيمِ هَذا الحَيّ فِهْرٌ
وَبَعضُ القَوْمِ زِعنِفَةُ الأَدِيمِ (3)

---

1) الديوان 2/358 ، والجمام : معظم الماء ، انتفق في الوجار أى ادخله والوجار : حجر الضب .

2) الديوان 1 / 260 .

3) السابق 2 / 352 .

وقد يتجاهل اسم المهجو وكنيته مستعيضا عن ذلك بضمير المخاطب (طويل)

فإن تَكُ قَدْ سُقيت مثلي بكأسها
فمالك يَا ذا الضَبِّ لا تترنّحُ
جُعِلْتَ صحيحاً مثلَ ضَامِنِ نُقْبَةٍ
لهُ كُلَّ يومٍ جالبٌ يتقرّحُ (1)

ويغلب على هجائيات هذا القسم القصر وعدم الاسترسال ولعلّه متعمّد من الشاعر ، فتجنّبه الطوال من القصائد واقتصاره على الأبيات يتيح لها الانتشار والسيرورة ، لأنّ القصار أعلق بالذاكرة وأسرع الى الحفظ (2) .

اضافة لذلك فإنّ الشاعر لا يريد أن يُعطي لأولئك المهجويين حجماً كبيراً ، فتصدّيه لهم - وهو يراهم دونه - يجعلهم في مكانة عالية ترفع من شأنهم وتحطّ من شأنه إذا ما جابههم وواقفهم ، وهذا ما يأباه لنفسه ، وليس أدلّ على ذلك أنّه يذكر أسماءهم باستصغار أمّا اذا أورد كناهم فانّه يذكر ذلك على سبيل التهكّم والسخرية بهم فقوله : (رجز)

أَبَا نَزارٍ تُفسِدُ القومَ النِعَمْ
غفّلك الوجد وزكّاني العدمْ (3)

---

1) الديوان 1/263 ، والضامن من الضُمنة : المرض الملازم النُقبة أوّل الجرب ، الجالب : الجُرح الذى تعلوه جلده عند البُرء .

2) راجع ما أورده ابن رشيق من آراء لكثير من النقّاد القدامى حول قيمة الهجاء القصير - العمدة 2/170 وما بعدها .

3) الديوان 2/326 وغفّلك الوجد : صيّرك الغنى غافلا زكاني العدم : طهرني الفقر وأصلحني .

هو سخرية بالمهجو وازدراء به وقد جاء بكنيته على سبيل **التهكّم** ، اذ لا تناسب كنية المهجو وعراقة قبائل نزار العربية في كرمها .

أمّا تجاهل المهجو بالسكوت عن اسمه وكنيته فليس خوفا كما قد يُظنّ وإنما هو امعان من الشاعر في تحقير المهجو والحط من قيمته

2- هجاء جماعي : وهو ما يوجهه الشاعر إلى جماعة من النّاس ، أو إلى عشيرة ويقصد به استصغارهم وذكر مثالبهم وتتبّع عيوبهم ، وقد طرقه الشريف إمّا بذكر ضمير جمع الغائب أوضمير جمع المخاطب (سريع)

يعبن موتاهم بأحيائهم :

كما يعاب الحيّ بالميّت
قولُكُمْ زورٌ وقولي لَكُمْ
يبقى بقاءَ الجبلِ المُصْمِتِ (1)

ويكتفي باستخدام ضمير الغائب تماديا وامعانا في تجاهل المهجوين وبذلك يبلغ الهجاء ذروته في الايلام ، اذ عادة ما يؤدّى التجاهل وعدم الاكتراث الى تأجّج صراع النفس ، كما في قوله لقوم يعيشون معه بسبب توتّر علاقاته معهم : (بسيط)

أرى وجُوهًا وأيْمانًا مقفّلةً
فَمُغْلَقُ البِشْرِ مِنْها مُغْلَقُ الجُودِ
مُعبّسين لِئَلاّ يُحدِثُوا طَمَعًا
للسّائِلِينَ وَلا يُوفُوا بِمَوْعُودِ
نَوالُهُمْ بَيْنَ صَعْبِ النّيْلِ مُمْتَنِعٌ
بالمَطْلِ أوْ مُسْتَخَسّ القدرِ مَرْدُودِ (2)

---

1) الديوان 1 / 223 .
2) السابق 1 / 402 .

فالهجاء موجّه لقوم من السراة عاشرهم ، وأدرك ما في نفوسهم من لؤم اضطرّه لقول ذلك الهجاء المؤلم وحتّى يؤدّي غرضه تامّا تجاهل أسماءهم واكتفى بذكر الخسيس من صفاتهم مكتفيا بالضمائر دون الأسماء.

وقد يذكر الشريف في مثل هذا النوع من الهجاء اسم العشيرة أو القبيلة بقصد التشهير كما في قوله (طويل)

وَلا حَتْ لَنَا أَبْيَاتُ آلِ مُحَرِّقٍ
بِهَا اللُّؤْمُ شَاوٍ لا يَرُوحُ وَلا يَغْدُو
خِيَامٌ قَصِيْراتُ العِمَادِ، كَأَنَّهَا
كِلابٌ عَلى الأَذْنَابِ مقعية رُبْدُ (1)

وكثيرا ما يرد الهجاء الجماعي عند الشريف في مجال المفاضلة ممّا يجعله مقرونا بالمدح أو الفخر كما في قوله : (طويل)

إذا رُمْتُ مِنْ سَوْآتِكُمْ سَدَّ هَوّةٍ
تَشَاغَلْتُمُ عَنْ غَيْرَهَا بِالنَبَائِثِ
رَأَيْتُ الصّقُورَ الغُلبَ خَمْصَى مِنَ الطّوَى
وَمَا مَطعَمُ الدّنيَا لِغَيرِ الأَبَاعِثِ (2)

---

1) الديوان 1/411 ، ومقعية من القعو وهو أن يقعد الكلب على عقبيه وينصب ساقيه .

2) الديوان 1/231 والنبائث : من نبث أى نبش وحفر بيده .

ونادراً ما يرد الهجاء الجمعي عند الشريف قائما بذاته فهو ضمن قصائد طويلة نسبيّا ، وعلى العموم فإنّه لا يهدف من وراء هجائه التهديد أو الابتزاز كما كان معاصروه من الشعراء يفعلون ، فهدفه الأساسي من ذلك الهجاء التصدّي لأعدائه وأعداء أبيه وأعداء ممدوحيه ، أو لأولئك الذين يحاولون النيل من مكانته أو أصله ، وهو في هجائه عنيف جارح مع تجنّبه الأقوال الساقطة والافحاش والقذف ، ذلك هو الهجاء في شعر الشريف وأهم مميزاته .

4- الوصف في شعر الشريف :

يردّد الكثير من كتّاب سيرة الرضي ، الحكاية التي ذكرها ابن خلكان (1) حول أبياته (كامل)

وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رُبوعِهُمُ
وطُلُولُهَا بِيَدِ البِلَى نَهْبُ

---

1) وفيات الأعيان 4/416 ، 417 وفحوى الحكاية أنّ رجلاً " اجتاز بدار الشريف ... وهو لا يعرفها ، وقد أخنى عليها الزمان وذهبت بهجتها وأخلقت ديباجتها ، وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة وحسن الشارة ، فوقف عليها متعجبا من صروف الزمان وطوارق الحدثان ، وتمثّل بقول الشريف الرضي المذكور

ولقد وقفت على ربوعهم ..... الأبيات

فمرّ به شخص وسمعه وهو ينشد الأبيات فقال له : هل تعرف هذه الدار لمن هي ؟ فقال : لا ، فقال : هذه الدار لصاحب هذه الأبيات الشريف الرضي ، فتعجبا من حسن الاتفاق .

فَبَكَيْتُ حَتّى ضَجّ مِنْ لَغَبٍ
نِضْوِي وَلَجّ بِعَذْلِيَ الرّكْبُ
وَتَلَفّتَتْ عَيْنِي فَمُذْ خَفِيَتْ
عَنّي الطّلُولُ تَلَفّتَ القَلْبُ (1)

والحكاية تشير ضمنًا الى روعة الأبيات ومدى مطابقتها لواقع موقف الاستشهاد أثناء انشادها ، وكأنهم بترديد تلك الحكاية ، يريدون القول : بأنّ الأبيات من أبدع الشعر العربي في وصف الطلل ، وما أعطى الأبيات ذلك البعد الفنّي العميق تجاذب النفس مع معانيها ، فالأبيات الثلاثة لم تكن وصفًا للطلل بقدر ما هي وصف لحالة نفسيّة ذاهلة ، أمام مشهد عزيز شوهته يد الحدثان ، فانفعال الشريف بالموقف هو ما أعطى الأبيات شحنات من التدفّق والحيوية ، فنظر الطلل بقي منحوتا داخل نفسه بعد أن توارى عن عينيه ، فتجاوب الشريف مع الصورة واندماجه في الموقف هو ما أعطى الوصف بالكلمة حياة" وصدقًا فالخلق في الأدب الصادق لا يتولّد " الاّ بتأثير الانفعالات فهي التي تغيّر صور الأشياء وتبدل من معانيها وقيمها وأشكالها وألوانها وتكشف الحقيقة والمعاني الخفية " (2) والوصف في شعر الشريف الرضي نوعان :

1- وصف تأملي متولّد عند الشاعر عن الانفعال بمشهد أو بموقف معيّن يحوكه في أبيات قليلة أو مقطوعات يضفي عليها من فيض روحه ما يحيل كلّ معنى من معانيها

---

1) الديوان 181/1 واللغب : التعب ، النضو : البعير المهزول .

2) ايليا حاوى - فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ص 130 .

روحا بضة بالحياة ، وتعبير عمّا في نفسه ، فوصف سقوط الثلج على بغداد بالنسبة للشريف ليس الاّ منبّها خارجيّاً لرؤية داخلية محتبسة سرعان ما ظفرت بفرصة التعبير في قوله : (وافر)

فَهْمَا شِئْتَ تَنْظُرُ مِنْ رُبَاهَا
الى بِيْضٍ عَواقِبُهُنّ سُوْدُ
أقولُ لَهُ ، وَقَدْ أمْسَى مكبّا
عَلَى الأقْطَارِ يَضْعُفُ أوْ يَزِيْدُ
وَعَكَ فَالخَواطِرُ بَارِدَاتٌ
على الاحسانِ والأيْدِي حمودُ
وانّكَ لَوْ تَرُومُ مَزِيدَ بَرْدٍ
إلى بَرْدٍ ، لأعْوَزَكَ المَزِيْدُ (1)

فقد نبه اكتساء بغداد بالجليد خواطر الشاعر المحتبسة فكان اندماج روحه وانفعاله بالحدث أثره العميق في التعبير من خلال المشهد عمّا يعاني من صراع نفسيّ مكبوت .

فالوصف الوجداني عند الرضي موضوع قائم بذاته ، لا يرتبط الاّ بحالته النفسيّة خاصة أثناء معايشة الحدث أو عند تأمله للمشهد ، ممّا يكسب صورة الحيوية والثراء ، فهو وان استوحى الكثير من تعابيره وصوره وأخيلته من البيئة البدوية ، الاّ أننا لا نشكّ في معايشته للكثير من تلك المشاهد ، وقد مكّنته المعايشة تلك ، من تطويع الصورة البدوية لتكون متناسبة والموقف الاجتماعي الذي

---

1) الديوان 1 / 406 .

يعيشه ، فانتزاع أجزاء الصورة من بيئة بعيدة أو جوّ مختلف عن جوه وبيئته لم يحولا بينه وبين وضعها في الاطار المناسب ، المعبّر عن ثقافته ونفسيته أصدق تعبير ، فمقطوعته في وصف فراخ حمامة التي منها : (وافر)

أَقُولُ لَهَا ، وَقَدْ رَنَّتْ مِرَاحًا
لَبَالُكِ يَا حَمَامَةُ غَيْرُ بَالِي
تَبَاعَدَ بَيْنَنَا مَنْ قِيلَ شَاكٍ
تَعَلَّقَ بِالغَرَامِ ، وَقِيلَ سَالِيْ (1)

من المشاهد التي عاشها ، أضف الى ذلك تعليق ناسخ الديوان في مقدمتها فهو يعضد القول بمعايشة الشاعر للمشهد ، فتفاعله مع المشهد بكلّ جزئياته أكسبه عمقا تمثّل في تعبير الشاعر عن حالة اندماجه التّام في الوصف فتهيّأ للصورة الانسجام ، فوصف الفراخ لم يكن سوى جزء من صورة شاملة ، كان وجدان الشاعر وأحاسيسه محورها ، فالمشهد في تلك القصيدة مركّب من عدّة أجزاء نابضة ، فجزء منها يصف الصحاب في استراحة بعد رحلة طويلة مضنية قطعوا خلالها جزء من صحراء واسعة ، وحتّى ينأى الرضي بوصفه عن التقريرية مزجه بأحاسيسه من خلال ذكريات أثارت شجونه وبسبب تعاطفه مع الطبيعة صار لصوت فراخ الحمام أثره الفعّال في الشاعر ، فجاء الربط محكما بين هديل الحمام وبين ما يضطرم في نفسه من شوق لم تبق منه سوى الذكريات بعد مضي الشباب بنضارته ومراحه .

---

1) الديوان 2 / 251 .

فوصف الشريف للطبيعة والأشياء الأخرى ، لم يكن سطحيّا أو تقريريّا ، فهو من العمق بحيث يمكننا منه دراسة نفسيته ، خاصّة وأنّه يوظّف المشهد للتعبير عن حالة وجدانيّة معينة في جلّ وصفياته .

ومن الملاحظ أنّ الاجادة في الوصف تتجلّى عنده في المقطوعات والنتف ، فاذا ما حاول الاطالة فانّ شاعريته سرعان ما تخونه فيفقد سيطرته على التعبير من حيث وحدة الموضوع ، ففي قصيدة وصفه لمنازلة عند وقوفه عليها سنة 404 ومطلعها : (طويل)

أَمِلْ مِنْ مَثانِيهَا فَهَذَا مَقِيلُهَا
وَهَذِي مَغَانِي دارِهِم وَطُلُولُهَا (1)

تمكّن الشريف من الابداع في وصف الطلول ، خاصّة حين مازج بين المشاهد الحسية وبين حالته الوجدانية وقد استمرّ ذلك الوصف المتدفّق حيويّة مترابطاً ومتدفقا في مجراه النفسي الملتاع حتى قوله :

خَلِيلَيّ قَدْ خَفَّ الهَوَى وَتراجَعَتْ
إلى الحِلْمِ نَفْسٌ لا يَعُزُّ مُذِيلُها (2)

وكأنّه بهذا البيت قد نقلنا نقلة مفاجئة من وصفه الصادق والصور المجسدة للمعاني الحيّة ، الى الفخر المشحون بالحماس والفتوة والاباء وشتّان بين الموقفين ، فلو اكتفى الشريف بوصف تلك المنازل لعُدّت قصيدته من روائع الوصف في الشعر العربي ، ولكنّ الاستطراد اضطرّه للخروج عن موضوعه .

---

1 ، 2) الديوان 2 / 183 ، 184 .

2- الوصف الاستطرادى : وهو كثير جدا اذا ما قيس بمقطوعات الوصف القائمة بذاتها ولكثرة مثل هذا الوصف قال عنه أحد النقّاد المحدثين " الشريف شاعر وصّاف ، ولكنّ الوصف عنده لا يقع الاّ عن طريق الاستطراد " (1) وهو قول مخالف لواقع ما بين أيدينا من شعر للشريف ، فديوانه يحوي الكثير من الأبيات ، والنتف والمقطوعات الوصفيّة الخالصة (2) .

وللشريف مقدرة فائقة على المزج والتلاحم بين أجزاء القصيدة أثناء الوصف الاستطرادي ، ممّا يجعل من ذلك الوصف جزءا من لحمة القصيدة ، فالمتأمّل لقصيدته التي مطلعها : (بسيط)

أَسِلّ بِدَمعِكَ وَادي الحَيّ إن بانوا
إنّ الدّموعَ عَلَى الأَحْزَانِ أَعْوَانُ (3)

يرى أنها قصيدة وجدانية ضمّنها الشاعر الكثير من تجاربه وحكمته ، وأنّ موضوعها الرئيسي هو الفخر ، ولكن المزج المحكم بين فخر الشاعر بنفسه ، ووصفه الأسد أثناء عقد المشابهة بين إبائه وبين إباء الأسد ، أوقع ناسخ الديوان في اللبس فعدّها خطأ في وصف الأسد وحقيقة الأمر أنّ وصف الأسد قد ورد في القصيدة على

---

1) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي 2/ 200 .
2) راجع على سبيل المثال الديوان 1/ 239 ، 266 ، 410 . 2/ 93 ، 271 ، 354 .
3) الديوان 2/ 448

سبيل الاستطراد بقصد المقارنة بين الشاعر وبين الأسد أثناء الفخر وليس أدلّ على ذلك قوله في بداية مقطع الوصف من القصيدة ذاتها :

سَيَرْعَبُ القَوْمَ مِنّي سَطْوُ ذي لِبَدٍ
لَهُ بِعَشْرِ أَعْرَاسٌ وَوِلْدَانُ (1)

فضمير المتكلّم المتصل بحرف الجر في المصراع الأول من البيت يدلّ على أنّ الشاعر يعني نفسه وانّ الأبيات التالية للبيت المذكور وان كانت وصفا للأسد فهي في حقيقتها افتخار الشاعر بشجاعته واقدامه وعزة نفسه .

ومن أهم مميّزات وصفه الاستطرادي على وجه العموم تجنّب التقريرية واندماج روحه مع مضمون الوصف، ولكن هذا لا يمنع من ورود بعض التشبيهات الحسيّة أثناء الوصف الاستطرادي عند الشاعر كقوله في لمعان البرق (وافر)

كَأَنّ وَمِيضَهُ أَيْدِي قِيُونٍ
تُعِيدُ عَلَى قَوَاضِبِهَا جَلَاءُ (2)

وقد يخفق الشريف في الوصف اذا كان الموضوع المراد وصفه لا يتناسب ورؤيته أو كان الموضوع بعيدا عن نزعته الدينية كقوله في وصف مجلس خمر (طويل)

سَقَى اللّهُ يومًا سَاعَدَتْنَا كُؤُوسُهُ
عَلَى حِيّنَ مَا جَادَ الزمانُ بِمُسْعِدِ

---

1) الديوان 2/ 450 .

2) الديوان 1 / 18 .

جَلَوْنَا عَلَيْهِ الخَمْرَ حتّى تَكَشّفَتْ
فَوَاقِعُهَا عَنْ لَوْنِهَا المُتَوَرِّدِ
نَفُضّ لَنَا عَنْهَا حَبَابًا كأنّهُ
قَذَىً يَتَمَشّى بَيْنَ أَجْفَانِ أَرْمَدِ (1)

فبرغم ما رأى على الوصف من سطحيّة متولّدة عن تكلّف الشاعر فإنّه قد استخدم صورة تمجها النفس حين شبّه حُباب الخمر بقذى المصاب بالرمد ، لذا فإنّ وصف الشريف لا يكتسي حُلّة الواقع الاّ إذا كان نابعا من ذاته، وموافقا لطبيعته ، ويخفق اذا استجاب لرغبة في وصف مشهد خارج عن ذاته أو بعيد عن طبيعته كوصفه لمجلس الخمر ذاك استجابة لرغبة بعض الصّحاب .

شكل القصيدة عنده :
++++++++++++++++++

تأرجح شكل القصيدة عند الشريف الرضي بين المحافظة وبين التجديد ، فعلى الرغم من التزامه الأساليب البدوية فإنّه يأخذ بالأساليب الجديدة التي أحدثها الشعراء العباسيون ، فوسم ذلك شعره بسمات الفحولة متجاورة مع سمات التجديد التي فرضتها الحضارة ، ولكلتا الظاهرتين مسبباتهما التي سنعرض لها في مكانها المناسب (2)

---

1) الديوان 1 / 393 .

2) راجع : غربة الشاعر في مجتمعه ـ الفصل الثالث ـ من الباب الثاني ص من هذه الدراسة .

وتبرز سمات التجديد في نواحٍ متعددةٍ من ذلك الشعر ، وأهمها مقدمة القصيدة وارتباطها بالموضوع الأساسي ووحدة القصيدة العضوية ، والصور والأخيلة ومدى تأثيرها في الموضوع ، ومدى استيعاب ذلك الشعر للبديع والزخرف اللفظي الشائع في ذلك العصر ممّا يحتّم التعرض لكلّ ذلك استكمالا لدراسة شعر الشّريف من جميع جوانبه.

أ) مقدمة القصيدة بين المحافظة والتجديد

من أبرز خصائص المحافظة التي التزم بها الشريف في كل قصائده الطوال ، تصريع المطالع ، وهو تقليد عربي عريق ، أمّا بالنسبة لشكل المقدمة ككلّ فلم يتخذ خطّاً واحداً ، اذ راوح الشاعر بين المقدمة التقليديّة المحافظة تارة ، وبين المقدمة الجديدة المستوحاة من موضوع القصيدة تارة أخرى .

ولم يستقر الشاعر على نمط معيّن ، في استخدامه للمقدمة التقليديّة ، لأنها لم تكن هدفاً يعمد اليه أو قالباً يصبّ فيه تعابيره بل يمكننا اعتبارها مُدْخلاً مرتبطاً ارتباطاً نفسيّا بموضوع القصيدة ، فقد يفتتح قصيدته بمقدمة طلليّة (كامل)

قَضَتِ المَنَازِلُ يَوْمَ كَاظِمَةٍ
أنّ المَطِيَّ يَطُولُ مَوْقِفُهَا
لُمَعٌ مِنَ الأطْلاَلِ يُحْزِنُنَا
مُحْتَلُّهَا البَالِيْ وَمَألَفُهَا
سَبَقَتْ مَدَامِعُهَا بِرَشّتِهَا
مِنْ قَبْلِ أنْ يُوْمِيْ مُكَفْكِفُهَا (1)

---

1) الديوان 2 / 30 .

وقد يستخدم وصف ركب الأحبة في مسيره عبر الصحراء كمقدمة لقصيدته (كامل)

أَثَرُ الهَوادِجِ في عِرَاصِ البَيْدِ
مِثْلُ الجِبَالِ عَلَى الجِمَالِ القُودِ
يَطْلُعْنَ مِنْ رَمْلِ الشَّقِيْقِ لَوَاغِبًا
زَحَفَ الجَنُوبِ بِعَارِضٍ مَمْدُودِ (1)

والشريف لم يرحل قط عن بغداد الى ممدوح ، ولكنّه رغم ذلك لم يتخلّ عن تقاليد القصيدة العربيّة في وصف الرحلة وما كابده من عناء للوصول الى ممدوحه ، وهي وسيلة اتخذها شعراء الجاهلية للوصول الى نفوس ممدوحيهم . يقول لأبيه في احدى مدائحه : (كامل)

ومفازةٍ تَلِدُ الهَجِيْرَ خَرَقْتُهَا
والأَرْضُ مِنْ لمعِ السَّرابِ بُرُوقُ
بِنَجَاءِ صَامِتَةِ البُغَامِ كأنّهَا
وَالآلُ يَرْكُضُ فِي الفَلاةِ فَنِيْقُ
سَبَقَتْ اليكَ العزمَ طائشةُ الخُطَى
فَنَجَتْ وأَعْنَاقُ المَطِيِّ تَفُوقُ (2)

---

1) الديوان 1/285 .

2) السابق 2/50 والنجاء : الناقة القوية النجيبة ، الفنيق : الفحل المكرم الذى لا يؤذى ولا يركب ، وتفوق : تذهب دون رجعة أى تهلك .

ولكن شيوع المقدمة التقليديّة بجميع أشكالها في شعره لم يمنعه من التجديد في مقدمات الكثير من قصائده ، فاستلهامها لروح الشعر الجاهلي أدّى به الى سلوك محجّة المحافظة ، ولكن تأثّر ثقافته بحضارة القرن الرابع ترك سماتها واضحة على شعره ، ممّا ولّد لديه الشعور بالتأقلم مع متناقضاتها رغم محاولته في الهروب ، فجاءت الكثير من مقدمات قصائده متأثّرة بما ولدته تلك الحضارة من جديد في مجال الشعر وذلك من ناحية الشكل ، أمّا العبارة التي صيغت بها تلك المقدمات فقد بقيت محافظة على اصالتها العربية ، إذ لم يحاول الشاعر النزول بها الى مستوى ألفاظ عامّة النّاس .

فاستخدامه الفخر كمقدمة لقصيدة المدح كما في قوله : (طويل)

رِدِيٌّ يَا جِيَادي ، وَأذَنِي بِرَحِيلِ
سَتَرْعَيْنَ أَرْضَ الحيِّ بَعْدَ قَلِيلِ
أَلاّ أنّ في قَلْبِي الى المَجْدِ طَرْبَةً
وَعِنْدَ القَنَا يَوْمًا شِفَاءُ غَلِيلِي (1)

يعني تجاذب نفس الشريف بين المحافظة الكامنة في الفخر ، الملئ بالنفحة العربية الزاخر بفيض من عزّة النفس والاباء ، وقد أثّر ذلك على لغته حين استلهم جلّ تعابيره من اللغة البدوية الممزوجة بعبير الصحراء وبين التجديد المتمثّل في استخدام الفخر كمقدمة للقصيدة مع تطويع تلك اللغة البدوية حتّى تكون

---

1) الديوان 2 / 150 .

مستساغة ومناسبة لذوق انسان القرن الرابع ، فالجدّة هنا ليست في موضوع الفخر ، ولكنها في استخدامه الفخر كمقدمة لقصيدة المدح .

وفي كثير من الأحيان لا يحتاج الرضي لمقدمة يُهيئ بها الدخول الى موضوع قصيدته ، فيدخل الى موضوعه مباشرة ، مثال ذلك مدحه لأبيه (متقارب)

طُلُوعٌ هَدَاهُ إِلَيْنَا الْمَغِيبُ
وَيَوْمٌ تَمَزَّقُ عَنْهُ الْخُطُوبُ
لَقِيتُكَ فِي صَدْرِهِ شَاحِبًا
وَمِنْ حِلْيَةِ الْمَرْبِيِّ الشُّحُوبُ (1)

والأمر الجدير بالملاحظة هو أنّ معظم مقدمات قصائده ذات علاقة وطيدة بموضوعاتها ، فهو يحاول عن طريق تلك المقدمات الايحاء بما تتضمنه قصائده من معان يريد البوح بها ، ممّا يجعل الكثير من تلك المقدمات بمثابة المفاتيح لتلك القصائد .

فعلى سبيل المثال : فإنّ الشكوى والحزن في مقدمة قصيدته في مدح أبي علي وزير بهاء الدولة وعتابه ، توحي بما يعتمل في نفس الشاعر من صراع مرجعه تصدع علاقته بممدوحه (2) ، وسرعان ما يتضح للقارئ ذلك من موضوع القصيدة ، حين يحاول الشاعر رأب ذلك الصدع ، وربما يكون للنسيب - في مقدمة قصيدة الشريف - علاقة بموضوع القصيدة ، فشعوره بتجاهل نقّاد العصر لشعره

---

1) الديوان 1 / 75 .
2) راجع السابق 1 / 69 .

جعلـه يحتفـي بكـل بـادرة يقـوم بهـا النقّـاد تجـاه ذلـك الشعـر ، ففـي مقدمـة قصيـدة يشكـر فيهـا ابـن جنّـي علـى مبادرتـه بشـرح بعـض شعـره يقـول : (طويـل)

أراقِـبُ مِـنْ طَيْـفِ الحَبِيـبِ وِصَـالَا
وَيَأبَـى خَيَـالٌ أنْ يَـزورَ خَيَـالَا
وَهَـلْ أبقَـتِ الأشجـانُ الاّ مُمَثَّـلًا
تُعَـاوِدُه أيْـدِي الضّنَـا ، وَمِثَـالَا (1)

فاحساسـه بالغبـن لمـا ينالـه شعـره مـن اهمـال وتجاهـل مـن أدبـاء ونقّـاد عصـره ملأ نفسـه بالأسـى وهـو ينظـر مـن حولـه جحافـل الشعـراء الذيـن طبّـق الآفـاق شعرهـم وأكثرهـم دونـه شاعريـة ، ليـس الاّ لأنّـه لـم ينـزل بمستـوى شعـره ولـم يحـاول الخـوض فـي الاعـراض والدخـول فـي مهاتـرات ترفـع مـن قيمـة ذلـك الشعـر وتجعلـه محـط أنظـار النقّـاد وموضـع اهتمامهـم ، لـذا فـإنّ أيّـة اشـارة نقديـة خاليـة مـن أيّ مـأرب ، يكـون لهـا الأثـر العظيـم فـي نفسـه ، وليـس أدلّ علـى ذلـك مـن كلمـة " الوصـال " فـي صـدر البيت الأول ، فهـي تنبئنـا عمّـا يعانيـه الشاعـر بسبـب تجاهـل أولئـك النقّـاد لـه ، فمعاناتـه هـي معانـاة العاشـق الصـب حيـن يشعـر بالاخفـاق والخيبـة بسبـب تجاهـل مـن يحـب ، فهـو يتعلّـق بكـل خيـط مهمـا كـان ضعيفـا ويتشبّـث بكـلّ بـادرةٍ تبـزغ فـي الأفـق ، ولعـلّ قولـه فـي نفـس القصيـدة :

وَلَمّـا رَأيْـتُ الوَفْـرَ دُوْنَ مَحَلّـهِ
جَـزَاءً وَقَـدْ أسْدَى يَـدًا وَأنَـالا
بَعَثْـتُ لَـهُ وَفْـرًا مِنَ الشّعْـرِ بَاقِيًا
وَكَنْـزًا مِنَ الحَمْـدِ الجَزِيـلِ وَمَـالَا (2)

---

1) الديـــــوان 2 / 166 .

2) السابـــــق 2 / 168 .

يعضد رأينا السابق من احتفائه بشعره .

وفي كثير من الأحيان يهجم الشاعر على موضوعه دونما أيّة مقدمات كما في مدحه للطائع العباسي (طويل)

جَزَاءُ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ ثَنَائِي
عَلَى نِعَمٍ مَا تَنْقَضِي وَعَطَاءِ (1)

ومن الرثاء قوله في الصابي : (كامل)

أَعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأَعْوَادِ
أرأيت كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي (2)

ب) الوحدة العضوية في قصيدة الشريف
==========

يميل معظم شعر الشريف نحو النزعة الذاتية الخالصة فشعره على هذا الأساس يصوّر مأساته الخاصّة ، حيث يبدو فيه نوع من الحوار الداخلي المجسّد لكل الانفعالات كقوله : (مجزوء الكامل)

صَبْرًا عَلَى نُوَبِ الزَّمَا
نِ وَإِنْ أَبَى القَلْبُ القَرِيحُ
فَلَرُبَّ مُبْتَسَمٍ وَقَدْ
أَخَذَتْ مَآخِذَهَا الجُرُوحُ (3)

---

1) الديوان 1 / 9 .
2) السابق 1 / 381 .
3) السابق 1 / 262 .

وغلبة الأنا على ذلك الشعر عادة ما تعطي معانيه نوعا من التوحّد المعنوى تارة ، والتوحّد العضوى تارة أخرى ، والسبب في كلتا الحالتين صدور ذلك الشعر من مجرى نفسي واحد .

وتمثّل الوحدة المعنويّة الجزء الأوفر من شعر الرضي خاصّة المدح والفخر منه ، فكلا الغرضين مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحماسة ممّا يحتّم عليه الاستطراد - أثناء كلّ منهما - الى شتّى الأغراض ذات الصلة بالفروسية ، الممتزجة بأحاسيسه ومشاعره ، فيؤدّي ذلك الى الربط المعنوي ، مع فقدان الرابطة في البناء العضوى للقصيدة .

فللبيت في مثل تلك القصائد معناه القائم بذاته فاستقلاله من القصيدة أو تقديمه أو تأخيره خلال الجو النفسي الذي وضع فيه لا يخل اطلاقا بالبناء الفنّي شريطة أن يبقى متناسقا مع العنصر الذي صبّ فيه ، لأنّ مثل تلك القصائد وان تشابهت مع الشعر المحافظ في استخدام البيت كوحدة قائمة بذاتها ، الاّ أنّ تلك الوحدة جزء من عناصر أو أفكار يقوم بناء القصيدة عليها ، ونعني بذلك : أنّ الاستطراد في قصيدة الرضي لا يقوم أساسا على وحدة البيت إنّما يقوم على وحدة الفكرة فالبيت في مثل تلك القصائد قائم بذاته ومنسجم مع فكرته في آن واحد ، اذ لا يمكن على الاطلاق سلخه عن فكرته ، وحشره في فكرة أخرى .

فقصيدته في مدح ذى السعادتين علي بن خلف توضّح رأينا فقد بناها الشاعر على ست أفكار أساسية :

الفكـرة الأولـى : وهـي مقدمـة حماسيـة استخـدم الشاعـر فيهـا ضميـر جمـع المتكلميـن ، وتتكـون مـن ثمانيـة عشـر بيتـا تغنّـى الشاعـر بهـا بشجاعتهـم ومـدى احتمالهـم للخطـوب الـى غيـر ذلـك مـن صفـات الفروسيـة مطلـع المقطـع : (متقـارب)

رَضِينَـا الظُّبَـى مِـنْ عِنـاقِ الظُّبِـا
وَضَـرْبَ الطُلـى مِـنْ وِصَـالِ الطُّلا (1)

أمّـا الفكـرة الثانيـة فهـي ذاتيـة محضـة تعتمـد علـى (أنـا) الشاعـر وهـي مبنيـة علـى نظـرة الشاعـر للحيـاة، ورأيـه فـي الصديـق ، وتدخـل هـذه الفكـرة ضمـن موضـوع القصيـدة ، وهـو المـدح ، اذ بيّـن الشاعـر فيهـا خصـال الصديق مـن وجهـة نظـره وهـو يعنـي بتلـك الخصـال ممدوحـه وإنْ لـم يذكـر اسمـه ، والفكـرة قائمـة علـى خمسـة عشـر بيتًـا تبـدأ بقولـه :

وإنّـي عَلـى شَغَفِـي بالوَقَـارِ
أحِـنّ إلـى خَطَـرَاتِ الصِّبـا (2)

وتتضمّـن الفكـرة الثالثـة مـن القصيـدة اشـادة الشاعـر بـآل الممـدوح والتغنّـي بأصالتهـم وكرمهـم وهـي مكوّنـة مـن أربعـة أبيـات بدايتهـا :

بَنِـيْ خَلَـفٍ أنتُـمُ فـي الزّمَـانِ
غُيُـوثُ المَطَـاءِ لُيُـوثُ الوَغَـى (3)

أمّـا الفكـرة الرابعـة فقـد ضمّنهـا الشاعـر صـادق حبّـه لممدوحـه ، والرابـط بيـن أبياتهـا الستّـة هـو القَسَـمُ الـوارد

---

1 ، 2 ، 3) الديـوان 1/ 40 ، 41 ، 42 .

في صدر البيت الأول ، وقد أورد الشاعر جوابه في صدر البيت السّادس ومطلع الفكرة قوله :

حَلَفْتُ بِسَابِحَةٍ فِي الفِجَاجِ
تَمْزُجُ أَخْفَافَهَا بِالذُّرَى (1)

ويدور فحوى الفكرة الخامسة على تنزيه الشاعر لممدوحه عن التنكّر للصداقة ، والتنويه بكرمه ، والاشادة بحسن أخلاقه وصدق بلائه وتتكوّن من ستّة أبيات تبدأ بقوله :

وَحَاشَاكَ أَنْ تَسْتَسِرَّ الوَدَادَ
وَتُرْمِدَ بالهَجْرِ طَرْفَ الهوى (2)

أمّا الفكرة السادسة والأخيرة فمطلعها قوله :

سَأَشْدُو بِذِكْرِكَ ما استَعْبَرَتْ
مَطِيٌّ يُثَلِّمُ فِيهَا الوَجَى (3)

وتتكوّن من ستّة أبيات ، وتقوم معانيها على وعد الشاعر لممدوحه على بقائه يلهج بذكره ، والمحافظة على ودّه ، والدعاء له بالسعادة والنعيم في جميع مراحل حياته .

وباستثناء الفكرتين الأولى والأخيرة يمكن نقل أيّة فكرة من الأفكار الأربع مكان الأخرى ، دون أن يصيب مبنى القصيدة أيّ خلل ، كما يلاحظ تشتّت في بعض أفكار القصيدة ، اذ يمكن للشاعر أن يضمّ الفكرة الخامسة

---

1) الديوان 1 / 40 ، 41 ، 42 .

2 ، 3) السابق 1 / 43 .

الى الفكرة الثانية ، لأنّ كلا الفكرتين تدوران في فلك واحد ، ألا وهو الممدوح وصفاته الاخلاقية .

فعناصر القصيدة من حيث البناء العضوي لا تمثّل تسلسلا فكريّا واحدا ، وإن وُجد نوع من الرابط العضوي في أبيات الفكرة الرابعة حين يربط اللاحق بالسابق .

ذلك من ناحية امكانية اعادة تنظيم الأفكار في صلب القصيدة ، امّا من ناحية نقل بيت من فكرة الى فكرة أخرى فذلك ممّا لا يمكن القيام به ولكن ذلك لا يضع من تقديم بيت على آخر في نسق الفكرة الواحدة أو حتّى الحذف دون اخلال بنظام الفكرة ممّا يعني استقلالية معنى البيت داخل الفكرة الجزئية التي يلتصق بها (1) ، فاعادة تنسيق الأفكار داخل اطار القصيدة لا يفقدها وحدتها المعنوية شريطة الابقاء على عنصري مقدمة القصيدة وخاتمتها في موضعهما .

ولكن وجود وحدة معنويّة في الكثير من قصائد الشريف لا يضع من وجود وحدة عضويّة في جزء كبير من شعره أيضا ، ويتمثّل ذلك في مقطوعات النسيب والوصف والكثير من قصائد الرثاء ، فمثل تلك القصائد والمقطوعات تمتاز بالترابط المحكم من حيث المعاني ومن حيث تسلسل الأفكار ، اذ لا مجال لحذف بعض أبياتها ، أو حتى التقديم والتأخير في أبياتها ، فالتسلسل الفكري يحتّم النظر الى القصيدة ككلّ منسجم فمن ذلك نسيبه (مجزوء الكامل)

---

1) راجع حديث الاربعاء 32/1 وما بعدها . وفي اعتقادي أنّ ذلك بعض ما عناه طه حسين بالوحدة المعنوية في دراسته لشعر لبيد .

يَـا غَائبـًا نَقَـضَ الـــوَدادَا
أَشْمَـــتَّ بالقُـربِ البِعَـــادَا
وَتركْتَنِـي ، وَالشّـــوْقُ يَـــــأ
بَى أَنْ يُـرَوِّحَ لِـيْ فُـؤادَا (1)

فالقصيدة بأبياتها الثلاثة عشر ، مناسبة في معانيها ، متناسقة الأفكار ، وسبب ذلك صدورها من مجرى عاطفي واحد مرتكز على موقف معيّن انفعل الشاعر به ، فصاغه كلاً مكتملاً ، فالتوسّل للحبيب والتضرع نحوه بنفسه المتأججة شوقا وهياما هو ما وحّد بين أجزاء القصيدة ، وهو ما نجده في الكثير من قصائده الوجدانيّة خاصّة تلك التي أُطلق عليها اسم الحجازيات .

لذلك فإنّ اعتماد الشريف في شعره على معين العربية في مصادرها الأصليّة لم يحل بينه وبين بناء قصيدته بناء يتناسب وتطور الأدب خلال القرن الرابع الهجرى ، وقد ظلمه قدماء النقّاد حين وجهوا جلّ اهتمامهم لحجازياته (2) ، وما ذلك الاّ لشعورهم بما في تلك المقطوعات من تلاحم أدّى بدوره الى ما يسمّى بالوحدة العضويّة حسب مفهوم النقد الحديث .

2) الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي
++++++++++++++++++++++++++++++++++

عاش الشريف الرضي في عصر طغت المادة فيه على كلّ القيم ، واصطبغت الحياة بتلك الصبغة المادية ، وتأثّرت حياة النّاس بما تولّد عن الحضارة الجديدة

---

1) الديوان 1 / 387 .

2) راجع ما قيل عن حجازيات الشريف عند زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي 2 / 85 .

من زخرف ، فانصرف الاهتمام الى العناية بالمظاهر الخارجية ممّا أدّى بهم الى المبالغة في التأنّق في كل أمورهم الحياتية ، فأثّر ذلك تأثيرا عميقا على الذوق العام ، اذ مالت الفنون الى التعقيدات الزخرفية الدقيقة ، كما مال الادب الى التأثّر بزخرف تلك الحياة انسياقا وراء الذوق العام ، فتركّز اهتمام الشعراء على استجلاب أكبر قدر من الصور السطحيّة ، وكد العقول لبلوغ الذروة في الصنعة الخالية في معظم الأحيان من النبض الابداعي ، كل ذلك كان على حساب الصدق العاطفي المنبع الأصيل للقصيدة الوجدانية ولصدق العاطفة ارتباط وثيق بالصورة الفنية اذ لا يمكن لشاعر أن يوصل ما يعتمل في نفسه دون الاستعانة باللغة وتفجير طاقاتها ، حتّى يتمكّن من التعبير بعمق وقوة ، وهنا يأتي دور الصورة الفنية كمصدر اشعاع ينير طريق الشاعر ويضح شعره بعدا تأمليا عميقا ، فالصورة في حقيقتها وليدة تأمّل الشاعر أثناء عملية الابداع ، فالجانب التأملي في تركيب الصورة يجعلها مرتبطة بالفكر من حيث تكوينها وبالاحساس من حيث تأثيرها ، وللعنصر الخيالي دوره الأساسي في بلورتها ، ولا يتأتّى لها التأثير العميق الاّ اذا جاءت في العمل الأدبي متوائمة مع تجربة الفنّان الصادقة ، ممّا يجعلها ذائبة في كيان القصيدة ، وهذا ما نفتقده بالنسبة للصورة وحيويتها في الكثير من شعر القرن الرابع ، ويعود ذلك الى تعمّد أولئك الشعراء واجهاد أنفسهم في استجلاب الصورة ، ولكن بقراءتنا لشعر الشريف الرضي نشعر بأنّ الصورة الفنية فيه ليست غاية يعمد الشاعر الى ابرازها ليبرهن على مقدرة يغلب عليها التصنّع ، وإنّما هي إحدى وسائله في ايصال ما يختمل في أعماقه من احساسات ، فمواطفه الجياشة ، وتقلبه في مجتمعه بين الطموح والفشل

والسرور والألم ، حتّم عليه التعبير عن كلّ ذلك بالكلمة ، ولكن الكلمة بمعناها القاموسي الجاف لا تفي بالتعبير عمّا يجيش في النفس فكان الاعتماد على تفتيق معاني اللغة وتوليد الصورة الفنية من خلال تلك المعاني هو الطريق الذي يمكّنه من البوح بها في تلك النفس من تدفّق عاطفي وعلى هذا فقد وردت الصورة الفنية في شعره على شكلين :

1- صور جزئيّة
==========

2- صور مركبة
==========

1) الصور الجزئيّة
++++++++++++++++++

ونقصد بها تلك الصور الفنية المفردة التي ترد في كثير من الأحيان خاطفة وتقوم بدور أساسي في تجسيد المعاني ، وترد مثل هذه الصور الجزئيّة في شعر الشريف ممتزجة بالنفس الشعري ، ذائبة في كيان النص ، بحيث لا يمكن بترها منه في معظم الأحيان ، خاصة في تلك القصائد الوجدانية الخالصة التي يتغنّى الشاعر فيها بأحاسيسه ، ممّا يَسِمُها بالصدق والعفوية ، فمن تلك الصّور التشبيه في قوله : (طويل)

بَنُو هَاشِمٍ عَيْنٌ ، وَنَحْنُ سَوَادُهَا
عَلَى رُغْمِ أَقْوَامٍ ، وَأَنْتُمْ قَذَاتُهَا
وَمَازِلْتُمُ داءً يُغَرِّي إِهَابَهَا
وإِنْ كُنْتُمُ مِنْهَا وَنَحْنُ أُسَاتُهَا (1)

---

1) الديوان 1 / 213 .

فقد استطاع الشاعر في تشبيهه أن يقصر فخره على فخذ من بني هاشم ، هو الفخذ الذى ينتمي اليه ، فتشبيهه بني هاشم بالعين التي يُرى بها كلّ شيء ، لم يمنعه من تشبيه آل بيته بالسواد ، وهو الجزء الأساسي الممكن للعين من الرؤية ،ولكي تكتمل الصورة ، وتظهر بجلاء مكانة قومه السامقة ، فلقد صور: الهاشميين من غير آل البيت بالقذى في البيت الأول والداء في البيت الثاني ، وبنى تشبيهه على أمور حسية خالصة ، لكن بلاغته تتجلّى في اضمار أداة التشبيه اضافة الى ما تتضمنه الصورة من بعد سياسي ، فالذين يعنيهم بالقذى والداء في البيتين هم أبناء عمومته من بني العبّاس ، فالعين هي الهادي والرشيد فإذا أصابها العطب فانها تؤدّي بأصحابها الى السير في المتاهات والمهالك ، وكذلك بني العبّاس بالنسبة لمسألة الخلافة .

ولو لاحظنا تلك الصورة داخل سياق القصيدة ، لوجدنا أنها قد وردت ملتحمة تماما مع البناء الحماسي المسيطر على القصيدة ، دون تصنّع أو تكلّف ، لأنّه استوحى أجزاءها من صميم ما يؤمن به ويعتقده ، فحسّية التشبيه لم تحل بين الشاعر وبين تجسيد الصورة بجزأيها الجميل ، والباعث على التقزز والاشمئزاز في آن واحد ، فالمعين النفسي هو المصدر الأساسي لاعطاء صور الشريف الحيوية ، لأنّ لحظات تأسيه تمدّ خياله الخصب بصور تكاد تعبر عمّا تختزنه نفسه من ألم مصدره الشعور بالهضيمة والظلم ، فقوله : (كامل)

قُلْ للذيـنَ بَلَوتُهُـم فَوَجَدْتُهُـــم
آلاً ، وَغَيـرُ الآلِ يَنْقَـعُ غُلّتِـي (1)

مـا هـو الاّ تعبيـر عـن خيبـة الأمـل والاخفـاق ، بعـــد أن تكشفـت لـه حقيقـة علاقتـه بأبيـه ، فالآمـال التـي شيّدهـــا والأحـلام التـي عقـد العـزم علـى تحقيقهـا بمسانـدة ذلـــك الأب لـم تكـن سـوى سـراب ، لا يـؤدّي الـى الغايـــات وتشبيهـه لأخـلاق ووعـود مـن احتـكّ بهـم وعقـد العـزم علـى مساندتهـم بالسـراب ، هـو فـي حقيقتـه تعبيـر عـن خيبـة الأمـل والضيـاع ، المتجسّـد فـي جميـع أبيـات القصيـدة وقـد ورد البيـت المذكـور وكأنّـه المفتـاح لمعانـاة الشاعـر الحقيقيـة تجـاه أقـرب النّـاس اليـه .

هـذا بخصـوص التشبيـه ، أمّـا الاستعـارة فلـم تـرد فـي شعـره طافيـة أو فضوليـة القصـد منهـا اظهـار مهارتـه التصويريّـة ، بـل وردت فـي شعـره لتـؤدّى دورا أساسيّـا فـي تجسيـد المعانـي وتعميقهـا وصبغهـا بصبغـة جماليـة لانسيابهـا داخـل النـص فـي عفويـة ، ومـن ذلـك جمعـه بيـن الاستعـارة والتشبيـه فـي قولـه : (طويـل)

تَمُـرّ بِنَـا الأيّـامُ غَيْـرَ رَوَاجِـعٍ
كَمَا صَافَحَـتْ مَـرَّ السّيـولِ الجَلَامِـدُ (2)

---

1) الديـوان 1 / 220 . والآل هـو السـراب .

2) السابـق 1 / 305 .

فالمـــــرور مـن صفـات الكائـن الحـي والمصافحـة مـــن صفـات الانسـان وقـد استعارهمـا الرضـي للأيـام وهـــي مـن الأمـور المعنويـة وللجلامـد وهـي مـن الأشيـاء الحسيّة كمـا شبّـه سرعـة مـرور الأيّـام بمـرور المـاء فـي سيلانـــه وهديـره علـى الصخـور فسرعـان مـا ينزلـق ذلـك المـــاء عنهـا دون أن يتـرك أثـرا لعـودة ثانيـة ، فالصـــــورة بتداخلاتهـا المعنويـة والحسيـة تجسّـد التدفّـق العاطفـــي فقـد جـاء البيـت كنتيجـة لمعانـاة عاشهـا الشاعـر فأتـــت صـوره متساوقـة مـع الاستعـارات الـواردة فـي البيـــــت السابـــق لـــه :

نُصَافِي المَعَالِي والزّمَانُ مُعَانِـــدُ
وَنَنْهَـضُ بالآمَـالِ وَالجَـدُّ قَاعِدُ (1)

فالمصافـاة والمعانـدة ، مـن الأمـور المعنويـة الصـادرة عـادة عـن طبيعـة نفـس الانسـان ، أمّـا النهـوض والقعـود فهمـا حركتـان حسيتـان عـادة مـا تصـدران عـن الانسـان ، وقـد قـرن الشاعـر كـلّ ذلـك بأمـور معنويّـة هـي المعالـــي والزمـان والآمـال والجـدّ جسّـد فيهـا الحركـة وبـثّ فيهـا الحيـاة عـن طريـق الاستعـارة ، ومـا هـذا التجسيـــد والحيويّـة الاّ صـدى لنفـس الشاعـر ، ولمـا كانـت نظرتـــه للحيـاة نظـرة المتلهّـف للوصـول الـى غاياتـه ، وهـو موقـف عـادة مـا يـؤدّي بالنفـس الـى التأرجـح بيـن الأمـــل واليـأس ، فيتمنّـى لـو استطـاع أن يوقـف عجلـة الزمـن حتّـى يتسنّـى لـه تحقيـق طموحاتـه قبـل فـوات الأوان .

---

1) الديـــــوان 1 / 305 .

فالارتباط العضوى أو المعنوى في شعر الشريف يحيل الصورة الفنية الى نوع من الاشعاعات المضيئة المنسجمة مع نفسيّة الشاعر ومرجع ذلك ما أضفاه وجدان الشاعر على الكلمة من نبض وحيوية ابّان لحظة التجلّي فقوله : (طويل)

طَلَعتَ عَلى بَغدادَ والخَطبُ فَاغِرٌ
فَعَادَ ذَمِيمًا يَنْزِعُ النّابَ والظُّفْرَا (1)

يحوي - في عرف البلاغة العربية - استعارة مكنية في تشبيهه الخطب وهو أمر معنوي بالحيوان الشرس وهو شيء حسّي ، وقد ذكر بعض لوازم المشبّه به ، ولكن هذا التحليل لا يعنينا بقدر ما تعنينا الصورة الفنية ككلّ بما حوته من تجسيد عن طريق استخدام الخيال حين حاول الشاعر تبيان أهمية ممدوحه وحاجة مجتمعه له في الأوقات العصيبة ، وتتضح مكانة الصورة وأهميتها في موقعها من سياق القصيدة ، اذ لا يمكن ادراك قيمتها الاّ من خلال وظيفتها في صلب النص الذي وردت فيه .

أمّا الكنايات فعلى ندرتها في شعر الشريف ، فمن الصعوبة بمكان ادراكها ، فهي بعيدة الغور ، ذائبة تماما في كيان النص الشعري ، بحيث لا يمكن لمحها الاّ بتأمّل وامعان نظر وهذا يعني أنّ فصلها عن النص يفقدها عمقها المعنوي فقوله : (طويل)

---

1) الديوان 1 / 419 .

يَطولُ اذًا هَمّي ، إذا كَانَ كُلّمَا
سَمِعْتُ نَبِيحًا مِنْ كلابٍ خَسَأتُهَا (1)

فقد كنّى عن غوغاء أعدائه وزعيق من يحسدونه بنباح الكلاب ، اضافة الى استعارته بوصف الهم بالطول ، والطول من صفات الأشياء الحسية ، ولقد استخدم الشاعر الخيال ليخرج عن المألوف في تبيان موقفه من أولئك الأعداء والمتمثّل في عدم الاكتراث بهم ولكن لا يمكن تخيّل ذلك الموقف جليا الاّ من خلال وضع البيت في السياق الذي ورد فيه ملتحما ببقية معاني وأخيلة القصيدة.

وقد لا تقتصر الكناية في البيت على كلمة أو عبارة منه بل تشمل البيت بأكمله كما في قوله : (مجزوء الكامل)

مُسْتَنْجِدُونَ عَلى البِعَا
دِ ، وَمُنْجِدونَ على الحُضُورِ (2)

فالبيت بأكمله كناية عن صلة الرحم والسمو والرفعة بغض النظر عمّا ورد فيه من جناس بين مستنجدون ومقابله بين شطريه الأول والثاني فالكناية هنا تحتاج الى شيء من التأمّل ليتسنّى ادراكها ، ولا يتأتّى ذلك التأمّل الاّ من خلال ربط البيت ببقيّة أبيات المدح الوارد في سياقها .

---

1) الديوان 1 / 212 .

2) السابق 1 / 428 .

لكن القول بارتباط الصور الجزئيّة ببناء القصيدة العام لا ينسحب على جميع شعر الشريف ، خاصّة وانّ انبثاق الصورة - عند الشاعر الحق - يتولّد من موقفه العاطفي ، فكلما تعمقت العاطفة كلما انفعل الشاعر بالموقف ، ممّا يتيح للخيال أن يلعب دورا في استجلاب الصور المجسّدة لذلك الموقف ، وهذا يعني أنّ الصورة في الشعر ليست ترفًا ، لأنّ خيال الشاعر يعمل على استجلابها حين تعجز اللغة بمعانيها القاموسية عن أداء دورها في تبيان ما يعتمل داخل أعماق الشاعر من معان ، فصدق الموقف وذوبان نفس الشاعر واندماج روحه في تجربته الشعرية يضفي على الصورة العمق ، والجمال ، والقوة ، وهنا يجب أن ندرك أنّ التدفّق العاطفي - عند الشاعر - لا يكون متساويا في قوته في جميع الأوقات ، لأنّ تجارب الحياة ليست سواء ، فقد تكون تلك التجارب قويّة زاخرة في وقت ما ، وقد تكون باردة ضعيفة في وقت آخر ، وتبعا لذلك يصيب العاطفة القوة أو الفتور ، فينسحب كل ذلك على انتاجه الأدبي المتشكّل من المعاني والصور ، فضعف التجربة وفتور العاطفة ينعكس على صور الشاعر وأخيلته فيسمها بالتقريريّة .

ويمكن تطبيق ذلك على مدائح الشريف ، لأنّ مدائحه تختلف من حيث بنائها العاطفي ، باختلاف مواقفه من ممدوحيه ، لذا فقد ورد الكثير من صوره الجزئية في الكثير من مدائحه - لمجرد المبالغة في تعظيم الممدوح - ارضاء له واشباعا لغروره ، من ذلك قوله في مدح قوام الدين البويهي : (متقارب)

يَـدُلُّ الضُيـوفَ علـى دَارهِـــمْ
سَنَا المجدِ أَوْ طيبُ عَرفِ الخِـلالِ
بِنَارِ المَقَارِي وَنقعِ الغُبَـــارِ
تَشَابَـهُ أيّامُهُـمْ ،وَاللّيَالـــــي
لَقَـدْ نَطَـحَ الجَـدُّ أعداءَهُـــم
بـرأسٍ جَمُـوحٍ وَرَوْقٍ طُـــــوَالِ
لَهُـمْ صَفحـاتٌ كَبَيـضِ الصّفيـــحِ
حَلاهُـنّ عن جَوْهَـرِ المَجْدِ حَالِ (1)

فالصـور فـي الأبيـات مـع تلاحقهـا تكـاد تكـون تكـــرارا لصـور المـدح التقليـدي فقـد بـثّ الشاعـر الـروح فـي المجـد وفـي الخصـال الحميـدة فأصبحـا كالهـادي والدليـل لديـــار ممدوحيـه كمـا كنّـى عـن جودهـم وكرمهـم بـدوام اتقـاد النّـار وعـن شجاعتهـم وبأسهـم بمـا تثيـره خيولهـم مـن غبـار فـــي المعـارك ، وقـد استحـال الجـدّ الـى حيـوان هائـج ينطـــح أعـداء الممدوحيـن ، فالصـور كمـا نلاحـظ صيغـت بأسلـوب قـوي متيـن الاّ أنهـا خاليـة مـن الانسيـاب الخيالـي النابـض المجسّد لانفعـالات الشاعـر لأنّـه لـم يلونهـا بعاطفتـه ، فهـي فـــي حقيقـة أمرهـا مـن الصـور المصطنعـة ، مثلهـا مثـل معظـــم صـوره التـي تـرد فـي سيـاق الجـزء الرسمـي مـن مدائحـه .

2) الصـــــور المركبـــــة
++++++++++++++++++++

يتميّـز شعـر الشريـف فـي كثيـر مـن نواحيـه بالتجسيـــد عـن طريـق وضعنـا أمـام مشهـد متكامـل للصـورة المتخيلـــة ، فتتـآزر المعانـي مـع أساليـب البيـان المختلفـة فـي كيـــان الشاعـر ، فيعيـد مـن خلالهـا صياغـة المشهـد صياغـة تشعـــر

---

1) الديـــــوان 2 / 147 .

النفس أثناء تخيله في سياق القصيدة ، بخصوصة خيال الشاعر وبعبقريته في بث الحياة في كل جزء من أجزاء ذلك المشهد .

والصورة المركبة في شعر الشريف لا ترد على نمط معيّن ثابت ، فهي ليست متكررة أو جاهزة يضمنها شعره متى شاء ، وإنّما هي وليدة تجاربه ، لذا فهي معبّرة عن عميق مشاعره ، وصدق احساساته تجاه المشهد ، حيث يسبغ عليه من فيض عاطفته ما يبثّ الحياة فيها ، وفي هذه الحالة تصعب دراسة الصورة أو حتّى معاينتها - داخل بناء القصيدة - كأجزاء منفردة رغم تعدد جوانب الثراء فيها ، كما أنّ ورودها في النص يتماشى مع الموقف التأملي للشاعر أثناء عملية الابداع ، فيغلب عليها الطابع النفسي اذا كانت نفس الشاعر منفعلة تجاه موقف متعلّق بشخصه كما في قوله : (طويل)

فَكَمْ زَعزَعتْنِي النّائِباتُ فلم أُزِلْ
لَهَا قَدَمي عَنْ وَطأَةِ المُتشبّتِ
وَكَمْ صَاحَتِ الأيّامُ خَلفي بِرَوعَةٍ
فَصِرتُ بِعَيْنِ الجَازِعِ المُتلفّتِ
تَسُلّ عليّ الحادِثاتُ سُيُوفَهَا
فَمِنْ مفمد قَدْ نَالَ منّي ومُصْلِتِ
زَمَامِي بكفّ الدّهرِ أتبعُ خطوَهُ
وَمَا الدّهرُ إلاّ مَالِكٌ للأزمّةِ (1)

فالأبيات الأربعة تعبير عن موقف نفسيّ من الدهر ، صوّر الشاعر فيها معاناته ، فجسّد النائبات وبث الروح في الأيّام ، وجعل من الحادثات فرساناً تلاحقه بسيوفها ، وصوّر

---

1) الديوان 1 / 207 .

نفسه المنقادة كالجمل المقاد من زمامه والدهر قائده ، كلّ ذلك في لوحة واحدة اطارها الحياة التي يعيشها فالمشهد بكلّ جزئياته تعبير عمّا في نفسه من أسى ، فامتزاج أجزاء الصورة الخياليّة ، بما فيها من استعارات وكنايات وتشبيهات ، كان القصد منه تعبير الشاعر عمّا يعتمل في نفسه من هموم ، فالمزاوجة بين الأشياء الحسية كالسيوف والأزمّة والأمور المعنوية كالصباح والأيّام والحادثات والدهر وصهرها في بوتقة الروح ، لم تكن اعتباطيّة ، لأنّ اللحظة الشعورية التي عاشها الشريف هي التي منحت تلك الممازجة بعدها النفسي الصادق لذا فقد غلب العنصر النفسي على عنصري الخيال والحسية في المشهد .

وتتجلّى عبقريته في قدرته على التجسيد عن طريق الكلمة وذلك حين يتصدّى لوصف مشهد معيّن ، ففي وصفه لرحلة عبر الصحراء ليلاً يقول : (طويل)

سَللنا رِقابَ العِيسِ من خَلَلِ الدُّجى
تُلاعِبُهَا أَشْطَانُهَا والمَقَاوِدُ
وَقَدْ حَفَّ بالبدرِ النّجُومُ كأنّهُ
هَدِيٌّ تَهَاداهُ الإمَاءُ الولائِدُ
وَفي أعيُنِ القَومِ انضِمَامٌ مِنَ الكَرَى
وَطَرْفُ السُّرَى بَيْنَ الأزِمّةِ شَاهِدُ
فَمُضْطَرِبٌ في غُرْزِهِ مُتَرَنِّحٌ
وآخرُ مكبُوبٌ على الرّحلِ سَاجِدُ
وَغائرةٍ قَدْ وَقّرَ النَّوْمُ لَحْظَهَا
تُسَفّهُ جَفْنَيْهَا الهُمُومُ العَوائِدُ (1)

---

1) الديوان 1 / 305 ، 306 .

فتفاعل الشريف الرضي مع المشهد أيقظ في وجدانه ايماضات تلك الصورة المركبة ، فألمّ فيها بكلّ جزئياته الساكن منها والمتحرك ، فالكلمة لم تعد جامدة ،أو متقوقعة في محيطها القاموسي ،بل استحالت الى جزء معيّن من ذلك المشهد ، فبالرغم من المدة الزمنية الفاصلة بيننا وبين الشريف ، الاّ أنّه ما يزال في مقدورنا استلهام المشهد وتصوّر كلّ دقائقه الجزئية وتذوقه . بما منحه الشاعر ايّاه من أبعاد لونها بوجدانه ، وأغدق عليها من فيض عاطفته ، فمشهد سرعة الجمال في قوله " سللنا رقاب العيس" هو المحور الرئيسي للمشهد ، فحركة امتداد وارتفاع وانخفاض أعناق المطايا وهي تعبر الفيافي وتشق بحار الرمال ، مثل سرعتها في ذلك مثل السيوف عند انسلالها من أغمادها ، وما يرافق ذلك الانسلال من ايماضات سريعة خاطفة ، خلال ظلام أطبق على الكون ، فاستحالت السماء في صفائها وكأنها موكب عرس ، عروسه البدر وقد حفّت بها النجوم في موكب فرح عظيم .

هذا بالنسبة للطبيعة ، أمّا أولئك المسافرون الذين امتطوا ظهور الجمال ،فقد غالبهم النعاس ، حتّى لم تعد عيونهم قادرة على مغالبته ، مع ملاحظة تعبير الشاعر المصور في قوله " انضمام من الكرى " بدلا من استخدامه لكلمة " الغمض" لما في كلمة " الانضمام" من حركة تنم عن محاولة في مغالبة الجفون للنوم ، وكان الشاهد على حال أولئك القوم هو " السرى " حين جعله الشاعر رقيبا على أولئك المسافرين الذين أنهكهم طول السفر

وهدهم كثرة الترحال فمن مضطرب يهتز في رحله جيئة وذهابا ، ومترنّح كالثمل يتمايل يمنة وشمالا وثالث لم يعد في استطاعته مقاومة النوم فانكبّ على رحله ساجدا ومن عيون سهرى اكتفت بنزر نوم القيلولة فباتت الجفون تهزأ بما تجلبه النفوس من هموم .

فالصورة بكلّ جزئياتها قد شملت جميع المشهد بكلّ أبعاده فلم يعد هناك ثمّة فراغ في اللوحة التي دبّجها الشاعر بتأملاته العميقة وخياله الخصب ونفسه المرهفة ، وان غلب عليها التجسيد المدرك النابع من معايشة الشاعر للمشهد ممّا يجعل طابع الحسية هو الغالب عليها .

ولكن للخيال دوره أيضا في بلورة الصورة الشعرية عند الشريف وهذا لا يعني أنّ عنصر الخيال مفقود في صوره المركبة النفسية منها والحسية فكلّ صورة من الصور الثلاث لا تكاد تخلو من العناصر الثلاثة النفسية والحسية والخيالية ولكن غلبة هذا العنصر على العنصرين الآخرين يجعلها تميل نحو ذلك العنصر الغالب ، فغلبة عنصر الخيال تظهر في قوله : (خفيف)

قد لبستُ الخُطوبَ سودًا وبيضًا
وَقطعتُ الزّمانَ طُولاً وَعَرْضَا
وَوَردتُ الأُمورَ صفوًا ورنقًا
وَرَعَيْتُ الآمَالَ رَطبًا وَحَمضَا
وتلفعت رَيطةً مِنْ بياضٍ
أنا راضٍ منها بما لَيْسَ يُرْضَى
أُبرِمتْ لِي مِنْ صَنعَةِ الدّهرِ لا
يُسرِعُ فِيْهَا إلاّ الفَنَايَا نَفْضَا (1)

---

1) الديوان 1 / 577 .

فالصورة كما نلاحظها بجميع أجزائها منتزعة من نفس الشاعر الاّ أنّ لعنصر الخيال الدور البارز في تجسيدها ، فمركباتها التقطت من أشياء ليست موجودة على أرض الواقع ، اذ أصبحت الخطوب جسدا يكتسي الملابس والزمان مساحة له طول وعرض والأمور سائلا يصفو ويكدر ، والآمال احساسا وطعما ، وكلّ ذلك ممّا لا وجود له في الواقع المعاش ، فالألوان والمساحات والمذوقات هي صفات للأمور الحسية ، فإذا ما استخدمت كصفات للأمور المعنوية فإنها تخرج عن مدلولاتها الى مدلولات أخرى يعبّر بها عن موقف معيّن، ووضعها في اطار خيالي يوحي بذلك الموقف ، أو بما يسمّى بلحظات التجلّي التي تسرح خلالها روح الشاعر لتلتقط أجزاء الصورة المتناثرة وتعيد تناسقها بما يتناسب والجو النفسي أثناء لحظات الابداع التي تنير معالم الروح ، ممّا يجعل وصف المشهد كثير التعقيد " فلحظة الحدس تضيء ظلمة ضمير الشاعر وأعماق وجدانه الغائر المبهم ، وتنقل منه أحوالا ومضاعفات كثيرة التقمّص واللبس" (1) فالشريف الرضي أثناء نسجه لغالب صوره ، والمركبة منها على وجه الخصوص ، انما يعانيها كجزء من تجربته فيلتقط أجزاءها من أعماق نفسه ، لذلك فمن الصعب تفتيتها لجزئيات منفصلة عن جسم القصيدة.

2- البديع اللفظي والبديع المعنوي في شعر الشريف الرضي

ينتمي الرضي الى مدرسة الشعراء المحافظين ، اذ يعتبر من الشعراء التقليديين في عصره ، فخروجه على

---

1) ايليا حاوى - فن الوصف في الشعر العربي ص 15 .

المقدمة الطللية لم يكن من الأمور التي أدّت به الى الثورة على البناء التقليدى القديم ، بل انّ ذوبان روحه في ذلك الشعر القديم ، أدّى به الى اقتفاء آثاره باستخدام الأساليب البدوية في معظم شعره ، لذا فقد ورد البديع عنده عفويا ومنسجما مع النص الشعرى من حيث لفته ومضونه ، لأنّه لم يكن غاية لذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل التعبير المتعددة التي يعمد اليها للافصاح عمّا يعتلج في نفسه من أحاسيس ففي قوله : (كامل)

لو شَابَ طرفٌ شَابَ أسودُ ناظري
من طُولِ مَا أنا في الحَوادِثِ نَاظِرُ(1)

ترديد بين الفعل شاب ومتعلقه طرف ، وبين الفعل شاب ومتعلقه أسود ناظرى ، كما ورد في البيت جناس مماثلة في كل من ضرب البيت وعروضه ، والملاحظ أنّ كلا من الترديد والمجانسة - ران تزاحمتا في البيت - لم تردا عبثا لاستعراض براعة لفظية ، فالترديد في المصراع الأول منح المعنى بعدا تأمليا ، فيه دلالة على دقّة ملاحظة الشاعر في تصوره للأشياء من حوله ، فالشيب لا يفزو سواد العينين بطبيعة الحال ، وهي بديهة لحظها الشاعر من خلال نظرته لنفسه الملأى أسى اذ لو كان كذلك لابيضّ سواد عينيه وشاب من كثرة تأمله في مآسي الحياة ومحنها ، أمّا المجانسة بين " ناظرى وناظر " فالأولى تعني حاسة البصر العين أمّا الثانية فهي اسم فاعل يعني الرؤية والتأمّل ، فالتكرار

---

1) الديوان 1 / 436 .

لم يثقل البيت من ناحية الجرس اللفظي ولا من ناحية غموض المعنى ، فقد ورد منسجما وما يريد الشاعر البوح به من أسى ، أمّا التزاحم فيدلّ على اكتظاظ نفس الشاعر بالمعاني المعبرة عمّا في الحياة من انسجام وتنافر ، فلحظات التحامه بالتجربة والبحث في خبايا نفسه عن التعبيرات المناسبة لها ، تجعل التكرار أمرا طبيعيّا لما فيه من تأكيد الذات والتعبير عن مكونات النفس .

فجناس المماثلة في قوله : (مجزوء الكامل)

نَأبَى التّعَزّي ثُمّ يُلْحِقُنَا الزّمَانُ بِمَنْ تَعَزّى (1)

فيه دلالة دقيقة على اضطراب نفس الشاعر بسبب انتقال روحه عبر الزمن وتصور مصيره من خلال نظرته الى مصير الانسانية جمعاء من حوله ، فالمجانسة في البيت - بتصريفها بين الزمن الحاضر وبين الزمن الماضي - هي في حقيقتها محاولة هروب من الواقع وانصياع له في آن واحد ، لذا لم يعد دور المحسن البديعي هو اضفاء الزينة على البيت بل تعدّاه ليلعب دورا أساسيا في تعميق المعنى ، واضفاء نوع من التأمّل الفلسفي على نظرتنا في مصير الانسانية .

وقد يوظّف المحسن البديعي لغاية جمالية بحتة بهدف اظهار براعته في السيطرة على مفردات اللغة وخلق الجو الموسيقي بالموائمة بين أصواتها كما في

---

1) الديوان 1 / 544 .

قولـــــه : (متقـــارب)

رَضِينَـا الظُّبَـى من عِنـاقِ الظِّبَـا
وَضَرْبَ الطُّلى مِنْ وِصَالِ الطَّلا (1)

اذا استخـدم الشاعـر فـي بيتـه نوعيـن مـن الصنعـة اللفظيـة همـا : السجـع المطـرّف فـي قولـه " الظبـى والظبـا والطلـى والطـلا " ، وجنـاس المماثلـة بيـن لفظـي " الظبـى والظبـا" وبيـن لفظـي " الطلـى والطـلا " ، فأضفـت تلـك المحسنـات اللفظيـة ـ علـى البيـت ـ جـوا موسقيّـا منسجمـا ، فحسـن اختيـار الشاعـر لألفاظـه ، مـن حيـث المعنـى ومـن حيـث الجـرس ، جنّبـه التكلّـف الممقـوت ، فالصنعـة اللفظيـة برغم كثرتهـا فـي البيـت فانهـا لـم تثقلـه أو تعقـد معنـاه لادراك الشاعـر قيمـة الجـرس اللفظـي مـن حيـث المكانـة والوقـت . أمّـا مـن المكانـة فيبرزهـا مـا يضفيـه التجانـس اللفظـي مـن بعـد علـى المعانـي كمـا فـي جنـاس المضارعـة مـن قولـه : (خفيـف)

قـدْ بـلاكَ الأعـداءُ حُلـواً ومـرّاً :
وَبلَـوْا شيمَتَيـكَ لِينـاً وَعُنْفَـا
فـرأوك الحُسَـامَ قَـدّاً وقَطّـاً
ورأوكَ الغَمَامَ وَبْـلاً وكَفّـا (2)

---

1) الديـوان 1/ 40 والظبـى مفـرده ظبـة وهـو حـد السيـف الظبـا ومفـرده ظبيـة الغـزال ، الطلـى ومفـرده طليـة وطـلاة : العنـق ،الطـلا : ولـد الظبيـة ساعـة يولـد .

2) السابـق 2 / 10 .

فالمحسن البديعي المعنوى في شطري البيت الأول قد ازداد قوة وجمالا باستخدام الشاعر للمحسن اللفظي في بيته الثاني ، باضفاء صفات كريمة على شخص الممدوح في حالتي السرور والغضب مؤكّدا بذلك التجنيس اللفظي ما ورد من صفات للممدوح في البيت الأول وما يتضمنه من اختبار لقدرة الممدوح في قوله " فرآك " فالرؤية هنا هي المعاينة والمعايشة بعد الاختبار ، اذ لا يقصد الشاعر بالرؤية ، النظر بالعين والسياق يدلّ على ذلك .

أمّا من حيث التوقيت ، فالشريف لا يقحم المحسن البديعي اقحاما في شعره ، بل يرد طبيعيّا وفي ندرة ، حتّى لتكاد تقرأ القصيدة الطويلة فلا تجد صدى للمحسن البديعي اللفظي فاذا ورد فدونما تتابع ، وندرته هي السر في تقبله والاحساس بجماله لما يضفيه على القصيدة من جو موسيقي متولّد عن اختيار ألفاظ وتعابير مركبة من حروف بعيدة عن التنافر والتعقيد .

وللمحسنات المعنوية دور أوسع وأشمل من دور المحسنات اللفظية ، فاستخدامه للمطابقة له من الدلالات الواسعة والبعيدة ، فدورها الجمالي يعتبر ثانويا اذا ما أخذنا في اعتبارنا دورها الأساسي في خدمة المعنى ، فطبيعته كشاعر ذي احساس مرهف دقيق ، جعلت نظرته للأشياء تتخذ نمطا مغايرا لنظرة الكثير من شعراء عصره الذين صبّوا جلّ اهتماماتهم على

مثل تلك الأساليب البديعيّة لتغطية الخواء في تجاربهم ، فالرضي ليس في حاجة لمثل ذلك الغطاء الزخرفي ، لأنّ تجربته الواسعة العميقة هي التي تحكم أسلوبه وتمدّه بالعمق والحيوية ، فالطباق والمقابلة في الكثير من شعره يعبران عن جزء واسع من رؤيته للوجود وموقفه من الحياة فقوله : (متقارب)

أُكاشِرُ أبناءَ هذا الزمانِ
وأهزأُ مِنْ نُبْلِهِم بامْتِدَاحِي
فبينَ البواطنِ حَلُّ الطّلاقِ
وَبَيْنَ الظّواهِرِ عَقْدُ النّكَاحِ (1)

تعبير عن تجربة عاشها الشاعر ففرضت عليه التصنّع والتظاهر بما لا يرغب فيه ، كابتا احساساته ، وقد تجسّد كلّ ذلك في المحسن المعنوى المتمثّل في المقابلة التي وردت في بيته الثاني والمرتكزة في معانيها على علاقة الشاعر بالمرأة (2) .

فتوظيف الشريف الرضي لأساليب التضاد ، وأساليب الايجاب والسلب ، متولّد معظمه عن معاناة حقيقيّة ، وصراع داخلي حاول كبح جماحه خاصّة حين يجد نفسه حائرا بين موقفين متناقضين ومتضادين في آن واحد كما في قوله : (كامل)

نظروا بعينِ عداوةٍ لو أنّها
عينُ الرضىٰ لاستحسَنُوا ما استقْبَحُوا (3)

---

1) الديوان 1 / 248 .
2) راجع مكانة المرأة في نفس الشريف في الفصل الخامس من الباب الثاني ص من هذه الدراسة .
3) السابق 1 / 260 .

ففي البيت مقابلة بين كلمتي " عداوة ورضى " وقد رشّح الشاعر مقابلته تلك بطباق التضاد في قوله " استحسنوا واستقبحوا " ، وفي تحليلنا لتلك المحسنات المعنويّة سنجد أنها لم ترد في البيت عبثا ، اذ أنها تنطوي على معنى اصرار الشاعر في السير على النهج القويم الذي اختطه لنفسه مدركا بأنّ خصومه لن يقبلوا ذلك منه لأنّ استحسان القبح أمر مسلم به في عين المحبّ، وكذلك الايجاب والسلب فهما تعبيران ينمّان عن لوم الشاعر لمن سمحت لهم أنفسهم بتسليم أبيه ففي " ليس وبل " في قوله : (بسيط)

ليس الملومُ الذي شدَّ اليدين بهِ
بل الملومُ المُرزّا مَنْ بهِ سَمَحَا (1)

مقابلة سلب وايجاب استخدمها الرضي لتبيان مكانة أبيه في مجتمعه فاستخدامه للسلب ب "ليس" ، في مقابل الايجاب بحرف الجواب " بل " أعطى قيمة رفيعة لما ورد بعد "ليس" وحطّ من قيمة ما ورد بعد بل ، بالاضافة لما تضمنته المقابلة من لوم مغلّف بالأسى ، وفي ذلك دلالة على احساس الشاعر المرهف في تطويع أساليب اللغة لتتناسب وما في نفسه من شحنات تعبيريّة فاحساسه بما يحوي طباق السلب والايجاب من أبعاد معنويّة عميقة جعله يكرره كثيرا في شعره ولأغراضٍ مختلفة منها : (بسيط)

ليسَ الغريبُ الذى تنأى الديارُ بهِ
انّ الغريبَ قريبٌ غيرُ مَودُودِ (2)

---

1) الديوان 1 / 245 .

2) السابق 1 / 313 .

فغربة الانسان بين أهل وأقارب لا يحبونه ولا يواطنونه العيش أمر مسلم به .

وقد يستغني الرضي عن ليس في مقابلته السلب بالايجاب ، وحينئذ يبدأ بالايجاب ، ليبيّن من خلاله تفرده بصفات معينة ، أمّا السلب فقد ضمّنه الشاعر اساه لافتقاده الصداقة الحقّة . ففي حديث مع نفسه يقول : (طويل)

كفَى حَزناً أنّي صديقٌ وصادقٌ
ومالِيَ مِنْ بينِ الأنامِ صديقُ
فكيفَ أُريغُ الأبعدِينَ لخلّةٍ
وهذا قريبٌ غادرٌ وشقيقُ (1)

وللاعتراض المسمى عند البلاغيين بالتتميم مكانته البارزة في شعر الشريف فهو تارة يؤدّي دور الاستمرارية كما في قوله : (بسيط)

بَانُوا فكلّ نعيمٍ بعدَهُم كمدٌ ،
باقٍ ،وكلّ مساغٍ بعدهُمْ شرقُ (2)

فالاعتراض بقوله " باق " تضمن معنى الاستمرارية والدوام وقد يرد الاعتراض عنده لوصف الحال مثاله (طويل)

نميلُ عليهَا بالسّياطِ ، نوازعاً ،
الى كُلّ بيداءٍ يُرِمُّ دَليلُهَا (3)

---

1) الديوان 2 / 80 .
2) السابق 2 / 74 .
3) السابق 2 / 185 ويرمّ : يسكت

فكلمة " نوازعا " أتت لتبيّن حال الفاعل المستتر في نميل ، ويمكن الاستغناء عنها ، ولكن وجودها في السياق منحه عمقا بما احتوته الكلمة من ومضات، تدلّ على ما يخامر نفوس أولئك الرحالة من آمال وآلام مصدرها الطموح

ويبرز التتميم في شعر الرضي للتعبير عن التتابع اللانهائي في تقلّب الأحداث بين سعادة وشقاء كما في قوله : (طويل)

وما العيشُ إلاّ غمّةٌ وارتياحةٌ
ومفترقٌ - بعد الدنوّ - وملتقَى (1)

فاستخدامه ظرف الزمان " بعد " منح المعنى نوعا من التتابع الزمني المستمر ، والتعبير عن الاستمرارية لا يقف في شعر الشريف عند حدّ معيّن ، كما في حديثه مع قلبه (كامل)

أَهوىً وذلاًّ في الهوَى وطماعةً ،
أبدًا ، تعالَى اللّهُ مَا أشقاكَا (2)

فالشاعر ينكر على قلبه الشقاء والتعاسة جريا وراء سراب الحب ، وقد أتى الشاعر بـ" أبدا " فمنحت المعنى الاستمرارية والدوام .

ويضفي تدفّق النفس الشعري على الاعتراض - في حالة التمنّي - ما يصوّر تأرجح النفس بين محاولة

---

1) الديوان 2 / 71 .
2) السابق 2 / 108 .

بلـوغ الغايـة ، رغـم مـا يكتنفهـا مـن أخطـار ، وبيـن انكفـاء النفـس والرضـوخ للواقـع كمـا في قولـه : (وافـر)

فهـلْ لِي ، والمطامـعُ مرديـاتٍ ،
دنـوٌّ مِنْ لمـى ذَاكَ الغَـزالِ (1)

فالتتميم المحترز في قوله " والمطامع مرديات" يعبّر عمّا ينتاب النفس العاشقة من تأرجح بين الواقع والحلم أثناء التفكير في محاولة تحقيق الأمنيات . فالاعتراض أو ما يطلق عليه البلاغيون مصطلح " التتميم " يرد عادة أثناء الحديث المتواصل كخاطرة ، يتدارك بها الانسان مقولة ، أو يصحح بها مفهوما ، أو يحدد بها غاية ، الى غير ذلك من شؤون تتداخل أثناء التفكير الانساني المنسجم في الأسلوب العلمي المنطق ، أو أثناء التعبير الوجداني المتواصل في الأساليب الأدبية التي تطغى العاطفة عليها ، فهو الكابح والموضح والمتدارك بالنسبة لما يتفوه به الانسان من كلام ، ممّا يجعل صدوره - في الشعر - عن النفس بعفويّة قد تمتزج بالتعقّل والتروّي في كثير من الأحيان ، لذا فهو عادة ما يرد في الشعر الصادق ، نابعا من ذات الشاعر ، منسجما مع تجربته الشعرية ، وهو ما نحسّه ونلحظه عند متابعتنا له في شعر الشريف ، خاصّة الوجداني منه ، لبعده عن التكلّف والصنعة .

واذا كانت الصنعة في الأدب ممجوجة ومستكرهة لما يكتنفها من تكلّف تأباه النفس وتنفر منه ، فانها قد تدلّ في بعض الأحيان على وعي الشاعر في استخدامه

---

1) الديوان 2 / 175 .

لأساليب اللغة ، فاستخدام الشاعر عقله لانتقاء التعبيرات الملائمة للتجربة التي يعاينها ، هو في حقيقته جزء لا ينكر من تلك التجربة ، له أهميته في بناء القصيدة ، ونستطيع تطبيق ذلك على ما سمّاه البلاغيون " التقسيم ".

والتقسيم فنّ من فنون البديع المعنويّة ، اختلفت عبارات البلاغيين في تعريفه مع اتفاقها كلّها على المقصود (1) ويمكن تلخيصها في أمور ثلاثة :

1- استيفاء جميع أقسام المعنى

2- ذكر أحوال الشيء مع اضافة ما يلائم كل حالة لما يليق بها .

3- اطلاق كلمة التقسيم على تقطيع ألفاظ البيت الواحد من الشعر الى أقسام تمثّل تفعيلاته العروضية (2) .

---

1) تكاد كتب البلاغة تتفق في مقصودها من التقسيم وان اختلفت في التعبير عن ذلك المقصود ، راجع على سبيل المثال : قدامة بن جعفر - نقد الشعر ص 139 ، ابن رشيق القيرواني - العمدة 2/20 ، حازم القرطاجني - منهاج البلغاء ص 55 .

2) اقتبسنا النقاط الثلاث بتصرف عن : عبد العزيز عتيق - علم البديع ص 29 ، وهي تمثّل خلاصة تعريف البلاغيين للتقسيم .

فاستيفاء الأقسام ، وذكر الأحوال الملائمة والارتكاز على تقطيع الألفاظ ، أمور للعقل دور كبير في ابرازها وتنسيقها ، ممّا يتيح للشاعر ادخال الصنعة في نسيج البيت الشعري ، بنسب تتفاوت ومواقفه ، فكلّما كان مستفرقا في تجربته ، كلما ضؤل دور الصنعة في التقسيم ، فتبقى مستساغة خاصّة في شعر أولئك الشعراء العظام الذين تمكنهم قدرتهم من المزج بين الأمور الخيالية وبين الأمور العقلية ، ومن الملاحظ أنّ معظم ما ورد من تقسيم في الشعر العربي كان مجاله الفخر والمدح ، ومرد ذلك احتواء كلّ منها على نصيب وافر من عنصر العقل أثناء نظمها ، لذا فليس من الغريب أن ترد معظم أبيات التقسيم عند الشريف في مجالي المدح والفخر (بسيط)

وأينَ قومٌ كقومي إنْ سألتَهُمُ
سوابقَ الخيلِ في يومِ الوغى نَزلُوا
كالصخرِ إنْ حُلمُوا والنّارِ إنْ غَضِبوا
والأُسدِ إنْ ركِبُوا والوَبلِ إنْ بَذلُوا (1)

فالتقسيم المرصّع في البيت الثاني لا يخلو من صنعة الاّ أنها لم تفقده طرافته بسبب اضفاء الخيال المتمثّل في التشبيهات الأربعة والجو الموسيقي الناشئ عن التقطيع الداخلي في البيت ، اضافة الى التضاد والتوافق في الصفات المتتابعة ، المتكاملة ، التي استوعب بها الشاعر جميع مزايا وخصال قومه وهو غاية مطلب البلاغيين من التقسيم (2) .

---

1) الديوان 2 / 181 .
2) راجع ما أورده قدامة بن جعفر عن صحة التقسيم - نقد الشعر ص 139 وما بعدها .

ومن بديع تقسيمه في مجال المدح قوله (كامل)

ما المجدُ إلاّ في السُّرى ، والحمدُ إ
لاّ في القِرى ، والمُستغِرُّ الخَاسِرُ (1)

فالبيت تعبير عن رؤية الشاعر للحياة التي قسّمها الى مجد ، وحمد ، وحدد طريق الوصول لكلّ قسم تلميحا ، فأمدّ كلّ كلمة في البيت بطاقات معنويّة ذات استيعاب لكثير من القيم ، فقد منح التقسيم الكلمة من الطاقات ما جعلها تتخطّى المعنى القاموسي اذ لم يعد معنى " السّرى " السير في الليل ، كما لم تعد كلمة " قِرى " تعني اكرام الضيف فقط، والاّ لما كان للبيت أية قيمة من حيث أسلوبه البلاغي، ممّا يجعل المخدوع الذي يعيش في وهم المجد - بما منحته الحياة من مكانة وجاه لم يبذل جهدا في بلوغهما - لا يخسر شيئا بجهله حقيقة المجد ، وسياق القصيدة يعني ذلك البعد المتواري خلف طاقات الكلمة .

والتقسيم في شعر الشريف لا يرد الاّ مستوفيا لشروطه البلاغية مع بثّ الحيويّة في كل أرجاء عبارات التقسيم بما يتفق وغرض النص ، فاذا كان النصّ فخريّا حماسيّا ، ترد التقسيمات هادرة معبّرة عن ذلك التدفّق الحماسي (كامل)

إنْ أُحرِجُوا لَمْ يَجْهَلُوا ،وإذا قَضَوْا
لم يقسطوا ، واذا علوا لم يَبْجَحُوا (2)

---

1) الديوان 1 / 436 .

2) السابق 1 / 259 .

وقد يرد التقسيم عند الشريف في ثنايا العتاب للتعبير عن معاناته تجاه من يلوم كقوله : (متقارب)

بُليتُ وغيري لا يُبْتَلَى
بأمريْنِ مَا فِيهِمَا مَطْمَعُ :
بدهرٍ أَلُومُ ، وَلا يرعوى
ومولًى أقولُ ، وَلا يَسْمَعُ (1)

انّ استيعاب الشريف الرضي لثقافة عصره ، وتأثّره بالشعر العربي القديم ، مكّنه من الممازجة بحذق ومهارة بين هذا الجديد وذاك القديم ، فوردت الصور والأخيلة والصنعتان ، اللفظية والمعنوية ، ذائبة تماما في البناء الشعرى ، ويرجع ذلك الى مقدرته على تطويع العبارة اللغوية لتتناسب والتعبير عن تجربته الذاتية ، فسعة اطلاعه في علوم اللغة والبلاغة ، أتاحت له الاغتراف ممّا أطلق عليه (البديع أو الصنعة) بمقدار جعله ينأى بشعره عن التعقيد والركاكة ، فتصنيفه في عداد شعراء اليتيمة المقلدين للمتنبّي واعتباره ممّن يلفقون " كثيرا من معانيه وحكمه" (2) نوع من الاحكام المتعسفة

---

1) الديوان 1 / 672 .

2) شوقي ضيف - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 354 ويلاحظ أنّ المؤلّف قد حكم على جميع شعراء اليتيمة بالتصنّع الثقافي ، واتهمهم بعدم اضافة جديد وبحشد المصطلحات في أساليب الشعر فيما عدا المتنبّي ، وهذا ما لم نجد له أيّ صدى في شعر الشريف الرضي سواء من حيث استخدام المصطلحات العلمية ، أو من حيث استخدامه للصنعة اللفظية فثقافته الشعرية لا تنبّئ على أيّ تصنّع .

الجائرة التي لا تستند على دعائم وحجج مقنعة ، اللهم الاّ في بعض من تجاربه الأولى ، كما أنّ عمق ثقافة الشريف واصالتها العربية ، حالت بينه وبين نقل المصطلحات نقلا آليا ، ولم يحاول أن يستغلّ ألوان الصنعة الحسية استغلالا مفرطا ، فانسابت الصور البيانية والمحسنات البديعيّة في شعره مشرقة ومتسقة تمام الاتساق مع مضمون النصّ عنده .

ج- موسيقى شعر الشريف الرضي :

من أهم ما يميّز شعر الشريف الرضي من حيث موسيقاه البناء العروضي المحكّم ، اذ أنّه لم يحاول الخروج على القواعد الخليليّة ، كما لم يحاول النظم فيما ابتكره معاصروه من بحور مولّدة ، ففي محاولتنا لدراسة قوافيه وجدنا أنّه لم يشذ عن تلك الأوزان على الاطلاق ، وقد حاول أحد الدارسين لشعره تخطئته عروضيّا في قصيدته التي مطلعها : (كامل)

أَوَ مَا رأيتَ وقائعَ الدّهرِ
أَفَلا تَسُوءُ الظَنّ بالعُمُرِ (1)

وهي من الكامل الأحذ ، وقد وردت بعض أبياتها تامّة العروض مضمرة الضرب منها :

يَتَرادفُونَ على الرّماحِ كأنّهم
سيلٌ يَعُبّ وعارضٌ يسري

وهو ما عدّه صاحب الدراسة خطأ ، ثم تدارك تلك التخطئة بقوله أنّه " تجوز عروضي لا ينسجم مع ما

---

1) الديوان 1 / 494 .

عند الشريف الرضي من رهافة حس" (1) ومادام تجوزا عروضيا فلا يعدّ خطأ (2) ، فاستخدامه في بعض أبيات القصيدة لم يخلّ ببنائها الموسيقي ، كما لا تعد ملاحظة المشرف على طبع الديوان ممّا يعتد به(3) ، ولو عدنا الى قصيدة الرضي المذكورة وتمعنّا في بنائها ككل ، لوجدنا أنّ الشاعر لم يحاول فصل المعنى عن جوّ القصيدة الموسيقي، لاحساسه بحيوية الكلمة ونبضها وما تولّده من ايحاءات

---

1) محمد جميل شلش- الحماسة في شعر الشريف الرضي ص 229 .

2) يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد 5/453 أنّ " الكامل له ثلاثة أعاريض وتسعة ضروب ..... والعروض الثاني أحذ ، وله ضربان : ضرب مثله وضرب مضمر" وما بنى الشريف عليه بعض أبيات قصيدته هو من النوع الثاني ذى العروض الأحذ والضرب المضمر ، وقد أورد صاحب العقد الفريد مثالا لذلك في 5/454 احتوى على أبيات محذوفة العروض والضرب وأخرى محذوفة العروض دون الضرب مثلها- في ذلك مثل قصيدة الشريف أضف الى ما سبق أنّ ابن عبد ربه لم يدرج هذا النوع من الكامل في تجوزات البحر ممّا يعني وجوده ضمن أنواع الكامل ، فاستخدام الشريف له لا يعد من باب التجوز أو الخطأ .

3) لقد أشار محمد جميل شلش في حاشية ص 229 من دراسته السابقة على تعليق المشرف على طبع الديوان والذى فحواه " هذه القصيدة من الكامل الأحذ وقد وردت فيها بعض أبيات تامّة" راجع الديوان 1 / 394 - بدعوى الوهم والحقيقة أنّه ليس وهما بقدر ما هو عدم دقة في الاستقصاء والتحرّى خاصّة وانّ نسخة الديوان المعول عليها غير محققة .

تهتزّ النفس لها وتنفعل بها ، هذا بالاضافة الى حسن اختياره للألفاظ ذات الجرس المنتظم المتولّد عن تناسب مخارجها مع تمكّن تام من السيطرة على البناء العروضي وهو العنصر الأساسي في موسيقى النصّ الخارجيّة

فموسيقى الشعر لا تقتصر على التفعيلات فقط، اذ أنّ هناك الموسيقى الداخليّة المتولّدة عن ايحاءات المعاني ، بالاضافة الى الزمن داخل النص، والمحدد نظريًا بعلامات الترقيم ، فعملية القراءة هي التي تحدد ذلك الزمن ، فقول الشريف في مرثيته :

وإذا أشَارَ الى قبائِلِهِ ،
حشَدَتْ اليهِ بأوجُهٍ غُرّ
يترادفونَ على الرّماحِ كأنّهم
سيلٌ يعُبُّ وعارِضٌ يَسْرِي (1)

فالبيت الأول مضمر العروض والضرب وهو مكوّن من أسلوب شرط ينقسم الى جملتين : جملة الشرط في شطره الأول ، وجملة الجواب في شطره الثاني ، ممّا يحتّم الفصل بين الشطرين بسكوت حتّى تنسجم موسيقى البيت مع ادراك معناه ، فوضع الفصلة له أهميته هنا .

أمّا البيت الثاني فتام الضرب ، مضمر العروض، ومرتبط بالبيت الذي قبله برابطين أساسيين :

---

1) الديوان 1 / 494 .

الأول : بوصفه حالة لاستعداد تلك القبائل لتلبية استجابة المرثي .

الثاني : الارتباط الموسيقي المتمثّل في الروي الموحّد بين البيتين ، كما يختلف البيت الثاني عن الأول في عنصرين أيضا هما :

الأول : اختلاف الضرب عن العروض من حيث التمام والاضمار .

الثاني : انّ البيت الثاني يكون من جملة واحدة لا تتجزأ ، وينجرّ عن ذلك الطول تواصل زمني في قراءتها ، ممّا يحتّم الاستغناء عن الفصلة ، فالهدير والسرعة في معاني البيت تحتاج الى نفس طويل أثناء القراءة حتى يمكن ادراجه في الجو العام لموسيقى القصيدة ، اذ من الملاحظ بأنّ القصيدة لا تقوم على وحدة البيت ، ممّا لا يمكن معه تجزئتها ، ولا أظنّ الشريف بغافل عن ذلك حين نظم قصيدته ، لأنّ التناغم الموسيقي الداخلي عند الشاعر هو المحدد لبناء قصيدته ، وللشريف في هذا المجال ادراك وحساسية الشاعر الملهم المطبوع ، وليس أدلّ على ذلك من جوابه على قصيدة الصابي في مدحه ومطلعها : (طويل)

أَبَا كلّ شيءٍ قِيلَ في وصفِهِ حَسَنْ
الى ذَاكَ ينحُو مَنْ كَنَاك أَبَا الحَسَنْ (1)

فقد أبت عليه طبيعته ، وحسّه الموسيقي أن يجيب على القصيدة في نفس وزنها ، وقد أشار الى ذلك في

---

1) رسائل الصابي والشريف الرضي ص 27 .

رسالته الملحقة بالقصيدة التي نظمها اجابة على قصيدة الصابي ، اذ يقول " وجوابي عن هذه القصيدة في غير وزنها ، وان كان على رويّها ، لأنّ خاطري جنح بي الى هذا الضرب من الشعر ، ومن عادتي أن أجرى مع بديهته كيف جرت" (1) ومطلع قصيدة الرضي : (بسيط)

دَعْ مِنْ دُمُوعِكَ بَعْدَ البَيْنِ للدِّمَنِ
غَداً لِدَارِهِمِ واليومُ للظُّعُنِ (2)

فقد أطلق الشريف القافية لاستثقاله النّون كقافية مقيدة (3) ، ونظم قصيدته على البحر الذى يستجيب لطبيعته أثناء عملية الابداع ، فحسّه الموسيقي الدقيق ودرايته الواسعة بالعروض قد جنّباه كلّ ما يعيب شعره أو ينقص منه .

---

1) رسائل الصابي والشريف الرضي ص 101 .

2) الديوان 2 / 542 .

3) بحثنا عن سبب اطلاق الرضي لقافيته ألجأنا الى النظر في نماذج من الشعر العربي القديم فخلصنا الى نتيجة مفادها أنّ الشاعر العربي يستثقل تقييد القافية في معظم بحور الشعر ما عدا المتقارب والرجز لتناسب التقييد مع ما يتولّد عنهما من موسيقى ترتاح النفس اليها ، ففي ديوان الحماسة لأبي تمام وردت 16 مقطوعة مقيّدة مكونة من 8 أرجوزات وثلاث من المتقارب واثنتين في الرمل واثنتين في الطويل وواحدة في مجزوء الرمل ، كما وردت القافية مقيّدة عند المتنبّي في أربع قصائد ثلاث منها في المتقارب وواحدة في الرمل ، ولم ترد النّون المقيّدة عند الشريف الاّ في واحدة من بحر الرجز .

هذا وقد نظم الرضي على جميع البحور التي عزف عليها شعراء العربية فيما عدا المهجور منها وأنّه استمرّ على ذلك طيلة حياته ممّا يتعارض وما ورد في بعض الدراسات الحديثة بأنّه قد " مال آخر حياته الى الرجز والأوزان القصيرة " (1) ، فذلك يعني أنّه قد جنح في آخر حياته الى السهولة بسبب ما أصاب شاعريته من هرم ، لأنّ اللجوء الى البحور القصيرة معناه سلوك محجّة السهولة ، فالبحور القصيرة عادة ما تستخدم في شعر الغناء والطرب كالغزل ووصف الخمر والمجون وما الى ذلك من مضامين تستهوي أصحاب الطرب والمجون في القرن الرابع الهجري ، ولقد حاولنا دراسة ذلك الزعم بتتبعه في شعره ، فخرجنا بنتيجة مفادها أنّ القول " بميله آخر حياته الى الرجز والبحور القصيرة " يكتنفه الغموض والابهام ، لأنّ عبارة " آخر حياته " لا تعني مدة زمنية محددة ، فإذا كان يقصد بالقول : الأشهر الأخيرة من حياة الشاعر فإنّه صحيح ، لأننا لم نجد له في تلك المدّة الاّ مقطوعة واحدة في رثاء صديقه أبي الحسن البتّي (ت 405) وهي مكوّنة من ثمانية أبيات من مجزوء الكامل ، فإذا كانت تلك المقطوعة هي ما استند عليه أولئك فالتعميم على شعره بأكمله باطل ، أمّا إذا كان القول يشمل السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ، فلا يوجد في الديوان ما يؤيّده فمن الملاحظ أنّ الشاعر قد أرّخ في تلك السنوات سبع قصائد ومقطوعة موزّعة على البحور كالتالي :

---

1) الموسوعة العربية الميسرة ص 1083 وقد أخذ عنها ذلك طه عبد الرؤوف سعد في مقدمة تحقيق المجازات النبوية ص 18 ، كما أخذ بالرأى ذاته صاحب كتاب " الحماسة في شعر الشريف الرضي " ص 231 .

1- ثلاث قصائد من بحر الطويل 1/ 277 ، 624 / 2 ، 183 .

2- واحدة من البسيط 2 / 104 .

3- واحدة من الكامل 1 / 603 .

4- واحدة من الرمل 1 / 273 .

5- واحدة من الخفيف 2 / 9 .

6- ومقطوعة من مجزوء الكامل 1 / 170 .

ومن ذلك نصل الى أنّ القول بميله في اخريات حياته الى الأرجاز والبحور القصيرة يجانب الصواب ، فمن خلال الاحصائية السابقة يتبيّن غلبة البحور الواسعة وانعدام الأرجاز وندرة مجزوءات البحور في شعره في سنواته الثلاث الأخيرة .

ولكي نتأكّد من استمرارية قوّة وتدفّق شاعريته طيلة حياته ، وانّه في ميدان الشعر لا يختلف اطلاقا عن بقية معاصريه من الشعراء الجادين ، قمنا باحصائيين :

الأولى : تمثّل احصاء البحور التي نظم عليها الرضي منذ سنة 396 حتّى سنة 405 أى أنها تصور متوسّط بحور شعره خلال العشر سنوات الأخيرة من حياته (جدول رقم 3).

الثانية : وهي احصائية تتضمّن مقارنة بين نسبة البحور التي عزف عليها كلّ من الشريف الرضي والمتنبّي والشريف المرتضى في محاولة الوصول الى نتيجة مفادها اتفاق الرضي مع غيره من شعراء عصره في استخدامه لبحور الشعر العربية . (جدول رقم 4)

نتج عن الاحصائية الأولى المتضمنة تتبّع بحور وأوزان الشريف في السنوات العشر الأخيرة من حياته الجدول التالي :

البحر	عدد القصائد	النسبة المائوية
الطويل	8	٪ 19،5
البسيط	4	٪ 9،7
الوافر	3	٪ 7،3
الكامل	2	٪ 4،8
الهزج	1	٪ 2،4
الرجز	3	٪ 7،3
الرمل	3	٪ 7،3
السريع	4	٪ 9،7
المنسرح	2	٪ 4،8
الخفيف	3	٪ 7،3
المتقارب	3	٪ 7،3
مجزوء الكامل	2	٪ 4،8
مجزوء الرمل	2	٪ 4،8
مجزوء الرجز	3	٪ 7،3

جدول رقم (3) يمثّل متوسّط نسبة استخدامه للبحور خلال العشر سنوات الأخيرة من حياته .

فمن الملاحظ أنّ الجدول قد تضمّن احدى وأربعين قصيدة ومقطوعة، على اعتبار ذلك الرقم يمثّل متوسّط ما نظمه الشريف في الفترة ما بين عامي (396 - 405) لأننا لا نملك ما نستند عليه في احصائيتنا سوى تلك القصائد خاصّة وأنّ الكثير من شعره لم يؤرخ له ممّا يعسر معه ضبط احصائية محكمة ، هذا وقد وجدنا من خلال الاحصائيتين السابقتين ، أنّ ما اعتمدنا عليه من قصائد يكاد يمثّل ما نحن بصدده من معرفة نسبة البحور والأوزان التي استخدمها الشاعر في الفترة التي حددناها . والنتيجة التي خرجنا بها من ذلك أنّ نسبة استخدامه للبحور ذات المقاطع الكبيرة في تلك الفترة يعادل 78 ٪ وانّ البحور ذات المقاطع القصيرة في شعر تلك الفترة يعادل 22 ٪ (1) ، وهذا يعني التزام الشاعر للخط البياني المتساوق وما رسم شعراء العربية في استخدامهم الأوزان والبحور ، فالشريف لم يشذ عن القاعدة من حيث التدرج الكمي في استخدامه للبحور ابتداء بالطويل

---

1) قسّم ابراهيم أنيس - في كتابه (موسيقى الشعر) بحور الشعر العربي من حيث الطول والقصر الى قسمين :

1- البحور الكثيرة المقاطع وهي : الطويل ، الكامل البسيط، الوافر ، الخفيف ، الرمل ، المتقارب، السريع المنسرح ، المديد ، المتدارك- ص 152 ، 153 .

2- البحور القصيرة وهي : مجزوء الكامل ، مجزوء الوافر الهزج ، المجتث ، مخلع البسيط، مجزوء الخفيف، مجزوء الرمل ، - ص 154 .

وقد اعتمدنا على ذلك التقسيم في تصنيف بحور الرضي واستخراج نسبتها في السنوات الخمس الأخيرة من حياته .

وانتهاء بمجزوءات البحور، فمن مقارنتنا لاستخدامه الأوزان والبحور باستخدام كل من المتنبّي وأخيه المرتضى لها نتج الجدول التالي :

نسبة الشاعر / بحوره المائوية	أبو الطيب المتنبّي	الشريف الرضي	الشريف المرتضى
نسبة الطويل	٪ 27 ،3093	٪ 28 ،3549	٪ 25 ،5769
" المديد	—	٪ 0 ،3648	—
" البسيط	٪ 13 ،4897	٪ 8 ،9981	٪ 11 ،4304
" الوافر	٪ 13 ،9662	٪ 10 ،0865	٪ 7 ،0549
" الكامل	٪ 17 ،5035	٪ 17 ،5015	٪ 21 ،6818
" الهزج	—	٪ 0 ،9647	٪ 1 ،3396
" الرجز	٪ 2 ،8592	٪ 4 ،0507	٪ 2 ،3880
" الرمل	٪ 0 ،2565	٪ 2 ،6035	٪ 0 ،1237
" السريع	٪ 1 ،0447	٪ 3 ،7847	٪ 4 ،4412
" المنسرح	٪ 8 ،2294	٪ 1 ،9727	٪ 0 ،9537
" الخفيف	٪ 8 ،7426	٪ 4 ،5578	٪ 9 ،2755
" المضارع	—	—	٪ 0 ،1237
" المقتضب	—	—	—
" المجتث	٪ 0 ،7148	٪ 0 ،4947	٪ 0 ،9028
" المتقارب	٪ 5 ،4618	٪ 8 ،2189	٪ 6 ،2832
" المتدارك	—	—	—
" مجزوء الكامل	٪ 0 ،1649	٪ 2 ،9499	٪ 4 ،1645
" مجزوء الرمل	—	٪ 1 ،3296	٪ 2 ،3516
" مجزوء الخفيف	—	٪ 0 ،6493	٪ 0 ،3713
" مجزوء الرجز	٪ 0 ،0549	٪ 2 ،2758	٪ 1 ،4415
" مخلع البسيط	٪ 0 ،2016	٪ 0 ،1731	٪ 0 ،0946
" مجزوء الوافر	—	٪ 0 ،6679	—

جدول رقم (4) يمثّل نسبة استخدام الشريف الرضي للبحور والأوزان مع مقارنتها باستخدامات كل من المتنبّي والشريف المرتضى لها .

فالجدول يبيّن انفراد الشريف باستخدام المديد ومجزوء الوافر دون الشاعرين ، ومشاركة أخيه المرتضى في استخدام الهزج ومجزوئي الرمل والخفيف وان أتت النسبة عنده ضئيلة بالنسبة لشعره ، أمّا نسبة استخدامه للطويل فتأتي في المرتبة الأولى بالنسبة للشاعرين ، بينما يكون المتنبّي في المقدمة بالنسبة لبحرى البسيط والوافر ، ويكون السبق في بحر الكامل للشريف المرتضى ، ولكن لو عدنا لحساب تلك النسب بتقدير الكم العددي للأبيات والقصائد ، فسنجد بأنّ الشريف يأتي في المرتبة الأولى ، فما نظمه في بحر الطويل وحده يقدر بـ (4585) بيتا أى أنّه ينقص قليلا عمّا حواه ديوان المتنبّي بأكمله من شعره .

واذا ما حاولنا مقارنة نسبة الأوزان التي استخدمها الشريف بما ذكره ابراهيم أنيس من نسب للأوزان الشائعة في الشعر العربي في عصوره المختلفة فسنجد أنّ تلك النسب تكاد تتفق تماما وما نظم عليه الشريف من بحور ، اذ يمثّل الطويل ما يقلّ عن $\frac{1}{3}$ ما تغنّى به من شعر بقليل ، بينما تكاد تكون نسبة الطويل $\frac{1}{3}$ الشعر العربي تقريبا (1) ، أمّا البحور القصيرة ومجزوءات

---

1) راجع - موسيقى الشعر ص 189 وما بعدها ، موضوع (نسبة شيوع الأوزان) فستجد أنّ النسب التي استخلصها المؤلّف من خلال دراسته لنماذج مختلفة من بحور الشعر العربي القديم تكاد تكون متطابقة مع ما ورد في الجدول رقم (4) من نسب في شعر كلّ من المتنبّي والشريف الرضي والشريف المرتضى ، وهذا يؤكّد أنّ أوزان الشريف ظلّت في مستواها الطبيعي ولم تتذبذب في أيّ وقت من أوقات حياته .

البحـور فتقـدر بـ (1537) بيتـا أى مـا يقـلّ عن $\frac{1}{10}$ مـا حـواه ديوانـه مـن شعـر .

والنتيجـة انّ استخدامـه لموسيقـى الشعـر العربـي ظـلّ فـي مستـوى النسـق والنسـب الطبيعيّـة ، فلـم يختـلّ نظـام أوزانـه ، كمـا لـم يمـل الـى بحـور دون أخـرى ، وبقـي محافظـا فـي شعـره علـى مستـوى بحـور الشعـر فـي خطهـا الطبيعـي طيلـة حياتـه .

الجامعة التونسية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

التفجع في شعر الشريف الرضي

القسم الثاني

أطروحة لنيل شهادة التعمق في البحث

(دكتوراه الحلقة الثالثة)

إشراف: الدكتور محمد اليعلاوي إعداد: جليل منصور العريض

السنة الجامعية

1985-1984

البَابُ الثَّانِي

التفجّع فِي شِعرِ الشّريفِ الرَّضِيّ .

مدخل : أَوْصَافُ الحزنِ فى اللغَة .

الفصل الأول : بَيْنَ التفجّعِ والتشيّع .

الفصل الثانى : التفجّعُ والموتُ فِي شعرِ الشّريفِ الرّضِيّ .

الفصل الثالث : التفجّع والمجتمع فِي شِعرِ الشريفِ الرّضيّ .

الفصل الرابع : المرأة وأثرُهَا فِي تفجّع الشريفِ الرّضِيّ .

مدخـــــل

أوصـــــاف الحـــزن في اللغـــــة

تمتـاز المفـردة فـي اللغـة العربيـة بالتحديـد الدلالـي المرتبـط أصـلا ، بالسيـاق المعنـوى والسيـاق النفسـي والموقـف الآنـي المعـاش لتلـك المفـردة أثنـاء ورودهـا فـي النصـوص الأدبيـة أو اللغويـة أو العلميـة ، فقـد تـرد المفـردة ذاتهـا فـي سياقـات مختلفـة ، وتعنـي فـي كـلّ سيـاق بعـــدا معنويّـا آخـر ينضـاف الـى المعنـى المعجمـي ، فالمفـردة فـي سيـاق النـصّ الأدبـي ، قـد تتفتّـق عـن ايحـاءات عميقـة ، معبـرة عـن موقـف معيّـن فـي وقـت معيّـن كمـا فـي لفظـة (عـضّ) التـي تعنـي المسـك بالأسنـان ، ولكـن استخداماتها فـي سياقـات مختلفـة منحتهـا أبعـادا معنويّـة مختلفـة لهـا صلـة بالمعنـى المعجمـي ، مـن ذلـك قـول الشريـف الرضـي : (خفيـف)

أينَ لا أينَ من يُجيرُ على الدّهـ
ـرِ إذا الدّهرُ هرَّ يوماً وعضّا (1)

فلفـظة (عـضّ) فـي البيـت تعنـي الشـدّة والقسـوة وبـؤس الحـال وقـد منحتهـا الاستعـارة كـل تلـك المعـاني بتشبيـه الدهـر بالحيـوان المفتـرس والرمـز اليـه ببعـض لوازمـه المتمثلـة فـي الهـر والعـضّ ، كمـا قـد يأتـي العـضّ متضمنـا معنـى الغيـظ كمـا فـي قولـه :

---

1) الديـوان 1 / 578 .

(طويـــــــل)

فقُلْ للعِدىٰ عُضُوا الاخامصَ إنّكم
تعرقتمُ الأيدِي عليّ من العضِّ (1)

فلفظة (عضّوا) الأولى تتضمّن معنى التعجيز والاحتقار لعدم القدرة على عضّ أخمص القدمين ولما في ذلك من ازدراء ، أمّا لفظة (العضّ) الثانية فينطوي معناها على الغيظ والحسد ، ويأتي العضّ أيضا كناية عن التحسّر ، يقول الشريف الرضي : (وافـــر)

أُرجّي الرّزقَ من خُرْتِ دقيقٍ
يُسدّ بسلكِ حِرمانٍ غليظِ
وأرجِعُ ليسَ في كفّيّ منهُ
سِوى عضّ اليدينِ على الحظوظِ (2)

كما قد ترد كلمة عضّ بمعنى التمسّك بالشيء والاصرار عليه فيقال (عضّ على الأمر بناجديه) الى غير ذلك من المعاني الكثيرة التي تحمل في طياتها رائحة المسك والشدّة وهي من صفات المعجمة الثابتة ، لذا يمكن أن يقال : أنّ أهم ما يميّز المفردة اللغويّة امكانية توليد المعاني المعبرة خاصّة بالنسبة للأديب حين يجد حاجة ملحّة في نفسه للتعبير عن مشاعر معيّنة ، فيرى أنّ المفردة في حدّ ذاتها بمعناها المعجمي الجاف لا يمكنها

---

1) الديوان 1 / 584 .
2) الديوان 1 / 598 .

نقل مشاعره والتعبير عن انفعالاته ، لما يكتنف موقفه الوجداني من تمازج بين الحس والعاطفة ، وتبرز هنا عمليّة الترادف اللغوى فيلجأ اليه كبديل تعبيرى .

ولكن هل يمكن للمرادف المعنوى أن يعبّر عمّا يريد الأديب أو الشاعر قوله عن أمر معيّن في موقف معيّن ؟ الحق أنّ التعريف العلمي الدقيق للمرادف اللغوى لا يستجيب للحاجة الملحّة في النفس بالنسبة للمفردة داخل النصّ الأدبي ، لأنّ من أهم شروط الترادف قبول المبادلة في القيمة العقلية والتأثيريّة بين المترادفين (1) ، أى أننا باستخدامنا للمرادف لم نأت بجديد يفيد النصّ سوى عملية التأكيد عن طريق التكرار كما في قول الحطيئة : (طويل)

ألاَ حبّذا هندٌ وأرضٌ بِهَا هندُ
وهندٌ أتَى من دونِها النأيُ والبعدُ (2)

فالنأي والبعد كلاهما واحد وقد عطف الثاني على الأول بقصد التوكيد لا غير . والشعر - على سبيل المثال - ليس من الاجناس الأدبيّة التي تحتاج معانيها الى تأكيد الاّ في القليل النّادر ، فإذا ما أسهب الشاعر في استخدام المرادف المعنوى فإنّه يعمد الى ذلك للهروب من الرتابة

---

1) في مقدمة نهج البلاغة بشرح ميثم البحراني 1 / 13 ، يعرّف الشارح الترادف " هو كون لفظين أو ما زاد عليهما دالين بالوضع على معنى واحد باعتبار واحد " ويكاد هذا التعريف أن يتطابق مع ما عرضه حاكم العبيي من تعريفات للغويين قدامى ومحدثين - راجع الترادف في اللغة ص 48 وما بعدها .
2) ديوان الحطيئة ص 29 .

التي يحدثها تكرار كلمة بعينها ، وقد يعاب عليه انتهاجه لذلك الأسلوب في كثير من الأحيان ، ولكنّه قد يضطرّ الى استخدام كلمة عوض أخرى بهدف التعبير عن حاجة ملحّة في نفسه أو لوضع فكرة ما في اطار معيّن ، تمنح المفردة لسياقها التعبير المناسب ، بحيث يشعر المتلقّي بما يريد المبدع أن يوصله اليه خلال ذلك التعبير المنتخب ، فالتعبيرات اللغوية لا ترد جزافا عند المبدعين من الشعراء ، وانما هي تعبير عن معاناة لذا فإنّ الترادف اللغوى لا يخدم دراستنا لمعاني الحزن في اللغة ، لانصباب اهتمامنا على تحديد الوجهة النفسيّة والمعاني الايحائيّة للحزن في سياق النصّ الشعري ومدى توفّق الشاعر في اختياره لها ، وملاءمة ذلك الاختيار لتمثله لقصيدته أثناء العملية الابداعيّة ، لأنّ المفردة داخل النصّ الشعري تنفلت من سجنها المعجمي ممّا يؤدّي الى تغيّر مفهومها اليها حسب التطور الذي يطرأ عليها أثناء جولانها في نصوص شعريّة مختلفة . فكلمة (حزن) لها مدلولاتها الواسعة التي توحي بأنواع شتّى من المعاني فهي أسرة من المعاني التي تصف أحزان الانسان بمختلف أشكالها بجميع مواقف الحياة ، سواء أكان ذلك من حيث الأداء المعنوى أو من حيث القوة والضعف والاتساع الزماني لتلك الحالة المكتئبة .

فاطلاقنا كلمة (الحزن) على موقف معيّن ، يعني أنّ هذا الموقف مناقض للسرور مع الاحتراز بتعيين ضوابط للمفردة من حيث القوة والضعف والمساحة الزمانية ، فقد يكون الحزن اكتئابا مكبوتا ، أو قد يكون مشفوعا بالدموع ، أو قد يكون مصاحبا بالغضب ، وفي كلّ الحالات قد يكون متجدّدا مستمرّا ، أو آنيا مؤقتا ، فلكلّ حالة من تلك الحالات ما يحدّدها في اللغة العربية ، ويمكن ادراك ذلك

من معايشة النصوص مع الاحتفاظ بنسبة ما من المعنى المعجمي للمفردة .

فكلمة حزن في حدّ ذاتها لا نجد لها معنى محدّدا في اللغة فصاحب الصحاح يعرفها بقوله " والحزن : خلاف السرور ، وحِزن الرجل بالكسر فهو حَزِنٍ وحَزين والحُزانة بالضمّ والتخفيف : عيال الرجل الذين يتحَزّن بأمرهم ، وفلان يقرأ بالتحزين اذا أرق صوته به ، والحَزَن : ما غلظ من الأرض" (1) .

ويورد صاحب اللسان ما هو شبيه بذلك في قوله " حزن : الحُزن والحَزن : نقيض الفرح وهو خلاف السرور والجمع أحزان ، لا يُكسّر على غير ذلك ، وقد حزن بالكسر حَزَنا وتحازن وتحزّن ، ورجل حزنان ومِحزان شديد الحُزن ، وحزّنه الأمر يحزنه حُزنا وأحزنه فهو محزون ومحزون وحزين وحَزِن " (2) .

أمّا الفيروز آبادى فقد عرّفه بـ (الهم) وهو صفة من صفات الحزن وليس الحزن ذاته وذلك ضمن قوله " الحزن بالضمّ ، ويحرّك : الهم ج أحزان ، حزن كفرح ، وتحزّن ، وتحازن ، واحتزن فهو حزنان ، ومحزان ، وحزّنه الامر حُزنا بالضمّ ، وأحزنه جعله حزينا ، وحزّنه : جعل فيه حُزنا فهو مَحزون ومُحزن " (3) .

---

1) الجوهرى 5 / 209 .

2) ابن منظور 1 / 627 وما بعدها .

3) القاموس المحيط 4 / 215 .

أمّا الزمخشري فقد عرّف الحزن بقرنه باحدى صفاته الظاهرة وهي البكاء في قوله " حزن - أحزنه فراقك ، وهو ما يحزنه ، وله قلب حزين ومحزون وحَزِن ، وقد حزن واحتزن قال العجاج :

بكيت والمحتزن البكيّ " (1)

فكلّ ما بين أيدينا من معاجم لا تكاد تجمع على معنى موحّد للحزن ، ممّا يعني استحالة وجود المرادف للكلمة بالمعنى العلمي الدقيق ، ولما كان الحزن ذا صلة وطيدة بالنفس الانسانية فقد عرّفه معجم علم النفس بأنّه " حالة انفعالية تتصف بمشاعر غير سارّة وتعبّر عن ذاتها بالتأوّه والبكاء ، وقلّة الميل الى تحريك العضلات الارادية (2).

ونستخلص من كلّ ما سبق أنّ كلمة (حزن) لا يمكن حصرها في مدلول لغوي واحد لما يكتنفها من معان تكاد تتفق في الاطار العام للحزن وتتباين في الدلالة على أنواعه المختلفة ، وانّ ما أوردته المعاجم اللغوية ومعجم علم النفس من تفسيرات وتعريفات لا تؤدّي الى المعنى الجامع المانع لمدلول الكلمة ، لأنها امّا وصف لما يحويه من معان أو تعريف لها بايراد المقابل لها في المعنى ، ممّا يؤدّي بنا الى الاعتقاد بأنها من مقردات اللغة التي لا مرادف لها ، فهي من الألفاظ ذات المشمولات اللغوية الواسعة الكثيرة التي ينبثق عنها معان متعددة

---

1) أساس البلاغة ص 125 .

2) فاخر عاقل-معجم علم النفس ص 101.

قد يظنّ أنها مرادفة لها ، ولكنها ليست كذلك لأنها - أي تلك المعاني المنبثقة من الحزن - تحمل كلّ مفردة منها صفة الحزن اضافة لما تحويه من تحديد نوعيته ودرجته من حيث القوة والضعف ولقد بيّن لنا علماء اللغة ذلك (1) كما استخدم تلك المعاني المتنوعة الأدباء والشعراء للتعبير عمّا يعتلج في نفوسهم من أحزان متنوعة كما ورد في القرآن الكريم بعض منها والمخطّط التالي يبيّن بعضا من أوصاف الحزن في اللغة العربية .

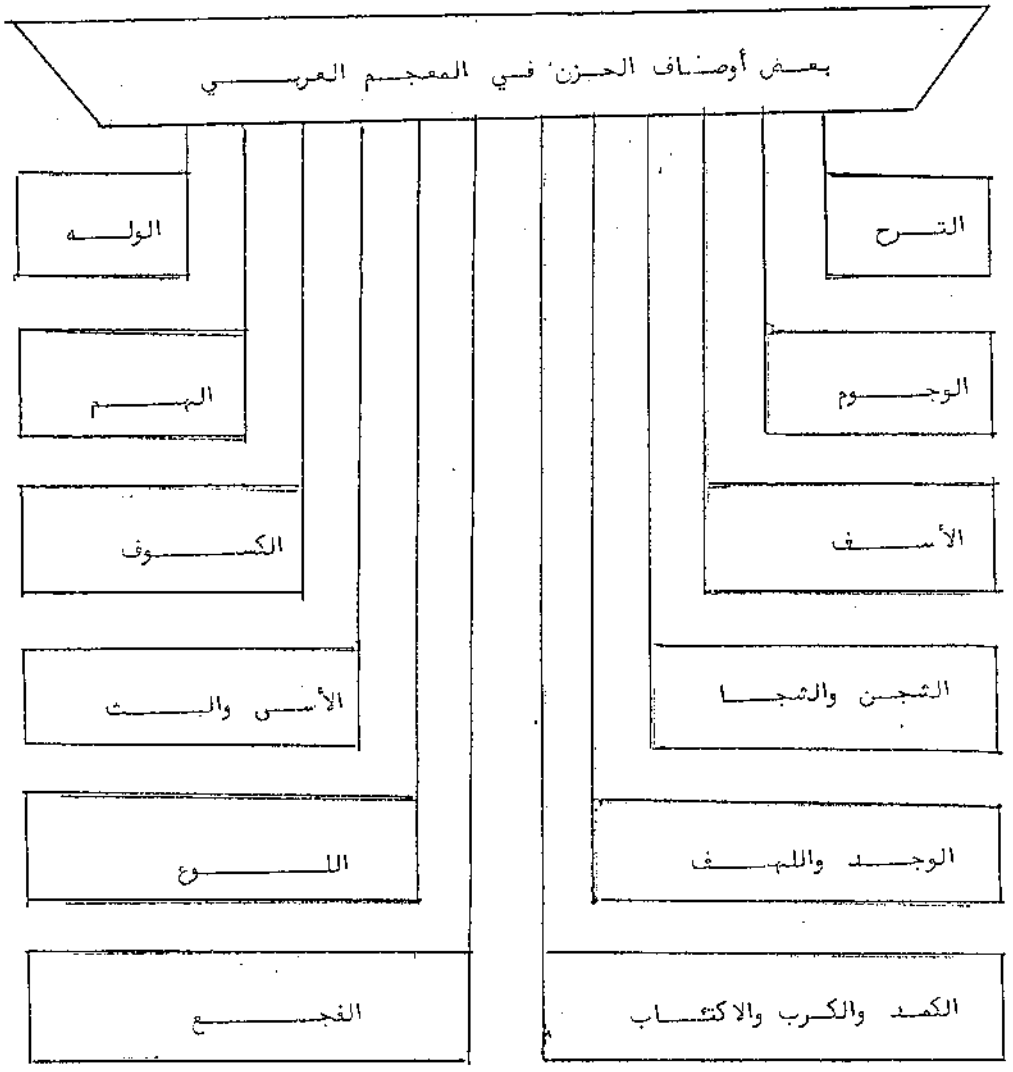

1) أطلق أبو منصور الثعالبي على الكلمات التي تنطوى

=

الشجـــن والشجـــا :

تكـادان تشتركـان فـي معنـى الحـزن المقتـرن بالهـم وقـد فسّـر صاحـب القامـوس الشجـن بالغصـن المشتبـك (1) أيضـا ، وهـذا يعنـي حسـب فهمنـا أنّ الشجـن مـن الأحـزان التـي تتـوارد علـى النفـس بفعـل التذكّـر ، أي أنّـه مـن الأحـزان التـي تظـلّ مكبونـة فـي أعمـاق النفـس فتثـار بواسطـة عامـل مصاحـب ، فتعـود ثانيـة كمـا فـي رثـاء كعـب أخـاه أبـا المغـوار : (طويـل)

تقـولُ سليمـي مـا لجسمِك شاحبـًا
كأنّـكَ يحميـكَ الطعـامَ طبيـبُ
فقلتُ : شُجـونٌ من خطـوبٍ تتابعـتْ
علـيّ كِبـارٌ والزّمـانُ مريـبُ (2)

فشجـون الشاعـر متولـدة مـن تتابـع الخطـوب المثيـرة لذكـرى الأحـزان . وكذلـك الشجـا فانّـه يثـار بواسطـة التذكّـر كمـا فـي رثـاء متمـم بـن نويـرة فـي أخيـه مالـك : (طويـل)

= علـى معانـي الحـزن (أوصـاف الحـزن) فقـه اللغـة ص 173 ونستشـفّ مـن ذلـك أنّ كلمـة حـزن فـي حـد ذاتهـا لهـا معـان كثيـرة لا يمكـن تحديـد دلالاتهـا الاّ بذكـر الوصـف المحـدّد لنـوع الحـزن مـن حيـث الشـدّة والامتـداد الزمانـي مـع الملاحـظ أنّ الشـراء فـي أساليـب اللغـة تتيـح للشاعـر فرصـة التعبيـر عـن حزنـه وأسـاه دون اللجـوء الـى استخـدام كلمـة حـزن أو وصـف مـن أوصافهـا وهـذا مـا سنلحظـه عنـد تعرضنـا لدراسـة أساليـب التفجّـع فـي شعـر الشريـف فـي الفصـول التاليـة .

1) راجـع الفيـروز آبـادى 4/240 .

2) ابـن عبـد ربـه ـ العقـد الفريـد ـ 3/271 .

فقـال : أتبكـي كـلّ قبـرٍ رأيتَـهُ
لقبـرٍ ثـوَى بيـنَ اللـوَى فالدّكـادكِ
فقلـتُ لـهُ : إنّ الشّجـا يبعـثُ الشّجـا
فدعنـي فهـذا كلّـهُ قبـرُ مالـكِ (1)

الأســـى والبـــــث :

وتشتركـان فـي المعنـى العـام للحـزن والمواساة بالبـــوح بمـا فـي النفـس ، أمّـا عـن طريـق الفـرد ذاتـه بالتنفيـــس عـن أحزانـه كمـا فـي البـثّ، أو عـن طريـق انسـان آخـر يحاول التخفيـف عمّـا فـي نفـس صاحبـه بمواساتـه فكـلا الحزنيـن يعتمـد اظهـار مـا فـي النفـس بعـد كبتـه ، وقـد ورد الأسـى بمعنـى الحـزن فـي قولـه تعالـى " لِكَيْـلَا تَأْسَـوا عَلَـىٰ مَـا فَاتَكُـمْ وَلَا تَفْرَحُـوا بِمـا آتَاكُـمْ " (2) وقـد عطفـت جملـه " لا تأسـوا " علـى جملـه " لا تفرحـوا " لمـا فـي كلتـا الحالتيـن من اظهـار للسـرور والحـزن .

أمّـا البـثّ فقـد ورد فـي قولـه تعالـى علـى لسـان يعقـوب " إِنَّمَـا أَشْكُـو بَثِّـي وَحُزْنِـي إِلَـىٰ اللَّـهِ " (3) فقـد ورد البـثّ معطوفـا علـى الحـزن بنفـس المعنـى ، والبـثّ فـي سيـاق الآيـة الكريمـة مفعـول للشكـوى ، فهـو اظهـار مـا فـي النفـس مـن أحـزان للتخفيـف عنهـا .

---

1) المرزوقـي - شـرح ديـوان الحماسـة - 2/ 797 .

2) الحديـد 23 .

3) يوسـف 86 .

التـــــــــــرح :

تكـاد كلمـة تـرح أن تنفـرد بمعنـى فسّرتـه المعاجـــــم بالحـزن المقتـرن بالشـدّة ، كمـا فُسِّـر التـرح بالفقـر ، وعليـــه فـانّ التـرح ضـرب مـن الحـزن المتولّـد عـن ضنـك العيـــش وشـدّة الفقـر والبـؤس ، وكثيـرا مـا تُستخـدم المفـردة فـي النثـر بصيغـة الجمـع معطوفـة علـى الأفـراح فـي قولهـم " الأفـــــراح والاتـراح " .

الكمـــد والكآبـــة والكـــــرب :

تتفـق المفـردات الثـلاث علـى معنـى الحـزن الشديـــــد المكبـوت الـذى يأخـذ بالنفـس ولا يُستطـاع امضـاؤه ، إلاّ أنّ هناك فروقـا دقيقـة بيـن معانـي المفـردات الثـلاث ، وهـذه الفـــروق لا يمكـن ادراكهـا ومعرفـة دقائقهـا إلاّ مـن خـلال دراستهـــا فـي سيـاق النصـوص ، فالكـرب ضـرب مـن الحـزن سببـه المصائـب الانسانيـة التـي لا يستطيـع الفـرد لهـا دفعـا ، وقـد وردت فـي قولـه تعالـى " فاسْتَجَبْنَـا لَـهُ فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَـهُ مِـنَ الْكَـــــرْبِ العَظِيـمِ " (1) أي مـن الأحـزان والمصائـب العظيمـة التـي لا يمكن للانسـان دفعهـا . أمّـا الكآبـة فينطـوي معناهـا - بالاضافـة الـى الحـزن - علـى الانكسـار النفسـي الـذي تظهـر آثـاره علـى وجـه الانسـان وفـي تصرفاتـه ، فالكآبـة حـزن يكابـد الفـرد من كبتـــه ولكـن مظاهـره الجسمانيـة تشـي بـه وتفضـح معاناتـه . ويشـــي معنـى الحـزن فـي كلمـة (كمـد) بمحاولـة دفعـه الـى داخـل النفـس وكتمانـه ، مثلـه فـي ذلـك مثـل الكمـادات التـي يحـــاول الطبيـب بهـا اخمـاد مـا يعانيـه المريـض مـن ألـم ، فالكمـــــد

---

(1) الأنبيـــــاء 76 .

حزن يولد صراعاً بين النفس في معاناتها وبين العقل بتصرفه المتّزن ، كما قد يولّد في النفس الانسانية الحقد والكراهية وحب التدمير ، خاصّة اذا كان المتسبّب في الحزن طرفا آخر لا يمكن مقاومته والتصدّي له ، والملاحظ أنّ الايحاءات المعنويّة للمفردات الثلاث لا تشي بالدموع اطلاقا .

الوجد واللهف :

حزن سببه التحسّر والتأسّف والندم ، ويكون عادة في أعقاب الفشل أو الإخفاق في علاقة وجدانية ، فالوجد حزن وحبّ في آن واحد ، فهو حزن متولّد عن علاقة غير متكافئة يكون الحزين فيها من يذوب هياما في الطرف الآخر الذي لا يلقى منه سوى الصدود والهجران ممّا يؤدّي الى الوجد ، وقد يكون الوجد مشاركة بين الطرفين بسبب موقف أهل المعشوقة من العشيق ، أو موقف قوم العاشق من المعشوقة . وقد وردت كلمة (وجد) في سياق الرثاء تعبيرا عن حبّ المرثي والهيام به ، كما في قول عُتيّ بن مالك يرثي أخاه عدّاء : (طويل)

أعدّاءُ ما وجدِي عليكَ بهيّنٍ
ولا الصّبرُ ان أعطيتُه بجَميلِ (1)

وهنا لا يمكننا تعويض الوجد بالحزن ، لأنّ كلمة الوجد توحي بمعان أكثر اتساعا من الحزن المصوّر لحالة انفعالية ليس غير ، بينما شملت كلمة (الوجد) تلك الحالة الانفعالية مضافا اليها معنى الحبّ والحنين . واللهف أيضا ضرب من الحزن المشفوع بالتحسّر على ما فات بعد

---

1) المرزوقي السابق 2/884 .

وشوك بلوغه كما في قول ابن عبد ربّه : (بسيط)

لهفي على ميّتٍ ماتَ السرورُ بهِ
لو كانَ حيّاً لأحيا الدينَ والسُنَنَا (1)

الوجوم :

هو ضرب من الحزن المفاجئ الذي يستولي على نفس الانسان ويمتنع من جرائه عن الطعام ، وعادة ما يصاحبه تقلصات في عضلات الوجه ، وغضب مكبوت ، وأهم مسبباته الأخبار غير السّارة المفاجئة التي لا يتحملها المتلقّي .

الأسف :

حزن مصحوب بالغضب يتولّد في الغالب عن فشل الانسان في مسعى قد بلغه ووصل به الغاية فعاد الى الانتكاس وقد وردت الكلمة في قوله تعالى " ولمّا رَجَعَ مُوسى إلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أسفا . . . الآية (2) فقد اتبع سبحانه وتعالى حالة الأسف بحالة الغضب لتأكيد حزن موسى عليه السلام وغضبه بسبب نكوص قومه والرجوع الى الضلال بعد أن بلغ بهم طريق الهداية والصلاح .

الولـه :

ويعرّفه ابن منظور بأنّه " الحزن ، وقيل : هو ذهاب العقل والتحيّر من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف ، والوله ،

---

1) ابن عبد ربّه ـ السابق 3/252 .
2) الأعراف 150 .

ذهاب العقل لفقدان الحبيب .... وَولِهَتْ : حنّت، وناقة والهة اذا اشتدّ وجدها على ولدها " (1) فالوله حالة من الحزن المصاحب بتشتّت العقل والحيرة المتولّدة عن اضطراب النفس وسببه الأساسي الافتراق والحنين ، ومن ذلك قول الكميت في مدح الهاشميين : (خفيف)

وَلِهَتْ نفسيَ الطروبَ اليهمْ
ولهًا حالَ دونَ طعمِ الطّعام(2)

الهم :

وجمعه هموم وهو ضرب من الحزن المشفوع بالقلق والاغتمام وعادة ما يصاحبه تفكير يحول بين صاحبه وبين النوم ، وكثيرا ما يطرق نفس الانسان ليلا أثناء هدأة الليل وخلوده الى نفسه ، خاصّة حين تنتاب تلك النفس التوقعات السيئة - يقول امرؤ القيس : (طويل)

وليلٍ كموجِ البحرِ أرْخَى سُدُولَهُ
عليّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي (3)

الكسوف :

يعرّفه الجوهرى بقوله " رجل كاسفُ البالِ : سيّء الحال ، وكاسف الوجه ، أى عابس" (4) ويضيف ابن منظور

---

1) لسان العرب المحيط 3/ 984 .
2) الكميت - الهاشميات ص 13 .
3) أبوزيد القرشي - جمهرة أشعار العرب - ص 132 .
4) الصحاح 4/ 1421 .

الى ذلك " والكسوف في الوجه : الصفرة والتغيّر، ورجل كاسف : مهموم قد تغيّر لونه وهزل من الحزن " (1). فالكسوف حزن مصاحب بتغيّرات جسمانية خارجية ، كعبوس الوجه واصفراره وهزال الجسم .

اللوع :

يعرّف صاحب القاموس اللوعة بأنها " حرقة في القلب وألم من حبّ وهمّ أو مرض ولاعه الحبّ : أمرضه " (2) ، فاللوعة حزن ممزوج بجزع واضطراب وألم يعبر عنه بحرقة في القلب ، وكثيرا ما يرتبط الالتياع بتباريح الحبّ وقد تكون مسبباته غير ذلك ، كالحنين للوطن أو توارد الهموم أو تكالب الأمراض وقد ورد مرتبطا بالشوق في قول أبي فراس الحمداني : (طويل)

أراك عصيَّ الدمعِ شيمتك الصّبر
أما للهوىٰ نهيٌ عليكَ وَلَا أَمرُ
بلى أنا مشتاقٌ وعندىَ لوعةٌ
ولكنّ مثلّي لا يُذاعُ لَهُ سرُّ (3)

الفجع :

أو التفجّع ، ينطوى معناها على كلّ ما في الحزن من ألم ، وتعني أيضا كلّ ايحاءات الحزن الذي اشتملت عليه المفردات السابقة من معان مصاحبة للحزن ، فالتفجّع

---

1) لسان العرب المحيط 3/259 .
2) الفيروز آبادى 3/85 .
3) الثعالبي - يتيمة الدهر - 1/87 .

تعبير عن حالة مكبوتة تطفح على السطح بطريقة لا ارادية بعد أن تفيض النفس بها ، فالفجيعة حسب تفسير المعاجم اللغوية ، هي الرزية الموجعة بما يكرم ، وقيل عن الفواجع ، بأنها المصائب التي تفجع الانسان بما يعز عليه من مال وحميم ، ومن سمات التفجّع التوجّع والتضوّر ، وأطلق العرب على الغراب صفة الفاجع لأنّه بنعيقه يفجع بالبين ، والرجل الفاجع اللهفان والمتأسّف .

فالتفجّع على ذلك هو أعمق أنواع الحزن ، وأشدّه على النفس ، اذ لا يستطيع الفرد كبته لما يولّد في أعماقه من انفجار ، فهو حزن تشترك في تجسيده جميع أعضاء الجسم ، وتنبّىء التصرفات اللا ارادية عن شدّته فهو متراوح بين التوجّع المكبوت والبكاء المر الغزير .

يفهم ممّا سبق أنّ التفجّع وصف لحالة قويّة من الحزن تنتاب الفرد في ظروف معينة ، فلا يستطيع تحملها لخروج ذلك عن ارادته ، فيعبّر عنها بالعويل ، أو بانطباع صور من الفم تغزو نفسه على شكل موجات متراوحة في شدتها وضعفها ، لا تنفكّ من معاودته في مختلف مراحل حياته ، ومن ذلك ما قيل عن الامام زين العابدين أنّه " قد بكى على أبيه الحسين عشرين سنة ، وما وضع بين يديه طعام الاّ بكى " (1) . وبامكان الشاعر الفذ أن يعبّر عن تفجعه بأساليب متنوعة تنبّىء عن شدّة حزنه واكتظاظ نفسه بالألم ، وليس المطلوب في هذا المجال الاقتصار على لفظة (تفجّع) لأنّ دراية الشاعر بأساليب اللغة المتنوعة

---

1) المجلسي - بحار الأنوار 46/108 ، محسن الأمين - في رحاب آل البيت 2/195

من خبر وانشاء وما يتضمّن ذلك من نفي واستفهام وتكرار وصور بلاغية الى غير ذلك من طاقات تكمن في اللغة ، هي التي توصّل الينا ذلك الشعور المشحون بالأسى ، فنشاطره أحزانه ، ونشاركه لوعته ، ومن ثمّ فإنّه بذلك الاستخدام الدقيق لأساليب اللغة يمكنه أن يجعلنا نعيش التجربة ، ونسبر غور اتساعها الشعوري ببقاء أثر النصّ في نفوسنا بعد الانتهاء من قراءته . فالتفجّع في الأدب هو الصفة المشتملة على جُل معاني الحزن ، فكلّما كان الحزن قويّا مندفعا ذا اتساع نفسيّ عريض وعميق أمكننا اطلاق كلمة تفجّع عليه ، لذا فقد استخدم الشاعر العربي كلمة تفجّع في حدّ ذاتها للتعبير عن حزنه العميق المتجدّد ،وأكثر ما كان يستخدمها في الرثاء .

كلمة تفجّع وبعض مشتقاتها في الشعر العربي :

باستعراضنا لبعض نماذج من الشعر في التراث العربي يمكننا ادراك مدى استخدام الشاعر العربي للفظة (تفجّع) بجميع اشتقاقاتها ، وما يمكن استخلاصه أيضا من دراسة تلك النماذج ، أنّ اللفظة قد بقيت تحمل معنى الحزن دون تغيّر في مفهومها طيلة العصور الأدبيّة ، فلم يطرأ على دلالتها أيّ تجديد ، إلاّ من ناحية اتساع مأساة الانسان في مواكبته للتطور الحضارى ، فقد استطاعت تلك الكلمة رغم اغراقها في القدم أن تستوعب ما في تلك المأساة الحضارية من أبعاد ، ومن استخداماتها في التراث الشعرى قول محمد بن بشير الخارجي : (كامل)

نِعمَ الفتَى فَجَعَتْ بهِ اخوانَهُ
يوم البقيعِ حوادثُ الأيّام (1)

---

1) المرزوقي - السابق - 2/808.

قد ورد الفعل (فجع) في سياق البيت ماضيا منعدّيا ، وتصدر البيت أسلوب مدح ، بما يعني فداحة الخطب في فقد المرثي ، فمن الملاحظ أنّ الشاعر قد بنى البيت على إبراز الفعل فجع بأن تلاه بالمتعلّق ثم أورد فيما بعد المفعول به (اخوانه) وتلا ذلك في الشطر الثاني بذكر الحادث ، وختم البيت بالفاعل (حوادث الأيّام) ، ونستشف من ذلك التقديم والتأخير ما يعتمل في نفس الشاعر من أسى ، فالحزن العميق لم يدع له مجالا للتفكير وكأنّ الفعل (فجع) هو المحور الأساسي الذى شيّد الشاعر عليه المعنى .

ومن استخدامهم الفعل فجع ماضيا مبنيا للمجهول قول مجهول : (بسيط)

قد كان قَبْلَكَ أقوامٌ فُجِعْتُ بهِمْ
خَلّى لَنَا هلكهمْ سمعًا وأبصارا
أَنْتَ الذيْ لَمْ يَدَعْ سمعًا ولا بَصرًا
إلاّ شَقَا فأمرَّ العيشَ أمرارا (1)

فمن الملاحظ أنّ الشاعر قد استخدم في بيته الأول الاعتراض بقوله (فجعت بهم) بين اسم كان وخبرها الجملة الفعلية (خلّى) ، مع التفريق بين (كان) وبين اسمها (قوم) بظرف الزمان (قبلك) المتصل بضمير الغائب العائد على المرثي ، وتركيب المعنى على هذا الترتيب : انّ الفواجع التي أصابت الشاعر كثيرة ولكنها لم تبلغ مبلغ الفاجعة التي أصابته في الفقيد ، وتكمن بلاغة الأسلوب في تجسيد الشاعر لحرقته على المرثي باستخدامه ضمير المخاطب (أنت) في البيت الثاني ، وكأنّه يخاطب موجودا

---

1) المرزوقي - السابق - 2/868 .

أمامه ، مع السكوت عن نوع الفاجعة باسناده الفعل (لم يدع) للضمير العائد الى الموت المتفجّع بسببه في البيت الأول ، وعدم ذكر الرزيّة تأكيدا لفداحة الخطب واستخدام الشاعر للفعل (فجعت) مبنيّا للمجهول ينطوى في حقيقته على بعدين ، أولهما : محاولة الشاعر ادراك ذلك المجهول المتسبّب في الفجيعة ، والثاني : انطواء الفعل في صيغته على عمق أثر الرزيّة في نفس الشاعر باسناده الفجيعة للمجهول ، فأوقع على نفسه هولها وثقلها بصفته نائب فاعل أى في حكم المفعول به من ناحية المعنى .

وكثيرا ما يرد الفعل (فجع) في صيغة المضارع المضعّف العين وكأنّ الشاعر يريد بهذا التضعيف تبيان شدّة جزعه واستمراره كما في قول مويلك المزموم يرثي زوجته : (كامل)

فَلَقَدْ تَرَكْتِ صَفِيْرَةً مرحومةً
لَمْ تَدْرِ مَا جَزَعٌ عَلَيْكِ فَتَجْزَعُ
فَقَدَتْ شَمَائِلَ مِنْ فِراقِكِ حُلْوَةً
فَتَبِيْتُ تُسْهِرُ أَهْلَهَا وَتُفَجَّعُ (1)

فبايراده الفعل (تفجّع) بالتضعيف بيّن لنا حالتين ، حالة تصوّر الطفلة وبكاؤها المستمرّ ، وحالة تفطّر قلوب من هم حول تلك الطفلة بسبب المرحلة التي بلغتها

---

1) السابق 2/ 903 ، وجاء في ديوان الحماسة طبعة بغداد ص 255 (تبيت تسهد) وورد في طبعة لجنة التأليف والنشر (تبيت تسهر) والسهر أقوى في الدلالة على المعنى لما يعنيه من انعدام النوم أمّا السهد فهو قلّة النّوم .

من ألم الفقد الذي لا تدري معناه ، ولا تدرك أبعاده الاّ من خلال الفراغ الذي خلفته الفقيدة في حياة طفلتها ، وقد جسّد تضعيف الفعل الاستمرارية في الحزن بمظهريه الانفعالي الخارجي والنفسي الداخلي بتصوير جهل الطفلة لمعنى الحزن الذي أخذ بتلابيبها ، فمأساة الطفلة ، ومأساة من حولها في محاولتهم معالجتها من أمر خفي لا تدركه ، ويتمثّل ذلك فيما فقدته من لمسات الحنان التي لا يستطيع المقربون منها تعويضها عنها ، فهي لا تعرف التفجّع ، ولا تدرك أبعاد الحزن ، ولكنها تشعر به ، فتعكسه على من حولها ممّن يدركون علتها ، ولكنهم لا يمكنهم معالجتها لاستحالة وجود الدواء .

وقد يستخدم الشاعر اسم الفاعل مفجوع للدلالة على استمرارية الحزن وطول أمده ، ومنه قول عبد الملك الحارثي : (طويل)

وانّي لأربابِ القبورِ لَغابِطٌ
بِسُكْنَىٰ سعيدٍ بَيْنَ أَهْلِ المَقابِرِ
وانّي لمفجوعٌ به اذْ تكاثَرتْ
عِدَاتيْ وَلَمْ أهتفْ سِواهُ بناصرِ (1)

ومن باب استخدامات الشعراء لاسم المفعول المشتق من الفعل (يفجّع) المضعّف العين قول طفيل الغنوي : (طويل)

---

1) المرزوقي - السابق 2/599 وقد سقطت الواو من (وانّي) في صدر البيت الأول والصحيح لاقامة الوزن ما ورد في طبعة بغداد ص 246 .

وَمَا أنَا بالمُسْتَنْكِرِ البَيْنَ أنَّنِي
بِذِيْ لَطَفِ الجيرانِ قَدْماً مُفَجَّعُ (1)

فالتفجّع على فقد الأهل والجيران والخلطاء لم يكن أمرا طارئا على الشاعر ، فقد صار الحزن عادة مألوفة لديه ، وتقديم الظرف (قدما) المتعلّق باسم المفعول (مفجّع) أكّد استمرارية الأحزان ، اضافة الى شدّته المتضمنة تضعيف اسم المفعول ، ومن ذلك أيضا قول أحد الشعراء: (كامل)

يَا مُؤنِساً سَكَنَ الثّرى وبقيتُ
لَوْ كنتُ أصدقُ اذ بَلِيْتَ بَلِيْتُ
أوْ كَانَ يُعْمَىٰ للبكاءِ مفجّعٌ
مِنْ طولِ مَا أبكِيْ عَلَيْكَ عَمِيْتُ (2)

فاستخدام اسم المفعول (مفجّع) ليس الاّ دلالة على محاولة الشاعر توكيد ما تعانيه نفسه من أحزان مضاعفة .

وتكرار كلمة تفجّع في بيت واحد دلالة على اكتظاظ النفس بالحزن وازدحامها بالهموم كما في قول أيّوب بن سليمان : (كامل)

إنْ عِشْتَ تُفْجَعُ بالأحِبَّةِ كلِّهِم
أوْ يُفْجَعُوا بِكَ إنْ بِهِمْ لَمْ تُفْجَعِ (3)

فقد يفهم من البيت أنّ الشاعر بتكراره (تفجع ، يفجعوا ، لم تفجع) أنّه يتكلّف الحكمة ، وهو ليس كذلك ، لأنّ تركيزه

---

1) المرزوقي - السابق 1/ 274 .
2) ابن عبد ربّه - العقد الفريد 3/ 250 .
3) السابق 3/ 257 .

على مفردة لفويّة في بيت واحد له دلالته النفسيّة، فالدفعات النفسيّة تحول بينه وبين تجنّب التكرار في مثل هذه المواقف التي يستسلم فيها لوجدانه وعاطفته ممّا يجعل التعبير في كثير من الأحيان يعجز عن أداء الانفعال الداخلي ، فيلجأ للتكرار علّه يعبّر ولو بنسبة مقبولة عمّا يجيش في نفسه .

ومن مشتقّات كلمة (تفجّع) التي وردت عند الشعراء صيغة اسم الفاعل (مفجّع) المشتقّة من صيغة (فعّل) ومنه قول الضحاك بن قيس الفهري : (بسيط)

أَبَا المُغِيرة والدنيا مُفجّعة
وأنّ من غَرَّت الدُّنيا لمغرُورُ
قَدْ كَانَ عِنْدك لِلْمَعْروف مَعْرفةٌ
وكَانَ عِنْدكَ للنُّكْرَاءِ تَنْكيرُ (1)

فقد أسند التفجّع للدنيا باخباره عنها باسم الفاعل (مفجّعة) وذلك في جملة حاليّة بعد الندب على المرثي في صدر البيت الأول ، ثم عطف على تلك الجملة جملة أخرى بيّن فيها حال من تعلّق بالدنيا وأحبها ، وهي التي تشمل الشطر الثاني من البيت الأول ، بعدها عاود مواصلة الندب على الميت من خلال ذكر خصاله الحميدة ، وكأنّه بذلك الاستئناف الطويل - الذي استغرق الشطر الثاني من البيت الأول بالاضافة الى الجملة الحالية - يريد أن يقرر حقيقة لا مفرّ منها هي : انّ نكبات الدنيا تجرف في طريقها الصالح والطالح فالكلّ في طريقه الى الموت ، فالتشبّث بالزائل

---

1) ابن عبد ربّه - العقد الفريد 3/ 241 .

من عرض الدنيا غرور ، اضافة الى ذلك فانّ جملة (والدنيا مفجّعة) تنطوى على تأوّه وتنهّم حاريين حاول الشاعر تجسيدهما بالكلمة على شكل تنهدات ملتاعة .

تلك هي بعض اشتقاقات لفظة (تفجّع) في الشعر العربي ، وقد وردت كلها في مجال الرثاء ، لما تنطوى عليه من الأسى الملتاع بمظهره الخارجي المتمثّل في الكآبة والعبوس ، والداخلي المتمثّل في ألم النفس وعدم استقرارها بسبب مصيبة الموت التي طالما وقف منها الانسان مذهولا لاستعصاء حلّ لغزها عليه ، الاّ أنّ ذلك لا يعني أنّ معاني التفجّع قد اقتصرت على مشكلة الموت ، لأنّ الكلمة تحمل في طياتها مأساة الانسان بكلّ ما تنطوى عليه من حزن وألم أثناء رحلته الطويلة في هذه الحياة . فقد يكون التفجّع من أجل مصيبة حلّت بقوم فتبقى ماثلة في ضمائر الأجيال بعدهم تتجدّد بتجدّد ذكراها كما هو عند الشيعة ، ومنه قول سراقة البارقي : (خفيف)

عينُ بكّي بعبرةٍ وعويلِ
واندبي إنْ ندبْتِ آلَ الرّسولِ
خمسةٌ منهمُ لصلبِ عليّ
قد أُبيدُوا وسبعةٌ لعقيلِ (1)

أوقد يكون التفجّع بسبب فشل الانسان في المواءمة بين طموحه وبين ما يفرضه عليه الواقع من قيود تحول دونه في الوصول الى غاياته فتكون المأساة والشكوى كما

---

1) البلاذري ـ أنساب الأشراف 3/ 223 .

في قول الشريف الرضي : (وافر)

فَلِمْ أَنَا كالغريبِ وراءَ قومٍ
لو اختبروا لَقُدْ كانوا ورائي (1)

وقد يكون التفجّع بسبب تصدّعٍ في الأخلاق ممّا يجعل الانسان المثالي يعيش دوّامة من الصراع المؤلم حين لا يستطيع مجاراة عادات مجتمعه في نفس الوقت الذي لا يستطيع فيه اصلاح ما أفسدته الحياة فينكفئ على نفسه كما في قول المعافىٰ بن هزيم يصف نفوره من مجتمعه (مخلّع البسيط)

لمّا رأيتُ الزّمانَ نُكسا
وفيه للرفقةِ اتّضاعُ
كم رئيسٍ لهُ مِلالٌ
وكلُّ رأسٍ لهُ صُداعُ
لَزِمتُ بيتي وَصُنْتُ عِرْضًا
بهِ عنِ الذُّلّةِ اتساعُ (2)

وقد يكون سبب التفجّع الاخفاق في الأمور العاطفية أو البعد عن الحب ومن ذلك قول أبي صخر الهذلي : (طويل)

أمَا والّذي أبكىٰ وأضحكَ والّذي
أماتَ وأحيَا والّذي أمرهُ الأمرُ
لَقَد تركَتْنِي أحسدُ الوحشَ أنْ أرىٰ
اليقينِ مِنْها لا يَروعُهُمَا الذُّعرُ
فيا حُبّها زِدْنِي جَوىً كلّ ليلةٍ
ويَا سَلْوةَ العُشّاقِ مُوعِدُكِ الحَشْرُ (3)

---

1) الديوان 1/17 .
2) الشعر - اليتيمة 4/132 .
3) المرزوقي - السابق 3/1231، 1232 .

ومن هنا تتنوّع أساليب التفجّع بتنوّع مثيراته، وفي هذه الحالة لا يمكن لكلمة (تفجّع) في حدّ ذاتها أن تستوعب كلّ تلك المعاني ، فهي وان تضمّنت معاني الحزن بكلّ ما فيه من بؤس وشقاء وألم ، الاّ أنها لا يمكنها كمفردة أن تصوّر تلك المآسي ، ممّا يحدو بالشاعر الى استخدام أساليب متنوعة تتيحها له اللغة بكلّ طاقاتها التعبيريّة ، ويبرزها كمبدع في مقدرته على التصرّف في معاني اللغة وأساليبها المختلفة لتتسق والتعبير عن عظيم أحزانه ، لأنّ اللغة طاقات ليس بالامكان ادراك أبعادها وسبر غورها الاّ لمن أحاط بدقائقها وتمكّن من أساليبها . فقد يتكئ الشاعر على التقديم ضمن الأسلوب الخبرى للتعبير عن تفجّعه ، دون التعرّض لكلمة (فجع) أو احدى مشتقاتها كما في قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك : (طويل)

لَقَدْ لامَني عِنْدَ القُبورِ على البُكا
رفيقيْ لتَذْرافِ الدُموعِ السّوافِكِ (1)

فانشغال نفس الشاعر بالتحسّر على أخيه انعكس على تراكيب اللغة عنده فاستحالت الى ضروب من الأشجان المتكاثفة ، فقد قدم الظرف ومضافه ، والجار والمجرور على الفاعل في قوله (لامني عند القبور على البكاء رفيقي) اضافة الى ما بين شبه الجملتين من تقديم وتأخير ، فأصل الكلام (لقد لامني رفيقي على البكاء عند القبور) وقد قدّم (عند القبور) وتلا ذلك بالبكاء ، للتأكيد بأنّ حزنه قد بلغ غايته ، فاخبار الشاعر عن استغاثة رفيقه

---

1) المرزوقي - السابق 2/799 .

لتذراف دموعه على القبور لا يهدف منه الأخبار المحض بل الغرض منه التعبير عمّا وصلت اليه حالته من حزن وأسى وحرقة بسبب فقد أخيه .

وقد يلجأ الشاعر للتوكيد لاظهار تفجّعه كاللجوء الى القسم ، ومن ذلك ما ورد في قول الابيرد الرياحي : (طويل)

حَلَفْتُ بربّ الرّافعين أكُفّهُمْ
وربّ الهَدَايَا حيثُ حَلّ بِها النّحرُ
ومُجْتَمَعِ الحُجّاجِ حيثُ تواقفتْ
رفاقٌ من الآفاقِ تُكْبِرُهَا جَأرُ
يمينُ امرئٍ آلىٰ وليسَ بكاذبٍ
وما في يمينٍ بَتّها صادقٌ وِزْرُ
لئنْ كَانَ أمسىٰ ابن المعذّرِ قَدْ ثَوَىٰ
بُرَيْدٌ لَنِعْمَ المرءُ غَيّبَهُ القبرُ
هو المرءُ للمعروفِ والدينِ والندىٰ
ومسعر حرب لا كَهَامٌ ولا غُمر (1)

فقد بدأ الشاعر قسمه بمطلع البيت الأول ولم يورد جوابه الاّ ببداية البيت الرابع ، وعطف جمل القسم على بعضها البعض في ثلاثة أبيات متتابعة ، مع توكيد القسم بقسم آخر في قوله (يمين امرئ) كلّ ذلك دلالة على المعاناة التي يكابدها الشاعر لفقد أخيه ، ويريد ابرازها والتعبير عنها بشتّى الأساليب .

ومن التوكيد في مجال الرثاء بغير القسم قول لبيد ابن ربيعة في رثاء أخيه أربد : (كامل)

---

1) اليزيدي ـ كتاب الامالي ص 29 .

إنّ الرّزيّةَ لا رزيّةَ مثلهـــا
فقـدانُ كلّ أخٍ كضـوءِ الكَوْكَبِ (1)

فقـد صـدّر لبيـد بيتـه بـ (انّ) توكيـدًا لمعاناتـه وألمه بسبـب فـراق أخيـه ، وقـوّى مـن ذلـك التوكيـد تكـرار لفـظ (الرزيّـة) قبـل النفـي وبعـده فـي قولـه (انّ الرزيّـة لا رزيّـة بعدهـا)

وقـد يعمـد الشاعـر الـى التكـرار فـي محاولـة منه للتعبير عـن عظيـم أسـاه كمـا فـي رثـاء المتنبّـي لأخـت سيف الدولـة : (بسيـط)

فليـت طالعـةَ الشمسيـنِ غائبـةٌ
وليـت غائبـةَ الشمسيـن لـم تغـبِ
وليـتَ عينَ التي آبَ النهارُ بهـا
فـداءُ عينِ التي زالـتْ ولَمْ تَؤُبِ (2)

فقـد تكـرّر التمنّـي بـ (ليـت) ثـلاث مـرّات فـي محاولـة مـن الشاعـر للتعبيـر عـن لوعتـه وشـدّة وجـده علـى المتوفّـاة .

ومـن الأساليـب التـي يعمـد الشاعـر اليهـا ابرازا لتفجّعـه أيضـا التِصَـرْ كمـا فـي رثـاء منصـور النمـرى ليزيـد بن مزيـد : (طويـل)

سأبكيكَ ما فاضتْ دموعـيْ فـإنْ تغـضْ
فحسبُـك منّـي ما تجـنّ الجوانـحُ
كـأنْ لَـمْ يَمُـتْ حيٌّ سـواكَ ولَـمْ تَقُـمْ
علـى أحـدٍ الاّ عليـكَ النوائـحُ (3)

---

1) المبـرّد ـ الكامـل 4/ 33 .
2) البرقوقـي ـ شـرح ديـوان المتنبّـي 1/ 220 .
3) ابـن عبـد ربّـه ـ العقـد الفريـد 3/ 287 .

فمن خلال معالجة الشاعر لما في نفسه من حزن وأسى ، قصر الموت والنواح على مرثيه ، وقد استوعب ذلك القصر البيت الثاني بأكمله .

وقد يلجأ الشاعر الى الممازجة بين أساليب الانشاء في محاولة منه لاظهار ما يكابد من برح لا يحتمل كبته كما في رثاء الخنساء لأخيها صخر : (متقارب)

أعينيّ جُودا ولا تَجْمُدَا
ألا تَبكيانِ لصخرِ الندى
ألا تبكيانِ الجريءَ الجميلَ
ألا تبكيان الفتى السيّدا (1)

فامتلاء نفس الخنساء بالحزن لفراق أخيها صخر تكشف في أسلوب الانشاء الذى ضمنته النداء في (أعينيّ) والأمر في (جودا) والنهي في (لا تجمدا) والحض بالاستفهام في قولها (ألا تبكيان) التي تكرّرت ثلاث مرّات ، في كلّ مرّة تقرنها الشاعرة بصفة من صفات أخيها الخَلقيّة أو الأخلاقيّة ، وتجلّت روعة الرثاء في قولها (ألا تبكيان الجريء الجميل) لما تضمنه قولها (الجميل) من صفات خلقيّة تكمن في وسامة المرثي وأخلاقيّة تكمن في حسن معاشرته للنّاس .

ومن الأساليب التي يعمد اليها الشاعر في التعبير عن أساه وتفجّعه التجوز الاسنادى كما في قول مروان ابن أبي حفصة ضمن رثائه معن بن زائدة : (طويل)

بكى الشّامُ معنًا يوم خلّىٰ مكانَهُ
فكانتْ لهُ أرضُ العراقينِ ترجفُ (2)

---

1) المبرّد ـ السابق 4 / 49 .
2) ابن عبد ربّه ـ السابق 3/ 296 .

فقد استطاع الشاعر من خلال الأسلوب الخبرى أن يبيّن فداحة الخطب بموت المرثي فأسند فعل البكاء للشّام والارجاف الى أرض العراق في محاولة منه تصوير ما أصاب النّاس في كلا القطرين من حزن على الفقيد .

كما قد يلجأ الى الندبة تعبيرا عن شدّة هلعه كما في قول المتنبّي : (بسيط)

واحرّ قلباهُ ممّن قلبهُ شَبِمُ
ومن بجسمي وحالي عنده سقم(1)

فلجوء المتنبّي للندبة في قوله (واحرّ قلباه) لم يكن لولا بلوغ السخط والحزن من نفسه مبلغا ليس في طاقته تحمّلها والصبر عليهما .

كما أنّ للصور والأخيلة قيمتها التفجّعيّة العميقة لدى الشاعر اذا تمكّن من توظيفها التوظيف المناسب في التعبير عن أساه ، ومن بديع ذلك في مجال الرثاء قول الخنساء ضمن رثاء أخيها صخر : (بسيط)

فالعينُ تبكِيْ على صخرٍ وحُقَّ لَهَا
وَدُونه من جَديدِ الأرْضِ أسْتَارُ
بُكاءَ والهةٍ ضَلَّت أليفَتُهَا
لَهَا حَنِينَانِ إصْفار وإكبارُ
تَرْعَى إذا نَسِيَتْ حتّى إذَا ذَكَرَتْ
فإنّما هِيَ إقْبَالٌ وإدْبَارُ(2)

---

1) البرقوقي - السابق 4/ 80 .

2) ابن عبد ربّه - السابق 3/ 268 واصفار = الحنين بصوت منخفض ، واكبار = الحنين بصوت مرتفع .

فهي محاولة منها للتعبير عن عظم رزيتها في ثكل أخيها لجأت الى الصّورة كبديل بعد أن شعرت - في قرارة نفسها - بعدم قدرة اللغة على التعبير عن طاقات الحزن المتدفقة في حناياها ، فشعورها ببعد المسافة بينها وبين المرثي لم يحل بين روحها ومعاودة تذكّره ، واستمرارية البكاء عليه مثلها في ذلك مثل الناقة التي فقدت فصيلها ، فظلّت تعبّر عن حنينها اليه تارة بالصّوت المخنوق المنخفض وأخرى بالصّوت المرتفع المعبّر عن العويل ، فما تكاد تنسى بعض الوقت أثناء رعيها حتّى يعاودها الحنين والشّوق ، فينتابها الوله والحزن اللذان تعبر عنهما بالحركات اللاارادية التي تشي بما تكابد من ألم لا يبارحها ، وتحاول الخنساء بذلك التصوّر الدقيق المعبّر بالصّوت والحركة أن تفك معاضلة الحزن المشتبكة في قرارتها والتي ما تفتأ من معاودتها بين آونة وأخرى فتحول بينها وبين الاستقرار على حالة واحدة.

فاللغة معين حيّ متدفّق يمتح الشاعر منه دونما نضوب ، لذلك فليس من الضرورى أن تكون كلمة حزن ومشتقاتها هي المتكأ الذي يعمد اليه للتعبير عمّا يحسّه من حزن ، اذ بامكانه أن يعبّر عن عظيم أساه ، وعمق تحسّره بجميع طاقات اللغة التعبيريّة والتصويريّة . فعمق شعوره بمأساته ، والشراء في تجاربه الانسانيّة ، هما اللذان يتيحان له فرصة ذلك . ومن هذا السبيل يمكننا الدخول في شعر الشريف الرضي ، لمعرفة أسباب تفجّعه ، بدراسة أساليبه التفجّعيّة المتنوّعة التي لوّنت شعره في جميع مراحل حياته حتّى أطلق الأدباء عليه لقب " النائحة الثكلى " (1).

---

1) الصفدى - الوافي بالوفيات 2/374.

الفصـــل الأول

بيـن التفجّـع والتشيّـع

جـذور الحـزن الشيعـي :

يـرى الشيعـة الاماميـة أنّ البدايـة الفعليّـة للتشيّـع مرتبطـة ببدايـة الرسالـة المحمديّـة (1) ، ويصـرّون فـي هـذه الناحيـة علـى أنّ التشيّـع جـزء مـن الاسـلام قـد أقـرّه الرسـول (ص) بقولـه لِعَلـيٍّ بـن أبـي طالـب " إنّ هـذا أخـي

---

(1) هنـاك اختـلاف حـول نشـأة التشيّـع ، فبعـض المؤرخيـن يرجعـون تلـك النشـأة الـى مـا بعـد وفـاة الرسـول (ص) واجتمـاع السقيفـة وتخلـف علـيّ وبعـض الصحابـة عـن بيعـة أبـي بكـر ، وفريـق ثـان يرجـع نشـأة التشيّـع الـى الفتنـة فـي زمـن عثمـان ، وفريـق ثالـث يرجـع بدايـة التشيّـع الـى موقعـة صفيـن ومـا نتـج عـن تلـك الموقعـة مـن أمـر التحكيـم ، وفريـق رابـع يـؤرخ لبدايـة التشيّـع بمصـرع الامـام الحسيـن ، أمّـا الشيعـة الاماميّـة فيـرون أنّ التشيّـع قـد بـدأ قريـن النبـوّة أي أنّ بداياتـه الفعليّـة اقترنـت ببدايـة الرسالـة المحمديّـة ، فلقـد كـرّر الامـام علـيّ ذكـر أحقيتـه فـي الامامـة بعـد وفـاة الرسـول (ص) حسـب مـا جـاء فـي عـدّة مواضـع مـن نهـج البلاغـة منهـا : 116/1 ، 124 ، كمـا تحـدّث عـن بدايـة التشيّـع كـلّ مـن النوبختـي - مـن أعـلام القـرن الثالـث الهجـرى - فـرق الشيعـة ص 39 ومـا بعدهـا ، الشيـخ المفيـد - النكـت الاعتقاديّـة ص 38 ومـا بعدهـا ، المطهـر الحلـي - نهـج الحـق ص 170 ، عبـد الحسيـن شـرف الديـن فـي كتابيـه - فلسفـة الميثـاق والولايـة ص 20 ومـا بعدهـا ، والمراجعـات ص 145 ومـا بعدهـا ، محمـد باقـر الصـدر فـي تقديمـه لكتـاب " تاريـخ الاماميـة وأسلافهـم الشيعـة " ص 3 .

ووصيّ وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا " (1) لذلك فقد سار أدب التشيّع جنبا الى جنب مع التشيّع ذاته ، اذ لم يكن ذلك الأدب طارئا ،بل كان قديما بقدم الرسالة المحمديّة ، يقول الامام عليّ عن صحبته للرسول (ص) " قَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليهِ وَآلِهِ بِالقَرابَةِ القَرِيبَةِ ، والمنزلَةِ الخَصِيصَةِ . وَضَعَنِي في حِجْرِهِ وأنَا ولَدٌ يَضُمُّنِي الى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي إلى فِراشِهِ ، ويُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ . وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً في قولٍ ولا خَطْلَةً في فِعْلٍ ..... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتّبَاعَ الفَصِيلِ أثَرَ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي في كُلِّ يومٍ مِنْ أخلاقِهِ عَلَماً ويأمُرُنِي بالاقتداءِ بِهِ . وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ في كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ ولا يَرَاهُ غَيْرِي . وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ واحِدٌ يَوْمَئِذٍ في الاسلامِ غَيْرَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليهِ وآلِهِ وخديجَةَ وأنَا ثالِثُهُمَا . أرى نُورَ الوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأشمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ " (2) .

ويلاحظ على بدايات الأدب الشيعي وخاصّة في عهد الرسول (ص) أنّه قد ركّز على جانب واحد يتمثّل في وصيته (ص) لعليّ بإمامة الأمّة من بعده . يقول حسّان ابن ثابت بعد أن فرغ الرسول (ص) من خطبته في غدير خم : (طويل)

يناديهمُ يومَ الغديرِ نبيُّهُمْ
بِخُمٍّ وأسمِعْ بالرسولِ مُنادِيَا
فقالَ فمَنْ مولاكُمُ ونبيُّكُمْ
فقالوا ولم يُبْدُوا هُنَاكَ تَعَامِيَا

---

1) الطبري ـ تاريخ الطبري ـ 321/2 ، وقد أورد المطهر الحلي الحديث مرويّا عن مسند أحمد ـ راجع نهج الحق ص 213.

2) نهج البلاغة 157/2 بشرح محمد عبده .

إلاهُكَ مولانَا وأنتَ نبيُّنَا
ولم تلقَ منّا في الولايةِ عاصيًا
فقالَ لهُ : قُمْ يا عليُّ فإنّني
رضيتُكَ مِنْ بَعدي إمامًا وهاديًا
فَمَنْ كنتُ مولاهُ فهذا وليُّهُ
فكونوا لهُ أتباعَ صدقٍ مَواليًا
هناكَ دَعَا : اللّهمّ والِ وليّهِ
وكُنْ للذي عَادَى عليًّا مُعَادِيًا (1)

فالأبيات تتضمّن نصًّا صريحا بإمامة عليّ وقد قيلت في حشد المسلمين بعد تأديتهم فريضة الحجّ ممّا جعل الشيعة يعتبرونها من القرائن الدّالّة على أنّ التشيّع قد بدأ ببداية البعثة النبويّة لاعتماد التشيّع في الأساس على أحقيّة آل البيت في الامامة ، وذلك يعني بطبيعة الحال أنّ أدب التشيّع - مثله في ذلك مثل أيّة ظاهرة أدبيّة - وليد عصره ، فالأبيات وإن صدرت ممّن لا يعد من المتشيعين لعليّ الاّ أنها تنبّئ بمولد مثل ذلك الأدب المؤيّد لحقّ آل البيت ، فما ان يلحق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى حتّى يجتمع المهاجرون والأنصار لسد الفراغ الذي خلّفه ولمّا يوار جثمانه الطاهر التراب ، وينحسم الأمر لصالح أبي بكر ، ممّا يجعل الامام عليّ وبعضًا من صحابة الرسول (ص) يحجمون عن بيعته محتجّين بأحقية الامام عليّ في هذا الأمر ، كما شعر الامام بالمرارة التي تتمثّل في أنّه "لمّا انتهتْ اليه أنباءُ السقيفةِ بعدَ وفاةِ الرّسولِ (ص) قالَ عَلَيْهِ السّلامُ : مَا قَالَت الأنصَارُ؟ قالوا : منّا أميرٌ ومنكُمْ أميرٌ ، قالَ عليهِ السّلامُ : فَهَلّا احْتَجَجْتُمْ عليْهِمْ بأنّ رسولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ وصّى بأن يُحسَنَ

1) عبد الحسين الأميني - الغدير 2/ 24 وقد أخذ الأبيات عن سبط ابن الجوزي - تذكرة خواص الأمّة والأبيات غير موجودة في الديوان .

إلى مُحْسِنِهِمْ ويُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ ، قالوا : وَمَا فِي هَذَا مِنَ الحُجّةِ عَلَيْهِم ، فَقَالَ عَلَيهِ السّلامُ : لَوْ كَانَتْ الإِمَارَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنْ الوصيّةُ بِهِمْ ، ثُمّ قَالَ عليهِ السّلامُ : فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ ؟ قَالُوا : احْتَجّتْ بأنّهَا شَجَرَةُ الرّسولِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ ، فَقَالَ عَليهِ السّلامُ : احْتَجّوا بالشّجَرةِ وأضاعُوا الثمرَةَ " (1) وضياع الثمرة معناها تخليهم عن عليّ ، ثمرة فرع بني هاشم في شجرة قريش ، وضياع حقّه الذي قال فيه عتبه بن أبي لهب : (طويل)

ما كنتُ أحسِبُ أنّ الأمرَ مُنصرِفٌ
عن هاشمٍ ثمّ منها عن أبي الحَسَنِ
عَنْ أوّلِ النّاسِ إيماناً وسابِقَةً
وأعلمُ النّاسِ بالقرآنِ والسّننِ
وآخِرِ النّاسِ عهداً بالنّبيّ ومَنْ
جبْريلُ عَونٌ لَهُ في الغَسْلِ والكَفَنِ
مَنْ فيهِ ما فيهِمُ لا يَمْتَرُونَ بِهِ
ولَيْسَ في القَوْمِ ما فيهِ مِنَ الحسَنِ (2)

فبالاضافة الى ما تحويه الأبيات من تحسّر يكمن في قول الشاعر (ما كنت أحسب) فهي تنصّ على أحقيّة علي في الامامة لسابقته في الاسلام ولمصاحبته الرسول (ص) حتّى آخر لحظة من لحظات حياته ، اضافة الى أنّه قد جمع كلّ الخلال والصفات الحميدة التّي كانت في الصحابة . وزيادة على تفرده بمزايا لا يصلون فيها شأوه ولا يبلغون

---

1) نهج البلاغة 1/116 بشرح محمد عبده .

2) تاريخ اليعقوبي 2/124 .

مداه ، فابتداء المقارنة وظهور روح المفاضلة في مثل هذا الشعر بمثابة بداية لمرحلة جديدة في الأدب الشيعي لم تكن موجودة من قبل ، وقد بدأت هذه الظاهرة في البروز في وقت مبكّر ، ومنها قول حسّان مفضّلا عليّ على غيره من قريش : (طويل)

جَزى اللّهُ خيراً والجَزاءُ بكفّهِ
أبا حَسَنٍ عنّا وَمَنْ كأبي حَسَنْ
سبقتَ قريشاً بالّذي أنتَ أهلُهُ
فصَدْرُكَ مشروحٌ وقلبُكَ مُمتحَنْ
تمنّى رجالٌ مِنْ قريشٍ أعِزّةٌ
مكانَك هيهاتَ الهُزال مِنَ السِّمَنْ
حُفِظتَ رَسولَ اللّهِ فينا وعهدُهُ
اليكَ وَمَن أَوْلى بهِ منكَ مَنْ وَمَنْ
ألستَ أخاهُ في الإخا وَوَصيّهُ
واعلَمَ فِهرٍ بالكتابِ وبالسّنَنْ (1)

فتفضيل الامام علي في المقارنة بينه وبين بقيّة رجال قريش وتقديمه في الأحقيّة بالامامة تعني بداية المواجهة غير المكشوفة التي بلغت ذروتها بمطالبة الزهراء بارثها من أبيها في فدك بعد أن حجب الخليفة أبوبكر ذلك الحقّ عنها (2) وقد وضّح ذلك الاحتجاج المشبع بالأسى والحزن في قول الامام علي وهو يوارى جسدها الطاهر

---

1) تاريخ اليعقوبي 2/128 . والأبيات لم يذكرها جامع الديوان .
2) يذكر الطبرى في تاريخه 2/208 " أنّ فاطمة والعبّاس أتيا أبابكر يطلبان ميراثهما من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وهما حينئذ يطلبان أرضه في فدك وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبوبكر : أما انّي سمعت

=

التراب محدثا الرسول (ص) " وَسَتُنَبِّئُكَ ابنتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا ، فأَحْفِهَا السُّؤَالَ ، واستخبِرْهَا الحَالَ ، هذا ولَمْ يَطُلْ العَهْدُ بك ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْك الذِّكْرُ" (1) وعلى الصعيد السياسي يمكن اعتبار مداهمة عمر بن الخطّاب لبيت فاطمة بغية احراقه ، أول خيبة أمل يصاب بها الامام عليّ وأتباعه ، اذ لم يكونوا يتوقعون صدور ذلك ممّن كانوا بالأمس القريب يعترفون - كما يعتقد الشيعة -

---

= رسول اللّه يقول : لا نُوَرِّثُ ما تركناهُ فهو صدقةٌ ،انّما يأكلُ آلُ محمدٍ في هذا المالِ ، وانّي واللّه لا أدعُ أمراً رأيتُ رسولَ اللّهِ يصنعُهُ إلاّ صنعتَهُ . قال : فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتّى ماتت فدفنها عليّ ليلا ولم يؤذن بها أبابكر " أمّا اليعقوبي فيذكر في تاريخه 469/2 " ان فدك كان وهبها رسول اللّه لفاطمة وأنها سألت أبابكر دفعها اليها بعد وفاة رسول اللّه ، فسألها أن تحضر على ما ادعت شهودا ، فأحضرت عليّا والحسن والحسين وأم أيمن . . . . . وأنّ أبابكر لم يجز شهادتهم " وفدك قرية بخيبر وقيل أنها بناحية الحجاز فيها عين ونخل . وقد آلت فدك لرسول اللّه (ص) دون غيرها من أراضي اليهود بعد فتح خيبر لأنّ المسلمين " لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب " ، فقد تنازل أهلها عنها شريطة أن يخلّي الرسول (ص) سبيلهم فأجاب طلبهم . راجع ابن الأثير الكامل في التاريخ 150/2 .

1) نهج البلاغة 182/2 بشرح محمد عبده .

بشرعية الحقّ الذى حيل بينه وبين صاحبه ممّا جعل فاطمة الزهراء تستنكر على عمر فعلته قائلة " أجئت لتحرق دارنا ؟ " (1) فاعتبر الشيعة ردّ عمر بالايجاب (2) بمثابة التحدى لآل البيت والاستصغار لقيمتهم ، ممّا جعلهم يحسون في نفوسهم ، حتّى أنّ أبابكر قد شعر بذلك فأظهر ندمه وتأسفه وهو على فراش الموت متمنيا أن لم يكشف بيت فاطمة (3) .

لقد أرغم عليّ وأصحابه على السكوت طيلة عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة ، يقول جولد تسهير " انّ الحزب المناصر لآل البيت قد شايع في عهد الخلفاء الثلاثة الأول ، حقوق البيت النبوى في الخلافة ، ملتزما الهدوء والسكينة ، دون أن يدخل مع ذلك في نزاع مكشوف للدفاع عنها " (4) وهذا يعني أنّ السكوت لم يكن الاّ على مضض ممّا يملأ النفوس أسى ، واستمرّ ذلك حتّى قتل عثمان وبويع عليّ ، فتنفّس أصحابه الصعداء لادراكهم بأنّ الحقّ قد عاد الى نصابه ، فأخذوا يعبّرون عن ذلك في فخرهم ، يقول الامام عليّ مفتخرا على معاوية : (وافر)

محمدٌ النّبيُّ أخي وصِنْوي
وحمزةُ سيّدُ الشهداءِ عمّي
وجعفرٌ الذي يُضْحِي ويُمْسِي
يطيرُ معَ الملائكِ ابنُ أُمّي

---

1) ابن عبد ربّه الأندلسي - العقد الفريد - 259/4 .
2) السابق 260/4 اذ أجابها عمر " نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمّة " .
3) راجع السابق 268/4 .
4) جولد تسهير - العقيدة والشريعة في الاسلام ص 174 .

وبنتُ محمّدٍ سَكَنِي وعُرْسِي
منوطٌ لَحْمُهَا بدمِي ولحمِي
وسبطا أحمدٍ ولدايَ مِنْهَا
فأيّكُمُ لهُ سَهْمٌ كَسَهْمِي
سَبَقْتُكُمُ إلى الاسلامِ طُرّاً
على مَا كَان مِنْ فَهْمِي وعِلْمِي
فاوجبُ لي ولايتهُ عليكُمْ
رسولُ اللّهِ يومَ غديرِ خُمّ
فويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ
لِمَنْ يَلْقَى الالهَ غداً بِظُلْمِي (1)

اذ يفتخر الامام عليّ بقرابته من الرسول (ص) وبأسبقيته في الاسلام ، وباتساع علمه . هذا بالاضافة الى أحقيته في الخلافة بالنص الشرعي ، داعيًا على من ظلمه وحال بينه وبين حقّه بعذاب الاله ، والبيت الأخير صادر عن معاناة تشي بما كان الامام يكتمه من أسى وما يشعر به من هضيمة ، فحكمه لم يستقر اذ خرج عليه بعض من بايعه كطلحة والزبير فقال لهما " فأقبلتُمْ اليّ إقْبَالَ العُوذِ المَطَافِيلِ على أوْلادِهَا ، تَقُولُونَ : البَيْعَةَ البَيْعَةَ قَبَضْتُ كَفّي فَبَسَطْتُمُوهَا . ونازعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا . اللّهُمّ إنّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي ، وَنَكَثَا بَيْعَتِي ، وَألّبَا النّاسَ عَلَيّ ، فاحْلُلْ مَا عَقَدَا ولا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أبْرَمَا " (2) فلقد أوغر ذلك

---

1. ياقوت - معجم الأدباء 14/48 وقد ذكر الأبيات الخمسة الأول أمّا الأبيات كاملة فقد أوردها عبد الحسين الأميني - الغدير 2/25 .
2. نهج البلاغة 2/20 ، والعوذ - بالضم - جمع عائذة وهي الحديثة النتاج من الظباء أو الابل ، والمطافيل : جمع مطفل بضم الميم وكسر الفاء ،ذات الطفل من الانس والوحش .

الأمر صدره ممّا جعله يشكو بثّه الى اللّه تعالى ويدعو عليهما ، فالكلام يصور التناقض في موقف الرجليين بين الزامهم الامام بقبول البيعة وبين تأليبهم النّاس عليه بعد أن نكثا ما عقدا من ايمان ، ممّا جعل نفسه تنضج بالألم والحسرة ، فكلمات الامام هي صورة لما تكلمه نفسه من أسىً يحاول التخفيف منه بترجمته الى أقوال يحدّث بها المقربين من أصحابه فيتألمون لحزن امامهم فتتراكم تلك الأحزان في النفوس وتستحيل الى غضب تفرغ بعضًا منه في موقعة الجمل التي قتل فيها آلاف المسلمين (1) ، وما ان يفرغ من تلك الموقعة حتّى يعود لمجابهة معاوية الذى يحاول مهادنته والنزول الى طاعته في مقابل بقائه على ولاية الشّام (2) ، ولمّا كان الطلب يتعارض مع مبادئ الامام عليّ في اسناد أمور المسلمين لمن ليس أهلا لذلك ، أبى الأ أن يعزل معاوية ، فكان القتال الذي أدّى في نهاية الأمر الى تفرّق أهل العراق عن الامام عليّ بسبب خروج بعض من جيشه عليه بعد التحكيم فانفتحت أمامه جبهة أخرى اضطر الى محاربتها ، وقد ذاق الأمرين من أهل العراق في هذه الفترة ، وخطبه فيهم تنضح بالغضب والامتعاض

---

1) يذكر الطبرى في تاريخه 539/4 " كان عدد قتلى الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة .

2) في نهج البلاغة 16/3 قال الامام علي لمعاوية " فأمّا طَلَبُكَ الشّام فإنّي لم أكُنْ لأعْطِيَكَ اليومَ ما منعتُكَ أمس " .

اذ وصل به الضيق منهم الى قوله " اللّهُمَّ إنّي قد مَلَلْتُهُمْ وَملّونِي وسئمتُهُمْ وسئمُونِي فابْدِلْنِي بِهِمْ خيرًا مِنهُمْ وابْدِلْهُم بي شرّاً مِنّي . اللّهُمَّ مُثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ المِلْحُ فِي المَاءِ " (1) .

لقد امتلأت نفسه بالشجن فلم يعد الحزن يبارحه ، ولكنّه حزن المؤمن الصامد (2) ، المصمّم على تنفيذ العدل واقامة الاسلام مهما كان الثمن ، لأنّه كان شريفا في نفسه ، عزيزا بايمانه ، صامدا في كبح شهوات أتباعه (3) ، فانشغال قلبه بالهموم لم يحل بينه وبين بذل النصيحة لأصحابه ولم يحجبه عن تقريعهم ، بل استمرّ في معالجة أمرهم واقامة أودهم على الرغم من قوله فيهم " وَدِدْتُ أنّ اللّه أَخرَجَنِي مِنْ بينِ أظْهُرِكُمْ ، وقَبضَنِي الى رحْمَتِهِ من بينِكُمْ ، وإنّي لم أَرَكُمْ وَلَمْ أَعرِفكُمْ ،

---

1) نهج البلاغة 1/ 65 .

2) السابق 1/ 80 يقول عبد اللّه بن عبّاس " دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف نعله فقال لي : ما قيمة هذا النعل فقلت لا قيمة لها ، فقال عليه السلام : واللّه لَهِيَ أحبّ اليّ من امرتكم الاّ أن أقيم حقّا أو أدفع باطلا " .

3) نفسه 1/ 118 يقول الامام علي " إنّي لعالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ وُيقِيمُ أَوَدَكُمْ ولكن لا أرى إصْلاحُكُمْ بافسادِ نَفْسِي " .

معرفةً واللّهِ جَرّتْ وَهْنَا ، ووريّتُم واللّه صَدْري غَيْظاً ، وَجَرّتْمونِي الموتَ أنفاساً ، وأفسدتُم عَلَيَّ رأيي بالعِصْيَانِ والخِذْلان " (1) ، ويغتاله أحد الخوارج ، فيباغت ذلك الحدث الجلل أصحابه المخلصين وتفيض نفوسهم حزنا فيرثيه أبو الأسود الدؤلي : (وافر)

ألا أبلِغْ معاويةُ بنَ حربٍ
فَلا قرّتْ عيونُ الشامتِينَا
أفي شهرِ الصّيامِ فجعتُمونَا
بخيرِ النّاسِ طُرّا أجمعِينَا (2)

وبمقتل الامام بدأ الرثاء الشيعي يأخذ مكانه في صدارة الأدب العربي ، ولكن برغم ما في ذلك الرثاء من تحسّر وألم الاّ أنّه ما يزال في بداياته اذ لم يبلغ فيه الحزن بعد مرحلة التفجّع مع تراكم مثل ذلك الحزن في الكثير من خطب الامام عليّ وأقواله فرثاء أبي الأسود السابق لا يكاد يخرج عن دائرة التأبين برفع الشماتة وفداحة الخطب الذي أصيب المسلمون به في شهر الصيام بفقد خير النّاس وأفضلهم في الحسب والدين كما في قوله :

لَقَدْ عَلِمَتْ قريشٌ حيثُ كانتْ:
بأنّكَ خَيْرُهَا حسباً ودينَا (3)

ويبايع أهل العراق ابنه الحسن ولكن سرعان ما يقلبون له ظهر المجن فيضطرّ للتنازل عن الأمر لمعاوية قائلا لمن بايعه ثم نكث " لَوْ لَمْ تذهلْ نَفْسِي عَنْكُمْ

---

1) ابن عبد ربّه - العقد الفريد 4 / 70 .

2 ، 3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك 5/ 150 .

إلاّ لثلاثِ خِصَالٍ لَذَهَلْتُ : مقتلكُمْ لأبي ، وسلبكُم ثِقَلِيْ ، وطعنكُمْ في بطني ، وإنّي قَدْ بايعتُ معاويةَ فاسمعُوا لهُ وأطيعُوا " (1) ولكنّ بَالَ معاوية لم يهدأ حتّى تخلّص من الحسن بدس السم له على يد جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن وفي هذا يقول النجاشي الشاعر : (سريع)

جَعْدَةَ بَكِّيهِ ولا تسأَمِي
بَعْدُ بُكاءُ المُعْوِلِ الثّاكِلِ
لم يُسْبَلِ السترُ عَلَى مِثْلِهِ
في الأرضِ مِنْ حافٍ ومن ناعل (2)

على أنّ أفجع ما قيل في رثاء الحسن بن علي قول أخيه محمد بن الحنفية : (طويل)

أَأَدْهَنُ رأسِي أَمْ تَطِيْبُ مَجَالِسِي
وخَدُّكَ معفورٌ وأنتَ سَلِيْبُ ؟
أَأَشْرَبُ ماءَ المُزْنِ مِنْ غَيْرِ مَائِهِ
وَقَدْ ضَمِنَ الأحشاءَ مِنْكَ لَهِيْبُ ؟
سَأَبْكِيْكَ مَا نَاحَتْ حَمَامَةُ أيكةٍ
وما اخْضرّ في دوحِ الحِجَازِ قَضِيْبُ
غريبٌ وأكنافُ الحِجَازِ تَحُوطُهُ
ألا كلّ مَنْ تَحْتَ التُرابِ غَرِيْبُ (3)

وتحلّ الكوارث والمصائب بآل البيت وشيعتهم بعد وفاة الحسن ، وتمكّن معاوية من السلطة ، اذ وجد فرصته في التحلّل ممّا أعطاه للحسن من أمان لهم بعد أن

(1، 2، 3) المسعودي - مروج الذهب 3/9، 5، 7 .

تحمّل من أكثر ما عاهده عليه من أمور تتعلّق الحكم ابّان حياته ، فأخذ في مطاردة الشيعة وتقتيلهم وتشريدهم والتمثيل بهم ، فاستعمل زياد بن أبيه على العراق " فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف لأنّه كان منهم أيّام عليّ عليه السلام فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر ، وأخافهم وقطّع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم " (1) .

ويخلف يزيد أباه معاوية فتكون المجابهة بينه وبين الحسين الذي استجاب لالحاح أهل العراق ، ولكن ما ان وصل اليهم حتّى خذلوه بعد أن خذلوا رسوله وابن عمّه مسلم بن عقيل (ت 60 هـ) (2) ، وكانت واقعة كربلاء - في العاشر من المحرم سنة 60 هـ - التي فجع فيها الشيعة باستشهاد الامام الحسين وثلاثة عشر رجلا من العلويين (3) هذا بالاضافة الى من استشهد بين يدى الحسين من أنصار أبيه المخلصين وعددهم اثنان وسبعون رجلا (4) وقيل هم أكثر من ذلك (5) ، ويروى

---

1) ابن أبي الحديد - شرح النهج 3/24 .

2) لما كتب أهل الكوفة الى الحسين وألحوا عليه بالقدوم ووعدوه النصرة ، أرسل اليهم ابن عمّه مسلم بن عقيل فبايعه في بداية الأمر اثنا عشر ألف رجل ، ولكن سرعان ما تخلّوا عنه وخذلوه فكانت نهايته الأسر والالقاء بجسده من أعلىٰ قصر الامارة وهو متخن بجراحه بعد أن قطع رأسه - راجع المسعودى - مروج الذهب 68 وما بعدها .

3) المسعودى - مروج الذهب 3/71 .

4) البلاذرى - أنساب الأشراف 3/205 .

5) يرى المسعودى في مروج الذهب 3/71 أنّ عدد من استشهد بين يدى الحسين غير العلويين سبعة وثمانون رجلا .

أصحاب التواريخ والأنساب بأنّ الأمويين لم يكتفوا بتلك المذبحة ، بل طافوا بالنساء الهاشميات سبايا في الأمصار الاسلامية تتقدّمهم ، رؤوس القتلى (1) بعد أن ضيقوا عليهم ومنعوهم الماء ، ممّا جعل الهاشميين يتصدّعون حزنا لذلك الرزء ، فتبادر نساء آل البيت بالتعبير عن الفاجعة بابيات أو البيتين من الشعر ، إذ ينسب الطبري الى احدى بنات عقيل بن أبي طالب وهي سبية قولها : (بسيط)

مَاذَا تقولونَ إن قالَ النبيُّ لَكُمْ
ماذا فَعَلْتُم وأنتُمْ آخرِ الأُمَمِ
بِعِتْرَتِي وبأَهْلِي بَعْدَ مُفْتَقَدِي
مِنْهُمْ أُسَارَى ومِنْهُم ضُرِّجُوا بِدَمِ (2)

وهاهي أخرى تتمنّى لو أنّ مدينة رسول اللّه (ص) ترفضهنّ بعد أن عدن من السبي بدون الحسين . تقول أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب : (وافر)

مدينةَ جدّنا لا تقبلِينَا
فبالحَسَراتِ والأحزانِ جِئْنَا
خَرَجْنَا مِنْكِ بالأهلين جَمْعًا
رَجَعْنَا لَا رجالَ وَلا بَنِينَا (3)

---

1) راجع المسعودي - مروج الذهب 3/75 ، البلاذري - أنساب الأشراف 3/206 وما بعدها .

2) تاريخ الطبري 5/467 ، وقد نسب البلاذري في أنساب الأشراف 3/221 البيتين لزينب بنت عقيل .

3) جواد شبر - أدب الطف 1/75 ، نقلا عن عبّاس القمي من كتابه " نفس المهموم " .

فبفعل ضياع الحقّ وقتل الامام علي وسم الامام الحسن والتمثيل بالحسين وآل بيته في كربلاء ، تراكمت الأحزان في نفوس آل البيت ، وانتشرت عدواها الى شيعتهم ومحبيهم فتفجّرت تفجّعا ملؤه الحبّ والاخلاص لآل البيت والحزن عليهم ، والحقد والكره لأولئك الذين استأثروا بحقهم وغيّبوا وصيّة رسول اللّه (ص) فيهم ، وقتلوهم أينما وجدوهم ، فمآسي آل البيت استحالت الى نبع متدفّق لحزن شيعتهم فعاد ذلك الاخلاص والحبّ عليهم بالتنكيل والسخط والغضب من قبل الأمويين . يصف الامام الباقر مأساة الشيعة في زمن الأمويين فيقول " قتلت الشيعة في كلّ بلدة وقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوهم على التهمة والظنّة ، من ذكر حبنا والانقطاع الينا ، ثم لم يزل البلاء الشديد يزداد من زمن ابن زياد بعد قتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم بكلّ قتلة وبكلّ ظنّة وبكلّ تهمة حتّى أنّ الرجل ليقال له : زنديق أو مجوسي كلّ ذلك أحبّ اليه من أن يشار اليه بأنّه من شيعة الحسين عليه السلام " (1) فأثّرت تلك المآسي تجارب الشاعر الشيعي فتدفّق شعره ممتزجا بعاطفته يحمل في طيّاته حزنا ملتهبا بالثورة والغضب وقد غذى ذلك الحزن وزاده تفجّعا ما روي عن آل البيت من أقوال وما أثّر عنهم من أفعال ، اذ يحكى عن الامام زين العابدين أنّه " اذا أخذ اناء ليشرب ماء بكى حتّى يملأها دمعا ، فقيل له في ذلك فقال : وكيف لا أبكي ؟ وقد منع أبي من الماء الذي كان مطلقا للسباع والوحوش" (2) كما روي عن

---

1 . المجلسي - بحار الأنوار 27 / 213 .

2 . السابق 46 / 109 .

الامام علي بن موسى الرضا قوله " من تذكر مصائبنا فبكى وأبكى علينا لم تبك عيناه يوم تبكي العيون ، ومن جلس مجلسا يحي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب " (1) .

اذن كان أئمّة الشيعة يشجعون ناصريهم وأتباعهم على تذكّر نكباتهم التي ما برحت تتلاحق طيلة العصور العبّاسية (2) ممّا ولّد شعرا ثرا يمتاز بصدق العاطفة وحرارتها اذ تناول شعراء الشيعة نكبات آل البيت بأساليب تهيج النفوس وتسكب الدموع وتثير السخط والغضب على من رأوا فيهم مغتصبين وناكثين وظالمين طيلة العصور الاسلاميّة .

---

1 . المجلسي - بحار الأنوار 1/200 .

2 . لم يكن العباسيون بأقلّ نكاية من الأمويين بالعلويين اذ يذكر الاصفهاني في مقاتل الطالبيين أنّ الذين قتلهم الأمويون من الطالبيين لم يتجاوزوا الثلاثة والثلاثين رجلا ، بينما أخذ العباسيون في تتبّع أبناء عمومتهم من الطالبيين في جميع الأقطار الاسلاميّة التي كانت تخضع لسلطتهم ، فقد قتل العباسيون من الطالبيين حتّى خلافة المقتدر (ت 295هـ) مئة وخمسة وسبعين رجلا اضافة الى ما لم يصل خبر قتلهم للمؤرخ ، اذ يقول الاصفهاني في خاتمة كتابه " ولا ندفع أن يكون فيما بعد منّا منهم قتلى لم نعرف أخبارهم " مقاتل الطالبيين ص 520 .

بروز الشعر الشيعي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين :

يحتلّ الشعر الشيعي مساحة واسعة في ديوان الشعر العربي الاسلامي ، ولا نبالغ إذا قلنا أنّ قضيّة أحقيّة أهل البيت في الخلافة هي من أقدم الموضوعات السياسيّة التي تطرق اليها الشعر العربي في صدر الاسلام ، فعناية الشيعة بأدبهم وما قيل في أحقيّة الامام علي في الخلافة جعلهم يركّزون جلّ اهتمامهم على جمع ذلك الشعر وحفظه وتدوينه برغم ضياع الكثير منه ، وبمراجعة سريعة لما جمعه الشيعة ـ في العصر الحديث ـ من شعر حول قضيّة أحقيّة علي في الخلافة بعد الرسول (ص) سنجد أنّ أقدم نصّ شعري يستند عليه الشيعة حول تلك القضيّة يعود تاريخه الى الثامن عشر من ذي الحجّة من السنة الحادية عشرة من الهجرة النبويّة (1) ، وهذا يعني أنّهم قد تتبّعوا بالجمع كلّ ما بقي من ذلك الشعر وردّه الى مصادره مع تراجم وافية أو مقتضبة لقائليه (2) ، ومن الملاحظ أنّ الشعر الشيعي

---

1) النص لحسّان بن ثابت وقد أورده الأميني في الغدير 2/ 24 وردّه الى كتاب " تذكرة خواص الأمّة " لسبط بن الجوزي ، ووردت الأبيات ص 453 من هذا البحث .

2) ممّن اهتمّ بجمع الشعر الشيعي والترجمة لأصحابه في العصر الحديث : آغا بزرك الطهراني في كتابه " الذريعة في أعلام الشيعة " 25 مجلّدا ـ طبع في طهران ، والسيد محسن الأميني في موسوعة " أعيان الشيعة " التي استوعبت أكثر من أربعين مجلّدا وطبعت في سوريا وأعيد طبعها في بيروت مؤخّرا ، وموسوعة " الغدير " التي صدر منها أحد عشر مجلّدا ، وجواد شبّر في كتابه " أدب الطف أو شعراء الحسين " مكوّن من ثمانية أجزاء ـ طبع بيروت ،

=

قد بدأ على شكل أبيات متفرقة قيلت في مدح الامام عليّ كما مرّ بنا ، ثم داخله بعض من الحزن والأسى بسبب اقصاء الامام عليّ عن حقّه ، وأخذ ذلك الحزن يتكثّف فيه ويزداد كلما ازدادت النكبات والمصائب عليهم حتّى كانت فاجعة كربلاء التي فتقت قرائح شعراء الشيعة فتناولوها تناولا مأساويّا جعل الشعوب الاسلاميّة المضطهدة تتماطف مع الشيعة لما تحمله من كراهية وبغض للأمويين ، وقد استغلّ الشيعة تلك الفاجعة وما تلاها من فواجع في العصر الأموي والعصور العبّاسية المختلفة استغلالا سياسيّا خطيرا طالما أقضّ مضاجع الخلفاء وزعزع ملكهم .

ولو عدنا الى الشعر الشيعي خلال القرن الهجري الأول فسنجد أنّه برغم كثرة شعرائه لا يتعدّى الأبيات والنتف التي لا تكاد تصل الى مستوى القصيدة المتكاملة البناء (1) ، ويعتبر سليمان بن قتّة من أوائل الشعراء الذين رثوا الحسين (طويل)

= هذا بالاضافة الى ما ورد عند المجلسي من تراجم وشعر في موسوعته " بحار الأنوار " المكوّنة من مئة وعشرة مجلّدات أعيد طبعها في بيروت مؤخّرا .

1) راجع في هذا الشأن على سبيل المثال : جواد شبّر ـ أدب الطف 51/1 وما بعدها باب " شعراء الحسين عليه السلام في القرن الأول الهجرى " فقد ترجم المؤلّف لخمسة عشر شاعرا وشاعرة لا يزيد شعر الواحد منهم في الحسين على الثمانية أبيات والسبب في فقدان القصائد المتكاملة أنّ تلك الأبيات تمثّل البدايات للرثاء الشيعي ، أو ضياع ذلك الشعر بسبب تكتّم الشعراء عليه خوفا من بطش الأمويين ، فقد أشار الطبري في تاريخه 607/5 الى ذلك وأطلق على تلك القصائد اسم " المكتمات".

مررتُ على أبياتِ آل محمّدٍ
فلم أرَهَا أمثالَها يومُ حُلّتِ
ألم ترَ أنّ الشمسَ أضحتْ مريضةً
لقتلِ حسينٍ والبِلادِ اقْشَعَرّتِ
وكانوا رجاءً ثم أضحُوا رزيّةً
لقد عَظُمَتْ تلْكَ الرّزايَا وَجلّتِ (1)

هذا وقد مهّد شعراء الشيعة في القرن الهجرى الأول لقيام نهضة شعريّة شيعة قويّة بدأت تستوى على سوقها ببداية مطلع القرن الثاني الهجرى (2) بعد ازدياد حركة المعارضة الشيعيّة وازدياد اضطهاد آل البيت وشيعتهم اذ صارت قضيّة كربلاء هي المحور الذي دار حوله جلّ ذلك الشعر حين استحوذت تلك القضيّة على الشاعر الشيعي وملكت عليه احساساته ، وظلّ مقتل الحسين وآل بيته هو الهاجس الذي مافتئ يلح على نفسه ، ويأتي في مقدّمة شعراء الشيعة في القرن الثاني الهجرى الكميت بن زيد الأسدى (ت 126 هـ) صاحب الهاشميات التي ضمّنها مدح آل البيت وذكّر فيها بما حلّ بهم من مصائب في شعر يفيض بالحبّ ويغمره الحزن ويدعو للثورة على كلّ مغتصب لحقهم ، وقد أشار الكميت في هاشمياته الى كلّ قضايا آل البيت ، فعن بيعة الغدير يقول : (وافر)

---

1) الاصفهاني - مقاتل الطالبيين ص 88 .

2) ترجم جواد شبّر في كتابه : أدب الطف 1/ 157 وما بعدها لأحد عشر شاعرا وشاعرة رثوا الامام الحسين وقد ذكر في رأس قائمة ذلك العصر سكينة بنت الحسين وفاطمة وأورد لكلتيهما أبياتا في رثاء أبيهما الحسين راجع ص 158 .

وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمٍّ
أَبَانَ لَهُ الوِلَايَةَ لَوْ أُطِيْعَا
وَلكِنَّ الرِّجَالَ تَبَايَعُوهَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهَا خَطَرًا مَبِيعَا
فَلَمْ أَبْلِغْ بِهَا لَعْنًا وَلكِنْ
أَسَاءَ بِذَاكَ أَوَّلُهُمْ صَنِيعَا (1)

وتعتبر قضيّة مطالبة الزهراء بفدك من أهم الموضوعات التي عالجها الشاعر الشيعي ، لأنّ المسألة في حدّ ذاتها لا تقتصر على قطعة أرض أو المطالبة بمال ، فمطالبة الزهراء بارثها من أبيها الرسول (ص) لها أبعاد سياسيّة خطيرة فإصرارها على المطالبة يعني أنّ آل البيت أحقّ النّاس بمقام رسول اللّه (ص) ، لذلك لم يرض الشيعة موقف أبي بكر منها معتمدين على قولها له حين منعها حقّها " يابن أبي قحافة ، أترث أباك ولا أرث أبي؟" (2) ، يقول الكميت في هذا المعنى : (بسيط)

ولا أَقُولُ وإِنْ لَمْ يُعْطِيَا فَدَكًا
بِنْتَ الرَّسولِ وَلَا مِيراثَهُ كَفَرَا
اللّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يأتِيَانِ بِهِ
يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عُذْرٍ إذا اعْتَذَرَا (3)

---

1) الكميت - الهاشميات ص 60 .

2) المطهر الحلّي - نهج الحق ص 265 وجاء في طبقات ابن سعد 315/2 " أنّ فاطمة بنت رسول اللّه أرسلت الى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول اللّه .... فأبى أبوبكر أن يدفع الى فاطمة منها شيئا ، فوجدت فاطمة عليها السلام ، على أبي بكر فهجرته فلم تكلمه حتّى توفيت ".

3) الكميت - الهاشميات ص 63.

فالكميت يعتب على الخليفتين أبي بكر وعمر حجب ميراث الرسول (ص) عن ابنته ، فهو يخطئهما في عملهما ذاك وان لم يبلغ به الأمر الى تفكيرهما . ويبلغ السخط بالكميت ذروته حين يتعرض في هاشمياته الى مقتل الحسين فيصوّر فداحة الخطب في قوله : (طويل)

وَمِنْ أكْبَرِ الأحداثِ كانتْ مصيبةٌ
عَلَيْنَا قتيلُ الادعياءِ المُلَحَّبُ
قَتِيلٌ بِجَنْبِ الطَّفّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
فَيَالَكَ لَحْمًا لَيْسَ عَنْهُ مُذَبَّبُ
ومُنْفَرُ الخدّيْنِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
ألاَ حبّذا ذَاكَ الجَبينُ المُتَرَّبُ (1)

فتعبيرات الشاعر السهلة تقرب شعره من نفس الانسان البسيط فينفعل به ، ويتألّم لمصاب الحسين وآل بيته ، فيسكب دموعا حرّى لذكرى ذلك المصاب في نفس الوقت الذي يكنّ فيه كلّ كراهيّة وبغض للقتلة والظالمين متحيّنًا فرصة الثّأر ، حيث بقي الحلم يراوده ، لذا لم يترك الشاعر الشيعي وسيلة من وسائل التعبير التفجّعيّة الاّ استنجد بها ، ليبقي المصاب متجدّدا والحزن مستمرّا في نفوس عامّة الشيعة ، يقول السيد الحميرى (ت 179) : (مجزوء الكامل)

أمْرُرْ عَلَى حَدَثِ الحُسينِ فَقُلْ لأعظُمِهِ الزّكيّه
أأعظُمًا لازلتِ مِنْ وطفاءَ سَاكِبَةٍ رَوِيّه
وإذا مَرَرْتَ بقبرِهِ فأطِلْ بِهِ وَقْفَ المطِيّه
وابكِ المُطَهّرَ للمُطهّرِ والمُطَهّرةِ النقيّة
كُبكاءِ مُعْولةٍ أتَتْ يومًا لواحدِهَا المنيّه (2)

---

1) الكميت ـ الهاشميات ص 62 .

2) الاصفهاني ـ الأغاني 7/ 234 ، 235 .

فبساطة التعبير وخفّة الوزن وقرب الألفاظ والمعاني من روح عامّة النّاس ، كلّ ذلك ساعد على انتشار مثل تلك الأبيات وحفظها والتأثّر بما حوته من حزن وعويل ، فأصبحت مأساة كربلاء ذات أثر فعّال في اذكاء روح التشيع ممّا مكن من ازدياد أنصاره . فالشاعر الشيعي لم يعد يتستّر أو يكتم شعره كما كان يفعل من قبل ، فالسيّد الحميرى على سبيل المثال كان بمثابة السيف المسلّط على أعداء آل البيت ، حتّى تحرّج الرواة من رواية شعره لما فيه من تعرّض لمنزلة الخلفاء الراشدين حتّى قال الاصمعي فيه " لولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته " (1) .

في القرن الثالث يتابع الشعر الشيعي مسيرته متخذا من قضيتي الامامة ومقاتل آل البيت طريقا لم يحد عنه الاّ أنّ هناك تطورا قد طرأ على قضيّة الخلافة ، اذ كان الشاعر الشيعي في القرنين الأول والثاني يركّز جلّ اهتمامه على أحقية آل البيت في الخلافة من ناحيتين : ناحية النصّ الشرعي المتمثّل في بيعة غدير خم ، يقول السيّد الحميرى : (وافر)

ألا انّ الوصيّةَ دونِ شكٍّ
لخيرِ النّاسِ مِنْ سامٍ وحامِ
وقالَ محمّدٌ بغديرِ خُمٍّ
عَنِ الرّحمنِ يَنْطِقُ باعْتِزامِ
يَصيحُ وقَدْ أشارَ اليهِ فيكُمْ
إشارةَ غيرِ مُصْغٍ للكلامِ
: ألا مَنْ كنتُ مولاهُ فهذا
أخي مولاهُ فاستمِعُوا كَلامي (2)

---

1) الاصفهاني ـ الأغاني 232/7 .

2) الأميني ـ الغدير 229/2 .

أمّا الناحية الثانية فتتمثّل في أحقية آل البيت في ميراث النبي (ص) الذي ضمه امامة النّاس كما في قول الكميت : (طويل)

فَإِنْ هَيَ لَمْ تَصْلُحْ لِقَومٍ سِوَاهُمُ
فإنّ ذوي القُربَى أحقّ وأقربُ (1)

على أنّ الناحية الثانية ، والمتعلقة بحقّ آل البيت بالخلافة عن طريق الارث قد دخلها نوع من التطوّر الذي شكّل تحدّيا للشاعر الشيعي ، فالبيت العبّاسي الذي آلت اليه مقاليد الخلافة يجد أنّه أحقّ بارث النبي (ص) من أبناء علي ، وقد بدأ مثل ذلك الحجاج بالبدايات الأولى للخلافة العبّاسيّة ، يقول أبو جعفر المنصور لمحمّد النفس الزكيّة " لم يجعل اللّه النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأنّ اللّه جعل العمّ أبا " (2) وقد أخذ الشعراء الموالون تلك الحجّة وصاغوها شعرا كقول مروان بن أبي حفصة : (كامل)

أنّى يكونُ وليسَ ذَاكَ بكائنٍ
لِبَنِي البناتِ وِرَاثَةُ الأَعْمَامِ (3)

وكان لابدّ للشاعر الشيعي أن يتصدّى لتلك الدعوة ويدحضها خاصّة وأنّ دعوى شرعية وراثة بني العبّاس للنبيّ (ص) لا تتّسق والعقيدة الشيعيّة ، فلم يحر الشاعر الشيعي جوابا ، فكان

---

1) الكميت - الهاشميات ص 21 .
2) الطبري - تاريخ الرسل 7/568 .
3) السابق 8/182 .

ردّه على تلك الدعوى سريعا ، يقول جعفر بن عثمان في ردّه على مروان بن أبي حفصة : (كامل)

لِمْ لا يكونُ وإنّ ذاكَ لكائنٌ
لبني البناتِ وراثةُ الأعمامِ
للبنتِ نصفٌ كاملٌ من مالِه
والعمُّ متروكٌ بغيرِ سِهامِ (1)

أمّا مأساة كربلاء فقد اتّسع القول فيها وتنوّعت طرق تناولها لتكاثر الشيعة ، وبروز دورهم كحزب له ثقله العقائدي والسياسي ممّا جعل بني العبّاس يتعقّبون آل البيت ويعملون فيهم القتل والتشريد حفاظا على سلطانهم فتتكرّر مأساة الحسين في مقتل كلّ ثائر على الدّولة من آل البيت ، يقول ابن الرومي في رثاء يحي بن عمر العلوى (ت 248) : (طويل)

بنِي المُصطَفَى كم يأكلُ النّاسُ شِلْوكم
لِبَلْواكمُ عمّا قليلٍ مُفَرّجُ
أَمَا فيهمُ راعٍ لحقِّ نبيّهِ
ولا خائفٌ مِنْ ربّهِ يتحرّجُ؟
لقد عَمَهُو ما أنزلَ اللّهُ فيكُمُ
كأنّ كتابَ اللّهِ فيهِمْ مُمَجّجُ!

---

1) الاصفهاني - الأغاني 9/45 - لأنّ " ممّا يتميّز به ميراث الاماميّة عن الميراث في فقه السنّة أنّ البنت اذا انفردت تأخذ الميراث كلّه ، كما أنّ الابن اذا انفرد يأخذ الميراث " . أبو زهرة - الميراث عند الجعفريّة ص 99 .

ألا خابَ مَنْ أنساهُ منكُمْ نصيبَهُ
متاعٌ مِنَ الدّنيا قليلٌ وزِبْرِجُ
أبعدَ المكنّى بالحسين شهيدكم
تُضاءُ مصابيحُ السماءِ فتُسْرَجُ (1)

فابن الرومي ينعى على العبّاسيين تنكيلهم بآل البيت وأكلهم حقهم وتشريدهم وتركهم قول اللّه فيهم " قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلاّ المَوَدّةَ فِي القُرْبَى " (2) ، كما ينعى على المسلمين اتجاههم الى متاع الدنيا الزائل وتضليلهم عن يحيى بن عمر بن الحسين المكنّى بأبي الحسين ، ومن مشهور رثاء الحسين في القرن الثالث قول ديك الجن : (منسرح)

يَا عَيْنُ لا لِلْغَضَا ولا الكُتُبِ
بُكا الرّزايَا سوى بكا الطّرَبِ
جُودي وجِدّي بملءِ جَفْنِكِ ثُمّ
احْتَفِلِي بالدّمُوعِ وانسكِبِي
يا عَيْنُ في كَرْبَلا مَقابِرُ قَدْ
تَرَكْنَ قَلْبِي مَقابِرَ الكُرَبِ
مَقابِرُ تَحْتَهَا مَنَابِرُ مِنْ
عِلْمٍ وحِلْمٍ ومَنْظَرٍ عَجَبِ (3)

---

1) ديوان ابن الرومي 2/ 493 ،الاصفهاني ـ مقاتل الطالبيين ص 458 .
2) الشورى 23 .
3) جواد شبّر ـ أدب الطف 1/ 284 وقد ذكر الاصفهاني ـ الأغاني 14/ 49 البيت الأول ، وقال عن ديك الجن أنّه " كان يتشيّع تشيعا حسنا ، وله مرات كثيرة في الحسين ابن علي عليهما السلام ـ منها قوله : يا عين . . (البيت) وهي مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها " كما ورد البيت

=

فقد قصر الشاعر البكاء على مصاب آل البيت الذين يثيرون أحزانه ، فلم يعد قلبه يخفق لحبّ بسبب كثرة ما أصاب آل البيت من فجائع ، وأصبح ذلك القلب من كثرة أحزانه بمثابة المقابر لأولي النُهى والحلم والعلم .

ويتصدّر قائمة شعراء الشيعة في القرن الثالث دعبل الخزاعي (ت 240) وبسبب اختصاصه بآل البيت أطلق عليه الشيعة لقب شاعر آل البيت ، اذ يمتاز شعره بالاخلاص والتفاني والصدق ومن أشهر قصائده في آل البيت تائيته التي مطلعها : (طويل)

تجاوبْنَ بالارنانِ والزّفَراتِ
نوائحُ عُجمُ اللّفظِ والنّطقَاتِ (1)

اذ بلغت هذه القصيدة مئة وخمسة عشر بيتا وتعتبر " من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام " (2) وقد بلغ اعجاب النّاس بها ، وبراعة دعبل في نظمها والقائها أن تمنّى المأمون العبّاسي سماعها من دعبل نفسه ، حتّى أنّه أعطى الشاعر أمانا على أن يُسمعه ايّاها " فأنشدها والمأمون يبكي حتّى أخضلت

= وحده أيضا في ص 24 من ديوان ديك الجن وقد ذكر الجامعان أنهما أخذا البيت عن الأغاني الاّ أننا لم نعثر على ديوانه المطبوع في بيروت وهو الديوان الذي أخذ عنه صاحب أدب الطف الأبيات .

1) ديوان دعبل الخزاعي ص 71 .

2) الاصفهاني - الأغاني 29/8 .

لحيته بدمعه " (1) ، وممّا أورده في تلك التائيّة في حق علي بن أبي طالب قوله :

ومَا نَالَ أصحابُ السقيفةِ إمرةً
بِدَعْوى تُراثٍ بل بأمر تراتِ
ولو قلّدوا المُوصي اليهِ زِمامَهَا
لزُمّت بمأمونٍ من العثراتِ
أخا خَاتمِ الرُسل المُصفّى من القَذَى
ومفترسَ الأبطالِ في الغمراتِ
فإنْ جَحَدُوا كانَ الغديرُ شهيدَهُ
وبدرٌ واحدٌ شامخُ الهَضَبَاتِ (2)

فدعبل ينفي أحقية أصحاب السقيفة في الخلافة بدعوى قرابة قريش من الرسول (ص) ويرى أنّ الميل بها عن الجادّة كان وراءه أحقاد جاهليّة لم تبارح النفوس ، ويتمنّى لو أن تقلدها صاحبها الشرعي ، فهو يقول بالنصّ في خلافة عليّ كما هو ثابت في عقيدة الشيعة الاماميّة ولايمانه المتين بذلك الحقّ فقد تغنّى به في الكثير من شعره مظهرا عظيم حزنه لمصائب آل البيت ، مستخدما في شعره ذاك أساليب الاثارة التي تحض على السخط والثّورة والانتقام كما في قوله : (طويل)

ديارُ رسولِ اللّهِ أصبحنَ بلقعاً
وآلُ زيادٍ تَسْكُن الحُجُرَاتِ
وآلُ رسولِ اللّهِ تُدْمى نحورُهُم
وآلُ زيادٍ آمنوا السُرَبَاتِ

---

1) عبد الصاحب الدجيلي - مقدمة تحقيق ديوان دعبل ص 26 وقد اعتمد المحقّق في خبره على ابن عساكر - تاريخ دمشق 5/234 .

2) ديوان دعبل ص 128 ، 129 .

وآلُ رسولِ اللّهِ تُسْبَى حَرِيمُهُمْ
وآل زيـــاد ربّةُ الحَجَـــلاتِ
وآلُ رسولِ اللّهِ نُحفُ جُسومُهُمْ
وآلُ زيادٍ عُلّظُ القَصَـــراتِ (1)

فالمقارنة بين حال آل البيت وما آلوا اليه من تقتيل وسبي وفقر ، وحال بني أميّة وما بلغوه من ترف وأمن ورخاء عيش ، يقصد من ورائها الشاعر اهاجة الحزن في النفوس وتهيئتها للثّورة والانتقام ، وآل زياد في القصيدة عبارة عن رمز ، فهو لا يقصد به بني أميّة كما يظنّ فقد دالت دولتهم ولم يبق منهم سوى الذكرى ، فهو يقصد بتلك المقارنة واقع الحال الذي يعيشه العلويّون في ظلّ بني العبّاس ، فقد يفهم ظلم بني أميّة لأنهم من غير بني هاشم ولكن لا يوجد مبرر لأعمال بني العبّاس تجاههم . يقول دعبل في هذا الصدد : (بسيط)

أرى أميّةَ معذورينَ إنْ قَتَلُوا
ولا أرى لِبَنِي العبّاسِ مِنْ عُذُرِ
أبناءُ حَرْبٍ ومروانٍ وأسرَتُهُمْ
بنو معيطٍ ولاةُ الحِقْدِ والوَغَرِ (2)

لقد كان دعبل جريئا على العبّاسيين في حقّ آل البيت ، فلم يتورع من هجائهم ، فهو يعتبر بحقّ شاعر

---

1) ديوان دعبل ص 142 . والسرباب : مفرد سرب بفتح السين وسكون الراء الابل وما يرعى من مال ، الحجلات: مفرد حجلة موضع يزيد بالثياب ، القصرات : محرّكة أصل الأعناق .

2) جواد شبّر ـ أدب الطف 1/302 . ولم أجد البيتين في الديوان ، كما لم يردّهما صاحب الكتاب الى المصدر الذي استقاهما منه .

الشيعة ولسان حال آل البيت في القرن الثالث الهجرى ، فبالرغم ممّا أصاب الشيعة من تنكيل خاصّة في عهد المتوكّل العباسي فإنّ صوت شعرائهم لم يخفت ولم يضعف حتّى أطلّ القرن الرابع الهجرى .

يبلغ الشعر الشيعي أوج ازدهاره في القرن الرابع الهجري ، ويرجع ذلك لأسباب في مقدمتها الازدهار الأدبي والثقافي ، وعامل السياسة الذي مكّن للشيعة من التعبير عن مشاعرهم ومزاولة شعائرهم دون خوف أو وجل ، فقد أخرجهم من تقيتهم تمكنهم من السلطة في العراق وفارس ممثلة في البويهيين الشيعة وفي شمال افريقيا ومصر ممثلة في الفاطميين ، وفي الشّام وشمال العراق ممثلة في الحمدانيين ، ممّا أتاح للشاعر الشيعي مجال التعبير عن معتقده بكلّ حريّة ، فهيّأ ذلك الجو لظهور جحافل من شعراء الشيعة (1) ، كما وأتاحت فرصة النواحة على الحسين في العلن الى ظهور شعر النواح (2) ، وقد تسبّب ذلك في الكثير من الفتن الدامية بين طائفتي السنّة والشيعة ، خاصّة في العراق بسبب ازدواجية السلطة القائمة

---

1) ترجم جواد شبّر في أدب الطف ج/2 لواحد وعشرين شاعرا رثوا الحسين في القرن الرابع .

2) يشير الاصفهاني في الأغاني 4 / 49 أنّ هناك قصائد مشهورة عند الخاص والعام وهي يناح بها على الحسين ، ومن الشعراء الذين اشتهروا بمثل تلك القصائد ديك الجن .

على أساس تسلّط بني بويه الشيعة من جهة ، والخلافة العباسيّة الصوريّة من جهة أخرى ، وممّا زاد في اذكاء نار الطائفيّة وازدهار الشعر الشيعي - في نفس الوقت - اتخاذ البويهيين وزراءهم من الأدباء الشيعة الذين يحسنون بالأدب ويحتفلون به ، وكان من بين أولئك الوزراء المثقفين شعراء كالصاحب بن عبّاد الذي أتاح له مركزه وخبرته بالأدب أن يحتلّ مكانة سامقة بين أدباء القرن الرابع وقد اشتهر عنه شدّة تشيعه ويتجلّى ذلك في كثرة مدائحه في آل البيت ومنه قوله في الامام علي : (كامل)

عُوملتَ يا صِنوَ النّبيّ وتِلْوه
بأوابدٍ جاءتْ بكُلّ عِجَابِ
عُوهِدْتَ ثمّ نُكِثْتَ وانفَرَدَ الألُى
نكصُوا بجُرْمِهُمُ على الأعقَابِ
حُورِبْتَ ثُمّ قُتِلْتَ ثُمّ لُعِنْتَ يا
بُعْدًا لأجمعهم وطولَ تَبَابِ
أيشكّ في لَعْنِي أميّةُ أنها
نَفَرتْ على الاصْرَارِ والأَضْبَابِ
قَدْ لَقّبُوكَ أبَا تُرابٍ بَعْدَمَا
بَاعُوا شريعَتِهِمْ بكفّ تُرابِ (1)

فالصاحب يتناول قضيّة أحقيّة عليّ بن أبي طالب بامامة النّاس بأسلوب يختلف عمّا أورد الشعراء السابقون ، اذ يفترض

---

1) عبد الحسين الأميني - أعيان الشيعة 59/11 ، وصنوه : نظيره ، الأوابد : الوحوش ، وأبو تراب : هو علي ابن أبي طالب لقّبه بذلك النبيّ (ص) .

في سامعه أو القارئ لقصيدته أنّه يعرف حديث المؤاخاة(1) وحديث الغدير ، لذا تراه يلمح الى ذلك فقط مركّزا على الجانب المأسوي في عرضه لقضيّة الخلافة وفي اقصاء عليّ عنها ، وهو ذات الأسلوب الذي ركّز عليه الشيعة في العصور المتأخّرة ، هادفين من ذلك الابقاء على جذوة الحزن متقدة في النفوس ، فتزيدها ايمانا واصرارا كلّما واجهت اضطهادا أو تحدّيا من سلطان ، متخذة من مآسي آل البيت نبراسا تهتدي بقبسه .

ولكي لا يبارح السخط نفس الشيعي فلقد عالج شعراؤهم قضيّة مقتل الحسين بانتقائهم أعمق الأساليب تفجّعا في اللفة ، فاستطاعوا بذلك نحت صور المأساة بكلّ أبعادها في نفس الشيعي ممّا جعل الدمعة لا تبارح خدّيه على مدار السنين ، فأصبحت القضيّة تتجدّد بتجدّد الأيّام ، فعلى الرغم من مرور أكثر من قرنين بين مقتل الحسين وبين وزارة الصاحب بن عبّاد فإنّ ندبه للحسين وكأنّ الخطب مازال جديدا مابرح الشاعر ينظره ويعيش الفاجعة كما في قوله : (كامل)

---

1) يعتمد الشيعة في قصّة مؤاخاة رسول اللّه (ص) لعلي على عدّة أحاديث منها أنّه (ص) " آخى بين النّاس، وترك عليّا حتّى بقي آخرهم ، لا يرى له أخا ، فقال : يا رسول اللّه (ص) آخيت بين أصحابك وتركتني ؟ فقال : انما تركتك لنفسي ، أنت أخي ، وأنا أخوك ، فإنّ ذكرك أحد ،فقل : أنا عبد اللّه وأخو رسول اللّه ، لا يدعيها بعدك الاّ كذّاب " المطهر الحلي - نهج الحق ص 218 وقوله (ص) لمّا خرج الى تبوك وخلّف عليّا " أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي " طبقات بن سعد 3/ 24 .

قتلُوا الحُسينَ فيَا لِعَوْلِي بَعْدَهُ
ولِطولِ نَوْحِي أو أصيرُ لِمَا بِيْ
وهمُ الأُلى ضَعُوهُ بلّةَ غِلّةٍ
والحَتْفُ يَخْطبُهُ مَعَ الخُطّابِ
وَسَبُوا بناتِ محمّدٍ فكأنّهُمْ
طَلَبُوا دُخُولَ الفَتْحِ بالأحزابِ (1)

ولكثرة تراكم الأحزان في نفس الشاعر الشيعي ظلّت فواجع آل البيت تلاحقه وتلحّ عليه حتّى في مدائحه ، من ذلك ما ذكره ابن هانيء الأندلسي في أحقّية امامة علي ابن أبي طالب ضمن احدى مدحياته في المعز لدين اللّه الفاطمي : (كامل)

نازعتُمُ حقّ الوصيّ ودُونَهُ
حرمٌ وحِجْزٌ مَانِعٌ وحُجُونُ
نَاضَلْتُمُوهُ على الخلافةِ بالّتِي
رُدّتْ وفيكُمْ حدُّهَا المسنونُ
حرّفتموهَا عَنْ أبِي السبطينِ عَنْ
زَمْعٍ وليسَ مِنَ الهِجَانِ هَجِينُ (2)

فابن هاني ينعى على أولئك نزاعهم عليّ بن أبي طالب حقّه ، ووضع العقبات في طريقه حتّى لا يتمكّن من استعادته ثم أنّه يفخر على أولئك الناكثين برجوع الأمور الى نصابها بنفس السلاح الذي استخدموه لحجبها عمّن هو أصلهم نسبا وأنجمهم جنانا وأغزرهم علما .

---

1) عبد الحسين الأميني ـ أعيان الشيعة 59/11 .
2) ديوان ابن هاني الأندلسي ص 355 والزمع ، بفتح فسكون : الشجاع السديد المرأي المقدم في الأمور ، ويقصد بالسبطين : الحسن والحسين .

وادخال فاجعة كربلاء وغيرها من الفواجع - التي طالما رددها الشاعر الشيعي - في ثنايا مدحه لم تكن عن اعتباط أو لمجرد الاطالة ، وانما القصد منها تذكير أولي الأمر من الشيعة بفظاعة تلك المآسي لتبقى ماثلة في ضمائرهم ومتأجّجة في نفوسهم ، وفي هذا الصدد يرجع ابن هانيء مأساة آل البيت الى جذورها الحقيقيّة ، فشهداء الطفّ كانوا ضحيّة مؤامرة قد حيكت من قبل مجيء بني أميّة لسدة الحكم وفي ذلك المعنى يقول : (طويل)

وأولَي بِلُؤْمٍ مِنْ أُميّةَ كُلّها
وإنْ جَلّ أمرٌ مِنْ ملامٍ ولُؤْمِ
أُنَاسٌ هُمُ الدّاءُ الدّفينُ الذي سَرَى
الى رَمَمٍ بالطّفّ مِنْكُم وأعظُمِ
هُمُ قَدَحُوا تِلكَ الزّنَادَ التي وَرَتْ
ولو لَمْ تُشَبّ النّارُ لَمْ تتضرّمِ (1)

فالأولى باللوم من أسرّوا في نفوسهم ما مكّنهم من زحزحة الحقّ عن مكانه - ويقصد بذلك الخلفاء الراشدين الثلاثة - فهم الذين مهّدوا لاراقة دماء آل البيت في كربلاء حين قدحوا الزناد فشبّت النّار واضطرمت محققة ما كانوا يهدفون اليه ، وقد استخدم الشاعر الضمير في قوله (منكم) لتأكيد انتماء الخليفة الفاطمي لآل البيت واثارة الحميّة في نفسه .

ومن الملاحظ على الشعر الشيعي منذ بداياته أنّه كان يجري في رافدين مختلفين نفسا متطابقين روحا ومنهجا ، ويمثّل الرّافد الأوّل شعراء الشيعة الذين نذروا شعرهم

---

1) ديوان ابن هاني الأندلسي ص 324 .

لقضايا آل البيت ومن أولئك الكميت في القرن الثاني ودعبل في القرن الثالث وابن حجاج وغيره كثير في القرن الرابع ، أمّا الرافد الثاني فيمثّله الشعراء الذين ينتمون لآل البيت بالقرابة والنسب ، ومن مميّزات هذا الرافد انطباعه بذاتية الشاعر ، لأنّ انتماءه لآل البيت يجعل احساسه بوقع الظلم على نفسه أعمق وأشدّ من ذاك الشاعر الذي يصف احساساته وألمه تجاه آل البيت اعتمادا على العقيدة ، لأنّ الانتماء بالنسب يجعل احساس الانسان بقضية أهله وعشيرته أعظم وأعمق من ذاك الذي ينظر اليها من الخارج دون الاكتواء بنارها ، فالشاعر الشيعي حين يقول (منسرح)

إذا تفكّرتُ في مَصَابِهُمُ
أتعَبَتْ زَنْدُ الهُمومِ قَادِحَهُ
بَعْضُهُمْ قُرِبَتْ مَصارِعُهُ
وَبَعْضُهُمْ بُعِدَتْ مَطارِحُهُ
أظلَمَ في كربلاءِ يَوْمُهُمُ
ثُمّ تَجَلّى وهُمْ ذَبائِحُهُ (1)

انما يريد أن يعبّر عن عظيم حزنه بوصف فواجع آل البيت فالهمّ قد أضنى فكره وحال بينه وبين راحة البال فما أصابهم من قتل وتشريد جعلهم لا يأمنون على أنفسهم حتّى في البقاع القصيّة والأماكن النائية ممّا أدّى بقبورهم الى الانتشار في كلّ بقاع الأرض وكانت البداية في كربلاء فالشاعر مخلص في حبّه صادق في حزنه ، ولكن ذلك الحزن لا يبلغ في حرارته قول من عايش الحدث وذاق مرارة

---

1) الثعالبي - يتيمة الدهر 2/178 والأبيات لأبي بكر الخالدي أحد شعراء القرن الرابع .

المأساة كقول الرباب بنت امرئ القيس (ت62) زوج الامام الحسين : (خفيف)

واحسينًا فلا نسيتُ حسينًا
أقصدتهُ أسنّةُ الأعداءِ
غادروهُ بكربلاء صريعًا
لا سقى اللّهُ جانبَيْ كربلاءِ (1)

فالبيتان رغم بساطة لفتهما وسهولة معانيهما هما صرخة صادرة من أعماق نفس ثكلى ، لم تتحمّل هول المصيبة وفداحة الخطب ، فاستحالت الى تفجّع جارف جعلها تنقم حتّى على الأرض التي صرع الحسين عليها، ونحن بهذه المقارنة لا نقصر عنصر الصدق والحرارة في الشعر الشيعي على جانب معيّن دون آخر ، ولكن درجة معايشة الحدث والالتصاق به تختلف في طبيعتها عن درجة السماع والوصف فتعبير شعراء آل البيت عن أحزانهم يختلف في طبيعته عن وصف تلك الأحزان على لسان شعرائهم ، فمع أنّ صدور كلا الرافدين من نبع واحد هو التفاني في حبّ آل البيت والاخلاص لهم ، الاّ أنّ لكلّ رافد منهما طبيعته وأسلوبه الذي يميّزه ، فليس كلّ الشعراء سواء في رؤاهم وتمثلهم لتجارب الحياة ، كما وليس كلّ شعراء الشيعة سواء في تمثلهم لنكبات آل البيت ، فالتفرّد عند الشاعر الفذ من الخصوصيات الدقيقة التي تسم أسلوبه بسمات تميّزه عن غيره من الشعراء في تعامله مع اللغة وقوّة اندماجه مع التجربة وتفاعله مع الحدث الذي يعايشه ممّا يجعل رؤاه وأخيلته تختلف تماما عن رؤى غيره من الشعراء ، وهذا ما نلمسه عند مقارنتنا لشعر الشريف الرضي بشعر من عاصره في رثاء آل البيت .

---

1) جواد شبّر ـ أدب الطف 1/61 عن كتاب تذكرة خواص الأمّة ص 147 لسبط بن الجوزى .

لقد رثى الرضي الامام الحسين وآل بيته في خمس قصائد عدد أبياتها مئتان وثمانية وثلاثون بيتا هي :

1- رائية سنة 377 الديوان 1/ 487

2- لامية سنة 378 " 2/ 187

3- دالية سنة 391 " 1/ 360

4- دالية سنة 395 " 1/ 364

5- مقصورة لم يؤرخ لها " 1/ 44

هذا عدا قصائد المدح والفخر التي تضمّنت أبياتا كثيرة في مدح آل البيت وذكر مآثرهم وحقهم في سياسة النّاس ، ومادام موضوع رثاء ال البيت واحدا ، وأفكاره وعناصره تنبع من معين واحد ، فالمعالجة وطريقة التناول هما عنصرا التمايز بين الشعراء ، وعلى الرغم من كثرة الشعراء الذين تناولوا مآسي آل البيت في القرن الرابع الهجرى ، فإنّ لكلّ شاعر طريقته في ذلك ممّا يحتّم دراسة نصوص من شعر ذلك العصر ومقارنتها بشعر الشريف في نفس المجال حتّى نتمكّن من وضعه في مكانه المناسب بين شعراء عصره في مجال الشعر الشيعي .

مكانة الشريف بين الشعراء الشيعة في عصره :

اذا ما أردنا تقييم شاعر تقييما موضوعيّا في جانب من جوانب شعره ، يجدر بنا دراسة ذلك الجانب من خلال مقارنته بنصوص في نفس الاتجاه نظمها شعراء عاصروه ، خاصّة اذا كانت تلك النصوص تستقي مادّتها من معين واحد كالشعر الشيعي ، ممّا يجعل باب الابتكار في مضامينه مغلقا ، فيحتّم على الشاعر أن يتّجه الى الابتكار في الشكل ، وذلك ما فعله الشاعر الشيعي ، واضعا

في اعتباره أنّ مجال الابتكار في الصنعة والتفنّن في التعبير وطلب المعاني لا يفقد الموضوع جانبه العاطفي خاصة وأنّ ميل النفس الانسانية نحو فكرة أو معتقد سرعان ما يصاب بالفتور التدريجي اذا لم يحرك بنوع من المتغيرات المتجددة ، فمهما كان عمق المعتقد في النفس ، فإنّ جذوته سرعان ما تخمد إذا لم تجد ما يبث فيها الحياة ، لذلك فإنّ حيوية الشعر الشيعي مبعثها التجديد في طريقة تناوله المناسبة لمفهوم الشيعي العادي في كلّ عصر ، فالتكرار في حد ذاته ممل وممجوج ، ولكن الشاعر الحق من يتمكن من ازالة رتابته من النفس ويجعلها تنسجم مع ما يريد بثّه فيها ، وهذا ما سندركه من خلال مقارنتنا لنصّ من شعر الشريف الرضي ببعض النصوص لشعراء آخرين عاصروه ، ففي ذكرى عاشورا - وهي من أهم محاور الشعر الشيعي - يقول الجوهري (ت 380) : (بسيط)

عاشورَنا ذا أَلاَ لَهْفِي على الدِّينِ
خُذوا حِدادَكُمُ يَا آلَ ياسينِ
اليومُ شُقَّ جيبُ الدينِ وانْتُهِبَتْ
بناتُ أحمَدَ نهبَ الرومِ والصِّينِ
اليومُ خُضِّبَ جَيْبُ المُصطفَى بدمٍ
أمسى عبيرَ نحورِ الحورِ والعِينِ
اليومُ خرَّ نحومُ الفَخْرِ من مُضَرٍ
على مَناخِرِ تذليلٍ وتوهينِ
اليوم أُطفِئَ نورُ اللّهِ متّقِداً
وجُزِّرَتْ لَهُمُ التقوى على الطّينِ
اليوم هُتِّكَ أسبابُ الهُدَى مَزَقاً
وبُرْقِعَتْ عُزّةَ الاسلامِ بالهُونِ (1)

---

1) المجلسي - بحار الأنوار 45 / 253 وراجع ترجمة علي بن أحمد الجرجاني المعروف بالجوهري في : يتيمة الدهر 4 / 27 وما بعدها.

فقد أتاحت عاطفة الشاعر الفوّارة الى انتشار الحزن في جميع أرجاء المقطوعة ، فهي في مجملها كأنّها أنّات ثكلى أمضّها الألم وقتل في نفسها كلّ سعادة ، بدأ الشاعر أبياته بأسلوب الاستفاثة ، كأنّه يريد أنْ يفجّر كلّ ما في نفسه من أسى ، خاصّة حين ألحق الناشر من المحرم بنون الملكيّة التي تعني أنّ الشاعر وأمثاله من الشيعة على موعد مع الأحزان في مثل هذا اليوم الذي انثلم الدين فيه ، لذلك استنجد بصيغة الأمر في طلبه من آل البيت ارتداء مسوح الحداد واقامة المآتم تجديدا لذكرى المصاب ، وتركيزه على الأسلوب العاطفي المتّسم بقتامة الحزن أدّى به الى تكرار الظرف (اليوم) في كلّ الأبيات ، وهدفه من ذلك الترجيع،التأكيد على ما حدث في مثل ذلك اليوم من مآسي وتجسيد بشاعة الجرم الذي قام به الأمويون في نفس الشيعي ، ممّا جعله يستخدم في ذلك الصور البيانية البسيطة ، كاستعارته الجيب وهو من الأمور المادّية للدين وهو من الأمور المعنويّة ، وتشبيهه بنات الرسول (ص) في سبيهن وذلهن ، بجواري الروم والصين اللاتي يبعن في أسواق النخاسة ، وتشبيهه شهداء كربلاء بالنحوم التي هوت من عليائها ، ومن أبدع صوره وأكثرها ايلاما في النفس استعارته الذبح أو الجزر وهو أمر مادي للتقوى التي كنّى بها عن آل البيت، فالتمازج في تركيب الصورة بين الجزر والتقوى والطين أعطى الصّورة بعدا نفسيّا يعصف بكلّ ما في النفس من سرور ويجعلها تجنح للبكاء ، وهذا ما كان الشّاعر يهدف اليه، لذلك فقد استخدم لغة قريبة من ادراك الشيعي العادي حتّى تؤدّي الأبيات مفعولها في استدرار الدموع ، مع ملاحظة تجنّب النواحي التاريخيّة أو تذكّر المواقف في

كربلاء وقد ركّز على النواحي العاطفيّة وكأنّ همّه الوحيد تفجير الحزن .

ومن شعراء القرن الرابع الحسين بن الحجاج (ت 391) فقد تناول هذا أيضا : (طويل)

أباحُوا دمَ المقتولِ بالطفِّ بَعْدَمَا
سقوهُ كؤوسَ الموتِ بالبيضِ والأَسلْ
وتاللّهِ ما أنساهُ بالطفِّ صائلاً
كَمَا الليثُ في سربِ النّعاجِ إذا حَمَلْ
يُنَهْنِهُ عَنْهُ القوم يمنًا ويسرةً
ويصبرُ للحربِ الشنيعِ اذا اشْتَعَلْ
فَلَهْفِي لِمَنْ كانَ النبيُّ قَلُوصَهُ
فَيَا خيرَ محمولٍ وَيَا خيرَ من حَمَلْ
يُقَبّلُ فاهُ مرةً بَعْدَ مرّةٍ
وَيَنْكِثُهُ أهلُ البدائعِ والزّلَلْ (1)

فقد يكون الاتفاق بين النصّين في محاولة استثارة النفس بتصوير فاجعة الطف تصويرا مأسويّا ، الاّ أنّ تناول ابن حجاج لتلك المأساة يختلف عن تناول سابقه ، فمن الملاحظ أنّه قد سكت تماما عن ذكر الحسين مكنيّا عنه بقتيل الطفّ المُستباح دمه ، وذلك في محاولة منه لاستثارة العواطف وتأجيج النفوس ، وقد ساعدت الصّورة على ابراز ما كان الشاعر يرمي اليه حين جعل من الموت أمرا ماديّا يصبّ في كؤوس ويُسقى للقتيل مجسّدا بذلك ما لاقاه الحسين من تعذيب وترويع من قبل جيوش الأمويين قبل قتله ، الاّ أنّ ذلك كلّه لم يضع الحسين من مقارعتهم ، وتفريق جموعهم ، وقد شبّهه في موقفه ذاك بالأسد في هجومه على قطيع من النعاج ، وتتجلّى براعة الشاعر في

---

1) جواد شبّر - أدب الطف 155/2 والأسل : الرماح والنبل .

بلورة الحزن وتأجيج النفوس عن طريق التذكّر من خلال التحسّر الملتاع في قوله : (فلهفي لمن كان ....) فقد ربط طفولة الحسين بواقعة الطفّ ، فمنظر جسد الحسين الطاهر وقد صار تحت حوافر الخيول ، دعاه الى تذكّره وقد رضي الرسول (ص) أن يكون له قلوصا ، ثمّ أنّ صورة رأسه وقد وضع امام يزيد الذي أخذ ينكث فمه الطاهر بعصاه ، أعاد الى نفسه صورة تقبيل الرسول لذلك الفم ، . فالشاعر في مراوحته بين تذكّر موقعة الطفّ وبين طفولة الحسين المرتبطة بالرسول (ص) يحاول تصوير المأساة تصويرا واقعيّا ، متخذا من حوادث التاريخ وليجة لايقاظ الحزن في النفوس وبثّ الكراهيّة تجاه القتلة . فتركيز الشاعر على الجانبين العاطفي والتاريخي جعل لأبياته بعدين يمثلهما الحزن والثأر لحبيب رسول اللّه (ص) ، أمّا أبيات الجوهرى فقد انصبّت معانيها على الندبة والعويل والبكاء والمحض .

أمّا شاعرنا فيقول في رثاء جدّه الحسين في ذكرى عاشورا سنة 387 : (خفيف)

يَا حُسَامًا فَلَّتْ مَضَارِبُهُ الهَا
مَ ، وَقَدْ فَلَّهُ الحُسَامُ الصَّقِيلُ
أَتُرَانِي أُعِيرُ وَجْهِيَ صَوْنًا
وَعَلَى وَجْهِهِ تَجُولُ الخُيُولُ
أَتُرَانِي أَلَذُّ مَاءً وَلَمَّا
يُثْرَوَ مِنْ مُهْجَةِ الإِمَامِ الغَلِيلُ
قَبَّلَتْهُ الرِّمَاحُ وَانْتَضَلَتْ فِيـ
ـهِ المَنَايَا ، وَعَانَقَتْهُ النُّصُولُ
وَالسَّبَايَا عَلَى النَّجَائِبِ تُسْتَا
قُ ، وَقَدْ نَالَتِ الجُيُوبَ الذُّيُولُ

مـن قُلـوبٍ يَدْمَى بِهَـا نَاظِـرُ الوَجْـ
ـدِ ومن أدمُعٍ مَرَاهـا الهُمُـولُ
قـد سَلَبْـنَ القنـاعَ عن كلّ وجـهٍ
فيه للصّونِ مـن قِنـاعٍ بديـلُ
وَتَنَقبّـنَ بالأنامـلِ والدمـ
ـعُ على كلّ ذي نِقَـابٍ دليـلُ
وَتَشَاكيـن والشّكـاةُ بكـاءٌ
وَتَنـاديـنَ والنّـدَاءُ عَويـلُ
لا يَفُـبُّ الحَـادي العنيفُ ولا يَفُـ
ـتُرُ عـن رَنّـةِ العديـلِ العديـلُ (1)

يتنـاول الشريـف الرضـي ذكـرى عاشـورا تنـاولا مغايـرا لمـا فعلـه سابقـه ، فهـو فـي تفجّعـه علـى الحسيـن وأهـل بيتـه لا يقـف موقـف المتذكّـر ، فجـرح الحـزن عميـق فـي نفسـه ويجسّـد ذلـك استخدامـه لأساليـب اللغـة العاطفيّـة ، فقولـه

يَـا حُسَامًـا فَلّـتْ مضاربُـهُ الهَـا
مَ وَقَـدْ فَلّـهُ الحُسَـامُ الصّقِيـلُ

هـو ضـرب مـن الفصـل بيـن أسلوبـي الانشـاء والخبـر ، فاستخدامه النـداء التفجّعـي فـي صـدر البيـت هـو بمثابـة صرخـة احتبسـت فـي صـدره طويـلا ، فانفجـرت حزنـا ملـؤه الأسـى والحسـرة ، أمّـا الخبـر فـي « وقـد فلّـه الحسـام الصقيـل » فهـو تقريـر تحسّـري عمّـا أصـاب ذلـك الحسـام مـن فلـول بتناوشـه من قبـل الأعـداء ، والمجانسـة بيـن حسـام الأولـى وحسـام الثانيـة منحـت السيـاق نوعـا مـن التجانـس الموسيقـي المتمثّـل فـي تكـرار اللفـظ الـذي أضفـى علـى المعنـى بعـدا تأمليّـا ، فنـداء الحسـام فـي صـدر البيـت يعنـي بـه الشاعـر الامـام الحسيـن ، أمّـا الحسـام

---

1) الديـوان 2/188 .

الثانية فتعني السيف الذي أصاب من الحسين مقتلا. واتكاء الرضي على الأسلوب الاستفهامي في قوله :

أَتُرانِي أُعِيْرُ وَجْهِيَ صوناً
وَعلى وَجْهِهِ تَجولُ الخُيولُ
أَتُرانِي أَلَذّ ماءً وَلمّا
يُرْوَ مِنْ مُهْجَةِ الامامِ الغَلِيْلُ

يعني في حقيقته عدم تحمّله تصور الموقف وهو يتخيّل الخيول وهي تدوس وجه الحسين ، كما أنّه لا يسيغ طعم الماء والحسين مايزال يتظمّى عطشا. وقدرته الفائقة على التشخيص ضحت شعره التكامل من حيث تصوير الفاجعة، كما في قوله مسترسلا في أساه :

قَبّلَتْهُ الرِّمَاحُ وانْتَضَلَتْ فِيـ
ـهِ المَنَايَا ، وعانَقَتْهُ النُّصُولُ
والسّبَايَا على النّجائِبِ تُسْتَا
قُ، وَقَدْ نَالَتِ الجُيوبُ الذّيُولُ
قَدْ سَلَبْنَ القِنَاعَ عَنْ كلّ وجهٍ
فيهِ للصّونِ مِنْ قِنَاعٍ بَدِيْلُ
وَتَنَقّبْنَ بِالأَنَامِلِ والدّمْـ
ـعُ عَلى كُلّ ذي نِقَابٍ دَلِيْلُ
وَتَشَاكَيْنَ وَالشّكَاةُ بُكَاءٌ
وَتَنَادَيْنَ ، والنّدَاءُ عَوِيلُ
لا يَفُبُّ الحَادِي العَنِيْفُ وَلا يَفْـ
ـتُرُ عَنْ رَنّةِ العَدِيلِ العَدِيْلُ

فجسد الحسين الطاهر معفّر بالتراب ، والرماح تقبله ، والمنايا ترميه بسهامها ، والسيوف تعانقه ، بينما السبايا على الأقتاب ممزقات الجيوب ، حاسرات الوجوه ، وللقلوب نواظر هي نواظر الوجد ، والدموع قد رسمت وديانا على

الخدود ، والصّون بديل من الأقنعة في وجوه سلبن الأقنعة ، والتنقب بالأنامل تعبيرا عن فداحة المصاب واتّساء الأنظار ، والتشاكي بالبكاء ، والتنادي بالعويل من هول المصيبة وفداحة الخطب ، وحادي الركب يزداد عنفا في حثّه النّوق على المسير كلّما علا رنين الأيامى واليتامى زيادة في التنكيل والتعذيب . فكلّ بقعة من بقع اللوحة تجسّد الألم وتدعو الى البكاء ، فقدرة الشاعر الفنّة على مزج الحقيقة بالمجاز في اطار مأساة كربلاء مكّنه من **الالمام** بكل جوانب اللوحة ، بينما لعب الزمن : دوره في عملية **التشخيص** باستخدام الرضي الفعل المضارع الاستمرارى في قوله « تجول الخيول ، ولما يرو ، والنجائب تستاق » لقد مكنته قدرته اللغويّة وعاطفته الجيّاشة وحسّه الرقيق أن يعيش المأساة بكلّ أبعادها ، لكونه فرد من أفراد الأسرة العلويّة ، فنظرته للمأساة من الدّاخل جعلته يعيشها ممّا بثّ في الكلمة روحا مشبعة بالأسى والثّورة في آن واحد ،. ففي وصفه لفواجع آل البيت استخدم نفس المادّة التاريخيّة التي استخدمها غيره من شعراء الشيعة في عصورهم المختلفة ، ولكن معالجته لتلك المادّة تميّز بنوع من التفرّد المتولّد من ممازجة الانتماء بالعقيدة ، فشعوره العظيم بذلك الانتماء هو ما حدا به الى تكراره في الكثير من فخره وفي جلّ مراثيه الحسينيّة التي منها قوله : (خفيف)

أَنَا مَوْلاَكُمُ وإِنْ كُنْتُ مِنْكُمْ
وَالدي حَيْدَرٌ، وأُمّي البَتُولُ (1)

---

1) الديوان 2/190 . ويقصد بحيدر : علي بن أبي طالب ، كما يقصد بقوله البتول فاطمة الزهراء .

ونداؤه للحسين بـ (ياجدّ) ضمن تلك المراثي هو تأكيد على تعلقه بذلك الانتماء كما في قوله : (بسيط)

يَا جَدّ لازَالَ لي هَمٌّ يُحَرّضُنِي
عَلى الدّمُوعِ وَوَجْدٌ غَيْرُ مَقْهُورِ (1)

فانتماء الشريف الرضي لآل البيت منح قصيدته الشيعيّة - دون غيره من شعراء الشيعة في عصره - تأجّجا في العاطفة ، فقد استوعب شعره ذاك معظم معاني الحزن ان لم تكن كلها من (وجد ، وشكوى ، ودموع ، وأنين ، وشجاء ، وسبي ، وبفي ...) هذا بالاضافة الى توظيفه الأساليب المشبعة بالعاطفة كالنّداء في قوله : (رمل)

يَا رسولَ اللّهِ لو عاينتهم
وَهُمُ مَا بَيْنَ قَتْلَى وَسبَا (2)

والاستفهام كقوله : (خفيف)

أَتُرَانِي ألذُّ ماءً وَلَمّا
يُسْرَوَ مِنْ مُهْجَةِ الإمامِ الغَلِيلُ (3)

والندبة والتحسّر كما في قوله : (كامل)

وَالْهَفَتَاهُ لِعُصْبَةٍ عَلَوِيّةٍ
تَبِعَتْ أُمَيّةَ بَعْدَ عِزّ قِيادِهَا (4)

---

1) الديوان 1/489 .
2) الديوان 1/44 .
3) الديوان 2/188 .
4) الديوان 1/362 .

اضافة الى الصّور والأخيلة المفرقة في الحزن (1) ، كلّ ذلك جعل شعره نموذجا حيّا وصادقا لتفجّع آل البيت في القرن الرابع الهجرى .

مصادر تفجّع الشريف الرضي في شعره الشيعي :

عادة ما يستلهم الشاعر الشيعي حزنه من مصادر ثلاثة ، وهذه المصادر في مجموعها تمثّل محورا من محاور العقيدة الشيعيّة ، وهو أحقية آل البيت في الامامة على اعتبارها " اللطف الواجب على اللّه تعالى في الامام هو نصّه وتكليفه بالامامة " (2) ، وقد سبّب تشبّث آل البيت بحقّهم المسلوب ، الكثير من المصائب والكوارث التي حلّت بهم وبكلّ من شايعهم على امتداد العصور الاسلاميّة ، وقد تفاوت التنكيل بهم من حيث الشدّة والضعف ، على أنّ بداية المشكلة كانت في اقصاء علي بن أبي طالب عن حقّه الشرعي وتلاه مقتله ثم سم ابنة الحسن وتتبّع أصحابه وشيعته بالقتل والتشريد (3) ، وبلغت مأساة آل البيت وشيعتهم ذروتها بمقتل الحسين في كربلاء وسبي حفيدات رسول اللّه (ص) ، واستمرار التتبّع بالقتل والتعذيب باستمرار بني أميّة وبني العبّاس في الحكم ، والسبب في كلّ ذلك عدم رضوخ العلويين للأمر الواقع وعدم سكوتهم عن حقّهم ، وبطبيعة الحال فقد وجد الشاعر الشيعي في تلك المآسي

---

1) ناقشنا الصّور والأخيلة في تفجّع الشريف على آل البيت في ص 544 **وما بعدها من هذا الفصل** .

2) الشيخ المفيد ـ النكت الاعتقاديّة ص 41 .

3) أخذ معاوية في تصفية شيعة علي بن أبي طالب بعد أن تخلّص من الحسن بن علي وكان مقتل حجر ابن عدى وأصحابه هي البداية . راجع الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك 5/ حوادث سنة 51 هـ .

والنكبات معينا لا ينضب للتعبير عن معتقده والتنفيس عن معاناته التي سببها له ولاؤه المتين وحبّه الصّادق لآل البيت .

فلو رجعنا الى الشعر الشيعي في جميع عصوره الاسلاميّة لوجدنا أنّه - من حيث المضامين - لا ينفكّ عن الدوران في فلك الخلافة والامامة ، وقضية كربلاء ، ومآسي آل البيت وشيعتهم ، وهي مصادر التفجّع في شعر الشريف الرضي ذي الطابع الشيعي ، وبرغم كثرة شعراء الشيعة المعاصرين له ، فإنّ لتناوله تلك القضايا من المميّزات ما يجعلها أعمق حزنا والسبب كما أشرنا هو ولاؤه لانتمائه العلوي المتمثّل في قوله : (طويل)

أَبَعْدَ النّبيّ والوصيّ تَرُوقُني
مَنَاسِبُ مَنْ يُعزَى لِمَجدٍ وَيُنْسَبُ (1)

فقرابته من آل البيت جعلته يصدر في شعره الشيعي من زاويتين : زاوية القرابة والنسب وزاوية العقيدة ، كما أنّ ذلك الشعر استوعب القضيّة الشيعيّة بكلّ أبعادها المأسويّة ، فقد تطرّق الرضي في شعره الى قضيّة الخلافة كما تطرّق لمأساة كربلاء راثيا الحسين وآل بيته بقصائد تنضح بالألم ولمّا كان التشيّع من أهمّ محاور التفجّع في شعر الشريف فقد تحتّم علينا تناوله بالتحليل من جميع جوانبه لادراك مدى تفاعل الشاعر مع الكلمة للتعبير عن عاطفته وسنتناول ذلك في نقطتين :

1- قضيّة الخلافة والامامة

2- قضيّة كربلاء

---

1) الديوان 1/ 83 .

1- أثر اغتصاب الخلافة في شعره :

شغلت قضيّة الخلافة بآل الشريف وعاشها بالكلمة في مختلف مراحل حياته وحدّثته نفسه بها ، حتّى أصبحت هاجسا يلح عليه ، فتصوّر نفسه خليفة كما في قوله : (كامل)

هَذا أميرُ المُؤمنينَ محمّدٌ
كَرُمَتْ مَغارِسُهُ وَطَابَ المَولِدُ
أوَمَا كَفَاكَ بِأنّ أمّكَ فاطِمٌ،
وأبُوكَ حَيْدَرَةٌ،وَجَدّكَ أحمدُ (1)

فهو يشير الى نفسه بامرة المؤمنين مباهيا باصالة نسبه وطيب عنصره اذ يكفيه شرفا بأنّ أمّه فاطمة الزهراء وأباه علي وجدّه الرسول وذلك يؤهله لأن يكون أحق النّاس بالخلافة ، ومن هذا المنطلق فإنّه يرى أنّ الخلافة حقّ شرعي في آل بيته أقصوا عنها ففي مناسبة الغدير يقول : (مجزوء الكامل)

غَدَرَ السّرورُ بِنَا وَكُنّا
نَ وَفَاؤهُ يَوْمَ الغَدِيرِ
يَومٌ أطَافَ بِهِ الوَصِيـ
ـيّ،وَقَدْ تَلَقّبَ بِالأمِيرِ (2)

ففرحة الاحتفال بذكرى يوم الغدير لم تحل بين الشاعر وبين الحزن ، لما أعقب تلك الذكرى السعيدة من اخفاق بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة ، فالسّرور الذي كان يغمر النفوس سرعان ما غدر ونكث بعد أنْ وفى بذلك الوعد

---

1) الديوان 1/409 .

2) الديوان 1/430 .

في يوم الغدير ، فالغدر في حقيقته لم يكن من السّرور ولكن روح الشاعر المشبعة بالأسى هي التي خلقت ذلك المجاز لتعبر به الى أولئك الذين سرعان ما انقلبوا على أعقابهم ، فبقدر تكثيف الشاعر لمعاني البيتين بقدر ما يحويان من طاقات ايحائيّة تكشف عمّا كان يعتلج في نفسه من ألم من خلال مقابلة الغدر بالوفاء واسناد الغدر الى السرور وهو تعبير عن المرارة بسبب الشعور بالاخفاق وخيبة الأمل ، ومن هنا يبرز رأي الشاعر في الشيخين أبي بكر وعمر ، فهو وان لم يعرّض بهما فقد لمح عن ذلك في مواضع من شعره كما في قوله : (طويل)

يُفَاخِرُنَا قَوْمٌ بِمَنْ لَمْ يَلِدْهُمُ
بِتَيْمٍ إِذا عُدّ السّوابِقُ أَوْ عَدِي
وَيَنْسَوْنَ مَنْ لَوْ قَدّمُوه لقدّموا
عِذارَ جَوَادٍ فِي الجِيَادِ مُقَلّدِ
فَتَى هَاشِمٍ بَعْدَ النّبِيّ وَبَاعُهَا
لِمَرْمَى عُلَىً أَوْ نَيْلِ مَجْدٍ وَسُؤْدُدِ (1)

والتلميح أبلغ من التصريح لأنّه ينبّئ عن قهر مكبوت يولّد الأسى ، خاصّة حين يجد الانسان نفسه مجبرا على خنق فكره ، فتيم رهط أبي بكر ، وعدي رهط عمر ، وافتخار بعض النّاس بالقرابة اليهما وان كانوا لا يمتون بصلة لهما ، لا يغيّر من حقيقة الأمر الذي يتعمّد أولئك المفتخرون تجاهله أو تناسيه وهو أنهم لو قدموا عليّا - وقد كنى عنه بفتى هاشم وشبهه بالجواد المطهم النجيب وهو أولى النّاس

---

1) الديوان 359/1 . والعذار : الشديد القوي ، ذو العزيمة.

بالخلافة بعد النبيّ ، لما له من باع طويل في معالجة الأمور ـ لوصل بذلك الأمر للعلا والعزّة والمجد ، والمتأمّل في فخر الشريف ينسى ما تضمنته الأبيات من أسى ، اذ نلمس في قوله « يفاخرنا قوم » تهكّما واستهجانا بقيمتهم ففي تنكيره لـ (قوم) احتقار بالغ يشي بما ولّده أولئك من غيظ واشمئزاز ، لأنّ محاولة تحقير الفرد لخصومه تتولّد عن الغضب الذي يثيره الحاق الأذى بالقول والفعل ، فتمتلئ النفس بالأسى الذي ينعكس على تصرّفات الفرد اللاارادية ، فبرغم محاولة الرضي المسك بزمام نفسه الاّ أنّ الموروث التاريخي الكامن في أعماقه كان يظهر على شكل ومضات خاطفة ، ويكشف ذلك استخدامه لحرف (لو) الذي منح السياق كل معاني الأسى والأسف والتحسّر ، فتحفز الانطباعات المختزنة في أعماق الشاعر قد تثار بواسطة مصاحب ما ، فتصبح واقعا يعانيه ، فذكرى كربلاء بتجدّدها تثير كوامن نفس الشريف ، فتكون الذكرى معبرا للقول في حق آل البيت المضاع كما في قوله : (خفيف)

كَمْ إلى كَمْ تَعلُو الطُّغَاةُ وَكَمْ يحـ
ـكُمُ فِي كُلّ فاضِلٍ مَفْضُولُ
قَدْ أَذاعَ الغَلِيلُ قَلبي، وَلَكِنْ
غَيْرَ بَدْعٍ إن اسْتَطَبَّ العَلِيلُ (1)

فالبيتان يعكسان مرارة الشاعر التي هي في حقيقتها مرارة آل البيت وشيعتهم بسبب ما عانوا من ضيم واضطهاد طيلة العصور الاسلاميّة ، فأسلوب الانشاء باستيعابه البيت الأول بأكمله ، فتكرار أداة الاستفهام (كم) منحها ثلاثة أبعاد معنويّة ، فكم الأولى تعني اتّساع معاناة آل البيت من جور

---

1) الديوان 189/2 . وأذاع الغليل : أذهب وبدد = هو كناية عن انشغال القلب وحرقته .

الطفـاة ، أمّـا كـم الثانيـة فتعنـي التسـاؤل عـن مـدى بقـاء ذلـك الوضـع ، **وتعني نفاد الصبر بعد** رضـوخ طويـل للـذلّ تحـت طائلـة القهـر ، وتطـرح كـم الثالثـة استفهامـا غيـر محـدّد بزمـن حـول قضيّـة الفاضـل والمفضـول التـي قـال بهـا الشيعـة الزيديّـة تبريـرا لقبولهـم لخلافـة الشيخيـن مـع اعتقادهـم بأفضليّـة علـيّ عليهمـا ، وتكـرار (كـم) ثـلاث مـرّات فـي صـدر البيـت الأوّل دلالـة علـى مـا كـان يحتـدم داخـل أعمـاق الشاعـر مـن صـراع سببـه الحـزن العميـق والتفجّـع غيـر المحـدود الـذي لـم يتمكّـن مـن كتمانـه ، فطفـح علـى شكـل تسـاؤلات مقهـورة فاضـت نفسـه بهـا ، وقـد أدرك الشاعـر ذلـك فعلّلـه فـي البيـت الثانـي بالاتكـاء علـى المجـاز باسنـاده فعـل الذيـوع للغليـل ، لكـون الغليـل متولّـدا عـن معاناتـه ، فالمسنـد اليـه ليـس أصـلا وانّمـا هـو حالـة مـن الحـالات التـي صـار الشاعـر اليهـا ، قـد علّـل شكـواه تلـك بـ (لكـن) فهـو بمثابـة العليـل الـذي يبحـث عـن الـدواء ، فهـو مـازال يعانـي وسيظـلّ كذلـك حتّـى يتمكّـن مـن الحصـول علـى مـا يبحـث عنـه ، فتوظيفـه للمفـردات (الطفـاة ، الفاضـل ، المفضـول ، أذاع ، الغليـل ، استطـبّ ، العليـل) هـو تعبيـر عـن ذلـك الحـزن المخنـوق فـي أعماقـه ، فأحقيـة علـيّ بـن أبـي طالـب فـي الخلافـة دون سـواه مـن صحابـة الرسـول (ص) مـن القضايـا التـي طبعـت شعـر الرضـي بالأسـى حتّـى فخـره ومدحـه ، وبسبـب امتـلاء نفسـه بتلـك القضيّـة الحسّاسـة أصبـح مصطلـح (وصـي) - وهـو مـن المصطلحـات الرئيسيّـة فـي التعريـف بالامـام علـي عنـد الشيعـة - مـن أهـم مـا يتميّـز بـه قاموسـه السياسـي ، كمـا أنّـه مـن أقـدم مـا استخدمـه مـن مصطلحـات الشيعـة فـي شعـره . يقـول وهـو ابـن عشـر : (بسيـط)

إنّي لَمِنْ مَعْشَرٍ إنْ جُمِّعُوا لِأبٍ
تَفَرَّقُوا عَنْ نَبِيٍّ أوْ وَصِيِّ نَبِي (1)

ويرد مصطلح وصي في مدحه لأبيه (بسيط)

أبِي الوصيُّ وأُمّي خَيْرُ والدةٍ
بنتُ الرّسولِ الذي ما بَعْدَهُ رُسُلِ (2)

لذلك فانّ افتخاره بالامام يزخر بمعاني الاباء والسمو، فهو لا ينقطع عن ذكر فضائله والاشادة بشجاعته في كلّ مناسبة. يقول مفتخرا بكراماته: (كامل)

رُدّتْ اليهِ الشمسُ يُحدثُ ضوءُهَا
صُبْحًا على بُعدٍ مِنَ الأصِبْاحِ (3)

فالبيت يتضمّن احدى الكرامات التي ميّز اللّه بها الامام عليّ دون سواه من صحابة رسول اللّه (ص)، فقوله (ردّت اليه الشمس) اشارة الى حديث (ردّ الشمس) لعليّ بن أبي طالب، وهو من الأحاديث التي يعوّل الشيعة عليها في أحقية عليّ بالخلافة لكونه أفضل الخلق بعد رسول اللّه (ص) ونص الحديث " عن أسماء بنتِ عميس أنّ رسولَ اللّهِ صلّى اللّه عليه وسلّم صلّى الظّهرَ بالصّهباءِ من أرضِ خيبر ثمّ أرسلَ عليّاً في حاجةٍ فجاءَ وَقَدْ صلّى رسولُ اللّهِ العَصْرَ فَوَضَعَ رأسَهُ فِي حِجْرِ عليٍّ لَمْ يُحَرِّكْهُ حتّى غَرَبَتْ الشّمسُ، فقالَ رسولُ اللّه (ص): اللّهم إنّ عبدكَ عليّاً احتَبَسَ نَفْسَهُ على نبيّهِ فَرُدّ عليهِ شُرُوقَهَا. فقالت أسماء: فطلعتْ الشّمسُ حتّى رُفِعَتْ على الجبالِ فَقَامَ عليٌّ فتوضّأَ وصلّى ثُمّ غابَتْ

---

1) الديوان 1/112.
2) الديوان 2/181.
3) الديوان 1/252.

الشّمـــــــــــس " (1) .

ويشيد الرضي في قصيدة أخرى بفضائل الامام عليّ وكراماته التي يعتقدها الشيعة مستندين في ذلك الى القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة ، يقول : (وافر)

قَسِيمُ النّارِ جدّي يَوْمَ يُلْقَى
بِهِ بَابُ النّجاةِ مِنَ العَذابِ (2)

فقد لقّب جدّه الامام علي بقسيم النّار معتمدا في ذلك على تفسير الشيعة لقوله تعالى " وَعَدَ اللّهُ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ مِنْهُمْ مَغفرةً وأجراً عظيما " (3) فيذكر المطهّر الحلّي بسند عن ابن عبّاس " قال : سَألَ قومٌ النبيّ (ص) فيمن نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ ، قَالَ : إذا كَانَ يومُ القيامةِ عُقِدَ لواءٌ من نورٍ أبيضَ ، ونَادى مُنادٍ ، لِيَقُمْ سيّدُ المؤمنين ، ومعهُ الذين آمنوا ببعثِ محمّدٍ (ص) ، فيقومُ عليّ ابنُ أبي طالبٍ ، فَيُعطى اللواء من النّورِ الأبيضِ ، وتحتَهُ جميع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وَيُعَرضُ الجميع عليه ، رجلاً ،رجلاً فيُعَطي أجرُهُ ونورُهُ ، فإذا أتى على آخرهم ، قيل لهم : قد عرفتُمْ صِفتكُمْ ومنازلكُمْ في الجنّةِ ،

---

1) عبد الحسين الأميني ـ الغدير 3/ 140 وقد أورده بأسانيد مختلفة ، كما أسهب في ذكر الحديث بأسانيده المختلفة المجلسي ـ بحار الأنوار 41/ 166 وما بعدها ، وأشار اليه بأسانيده المطهّر الحلّي في نهج الحق وكشف الصّدق ص 223 .

2) الديـــــــوان 1/ 116 .

3) الفتـــــح 29 .

انّ ربكم يقولُ لكُم : إنّ لكم عندي مغفرةً وأجراً عظيمًا - يعني الجنّة - فيقومُ عليٌّ والقومُ تحتَ لوائهِ معَهُمْ حتّى يُدْخِلَ بهِمْ الجنّةَ ، ثمّ يَرْجِعُ الى منبرهِ،ولا يزالُ يُعْرَضُ عليهِ جميعُ المؤمنينَ فيأخذُ نصيبَهُ مِنهُمْ بنصيبِهِمْ منهُ إلى الجنّةِ ، ويتركُ أقوامًا على النّارِ "(1).

ومن الفضائل التي خُصَّ بها الامام علي وتغنّى الشريف الرضي بها قوله : (وافر)

وساقِي الخلقِ والمُهَجَاتُ حَرّى
وفاتحة الصّراطِ إلى الحِسَابِ(2)

فقوله (ساقي الخلق) استنادا الى قول رسول اللّه (ص) بسند عن أبي هريرة قال " قال عليّ بن أبي طالب : يا رسول اللّه ، أيُّهما أحبُّ اليكَ ، أنا " أم فاطمة ؟ قال : فاطمةُ أحبُّ اليَّ مِنْكَ ، وأنْتَ أعزُّ عَلَيَّ مِنْهَا ، وكأنّي بكَ وأنْتَ يَا عليّ عَلَى حَوْضِي تذودُ عَنْه النّاسَ، وأنّ عليه أباريقَ عَدَدَ نُجومِ السماءِ ، وأنتَ ، والحَسَنُ ، والحسينُ ، وفاطمةُ وعقيلٌ وجعفرٌ في الجنّةِ إخوانًا على سُرُرٍ مُتَقَابِلِيْنَ لا ينظرُ أحَدُهُمْ في قفَا صَاحِبِهِ "(3).

أمّا قول الشريف « قائمة الصراط » فمبني على ما روي عن الرسول (ص) " أنّه لا يجوزُ عَلَى الصّراطِ الاّ مَنْ

---

1) المطهر الحلّي - السابق ص 208 ، كما رواه بأسانيد كثيرة المجلسي - بحار الأنوار 39/193 .

2) الديوان 1/116 .

3) المطهر الحلّي - السابق ص 206 وقد ردّه محقّق الكتاب الى اسناده في كتب الحديث المعتمدة التي منها : مجمع الزوائد 9/173 ، كنز العمّال 6/219 ، فيض القدير 4/422 ، أسد الغابة 5/522 .

كانَ مَعَهُ كتابٌ بولايةِ عليّ بنِ أبي طالبٍ (1).

ومن فضائل الامام التي يحتفل الشيعة بها ما فخر به الشريف في قوله : (وافر)

وَمَنْ سَمَحَتْ بِخَاتَمِهِ يَمِيْنٌ
تَضَمَّنُ بِكُلِّ عَالِيَةِ الكِعَابِ (2)

فقوله «من سمحت بخاتمه يمين» اشارة الى تصدّق الامام بخاتمه على المسكين وهو قائم يصلّي (3)، فنزل فيه قوله تعالى " إنّما وليّكُم اللّهُ ورسولُهُ والذِينَ آمَنُوا، والذينَ يُقيمُونَ الصّلاةَ ويُؤتُونَ الزّكَاةَ وَهُم رَاكِعُونَ" (4).

واعجابه العظيم بشخصيّة الامام يؤدّي به الى الاسترسال في ذكر ما أثّر عنه من معجزات وفضائل كما في قوله: (وافر)

أَمَا فِي بَابِ خَيْبَرَ مُعْجِزَاتٌ
تُصَدِّقُ، أوْ مُنَاجَاةُ الحِبَابِ (5)

---

1) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد 356/10 كما أورده المطهر الحلّي - السابق ص 223.

2) الديوان 116/1.

3) حول تصدق الامام علي بخاتمه أثناء الصلاة راجع ابن كثير - تفسير القرآن العظيم 71/2 وقد ذكر ذلك بأسانيد متعددة ضعّف بعضا منها. كما أورد ذلك المطهر الحلّي - السابق ص 172

4) المائدة 55.

5) الديوان 116/1.

فهو يقصد من افتخاره بمعجزة « باب خيبر » استخدام الامام علي لباب كان ملقى عند حصن خيبر كدرع وذلك بعد أن أفلت درعه من يده في المعركة ، وقيل أنّه بعد أن ألقى ذلك الباب عقب انتهاء المعركة ، حاول جماعة من المسلمين زحزحته من مكانه فلم يستطيعوا (1) ،وقد خص الشريف بافتخاره غزوة خيبر دون غيرها لما لها من دلالات قويّة في تفضيل الرسول (ص) الامام عليّ على غيره من الصحابة وذلك من قوله (ص) " لأُعطينَ الرايةَ رجلاً يحبُّ اللّهَ ورَسُولَهُ ويُحِبّهُ اللّهُ ورسولُه " (2) يعني عليّا الذي فتح اللّه على يده حصن خيبر ، بعد أن رجع كلّ من أبي بكر وعمر دون أن يفتحاه .

أمّا اشارته الى « المناجاة » في الشطر الثاني من البيت ، فيعني بها نزول آية المناجاة . فبعد أنّ أكثر الأغنياء من مناجاة النبيّ (ص) وغلبوا الفقراء على المجالس عنده ، حتّى كَرِه (ص) ذلك بسبب استطالة جلوسهم وكثرة مناجاتهم ، فأنزل اللّه تعالى " يا أيّها الذينَ آمنوا اذا ناجيتُمُ الرسولَ فقدموا بينَ يديّ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلكَ خيرٌ لكُمْ وأطهر " (3) ، فأمر (ص) بالصدقة أمام المناجاة ، فلم يجد الفقراء ما يتصدّقون به ، وبخل الأغنياء بمالهم ، وخفّ ذلك على الرسول ، فلم يعمل بالآية أحد قبل الامام عليّ ولا بعده ، فقال مفتخرا " انّ في كتاب اللّه لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي

---

1) راجع الحادثة - الطبرى - تاريخ الرسل 13/3 ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ 149/2 .

2) ابن سعد - الطبقات الكبرى 110/2 ، الطبرى - تاريخ الرسل 12/3 ، ابن الأثير - الكامل 149/2 .

3) المجادلة 12 .

وهي آية المناجاة ، فإنّها لمّا نزلت كان لي دينار فبعته بدراهم وكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت حتّى فنيت ، فنسخت بقوله " أَأَشْفَقْتُم أنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ " (1) ، وقد أشار عبد اللّه بن عمر الى فضل عليّ في ذلك بقوله " كانَ لِعَلِيٍّ ثلاثةٌ ، لَوْ كَانَ لي واحدةٌ مِنْهَا كانتْ أحبُّ اليّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمْ : تزويجهُ بفاطمة ، وإعطاءُ الراية يومَ خيبرٍ ، وآيةُ النَجْوى " (2) .

وافتخار الشريف بكلّ تلك الفضائل والكرمات لم يكن من باب المدح المادي بل هو تعبير عن عقيدة صادقة ، وهو في نفس الوقت احتجاج مشحون بالشجن تجاه أولئك الذين عمدوا الى اقصاء الامام عليّ عن حقّه مع ادراكهم لسمو منزلته ، وبأن ليس فيهم من يضاهيه ،فقوله : (وافر)

أَهَذا البَدْرُ يُكْسَفُ بِالدّياجي
وَهذِي الشّمسُ تُطْمَسُ بِالضَّبَابِ (3)

فالاستفهام في البيت بمعنى النفي ، فبعد أن ترنّم بفضائل وكرامات الامام شبّهه بالبدر والشمس ، وجعل ما يقوله المفترون عنه دياجيَ وضباب ، قاصدا من وراء ذلك الى القول بأنّ فضل الامام كالبدر في ضيائه فهو أعظم من من أن يُستر بالظلام وكالشمس في انتشار أشعتها التي هي أقوى من أن يحول الضباب دون اشراقها ، فالبيت في مجمله كناية عن اشتهار فضل الامام وعظم منزلته واستعلاء ذكره على كل ما يحاول المفترون الصاقه به . إلاّ أنّ تدفّق

---

1) المجلسي - السابق 35/376 والآية الكريمة 13 من سورة المجادلة .

2) تفسير القرطبي 17/302 .

3) الديوان 1/116 .

الحماس بفخره بالامام ومدحه فيه لا يقصره على الفضائل المعنويّة بل يتعداها الى الصفات الظاهرة الجليّة والشجاعة منها على وجه الخصوص ، ففي المعارك التي خاضها ضد مناوئيه أثناء خلافته معين زاخر بالبطولات التي يستقي الشاعر منها حماسته ، يقول مشيرا الى وقعة الجمل : (كامل)

وَأَبي الذي حَصَدَ الرِّقَابَ بِسَيْفِهِ
فِي كُلّ يومٍ تَصَادُمٍ وَنِطَاحِ
سَائِلْ بِهِ يَوْمَ الزُّبَيْرِ مُشَمِّرًا
يَخْتَالُ بَيْنَ ذَوَابِلٍ وَصِفَاحِ (1)

فحماسة المتدفّق واعتزازه بالنسب العلوي ملأ عليه كلّ حواسه ، فقد صدّر البيت الأول بقوله (وأبي) في محاولة لتأكيد الذّات بالانتماء لشجاعة الامام وموقفه من واقعة الجمل التي انحسرت عن انتصار مؤزّر للامام . وفي نشوة الفخر يذكر واقعة صفّين بقوله : (كامل)

واسْأَلْ بِهِ صِفّينَ إنّ زَئِيرَهُ
أَوْدَى بِكَبْشِ أُميّةَ النّطّاحِ (2)

فالأمر في (اسأل) يتضمّن أعمق معاني الفخر ، بما يعني أنّ لا حاجة الى الاسهاب في القول ، فقد عرف خبر انتصار الامام في تلك الموقعة كلّ من سمع بها ، اذ كادت تلك الحرب أن تنحسم في صالح الامام لولا قضيّة التحكيم التي قلبت الظروف لصالح معاوية وقد انجرّ عن ذلك انقسام جيش علي وخروج جماعة عليّة اضطرّ الى محاربتهم في واقعة النهروان التي صبّت فيها سخطه على مواقفهم المعادية بعد أن خذلوه في صفّين ، ويقول الرضي مفتخرا ببسالة الامام في تلك المعركة : (كامل)

---

1) ، 2) الديوان 252/1 .

وَاسْأَلْ شَرَاةَ النَهْرَوانِ فَإنَّهُمْ
ضُرِبُوا بِمُنْذَلِقِ اليَدَيْنِ وَقَاحِ (1)

فكل تلك الفضائل والكرامات وكل هذه المواقف الشجاعة لم تجدِ ولم يوضع لها أيّ اعتبار ، فممّا يجلب الهمّ ويثير أسى الشاعر تطاول الأمويين ومن بعدهم العباسيين على الحق الذي فرضه اللّه على النّاس لآل البيت ، وكانت البداية اقصاء الامام عن حقّه ، فلقد أسّس السابقون ما شيّد عليه اللاحقون بنيانهم (طويل)

بَنى لَهُمُ الماضُونَ أسَاسَ هَذِهِ
فَعَلّوا على أسَاسِ تِلكَ القَواعِدِ (2)

فما دبّر في سقيفة بني ساعدة هو الأساس الذي انبنى عليه الظلم فأصبح حقّ آل البيت دولة بين بني أميّة وبني العبّاس .

شعر الشريف في الأمويين وفي بني العبّاس :

لم يذكر الشريف الرضي بني أميّة في شعره ـ على وجه الحقيقة ـ الاّ في ثلاثة مواضع من شعره ، في فخره بشجاعة جدّه الامام علي في صفين : (كامل)

وَاسْأَلْ بِهِ صِفّينَ إنّ زُئيرَهُ
أوْدَى بِكَبْشِ أُميّةَ النّطّاحِ (3)

---

1) الديوان 252/1 .
2) الديوان 365/1 .
3) الديوان 252/1 .

أمّا الموضعان الآخران ففي رثائه لعمر بن عبد العزيز (1) وفي قوله في فعلة يزيد الشنعاء : (رمل)

لَوْ بِسِبْطَيْ قَيْصَرٍ أَوْ هِرْقِلٍ
فَعَلُوا فِعْلَ يَزِيدٍ مَا عَدَا (2)

أي لو أنّ ما فعله يزيد بالحسين ، قد فعله بابن هرقل أو بابن قيصر لما ترك دون أن يثأر منه ، فكيف سكت المسلمون عن الثّأر لمقتل ابن بنت رسول اللّه (ص)؟ فالبيت بما يشتمل عليه من بساطة في معانيه هو تعبير عمّا يعتلج في نفس الشاعر من حرقة وألم حاول توجيهها وجهة انتقاميّة باثارة الحميّة في نفس الشيعيّ وزرع البغض والكراهيّة في أعماقه تجاه الأمويين وقد جسّد تلك الكراهيّة والبغضاء قوله ضمن رثاء عمر بن عبد العزيز : (خفيف)

وَعَجِيبٌ أَنّي قَلَيْتُ بَنِي مَرْ
وَانَ طُرّاً وأَنّنِي مَا قَلَيْتُكْ
قَرُبَ العَدْلُ مِنْكَ لَمّا نَأى الجَو
رُ بِهِمْ، فاجْتَوَيْتُهُم وَاجْتَبَيْتُكْ (3)

فالشريف يستغرب من نفسه فهو برغم كراهيته لبني مروان فإنّه لا يحمل أيّ ضغن لعمر بن عبد العزيز برغم انتمائه للأسرة المروانيّة ، والملاحظ أنّ الشاعر قد استخدم الأسلوب الخبري المباشر ليقرر قضيّة يؤمن بها وقد عبّر عن تلك الكراهيّة بقوله « طرّا » أي دون استثناء، لتماديهم في

---

1) راجع المرثية في الديوان 1/215 .
2) الديوان 1/46 وعدا : ترك حقّه .
3) الديوان 1/216 وقليت : أبغضت وهجرت ، اجتويت: كرهت ، اجتبيت : اصطفيت .

عسف آل البيت . أمّا بقية شعره في الأمويين فليس الاّ ستارا يتستّر الشاعر به للبوح عمّا في نفسه تجاه شرعيّة خلافة العباسيين أو من يشايعهم ويسندهم من حكّام، اذ لم يعد للأمويين أيّة مكانة أو أيّ ثقل سياسي حتّى يقف منهم موقف المتوعّد ، فالقول بالانتقام من الأمويين والأخذ بالثأر منهم لم يكن سوى قناع استخدمه الشاعر الشيعي للتعبير على سخطه عن واقع الحال الذي يعيشه مجتمعه ، فمع اختلاف الأوضاع والظروف والحكومات فإنّ الشاعر الشيعي يرى في كلّ مظلوم حسينا وفي كلّ ظالم بني أميّة ، فقول الشريف في رثاء الحسين : (كامل)

إنّ الخِلافَةَ أصْبَحَتْ مَزْويّةً
عَنْ شَعْبِهَا بِبَيَاضِهَا وَسَوادِهَا
طَمَسَتْ مَنَابِرَهَا عُلُوجُ أُميّةٍ
تَنْزُو نِئَابُهُمُ عَلى أعْوادِهَا (1)

فانزواء الخلافة في عصر الشريف كان على يد بني العبّاس والمقصود بعلوج أميّة - حسب اعتقادي - بني العبّاس الذين كنّى عنهم في البيت الأول بقوله ((سوادها)) ثم عاد وعدل عن ذكرهم في البيت الثاني ، فتلك اللمحات الخاطفة تهدينا لما في خبايا نفسه ، فتعبيراته اللغويّة المناسبة في شعره دون قصد هي التي تهدينا للمسك بزمام معاناته ، ومعاناته من بني أميّة ما هي الاّ ذكريات مرتبطة بحوادث معينة ولكن معاناته من بني العبّاس واقع معاش يكتوى بناره ولا يمكنه تغييره ، فتهديده لبني أميّة ووعيده لهم ما هو الاّ تمرّد على الواقع العباسي والهروب منه في آن واحد (2) ، فقوله : (بسيط)

---

1) الديوان 1/362 .
2) جلّ ما ورد في فخره يمثّل ذلك التمرّد والهروب راجع على سبيل المثال الديوان 2/110 ، 173 ، 176 ، 181 .

بَنـي أُميّـةَ مَا الأسْيـافُ نَائِمـةٌ
عَنْ شَاهـرٍ في أَقاصي الأرضِ مَوتـورِ
والبَارِقَـاتُ تَلَـوّى فِـي مَفَامِدِهَـا
والسّابِقَـاتُ تَمَطّى فـي المَضَامِيْـرِ
إنّي لأرقُبُ يَومًا لا خَفَاءَ لَـهُ
عُرْيَانَ يَفْلَـقُ مِنْـهُ كُـلُّ مَغْـرُورِ
وَللصّـوَارِمِ مَـا شـاءَت مَضَارِبُهَـا
مِنَ الرّقَـابِ شَـرَابٌ غَيْـرُ مَنْـزُورِ
أَكُلّ يَـومٍ لآلِ المُصطَفَـى قَمَـرٌ
يَهْـوِي بِوَقْـعِ العَوَالِـي والمَبَاتِيْـرِ ؟ (1)

لـم يكـن يعنـي بـه بنـي أميّـة علـى وجـه الحقيقـة ، فالنّـداء فـي قولـه (بنـي أميّـة) انمـا هـو تهديـد بالانتقـام ، ولا يمكـن أن ينتقـم الفـرد إلاّ مـن أعـداء يعيـش بيـن ظهرانيهـم ، فمـن المحـال أن يهـدّد الانسـان عـدوا لا وجـود لـه ، فالاستعماريّـة فـي نفـي النّـوم عـن الأسيـاف تعنـي التحفّـز الدائـم للأخـذ بالثّـأر طـال الزمـن أم قصـر واستخـدام الشاعـر للأفعـال المضعّفـة فـي قولـه ((تلـوّى ، تمطّـى)) تعنـي التشـوق والتحـرّق لليـوم المنتظـر ، ثـم أنّ المجـاز فـي اسنـاد الأفعـال لغيـر فاعليهـا ، كتلـوّي السيـوف ، وتمطّـي الخيـول ، تعنـي واقـع ذلـك الشـوق المتأهّـب لـه منـذ زمـن بعيـد حيـث سينكفـئ كـلّ مغـرور فـي قبـره حيـن تشـرب السيـوف وترتـوي مـن أعنـاق أولئـك الأعـداء حتّـى الانتشـاء ، ولكـن شحنـة الغضـب سرعـان مـا تخمـد ويعـود الرضـي الـى نواحـه وتألمـه بأسلـوب استفهامـي ملـؤه التوجّـع ، فهـل يستمـرّ الوضـع فـي تقتيـل آل البيـت والـى متـى سيكـون ذلـك ، فالأبيـات باشتمالهـا علـى الآنيـة والاستعماريّـة فـي استخـدام الزمـن ، والانتقـال بيـن الخبـر والانشـاء فـي معالجـة الأسلـوب تعنـي الماضـي بالقـدر الـذي تعنـي بـه الحاضـر الـذي يكتـوي الشاعـر بنـاره ، فاقتـران الأمويين بالعباسيين في شعـره

---

1) الديـوان 1/489 .

يعني البغض لكليهما ، الاّ أنّ الانتقام لا يكون الاّ من الأمر الحاصل والواقع القائم المتمثّل في ظلم بني العبّاس ، فبني أميّة ما هم الاّ توريّة وليس أدلّ على ذلك من تجاهله لقضيّة الخلافة في معظم شعره الذي تعرض فيه لبني أميّة ، بينما استحوذت تلك القضيّة على كلّ اهتماماته أثناء تعرّضه للعباسيين في ذلك الشعر، اضافة الى ذلك فإنّه يستصغر الأمويين ويحتقرهم ولا يرى في قتلهم الحسين سوى ثارات جاهليّة نمت للاسلام بصلة كقوله : (رمل)

أدركَ الكُفْرُ بِهِمْ ثَارَاتِهِ
وَأُزِيْلَ الغَيّ مِنْهُمْ فاشْتَفَى (1)

فالشريف لا يتعرض للخلافة في هجائه للأمويين الاّ في القليل النّادر على اعتبار زوال دولتهم ، ولكن قضيّة الخلافة تعتبر من أهمّ محاور شعره في مواجهة بني العبّاس ،يقول : (طويل)

أَلاَ لَيْسَ فِعلُ الأوليَنَ وإنْ عَلا
عَلى قُبْحِ فِعْلِ الآخريَنَ بزائدِ
يُريدونَ أنْ نَرْضَى وَقَدْ مَنَعُوا الرّضَى
لسَيرِ بَني أعمامِنَا غيرِ قَاصِدِ
كَذَبْتُكَ إنْ نازَعْتَني الحقَّ ظالمًا
إذا قُلْتُ يَومًا إنّني غَيرُ وَاجِدِ (2)

فمهما بلغ تمادي بني أميّة في غيّهم فإنّهم لم يبلغوا شأو العباسيين في قبح الأفعال ، فما أبعدهم عن جادة الصّواب لارغامهم ايانا على قبول الأمر الواقع بعد أن حالوا بيننا وبين حقّنا الشرعي . ويتضمّن البيت توريّة في قوله

---

1) الديوان 45/1 .

2) الديوان 366/1 .

(شعـوا الرضـى) فقـد تعنـي كلمـة الرضـى : القبـــول ، وقـد تعنـي فـي معناهـا الثانـي شعـار بنـي هاشـــم لخلافتهـم المنتظـرة وهـو الشعـار الـذي ستـر بـه العباسيـون دعوتهـم فـي بدايـة أمرهـم قبـل أن تـؤول الخلافـــة اليهـم (1) ، وقـد يقصـد بهـا الشريـف امـام الشيعـة الثامـن علـيّ الرضـا الـذي نصّبـه المأمـون وليّـا لعهـده ثـمّ عـاد وعزلـه وسمـه بعـد أن خشـي علـى دولتـه الـزوال . فالغضـب الـذي أعلـن الشاعـر عنـه فـي بيته - تجـاه أبنـاء عمومتـه العباسييـن - ناتـج عـن شعـوره بالهضيمـة بسبـب استيلائهـم علـى حقّـه وحـق أجـداده مـن آل البيـت ، لـذا لـم يعـد بحاجـة الـى استخـدام المجـاز أو الصّـورة ، فواقعـه المؤلـم فـي رؤيـة حـقّ العلوييـن نهبـا للعباسييـن تترجمـه اللغـة بطاقاتهـا التعبيريّـة الحقيقيّـة المباشـرة فبمقـدار تجاهلـه للأمويين فإنّـه يـرى فـي العباسييـن صـور البطـش والجـور والظلـم ممّـا يجعـل تعبيراتـه تجاههـم تتسـم بالعنـف والشـدّة : يقـول متوعّـدا اياهـم : (طويـل)

أُقِلّـوا عَلَيْنَـا لا أبـاً لأبيكـم
وَلا تَرْشُقُونَـا باللُّتَيَّـا وَبالّتـي
تُرِيـدُونَ أَنْ نُوطـي وَأَنْتُـم أَعِـزّةٌ
بِـأيّ كِتَـابٍ امْ بِـأيّ سُنّـةِ
فـإنْ كُنْتُـمُ مِنّـا فَقَـدْ طَـالَ مَيْلُكم
قديمًا على عِيدانِ تِلْـكَ الأرومة
فَـلا صُلْـحَ حتّـى تَسمَعـوا مِنْ أزِيزِها
صَواعِـقَ إمّا صَكّتِ الأذنَ صُكّـتِ
ولا صُلْـحَ حتّى يَنظُرُوا مِنْ زُهائِهـا
شَواهِـقَ لا يَبلُغْنَ صَـوْتَ المُصَـوّتِ (2)

---

1) لقـد تحدثنـا عـن ذلـك فـي ص 4 من هـذا البحـث .

2) الديـــــوان 209/1 .

فموقف الشاعر الساخط ليس الاّ تفجّعا عميقا يحاول اخفاءه وراء الغضب المفتعل ، فالمراوحة بين أساليب الخبر والانشاء لم تكن الاّ محاولة هروب من وطأة الحزن المطبق على أنفاسه ، فالأمر في « اقلوا علينا » ، والنهي في « ولا ترشقونا » ، تهديد ، والاستفهام في قوله « تريدون أن نرضى ، بأى كتاب أم بآيّة سنّة » تعجّب ساخط وانكار ، بالاضافة الى أساليب الخبر المتضمنة التهديد والوعيد في البيتين الأخيرين ، كلّ تلك الأساليب هي محاولة لاظهار تماسكه وقوته ، ولكن طريقة استخدامه الفعل في سياق الأبيات تفضح ذلك التجلّد ، فبرغم ثورته فإنّه مايزال يشعر في قرارة نفسه بأنّه تحت وطأته المفعوليّة التي يكمن فيها تفجّعه ، فهو وإنْ أراد أنْ يكون فاعلا يغضب وينتقم ، الاّ أنّه يدرك أنّ الارادة في يد أبناء عمومته فالأمر في « اقلّوا » يعني عدم احتماله ما يمارس عليه من ضغط وارهاب ، وقوله « لا ترشقونا » يعني مرارة الألم التي يعانيها الشاعر وقومه من العباسيين ، وقوله « تريدون أن نرضى » يدرك منه أنّ القوة والسيطرة والغلب في يد أولئك الذين يتصنّع التمرد عليهم بستر أساه واخفاقه ، لذلك فإنّ مقدرته الفذّة على مزج الحزن بالحماسة ليس في حقيقتها الاّ محاولة لاخفاء الاخفاق والمعاناة ،ففي قوله : (متقارب)

وَقُلْ لِبَنِي عَمِّنَا الواجِدِين :
بَني عَمِّنا، بَعْضَ هذا الغَضَبْ
أَمَا آنَ للرّاقِدِ المُسْتَمِرّ
في ظُلَمِ الغَيّ أَنْ يَسْتَهِبْ
سَرَحْتُمْ سَفَاهَتَكُمْ في العُقُوق
وَلَمْ تَحْفِلُوا الحِلْمَ لمّا غَرَبْ (1)

---

1) الديوان 1/128 .

يضع بني العبّاس في مرتبة الحاكمين كما يضع نفسه وقومه في مرتبة المحكومين ، فاستخدامه أسلوب الأمر في قوله « بني عمنا بعض هذا الغضب » والاستفهام الانكاري « أما آن للراقد » هو في ظاهره محاولة للتعبير عن سخطه وتمرده وغضبه ، ولكن استخدامه للفعل يبيّن غير ذلك ، ففي قوله للعباسيين « سرحتم ، لم تحفلوا » هو مايزال تحت طائلة المفعوليّة خاصّة وأنّ الفعلين مسندان للعباسيين كما أنّ توظيفه لاسم الفاعل « الواجدين ، الراقد » كصفة لبني العبّاس يجنب وضع نفسه كمفعول به مسلوب الحق ومظلوم ينبئ عن احساسه بالقهر الذي يحاول كتمانه ، فالشريف وإنْ أراد أنْ يكون فاعلا يثور حتّى ولو بالقول ، الاّ أنّ الاحساس بالظلم المتجذّر في أعماقه يجعله مفعولا مسلوب الارادة ، فالفعل في شعره الساخط على العباسيين ، وان اكتسى مظهر السخط والثّورة الاّ أنّه في حقيقته واقع من أبناء عمومته عليه وعلى قومه ، لأنّ شعوره بجبروت العباسيين وعدم قدرته على الانفلات من ذلك القهر يجعله كالغريق الذي يصارع الأمواج للنجاة من الموت ، وفي هذه الحالة تتجلّى أهمية اللفظ بالنسبة للشاعر الحق كالحركة بالنسبة للغريق خاصّة وأنّ الألفاظ ليست " الاّ رموزا لملابسات شتّى فيما وراء الوعي " (1) ولا يمكننا الكشف عن تلك الملابسات الاّ من خلال ربط اللفظ في سياق القصيدة بحالة الشاعر النفسيّة ، فوضع الشريف نفسه في موقع المفعوليّة ، ووضع العباسيين في موقع الفاعل هو تعبير عن تفجّع عميق يحاول ستره ، ولكن هذا التستّر ودلك التماسك سرعان ما ينهاران عند تذكّره مآسي آل البيت عامّة وفاجعة كربلاء على وجه الخصوص .

---

1) سيد قطب ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص 222 .

2- فاجعة كربلاء في شعره :

تعتبر فاجعة كربلاء من أهم موضوعات الأدب الشيعي ، فهي ماتزال حتّى يومنا هذا تستقطب اهتمام الكتّاب والشعراء ، يكتبون فيها وينظمون ويحللون أبعادها على المجتمع الاسلامي ، وتأثيراتها السياسية والعقائدية ، بالاضافة الى تصوير جوانبها المأسوية التي راح ضحيتها الحسين وآل بيته .

وقد شارك الشريف الرضي في تصوير تلك المأساة بخمس قصائد (1) ركّز فيها على فظاعة المعاملة من الأمويين : منع الماء الحسين وأهل بيته ، وقتلهم عطاشا ، مع أخذ حرمه وأخواته من نساء آل البيت سبايا يجاب بهن حواضر الاسلام ، وهي الجوانب المأسوية التي عالجها شعراء الشيعة في رثائهم للحسين طيلة العصور الاسلامية حتّى العصر الحديث (2) ، فسيكون تناولنا لدراسة

---

1) أشرنا الى الخمس قصائد بالتفصيل في ص 487 من هذا البحث

2) من الكتب التي جمعت مراثي الحسين منذ القرن الأول الهجرى حتّى القرن الرابع عشر كتاب " أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام " لجواد شبّر وقد صدر منه حتّى الآن ثمانية أجزاء - عن مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ، وأمّا أحدث دراسة شيعيّة عن الحسين فهي " مع الحسين في نهضته " من تأليف أسد حيدر صدر عن دار التعارف للمطبوعات بيروت 1980 ولمكانة كربلاء لدى الشيعة فقد أصدروا فيها الكثير من الكتب عن تاريخ نشأتها وتطورها السكاني في القديم والحديث ومن أهم هذه الكتب " تراث كربلاء " لسلمان هادي طعمه وقد صدر الكتاب عن مؤسسة الأعلمي بيروت ط 2 ، 1983 .

المأساة في شعر الشريف ورصد أساليب التفجّع فيه من خلال النقطتين التاليتين :

أ ـ تصوير العطش الحسيني في شعر الشريف الرضي
ب ـ مأساة قتل الحسين والسبايا من آل بيته

أ) العطش الحسيني في شعره :

يحتل الماء مكانة تكاد تكون مقدسة في الأدب الشيعي ومرجع ذلك في جذوره التاريخيّة لعطش الامام الحسين ، ومن أعراف الشيعة وتقاليدهم تقديم الطفل على الكبير في شرب الماء حتّى ولو كان الكبير هو المبادر بطلبه ، ويجب ألاّ يحال بين المسلم والماء حتّى ولو كان في ملك خاص وفي حالة امتناع صاحب الضيعة والبستان من تسخير الماء لشؤون المحتاجين اليه فإنّه من الممكن اتلاف ذلك الملك أو احراقه فالماء في وقت الحاجة يجب أن يكون مشاعا ، ومن أعظم درجات الثواب أن يحمل الشيعي قربة على كتفه ليسقي النّاس الماء في اليوم العاشر من المحرم ، اذ توضع السبّالات على قارعة الطرقات ليشرب منها الجميع طيلة العشرة أيّام الأولى من شهر محرم الحرام وهي سنّة يرثها الخلف عن السلف ، كما يفتخرون في هذا الصدد باكرام اللّه سبحانه وتعالى للامام علي بجعله ساقي الخلق يوم القيامة (1) ويضربون المثل بنبله وشهامته بسماحه لجيش معاوية بالماء لمّا تمكّن جيشه من مشرعة الماء التي منعه عنها جيش معاوية اذ لم يقابل الفعل بالفعل (2) ،

---

1) حول هذه النقطة راجع ص 504 من هذا البحث في الهامش فقد فصلنا فيها القول .

2) راجع ـ ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة 1/105 فقد أورد حادثة الماء تلك بالتفصيل .

لذلك فإنّ قتل الحسين وأصحابه عطاشى يمثّل ذروة المأساة في الأدب الشيعي ، فممّا يروى في " مقتل الحسين" المنسوب لأبي مخنف (ت 157) (1) ، أنّ العبّاس بن علي ابن أبي طالب لما كشف جيش الأمويين عن الفرات ووصل الى الماء وأراد أن يشرب تذكّر عطش الحسين فامتنع عن ذلك وملأ قربته وعاد أدراجه الى الحسين وهو يرتجز :

يا نفسُ من بعدِ الحسينِ هوني
فبعدَهُ لا كنتِ أو تكوني
هذا حسينٌ شاربُ المنونِ
وتشربينَ باردَ المعينِ
هيهاتُ ما هذا فعالُ ديني
ولا فعالُ صادق اليقينِ (2)

وقد حاول واضع ذلك المقتل أن يعطي لعطش الحسين بعدا مأسويّا عميقا بقصد اثارة السخط على الأمويين واستدرار

---

1) أبو مخنف ، لوط بن يحي بن سعيد ، صاحب الأخبار بالكوفة يروى عن الامام الصّادق يعتبره الشيعة من أعظم مؤرخيهم ، اعتمد عليه الطبرى في تاريخه ، وله كتب كثيرة في التاريخ منها كتاب " مقتل الحسين " وهو من الكتب المفقودة ، أمّا " مقتل الحسين " الذي يعول عليه عامّة الشيعة في مآتمهم فهو موضوع عليه ، راجع القمي ـ الكنى والألقاب ـ 148/1 .

2) مقتل الحسين المنسوب لأبي مخنف ص 58 .

الدموع الغزيرة (1) ، واذا ما تتبعناها في الشعر الشيعي فسنجد أنها من أهم المحاور التفجّعيّة فيه على امتداد العصور الاسلاميّة فالكميت الأسدى يقول : (طويل)

يحلّئنَ عن ماءِ الفراتِ وظلّه
حسينًا ولم يُشهرّ عليهنّ مُنصُلُ (2)

ويبكي دعبل الخزاعي عطش الحسين : (طويل)

أفاطمُ لو خلتِ الحسينَ مجدّلاً
وقدْ ماتَ عُطشانًا بشطِّ فراتِ
اذن للطمتِ الخدَ فاطمُ عنده
وأجريتِ دمعَ العينِ في الوجناتِ (3)

---

1) على سبيل المثال راجع " مقتل الحسين " الآنف الذكر ص 83 وفيه يصور مؤلفه كيف قتل الأمويون عبد اللّه ابن الحسين وهو طفل في الشهر الرابع بعد أن حاول الحسين استدرار عطفهم في سقيه ، كما وراجع ص 93 منه اذ ينقل المؤلّف قولا عن الحسين لشمر بن ذي الجوشن " واذ كان لا بدّ من قتلي فاسقني شربة ماء ، فقال هيهات هيهات واللّه ما تذوق الماء أو تذوق الموت غصّة بعد غصّة وجرعة بعد جرعة . ثم قال : يا ابن أبي تراب ألست تزعم أنّ أباك على الحوض يسقي من أحبّ ، اصبر قليلا حتّى يسقيك أبوك " .

2) الكميت - الهاشميات ص 50 . ويحلئن : يمنعن .

3) دعبل الخزاعي - ديوان دعبل ص 135 .

ويذكر تميم بن المعز عطش الحسين بقوله : (طويل)

تضميهمُ بالقتلِ أمّةُ جدّهم
سفاهاً وعنَ ماءِ الفراتِ تذادُ
فماتوا عُطاشى صابرينَ على الوغَى
ولم يجبنُوا بلْ جالدوا فأجادُوا (1)

ويقترن شرب الماء عند الشيعة بتذكّر عطش الحسين وبلعن يزيد بن معاوية ، ومن الطريف في ذلك أنّ الصاحب ابن عبّاد " اذا شرب ماء بثلج أنشد على أثره (الرجز)

قعقعةُ الثلجِ بماءٍ عذبِ
تستخرجُ الحمدَ من أقصَى القلبِ

ثمّ يقول : اللهمّ جدد اللعن على يزيد " (2) فقلّما تخلو مرثية في الحسين من عطشه ، ممّا يجعل ذكر الماء عند شعراء الشيعة حتّى وان لم يذكروا عطش الحسين له أبعاده النفسيّة وجذوره التاريخيّة في ذلك الشعر وهذا ما سنلحظه بتتبعنا لقضيّة الماء وعلاقتها بعطش الحسين عند الشريف الرضي .

الماء والعطش في شعر الشريف الرضي :

تبلغ عدد الأبيات التي ذكر فيها الشريف الماء والعطش ما يقارب من أربعمئة وسبعة وأربعين بيتا أي بنسبة 2،76 ٪ من مجموع شعره مع ملاحظة أنّ الاحصائيّة السابقة

---

1) تميم بن المعز - ديوان تميم بن المعز ص 119 .

2) الثعالبي - يتيمة الدهر 3/ 196 .

لا يدخل ضمنها أبيات الدعاء بالسقيا التي وردت في مراثيه ولا الأبيات التي ذكر فيها عطش الحسين ، اذ أنها تقتصر على أبيات العطش الواردة في سياق قصائد الفخر والمديح والنسيب والعتاب والصداقة والصديق وفي أثناء الوصف ، وقد حاولنا تتبّع تلك الأبيات بالدراسة فوجدنا أنّ الشكوى من الظمأ والالحاح في طلب الارتواء هو ما كان يلحّ على الشاعر في معظم تلك الأبيات مع بروز الشاعر في جلها ، وتتكئ معاني العطش في معظم تلك الأبيات على دعائم متنوعة .

من أهم تلك الدعائم شكوى الشاعر وتبرمه بسبب وقوعه تحت طائلة القهر والتسلّط مع استحالة الفرار فيركن الى ذاته ، ويلعب التحدث الى النفس دورا هامّا في مثل هذا النوع من الشعر ممّا يضفي على مضامينه أبعادا تفجّعية عميقة يمكن رصدها من خلال الصّور والمعاني والاستخدامات اللغويّة ، فتوظيف الشاعر للعطش أو ما في معناه يخرجه أساسا عن المعنى الاصطلاحي ليقترن بأسى الشاعر وتفجّعه ، فقد يرد في سياق معنى يجسّد معاناته وتبرّمه من الزمان كقوله : (كامل)

ما للزمانِ يلذُّ طعمَ مصائبي
فكأنّهُ يظما ليشربَ أدمُعِي (1)

فامتلاء نفسه بالشجى جعله يحيل الظمأ الى شوق يلح على الزمان ليعبث بحياة الشاعر وتشتيت أمنه ببث الألم واللوعة التي يجد فيها لذّته ، وتفجّع الشاعر يكمن في منح الزمان الحيويّة بجعله مسندا اليه بينما جعل نفسه

---

1) الديوان 1/631 .

مفعولا لذلك المسند اليه ألا وهو الزمان وقد يرد تعبير اطفاء الظمأ كحلّ لمشكلة لها علاقة بحياة الشاعر كما في قوله : (طويل)

وأكبرُ همّي أنْ ألاقيَ فاضلاً
أصادفُ منهُ للغليلِ بلَالا (1)

فبلّ الغليل بالنسبة للشاعر هو حلّ لمشكلته المستعصية بين ظهراني أناس تندر فيهم الشهامة ويفتقرون الى الفضيلة ، فتفجّع الشاعر سببه اخفاقه في رفع مجتمعه الى مستواه من حيث الخلق ، ويلازم الحزن المدمّر النفس اذا ألحّ عليها هاجس لا ينفكّ من ملاحقتها ، فتنوء بالحمل فتفيض بالأسى الممزوج بالشّوق الى الحل المتمثّل في الماء ويظفر ذلك من نفس الشريف على شكل استفهام تفجّعي (متقارب)

وقالوا انتظرْهَا عَلَى بُطئِهَا
وَمَنْ ضامنُ العمرَ للمنتظرْ
وهل نافعي يومَ أقضِي صدىً
اذا صابَ واديَ قومِي المطرْ(2)

فالضمير في انتظرها يعود على الخلافة التي منّى الشاعر بها نفسه طويلا مع تأكّده من عدم نيلها ، فالشاعر ينعى على نفسه طول الانتظار الذي لا طائل من ورائه الاّ جلب الهموم وكثرة المعاناة ، وقد استخدم الأسلوب الاستفهامي المتضمّن عدم جدوى الانتظار ، اذ ليست ثمّة فائدة حين

---

1) الديوان 2/ 167 .

2) الديوان 1/ 552 .

يقضي عطشانا وقد اخضرّ وادي قومه ، فالاستفهام الأول في قوله ((من ضامن)) ما هو الاّ احساس بقرب النهاية دون أن يحقّق آماله وطموحاته ، أمّا أسلوب الاستفهام في بيته الثاني فتوكيد لخيبة الأمل التي تلاحقه في حياته الرتيبة وكلها انتظار وذلك ما جعل الظمأ تعبيرا عن الفشل في بلوغ الغايات ، وعلى هذا الأساس فالظمأ مصدر من مصادر التفجّع التي تملأ عليه كيانه ممّا يحيله في كثير من الأحيان الى مواقف تأمليّة تنبثق من خلالها تجاربه المكتسبة : (طويل)

وتختلفُ الآمالُ في ثمراتِها
اذا شَرِقَتْ بالرِّيِّ والماءُ واحدُ (1)

فالآمال الانسانيّة في نظر الشاعر كالأشجار في اختلافها من حيث سرعة العطاء ومذاق الثمار، رغم ارتوائها من ماء واحد ، ومن الملاحظ أنّ الشاعر أسند الاختلاف للآمال مجازا للعبور الى الحقيقة بأسلوب تأملي والحقيقة التي لا مراء فيها استحالة تشابه آمال وطموحات النّاس رغم نشأتهم في بيئة واحدة ، وكأنّه يريد أن يقول أنّ عيشه في مجتمعه لا يعني أنّه متفق مع أبناء مجتمعه في الآمال والطموحات مع ملاحظة تأثره في المعنى بالقرآن الكريم في قوله تعالى " ألمْ ترَ أنّ اللّهَ أنزلَ من السماءِ ماءً فأخرجنَا بهِ ثمراتٍ مختلفًا ألوانُهَا ..." (2). والارتواء والعطش صورتان يسبغ عليهما الشاعر من ذاته بعد أن يستوحي أجزاء تينك الصورتين من مشاهد طبيعيّة تعكس

---

1) الديوان 309/1 .
2) فاطر 27 .

ما يداخله من صراعات كما في وصفه لمشهد الصحراء في الليل : (طويل)

نظرتُ وألحاظُ النجوم كليلةٌ
وهيهاتَ دونَ البرق شأوٌ مُقرّبُ
فما الليلُ إلاّ فحمةٌ مستشفّةٌ
وما البرقُ إلاّ جمرةٌ تتلهبُ
أمن بعدِ أنّ أجللتَها وَرقَ الدُّجى
سِراعاً وأغصانُ الأزمّةِ تُجذَبُ
وَعُدنَا بِهَا ممغُوطةً بنسوعِها
كما صَافَحَ الارضَ السّراءُ المُعَبّبُ
كأنّ تراجيع الحُداةِ وراءَهَا
صَفِيرُ تعاطاهُ اليَراعُ المُثقّبُ
وردنَ بها ماءَ الظّلامِ سواغباً
وللّيلِ جَوٌّ بالدّراريِّ مُعْشِبُ
تُنفِّرُ ذَودَ الطّيرِ عن وَكراتِهَا
فكلٌّ ،إذا لاقيتَهُ مُتغرّبُ
وَتلتَذُّ رشفَ الماءِ رنقاً كأنّهُ
معَ العزّ ثغرٌ باردُ الظّلمِ أشنبُ
أذعْنَا لهُ سِرّ الكرَى من عُيُونِنَا
وسرُّ العُلى بينَ الجَوانِحِ نَحْجبُ(1)

فالمراوحة بين الخيال الكامن في الحاظ النجوم المتعبة وتشبيه الليل بالفحمة المنتشرة ، والبرق جمر طتهب يشع تارة ويخفت تارة أخرى والظلام دوحة كبيرة متفرعة الأغصان ،

---

1) الديوان 109/1 ، 110 وكليلة : متعبة ويقصد بها خافت نورها ، مستشفة : منتشرة ، السراء : مفرده سراءة : شجر يتخذ منه القسي ، اليراع المثقب : القصب المثقّب ، ويقصد به النّاي .

وصوت الحذاة الشجي بألحان النّاي الحزين ، وبين العاطفة الجياشة الكامنة في التعبيرات والأساليب ((نظرت ، متفرّب ، نلتذ رشف الماء رنقاً ، سرّ العلى بين الجوانح محجب)) كلّ ذلك وحّد بين الفكرة والصّورة والاحساس ممّا جعل المشهد بأكمله تشخيص لموقف نفسي موحّد أو بالأحرى لحظة شعوريّة ذات مغزى بدأ الوجود فيها وكأنّه مصبوغ بظلمة الحزن التي تملأ نفسه الشاعرة وان تخلّل تلك الظلمة اشعاعات تارة تكون ضئيلة خافتة فيها نوع من الاستمراريّة متمثلة في النجوم المتربعة في كبد سماء ذات غيوم متناثرة ، وأخرى قويّة خاطفة وقصيرة ، هي الآمال التي ينتظر أن تتحقّق ، فبغضّ النظر عمّا ورد في المشهد من اندماج تام بين العاطفة والطبيعة فقد أورد الشاعر الماء في سياق الصّورة مرتين الأولى منهما باضافته الماء للظلام في قوله ((وردنا بها ماء الظلام سواغبا)) وهي استعارة تمثيليّة القصد منها تجسيد ما في الصحراء المظلمة من تيه وأهوال متسعة لا نهاية لها ، فاضافة الماء الى الظلام لا يعني به سوى المجهول مع تبيان الحال أثناء الورود بقوله ((سواغبا)) اكمالا لجوانب الصّورة النفسيّة ، فالظلام يعني المجهول أمّا (سواغبا) فتعني الجوع والعطش الذين يلحان على الشاعر لخوض المجهول والوصول الى الغاية ، فالبحث عن الرفعة جعله يركب كلّ صعب مع النّأي بكرامته عن كلّ ما يدنسها فقوله ((نلتذّ رشف الماء رنقا)) هو قبول مرارة الحياة وشظف العيش في سبيل الكرامة والنأي بالنفس عن كلّ ما يحطّ من قدرها فالماء والعطش في شعر الشريف رمزان لما يكتنف حياته من تقلبات وما يعتلج في نفسه من صراعات ، ومقدرته الفذّة على توظيفهما التوظيف الفنّي

العميق سببه اصالة أثرهما في نفسه ، فهما محصلة لتاريخ طويل عشش في أعماق الشاعر كان لعطش الحسين الأثر المباشر في تجذيره ، فارتبط العطش الحقيقي بكلّ اخفاق يصادف الشاعر في حياته ، كاخفاقه في المسائل العاطفيّة فساعة الوداع الممضية أدّت به الى مدارة عينيه اللتين قرّحهما انهمار الدّموع ، خوفا من افتضاح حزنه المتأجّج (متقارب)

كأنّا بنجدٍ غَداةَ الوَداعِ
نُصادي عُيُونًا مِنَ الدَّمعِ رُمدًا
وأيسَرُ مَا نَالَ مِنّا الغَلِيلُ
أنَّ لا نُحِسَّ مِنَ الماءِ بَرْدًا (1)

فالغليل المضطرم في قلب الشاعر ليس سببه الاّ المرأة (2) وهناك عطش ثان ألهب نفس الشريف يمكن تسميته بالظمأ الاجتماعي كما في قوله : (خفيف)

نحنُ في عُصبةٍ ترى الجورَ عدلاً
وتُسمّي الضلالَ دارَ رشادِ
في رجالٍ تهزأ بوفْدِ المعَالي
وديارٍ تَسطُو عَلى السُوّاد (3)

فالاستخدام المجازى في قوله ((وديار تسطو على الوراد)) استوحاه الشاعر من أعماق الصحراء حيث يسطو قطّاع الطرق واللصوص على المسافرين في الصحراء أثناء ورودهم المياه وقد استعار الصّورة لحكّام بغداد في عصره حين شبههم بأولئك اللصوص .

---

1) الديوان 1/342 ونصادى : نداري
2) راجع ـ المرأة وأثرها في تفجّع الشريف ص 3/8 من هذا البحث
3) الديوان 1/298 .

فبحكم انتماء الرضي لآل البيت وتشيعه فإنّ قضيّة عطش الحسين كامنة في أعماقه لا يمكنه الفرار منها لأنها تلحّ عليه وتفرض نفسها على الكثير من تجاربه، وكلّ ذلك صدى الى الماء الذي يهزّ كيان الفرد الشيعي ويحيل حياته الى حزن دائم وتحفّز مستمر للثّورة والانتقام، على أنّ الشريف وإنْ ترك عطش الحسين بصمات واضحة على شعره، إلاّ أنّه شأنه شأن غيره من شعراء الشيعة لم يأت بجديد في وصف عطش الحسين من حيث مضامينه، ولكن انتماءه للبيت العلوي صبغ الشكل بالذاتية، ممّا ولّد نوعا من التمازج بين مأساة العطش التي اكتوى الحسين بنارها وبين مأساة الشاعر وغربته في مجتمعه، فضحت تلك الممازجة بين الذات والتاريخ قضيّة العطش أبعادا تفجّعية متنوعة الأساليب، ففي قوله يذكر عطش الحسين : (خفيف)

أترُاني ألذُّ ماءً ولمّا
يُرَوَ من مهجةِ الامامِ الغليلُ (1)

ممازجة بين عدم شعور الرضي باللذّة في شربه الماء وبين العطش الذي فرضه الأمويون على الحسين، وقد تولّد عن ذلك نوع من الأسى العميق بوصف حاله تجاه الحدث المأسوي الذي عبّر عنه بأسلوب الاستفهام: التفجعي المتسم بالاستمرارية برغم البعد الزمني الذي يفصل الشاعر عن تاريخ المأساة، فاستخدامه لحرف النفي والجزم والاتصال بالحال (لمّا) في قوله ((أتراني ألذّ ماء ولمّا ...)) يعني تجدّد المأساة كلّما تقادم العهد

---

1) الديوان 2/188 .

عليها ، ولن يهدأ بال الشاعر ولن يرتوي ظمأه الاّ بعد أنْ يُروَ الامام العطشان بأخذ الثأر له من ظلمته وقتلته ، وقد يمزج الشريف العطش الحقيقي بالسقي المجازي في رثائه الحسين (رمل)

يا رسولَ اللّه لو عاينتَهُم
وهُمُ مَا بَيْنَ قَتْلَى وَسِبَا
من رميضٍ يُمنعُ الظلَّ وَمِنْ
عَاطشٍ يُسقَى أنابيبَ القَنَا (1)

فهو يسخّر كلّ طاقات اللغة لتفجير الدموع خاصّة في مجال النواحة على الحسين ، ومن ذلك وصفه للمأساة بأسلوب سهل قريب من مدارك عامّة الشيعة ، من ذلك توظيفه بكثرة التفجّع بالنداء كالذي ورد في مقصورته ((يا رسول اللّه ... يا قتيلا .... يا رسول اللّه يا فاطمة)) وهو تكرار متعمّد واع يهدف الشاعر منه اثارة كوامن الأحزان وتأجيجها في النفوس ، واستخدامه للصفة المشبهة القليلة الاستعمال ((عاطش)) يرمي من ورائه احداث صدمة في الأسماع ، واستثارة النفوس لتوليد شتّى الأحزان خاصّة أنّ اشتقاق الصفة المشبهة على هذا النحو يدلّ على لزوم معناها للموصوف ، وعادة ما يحدث الاشتقاق الغريب ردّة فعل داخل النفس قد يؤدّي بها الى الحيرة ضمن أساليب التفجّع المتتالية ، واقتران العطش الحقيقي بالسقي المجازي جعل لمأساة الظمأ بعدين تفجعيين يكمن أولهما فيما أصاب الحسين وأصحابه من تعذيب بحرمانهم من الماء ، ويكمن الثاني في غرز رؤوس

---

1) الديوان 1/ 44 = الرميض : المتحرق القدمين من حرارة الرمل وهو مشتق من الرمض : شدّة وقع الشمس على الرمل .

الرماح الحادة في صدورهم بعد ذلك التعذيب الرهيب، فسقوهم جرعات الموت بعد أن جعلوهم يتظمّون عطشا على لهيب رمال الصحراء ، مع محاولة تجسيد كلّ ذلك باستخدام دقيق لمفردات اللغة . ففي قوله ((يا رسول اللّه لو عاينتم)) محاولة لنكئ الجرح بنداء الرسول (ص) وباستخدام (لو) الشرطية قبل الفعل (عاين) ، كلّ ذلك من أجل تشخيص الحدث وكأنّه شاهد عيان يريد أن ينقله للرسول (ص) بكلّ جزئياته ، فالمعاينة هنا توكيد للمشاهد التي اختزنتها نفس الشاعر بفعل التراكم المأسوي الذي يملأ عليه احساساته .

ومن أساليب التفجّع المتعلقة بعطش الحسين محاولة الشريف الربط بين العطش العادي المتمثّل في الحرمان من الماء وبين المجاز في ارتواء السيوف والرماح من دمه الطاهر ، ففي وصفه لمقتل الحسين يقول : (بسيط)

وخرَّ للموتِ لا كفٌّ تُقلّبُهُ
إلاّ بوطءٍ مِنَ الجُردِ المَحَاضِيرِ
ظمآنَ سَلّتْ نَجيعُ الطّعنِ عُلّتَهُ
عَنْ بَارِدٍ من عُبَابِ الماءِ مقرُورِ(1)

فاعتماد الشاعر في نقل أحزانه على الأسلوب الخبري صرفه تماما عن الاتكاء على المبالغة والصنعة ، فالبيتان ليس فيهما الاّ تراجيع الحزن وترنّح البكاء بوصف حال الحسين وهو مقتول تحت سنابك الخيول عطشانا روته السيوف من ضرباتها والرماح من طعناتها بعد أن حيل بينه وبين الماء المشاع .

---

1) الديوان 1/ 488 . والمحاضير = الخيول التي ترتفع بعدوها .

انّ قضيّة عطش الحسين وان كانت جزءا من فاجعة كربلاء الاّ أنها قد أثّرت تأثيرا بيّنا في شعر الشريف وفرضت نفسها على جميع الأغراض فيه فمن ذلك قوله في العتاب : (طويل)

وكيفَ يغضُّ الأقربونَ بوِرده
وقدْ نَهلتْ منهُ الرّجالُ الاباعدُ (1)

فقد استخدم الماء استخداما مجازيا في تصور حرمان أقارب المعاتب وأصدقائه من عطفه بينما أخذ الغرباء والبعداء يتمتعون بما لديه من نعيم . ومن العتاب قوله للطائع العباسي : (بسيط)

لأي حالٍ يُداري القلبُ غُلّتُه
رجاءَ وِردٍ وورِديٌ مِنْكَ تصريدُ (2)

فضمن الاستفهام المشبع بالأسى يبثّ الشاعر عطشه وأوامه للقاء الخليفة بعد أن عيل صبره من طول تمنّعه عليه وكأنّه يسقيه الماء قطرة بعد قطرة دون أن يصل به الى حد الارتواء .

ويرد العطش والماء ضمن شكوى الزمان كقوله : (وافر)

أَمَا في هذهِ الدُنيَا نجيبٌ
يساعدني على حربِ الدّهُورِ
فنشربُ آجِنَ الغُدرانِ فيها
إذا مالذّلُ حَامَ على النَميرِ (3)

فالشرب من آجن الغدران في مقابل حوم الذلّ على

---

1) الديوان 1/292 .
2) الديوان 1/271 والتصريد : السقي دون الرى .
3) الديوان 1/442 .

النعير كناية عن الصبر على مرارة العيش في سبيل الحياة الكريمة البعيدة عن الذلّ والهوان .

ويستخدم الظمأ استخداما مجازيا في فخره أيضا ، يقول : (وافر)

أبَتْ هِمَمِي تَسيغُ الماءَ صفواً
إذا ما الذلّ حامَ على الزّلالِ (1)

فهمّة الرضي تأبى عليه ليونة الحياة ورغد العيش تحت وطأة الذلّ والهوان ، وقد عبّر الى ذلك بالكناية في تشبيهه الحياة الهانئة الذليلة بالماء الصافي الزلال المحاط بالذلّ .

ويوظّف الرضي العطش في رثائه ليبيّن من خلال ذلك شدّة وجده على المتوفّى كما في قوله : (طويل)

لقد سلّ هذا الرُّزءُ من عينيَ الكَرَى
وغصّصَ بالماءِ الزلالِ وأَشْرَقَا (2)

فالغصّة بالماء والاشراق به لا يكونان الاّ في حالات الهلع والخوف والحزن الشديد وقد استخدمها الشاعر للتعبير عن تفجّعه على مصيبة الفقد .

ويرد العطش أيضا في سياق مدحه كما في قوله : (وافر)

يضمُّ الخائفَ الظمآنَ منّهُ
حمىً يغترُّ من بَردِ الأَمانِي (3)

---

1) الديوان 2/ 234 .

2) الديوان 2/ 72 .

3) الديوان 2/ 503 .

فالظمأ والخوف من صفات عابر السبيل الذي يجد ملاذا وارتواء في حمى ممدوحه ، فالبيت كناية عن الكرم والشجاعة واغاثة الملهوف .

ويرد الماء والعطش ضمن النسيب ليصوّر من خلاله الشريف حالته تجاه من يعشق كما في قوله : (بسيط)

يا ظبيةَ البانِ تَرعَى في خمائلِه
ليَهنَكِ اليَوْمَ أنّ القَلبَ مَرْعاكِ
الماءُ عِندَكِ مبذُولٌ لشارِبِه
ولَيسَ يَرْوِيكِ إلاّ مَدمَعي البَاكِي (1)

فالماء المبذول للشّارب هو الأمن والسعادة والعيش والهنيء الذي تعيش في كنفه حبيبته مطمئنّة البال ، بينما تصر على ري عطشها من دموعه ، فكلّما أخسّت بشوقه وتدلهه تجاهها زادت بعدا وصدّاً ودلالا ، كأنّها بذلك تمتح الدموع من مآقيه لتروي عطشها فتشعل نيران الحنين في نفسه .

ويورد الماء والعطش أيضا ضمن شعر الصديق والصداقة كما في قوله لأبي حسن البتّي (وافر)

والغظُ غَيرَكُمْ ويسوغُ عِندي
وَدادُكُمُ مَعَ الماءِ الشَّرُوبِ (2)

فودّه لذلك الصديق وحبّه له جبلة مغروسة في أعماقه مثلها في ذلك مثل الماء الذي يبلّ الغليل ويطفيء الظمأ ، من الملاحظ أنّ الشاعر قد مزج الوداد بالماء

---

1) الديوان 2/ 107 .

2) الديوان 1/ 193 .

الشروب في محاولة منه للتعبير عن مدى تعلقه بذلك الصديق .

وعلى ذلك فإنّ جلّ استخداماته لمعاني الماء والعطش ترد في شعره على سبيل المجاز ، وأكثر ما يكون فيها هو طالب الماء والعطشان ، عدا حالة عطش آل البيت أو السقيا العقائدية فإنّه يورد الماء فيها على سبيل الحقيقة كما في قوله لأئمّة آل البيت ضمن رثائه للحسين : (رمل)

أنتمُ الشافون من داءِ العمَى
وغدًا ساقون من حوضِ الرَوا (1)

فقوله ((غدا ساقون من حوض الروا)) يعني به يوم الحشر حين يقوم الامام علي يسقي المؤمنين من أتباعه وشيعته .

فارتباط الماء والعطش بالتشيّع من خلال ((حديث الحوض (2)) وعطش الامام الحسين وسخاء الامام علي بالماء على جيش معاوية في يوم صفين بالاضافة الى هيام الشريف الرضي بالصحراء وتعلقه بكلّ ما فيها من طبيعة ، كلّ ذلك جعل شعره يزخر بمعاني الماء والعطش فتولّدت عن ذلك صور موحية لا يمكن ادراك ايحاءاتها وعمقها الفنّي الاّ ضمن النصوص التي وردت فيها ، والجدول التالي يبيّن بعضا من تلك الألفاظ التي أمكن فصلها من نصوصها لتبيان ثراء قاموس الماء والعطش وملحقاتهما في شعره .

---

1) الديوان 1/ 47 .

2) راجع نص الحديث والتعليق عليه في ص 504 وما بعدها من هذا البحث .

من قاموس الماء والعطش في شعر الرضي

رواء	العَذْبُ	التبرّض (3)
تشرب	القِعب (1)	سلّى غلته
الأمواه	ذَنُوب (2)	المقرور
تساقينا	المحَل	الجَوْن
الحيا	هاجرة	بكر
الانداء	الريق الناضب	الربيع
ابكار السحاب	الصدي	حر الودائق (4)
دفّاع الغمام	أساغ	القليب
نطف الحيا	المُزن	البحر الطامي
نقع الغليل	السواغِب	مضمضة
افلاذ الحيا	السّراب	أرض حَصَان (5)
لطائم الأنداء	جدح	العشار
يعري	بلّ	الرشف
الزّلال	الرّوى	العطشة
شَرَق	القراح	لعاب الشمس
أغصّ	تصريد	فَطْمُ العيس عن الورد
الغُدران	نهلتُ	الماءِ الرنق
الدلو	الحرارة	حرارة الحائم
الرشا	الحائم	الورد على الخمس
غيث	الشبم	حوض الروى
رميض	ترقص الأحشاء	الصافي
عاطش	مرّ العوارد	القراح

---

1) القعب = القدح المصنوع من الخشب والجمع قعبة
2) ذنوب = الدلو الملأى بالماء
3) التبرض = التبلغ بالقليل
4) حر الودائق = الحر الشديد
5) أرض حصان = لم يصبها المطر

لكن العطش كعنصر رئيسي في رثاء الامام الحسين لا يمكن فصله عن الفاجعة الرئيسيّة المتمثلة في التنكيل والتعذيب والسبي على أرض كربلاء ، فالظمأ مرتبط بالمأساة ارتباطا وثيقا ، الاّ أنّ الحاح الشاعر في طلب الماء والارتواء هو ما حدا بنا الى تسليط الضوء على ذلك العنصر والرجوع به الى جذوره ، فاستغلال الشريف لقضية الماء المنبثّة في رثاء الحسين منحها نوعا من الجدّة دون سواها من العناصر المكونة لمأساة كربلاء ، وذلك بخروجه بعنصر الماء من مضمونه التفجعي المقصور على العقيدة وربطه بذات الشاعر ، أمّا بقية العناصر المكونة للفاجعة من قتل وسبي وتشريد ،فقد بقيت تدور في فلكها الذي وضعها فيه الشاعر الأول . فالمعنى الذي طرقه سليمان بن قته (ت 126) في رثاء الحسين في القرن الأول الهجري (طويل)

وانّ قتيلَ الطفّ منْ آلِ هاشمٍ
أذلّ رقابَ المسلمينَ فذلّتِ (1)

هو نفس ما قاله الكميت في القرن الثاني (طويل)

قتيلٌ بجنبِ الطفّ من آلِ هاشمٍ
فيا لكَ لحمًا ليسعنهُ مذبّبُ (2)

وهو أيضا ما كرره دعبل في القرن الثالث الهجرى (كامل)

رأسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيّه
يا للرجالِ على قناةٍ يرفعُ

---

1) الحصرى القيرواني ـ زهر الآداب 1/ 94 .
2) الكميت ـ الهاشميات ص 26 .

والمسلمونَ بمنظرٍ وبمسمعِ
لا جازعٌ من ذا ولا متخشّعُ (1)

وقد سار على نفس الجادة الشاعر الشيعي في القرن الرابع كقول الشريف المرتضى : (طويل)

الاّ أنّ يومَ الطفِّ أدمى محاجِراً
وأدوى قلوباً ما لهُنَّ دواءُ (2)

اذ لم يطرأ على المحتوى أى تغيير ولم تخرج القضيّة عن محتواها التاريخي المأسوي وان اختلفت في طريقة التناول استجابة لجمهور المستمعين ، لأنّ الشعر الحسيني لم ينظم ليكون قصرا على فئة معينة ، بل كان الهدف من نظمه ذيوعه وانتشاره بين عامّة النّاس في جميع أقطار الاسلام ، والعشرة الأولى من شهر محرم الحرام هي المناسبة التي تتيح للشاعر الشيعي اظهار براعته في مجال رثاء الحسين ، حيث يعقد الشيعة مآتم المناحة في ذكرى استشهاده ، لذا فإنّ مثل ذلك الشعر يتطلّب لغة سهلة قريبة من ادراك الجماهير ومؤثّرة في نفس الوقت لتستدر الدموع وتثير الأسى واللوعة لمصرع الحسين وآل بيته ، وهجاء القتلة والتوعّد بالانتقام منهم ، وعلى هذا الأساس ينبني رثاء الحسين ومأساة كربلاء على عنصرين هما : تصوير الفاجعة بتجسيد مقتل الحسين وأصحابه .

وثانيهما : هجاء القتلة والتحفّز للثأر منهم واستثارة عاطفة جماهير الشيعة ضدهم ، ولا يكاد الشاعر الشيعي يخرج عن ذينك العنصرين محاولا الاستجابة لمتطلبات جماهير الشيعة والنزول عند رغبتها ممّا طبع ذلك الشعر

---

1) جواد شبّر ـ أدب الطف 1/305 .

2) الشريف المرتضى ـ ديوانه 1/13 .

بأساليب تفجعية مختلفة خاصّة وأنّ اللغة بكلّ طاقاتها هي الميدان الذي حاول فيه الشاعر الشيعي أن يبرز مقدرته داخل المضمون التاريخي لواقعة كربلاء مع تركيز على الجوانب المأسوية منها ، وللشريف في رثاء الحسين خمس قصائد لم يخرج فيها عن مألوف ما نظمه غيره من شعراء الشيعة إلاّ من حيث المعالجة لأنّ لكلّ شاعر رؤيته الخاصّة وقاموسه الخاص ممّا يجعل التمايز في استخدام أساليب اللغة من الأمور البديهيّة ، ولمّا كان التفجّع هو أهم ميزات الشعر الشيعي في تناوله لواقعة كربلاء ، فسنحاول استجلاء ذلك عند الشريف الرضي .

تفجّع الشريف الرضي لمقتل الحسين :

إنّ نظرة الشريف الى مأساة كربلاء من الداخل - لانتمائه لآل البيت - منح شعره في رثاء الحسين أبعادا تفجعيّة عميقة ، خاصّة وأنّ شعوره بذلك الانتماء جعل احساسه بالظلم يتفاقم فامتزجت روحه بلبّ القضيّة ، فبرزت شخصيته بطغيان الأنا المحملة بأعباء القهر والمثقلة بالتأوهات المشحونة بلظى الحزن كما في قوله : (خفيف)

يا غريبَ الديارِ صبري غريبُ
وقتيلَ الأعداءِ نومي قتيلُ
بي نزاعٌ يطفى اليكَ وشوقٌ
وغرامٌ وزفرةٌ وعويلُ
ليتَ أنّي ضجيعُ قبرِكَ أوا
نّ ثراهُ بعدمعِي مطلولُ (1)

---

1) الديوان 189/2 .

فتمثّل الشاعر لفداحة الخطب أحال الأبيات لسيل من الدموع الحرّى بوضع الفاجعة في بعدين متداخلين مصدرهما مقتل الحسين في غربته بين أعداء لم يراعوا حرمته، وأثر تلك الغربة وذلك القتل على نفس الشاعر، فالنداء التفجعي في ((يا غريب الديار صبري غريب)) قد بيّن حالتين مأسويتين، مثلت الأولى غربة الحسين، ومثلت الثانية تعجّب الشاعر من نفسه لشدّة احتماله للصبر رغم شعوره بمرارة غربة الحسين مع محاولة التجنيس في (غريب) الاولى وتعني الغربة الحقيقيّة بالبعد عن الأهل والأوطان، و (غريب) الثانية التي تعني التعجّب من احتمال الصبر ازاء تذكّر تلك الغربة، وقد كشّف الشاعر من طاقات الحزن بمعاودة التفجّع بالنداء في المصراع الثاني دون استخدام (يا) مكتفيا بالعطف مستعيضا عن أداة النداء بما في نفسه من تدفّق عاطفي مكررا التجنيس في (قتيل) التي تعني الموت و (قتيل) التي تعني امتناع النّوم عن الشاعر. ومن خلال ذلك التدفّق يحاول الشريف تبيان انعكاسات الفاجعة على نفسه فيجنح الى الأسلوب الخبرى ليصف التقديم والتأخير فيه أثر المأساة المدمر على نفسه، فالصياغة في قوله ((بي نزاع)) هي توكيد لما يشتجر بداخله من حبّ وحزن تجاه المرثي، فمحاصرة الحزن له تلجئه لمعاودة الاتكاء على الأسلوب الانشائي بتمنّي المستحيل في استخدامه ل (ليت) وكأنّه لم يجد في خبايا نفسه ما يعبّر به عن شحنات التوجّع المحتبسة بداخله، فكان التمنّي تعبيرا يائسا، بعد أن نأت اللغة عن حمل الوجد المتلاطم. وانتماؤه الى الحسين صبغ رثاءه فيه بنوع من الذاتية التي تعتبر في حدّ ذاتها أسلوبا من أساليب التفجّع الذي تميّزت به تلك المراثي خاصّة عند ندائه للحسين بـ (يا جدّ) : (كامل)

يـا جـدّ لازالـت كتائـبُ حسـرةٍ
تغشى الضمير تعودُه بعِدادِهَا
أبـداً عليكَ وأدمـعٌ مسفوحـةٌ
إنْ لم يُراوِحْهَا البُكَاءُ يُغَادِهَا (1)

فنـداء الحسيـن بـ (يـا جـد) يتضمّـن مـن التفجّـع ما يحـاول الشاعـر من خلالـه تبيـان استمراريـة الظلـم الـذي وقـع علـى الحسيـن ، ثـم أنّ الاسنـاد المجـازي فـي قولـه ((كتائـب حسـرة تغشـى العيـون)) هـو تجسيـد لأمـواج الحـزن المتلاطمـة التـي تتقـاذف روح الشاعـر مـع اعطـاء السيـاق ذيمومـة واستمراريـة باستخـدام (أبـدا) لتأكيـد الحـزن فـي الزمـن الآتـي وقـد عضّـد تلـك الاستمراريـة المقابلـة بيـن (رواحهـا وغدوهـا) ، ومـن أساليـب التفجّـع فـي رثـاء الحسيـن عنـد الشريـف التركيـز علـى النسـب بتسميـة الحسيـن بابـن فاطمـة لتكـون الذكـرى أوجـع فـي النفـوس ومنـه قولـه : (بسيـط)

يومٌ حَدَا الظُّعنَ فيهِ لابنِ فاطمـةٍ
سِنَانُ مُطّرِدِ الكَعبينِ مَطـرورِ
وخَرَّ للموتِ لا كـفٌّ تقلّبُـهُ
إلاّ بوطءٍ مِنَ الجُردِ المحاضيرِ(2)

ومنـه أيضـا تسميـة النسـوة اللواتـي حضـرن واقعـة كربـلاء مـع الحسـين وقـد سباهـنّ الأمويـون ، ببنـات رسـول اللّـه (ص) (بسيـط)

تُسبـى بَنـاتُ رسـولِ اللّـهِ بينهُـمُ
والدّيـنُ غَضُّ المبَـادي غيرُ مَستُورِ(3)

---

1) الديـوان 1/364 .
2 ، 3) الديـوان 1/488 .

ومن أساليب التفجّع التي ركّز الشريف عليها أيضا التذكير بمنزلة الحسين من رسول اللّه (ص) بالاشارة الى مكانته منه (ص) في قصّة المباهلة (رمل)

قتلوهُ بَعْدَ علْمٍ منْهُمُ
أنّه خَامِسُ أصحابِ الكِسَا (1)

ويتوسّل الشريف الرضي بشتّى أساليب اللغة للتعبير عن تفجعه مع غلبة استخدامه لأساليب النداء التفجعيّة لتناسب تلك الأساليب مع ظاهرة التفجّع بلاغيا ، ولِمَا في النّداء من صرخات تنفيس عن الحزن المحتبس في أعماقه، فهو تارة يركّز أسلوب النّداء على يوم الفاجعة وكأنّه يعاتب - بحرقة وأسى - انسانا في مواجهته (كامل)

يَا يَومَ عاشوراءَ كَمْ لكَ لوعةً
تترقّصُ الأحشَاءُ مِنْ ايقادها (2)

وقد يستخدم النداء بالتفجّع لتصوير ما أحدثته مأساة كربلاء من تقويض للاسلام بسبب اهدار دم الحسين كما في قوله : (رمل)

---

1) 1/45 وحديث الكساء من الأحاديث المعوّل عليها عند الشيعة في أحقية آل البيت وعصمتهم ونصّه عن عائشة " خرج النبي (ص) غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ثم قال " إنّما يريدُ اللّهُ ليذهبَ عنكمُ الرِجسَ آلَ البيتِ ويُطهركم تطهيرًا " الأحزاب 33 والحديث عن صحيح مسلم 4/1883 . وقول الشريف أنّه خامس أصحاب الكسا : أي أنّه أحد الخمسة الذين أدخلهم الرسول معه في كسائه .

2) الديوان 1/364 .

يَـا قتيـلاً قـوّضَ الدهـرُ بـهِ
عُمُدَ الدّينِ وأَعْـلامَ الهُدَى (1)

ويبلـغ التفجّـع بالنّـداء ذروتـه حيـن يكـرره علـى لسـان الامـام الحسيـن فـي استغاثتـه بجـدّه وأمّـه وأبيـه (رمـل)

أيّ جـدٍّ وأبٍ يدعوهُمَـا
جـدّ، يـا جـدّ، أُغِثْنِـي يـا أبَـا
يَـا رسُـولَ اللّـهِ يـا فاطِمَـةُ
يـا أميرَ المؤمنينَ المرتَضَـى (2)

فالمناسبـة مناسبـة نياحـة علـى الحسيـن ، وتجـاوب الشاعـر مـع الحـدث مـن خـلال التذكّـر الملتـاع جعـل الأسلـوب الخبـري فـي قولـه ((مرهفـا يدعـو ...)) - ضمن القصيدة قبل البيتين السابقيـن- يبلور التحسّر الذى يعاود نفس الشاعر تجاه وحدة الحسين من مواجهة المسلميـن وتقدير الأبيات بالحال جعلها أقرب الـى التأوهـات ، ثم أنّ استخـدام الشاعـر لضميـر الغائـب جعـل للصـوت الثانـي أبعـادا تفجعيّـة مفرقـة فـي الحـزن حيـن تـرك الاستغاثـة تصـدر عن الحسيـن ذاتـه ، اذ لـم يعـد للشاعـر أيّ دخـل الاّ فـي تنسيـق اللغـة لتنقـل الأحـداث بمـا يتناسـب والموقـف ، فجـاء تكـرار النّـداء والاستغاثـة ومراوداتهمـا فـي قولـه ((جـد - يـا جـد - أغثنـي - يـا رسـول اللّـه -- يـا فاطمـة --- يـا أميـر المؤمنيـن)) مباشـرا فمنـح السيـاق أبعـادا تفجعيّـة هـي أمـسّ للنفـس والتأثيـر فيهـا ممّـا لـو كانـت صـادرة عـن الشاعـر ، وقـد يستعيـض الشريـف فـي ابـراز تفجعـه علـى الحسيـن بـواو الندبـة بـدلا مـن يـاء النّـداء كمـا فـي قولـه : (كامـل)

والهفَتَـاهُ لِعُصْبَـةٍ عَلَويّـةٍ
تَبِعِـتْ أُميَّـةَ بَعْـدَ عِـزّ قِيَادِهَـا (3)

1، 2) الديـوان 1/45، 46 .
3) الديـوان 1/362 .

فتدفّق عاطفة الحزن لم تمكّن الشاعر من التريّث أو استرجاع أنفاسه للتأمّل في الموقف فصدرت كلماته كدموع متتابعة وولولات ملتاعة تضمنها أسلوب الندبة المتكون من (واو الندبة) والتحسّر الطلتاع في (لهفتاه) الملحقة بهاء السكت المصورة لحشرجة التعبير وانخناقه داخل النفس.

ولأساليب الاستفهام دورها الهام في ابراز تفجّع الشريف على الحسين، ويمكن حصر هذا الدور في تأثيره على الشاعر فهو من هذه الناحية يتعرض للمأساة بقدر تعرضه لأثرها على نفسه كما في قوله: (كامل)

هَلْ تطلُبُون مِنَ النّواظِرِ بَعْدَكُمْ
شَيْئًا سِوَى عَبَرَاتِهَا وَسُهَادِهَا ؟ (1)

فلا شيء يطلبه الشاعر من مآقيه بعد مقتل الحسين سوى الأرق والحسرة والدموع، فذوبان كيانه في المأساة أحال الاستفهام من كونه سؤال الى نهي عن كلّ شيء سوى الحزن المتلاحق، فالسؤال في استكناه الشاعر لما في نفسه تجاه الموقف المفجع هو اندماج مع ذلك الموقف واندماجه في "الأشياء يضفي عليها مشاعره" (2) فعودته لتكرار السؤال لنفسه (بسيط)

مَالي تَعَجّبْتُ مِنْ هَمّي ونفرتِه ؟
والحُزْنُ جَرْحٌ بِقَلبِيْ غيرُ مسبورِ (3)

فوصف الحزن بالجرح غير المسبور بازاء الاستفهام التعجبي يعني ذلك الاندماج.

---

1) الديوان 1/361.
2) عزالدين اسماعيل - التفسير النفسي للأدب ص 65.
3) الديوان 1/489.

وللتقديم والتأخير دور في تفجعه على الحسين ومن ذلك قوله : (كامل)

شغلَ الدموعَ عَنِ الدّيارِ بُكاؤنَا
لِبُكَاءِ فاطِمةٍ عَلى أولادِهَا (1)

فالتقديم والتأخير في السياق جعلا للدموع - وهي نتيجة البكاء - امتلاك زمام الموقف ، بانعطافها عن الانهمار في موقف الذكرى والطلل لتتعاطف مع ابنة رسول اللّه (ص) في مصيبة ثكلها في أولادها على أرض كربلاء ، لأنّ أصل التركيب ((شغل بكاؤنا عن الديار لبكائنا لبكاء فاطمة)) مع حذف (لبكائنا) ، ولكن نفس الشاعر الحزينة أبت الاّ تقديم الدموع التي كان الشاعر يؤكّد انهمارها مدرارة في كلّ مراثيه الحسينيّة التي منها (بسيط)

والدّمعُ تحفِزُهُ عَيْنٌ مؤرّقَةٌ
حَفْزَ الحنيّةِ عن نزع وتوتير (2)

فتقديم المفعول (الدمع) على فاعله (العين) ضمن الأسلوب الخبرى لم يحد من جذوة الحزن الّذي عضّده الشاعر بتبيان نوع الفعل (حفز) بالمفعول المطلق (حفز الحنية) وقد عمّق من ذلك الحزن وبلغ به مرحلة التفجّع تشبيهه العين المؤرقة في دفعها للدموع بالقوس في قوة دفعه للقسي مع حذف أداة التشبيه توكيدا للوعته وأساه .

أمّا من ناحية الصّور والأخيلة فإنها لا ترد بكثرة مفرطة في مراثي الشريف الحسينيّة والسبب في ذلك هو الحزن الجارف الذي يأخذ بتلابيبه أثناء العملية الابداعية ، ممّا يحول بينه وبين التأمّل فيما حوله لالتقاط أجزاء

---

1) الديوان 361/1 .

2) الديوان 489/1 وتحفزه = تدفعه ، الحنية = القوس .

الصّورة ، فانشغال نفسه بالتحسّر والعويل لم يمكنه من اطلاق العنان لخياله والاسترسال في جلب الصّور ولكن ذلك لم يمنع من تولّد صور جزئية وأخرى كلية " بصورة قاتمة غامضة تتولّد من المضاعفات الوجدانيّة الكثيرة التعقيد " (1) . فمن صوره الجزئيّة التفجعية قوله : (بسيط)

كأنّ بيضَ المواضي وهيَ تنهبُهُ
نارٌ تَحكّمُ في جسمٍ من النورِ (2)

فقد شبّه السيوف في لمعانها وشدّة صقالتها وهي تتناوش جسد الحسين من كلّ جانب بنار متقدة أحاط لهيبها بجسم من النّور ، وهو بمثل تلك الصّور الجزئية الخاطفة يريد أن يصل بالشّعور الى قمّة المأساة بتصوير وحدة الحسين بين سيوف أعدائه ، ومن الصّور الجزئية التفجعية قوله أيضا : (كامل)

ضربُوا بسَيْفِ محمّدٍ أبناءُهُ
ضربَ الغرائبِ عُدّنَ بعدَ زِيادِهَا (3)

وهي مستوحاة في كلّ أجزائها من الصحراء ، فقد شبّه الشاعر ما فعل بآل البيت في كربلاء بما يفعل بالابل الغريبة العطشى حين ترد سقاء القوم فيطردونها ويحولون بينها وبين الماء ، فإن هي عادت تضرب ضربا مبرّحًا ،

---

1) ايليا حاوى - فن الوصف ص 141 .

2) الديوان 1/488 .

3) الديوان 1/363 والغرائب : الابل الغريبة التي ترد الماء مع ابل القوم فتطرد ، زيادها : طردها .

مع الاختلاف في أداة الضّرب بالنسبة لكلا الطرفين ، فالابل تضرب بالعصي ، ولكن فداحة الخطب تتجلّى في قتل أبناء الرسول بسيفه الذي أقام به أود العرب وقادهم به الى جادة الصّواب والحق ، وفي تقديم متعلّق الفعل (بسيف محمّد) ، بعد تعريفه بالعلم ، على المفعول (أبناءه) مع تعريفه بالضمير ما أضفى على السياق غصة وقهرا ، ومن بديع صوره التفجعية الجزئية الكناية في قوله (بسيط)

تُسبى بَنَاتُ رسولِ اللّهِ بينهُمُ
والدّينُ غَضُّ المبَادي غيرُ مستُورِ(1)

فهو ينعى على المسلمين سبي بنات الرسول (ص) على مشهد ومرأى من جميع المسلمين والدين مازال في عنفوان قوته ومازال صدى صوت الرسول (ص) يرن في الآذان ، وقد كنّى عن قوة الدين وفتائه بقوله ((والدين غضّ المبادي)) والغض الطري الناعم من الأشياء ولا يستخدم الآ لوصف المحسوسات وقد استخدمه الرضي كصفة للمبادئ وهي من الأمور المعنويّة .

ومن الصّور البيانيّة التفجعية الاستعارة في قوله: (رمل)

يَا قتيلاً قوّضَ الدّهرُ بهِ
عُمُدَ الدّينِ وأعلامَ الهُدى (2)

فقد شبّه حال مقتل الحسين بحال انهدام الدين وتصدّع أركانه بجامع فقدان الأمن والهداية في كلّ واستعار الفعل (قوض) وهو للأمور الحسيّة ، للدهر وهو

---

1) الديوان 1/488 .

2) الديوان 1/45 .

من الأمور المعنويّة . فإذا كانت الصّور الجزئيّة نادرة الورود في مراثي الشريف الحسينيّة فإنّ الصّور الكلية في ذلك الرثاء تكاد تنعدم اذ لم نستطع العثور في مراثيه الخمس الاّ على نموذجين (1) ، وسبب ذلك افتقار تلك المراثي للوحدة العضويّة والاتكاء على الوحدة المعنويّة القائمة على معنى البيت أو المقاطع القصيرة ممّا يحول بين الشاعر وبين استمراريّة التشخيص ، لانشغاله بالعويل واثارة الأشجان ممّا يجعل بناء القصيدة أقرب الى الخواطر منه الى التأمّل والتجسيد ، وهذا بدوره يجعل الصور البيانيّة متفرقة ومتشتتة داخل القصيدة ، اذ يمكن في معظم الأحيان عزلها كوحدة معنويّة قائمة بذاتها مثلها في ذلك مثل معظم الأبيات الأخرى في القصيدة ، ولكن اذا ما وردت الصّورة الكلية في مثل ذلك الركام الهائل من التأوهات والدموع فإنّ الشاعر يمتلك زمام قيادها بحيث يستطيع عن طريق التشخيص اعطاء الصّورة جميع أبعادها كما في قوله : (رمل)

يا رسولَ اللّه لو عاينتهُم
وهُمُ ما بَينَ قَتْلَى وَسبَا
مِنْ رَميضٍ يُمْنَعُ الظّلَّ ومِنْ
عاطِشٍ يُسقى أنَابيبَ القَنَا
وَمَسُوقٍ عَاثِرٍ يُسْعَى بِهِ
خَلْفَ مَحمُولٍ عَلى غيرِ وَطَا
مُتْعَبٍ يشكُو أذَى السّيْرِ عَلى
نَقبِ المَنْسِمِ مَجزُولِ المَطَا
لَرأَتْ عيناكَ منهُم منظَرَاً
للحَشَى شَجْواً وللعينِ قَذَى (2)

---

1) عرضنا لمناقشة احدى الصورتين في ص 491 من هذا البحث أثناء دراستنا لمكانة الشريف من شعراء عصره .

2) الديوان 1/ 44 ، 45 . نقب المنسم : رقته والمنسم خف البعير ، مجزول المطا : منقطع الظهر .

فاللوحة متكاملة الجوانب فنيا ، ثرية باشعاعات تشخيص المأساة : فتصور الشاعر نفسه بين يدى الرسول (ص) يصف له فاجعة الطف جعله ينظر اليها من زاويتين : كلّية مثلها قوله « وهم ما بين قتلى وسبا » ثم أخرى تفصيليّة استكشف فيها ما أسفرت عنه الواقعة من هوان وقتل وترويع لأطفال آل البيت ونسائهم ، فمن حفاة مروّعين على صحراء ملتهبة الرمال وقد حيل بينهم وبين الظلّ ، وقتلى مبعثرين على الرمضاء قضوا عطاشى ، وأسرى مصفّدين يساقون حفاة وقد مزقت حصباء الصحراء أقدامهم وقطعت غزارة رمالها ظهورهم تعبا ، وسبايا على الاقتاب دون وطاء من تحتهم يريحهم ويعدل من جلستهم أو غطاء يسترهم من زمهرير الصحراء وعيون الشامتين ، وانّ لم يلجأ الشريف الى البيان لتلوين لوحته فاللغة بحقيقة ألفاظها ، وتمثله لجميع أبعاد الفاجعة كفياه مؤونة الاسترسال في جلب التشبيهات والاستعارات وغير ذلك من صور بيانيّة ، فجاء المشهد متناسقا مع طبيعة المأساة حتّى ليكاد القارئ البسيط أن يتخيله ويتفاعل معه لالمامه بجميع جزئيات الفاجعة وللبساطة المتناهية في تعبيره .

والتحام الصّورة بالاحساس بالفكر في تلك المراثي التفجعية يولد لدى القارئ أسى عميقا بفعل أساليب البديع المختلفة التي يتكئ الشاعر عليها للتعبير عمّا في نفسه بواسطة الألفاظ والحروف ، وفي هذا المجال قد يعمل الرضي فكره لتطويع اللفظ بما يتناسب وشدّة حزنه ، من ذلك تفتيته للاسم لتوليد معان تتسق وطبيعة تفجعه كما في قوله :

كَرْبَلا لازِلتِ كربًا وَبَلا
مَا لَقِي عِنْدَكِ آلُ المُصْطَفَى (1)

---

1) الديوان 1/44 .

فالكرب والبلاء اسمان ولدهما الشاعر من (كربلاء) الموضع الذي قتل فيه الحسين ، وتأسّيه واشتداد حزنه هما اللذان أوحيا اليه بتلك التجزئة التي منحت السياق نوعا من الموسيقى الداخليّة لتكرار حرف الباء في معان جديدة ، بجانب تكراره لحرف المد (الألف) ممّا جعل البيت بألفاظه واستمراريته صورة لترجيع النحيب ، فجنوح الشاعر الى الصنعة ما هو الاّ محاولة لتلبيه طبيعة العمل الفنّي المتفاعل داخل أحاسيسه .

ومن الاستخدامات البديعيّة في مجال مراثيه الحسينيّة الايغال (1) بقوله : (خفيف)

يا ابنَ بنتِ الرّسولِ ضَيّعَت العَهْـ
ـدَ رِجَالٌ ، والحَافِظُون قَلِيْلُ (2)

فأسلوب النّداء التفجعي القائم على الشطر الأول وجزء من الشطر الثاني الى قوله ((رجال)) قد أتمّ المعنى وأكمله ، لكن بحث الشاعر في خبايا نفسه عمّا يحفظ للبيت توازنه

---

1) الايغال نوع من أنواع البديع المعنوي يسمّيه بعض البلاغيين (التبليغ) وهو " قول مركّب من جزئين ، أو في حكم المركبين ، أحدهما هو الثاني لمزيد معنى في الأول على وجه الاجتماع بحيث يمكن استقلاله بدونه " أبو محمد السلجماسي ـ المنزع البديع ص 321 ، ولمعرفة أنواع الايغال بالتفصيل راجع : عبد العزيز عتيق ـ علم البديع ص 104 .

2) الديوان 2/188 .

ويبقي على جذوة الحزن متقدة في ثناياه جعله يوغل في المعنى بما يفيد التحسّر بالاستئناف في قوله ((والحافظون قليل)) وذلك في مراوحة بين ماض مفجع يكمن في الفعل (ضيعت) وحاضر مؤلم يمثله اسم الفاعل (الحافظون) لما يحويه معناه من آنية ، والحس الموسيقي عند الشريف يمنحه القدرة على انتقاء الكلمات المناسبة لحالة الذهول أثناء استلهامه لفاجعة كربلاء وذلك من ناحيتي المعنى والجرس . يقول : (كامل)

أَتُرى دَرَتْ أنّ الحُسَيْنَ طَرِيدَةٌ
لِقَنَا بَنِي الطّرداءِ مِنْذُ وِلادِهَا (1)

اذ لم يكتف بقصر تفجعه على أسلوب الاستفهام ، فأعمل حسّه الموسيقي باختيار لفظي (طريدة ،طرداء) لما فيهما من شحنات البغض وتجانس في الجرس وتنافر في المعنى ، اذ وصف الحسين بالطريدة لما في ذلك من ايحاءات تصوّر الاصرار على الملاحقة والتتبّع والفتك ، ولفظ (بني الطرداء) كناية تصغير وتحقير لبني أميّة ، بسبب نفي الرسول (ص) كلا من الحكم بن العاص ومعاوية بن المغيرة بن العاص عن المدينة (2) ، وانسياب الجرس اللفظي داخل قصيدة الرثاء الحسينيّة يولّد صورا سمعيّة ذات ترجيعات حزينة عن طريق تبادل نسق الحروف التي يوردها فتعطي للمفردات أبعادا معنويّة مختلفة كما في قوله : (كامل)

---

1) الديوان 362/1

2) راجع ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة 15 / 939 .

صفداتُ مالِ اللّهِ ملءُ أكُفّهـا
وأكفُّ آلِ اللّهِ في أصفادِها (1)

ففي مجال المعنى لم يأت الشاعر بجديد (2) ، الاّ أنّ الصياغة ألبست ذلك المعنى ثوبا جديدا اعتمد الشاعر فيه على الصنعة اللفظيّة التي انبنى عليها البيت بأكمله بسويره بلفظتي (صفدات وأصفاد) وهو ما يطلق البلاغيون عليه مصطلح " رد العجز الى الصّدر " (3) وقد حاول الرضي أن يبلغ الأوج في توظيفه لهذا النّوع من البديع اللفظي ، اذ لم يقصره

---

1) الديوان 1/ 363 والصفدات محركة مفرد الصفد : العطاء ، الأصفاد مفرده صفد : الوثاق والقيد من الحديد .

2) سبقه في ذلك المعنى دعبل في قوله : (طويل)
أرى فيأهم في غيرهم متقسما
وأيديهمُ من فيئهم صَفِرَاتِ

3) من مصطلحات علم البديع " رد العجز الى الصدر " أو " رد اعجاز الكلام الى الصدور " وقد سمّاه علي بن خلف الكاتب (ت بعد 406)" الترديد " وعرّفه بتقسيمه الى أقسام ثلاثة :
1- أن يوافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في نصفه
2- أن يوافق آخر كلمة في البيت أول كلمة منه
3- أن يوافق آخر كلمة منه بعض ما فيه
وفي هذا الصدد فرق بين مصطلحي (الترديد) و (التصدير) في قوله " انّ الفرق بينهما أنّ الترديد تعود فيه اللفظة متعلقة بغير المعنى ، والتصدير تعود فيه اللفظة وهي متعلقة بالمعنى بعينه " مواد البيان ص 348 وما بعدها ، وفي اعتقادي أنّ كلا المصطلحين يرجعان في الدلالة الى " رد العجز الى الصّدر " وهما يعتمدان على ترديد اللفظ امّا بمعناه أو بمخالفه ، والمراد من كلتا الحالتين الجرس اللفظي . ويرجح

=

على رد لفظ واحد في عجزه الى لفظ واحد في صدره بل تعدّى ذلك الى معظم ألفاظ البيت تقريبا وكان ذلك الترديد على سبيل المجانسة بين (صفدات وأصفاد) وبين (مال وآل) وعلى سبيل المماثلة بين (أكف وأكف) ولكن ذلك التكرار اللفظي رغم ظهور الصنعة عليه لم يثقل البيت لأنّ الشاعر أورده لأغراض معنويّة أراد من ورائها تجسيد ظلم بني أميّة وسلبهم لحق آل البيت فكان لتناسق الألفاظ وتكرارها بعدان موسيقيان يمثلهما الجرس الايقاعي المتولّد من تكرار الحروف وسهولة مخارجها وهو ما يمثّل موسيقى البيت الخارجيّة ، والايحاءات المعنويّة المولّدة لموسيقى البيت الداخليّة والمعبّرة عن ذات الشاعر الحزينة فـ" الوزن وحده لا يحدّد لون الايقاع (لأنّه) يؤلف الموسيقى الخارجيّة المحسوسة وهناك موسيقى داخليّة ناشئة من طبيعة توالي الحروف ومخارجها ، لا من حركة هذه الحروف التي يتمّ بها الوزن العروضي " (1) ، ورغم ندرة المقابلات في تلك المراثي الاّ أنّ لورودها دورا هامّا في تفجّع الشاعر كما في مقابلة السلب والايجاب في قوله : (بسيط)

إنّ السّلُوَّ لمخطُورٌ عَلى كَبِدِي
وَمَا السّلُوّ عَلى قلبٍ بمحظُورِ (2)

فبينما يؤكّد في الشطر الأول امتناع راحة البال والسلوان عن نفسه بالتوكيد بـ (انّ) يقرر في الشطر الثاني أنّ ما هو

= ذلك ان عبد العزيز عتيق في كتابه علم البديع قد ذكر مصطلح " التصدير " في استعراضه لتاريخ ذلك الجنس من المحسن اللفظي ولم يذكر مصطلح " الترديد " مع أنّه أورد أمثلة وشواهد تعرض لكليهما تحت عنوان " رد العجز الى الصدر ".

1) سيد قطب ـ النقد الأدبي ص 66 .

2) الديوان 1/489 .

مخطور على قلبه ليس بمخطور على قلوب الآخرين وقد عمّم ذلك بتنكير لفظة (قلب) دون جمعها لتعني كلّ قلب سوى قلبه هو وعزز المقابلة بالايقاع الموسيقي في استخدامه نوعا من أنواع (رد العجز الى الصّدر) بايراد لفظ (مخطور) في وسط المصراع الأول ، واعادة نفس اللفظ في عجز الشطر الثاني ، وقد دعّم ذلك التكرار الحزن الملتاع الذي يعانيه الشاعر .

فاستخدام الشريف للبديع بنوعيه اللفظي والمعنوي في رثائه للحسين كان لحاجة ماسة يريد التعبير عنها فلم يجد بدا من الاعتماد على رنين الحروف لبثّ آهاته الطتاعة وكأنّه بذلك العمل قد حشد كلّ طاقاته العاطفيّة والعقليّة والبيانيّة واللغويّة لتكون في خدمة ما اصطرع في تلك النفس من شجى وشجن ،حتّى أننا نحسّ أنفسنا في بعض تلك القصائد كأنّنا في مأتم نحيب ونواح ، ممّا يفقد القصيدة توازنها الموضوعي فتستحيل الى خواطر حزن تزاحمت في نفس الشاعر فأفرغ فيها كلّ أساه . نلاحظ ذلك في مقصورته التي اختلف بعض دارسي شعره في نسبتها اليه بسبب ما احتوت عليه من حزن متفجّع عده بعضهم ليونه (1) ، وهو في الحقيقة تعبير مأسوي عميق اختزنه الشاعر عبر تراكمات تاريخيّة واجه فيها أجداده القتل والتشريد في سبيل استرجاع حقهم المسلوب ، فتفجّر ذلك التراكم ليعبّر عن تلك المأساة المتجذّرة في نفسه بعد أن رضع ذكراها بين أفراد أسرته منذ اليوم الأول من ولادته .

---

1) ناقشنا ذلك بالتفصيل في ص 287من هذا البحث .

الفصل الثاني

التفجّع والموت في شعر الشريف الرضي

الرثاء في شعر الشريف الرضي :

يقع الرثاء بالنسبة لمضامين الشريف الرضي الشعريّة، في المرتبة الثانية (1) بعد المديح، اذ تبلغ أبياته ألفين وثمانمئة وخمسة وسبعين بيتا، أي ما يعادل 17،77٪ بالنسبة لمجمل شعره، ولو أضفنا التعازي التي عدد أبياتها ثلاثمئة وثلاثة وستّون بيتا، فستصل النسبة الى 20٪، واذ كان في مدحه قد اختصّ بطبقة معيّنة غالبها من الخلفاء والملوك وعلية القوم، فإنّه قد رثى معظم من صادقهم من أبناء مجتمعه، فلم يقصر رثاءه على طبقة دون أخرى، حتّى لنكاد نشعر ونحن نتصفّح ديوانه الضخم بأنّه كان صديقا حميما لمعظم من عايشهم أو احتكّ بهم، فقد تميّز من بين شعراء عصره بخصيصة الرثاء، فقال عنه الثعالبي " ولست أدري من بين شعراء العصر أحسن تصرفا في المراثي منه " (2) وذلك للاحساس بما في رثائه من تدفّق عاطفي حار بالرغم من كثرته، فتجذّر مشكلة الموت في أعماقه، وتكرارها المستمر على مرأى منه ومحضر، جعل نفسه الرقيقة الزاخرة بالوفاء، في معاناة مستمرة، والاستمرارية في الرثاء تعني التجدد في مواقف الشاعر، لأننا لا نستطيع بأيّة حال أن نقول بأنّ ثمّة جديدا في التجربة، لأنّ تجربة الموت بعيدة المنال، لا يمكن للانسان أن يعانيها حتّى يتمكّن من وصفها، لأنّ المعاناة في هذا الصدد فردية

---

1) راجع جدول المضامين ص 336 من هذا البحث.

2) يتيمة الدهر 3/144.

وخاصّة ، فوصف الموت من حيث هو حالة تحدث للآخرين في شعر الشريف هو بمثابة الشريط الطويل الذي يرى فيه أهلا وأقارب وخلفاء وملوكا وأصدقاء يرحلون ولا يرجعون ، وهو كالمتفرج الذي لا حول له ولا قوة تمكّنه من صد غائلة الموت فيتساءل (طويل)

وهل نافعي ذِكرُ الاخلاءِ بعدَمَا
جرَى بينَنَا مَوْرُ النّقا والسباسبِ ؟ (1)

على أنّ ذلك السؤال وان كان يتضمّن النفي ، اذ لا جدوى من تذكّر ما فات ، فانّ تكرار الميلاد والموت في العلاقات الانسانيّة ، يشدّ الشريف الرضي الى مجتمعه ، فتكرار المأساة يجدد الذكرى الأليمة في نفسه فينفعل بالحدث معّا يحتّم عليه الاستمرار في التفجّع على من فارقهم ، منتظرا دوره في ذلك التتابع اللامتناهي الذي يعكس حقيقة الوجود ملغيا الزمن في طياته كما في قوله : (وافر)

وَأولُنَا العنَاءُ إذا طَلَعنَا
الى الدّنيَا وآخرُنَا الذّهابُ (2)

فالبداية والنهاية سيّان في نظر الشاعر معّا يحيل الموت في بعض مراثيه الى مشكل ماورائي بسيط ، لما في نفسه ـ كانسان ـ من فضول لمعرفة كنهه وادراك أبعاده .

النظرة الماورائيّة للموت في شعر الشريف الرضي :

لم يكن الرضي فيلسوفا ، ولم يكن من المفكرين في قضايا المصير والماورائيات ، فايمانه القوي جعله يسلّم بواقع

---

1 ، 2) الديوان 1/151 ، 126 .

ما بعد الموت - أي الحساب - كما نصّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى " وانّما توفونَ أُجورَكُمْ يومَ القيامةِ " (1) ، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من التفكير في المصير ولو في لحظات خاطفة ، خاصّة وأنّ تجربة الموت من التجارب التي يعانيها الانسان لوحده ، دون مشاركة الآخرين له فيها ، ممّا يؤدّي الى استحالة وصفها أو ادراك كنهها ، وهو ما جعل الانسان يقف حائرا ازاءها ، والاستحالة في إدراك المصير تزيد من رهبة الانسان وحيرته ، خاصّة المثقّف ذي الشخصيّة القويّة ، لأنّ شعوره بالمشكل يكون أعمق فكلما كان الشعور بالشخصيّة أقوى وأوضح كان الانسان أقدر على إدراك الموت ، وبالتالي على أن يكون الموت عنده مشكلة " (2) والشاعر بما يمتلك من أحاسيس شفافة وقدرة على استكناه الكون ، فإنّ له قدرة قويّة على ربط الحياة بالموت بكلّ ما يكتنفها من ظواهر طبيعيّة ، كالشروق والغروب ، وتعاقب الليل والنهار ، والتفتّح والذبول ، والمد والجزر ، واللقاء والفراق ، والنّوم واليقظة ، الى غير ذلك من مقابلات تجعله ينظر الى الحياة نظرة تفكّر وخوف ، لما تنطوي عليه من تبدّل متواصل ، يعني ضمنا أنّ الحياة في تغيّر مستمر ، وانّ النهاية ، وانْ كانت سرّا من أسرار الكون ، فلا ريب من حدوثها ، فالموت على هذا الأساس مأساة ماورائيّة يخوضها الانسان على المستوى الفردي (3) لذلك فإنّ رثاء الشاعر لفرد ما - وهو الموضوع الرئيسي -

---

1) آل عمران 185 .

2) عبد الرحمن بدوى - الموت والعبقرية ص 8 .

3) راجع في هذا الصدد : مشكلة موت الانسان عند زكريا ابراهيم في كتابه : مشكلة الحياة ص 198 وما بعدها .

ما هو في حقيقته الاّ قضيّة جزئية ، والموت هو القضيّة الكبرى ، واللغز الذي يحاول فك طلاسمه ، فإذا أعياه الفكر يحاول الفرار منه دون أمل في ادراك مبتغاه (طويل)

خليليّ زُمّا لي مِنَ العِيسِ جَسْرَةً
مُصَبّرَةَ الأضْلاعِ أدْمَاءَ سَهْوَقَا
لَعَلّي أفُوتُ الموتَ إنْ جدّ جَدُّهُ
وَأعظمُ ظَنّي أنْ يَنالَ وَيلحَقَا
وهلْ يأمنُ الانسانُ مِنْ فَجآتِهِ
وإنْ حَثّ بالبيداءِ خَيْلاً وأينُقَا (1)

فالشريف يطلب من صاحبيه أن يعدّا له ناقة عظيمة قويّة ، طويلة الساقين وسريعة حتّى تحقّق الغرض الذي يجول بخاطره ، وهو الفرار من الموت اذا ما حان حينه ، فهو يتمنّى معرفة موعده ليتمكّن من اتقائه والافلات من قبضته ، فمناسبة الرثاء التي نظم فيها قصيدته لم تحل بينه وبين ابداء خواطره في رسم طريق الفرار من الموت . ونشدان الخلود مشكلة الانسان الكبرى ، فإذا كان الرثاء من أهم الأبواب التي يلجها الشاعر للتفكير في المصير ، فإنّ فكرة الموت التي كانت تلح على الشريف هي التي أدّت به الى البحث عن كنهها بالتأمّل في الكون علّه يجد حلاً لذلك المشكل الذي طالما أعياه وأعيا غيره من قبله ، فلم يسلم من تأمله ذاك حتّى المدح (خفيف)

كلُّ حيٍّ يغالطُ العيشَ بالدّهـ
ـرِ وكلٌّ تعدُو عليهِ العَوادِي

---

1) الديوان 72/2 .

لَـوْ رَجَعْنَـا الـى العقـول يقينـاً
لرأينَا العماتَ فـي الميـلادِ (1)

فالتفكيـر الواقعـي يوصّـل الـى نتيجـة مفادهـا مسيـرة الانسـان الـى نهايتـه التـي تبـدأ بيـوم مولـده ، فالميـلاد - فـي سنّـة الكـون - هـو بدايـة النهايـة ، لذلـك فـإنّ تقسيـم الانسـان للزمـن مـا هـو الاّ تشبّـث بوهـم اسمـه الحيـاة (رمـل)

لا تَعُـدَّ العَيْـشَ شيئـاً إنّـهُ
نَفَـسٌ يَقْضِـي، وأيّـامٌ تُعَـدْ
إنّمـا الأيّـامُ يـومٌ واحـدٌ
وغـرورٌ اسمُـهُ اليـوم وَغَـدْ (2)

فالحيـاة التـي سمّاهـا الرضـي (العيـش) ليسـت بـذات قيمـة ، فتوهمنـا بالعيـش فـي أيامهـا المتتاليـة ، وتقسيمنـا إيّاهـا الـى أزمنـة متعاقبـة ، لا يغيّـر مـن كونهـا زمنـاً واحـداً نعيـش وهمـه حتّـى النهايـة ، لـذا فـإنّ مـا فـوق الثـرى ومـا تحتـه سيـان فـي نظـر الرضـي (وافـر)

سَـوَاءٌ مَـنْ أقَـلّ التُّـرْبُ مِنّـا
وَمَـنْ وَارَى مَعَالِمَـهُ التُّـرَابُ (3)

ومـا نـدب الميّـت والبكـاء عليـه - فـي حقيقتـه - الاّ بكـاء علـى النفـس (طويـل)

ويجـري علـى مـنْ مـاتَ دَمعِـي وَمالَـهُ
بكيـتُ ولكنّـي بكيـتُ على نفسي (4)

فـلا خلـود علـى الاطـلاق ، فكـلّ جديـد يبلـى سـوى تعاقـب الليـل والنهـار (وافـر)

---

1 ، 2 ، 3 ، 4) الديوان 1/299 ، 274 ، 126 ، 560 .

وَلِلإنْسانِ مِنْ هَذِي اللّيالِي
وَهُوبٌ لا يَدُومُ وَمُسْتَرِدّ
تُجدِّدُنَا ملابِسَهَا ، فَيَبْقَى
جَدِيداهَا ، وَيَبْلَى المُسْتَجِدّ (1)

فنظرة الشريف للموت وإنْ غلّفتها هالة شفافة من الفلسفة، فهي أقرب الى التأمّل الوعظي منها الى النظرة العاورائية وسبب ذلك تغلّب العاطفة الدينيّة وتمكنها من نفسه كما في قوله : (طويل)

فليسَ القنَا فيمَا أصابَ بشُرّعٍ
وَليسَ الظُّبى فيمَا ألَمّ بقُطّعِ
ولا مَانِعٌ مِمّا رَمَى اللّهُ سهمه
دِفَاعَ المُحامي وَادّرَاعَ المُدَرّعِ (2)

فليس في مقدور الانسان أن يموت متى شاء ، كما ليس في مقدور الرماح المشرّعة اصابة أهدافها ، ولا في مقدور السيوف القواطع أن تقطع إنْ لم يشأ اللّه ذلك ، فقدرته جلّ شأنه لا يستطاع مقاومتها ، وكأنّ الشريف وهو يستوحي معنى البيتين يتمثّل قوله تعالى " وما رميتَ إذْ رميتَ ولكنّ اللّهَ رَمَى " (3) . فالنظرة العاورائيّة في رثاء الشريف لا تعدو استحضار صور الموتى تحت الثّرى ، وهي الى التخيّل أقرب منها الى التأمّل الفلسفي ، يقول في وصف الموتى : (طويل)

---

1) الديوان 1/ 367 .
2) الديوان 1/ 640 .
3) الانفال 17 .

مُجَاوِرُ قَومٍ أُنزِلُوا دَارَ غُربَةٍ
إذا ظَعَنُوا لا يُظعِنُونَ المُشَيَّعَا
وَلا يَستَجِدُّونَ اللِّبَاسَ مِنَ البِلَى
وَلا يَعمُرُونَ المنزِلَ المُتَضَعضِعَا
بَطِيئُونَ عَنْ داعي اللِّقَاءِ تخالُهم
إذا ما دُعُوا يومًا مُرِمِّينَ هُجَّعَا (1)

فنفسه الحزينة ، وخصوبة خياله أوحتا له بالغوص الى ما تحت الثرى في محاولة لاشباع رغبة الفضول في الكشف عن المجهول ، ولكنّه كشف لا يتعدّى التخيّل الذي لا يسلّط الفكر على الفيزيات المستندة الى فلسفة معينة ، فالموت من وجهة نظره جمود في عالم يخلّد الانسان فيه الى السكون كما في قوله : (كامل)

ضَرَبُوا بِمدرَجَةِ الفَنَاءِ قِبَابَهُمْ
مِنْ غَيرِ أَطنَابٍ وَلا أَوتَادِ
رَكْبٌ أَنَاخُوا لا يُرَجَّى مِنْهُمُ
قَصْدٌ لإتْهَامٍ وَلا إنْجَادِ (2)

تلك اذا تصوراته للانسان بعد الموت ، واقامته في طريق الفناء ، دونما حاجة الى أخبية أو أقبية أو خيام ،فلقد توقفت بهم الحياة ، وسكن من تحتهم كلّ شيء ، ولكن الى فترة ما ، فالموت مرحلة انتقاليّة يليها البعث والحساب أو ما سمّاه الشريف بيوم المعاد في قوله : (كامل)

وَمُسنَّدِينَ عَلى الجُنُوبِ كأنّهُمْ
شَرْبٌ تَخَاذَلَ بالطّلا أعضَاؤُهُ
تَحتَ الصَّعِيدِ لَغَيْرِ إشفَاقٍ الى
يَومِ المَعَادِ تَضُمّهُمْ أحشَاؤُهُ (3)

---

1 ، 2 ، 3) الديوان 1/ 638 ، 382 ، 33 .

فبساطة التأمّل ، ورقّة الاحساس ، وصدق الايمان ، وخصوبة الخيال ، كلّ ذلك جعل نظرة الشريف الرضي الى الموت بعيدة عن التأمّل الفلسفي المعقد ، المخلل بالايمان ، فلم يحاول في شعره استبطان ما وراء الموت، أمّا السر في كثرة ذكره للموت فلا يعود الى حالة تشاؤمية كان يعيشها أو يعاني منها ، انما هو محاولة تنفيس عن أحزان لازمته منذ طفولته بسبب ما فعلته الأيّام بجداده من آل البيت ، وما نال أباه من سجن ومصادرة وهوان ، وما لازمه من اخفاق في حياته الاجتماعيّة ، الاّ أنّ ذلك الحزن لم يصل به الى الانطواء والتشاؤم ، لأنّ هناك فرقا بين ما يولّده الحزن العادي من شعر ، وما يولده الحزن المزوج بالتشاؤم من شعر ، فالحزن البسيط العادي هو ما يصطبغ بالتأوهات والدموع لكونه محاولة لمغالبة الألم والانفلات من ربقة السوداويّة ، على أساس أنّه عمليّة تنفيس كما نلاحظ في معظم قصائد الرثاء التي يحاول الشريف ضمنها مغالبة الموت ومحاربته وتمنّي شن الجيوش عليه كما في قوله : (كامل)

لو كانَ يُدفعُ ذا الحِمامِ بقوّةٍ
لتكدستْ عُصَبٌ وراءَ لوائي (1)

ومحاولة مغالبة الموت والانتصار عليه دليل على التفاؤل وحب الحياة والاندماج في الجماعة ، أمّا حزن التشاؤم فيؤدّي الى الانطواء والبعد عن الجماعة كما هو عند المعرّي في قوله : (طويل)

---

1) الديوان 1/26 .

بنـــو الوقـتِ إنْ غـرّوكَ مِنهُـم بحِكمـةٍ
فَمَـا خَلْفَهَـا إلاّ غَرائِـرُ جُهّـالِ
لِـذَاكَ سَجَنْـتُ النّفْـسَ حتّـى أرحتُهـا
مـن الأنـسِ مـا إخـلاءُ رَبْعٍ بإخلَالِ (1)

ويختلـف الشريـف الرضـي فـي رثائـه وحزنـه عـن المعـرّي لأنّـه لـم يهـرب بنفسـه قـط، فكثـرة رثائـه دليـل علـى مشاركتـه فـي حيـاة المجتمـع واتصالـه بالأسـر والأشخـاص ، خلافـا للمعـرّي الـذي يقـلّ رثـاؤه ، حتّـى ليكـاد يقصـر معظمـه - رغـم قلتـه - علـى أبيـه وأمّـه وبعـض أهلـه (2) ، وذلـك بسبـب اعتزالـه النّـاس والبعـد عنهـم ، ومـا كثـرة الرثـاء فـي حـدّ ذاتـه الاّ تأكيـد لاستمراريّـة الحيـاة .

1- تفجّـع الشريـف الرضـي فـي رثـاء الأهـل والأقـارب :

باستثنـاء قصائـده فـي رثـاء الامـام الحسيـن ، فقـد رثـى الرضـي قرابتـه وأهـل بيتـه باثنتـي عشـرة قصيـدة ومقطوعـة حـوت خمسمئـة وثمانيـة وسبعيـن بيتـا ، أي مـا يعـادل 20،10 % مـن مجمـوع رثائـه ، وقـد ورد ضمـن ذلـك الرثـاء قصيـدة فـي رثـاء أمّـه وثانيـة فـي رثـاء أبيـه ، ويمكـن اعتبـار رثائـه فـي أهلـه وأقاربـه جـزءاً مـن رثائـه الشيعـي لمـا فـي ذلـك مـن أواصـر قربـى بيـن الرثائيـن ، لـذا فـإنّ حـرارة التفجّـع

---

1) المعـرّي - سقـط الزنـد 2/ 237 .
2) راجـع - محمـد اليعـلاوي - أبـو العـلاء المعـرّي شاعـرا مـن ص 50 حتّـى 58 مـن حوليـات الجامعـة التونسيّـة - فصلـة العـدد 21 ، فقـد فصّـل القـول فـي الرثـاء عنـد أبـي العـلاء المعـرّي .

فيه لا تقلّ في معظم الأحيان عن تفجّعه في رثاء الحسين وآل بيته .

ففي رثائه لأمّه ((السيدة فاطمة بنت الناصر)) نشعر بتدفّق عاطفي ملتهب سببه ما خلفه فقدها من حزن زعزع كيانه (كامل)

أبكيكِ لو نقعَ الغليلُ بُكائِي
وأقولُ لوْ ذهبَ المقالُ بدائِي (1)

فالبكاء على الفقيدة لن يخمد نيران الأحزان المتأجّجة في أحشائه ولن يزيل ما بنفسه من ألم ، فلا ذرف الدموع مجد في استعادة ما فقد ، ولا الصبر على فداحة الخطب يسعف بعزاء (كامل)

وألوذُ بالصّبرِ الجميلِ تعزّيًا
لوْ كانَ بالصّبرِ الجميلِ عزائِي (2)

على أنّ تفجعه في رثاء أفراد أسرته يعتمد أساسا على مكانة المرثيّ في الأسرة ، ودوره الفعّال فيها ، اضافة الى قوّة الرابطة بينه وبين الشاعر ، وهذا يعني أنّ الرضي في حالة رثائه لأفراد أسرته يضع في اعتباره عدّة عوامل من أهمها النسب ، وأثر الفقيد في الأسرة وفي المجتمع ، لذا فإنّ الرثاء الأسري عنده يتدرّج تدرجه الطبيعي من حيث النظرة الأسريّة ، فكلّما كانت قرابته بالمرثي ألصق كلّما كان تفجّعه عليه أقوى ، فقوة ارتباطه بأمّه ، ودورها داخل محيط أسرتها لا يمكّنه نسيانه ، لما لها من ايياد

---

1 ، 2) الديوان 1/26 .

حميدة على جميع أفراد أسرته عامّة وعليه هو بوجه الخصوص وفي هذا يقول : (كامل)

كَيْفَ السّلُوّ وكُلّ مَوْضِعِ لحظة
أثرٌ لفضلِكِ خالِدٌ بإزائي
فَعَلاتُ معروفٍ تُقِرّ نَواظِري
فتكونُ أجلب جالبا لبكائي (1)

فتحسّر الشريف على الفقيدة يكمن في وقوع ناظريه على كلّ أفضالها التي تحيط به في كلّ مكان ، ولا تغيب عنه لحظة ، فإنّ تذكّر جليل فعالها ، أثار ذلك لواعج أحزانه وأجرى دموعه ، وان شاهد خلو مكانها ، استحال جميل صنعها الى مصدر حزن وتوجّع كما في قوله : (كامل)

فَبِأيّ كفٍّ أستجِنّ وأتّقي
صَرْفَ النّوائبِ أمْ بِأيّ دُعَاءِ
وَمَنِ المُمَتّلُ لِي إذا ضاقَتْ يَدي
وَمَنِ المُعلّلُ لي مِنَ الأدواءِ
وَمَنِ الّذي إنْ سَاوَرتْنِي نَكْبَةٌ
كانَ المُوَقّي لِيْ الأسْوَاءِ
أمْ مَنْ يُلِطّ عليّ سِتْرَ دُعائه
حَرَمًا مِنَ البَأسَاءِ والضّرّاءِ (2)

إذ يلعب الاستفهام دورا في استعراض الشاعر لذكريات علاقته بالفقيدة منذ طفولته ، فعلاوة على حدبها عليه وسهرها على تربيته ، فقد كانت اليد الواقية له من صروف الدهر ونوائب الأيّام ، وفي هذا الصدد لا ينسى ما لدعواتها

---

1) الديوان 1/ 27 .

2) الديوان 1/ 28 .

الصالحة من أثر سحري في صدّ كلّ شرّ عنه، علاوة على بذلها المال عليه بسخاء حين فقدت الأسرة راعيها حين سجن وصودرت أمواله ، فهي الوفاء الذي كان يحتمي به من كلّ نكبة من نكبات عصره ، ممّا يحيل تحسره الى تشنجات مستمرة ، وموجات متتابعة من الحرقة والبكاء ، فيحول كلّ ذلك بينه وبين النسيان ، فالأمر بالتصبر على تلك الرزيّة ما هو الاّ ضرب من الاثارة التي تجدد الأحزان وتزيد من لظاها (كامل)

كم آمرٍ لي بالتصبّرِ هاجَ لي
داءً، وقدّر أنّ ذاكَ دَوائي (1)

وتمنّي المستحيل في مجال الرثاء دلالة على عظم الرزيّة والحاحها في الأعماق (كامل)

ما كنتُ أذّخرُ في فداكِ رغيبةً
لو كانَ يرجِعُ ميّتٌ بفداءِ (2)

فتمنّي دفع الموت عمّن فقد من الأحبّة ضرب من المستحيل ، والشريف يدرك ذلك ، ولكن امتلاء نفسه بالأسى ، ووحشة مكان الفقيدة ، أوحيا اليه بتلك الأمنية التي يحاول بها تبرير عجزه عن منع مشكل الموت ، وهو دليل على ضعف الانسان وانهزاميته ازاء الموت .

وتفجّع الشريف الرضي على أمّه ، لم يخرج عن النطاق الأسري وسبب ذلك ، تقاليد مجتمعه المحافظ الذي يحتّم عليه أن يقف من رثاء المرأة عند حدود تلزمه حتّى بعدم

1، 2) الديوان 1/ 28، 26 .

ذكر اسمها ، لذا فإنّه في مجال تأبينها اقتصر على صفات الزهد والعفّة ومتانة الايمان كما في قوله: (كامل)

أنْضَيتِ عَيشَكِ عِفّةً وَزَهَادَةً
وَطُرِحْتِ مُثْقلةً مِنَ الأعْبَاءِ
بصيامِ يومِ القيظِ تَلْهَبُ شَمْسُهُ
وَقِيَامِ طَولِ اللّيلةِ اللّيلاءِ(1)

فالعفّة والزهد والصيام في اليوم الحار ومواصلة الصلاة ليلا ونهارا احتسابا في جنب الله هو كلّ ما يستطيع الشاعر الاشارة به عن الفقيدة ، أمّا التفجّع على أمّه اجتماعيّا فلا يكون إلاّ من خلال آبائها وأجدادها ، فزهدها وعمق ايمانها لم يأتيا من فراغ لأنّها ورثتهما عن آباء عظام (كامل)

آباؤكِ الغُرّ الّذينَ تفجّرتْ
بِهِمِ يَنابيعٌ مِنَ النّعماءِ
مِنْ نَاصِرٍ للحقّ أوْ داعٍ الى
سُبُلِ الهُدى أوْ كاشِفِ الغمّاءِ
نَزَلُوا بِعِرْعَرَةِ السّنامِ مِنَ العُلَى
وعلُوا على الأثباجِ والأمطَاءِ(2)

وذكر نسب أمّه في رثائها أنّه يعني المجد الذي كانت تلك الأم تمثّل بقاءه وديمومته ، مع ملاحظة الربط بين صفات الأم التعبدية وبين ما بذله آباؤها وأجدادها من

---

1) الديوان 27/1

2) الديوان 28/1

جهود في سبيل نشر الاسلام وتوطيد دعائمه في جبال الديلم (1) ، وعنصر النسب - كما لاحظنا من خلال دراستنا لحياته ، ومن خلال رثائه لآل البيت - من أهم عناصر التفجّع في شعره ، فهو الوتر الذي ما انفكّ يعزف عليه في تلهفه وتحسّره كلّما أثارت فاجعة الموت أحزانه بفقد فرد من أسرته ، فالأسى على فرد منهم يثير أشجانه على جميع من فقدهم ، من ذلك قوله ضمن رثاء أمّه : (كامل)

لهفي على القَوْمِ الأولىٰ غادَرْتُهُمْ
وَعَلَيْهِمُ طَبَقٌ مِنَ البَيْداءِ
مُتوسّدِينَ عَلى الخدودِ كأنّمَا
كَرَعُوا على ظمإٍ مِنَ الصّهباءِ
صُوَرٌ ضننتَ على العُيُونِ بِلَحْظِهَا
أمسيتَ أوْقِرُهَا مِنَ البُؤْسَاءِ (2)

فمناسبة الرثاء الفرديّة قادته الى التحسّر والتلهّف على جميع من ماتوا من أسرته فغادرهم في صمتهم الأبدي ، وقد عبث التراب بوجوه كان يخشى عليها من كلّ أذى ، فجعله ذلك يقف من مفارقات الحياة في حيرة ، فلم تعد روحه مستقرّة على حال بتنقلها بين تفجّع على الأم وبين رثاء قومه وعشيرته ، والعودة الى البكاء والنواح على الأم بتذكره الروابط الروحيّة التي تشدّه اليها ، ويعني ذلك استمرارية حزنه ما بقي حيّا (كامل)

---

1) حول موضوع ما بذله أجداد فاطمة بنت الناصر لنشر الاسلام في بلاد الديلم راجع " ظهور الاطروش بطبرستان " - المسعودي - مروج الذهب 4/373 .

2) الديوان 1/29

كـانَ ارتِكاظِـي فـي حَشـاكِ مُسَبِّبًا
رَكـضَ الغَليـلِ عَلَيْـكِ فـي أحشائي (1)

فبغـضّ النظـر عـن كـلّ مـا قدّمتـه تلـك الأمّ مـن أعمال عظيمـة تكفـي لأن تكـون المتسببـة فـي استمراريـة أحزانـه، فعطشـه المستديـم لا يمكـن أن ينطفـئ أو يسكـن لظـاه .

ويختلـف تفجّـع الشريـف الرضـي علـى فقـد أبيـه عـن تفجعـه علـى فقـد أمّـه مـن حيـث التنـاول ، فاندفاعـه فـي الحـزن علـى أمّـه وتفجّـر دموعـه عليهـا ، عـاد هادئـا متعقـلا فـي رثائـه لأبيـه ، فبكـاؤه علـى فقـد الأب مكبـوت (كامـل)

وَسمتـكَ حاليَـةُ الرّبيـعِ المُرْهِـمِ
وَسَقَتْـكَ ساقيَةُ الغَمـامِ المُـرْزِمِ
وَغَدَتْ عَلَيْـكَ مِنَ الحَيَـا بِمُـوَدّعٍ
لا عَنْ قِلـىً ، وَمِنَ النّدى بِمُسَلّـمِ
قَـدْ كُنْـتُ أعـذُلُ قَبْلَ مَوْتِكَ مَنْ بَكَى
فَاليَـوْمَ لـي عَجَـبٌ مِـنَ المُتَبَسّـمِ
وأذُودُ دَمعِـي أن يَبُـلّ محاجِـرِي
فَاليَـوْمَ أُعلِمُـهُ بِمَـا لَـمْ يُعْلَـمِ (2)

فالتفجّـع عميـق ولكنّـه مكبـوح ، فالدعـاء بالسقيـا فـي انسيابـه الهـادئ يوحـي باكفهـرار الطبيعـة وسكـوت كـلّ شـيء فيهـا ، والدمـوع المتتابعـة فـي هـدوء تعطـي للحـزن أبعـاده ولكـن فـي تعقـل متسـم بحرقـة الفقـد المخنوقـة والدلالـة علـى ذلـك المفارقـة فـي نظـر الشاعـر بيـن الابتسـام والبكـاء ومحاولـة حبـس الدمـوع ومعـاودة اطلاقهـا ، اذ ليـس فـي مقـدور الشاعـر فـي

---

1) الديـوان 30/1

2) الديـوان 290/2 والمرهـم : المخصـب، المرزم : الرعد الشديد صوتـه .

مثل هذا الموقف المفجع أن يحول دون عينه والبكاء ، وهذا من العناصر المتفقة في رثاء كل من الأب والأم ، فلا تختلفان الاّ بذكر اسم الأب ضمن رثائه (كامل)

إنّ ابنَ مُوسى والبقاءُ السى مدىً
أعطَى القيادَ بمارنٍ لَمْ يُخْطَمِ
وَمَضَى رحيضَ الثّوبِ غيرَ مُدَنّسٍ
وقَضَى نقيَّ العُودِ غَيرَ مُوَصّمِ
وَحَمَاهُ أبيضُ عِرْضِهِ وَثَنَائِهِ
ضَمَّ اليدينِ الى بياضِ الدّرْهَمِ(1)

فابن موسى - وهو أبو الشاعر - قد مضى الى سبيله أبيّ النفس طاهر الثّوب نقيّ السريرة ، زاهدا في الدنيا ، فأصالة عنصره وطيب محتده أبيا عليه النجل ، وكما نلاحظ أنّ الطهارة ونقاء الثّوب تعادل العفاف والزهد عند الأم والرضي في عرضه لتلك الصفات الحميدة في رثائه انما يقصد اظهار التحسّر على الخصال الحميدة التي اندثرت بفقد مرثيّه .

واذا كان الرضي قد ذكر في رثائه لأمّه مآثر آبائها وعراقة أنسابهم فانّه في مجال تفجعه على أبيه بذكر انتمائه في أصوله الى النبي (ص) (كامل)

إنّ الخطوبَ الطارقاتِ فَجَعْنَنَا
بِحِمَى الأبيّ وَجُنّةِ المُسْتَلْئِمِ

---

1) الديوان 2/ 290 والمارن : مالان من الانف = ويقصد الشاعر أنّ أباه مات وهو على الرأس . لم يمرغ أنفه .
والرحض : المغسول .

بِمُمَهَّلٍ في الغابرينَ مُؤخَّرٍ
وَمُحفَّزٍ في السّابقينَ مُقَدَّمِ
الطّاهِرِ ابنِ الطاهِرِينَ وَمَنْ يَكُنْ
لأبٍ إلى جِذمِ النُّبُوةِ يَعْظُمِ (1)

ففداحة الخطب وعظم الرزية مردهما موت ذلك الأب الذي كان بمثابة الملاذ والحصن الذي يلجأ اليه في الضائقات، وهو بقية عظام الرجال والمقدم في الأمور المستعصية التي تحتاج في فكّ عقدها الى الحنكة وعمق التجربة وسداد الرأي المنتمي في أرومته الى النبي (ص) .

ومن الملاحظ في رثائه لكلّ من أبيه وأمّه ، أنّه حين يذكر مآثر آباء أمّه وأجدادها فإنّه يتحسّر على تلك الأمجاد والمآثر متمثلة في أولئك الآباء والأجداد ، أمّا التحسّر على أمّه فلا يتعدّى النطاق الأسرى .

أمّا في تفجعه على مآثر أجداد أبيه ، فإنّ المعاني تتجه مباشرة الى الأب ، لأنّه يعتبر أمجاد أبيه امتدادا لمآثر الأجداد ، فهو يركّز في حزنه وشدّة أساه على أبيه على ما تركه من آثار حميدة في مجتمعه ، فهو المحتمل لعظام الأمور ، المتكفّل في تسديد المغارم ، السالك في أعماله السبل الواضحة (كامل)

حملَ العظائمَ والمغارمَ ناهضًا
وَمَضَى عَلَى وضحِ الطّريقِ الأقْوَمِ (2)

---

1 ، 2) الديوان 2/294 ، 292

وهو الذي كان يعوّل عليه في تفريج الكروب والتصدّى للخطوب (كامل)

عَمْري لقَدْ قَذَفُوا الكُرُوبَ بِفارجٍ
مِنْهُ وقد رَجَمُوا الخُطُوبَ بِمُرْجِمِ(1)

وهو من كان يعوّل الملوك عليه في حل العقد المستعصية لِمَا كان يتسم به من رجاحة عقل وبُعد نظر في تقليب الأمور (كامل)

رقَدَ المُلُوكُ بِحِزْمِ أبلَجَ رأيُهُ
فَلَقٌ لغاشِيَةِ العُقُولِ النُّوَّمِ
تَنْفَضُّ عنهُ النائباتُ كأنّهَا
وَبَرُ العَوَقَّعِ نَشَّ تَحْتَ المَيْسِمِ(2)

وتغجّع الشريف الرضي على أبيه يختلف أيضا في طبيعته عن تفجّعه على أمّه من حيث متانة التعبير، فالعبارة في رثاء الأم وتفجعه عليها سهلة الألفاظ، رقيقة تتناسب ورقّة طبع المرأة، فقوله : (كامل)

معْرُوفُكِ السامي أنيسُكِ كلّمَا
وَرَدَ الظّلامُ بِوَحشَةِ الغَبْرَاءِ
وَضِيَاءُ مَا قدّمتِهِ مِنْ صَالحٍ
لكِ فِي الدُّجَى بَدَلٌ مِنَ الأضواءِ(3)

يميل الى السهولة والرقّة من (عطف، وسمو، وضياء، وصلاح) مع خلوّه تماما من الغريب الذي يحتاج في تفسيره الى المعاجم .

1، 2) الديوان 2/ 293، الموقع : البعير الذى أثر الوبر في ظهره.
3) الديوان 1/ 30 .

أمّا تفجعه على أبيه فقد حشد له جميع طاقاته اللغويّة ، وتفنّن في جلب الألفاظ بما يتناسب ومواقف الرجولة التي تصطرع بداخله (كامل)

عيصٌ ألَفٌّ تَقَابَلَتْ شُعَبَاتُهُ
في المَجْدِ ، شَجْرَ مُقَوَّمٍ لِمُقَوِّمِ
يَتَعَاوَرُونَ المَكْرُمَاتِ وِلادةً
مِنْ بَينِ جدٍّ في المكارِمِ وابنِمِ (1)

فالألفاظ قويّة ومنتقاة لتتناسب وعراقة نسب المرثي وما له من مكانة سامقة في مجتمعه كـ (عيص ، ومجد ، يتعاورون ، مقوم ، ابنم) .

ومرثيته في أمّه تعبّر عن موقف ذاتي خاص بأساه وحزنه داخل حدود الأسرة فقوله : (كامل)

لَوْ كَان مِثْلَكِ كُلُّ أُمٍّ بَرَّةٍ
غَنِيَ البَنُونَ بِهَا عَنِ الآبَاءِ (2)

هو تصوّر لعلاقة عاطفيّة خاصّة محددة بالسياج الأسري الذي لا يخرج في طبيعته عن ارتباط أمّ رؤوم بأبنائها .

أمّا فقد أبيه فقد أحدث ثلما في العلاقات التي تربطه بمجتمعه ، فاستحال ذلك الحدث الى تصدّع في الجدار الذي كان الشاعر يحتمي به من الأعداء ، فاذا

---

1) الديوان 2/ 294 ، والعيص = منبت خيار الشجر ، شجر مقوّم لمقوّم = ربط مقوّم بمقوّم ، يتعاورون = يتداولون .

2) الديوان 1/ 27 .

كانت الأم ستراً (1) بالنسبة اليه ، فإنّ الأب بمثابة الحصن الذى يلوذ به اتقاء الأعداء (كامل)

أعريتَ ظهري للعِدا ، ولو اتّقى
بِزُهاءِ مُزْدَحِمِ العَدِيدِ عَرَمْرَمِ
وكَشَفْتَ للأيّامِ عورةَ مَقْتَلي
حتّى رَدَدْنَ عليّ بَعْدَكَ أسهُمي
قد كُنتَ ما بيني وبينَ سِهامِها
فاليومَ لا يُخْطِينَ شاكِلَةَ الرّمِي (2)

والهزّة التي أحدثتها وفاة أبيه في نفسه جعلته يعيش حالة من التناقض في الرؤية والتفكير ، خاصّة وأنّ احساسه بوقوع الفاجعة كان متوقعا (كامل)

ومَحُوكةٍ كالدّرْعِ أَحْكَمَ سَرْدَها
صَنَعٌ فأَفْصَحَ في الزّمانِ الأعجَمِ
عَضّلْتُها زَمَنًا لأطلُبَ كُفْؤَها
وَزففتُها لكَ نِعْمَ بَعْلُ الأيّمِ (3)

فالاحساس بوقوع الفاجعة يشير اليه استعداده بنظم قصيدة الرثاء واحكام صنعها ، أمّا التناقض في الرؤية والتفكير فيكمن في محاولة الشاعر التعبير عن احساساته ومشاعره في زمن أعجم لا يفقه ما يقوله ، بالاضافة الى زفاف العروس

---

1) يقول في رثاء أمّه - الديوان 1/28

أم من يلطّ عليّ سترَ دعائه
حرمًا من البأساءِ والضرّاءِ

2) الديوان 2/296 وشاكلة الرمي = خاصرة الذى يرمى بالسهم .

3) الديوان 2/296 .

الى الموت ، وكأنّه في موقفه الذاهل ذاك قد انصرف عن التفكير في الحياة ليلقى بنفسه في أحضان الحزن ، لذلك جعل العروس بكلّ زينتها وجمالها - والتي تعني في مفهوم الشاعر قصيدته - وهي من زاوية أخرى تمثّل الاقبال على الحياة بكلّ مباهجها لا يوجد لها كفؤا الاّ الموت .

وتركيز الشاعر في تحسّره على أبيه بتذكّر مآثره والاشادة بمكانته الاجتماعية صرفاه بعض الشيء عن التفكير فيما أحدثه ألم الفقد في نفسه والمتمثّل في تكراره لضمير المتكلّم العائد عليه ، فقد ورد ذلك الضمير في ثلاثة وعشرين موضعا في قصيدة بلغ عدد أبياتها تسعة وثمانين بيتا ، أي أنّ استخدامه لضمير المتكلّم نقص بمعدل الثلثين عنه في مرثيته في أمّه ، وهذا لا يعني انصرافه عن أبيه والتعلّق بها دونه ، ولكن ما نجده في رثائه لأمّه هو استرجاع التفجّع عليها بأساليب متعددة ممّا أفقد القصيدة ترابطها العضوي فاستحالت الى تأوهات ملتاعة وأنّات ثكلى .

أمّا في رثائه لأبيه فقد تركّز تحسّره على ما فقدته الأسرة ككل من مكانتها في المجتمع بسبب فقد الأب، محتديا في ذلك سبيل السلف في شعر الرثاء وما أجازه نقّاد العصر بشأن ذلك (1) ممّا جعل معظم الضمائر التي

---

1) يقول ابن رشيق في هذا الصدد " سبيل الرثاء يكون ظاهر التفجّع بين الحسرة مخلوطا بالتلهّف والأسف والاستعظام اذا كان ملكا أو رئيسا " العمدة 2/147 ولقد ذكر فيما أورد من أمثلة ما قيل من مآثر المرثي ومكانته في قومه وما خلفه فقده من فراغ بين أولئك القوم ،وهذا ما ندركه أيضا في مرثية الشريف في أبيه وفي غيره من علية القوم .

وردت في مرثية أبيه تتحول للمخاطب والغائب عائدة في أصولها للمرثي كما في قوله : (كامل)

مَلأتْ فضائِلُكَ البِلادَ وَنَقّبَتْ
في الأرضِ يَقذِفُها الخبيرُ الى العَمِي
فكأنّ مجدَكَ بارِقٌ في مُزْنَةٍ
قِبَلَ العُيُونِ ، وغُرّةٌ في أدْهَمِ (1)

أو قد يرد الضمير بدلا من أسماء أولئك الذين يحاولون بلوغ شأو أبيه للوصول الى منزلته كما في قوله متهكما بهم : (كامل)

لم يلحقُوا فيها بشَأوِكِ بَعْدَمَا
أمَلُوا ، فَعَاقَهُمُ اعتراضُ الأزْلَمِ
إلاّ بَقَايَا من غُبَارِكَ أصْبَحَتْ
غُصَصاً وأقْذَاءً لِعَيْنٍ أو فَمِ (2)

وانصراف ضمائر المرثية عن الشاعر الى الغائب بجميع أطرافه سواء أكان المرثي أو من يطلبون عونه ومساعدته أو حتّى أعدائه ومنافسيه ،فإنّه يحيل المرثاه الى تفجّع على خصال المرثي داخل مجتمعه ممّا ينأى بها عن الذاتية التي تقتصر على تفجّع الشاعر وتحسّره ، وهنا يكمن الفرق بين رثائه في الرجال ورثائه في النساء من أفراد أسرته ، اذ يغلب على مرثياته في القريبات من أهله ذاتيته المتمثلة في ضمير المتكلّم الذي يحيل الرثاء الى تفجّع مشحون بالألم والمرارة ازاء المرثية نابع من أنا الشاعر، بينما يكون لضمير الغائب الغلبة في معظم مراثيه في

1، 2) الديوان 2/291 ، 293 .

الرجال من أهله وغير أهله لأنّ طبيعة رثاء الرجل تفرض التحدّث عمّا قام به من أعمال تجاه مجتمعه وما تركه من آثار حميدة على أفراد ذلك المجتمع ممّا يحتّم استخدام ضمير الغائب ممّا يجعلنا نقول تجوزا أنّ رثاء الرجل يميل الى الرثاء الاجتماعي ، أمّا حين تكون المرأة هي المرثية فإنّ حزن الشاعر ينعكس من ذاته حين يحاول التنفيس عمّا يعانيه ازاء الموقف ممّا يغلّب انيته انطلاقا من كون المرأة أرق وأضعف من الرجل ، ومن المتوجّب أن تكون في حماه وتحت رعايته ، وانعكاس أنا الشاعر عليها في عفويّة تامّة ما هو الاّ نوع من الرعاية والحب النابعين من أعماقه من غير قصد ، . أمّا في تفجعه على أقربائه من الرجال فيكون مختلفا ، لأنّ تأثير الفقيد في مجتمعه يكون هو محور الرثاء ، ممّا يغلّب ضمير الغائب مع ملازمة ذاتية الشاعر لذلك الضمير اثباتا لوجوده .

فقصيدته البائيّة في رثاء أخته ومطلعها : (مجتث)

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْ بُكَا
رقٍ يُنِيرُ وَيَخْبُو (1)

بلغت الضمائر العائدة على الشاعر وعلى المرثيّة وعلى آل بيته ، ثلاثة وستين ضميرا هي كالتالي :

- خمسة وعشرون منها تعود على المتكلّم = الشاعر
- واحد وعشرون منها تعود على المخاطب = المرثية
- خمسة عشر منها تعود على جمع الغائب = قوم الشاعر
- اثنان يعودان على جمع المتكلمين = الشاعر وقومه

وغلبة ضمير المتكلّم على القصيدة تعني سيطرة ذاتية الشاعر

---

1) الديوان 159/1 ،والدين = المرض .

على جل أرجائها وهذا ما سنلحظه أيضا في رثائه لأمّه ورثائه لزوجته .

أمّا مرثيته في خاله - وهي بائيّة أيضا - ومطلعها : (طويل)

لنا كُلَّ يومٍ رنّةٌ خَلْفَ ذاهِبٍ
وَمُستَهلَكٍ بين النّوى والنّوادِبِ (1)

فقد بلغت فيها الضمائر العائدة على المرثي وعلى آل بيته بما فيهم الشاعر ، ما يقرب من ثلاثة وثمانين ضميرا هي كالتالي :

- ستّة وعشرون ضميرا منها تعود على جمع المتكلمين ، وقد ورد معظمها ضمن التأمّل في الحياة والموت ممّا لا يتعلّق بالمرثي كما في قوله : (طويل)

وَنأمُلُ مِنْ وَعْدِ المُنى غيرَ صادقٍ
وَنَأمَنُ مِنْ وَعدِ الرّدى غيرَ كاذِبِ (2)

- واحد وعشرون ضميرا تعود على المرثي ، خمسة عشر منها تدلّ على الغائب والستّة الباقية عليه كمخاطب .

- تسعة عشر ضميرا تدلّ على جمع الغائبين ، وقد وردت كلّها في تأبين المتوفّي ضمن عراقة نسبه ومآثر أجداده كما في قوله : (طويل)

مِنَ القَومِ حَلّوا في المكارِمِ وَالعُلى
بِمُلتَفّ أعياصِ الفُروعِ الأطائِبِ (3)

1، 2، 3) الديوان 1/ 146، 148 .

ـ سبعة عشر ضميرا تدلّ على المتكلّم ،وهو الشاعر، وهذه الضمائر تصور وقع الفاجعة على نفسه .

فالضمائر المفردة العائدة على المرثي ضمن القصيدة تزيد على الضمائر العائدة على المتكلّم ـ الشاعر ـ بأربعة ، اضافة الى الضمائر العائدة على جمع الغائبين فهي تعني ضمنا المرثي من خلال عشيرته ، وذلك ما يجعل تأثيره في مجتمعه هو محور الرثاء .

لكن القاعدة تشذّ في تفجعه على عمّه ، فتكاد أنا الشاعر تنتشر في جميع أرجاء القصيدة ببلوغ ضمائر المفرد المتكلم ما يقرب من الواحد والعشرين ، بينما لم تزد الضمائر العائدة على المرثي عن الثلاثة عشر ضميرا ، في قصيدة عدد أبياتها واحد وأربعون بيتا ، بمعنى أنّ الشاعر لم يبلغ في تأبين عمّه ما بلغه في تأبين أبيه ، ولم يلتفت الى المزايا والخصال المشتركة بين الأخوين ، ولا يرجع ذلك الى قصور في معرفته بتاريخ أسرته ، لذا يرجح ارجاع قصور رثائه في عمّه عن رثائه في أبيه وخاله لسببين .

الأول ـ أنّ علاقة الشاعر بعمّه لم تكن قويّة بحيث يتولّد عنها نوع من الانسجام والتألّف ، لابتعاد ذلك العم عن الأسرة ، بعكس علاقته بخاله ، فبينما نجد في الديوان تهان ومدحاً في خاله (1) فإنّنا لا نجد شيئا من ذلك في عمّه ، الاّ في قصيدة واحدة مدح فيها أباه وعمّه (2) بعد اطلاق سراحهما اثر وفاة عضد الدولة البويهي . وبطبيعة الحال فإنّ ضعف العلاقة وقلّة الاحتكاك تخمد من جذوة التعاطف الوجداني أهم عنصر في الشعر الغنائي .

---

1) للتحقق من متانة علاقته بخاله راجع الديوان 1/ 98 ، 461 ، 2/ 534.

2) وردت تلك القصيدة في الديوان 1/ 338 .

الثاني - أنها أول مرثية في أحد أفراد أسرته، وذلك اذا ما اعتبرنا أنّ أقدم مرثية في الديوان هي التي قالها في أستاذه أبي علي الفارسي (ت 377) وهي مكونة من أربعة عشر بيتا مطلعها : (رجز)

أَبَا عَلِيٍّ لِلأَلَدِّ إِنْ سَطَا
وَلِلخُصُومِ إِنْ أَطَالُوا اللَّفَطَا (1)

وتلك المرثية لا تعدو أن تكون وصفا لقوة ملكة المرثي وتمكّنه من اللغة والنحو، مع خلوها تماما من حرارة الحزن لانشغال الشاعر باستجلاب الغريب المتناسب - حسب اعتقاده - ومكانة المرثي العلميّة واللغويّة. أمّا المرثيّة الثانية في الديوان فهي في شرف الدولة البويهي (ت 379) (2). وتأتي مرثيته في عمّه (ت 381) (3) في مرتبة ثالثة من حيث الترتيب التاريخي بالنسبة لمراثيه عامّة، والأولى بالنسبة لمراثيه في أسرته، وذلك يعني أنّ تجربته في مجال الرثاء لم تنضج بعد، فالشاعر لم يتخط مرحلة التقليد، وهذا ما سنلحظه على ما تضمنته تلك المرثيّة من معان، فلقد نظمها الرضي متأثّرا بابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط، فحاول تقليدها معنى ومبنى، الاّ أنّه لم يتمكّن من بلوغ شأو ابن الرومي من

---

1) الديوان 1/588.

2) وردت القصيدة في الديوان 2/413 كما عرضنا لمناقشة بعض أبياتها في ص 601 وما بعدها من هذا البحث.

3) وردت المرثيّة في الديوان 1/377 وللتحقّق من ترتيبها التاريخي ضمن مراثي الشريف راجع جدولة الديوان الملحقة بهذا البحث.

حيث صدق العاطفة ، فابن الرومي يرثي فلذة كبده ، أمّا الشريف فيرثي عمّه وشتّان بين الموقفين ، فهو ينقل عنه (طويل)

سَلا ظاهرَ الأنفاسِ عن باطنِ الوَجدِ
فإنّ الذي أُخفي نَظيرُ الذي أُبْدِي (1) :

وهو مسلوخ من قول ابن الرومي : (طويل)

الامُ لِمَا أُبْدي عليكَ مِنَ الأسَى
وإنّي لأُخفِي منك أَضْعافَ ما أُبْدِي (2)

فما يخفيه الشريف بين جنبيه من ألم ، معادل لما يبديه من تحسّر ، أمّا ما يكتمه ابن الرومي من برح وأسى فهو أضعاف ما يظهره ، لذلك فإنّ اتسام مرثيّة الشريف في عمّه بالذاتيّة الخالصة سببه تأثّره بابن الرومي في استلهام المعاني التي تصف مشاعر أب فقد ابنه ، وطبيعي أن تتغلّب ذاتيّة الشاعر لأنّه في رثائه لابنه انما يرثي بضعة من نفسه ، وأنّ الذي يعايش الألم ويكتوى بناره أدرى به ممن ينظر اليه من خارجه .

ويستخدم الرضي الغريب من الألفاظ والصور بكثرة في معظم مراثيه التي يخصّ بها نساء أسرته ، فإذا ما استثنينا رثاءه في والدته فسنلحظ ذلك في تفجعه على أخته ، وفي تعزية أخيه المرتضى في بنت له ، وفي تحسّره وجزعه على وفاة زوجته .

---

1) الديوان 1/ 377 .

2) ابن الرومي - ديوانه 2/ 626 .

ففي رثاء أخته يستهلّ بمقدمة تبلغ أربعة عشر بيتا يغلب على ألفاظها الغريب في وصف البرق وشدّة لمعانه ثم يلي تلك المقدمة سبعة وعشرون بيتا مليئة بالأسى على فقد أخته فيقول : (مجتث)

شقيقتي إنّ خَطْباً ... عَدا عليكِ لَخطْبُ
وإنّ رُزءاً رَمانِي ... بالبعد عَنْكِ لَصَعْبُ
سَهْمٌ أصابَكِ مِنْهُ ... للقَدْرِ فَوْقَ وغَرْبُ
لا النّصلُ مِنهُ بنَابٍ ... يوماً ولا الرّيشُ لَغْبُ
يَبيتُ بَعْدَكِ في مَضّ ... جَمِي الجَوَى وَالكَرْبُ
كَمَا يبيتُ رميضٌ ... بَعْدَ السّنَامِ الأجَبُّ
أنّى عَلى قَضَمِ الهَمّ ... يَطْمَئِنّ الجَنْبُ (1)

فكأنّ الشاعر ينتزع القافية انتزاعا ، ولعلّ جنوح نفسه الى استخدام بحر (المجتث) - وهو من البحور النادرة الاستعمال - (2) ليس الاّ تعبيرا عن المعاضلة التي كان يعانيها أثناء عملية الابداع ، اذ نظنّ أنّه يشعر في قرارة نفسه بتوهج الموقف ، ولكنّ العرف الاجتماعي يضع في طريقه الحواجز ، ويكبل شاعريته ، فيتولّد عن ذلك انصرافه عن رثاء أخته مباشرة ، ليعكس أثر الفقد على نفسه من الداخل ، ممّا يجعل الرثاء لا يتعدّى في مضامينه حالة التحسّر الملتاعة التي يعاني منها بسبب فقد شقيقته . ولمّا كان لا يستطيع كسر الحصار الذي يعيشه لعدم قدرته على أن يتعدّى تقاليد مجتمعه ، في جعل الرثاء هو

---

1) الديوان 1/162 .

2) يقول ابراهيم أنيس - موسيقى الشعر ص 115 " ظلّت نسبة شيوع هذا البحر في الأشعار القديمة ظئيلة " .

المحور الأساسي (1) ، فانّه ينجر لا شعوريّا الى الغريب ليغلف ما يعتمل في نفسه بالضبابية المصطنعة بالتحويم حول المعاني ، حين يدرك بأنّه لا يستطيع أن يعبّر من خلالها بأكثر من ذلك ، وفي هذه الحالة يمكن ادراك جزع الشاعر وتفجعه على أخته ، ليس من خلال دورها الأسري ، ولكن من وضع نفسه بمثابة المفعول للحزن في الكثير من أبيات القصيدة كما في قوله " رزءا رمانى بالبعد عنك " اضافة الى استخدامه الألفاظ (غرب - الريش لغب - رميضا - السنام الأجب - قضض الهم) بما تشتمل عليه من معاني الألم التي يكابدها الصحراوي وهي بالطبع تعنى ضياع نفس الشاعر في تيه الحياة اثر فقد أخته .

فالتحسّر في رثاء المرأة عند الشريف لا يتضمّن الصورة المتخيلة للفقيدة بقدر اعتماده على تصوّر انعكاس الفاجعة على نفسه بما خلفته الفقيدة من فراغ في نفسه ، وما تتحلّى به من صفات أخلاقيّة .

فقصيدته في رثاء زوجته قد بلغت اثنين وعشرين بيتا ، استوعبت المقدمة التأمليّة منها اثني عشر بيتا ، استخدم فيها الشاعر الغريب لوصف حزن الطبيعة واكفهرارها ، وما يكتنفها من ظواهر غير ثابتة كتلألؤ النجوم وخفوتها ، ووميض البرق وسرعة انتشار نوره على مرتفعات الأرض ومنخفضاتها كل ذلك دلالة على ما يعتلج في نفسه من موجات

---

1) في رثاء النساء يقول ابن رشيق " من أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة ، لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلّة الصفات" العمدة 2/154 .

الحزن التي تتقاذفه بين رجاء ويأس ، وحدّة وخفوت، وقوّة وضعف ، أمّا موضوع الرثاء الرئيسي فقد قصره الشاعر على العشرة الأبيات الأخيرة ، ولم يتعرّض فيها للزوجة اطلاقا الاّ من خلال ما خلّفته في نفسه من أسى وحزن وذلك في قوله : (طويل)

لقد ساءَني أنّ البَلابِلَ روّحَتْ
وأنّ مَطَالَ الدّاءِ بَعْدَكَ أقْصَرَا
تَضَرّعْتُ في أعقَابِ وَجْدٍ عليكُمُ
ومَنْ فاتَهُ الإعْذارُ بالأمرِ عَذّرَا
وأهْجُرُكُمْ هَجْرَ الخَليّ ، وأنتُمُ
أعزُّ على عَينيّ مِنْ طارِقِ الكَرَى
ذكرتُكِ والأرضُ العريضَةُ بَيْنَنَا
وشَرٌّ على ذي الوَجْدِ أنْ يتذكّرا (1)

فالموت أودى بزوجته ، وخلّف في نفسه الحسرة واللوعة بحيث لم يعد يرى في الحياة سوى الكآبة والحزن والدموع ، فمحاولة صرف تفكيره عنها لم يكن سوى تصنع التماسك لنفسه المنهكة ، فالذكرى مازالت تعاوده وتلح عليه لتضاعف من أحزانه رغم ادراكه بأنّ الفراق أبدي ، ويعاود الشريف نفس المعاني الطتاعة في مقطوعتيه الأخرتين اللتين رثى زوجته فيهما ، فقد زاد من همومه وأحزانه (طويل)

كفى أسفاً للقلبِ ما عشتُ أنّني
بكفي على عيني حشوتُ من التّرْبِ
جرتَ خطرةٌ منها وفي القلبِ عطشةٌ
رفعتُ لَها رأسي عن البَاردِ العذبِ
وقلتُ لجَفْني ردّ دمعاً على دمٍ
وللقلبِ عالجْ قرحَ نَدْبٍ على نَدْبِ (2)

---

1) الديوان 1/ 507 وروّحت = تفرقت
2) الديوان 1/ 169 .

فحديث الشاعر مع نفسه في تصور الفاجعة واسترجاع ذكراها جعل للأبيات ترجيعات من الحزن القاتم الذي أحال الحياة في نظره الى ألم وحرمان وتوقّع قريب للنهاية : (طويل)

وَمِمّا يُطيبُ النّفسَ بَعْدَكِ أنّني
على قَرَبٍ من ماءِ وِرْدِكِ أوْ قُرْبُ (1)

وفي تعزية أخيه المرتضى عن ابنة له توفيت يعوّل الرضي على نفس القاموس اللغوي الذي استخدمه في رثاء أخته وفي مقدمة رثائه لزوجته مضيفا لذلك استخدامه للرجز لينقلنا الى جو الصحراء بكلّ نكهتة محاولا التسرية عن أخيه وتعزيته في مطلع تلك القصيدة بقوله : (رجز)

لا لومَ للدّهْرِ ولا عِتَابَا
تَغَابَ إنّ الجَلْدَ مَنْ تَغَابَى
صبرًا على الضّراءِ واحْتِسَابَا
أصْبَرُنَا أعْظَمُنَا ثَوَابَا (2)

وخلال تلك التعزية يستعرض الشريف اندثار الأمم بحكم بطش القدر بهم وتغلّب الزمن عليهم ، قاصدا من ذلك تقوية عزيمة أخيه بالاعتبار من خلال تأمّل اندثار الماضين رغم عظمتهم وقوتهم الاّ أنّه لا يذكر الفقيدة الاّ في ثلاثة أبيات من ستّة ختم بها القصيدة التي بلغت ستّة وثلاثين بيتا .

ويتكلّف الشريف الصنعة اللفظية في تعزية أخيه أيضا على مولدة له توفيت ، ومن أوجع ما جاء في تلك التعزية قوله : (طويل)

---

1) الديوان 1/ 170 - القرب بفتح القاف والراء = أن لا يكون بينك وبين الماء الاّ ليلة واحدة .

2) الديوان 1/ 154 .

إذا قعدتْ أحزانُها في قُلوبِنا
أقمْنا على الصّبر الشّفاةَ نَوادِبَا
فَلا تحسَبَنْ رُزْءَ الصّفائرِ هيّنا
فإنّ وجَى الاخفافِ يُنْضِي الغَوارِبَا (1)

أجل فإنّ سكون الأحزان واستقرارها في الأعماق لا يعني انطفاء جذوتها فالمصيبة في فقد الصغير والكبير سواء خاصّة بالنسبة لنفس الرضي التي كانت في بحث دائم عن الحزن ، فإنْ لم تصادفه في واقعها ارتحلت بأساها الى الماضي لتفتّش عن ذلك الحزن ، بتذكّر الماضين من الأهل والأقارب والأحبّة ، فالشاعر في مجال الرثاء ذو نفس ملحاحة على البكاء على من مضى من أهله بمناسبة أو غير مناسبة ، ويحوي ديوانه الكثير من القصائد التي يعاود من خلالها التحسّر على من مضى من أهله وكأنّه موكل بالنواحة عليهم ما بقي حيّا ومن ذلك قوله فيهم سنة 393 : (طويل)

لَقَدْ أُولِعَ الموتُ الزّؤامُ بجمْعِهِمْ
كأنّ الرّدى فيهِمْ تَحلّلَ مِنْ نَذْرِ
وَرَوا كَبِدي في آخرِ الدّهرِ لوعةً
بما بَرّدُوا قلبي عَلى أوّلِ الدّهْرِ
مَضَوا فكأنّ الحيّ فرعُ أراكَةٍ
على إثرِهِمْ عُرّى من الوَرَقِ النّضْرِ (2)

فاعتقاده بتقصّد الموت أهله فردا فردا أحال حياته الى تحسّر مستمرّ وحزن دائم فبعدما كان الشمل ملتمّا والحياة بردا وسلاما ، استحال كل شيء بعد مضيهم الى مرارة وألم ، الاّ أنّ تفجعه لم يقتصر على الأهل والأقارب ، لأنّ قلبه

---

1) الديوان 1/ 157 - الغوارب = مفرد غارب الكاهل .
2) الديوان 1/ 506 .

الكبير كان متسعا لحب جميع من خالطهم وما كثرة مراثيه في الأصدقاء على اختلاف طبقاتهم الاّ دليل على ذلك الحب والوفاء والاخلاص .

2- التفجّع في رثاء الخلفاء وأبنائهم :

لم يعاصر الشريف الرضي من خلفاء بني العبّاس - معاصرة فعليّة - سوى خليفتين هما : الطائع بن المطيع (ت 393) بعد أن خلعه البويهيون عن الخلافة سنة 380 ، وابن عمّه القادر (ت 422) وقد توفي الشريف في خلافته وعلى هذا فلن نجد في ديوانه سوى مرثيتين في الطائع (1) ومرثية ثالثة في أبي الفتح بن الطائع، وقد توفي قبل خلع أبيه بأربع سنوات (2) ، وتعزية رابعة

---

1) وردت في الديوان مرثيتان في الطائع والسابقة هي التي أرخ لها بسنة وفاته (393) - الديوان 2/ 197 ، أمّا الثانية فقد علّق عليها الناسخ بقوله أنها في رثاء صديق " قيل أنها في الطائع وقد أخفى ترجمتها لما كان يراقبه " الديوان 1/ 30 ، ولا نشك من معاني القصيدة أنها قيلت فعلا في الطائع ، خاصّة وأنّ من عادة الشريف أن يرثي بعض أصدقائه أكثر من مرّة .

2) الديوان 1/ 21 هناك خطأ في تاريخ وفاة أبي الفتح ابن الطائع وذلك في نسختي الأعلمي وصادر بجعلها سنة الوفاة 396 والصواب ما ذكره محمد محي الدين في ج 1 من شرح ديوان الشريف الرضي ص 28 وهو سنة 376 ، اذ لا يعقل أن يعزّى الشريف الرضي الطائع في ابنه في عام 396 مع أنّ وفاة الطائع معزولا كان سنة 396 .

للخليفة الطائع أيضا عن وفاة عمّه اسحاق ابن المقتدر (ت 377) (1) ، ومجمل أبيات القصائد الأربع مئتان وثمانية وعشرون بيتا ، استأثر الطائع منها - بعد وفاته معزولا - بمئة واثني عشر بيتا ، وفي ذلك دلالة على وفاء الشاعر واخلاصه للمرثي ، وللتشابه في ظروفهما المأسوية ، فنكبة عزل الطائع على يد البويهيين مرتبطة بنكبة أبيه على أيديهم ، واذا كانت نكبة أبيه يشوبها - بالنسبة اليه - نوع من الضبابية لعدم معاينته لأحداثها بسبب صغر سنّه فإنّ نكبة الخليفة بكلّ بشاعتها بقيت منحوتة في قلبه حتّى بعد أن وريِ الطائع التراب، يقول ضمن رثائه : (كامل)

ومؤمّرٍ نزلُوا بهِ في سُوقَةٍ
لا شَكْلُهُ فيهِمْ وَلا قُرَنَاؤُهُ (2)

فضمير الشاعر ما انفك يؤنبه ، والذنب في تركه صديقه فريسة لنهب الغرس مازال ينهش في نفسه ، بعد أنْ فرّ تاركا إيّاه يواجه مصيره لوحده ، وقد حاول تبرير ذلك

---

1) الديوان 2/ 191 ، التعزية في اسحاق ابن المقتدر وليست في عمر بن اسحاق بن المقتدر كما وهم ناسخ الديوان ، فبمقابلتنا بين سنة الوفاة في الديوان وهو ذو القعدة سنة 377 ، هو اسحاق ابن المقتدر . راجع العماد الحنبلي - شذرات الذهب 3/ 88 .

2) الديوان 1 / 32 .

الهـــروب فـــي محاولـــة للمصالحـــة مـــع ضميـــره ، يقـــول ضمـــن مرثيـــة سنـــة 393 (رمـــــل)

إنّ للطّائِـــع عِنْـــدي مِنّـــــةً
وَحِمىً قَدْ بَلّهَـا لـي بِبلالـي
لَيْـسَ يُنْسِيهَـا وإنْ طـالَ المَـدَى
مَـرُّ أيّـامٍ عَلَيْهَـا وَلَيَالِـــي
فَاتَنِـي مِنـكَ انتصـارٌ بِيَمِينِـي
فَتَلافَيْـتُ انْتِصـاراً بمقالـي (1)

فالشريف يـدرك تمامـا أنّ مناصرتـه للطائـع بالقـول لـن يغيـر مـن الواقـع ولـن يعيـد عجلـة التاريـخ للـوراء ، كما أنّ هروبـه يـوم حـادث السلـب تاركـا الخليفـة فـي محنتـه لوحـده هـو نكـوص وجبـن لـن تغفـره لـه نفسـه الأبيـة ، فـي حـق صديـق مخلـص طالمـا عـاش فـي كنفـه وتقلّـب فـي نعيمـه ، لذلـك فـإنّ رثـاءه هـو مـن بـاب تكفيـر الذنـب ، وتأنيـب الضميـر ، ممّـا جعـل المرثيتيـن تصـدران مـن الشاعـر وهمـا محملتـان بأعبـاء الحـزن وانهمـار الدمـوع التـي لـم تكـن تكفـي للتعبيـر عـن معاناتـه وعمـق أسـاه يقـول : (رمـــل)

لا أرَى الدّمْـعَ كِفَـاءً للجَـوَى
لَيْسَ أنّ الدّمعَ مِنْ بَعْـدِكَ غَالـي
وَبِرُغْمِي أنْ كَسَونَـاكَ الثّـرى
وَفَرَشْنَـاكَ زرابـيَّ الرّمِـال
وَهَجَرْنَـاكَ عَلـى ضَـنّ الهَـوَى
رُبّ هِجْـرانٍ عَلـى غَيـرِ تقالـي (2)

فلقـد وري جثمـان الطائـع الثـرى وعـادت الحيـاة سيرتهـا ولكـن ريـاح الحـزن مابرحـت تعصـف بنفـس الرضـي بيـن آونـة وأخـرى

---

1) الديـــــوان 2/199 .
2) الديـــــوان 2/200 .

لتثير الذكرى وتجدد الألم ، فوفاؤه للمرثي وتفجعه عليه لم يقتصر على حدث الموت بل امتدّ ليشمل أياديه البيضاء على قومه ناعيا عليهم التقصير في حقّه (رمل)

قَادَهُ المِقْدَارُ قَسْراً بَعْدَمَا
أكْرَهَ السُّمْرَ عَلى المَسِّ الطِّوَال
حَامِلاً عَنْ قَوْمِهِ العِبءَ وَمَا
حَمِدُوا عُرْعُرَةَ العُودِ الجُلالِ (1)

فانقاد مجبرا للموت ، وأصبح مقودا بعدما كان قائدا متحمّلا أعباء أولئك الذين لم يحمدوا فعاله أو يشكروا صنيعه ، فتفجعه عليه في هذا المجال لا يقلّ عن التفجّع في خليفة عظيم لم ينل الدهر من مكانته ولم يهتز الكرسي من تحته (كامل)

إنّ الذي كَانَ النَّعِيمُ ظِلالَهُ
أَسْسَى يُطَنَّبُ بِالعَرَاءِ خِبَاؤُهُ
قَدْ خفَّ عَنْ ذاكَ الرِّواقِ حُضُورُهُ
أبَداً وَعَنْ ذاكَ الحِمَى ضَوْضَاؤُهُ
كانتْ سوابِقُهُ طِرازَ فِنَائِهِ
يَجْلُو جَمَالَ رَوَائِهِنَّ رَوَاؤُهُ
وَرِمَاحُهُ سُفَرَاؤُهُ وَسُيُوفُهُ
خُفَرَاؤُه وَجِيَادُهُ نُدَمَاؤُهُ
بَيْنَاهُ كَالوَرَقِ النَّضِيرِ تَقَصَّفَتْ
أغصانُهُ وَتَسَلَّبَتْ شَجْرَاؤُه (2)

فلقد أخرس الموت كلّ شيء ، فمن كان ينعم بكلّ مباهج الحياة أصبحت الأرض العراء مقرّا له ، ولم يعد في حاجة

---

1) الديوان 2/ 197 والمق : الشق العرعرة : السنام ،العود : الجمل المسن .
2) الديوان 1/ 31 .

الى الخنساء والحراس لحمايته ، وقد ألقى وراء ظهره كلّ ما في هذه الحياة من متع ، مخلفا الجيوش ومنادمة الفرسان ، وبينما كان في فتائه وأوج حيويته اذا به يهوى مثله مثل الأوراق الصفراء المتساقطة ، والأغصان المتقصفة ، ولكن لا عجب في ذلك فهي طريق الانسان منذ الأزل (كامل)

لا تَعْجَبَنّ ، فَمَا العَجيبُ فَنَاؤه
بِيَدِ المَنُونِ ، بَلِ العَجيبُ بَقَاؤهُ
مَنْ طَاحَ في سُبُلِ الرّدَى آبَاؤهُ
فَلْيسلكنّ طَرِيقَهُ أَبْنَاؤه (1)

فالطريق سالك ومعبّد والشريف مؤمن بذلك ، لكن شفافية نفسه ورقّة احساسه ووفاؤه للطائع يجعله دائم التفجّع عليه فحزنه متجدد بتجدد السنين (كامل)

وإذا أَعَادَ الحَوْلُ يَوْمَكَ عَادَنِي
مِثْلَ السّلِيمِ يَعُودُهُ آنَاؤهُ
داءٌ بِقَلْبِي لا يَعُودُ طَبِيبُهُ
يأساً الِيّ وَلا يُصَاب دَوَاؤهُ (2)

ولما كانت الضمائر دلالات على مدى عمق تفجّع الشاعر ونوعيته من حيث الذاتية والموضوعيّة ، فقد أحصيناها في كلتا المرثيتين فوجدنا تقاربا في اللامية بين ضمائر المخاطب المفرد - عددها اثنان وعشرون ضميرا - وبين ضمائر الغائب المفرد التي عددها عشرون ، أمّا ضمير المتكلّم فقد استخدمه الشاعر ثمان مرات وهذا يعني تغلّب الجانب الموضوعي على

---

1) الديوان 1/32 .
2) الديوان 1/34 .

الجانب الذاتي ، والقصد من ذلك حمد مآثر المتوفى بتوجيه الخطاب اليه مباشرة أو عن طريق التذكّر باستخدام ضمير الغائب ، وهي ميزة من مميزات التفجّع على الفقيد في مجال الرثاء عن طريق مناجاة المتوفى وعتاب الموت ، وفي ذلك مدعاة لاثارة الأحزان وانهمار الدموع ، وقد تناوله الشعراء امّا بخطاب المرثي كما في قول المتنبّي يرثي فاتكا الاسدى : (كامل)

يَا مَنْ يُبَدِّلُ كلَّ يومٍ حُلَّةً
أنّى رَضِيتَ بِحُلّةٍ لاَ تُنْزَعُ
مازِلتَ تَخْلَعُهَا على مَنْ شَاءَهَا
حتّى لَبِسْتَ اليَوْمَ مَا لا تَخْلَعُ
مازِلْتَ تَدْفَعُ كُلّ أَمْرٍ فَادِحٍ
حتّى أتى الأمرُ الذي لاَ يُدْفَعُ
فَظَلِلْتَ تَنْظُرُ لا رماحك شُرَّعٌ
فِيمَا عَرَاكَ ولا سُيُوفُكَ قُطَّعُ (1)

أو بخطاب قبر المرثي كما في رثاء الحسين بن مطير لمعن بن زائدة : (طويل)

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كُنْتَ أَوّلَ حُفْرَةٍ
مِنَ الأَرْضِ خُطّتْ للسماحة مضجعا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ منه البَرُّ والبحرُ مُتْرَعَا (2)

وتذكّر المتوفى عن طريق مخاطبته أو مخاطبة قبره لا يكون مفجعا الاّ اذا صدر من شاعر له علاقة وطيدة بالمتوفّى ،

---

1) البرقوقي - شرح ديوان المتنبّي 3/ 17 .
2) ابن رشيق - العمدة 2/ 148 .

أو يكون للميّت ايادٍ بيضاء على ذلك الشاعر ، وبالفعل فلقد كان لفاتك الاسدي من الجميل ما طوق به جيد المتنبّي أثناء غربته في مصر (1) ، كما اشتهر معن ابن زائدة بشجاعته وكرمه (2) ، ولقد كانت علاقة الشريف بالطائع - قبل عزله - من القوة والمتانة بحيث لم يقدر العزل على فصم عراها رغم تعاقب السنين ، ممّا جعل للخطاب في مرثيته أبعادا تفجعيّة عميقة كما في قوله : (رمل)

أيُّهَا الظّاعِنُ لا جازَ الحَيَا
أبدًا بَعْدَك بالحيِّ الحِلالِ
كنتَ في الاحْجَالِ أرْجُوكَ ولا
أَرْتَجِي اليَوْمَ عَظيمًا في الحِجالِ (3)

وفي خطابه لقبر الطائع يقول : (رمل)

أيّهُا القَبْرُ الذي أَمْسَى بِهِ
عَاطِلَ الأرضِ جَميعًا وَهْوَ حَالِي
لم يُوَارُوا بِكَ مَيْتًا إنّمَا
أَفْرَغُوا فِيكَ ذُنُوبًا مِنْ نَوَالِ (4)

وتقارب عدد ضمائر الخطاب بضمائر الغائب في مرثيته يعني تراوح النفس بين الحاضر المتمثّل في الخطاب باستمراريته ، والماضي المتمثّل في الاشارة للغائب والنبش داخل خبايا النفس لاستحضار أكبر قدر من حسنات المرثي ومآثره ، من

---

1) لمعرفة علاقة المتنبّي بفاتك الاسدي - راجع شرح ديوان المتنبّي 1/ 50 وما بعده - البرقوقي .

2) عمّا أوثر عن معن من الكرم والشجاعة راجع على سبيل المثال ابن عبد ربّه - العقد 1/ 125 .

3) الديوان 2/ 200 .

4) الديوان 2/ 197 ، 198 .

خلال المراوحة في نظرة الشاعر في أعماقه وما يكنّه من حبّ وفيما حوله من آثار خلدت ذكر المرثي ، ممّا يصبغ السياق برنّة حزن وتحسّر على الماضي المنصرم وهذا ما نلحظه عند قراءتنا لمرثيته الثانية في الطائع، فقد تكرر ضمير الغائب فيها خمسة وتسعين مرّة ، تلاه ضمير المتكلّم الذي كرّره خمس عشرة مرة ، كما ورد ضمير المخاطب تسع مرات ، وتكرار ضمير الغائب بهذه الكثرة في قصيدة عدد أبياتها واحد وخمسون بيتا له ما يبرره ، خاصّة أنّ الشاعر قد بنى قافيته على ذلك الضمير. فالقصيدة تجديد لذكرى وفاة المرثي وتعتمد في مضمونها على استحضار الشاعر ما نال المرثي من ضيم في حياته وما خلفه مماته من حسرة وألم في قلوب أحبائه ، لذا فإنّ حزن القصيدة متراوح في الزمن الماضي ببعديه : البعيد ، كما في قوله : (كامل)

وَمُؤَمَّرٍ نَزَلوا بِهِ فِي سُوقَةٍ
لا شَكْلُهُ فِيهِمْ وَلا قُرَناؤُهُ
قَدْ كَانَ يَفْرَقُ ظِلَّهُ أَقْرانُهُ
وَيَفُضّ دُونَ جَلالِهِ أَكْفَاؤُهُ (1)

والقريب المبيّن لفاجعة الموت التي حلّت بالمتوفّى بعد عزله بزمن كما في قوله : (كامل)

نَادَتْهُ مِنْ خَلْفِ الحِجَابِ مَنِيَّةٌ
أَمَمٌ فكانَ جَوابَهَا حَوْبَاؤُهُ
شُقّتْ إليهِ سُيُوفُهُ وَرِمَاحُهُ
أميط عَنْهُ عَبِيدُهُ وإِمَاؤُهُ

---

1) الديوان 1/ 32 .

حَرُمَ عَلَيْهِ الذُّلُّ إلاّ أنّه
أبداً لِيَشْهَدُ بالجَلالِ بَنَاؤُهُ
مُتَخَشِّعٌ بَعْدَ الأنِيسِ جَنابُهُ
مُتَضائِلٌ بَعْدَ القَطِينِ فِنَاؤُهُ (1)

والمدّة الزمنيّة التي كانت بين العزل والوفاة تقارب الثلاث عشرة سنة ، وهذا يعني أنّ ضمير الغائب قد أدّى - في السياق التفجعي - دورين : يمثّل الأول منهما تحسّر الشاعر على أيّام العز التي لم ينعم بها طويلا ، ويمثّل الثاني رزيته في فقد صديقه الحميم .

ويبلغ التفجّع ذروته - على الطائع - في معازجة الشاعر بين الضمائر في الرثاء ، اذ يضفي ضمير المتكلّم الدال على ذات الشاعر في ارجاء القصيد ترجيعات من الحزن المتراوح بين نظرة الشاعر الى داخل نفسه والتأمّل في موت المرثي ، وبين ما خلفه ذلك الفقد من ذكريات تبعث الأسى وتثير الأشجان (كامل)

قَدْ كَانَ عَاقَدَنِي الصَّفاءَ فَلَمْ أَزُلْ
عَنْهُ وَمَا بَقِيَ عليَّ صَفَاؤُهُ
وَلَقَدْ حَفِظْتُ لَهُ فأينَ حِفاظُهُ
وَلَقَدْ وَفَيْتُ لَهُ فأيْنَ وَفَاؤُهُ
أوَعَى الدّعاءَ فَلَمْ يُجِبْهُ قطيعةً
أمْ ظَلَّ عَنْهُ مِنَ البَعادِ دُعَاؤُهُ
هَيْهاتَ أَصْبَحَ سَمْعُهُ وَعِيَانُهُ
في التُّرْبِ قَدْ حَجَبَتْهُما أقْذَاؤُهُ (2)

فضمائر المتكلّم في قوله ((عاقدني - عليّ - حفظت - وفيت)) بجانب ضمائر الغائب ((له - حفاظه - وفاؤه - وعى الدعاء - عنه)) أضفت

---

1) الديوان 1/32 .

2) الديوان 1/31 .

على السياق مسحة من الأسى العميق تمثّل في سلبية الميّت ، فأضحى عقد الصفاء بين الاثنين مقصورا على طرف واحد هو الشاعر ، وكذلك الوفاء لم يعد الاّ من طرف الشاعر ، كما صار دعاء الشاعر للمرثي ونداؤه ايّاه أدراج الرياح لأنّ الموت أحال المرثي وما حوله الى صمت أبدي لا يستطيع الشريف احتماله ، أو حتّى التخفيف من وحشته .

واذا كان الشريف قد رثى الطائع العباسي بعد عزله فإنّه قد واساه في مصيبته بفقد ابنه وعمّه اسحاق أثناء خلافته ، ففي سنة 376 هـ ثكل الطائع في ابنه أبي الفتح وكانت مناسبة للرضي لاظهار ودّه واخلاصه عن طريق رثاء الابن وتعزية الأب ، نزولا عند رابطة الصداقة المتينة التي تربطه بالخليفة ، ويستشف من بعض معاني المرثية بأنّ المنيّة قد أودت بذلك الابن وهو في مقتبل العمر (كامل)

أنعَاكَ للخَيْلِ المُغِيرَةِ شُزّبًا
والْيَوْمَ يَضْرِبُ بالعَجَاجِ خِبَاءَ
ولخوض سَيْفِكَ والفَوَارِسُ تَدّعِي
حَرْبًا يَجُرّ نِداؤها الأسماءَ
وَغَيَابَةٍ فَرّجْتَهَا ، وَمَقَامَةٍ
سَدَدْتَ فيهَا حجّةً غَرّاءَ
وَخَلَطْتَ أَقْوَلَ الرّجالِ بِمِقْوَلٍ
ذَرِبٍ كَمَا خَلَطَ الضّرَابُ دِمَاءَ (1)

فالفروسيّة والشجاعة ، وصواب الرأي وقوّة الحجّة وسلامة المنطق ، لا تتأتّى الاّ لمن بلغ مبلغ الرجولة ، وتفجّع الشاعر بتلك

---

1) الديوان 1/24 .

الصفات على المرثي يعني ما نعتقده من وفاته بعد أن نضج واستوت رجولته ، ممّا يضاعف أشجان الأب وآلامه وقد تجلّى عمق حزن الرضي على المرثي في نواحه الذي أحال تعابير اللغة الى تنهدات ملتاعة ودموع حرّى منها قوله : (كامل)

يا رَاحِلاً وَرَدَ الثّرَى في لَيْلَةٍ
كَادَ الظّلامُ بِهَا يَكُونُ ضِيَاءَ
لمّا نَعَاكَ النّاعِيَانِ مشى الجَوَى
بَيْنَ القُلُوبِ وَضَعْضَعَ الأحْشَاءَ
وأسَوَدّ شَطرُ اليوم ِتَرْجُفُ شمسه
قَلَقاً وجرّ ضِيَاؤهُ الظّلْمَاءَ
وارتجّ بَعْدَك كُلّ حيٍّ باكيًا
فكأنّما قُلِبَ الصّهيلُ بُكَاءَ (1)

فقد بثّ الشريف في الطبيعة الحياة وأشركها حزنه فاستجابت لذلك باختلاط الظلام بالضياء وارتجاف الشمس قلقا ، وسرى الجوى في القلوب وارتجّ الكون بكاء واختلطت الأصوات بحيث لم يعد التمييز بينها ممكنا .

وتتفاوت حدّة الحزن خلال القصيدة ، فيرد هادئا تأمليا في مطلعها ، حارا ملتهبا في التفجّع على المرثي في وسطها ، ثم يعود الى ترجيعات من الشجن المخنوق الهادئ في تعزية الخليفة عن الفقيد تسليما بالأمور الواقع ، لأنّ الصبر أجدى في مثل تلك المواقف كما في قوله : (كامل)

فاستَبقِ دَمعَكَ في المَصائبِ واعلَمَنْ
أنّ الرّدى لا يُشمِتُ الأعْدَاءَ

---

1) الديوان 1/22 ، 23 .

وتَسَلّ عَنْ سَيْفٍ طَبَعْتَ غِرارَهُ
وأعَرْتَ شَفْرَتَهُ سَنًا وَمَضَاءَ
والصّبْرُ عَنْ وَلَدٍ يَجِيءُ بِمِثْلِهِ
أوْلَى وَلَكِنْ نَنْدُبُ الآبَاءَ (1)

وعلى العموم فإنّ رثاءه في ابن الخليفة وتفجعه على عمّه هو من باب المشاركة الوجدانيّة ، فإذا كانت قصيدته في رثاء ابن الخليفة قد تراوحت بين التأمّل والرثاء والتعزية تمكينا لرابطة الصداقة التي ظلّ الشاعر وفيّا لها حتّى بعد عزل الطائع ، فإنّ قصيدته في عم الطائع اقتصر مضمونها على التعزية ممّا يعني ضمنا عدم توطّد علاقته بالمتوفّى لذا فإنّه لم يؤبّنه ، وهو في هذا المجال صادق مع نفسه لا يتكلّف القول ، فاقتصاره على التعزية هي محاولة منه لعكس حزن الخليفة على أخيه من خلال ذاته خاصّة وأنّ للشريف قدرة فائقة على التعبير عن أحزان الآخرين ويشير الى ذلك في قوله : (خفيف)

مَنْ يَكُنْ زَائِرِي يَجِدْنِي مُقِيمًا
أتْبِعُ الفَانِيَاتِ بالزّفَرَاتِ
في نَدَامَايَ عَلى الهُمُومِ قُعُودٌ
يَدْعَمُونَ الأذْقَانَ بالرّاحَاتِ
كُلّمَا أنْزَفُوا مِنَ الدّمْعِ مدّتْ
هُمْ دَوَاعِي الهُمُومِ بالعَبَرَاتِ (2)

لذا فإنّ أسى الخليفة وتحسّره على فقد عمّه يمكن أن نستشفه من تعزية الرضي له في قوله : (طويل)

---

1) الديوان 1/ 24 .
2) الديوان 1/ 216 .

تَعَزّ أمِينَ اللّـهِ واستَأنِفِ الأسَى
فَفي الأجرِ مِن عُظْمِ المُصابِ بَدِيلُ
وإنْ زَالَ نَجْمٌ مِنْ ذُؤابَـةِ هاشـمٍ
فَلا عَجَبٌ إنّ النّجومَ تَـزُولُ
مَضَى والّذي يَبْقَى أحَبُّ إلى العُلى
وأهدَى الى المَعْرُوفِ حِينَ يُنِيلُ (1)

ففي العزاء واظهار الحزن تطهير للنفس وراحة للبال ، وكلّما عظم المصاب جزل الثواب ولا عجب من موت فرد من بني هاشم فالكلّ الى زوال ، ويكفي في هذا المقام بقاء الخليفة ذخرا للمعروف واغاثة الملهوف ، وقد ينسى الانسان في غمرة انشغاله بملاهي الحياة حقيقة الموت ولكن بتأمله فيما حوله تنكشف له الحقيقة ، ولا طلاع الخليفة على جلية ذلك اتخذ الشاعر من آباء الخليفة عبرة وموعظة في عدم ديمومة الحياة (طويل)

تَلفتُّ إلى آبائِكَ الغُرّ هَل تَرَى
مِنَ القَوْمِ بَاقٍ جاوَزَتْهُ حُبُولُ
وَهَلْ نَالَ في العَيْشِ الفتى فَوقَ عُمْرِهِ
وَهَلْ بُلّ مِنْ داءِ الحِمامِ عَلِيلُ
وَمَن ماتَ لمْ يُعْلَمْ وقد عَانَقَ الثّرَى
بَكَاهُ خَلِيلٌ أمْ سَلاهُ خَلِيلُ (2)

فالموت فراق أبدي ، يفقد الميّت فيه الشعور ببكاء الأحبّة أو نسيانهم له ، ولما كان البكاء لا يجدي في استعادة ما فات فالشاعر يواسي الخليفة قائلا : (طويل)

---

1) الديوان 2/192 .
2) الديوان 2/193 .

لَقَدْ كنتُ أُوصي بالبُكاءِ مِنَ الجَوى
لَوَ أنّ غَراماً بالدّمُوعِ غَسِيلُ
فَأمّا وَلا وَجْدٌ يَزُولُ بِعَبْرَةٍ
فَصَبْرُ الفَتَى عِندَ البَلاءِ جَمِيلُ
كم خَالَطَ الباكينَ مِنْ سِنّ ضَاحِكٍ
وَبَيْنَ رُغَاءِ الزارحات صهيل (1)

فالبكاء لن يجدي نفعا ولن يطفىء غليلا ، والصبر الجميل على الرزايا أحجى مادام الحزن والفرح سيان في هذه الحياة وليس أدلّ على ذلك من تمازج أصوات الأتراح والأفراح .

فرثاء الشريف في الطائع العباسي يختلف في مضمونه التفجعي عن رثائه في غيره من أفراد أسرة بني العبّاس من حيث التدفّق العاطفي ، وعمق الأسى والحزن ، فقصيدته في رثاء أبي الفتح بن الطائع غلب عليها طابع التعزية اضافة الى التفجّع على المرثي في أمور تكاد لا تخلو منها أيّة مرثيّة في كبير قوم أو أمير كالبكاء في فقده على الكرم والشجاعة والفصاحة ، وقصيدته في تعزية الطائع في فقد عمّه لم يتعرض فيها الرضي إطلاقا لمآثر الفقيد مع التركيز في كلتا القصيدتين على مشاطرة الخليفة الطائع أحزانه وكأنّ عدوى الحزن انتقلت اليه بفعل المشاركة الوجدانيّة ، أمّا في رثائه للخليفة الطائع فهو الى التحسّر والحزن واستدرار الدموع أقرب منه الى التصبر والتأسي والتعزي فتقديسه لرابطة الصداقة وشعوره بتأنيب الضمير ازاء تقصيره في حق الطائع جعله دائم التفجّع عليه وليس أدلّ على ذلك من قوله : (رمل)

---

1) الديوان 2/ 193 . والزارحات : النياق سقطت أعياء .

فاتَني مِنكَ انتصارٌ بيميني
فتلافيتُ انتصاراً بمَقالي (1)

3- التفجّع في رثاء بني بويه :

يحتوى ديوان الشريف على أربع قصائد في رثاء وتعزية بني بويه (2) هي :

1- ميميّة في رثاء الملك شرف الدولة (ت 379) عدد أبياتها تسعة وثلاثون بيتا .

2- بائيّة في تعزية بهاء الدولة عن ولده بويه (ت 398) عدد أبياتها أربعون .

3- كافيّة في رثاء قوام الدين - بهاء الدولة - (ت 403) عدد أبياتها أربعون .

4- عينيّة في رثاء قوام الدين مرة ثانية سنة 404 عدد أبياتها ثلاثة وخمسون .

وعلى هذا فلقد بلغ رثاؤه وتعزيته في البويهيين مئة واثنين وسبعين بيتا ، خصّ منها قوام الدين ثلاثة وتسعون بيتا ، ويمكن اعتبار قصائده تلك من باب الوفاء والاعتراف بالجميل بالنسبة للملكين ، شرف الدولة وابنه بهاء الدولة ، ومواساة بالنسبة لقوام الدين في ابنه بويه وتتدرج حرارة الرثاء في القصائد الأربع حسب تدرجها

---

1) الديوان 199/2 .
2) للاطلاع على القصائد الأربع راجع الديوان 413/2 .
135/1 . 104/2 . 624/1 .

الزمني ، ففي رثائه لشرف الدولة ، يكمن وفاء الشاعر فيما أسداه الملك البويهي من معروف لأبيه في فكّ أساره وارجاع ما صودر من أملاكه وأمواله ، واعادته الى مناصبه التي جُرّد منها ، وفي ذلك يقول الشريف ضمن مرثيته في الفقيد : (بسيط)

لِلّه دَرُّكِ مِنْ غَرّاءَ أَحْرَزَهَا
مَوْسُومَةً قَلْبُ ضِرْغَامٍ لِضِرْغَامِ
قَدْ كِدْتُ أعقلها لَوْلاَ مُحَافظَةً
عَلى يَدٍ سَلَفَتْ مِنْهُ وإنْعَامِ
أَعَادَ عِزَّ أبي عَضّاً وخوّلَهُ
مَا شَاءَ مِنْ بَذلِ إعزَازٍ وإكْرَامِ
وكُنْتُ أجْمَعْتُهُ للعِزّ أطْلُبُهُ
وإنّما كَانَ للمَقْدُورِ إجْمَامِي (1)

ويستشف من الأبيات أنّ علاقة الشاعر لم تتوطّد بالمرثيّ ، فقد كانت تستمدّ قوتها عن علاقة الأب ، وان كان الشاعر يمهّد لنفسه ، والدلالة على ذلك مزج الشاعر الفخر بالتأبين في البيت الأول والتحسّر على فقد المرثي في البيت الرابع بمعاجلة القدر للملك البويهي في الوقت الذي كان الشاعر يذخره ليعينه على تحقيق طموحاته في الوصول الى المجد الذي كان يداعب نفسه ، وعدم توطّد العلاقات بين الشاعر ومرثيه جعلت تحسّره عليه ينطلق من تكرار المظاهر الماديّة التي عاش الشاعر على هامشها خلال فترة حكم المرثي (بسيط)

أينَ السّريرُ وقد قَامَ السّماطُ لَهُ
إجْلالَ أَرْوَعَ عَالِي القَدْ بَسّامِ

---

1) الديوان 2 / 415 .

أينَ الجِيَادُ تَنَـزّى فـي أَعِنّتِهَـا
يَطلُبنَ يومًا قَطُوبًا وَجْهَـهُ دَامِ
أينَ الفُيُولَ كأنّ المُعتطينَ لَهَـا
عَلى ذَوائِبِ أَطْوَادٍ وَأَعْـلامِ
أينَ الوفُودُ عَلى الأبوابِ مُذكِـرَةً
بالفَرْطِ مِنْ مَجدِ أَخْوالٍ وأعمَامِ
أينَ المراتِبُ والدّنْيَا عَلى قَـدَمٍ
مَوْقُوفَةً بَينَ أَرْمَاحٍ وأَقْـلامِ (1)

وتفجّع الرضي وتحسّره من خلال الأمور الماديّة المحسوسة كوصف سرير الملك والجيوش المعدّة وتقاطر الوفود ، وان كان هو المحبّذ في رثاء الملوك (2) ، فانّه لا يتسق مع ما في رثاء الشريف من تدفّق عاطفي حار ، ولكن ذلك لا يعني فتورا في عاطفة الشاعر نحو مرثيه ، لأنّ قصر مدّة حكمه وعدم تمكّن الشاعر من الاحتكاك المباشر به ، هو ما نحى برثائه فيه ذلك المنحى ، وقد أشار الرضي الى عدم توطّد علاقته بالمرثي في قوله (وكنت أجمعته . . .) خاصّة وأنّ معين الحزن عند الشريف لا ينضب ، ولكنّه يحتاج الى المثير والمنبّه المرتكز على الروابط الروحيّة القويّة بمرثيه ، لذلك فإنّ رثاءه في قوام الدين يختلف اختلافا بيّنًا عنه

---

1) الديوان 2/ 414 .

2) يقول ابن رشيق في العمدة 2/ 147 " وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجّع ، بيّن الحسرة ، مخلوطا بالتلهّف والأسف والاستعظام ان كان الميت ملكا أو رئيسا أو كبيرا " وهذا ما حاوله الشريف في مرثيته في شرف الدولة .

في أبيه شرف الدولة وسبب ذلك عمق العلاقة التي ربطت بين الاثنين خاصّة وأنّ الملك البويهي قد استطاع أن يأسر الشريف بما أسبغ عليه من نعم بعد أن أصبحت العلاقة مباشرة بينهما فقول الشريف في رثائه لقوام الدين (بسيط)

يا صفقةً مِنْ بياع كلُّها غَرَرُ
مِن ضَامنٍ للعُلى من بَعدِها الدَّركا
خَلالَها كلُّ ذئبٍ عن أكيلَتِهِ
مِن واقعٍ طارَ أو من عاجزٍ فَتكَا
الموتُ أخبثُ من أن يرتضي أبداً
لا سُوقةً بدلاً منهُ ولا مَلِكَا
كالعِلقِ والعِلقِ لو خُيّرتَ بينَهُمَا
لم ترضَ بالدّونِ يوماً أنْ يكونَ لَكَا (1)

تعني شعور الشاعر بالضياع بعد موت المرثي ، فقد أصبح المجد نهبا للمنتفعين وألعوبة في أيدي العاجزين ، كلّ ذلك بسبب الموت الكريمة الذي أبى الاّ أن يختار قوام الدين دون غيره ، فالاسى نابع من أعماق الشاعر ، لذلك فإنّ تحسّره على المرثي لم يقتصر على الأمور الماديّة ، بل مازج في ذلك بينها وبين المعنوى (بسيط)

مَنْ للأسودِ نَهاها عنْ مطامِعِها
فكمْ رَدَدْنا فريسًا بعدَما انتُهِكَا
من للعزائمِ والآراءِ يُطْلِعُهَا
مطالعَ البيضِ يَجلو ضوءُها الحَلَكَا
من للرّقاقِ إذا أشغَتْ على عَطَبٍ
يغدو لَهَا بَلَغًا بالطّوْلِ أوْ مُسَكَا

---

1) الديوان 2/106 .

من للخطوبِ يُنَجّي مِنْ مخالبِهـا
ويَنزِعُ الظُّفْرَ مِنْهَا كُلَّما سَدِكَا (1) :

فقد راوح الشاعر في تحسّره على المرثي بين المادي من مآثره وبين المعنوي ، بين الشجاعة وقوة الفتك وبين الاستنارة بهدي العقل ، بين السيف في حدته ومضائه وبين أعمال الفكر في حل المستعصي من المشاكل ، لذلك فإنّ تحسّره على قوام الدين لا يقف عند حد بل هو يتصاعد في تأججه كلما توغلنا داخل قصيدة الرثاء ، اذ يمكن تشبيه القصيدة كالمدسة المحدبة ، وأبياتها هي الحزم الضوئيّة التي تحاول المدسة تجميعها لتكون في النهاية مركز التجمّع هو قلب الشاعر الذي يبلغ فيه الحزن ذروته :
(بسيط)

إذا رَجا القلبُ أن يُنْسيهِ غُصّتَهُ
ما يُحدِثُ الدّهرُ أدمى قَرْحَهُ وَنَكَا
إنْ يأخُذِ الموتُ مِنّا مَنْ نَضَنُّ بهِ
فَمَا نُبالي بَعْدَ بَقّى وَمَن تَرَكَا
إنّي أرى القلبَ يَنْزو لادّكارهِمُ
نَزْوَ القَطَاطَةِ مَدّوا فَوْقَها الشّرَكَا
لا تُبْصِرُ الدّهر بَعْدَ اليومِ مُبتسِمًا
إنّ اللّيالي أنستْ بَعْدَهُ الضَحِكَا (2)

فالأبيات عبارة عن مناجاة لنفس هدّها ألم الفقد ، فالقلب المبرّح ذو الجراح المنكاة هو قلب الشاعر ، والفاعل في (نبالي) هو لسان حاله والقلب الذي يشعر به في

---

1) الديوان 2/105 والبلغ الواحدة بلغة = ما يكفي من العيش ولا يزيد ، المسك ، الواحدة مسكة = ما يمسك الأبدان من الطعام ، سدك = لزم .

2) الديوان 2/106 ، 107 والقطاطة يقصد بها القطاة = طائر في حجم الحمام .

شدة انقباضه وكأنّه قطاة وقعت في شرك تحاول مستميتة الخلاص منه هو قلبه أيضا والنهي في قوله (لا تبصر) هو لنفسه ، فشحنات الحزن المنبثّة في الأبيات ما هي الاّ نفثات ملتهبة يحاول التنفيس بها عن شعوره بالفجيعة في فقده قوام الدين الذي طالما شدّ عضده ووقاه سهام عصره الطائشة فحدس الشاعر لم يخب ، فقد أخذ الدهر يتلاعب به وتطاول عليه الأعداء فأدّى به ذلك الى معاودة الشكوى للفقيد في مرثيّة أخرى منها (طويل)

رَمَتْنِي سِهامُ اليأسِ بعدكَ جَهْرةً
وأنبض نَحْوِي عاجِزٌ وجُزُوعُ (1)

وتذكّر الشريف لقوام الدين في مرثيته الثانية وتفجعه عليه هو تنفيس عن القهر الذي فاضت به نفسه ، فبعد ارتحال من كان يجد فيه ملاذا من غوائل الأيّام أصبح فريسة لليأس وتطاول عليه كلّ عاجز وجبان فاستحالت حياته الى حزن دائم أزمع بعده الشاعر الى هجر الحياة والتقوقع داخل نفسه (طويل)

فهجرًا لِدارِ الحيّ بَعْدَ رَحيلِكُم
وَمَا كُلّ أظعانٍ لَهُنّ رُجُوعُ
ولا مرحبًا بالأرضِ لَستُم حُلُولَهَا
وإنْ كَانَ مرعىً للظِبِاءِ مَرِيعُ
لقد جلّ قدرُ الرُّزءِ أنْ يَبلُغَ البُكا
مداهُ ، ولَو أنّ القُلُوبَ دُمُوعُ (2)

فبلوغ البكاء مداه على فقد المرثي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يعبّر عن شدّة حزنه وتوجعه ، فالأسى

---

1) الديوان 1 / 626 .

2) الديوان 1 / 627 .

صادر من أعماق النفس خاصّة وأنّ الشريف لم يصوّر فاجعته في فقد قوام الدين كجزء منفصل عن ذاته ، لأنّ ذاته ابّان الرثاء تنصهر في الموضوع فتستحيل الى دموع حرّى وتشنجات ملتاعة ، فكلّما قوي التصاقه بالمرثي كلما اشتدّ حزنه وعمق تفجعه ، وهو ما سنلحظه في رثائه لجميع من عاشر وأحبّ من أصدقاء .

4- التفجّع في رثاء الأصدقاء :

من أمراء العرب ، الوزراء ،الكتّاب والعلماء والفقهاء، عامّة النّاس .

لم يقصر الشريف الرضي رثاءه على فئة معينة من فئات مجتمعه ، فانتماؤه للبيت العلوي ، وعلاقاته الوطيدة بالخلفاء وعلية القوم في مجتمعه لم يحولا بينه وبين تكوين صداقات واسعة مع مختلف الطبقات ، وقد تخطّت صداقاته موطنه لتشمل البادية وفارس والشّام ممّا جعل سلسلة مراثيه تحوي الكثير من النّاس على اختلاف مشاربهم ومستوياتهم الاجتماعية ، وقد أعطى التنوع في صداقاته لرثائه خصائص ومزايا تتناسب ومكانة كلّ مرثي ووظيفته ، خاصّة وأنّ للنفس الانسانيّة من الخصائص ما تميّز به حبها وكرهها ، والتباين في كلتا العاطفتين لديها من ناحية العلاقات الشخصيّة والروابط الاجتماعية .

ولو أردنا تطبيق ذلك على عاطفة الحزن تجاه من رثاهم الشريف من الأصدقاء فسنجد تباينا في ذلك الرثاء من حيث مميّزات كلّ مرثي ومن حيث متانة العلاقة التي تربطه بالشاعر ، ممّا يدعونا لدراسة تفجعه على كلّ فئة من أولئك الأصدقاء على حدة .

أ ـ رثاء أمراء الأمصار المجاورة :

يبدو أنّ علاقة الشريف الرضي بالأمراء الحمدانيين كانت وطيدة برغم خلافهم مع البويهيين الذين يستظلّ بسلطانهم، فلقد تفجّرت عاطفته نحوهم وهو يرثي أبا طاهر ابن ناصر الدولة الحمداني " ويظهر أنّ صداقته بذلك الأمير قد بلغت من نفسه كلّ مبلغ ، فقد رثاه أصدق رثاء وتفجّع عليه أوجع تفجّع " (1) وقد بلغت احدى مراثيه فيه من الجودة والاتقان ما لفت اليها لغويّا وأدبيّا كابن جنّي الذي قام بشرحها وتفسيرها ، وتمتاز تلك المرثيّة في مجملها بالنفحة العربيّة المتسمة بروح الاباء والفروسيّة لما يتفق وصفات الحمدانيين ، ولما يعتلج في نفس الشاعر من شوق وحبّ للاصالة العربيّة التي افتقدها في بيئة العراق ، فموت المرثي من وجهة نظر الشاعر هو اندثار للفروسيّة كما في قوله في مقدّمة تلك المرثية : (كامل)

ألقي السّلاح رَبيعةَ بنَ نِزارِ
أودَى الرّدى بقريعِكِ المِفْوَارِ
وترجّلي عنْ كلّ أجرَدَ سابحٍ
مِيلَ الرّقابِ نَواكسَ الأبصارِ
ودعي الأعنّةَ من أكفك إنّها
فقدَتْ مُصرّفَهَا ليَوْمِ مَغَارِ (2)

فلقد اندثرت الفروسيّة بمقتل المرثي ولم تعد السيوف ولا الجياد المطهمة بذات قيمة بعد مهلك القائد والمصرف للأمور .

---

1) زكي مبارك ـ عبقرية الشريف الرضي 1/161 .
2) الديوان 1/490 .

وفي مجال التفجّع يركّز الشاعر لاظهار تحسّره على منداة القبيلة العربيّة ، وكأنّه بذلك النداء الصّادر من أعماقه يتحسّر على المجد العربي المتمثّل في شخص المرثي وغيره من الأبطال الحمدانيين كما في قوله : (كامل)

يَا تَغْلِبَ ابنَةَ وائلٍ مالي أَرَى
نَجْمَيْكِ قَدْ أَفَلا عَنِ النُّظَّارِ
غَرَبَا ، فَذاكَ غُرُوبُهُ لِعَنِيّةٍ
عَجْلَى ، وَذَاكَ غُرُوبُهُ لإِسَارِ
مَالي رأيتُ فناءَ دارِكِ عَاطِلاً
مِنْ كلّ أَبلَجَ كالشّهابِ الوَارِي
مُتَخَلّيَ الأقطَارِ إلاّ مِنْ جَوًى
ونشيجِ كُلّ خريدةٍ مِعْطَارِ (1)

فتفجعه على قبيلة تغلب يكمن في فقدها نموذجي البطولة وهما المرثي الذي اغتيل على يد أبي الذواد العقيليّ، وأبو فراس الحمداني الذي وقع في اسر الروم ، فأصبحت الديار بخلوها من الأبطال بلقعا ، ولم يبق الاّ الجوى المضطرم في النفوس ونشيج الخرّد البيض يقطّع القلوب وكأنّ الشاعر بذلك النشيج ينعى الاصالة العربيّة التي تتشوق نفسه اليها ، فإصراره على معاني المنعة والاباء والفروسيّة ضمن مراثيه لأمراء العرب دلالة على ذلك التوق ، فهو يعاود ذات الأسلوب في رثاء صديقه أبي حسّان ابن المغلّد أمير عقيل (طويل)

ألا ناشداً ذاكَ الجَنَابَ المُمَنّعَا
وجُرداً يُناقِلْنَ الوَشيجَ المُزَعْزَعَا

---

1) الديوان 1 / 491 .

وَمَنْ يَمْلأُ الأيّامَ بأساً ونائلاً
وتُثْنَى لهُ الأعناقُ خوفاً ومطمَعا (1)

فالشاعر يرثي في الأمير العربي ضياع المنعة العربيّة المعتمدة على الغروسيّة المتمازجة من الشجاعة والاباء والسخاء فتوجّع الشريف على الأمير هو توجّع على مجد ضائع ومعالي مندثرة : (طويل)

فَيا بانياً للعِزّ ثُلّم مَا بَنَى
وَيا راعياً للمَجدِ أُهمِلَ ما رَعَى
تَهافَتَ ثوبُ المَجْدِ بَعْدَكَ عَنْ بِلىً
كأنّكَ لمْ تَرْقَعْ مِنَ الأرضِ مَرْقَعَا (2)

وعلى ذلك فالتحام الشريف بأصدقائه من أمراء الأطراف العرب هو التحام روحي ، وهاجس يلح على نفسه بالعودة الى الاصالة التي افتقدها في المجتمع البغدادي الذي غلبت عليه النزعة المادية ، وفقد اصالته العربيّة بامتزاج الأجناس المتضاربة الأهواء والمشارب ، فقوله : (متقارب)

أُحِبُّ الخِيَامَ وَسُكّانهَا
وأحْسُدُ كُلّ بَعِيدِ المَرَاحِ
وأغْبِطُ كُلّ فتىً لا يَزالُ
عِبئاً على الزّاعِبَاتِ القِمَاحِ (3)

ما هو الاّ حنين الى الحرية وشوق الى البساطة وانعتاق من بريق الحضارة ، وهو في موقفه ذاك يمثّل روح العربي الشيمي الذي يعيش ازدواجيّة الضياع بين الشعور بالانتماء

---

1 ، 2) الديوان 1/635 ، 637 .

3) الديوان 1/248 والزاعبيات ، من زعب البعير = اذا مرّ مثقلا أو سريعا ، القماح من قمح البعير = رفع رأسه عند الحوض وامتنع عن الشرب .

والحنين الى الاصالة ، ويكمن ذلك في رثائه للحمدانيين وغيرهم من العرب ورجال القبائل ، وبين التمسّك بالعقيدة التي هي في حمى البويهيين غير العرب، وهذا ما يفسّر ارتباطه بهم ومدحه ورثاءه فيهم ، وبطبيعة الحال فإنّ هذه الازدواجيّة تولّد نوعا من عدم الاستقرار النفسي الذي يؤدّي بدوره الى استماريّة الحزن والأسى والتمرّد .

ب - رثاء الوزراء :

يحكم تفجّع الشريف على وزراء آل بويه ، المقدرة الادارية والاضطلاع بالمسؤوليّة في انصاف النّاس والسهر على الأمن وعلى هذا فقد كانت صداقته مقتصرة على بعض منهم دون سواهم ، لذا لم يرث من وزراء عصره سوى اثنين يشهد التاريخ لهما بحسن السيرة في تدبير الأمور، وقد جاء رثاؤه فيهما متناسبا لما ورد في سيرة كلّ منهما من الثناء الجميل ، وحب العدل والعلم والنظر الثاقب في الأمور ، لذلك يمكن أن يقال في هذا الصدد أنّ تفجّعه على افتقادهما هو تفجّع على الصفات الحميدة والخصال الطيبة التي كانت من القلّة والنّدرة ما جعله دائم البحث عنها .

رثاء الصاحب بن عبّاد :

يقول في مرثيته في الصاحب بن عبّاد متحسّرا على بلاغته وبراعته الأدبيّة : (كامل)

واهًا على الأقلام بَعْدَك إنّها
لم تَرْضَ غَيْرَ بَنَان كَفّك آلا

أفقدنَ مِنكَ شُجاعَ كُلّ بلاغَـــةٍ
وإنْ قالَ جَلّى في المقالِ وَجَالا
مَنْ لَوْ يَشَا طَعَنَ العِدا برؤوسِهِا
وأشارَ مِنْ جِرْيَالِهَا قَسْطَالَا (1)

فحصافة الصاحب بن عبّاد وسداد رأيه ، وسعة اطلاعه وتمكنّه من ثقافة عصره جعلت له مكانة سامقة في نفس الخاص والعام وهيبة حتّى في نفس من استوزره (2) ، فطارت سمعته في الآفاق ، وعلى الرغم من أنّ الشريف لم يلتق به ، الاّ أنّ صداقته به كانت متينة بحكم ارتباطهما بحرفة الأدب وحب الشعر ، وقد ظلّ الشريف مخلصا لتلك الصداقة وفيّا لها ، ومن حرصه عليها نأى بها الأمور المادية ، أمّا وقد نعى الصاحب بن عبّاد الى الشريف ، فإنّه سارع الى رثائه بقصيدة بلغت مئة واثني عشر بيتا من أجود الرثاء وأعمقه (كامل)

أكذا المنونُ تُقنطِرُ الأبطَالا
أكذا الزّمانُ يُضَعْضِعُ الأجْبَالا (3)

اذ أنّه بتلك المرثيّة يريد أن يقلّد الوزير في وداعه لدنياه عقدا من خيره لأكلى الأدب ، وقد ضمّن الشاعر مرثيته من الصفات ما كان مأثورا عن المرثي في مزاوجته بين السيف والقلم بحيث لم يترك في عصره لأديب أو شاعر في المشرق الاّ وحضر مجلسه أو راسله كتابة (4) ، فقد كان قطب رحى

---

1) الديوان 2/206 والجريال = الدم ، والقسطال = الغبار .
2) لمعرفة مدى هيبة الصاحب وعلو منزلته عند من استوزره راجع الثعالبي - يتيمة الدهر 1/190 .
3) الديوان 2/261 .
4) يقول الثعالبي في اليتيمة 3/189 في مكانة الصاحب الأدبيّة " اختص به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ممّن يربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي .

العلم والأدب والسياسة ، حتّى أنّ الوزارة من بعده صارت ضياعا ونهبا للمنتفعين ، وهو ما عناه الشريف بقوله : (كامل)

إنّ المشمّرَ ذيلَهُ لكَ خيفَةً
أرْخَى وجرّرَ بَعْدَكَ الأذْيَالا (1)

فبعدما كانت للوزارة هيبتها ومكانتها على عهد الصاحب أصبحت موضع مساومة المنتفعين من مرتزقة السياسة في القرن الرابع الهجرى (2) .

رثاء عميد الجيوش الحسين بن أبي جعفر :

ولما كان الرضي ينشد الطمأنينة والسلام ، فقد أحبّ من يدعون اليهما من أولي الأمر ، ويثبتون دعائمهما في مجتمع بغداد المضطرب ، وعلى ذلك الأساس توطّدت علاقاته بالصاحب عميد الجيوش (3) ، وقويت علاقته به لما وجد في شخصه من حب للعدل ، وتفان في اقرار النظام مستخدما في ذلك الحكمة وسداد الرأي ، فلمّا فاجأته المنيّة افتقد فيه الرضي تلك الصفات (متقارب)

لقدْ كانَ رأيُكَ حَلَّ العِقالِ
إذا طَلَعَ المُعْضِلُ الكَارِبُ
وَقَدْ كانَ عندَكَ فَرجُ المَضِيقِ
إذا عَضّ بالقَتَبِ الغَارِبُ

---

1) الديوان 2/206 .

2) حول ضياع هيبة الوزارة بعد وفاة الصاحب بن عبّاد راجع الروذراوري - ذيل تجارب الأمم 3/263 .

3) قال عنه صاحب الشذرات 3/161 أنّه " أباد الحرامية والشطّار وقد جاء في عدله وهيبته حكايات" .

يفيءُ اليْكَ مِنَ القَاصِيـــــاتِ
مُـراحُ المَناقِـبِ والعَـازِبِ
فيومُ النُّهَى مُشـرِقٌ شَامِـــسٌ
ويـومُ النّـدَى ماطِـرٌ سَاكِبُ (1)

فالتفجّع علـى المرثي يعنـي التأسّف والتحسّر علـى حصافـة الـرأي فـي حـلّ المعضـلات ، والعسـك بزمـام الأمـور فـي المصائـب والملمـات ، والهيبـة التـي تبـددت مـن النفـوس بعـد افتقـاد المرثـي . وفـي ذلـك يقـول : (متقـارب)

وكُنـتَ العَمِيـدَ لَهَـا والعِمَـادَ
فَضَـاعَ الحِمَـى وَوَهَـى الجانِـبُ (2)

فتأسّف الشريـف علـى الأصدقـاء مـن الـوزراء وكبـار رجـال الدولـة فـي عصـره ينطلـق مـن نزعـة خلقيـة متولّـدة عـن مثاليـة الشاعـر فـي تخيّـر الأصدقـاء والمحافظـة علـى ودّهـم والوفـاء لهـم .

ج- رثـاء الكتّـاب،والأدبـاء ، والعلمـاء ، والفقهـاء :

بحكـم ميـل الشريـف لـلأدب وشغفـه بالشعـر ، واطلاعـه بأعبـاء التدريـس ، ومركـزه الاجتماعـي الـذي فـرض عليه التعامـل مـع قضـاة عصره وفقهائـه ، تكونـت لديـه صداقـات واسعـة فـي محيطـه الثقافـي ، وعلـى الرغـم مـن تحملـه لعـبء المسوولية وهـو مـازال فـي مقتبـل العمـر الاّ أنّ ذلـك لـم يمنعـه من تكويـن صداقـات مـع مـن يكبرونـه سنّـا مـن كتّـاب عصـره ، القاصـي منهـم والدانـي ، وقـد وطّـد مـن تلـك العلاقـات وقـوّى مـن أواصرهـا مـا كـان يـدور بينـه وبينهـم مـن مناقشـات فكريّـة

1) الديـــوان 1/139 .
2) الديـــوان 1/140 .

ونقديّة في مجالس الأدب والفكر التي كانت تعقد في بغداد أو عن طريق المراسلات في حالة تعذر اللقاءات وفي الرسائل الشعريّة والنثريّة المتبادلة بينه وبين أبي اسحاق الصابي ما يشهد على ذلك، هذا وقد بذل الشريف كلّ ما في وسعه من جهد لابقاء حبل الود متصلا بينه وبين أولئك الأصدقاء فلم يشغله أيّ عمل مهما كانت أهميته عن مراعاة الأصدقاء وتعهد الصداقة بالسؤال عن القاصي ومواصلة الداني ومواساة الضعيف منهم بالرعاية والعطف والمساعدة ، فكان تألمه لفقد الواحد منهم كتألمه لفقد القريب ، بل قد يغلب تحسّره على فقد الصديق منهم ،تحسّره لوفاة فرد من أفراد أسرته، يقول ضمن مرثيته الأولى في الصابي : (كامل)

الفَضْلُ نَاسَبَ بَيْنَنَا إنْ لَمْ يَكُن
شَرَفي مُنَاسِبَهُ ولا مِيلَادِي
إنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أُسرَتِي وَعَشِيرَتِي
فَلأنْتَ أعلقهم يَدًا بِوَدادِي (1)

فلقد تخطّى الشريف بصداقته كلّ الحدود وكسّر كلّ القيود ليقيم نسبه بالفقيد على اعتبار الفضل والكرامة والوفاء لا على شرف المحتد وفارق السن ، فكون المرثي لا ينتمي بالنسب الى الشاعر، لا ينقص من قدره ولا يقلّل من قيمته ، لأنّ في الوفاء والاخلاص ما يكفي لجعله أقرب الى روح الشاعر من الأهل والعشير (2) .

---

1) الديوان 1/385 .

2) يقول د . محفوظ ـ الشريف الرضي ص2 ـ انّ الشريف المرتضى قد استاء من "أن ينزل الشريف (الرضي) نفسه الى منزلة رجل كافر خامل النسب ، وأن يعترف له (بالنسب) وبالقرابة . . . . . واستعظم أن يصبح حفيد النبي (نسيبا)

=

رثـــاء أبـــي منصـــور الشيـــــرازى :

انّ شغـف الرضـي بالعلـم والأدب جعلـه يشغـف بصداقـة العلمـاء والأدبـاء ، ويجـزع لفقدهـم ، ويبكـي فـي وفـاة الواحـد منهـم علمـه وثقافتـه وفصاحتـه ، معّـا جعـل تحسّـره في فقدهـم يتناسـب مـع تفـرد كـلّ واحـد منهـم فـي مجالـه الأدبـي وخاصيتـه الثقافيّـة ، فتحسّـره علـى الكاتـب والأديـب أبـي منصـور المرزبـان الشيـرازى (ت 583) يظهـر فـي قولـه : (منســـرح)

ولوعـةٍ تَحْطِـمُ الضُّلُـوعَ إذا
ذكَرْتُ قُـرْبَ اللّقَـاءِ عَـنْ كَثَـبِ
إنْ قَطَـعَ المـوتُ بيْنَنَـا فَلَقَـدْ
عِشْنَـا وَمَـا حُبْلُنَـا بِمُنْقَضِـبِ
كَـمْ مجلـسٍ صَبّحَتْـهُ السُّنُنَـا
تفـضّ فيـه لطَائِـمُ الأدَبِ
مـن أثـرٍ يونـق الفَتَـى حَسَـنٍ
أوْ خبـرٍ يبسـط المُنَـى عَجَبِ
أوْ غَـرضٍ أصْبَحَـتْ خَواطِرُنَـا
تُساقِـطُ الـدّرَّ مِنْـهُ فـي الكُتُبِ (1)

فقـد الشاعـر صديقـا قريبـا الـى نفسـه ، طالمـا عاقـده الـودّ مـن خـلال مجالـس الأدب التـي تثيـر ذكراهـا الشجـى فـي

= لرجل غير مسلم فقال (ما حطوا الاّ كلبا) جوابا على مستهـل القصيدة " اعلمت من حطوا على الأعـواد .....
ونحن نستبعـد أن يصدر مثل ذلك القول من الشريف المرتضى في حق أبي اسحاق الصابي صديق عائلة الشريفين خاصة وأنّ المرتضى قد شارك في رثائه بقصيدة منها : (كامـل)
لـولا حِمامُك ما اهتـدى هـمٌ الـى قلبي ولا نارٌ الى إحراقي
وسَلبتُ مِنك أجلّ شطري عيشتـي وفجِعْتُ مِنْكَ بأنفس الاعلاقِ
ديوان المرتضى 2/349.

1) الديـــــوان 1/152 .

نفسه لما للفقيد من براعة في تفتيق أكمام الكلام وقدرة على بسط الأخبار العجيبة ، وشاعرية سيّالة في شتّى الأغراض كلّ تلك المزايا تثير في نفس الشاعر الشجى وتهيج أشجانه فتحيل تغييراته (منسرح)

يَا مِقْوَلَ الدَّهْرِ لِمْ صَمتّ وَقَدْ
كُنْتَ زَمانًا أمضَى مِنَ القُضُبِ
يَا نَاظِرَ الفَضْلِ لِمْ غَضَضْتَ وَمَا
كُنْتَ قديمًا تُغضي على الرِّيَبِ (1)

الى أنّات وَنواح يحز في النفس ويقطع نياط القلب .

رثاء أبي اسحاق الصابي :

واذا كان ذهاب الأدب والشعر هما سبب تفجعه في صديقه أبي منصور الشيرازى ، فإنّ تفجعه على الفصاحة والبلاغة وتدبيج الرسائل هو ما تضمنه رثاؤه في أبي اسحاق الصابي (كامل)

مَنْ للبلاغَةِ والفَصَاحةِ إنْ هَمَى
ذاكَ الغمام وَغَبّ ذاكَ الوَادِي
مَنْ للمُلُوكِ يَجُزّ في أعدائِهَا
بِظُبىً مِنَ القَوْلِ البليغِ حِدَادِ
مَنْ للممالِكِ لا يَزالُ يُلِمّهَا
بِسَدَادِ أمرٍ ضائعٍ وَسَدَادِ
مَنْ للجَحَافِلِ يَسْتَزِلّ رِمَاحَهَا
وَيَرُدّ رَعْلَتَها بغيرِ جِلادِ
مَنْ للموارقِ يَسْتَرِدّ قُلُوبَهَا
بِزَلازِلِ الإبْرَاقِ والإرْعَادِ (2)

---

1) الديوان 1/153 .

2) الديوان 1/383 .

فتكرار الاستفهام التفجعي يعني افتقاد المجتمع خصال الكتابة التي اجتمعت لدى الفقيد بحيث لم يعد في وسع غيره أن يقوم مقامه في احكام القول في العقود والمواثيق والرسائل بما تحويه من مزج محكم بين البلاغة والفصاحة ، فقد أثّر عن الصابي كتابة عهود الملوك واتفاقيات الصلح وتحرير مواثيق كبار رجال الدولة والأعيان (1) ، وغير ذلك من رسائل وتوقيعات تتعلّق بأمور الدولة في القرن الرابع .

وفي تحسّر الشريف على فقده الصابي يبلغ به الحزن ذروته ويفقد تماسكه ، لما لذلك الشيخ الكبير من مكانة في نفسه فحرقة فراقه تجعله يتمنّى لو لم يرتبط به ذلك الارتباط المتين تجنّبا لما هو فيه من لوعة وكمد بسبب افتقاده (كامل)

يَا ليتَ أنّي ما اقتنيتُكَ صَاحِبًا
كَمْ قِنيَةٍ جَلَبَتْ أسىً لفُؤادِي (2)

رثاء الشاعر الحسين بن الحجاج :

وفي تألمه على فقد الشاعر الحسين بن الحجاج (ت 391) يركّز الرضي على المميزات التي كان شعر الفقيد ينفرد بها دون غيره من شعراء عصره (متقارب)

فَأيْنَ تَرُوعُهُ للنّضَالِ
وَهَبّاتُهُ للطّوالِ اللّدانِ
يَشُلّ الجوائِحَ شلّ السّيَاطِ
ويلوِي الجَوَانِحَ لَيّ الِعَنانِ

---

1) لمعرفة بعض نماذج من المواثيق والرسائل التي كتبها الصابي راجع - يتيمة الدهر 312/2 وما بعدها .

2) الديوان 384/1 .

فَإنْ شاءَ كانَ حِرَانَ الجِماحِ
وإنْ شاءَ كانَ جِماحَ الحِرَانِ
يَهَابُ الشّجَاعُ غَدَامِيرَهُ
على البُعدِ مِنْهُ مَهَابَ الجَبَانِ
وَتَعنُو المُلُوكُ لَهُ خِيفَةً
إذا رَاعَ قَبلَ اللّظَى بالدُّخَانِ (1)

فمن مميزات شعر ابن الحجاج التصرف في المعاني على كل وجه مع " سلامة الألفاظ وعذوبتها وانتظامها في سلك الملاحة والبلاغة وان كانت مفصحة عن السخافة (2) وذلك ما عناه الشريف بسرعة النضال والقدرة على توجيه أفانين الشعر الوجهة التي يريدها من غير تكلّف ولا تعسّف في استجلابها ، معّا جعله مهابا لا يأمن الشجاع غضبه مهما تنائت المسافات بينهما ، وتخشى الملوك تلميحه بالهجاء فتحسّر الشاعر على الفقيد ضمن الدعاء والأمر في قوله : (متقارب)

فَزُلّ كَزَيَالِ الشّبابِ الرّطيـ
ـبِ خَانَكَ يَوْمَ لِقَاءِ الفَوَانِي
لَيُبْكِ الزّمَانُ طويلاً عَلَيْكَ
فَقَدْ كُنتَ خِفّةَ رُوحِ الزّمَانِ (3)

بما تضمنه الدعاء من انسياب مأسوى هادئ في تدرج انحسار الشباب في هدوء ومشابهته بانحسار ربيع الشعر يعني صمت الفقيد الأبدي بعد أن كان (خفّة روح الزمان)

---

1) الديوان 442/2 .
2) الثعالبي - يتيمة الدهر 30/3 .
3) الديوان 443/2 .

لما احتواه شعره من معان بديعة جعلت له مكانة في نفس الخاص والعام على الرغم ممّا حواه من سخف وفحش .

رثاء أبي الفتح ابن جنّي :

وفي تفجعه على موت صديقه وشيخه أبي الفتح بن جنّي (ت392) يركّز الشريف على ما للعالم الجليل من فضل على العربية (طويل)

فَمَنْ لأوابي القولِ يَبلُو عِرَاكَها
وَيَحذِفُها حَذْفَ النّبالِ المواردِ
إذا صَاحَ في أعقَابِهَا أطْرَدَتْ لَهُ
ثَوانيَ بالأعنَاقِ طَرْدَ الوَسَايِقِ
وَمَنْ للمَعَانِي في الأكِمّةِ أُلقِيَتْ
الى بَاقِرٍ غَيبَ المَعَانِي وَفَاتِقِ
يُطَوّحُ في أثْنَائِهَا بِضَمِيرِهِ
مَرِيرُ القُوَى ولاّجُ تِلكَ المَضَايِقِ
تَسَنّمَ أعْلَى طَوْدِهَا غيرَ عَاثِرٍ
وجَاوَزَ أقصى دَحْضِهَا غيرَ زَالِقِ (1)

فتحسّره على المتوفى منصبّ على ما افتقدته اللغة العربية من نصير يتصف بعقلية علميّة فذة في توضيح ما غمض منها ، وعلى ما افتقدته معانيها من مفتق لاكمّتها ، ومذلل لما استعصى منها ، وذلك بأعمال فكره ونافذ بصيرته في ولوج مضايقها والغوص على درها ، فبلغت على يده ذروتها

---

1) الديوان 65/2 .

وجاوزت المدى في خطى ثابتة دون أدنى تعثّر ، لذلك فإنّ فناء جسده لم يحل دون خلود فكره وبقاء ذكره على مرّ الدهور وتعاقب السنين (طويل)

طوى منهُ بَطنُ الأرضِ ما تستعيدهُ
على الدّهرِ منشُوراً بُطونُ المَهارقِ(1)

رثاء أحد فقهاء الشيعة :

وحول تفجعه على أحد فقهاء الشيعة سنة 394 ،يركّز الرضي على ما كان يتصف به المتوفى من عقليّة جدليّة ، ومحاجات كلاميّة بعيدة الوقع على الخصوم (طويل)

بِرُغمِيَ أنْ أُوردتَ قَبلي بمَـوْردٍ
تَبَرّضْتَ منهُ لا زُلالاً ولا بَـرَدا
جَزَتْكَ الجَوازِي عن عِمارٍ أقمتَهَا
وعن عُقَدٍ للدّينِ أحكمتَهَا شَدّا
وذي جَدلٍ ألجمتَ فاهُ بفُصّةٍ
تَلَجْلَجُ فِيهِ لا مُسَاغـًا، ولا رَدّا
قَعَسْتَ لَهُ حتّى التَقَيْتَ سِهَامَهُ
وأثْبَتَّ في تامُورِهِ الحُجَجَ اللُّدّا
وَمَزْلَقَةٍ للقولِ ما شُئْتَ دَحْضَهَا
وقد زَلّ عَنْهَا مَنْ أعادَ وَمَنْ أبدَى(2)

فقد ورد خبر الوفاة على الشاعر وهو في موضع يقال له العذيب عند أبوته من مكّة (طويل)

---

1) الديوان 2/66 .

2) الديوان 1/380 وتبرضت منه = أخذت قليلا من مائه ، قعست له = أي قعدت له خارجا صدرك وداخلا ظهرك ، تامور = قلبه ، اللد = الشديد الخصومة .

أتاني ، وَرحلي بالعُذَيب، عَشِيّةً ،
وأيدي المَطَايَا قَدْ قَطَعْنَ بِنَا نَجْدَا (1)

فلم يتمالك نفسه فكانت الأبيات ضمن مرثية أوحتها المناسبة متذكّرا خلالها ما لذلك الفقيه من ايادٍ بيضاء على المذهب وما له من باع طويل في قضايا الفقه ومن صبر وجلد وسعة صدر في المحاجات الكلامية مستندا في ذلك على ثقافة واسعة نأت به عن مزالق القول والوقوع في الشبهات.

إنّ شدة حزن الشريف على فقد أولئك المثقفين والعلماء هو مزيج من اللوعة والأسى على رابطته بهم كأصدقاء أحبهم وأخلص الود لهم ، وعلى خسارة العلم والأدب والثقافة بفقدهم ، فانتماؤه الى طبقتهم جعله دائم التفجّع كلما نظر في جليل أعمالهم وخالد آثارهم ابّان طرحه للمسائل العلميّة في حلقات الدرس وفي مسامراته مع من بقي منهم.

5- رثاء الأصدقاء من عامّة النّاس :

لم يقصر الشريف الرضي رثاءه على المرموقين من رجال عصره ، بل كان يرثي حتّى المغمورين من أصدقائه الذين لم يتبوأوا مراكز هامة أو مناصب عالية ، فكثيرا ما نجد في ديوانه قصائد ومقطوعات في رثاء أصدقاء لم تذكر أسماؤهم لكونهم نكرات بالنسبة لمجتمعاتهم ولكنهم معارف في ضمير الشاعر وقلبه ، لذلك حتمت عليه رابطة الصداقة أن يكون مواصلا لهم في حياتهم ، متتبعا أخبارهم ومتذكّرا اياهم عند افتقادهم ، فكان الرثاء عنصرا من عناصر

---

1) الديوان 1/ 380 .

الوفاء التي ملأت جنبات نفسه المفعمة بالمشاعر الدفاقة، ويتمثّل تفجعه على أولئك الأصدقاء في تحسّره على افتقاد الخصال الحميدة والمزايا الطيبة التي كانوا يتحلّون بها، ففي رثاء صديق له (ت 381) يقول : (بسيط)

ما كانَ ذيلُكَ مَسدولاً على دَنَسٍ
وَلا نِطَاقُكَ مَعْقُودًا على طَمَعِ
ما شِئتَ مِنْ لِينِ أخلاقٍ وَمكرُمَةٍ
وَمِنْ عفافٍ ومن فَضْلٍ ومن وَرَعِ
لِلّهِ نَغْرَةُ وَجدٍ لَسْتُ أملِكُهَا
إذا تذكّرتُ إخوانَ الصّفاءِ مَعي
يُواصِلُ الحُزْنُ قَلْبِي كُلّمَا فُجِعَتْ
يَدي بِحَبْلٍ مِنَ الأقْرَانِ مُنْقَطِعِ (1)

فالشريف يبكي في فقد صديقه طهارة النفس وكرم الأخلاق والشرف والورع، فكلّ تلك الخصال الكريمة تحول بينه وبين النسيان ممّا يجعل الأحزان متصلة بتتبّع الفناء لمثل أولئك الأصدقاء الذين يظن الزمان بأمثالهم .

وتفجّع الشاعر على أولئك الأصدقاء المغمورين لا يقلّ في حرارته عن سابقه في الأهل والخلفاء وغيرهم من عليّة القوم لكون حبّه لا تباين في مستوياته ولا تفاضل في تقسيماته . ثمّ أنّ تأجّج عاطفة الحزن لديه لا تنضب ولا يخبو لهيبها، والسبب في ذلك التراكم المأسوى المعشّش في أعماقه يقول مناجيا صديق افتقده : (كامل)

يا صاحِبَ الجَدَثِ الذي نَغَشَتْ بِهِ
فاسترجعتهُ بِرُغمِنَا الأزْمَانُ

---

1) الديوان /649 .

نبكيكَ لو يُثْنى بأدمُعِنَا الرّدى
أو برعوي لِبُكائِنَا الحِدْثَانُ
أُنزِلْتَ أقرَبَ مَنْزِلٍ مِنّا فَلِمْ
بَعُدَ المَدَى وَتَعذّرَ اللّقْيَانُ ؟
لَوْلا هَجيرُ الدّمعِ بل هَجرُ الكَرَى
دَفَنّاكَ في أحشائِهَا الأجْفَانُ (1)

فالتحسّر والبكاء لن يجديا لاستعادة من مضى من الصحاب الذين قلّما يجود الزمان بأمثالهم ، فقد تعذّر اللقاء وبعدت الشقة برغم القرب من القبور والمقابر ، ولولا الدموع الحرّى والسهد المستمر الذي يحول دون انطباق الجفون لجعل الشاعر لأولئك الأصدقاء من العيون دفنا .

فاندماج الشاعر مع موضوع الرثاء وذوبان روحه في الحزن على الأصدقاء جعل تراجيع الحزن أكثر تفجّعا وأعمق ايلاما ممّا لو قصر ذلك الرثاء على التأبين ،لأنّ ذاتية الشاعر في مثل ذلك هي بمثابة البركان الذي يقذف بحممه الملتهبة حزنا ليغطّي جميع معاني القصيدة ، على اعتبار أنّ المتوفى بضعة من روحه يودعها التراب ، فكلما : بكى صديقا ، بكى في فقده جزءا من روحه وجسده كما في قوله في رثاء صديق : (كامل)

أحبابيَ الأدنين كم ألْقَى بِكُمْ
داءً يَمُضّ، فَلا أُداوي الدّاءَ
أَحْيَا إخاءَكُمُ المَمَاتُ، وَغيرَكُمْ
جَرّبتُهُمْ ، فَتَكِلْتُهُمْ أَحْيَاءَ

---

1) الديوان 2 / 511 .

إلاّ يكُنْ جَسَدي أُصِيبَ فإنّني
فَرّقْتُهُ فدفنتُه أعضاءَ (1)

فعظم رزيته في فقد الصديق لا يحدها حد ، لأنّه ليس من أولئك الذين ما ان ينأوا حتّى ينسوا فقوله (فدفنته أعضاء) لا تكلف فيه ولا تصنع لأنّ روحه تظلّ متعلقة بأولئك الأصدقاء دائمة الذكرى لهم .

ويتفجّعه على فقد صديقه أبي الحسن البتّي (ت 405) دفن الشاعر ما تبقّى من نفسه المنهكة بتكالب الهموم عليها في قوله : (مجزوء الكامل)

مَا لِلهُمُومِ كأنّهَا
نَارٌ عَلى قَلْبِي تُشَبّ
والدّمْعُ لا يَرْقَا لَهُ
غَرْبٌ كأنّ العَينَ غَرْبُ
لِوَداعِ إخْوَانِ الصّبَا
بِ مَضَتْ مَطَايَاهُمْ تَخُبّ
فَارَقْتُهُمْ والعَيْنُ عَيْـ
ـنٌ بعدَهم والقَلْبُ قَلْبُ (2)

فقد رثى الشريف نفسه في شخص صاحبه ، وهو في تصويره لعاطفة الحزن لا يحتاج الى تزويق الألفاظ والجرى وراء استجلاب الجزل منها لأنّ التناسق بين طبيعة تجربته الشعوريّة وطبيعة الاشعاع الايقاعي والتصويري للنمط هو المنسق بين الجو الشعوري والجو التعبيري في قصيدة الرثاء لديه فالأبيات السابقة هي ممّا قاله الشاعر على

---

1) الديوان 1 / 34 .

2) الديوان 1 / 170 .

البديهة إثر سماعه بنبأ وفاة صديقه الحميم ، ولكن التفجّع الاستفهامي في مطلعها ليس قصرا على ذلك الصديق ، لأنّه سؤال تائه في خضم التأوهات التي امتلأ بها صدر الشاعر بعد أنْ رأى نفسه يكاد يكون وحيدا بعد أنْ ودّع الكثير من أصدقائه وخلاّنه محتملا عبء الرزيء مصبّرا نفسه على الوجد الذي ما برح يلازمه ، حتّى كانت وفاته بعد نظمه لتلك المقطوعة بعدّة شهور ، وكأنّه من خلال ذلك الصديق قد كان ينعى نفسه في آخر ما قاله من رثاء محدّثا نفسه (مجزوء الكامل)

مَا أخطأتْكَ النّائِبَا
تُ إذا أَصَابَتْ مَنْ تُحِبُّ (1)

رثاء الدول المندثرة وأيامها في الشعر العربي :

البكاء على الدول المندثرة وأيامها صورة متطورة من البكاء على الأطلال بفعل انتقال الشاعر العربي من مجتمع البداوة الى المجتمع المتحضّر ، فبقاء أثر الموروث التفجّعي في الطالع الطللي الى العصور الاسلاميّة المتأخّرة لم يحل دون انفصاله ليكوّن بنفسه موضوعا قائما بذاته له مقوماته الفنية مثله في ذلك مثل بقيّة المضامين الشعريّة التي انفصلت عن القصيدة العربيّة كالنسيب والخمريات والشكوى ، لذا لا يمكن القول بأنّ " أول دولة بكاها الباكون دولة بني أميّة التي سقطت سنة 132 من الهجرة " (2) لأنّ بكاء الأطلال في صورته الجاهليّة ما هو الاّ تفجّع على الوطن اذا ما وضعنا في الاعتبار أنّ المضارب التي عاش البدويّ

---

1) الديوان 1 / 170 .
2) شوقي ضيف ـ الرثاء ص 40 .

فيها هي بمثابة ذلك الوطن الذي ترعرع في ربوعه، وبفعل تنقله المستمر، أصبحت تلك الأطلال والربوع منحوتة بداخله فما أنْ يتذكرها أو يراها حتّى تثير أشجانه وتستحث شاعريته، فيمكف باكيًا ما بقي من طلولها، متلمسا في جنباتها ذكريات صباه كما فعل لبيد (كامل)

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِهَا
حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا
رُزِقَتْ مَرَابِيعَ النُّجُومِ وَصَابَهَا
وَدْقُ الرَّوَاعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا
مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ
وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَمُهَا
فَعَلَا فُرُوعُ الأَيْهُقَانِ وَأَطْفَلَتْ
بِالجَلْهَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا
وَالوَحْشُ سَاكِنُهُ عَلَى أَطْلَائِهَا
عُوذاً تَأَجَّلَ بِالفَضَاءِ بِهَامُهَا
وَجَلا السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا
زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلامُهَا (1)

---

1) أبو زيد القرشي - جمهرة أشعار العرب - ص 238 وتجرّم= تكمّل ، حلالها ، حرامها = يريد أشهر الحل وأشهر الحرام المرابيع = أوائل الأمطار ، الوصاب = المطر ، الودق = مطر الربيع الجود = ما قشّر وجه الأرض الرهام = المطر الضعيف ، سارية = سحابة تجيء ليلا ، مدجنة = مظلمة ، الارزام = الصوت وسحابة مرزمة اذا كانت مصوتة بالرعد ، الايهقان = نوع من شجر الصحراء ، أطفلت = ولدت وصار معها أطفال ، الجلهتان = جانبا الوادي ، العوذ بالفتح والسكون = هي التي معها أولادها تعوذ بها ، تأجّل = تصير آجالا أي قطعانا من البقر ، جلا = كشف ، الزُّبر = الكتب والمفرد زبور تجدد = أعيد تجديد كتابتها بالمرور بالقلم على ما انطمس من الحروف .

فالشاعر يتحسّر على ربوع شبابه وما حلّ بها من وحشة بفعل تعاقب السنين عليها بعد أن بارحها أهلها ، فاكتست أرضها - بفعل تهاطل الأمطار - بالنباتات البرية وكثرت الأشجار الصحراويّة ، فاتخذتها الظباء والنعام مرتعا لنتاجها واستحالت أطلالها ملاذا وسكنا لبقر الوحش وغيرها من حيوانات البادية ، كما وضح بعض ما اندثر من تلك الطلول بفعل تتالي السيول وتتابع هطول الأمطار عليها ، مثلها في ذلك مثل الكتاب الذي عفت سطوره فعاود القلم توضيحها .

ولو تتبعنا بقيّة الأبيات للمسنا من خلال انتقال الشاعر من ذلك الوصف الحسّي المجسّد للأطلال عبر العين المجردة الى المواقف المعنويّة المنبثّة عن عميق تفجّعه على تلك الطلول المرتبطة باحساسه ووجدانه . وقد بقيت المقدمة الطللية بعد انتقالهم الى الحضر كتقليد يحتذى ، الاّ أنها وجدت من يأبى فرضها على القصيدة العربيّة ، ويتصدّى لمهاجمتها وذلك منذ بداية القرن الثاني الهجري ممّا يعني ذلك البدايات الأولى لانفصالها لتكوّن موضوعا قائما بذاته ، ويعتبر الكميت بن زيد الأسدي (ت 126) من أوائل الشعراء الذين دعوا الى نبذ المقدمة الطلليّة في قولهَ :

(بسيط)

سَلِّ الهُمُومَ لِقَلْبٍ غَيْرِ مَشْغُولِ
وَلا رَهِينٍ لَدَى بَيْضَاءَ عُطْبُولِ
ولا تَقِفْ بِدِيَارِ الحيّ تَسْأَلُهَا
تَبْكِي مَعَارِفَهَا خَلاَ بِتَضْلِيلِ
مَا أَنْتَ والدّارَ إِذْ صَارَتْ مَعَارِفُهَا
لِلرّيحِ مَلْعَبَةً ذَاتِ الغَرَابِيلِ (1)

---

1) الكميت بن زيد الأسدي - الهاشميات ص 62 .

فصدق الشاعر مع نفسه هو ما حدا به الى اتخاذ ذلك الموقف ازاء المقدمة الطللية لعدم استجابتها مع نفسه خاصّة وأنّ مجتمع الكوفة الذي عاش فيه وترعرع هو من المجتمعات المستقرّة ، كما لم تحدث انتقالات وهجرات خلفت أطلالا لها ارتباط بحياة الشاعر حتّى يعرّج عليها باكيا ، وهذا في حد ذاته نأي عن التصنّع في المواقف وابتعاد بالنفس عمّا لم تعايشه أو تذق أساه ، ولكن مهاجمة تلك المقدمة التقليديّة والدعوة الى نبذها من قبل بعض الشعراء لا يعني انحسارها من كافة الشعر العربي إلاّ أنّه يعني في حدّ ذاته محاولة للتمرد على تقليد قائم ، أتاح بدوره لظهور موضوع قديم جديد هو موضوع رثاء الدول .

وكان أبو العبّاس الأعمى (1) أول من اتخذ البكاء على الدول موضوعا مستقلاً ، بينما كان في السابق تابعا للقصيدة العربيّة امّا في مقدمتها كوصف الطلل أو في ثناياها كتذكّر ملوك الغرس وغيرهم من اقيال اليمن وملوك الحيرة والمناذرة ابّان الرثاء ، هذا وقد تمثّل قوله في (خفيف)

ليت شعري أفاحَ رائحةُ المسـ
ـكِ ؟ وما انْ إخال بالخيفِ نفسي
حِينَ غابتْ بنو أميّة عنهُ
والبهاليلُ من بني عبدِ شمسِ
خطباءُ على المنابرِ فرسا
نٌ عليها وقالةٌ غيرُ خُرْسِ

---

1) أبو العبّاس الأعمى = السائب بن فروخ شاعر مكي ، كان هجاء خبيثا مبغضا لآل الرسول (ص) مائلا لبني أميّة مداحا لهم ، توفي في خلافة المنصور - محمد شاكر الكتبي - فوات الوفيات 2/41 .

لا يُعابـون صامتيـنَ وإن قـا
لـوا أصابـوا ولـم يقولـوا بِلِبْـــــسِ
في حلـومٍ إذا الحلـومُ تقضت
ووجـوهٍ مثـلَ الدنانيـرِ مُلْـــــسِ (1)

ولـم يتمكّـن الشاعـر مـن قـول ذلـك فـي رثـاء الأمويين ودولتهـم الاّ بعـد أن تقلّـب فـي نعيمهـم ممّـا جعلـه يصـدر فـي شعـره عـن عاطفـة نابضـة بالحـبّ لهـم وبالحـزن والتفجّـع علـى زوال ملكهـم ، فالمثيـر الحقيقـي الـذي كـان يحـرك الشعـر داخـل نفسـه قـد تغيّـر بتغيّـر الظـروف ، فأحالـت تلـك الظـروف المقدمـة الطلليّـة الـى موضـوع قائـم بذاتـه هـو رثـاء الـدول وقـد اقتصـر فـي بداياتـه علـى الأبيـات القليلـة لمـا فـي ذلـك مـن ضيـق فـي مجـال القـول علـى الشاعـر بحكـم جدّتـه عليـه ، وقـد أخـذ هـذا اللـون مـن الشعـر يـزداد انتشـارا ، ويأخـذ مكانـة الصدارة فـي عصـر الرشيـد ، وبعـد أن نكـب البرامكـة علـى وجـه التحديـد فأخـذ الشعـراء فـي رثائهـم لأنّ لهـم ايـاد حميـدة علـى العلـم والأدب ونشـر العـدل ، فبكاهـم الشعـراء وتأسفـوا علـى مـا حـاق بهـم مـن قتـل وتشريـد كقـول سيـف بـن ابراهيـم : (طويـل)

هَـوَتْ أنجُـمُ الجَـدْوَى وَشُلّـتْ يـدُ النّـدى
وَغاضَـتْ بُحـورُ الجودِ بَعْـدَ البرامِـكِ
هـوَت أنجـمٌ كانـت لأبنـاءِ برمـــــكٍ
بهـا يَعْـرِفُ الحـادي طريـقَ المَسَالِـكِ (2)

وفـي القـرن الثالـث يتنـاول رثـاء الـدول البحتـري الـذي بلـغ بسينيتـه فـي وصـف ايـوان كسـرى الـذروة ، ولكنّـه لـم يكـــن

---

1) الحصـري القيروانـي - زهـر الآداب 1/413 والبيـت الخامـس زيـادة فـي فـوات السابـق 2/41 .

2) الطبـري - تاريـخ الرسـل والملـوك 8/301 .

كسابقيه ممّن رثوا دولة بني أميّة أو أيّام البرامكة : فأولئك رثوا واقعا عايشوه ، أمّا هو فقد رثى دولة من خلال أطلالها ، إضافة الى أنّ تلك الدولة لا تمت اليه بأيّة صلة ، ولقد شعر هو بذلك وأشار اليه ضمن قصيدته (خفيف)

فَلَهَا أنّ أُعينَهَا بدموعٍ
موقفاتٍ على الصبابةِ حِبْسِ
ذاكَ عندي وليستِ الدّارُ داري
باقترابٍ منها ، ولا الجِنْسُ جِنْسي (1)

ورغم البعد الزمني بين الشاعر وبين بُناة الايوان ، وشعوره بعدم الانتماء لمن يرثيهم الاّ أنّ ذاته قد أضفت على القصيدة شعورا مأسويّا ، فالمصائب المتتالية على الشاعر هي التي أوحت اليه بتذكّر الساسانيين ، في محاولة للتأسّي بمصابهم ، لذلك فإنّ رثاءه للايوان متولّد عن حالة نفسيّة هالعة ، مثلها في ذلك مثل تذكّر الطلل عند الشاعر الجاهلي حين يتذكّر شطرا من حياته قضاه في ربوع ذلك المكان ، مع فارق نسبي بين الموقفين ، فموقف الجاهلي في التذكّر من خلال الطلل هو موقف أزلي متعلّق بذاته ، أمّا موقف البحتري من الايوان فهو موقف آني متعلّق بلحظته المعاشة ومشاطرة الايوان له في ذلك الأسى ، علما بأنّ ما قاله أحد النقّاد حول اختياره لروي السين وما فيه من همس حزين (2) ـ رغم ما في ذلك من تحفّظ ـ هو في الحقيقة مسبوق فيه ، فأبيات أبي العبّاس الأعمى

---

1) البحتري ـ ديوانه 2/1159 .

2) راجع ـ ايليا حاوي ـ في النقد الأدبي 3/147 فقد قال في شأن بحر القصيدة وروييها " وهو الروي الذي يؤلّف بطبيعة =

في رثاء دولة بني أميّة ، قد اتخذ فيها صاحبها السين رويّا والبحر الخفيف وزنا ، ممّا يقوّي الظنّ في استعارة البحتري لكلّ ذلك من سابقه ولكن كلّ ذلك لا يقلّل من قيمة القصيدة من الناحية الفنية ، فالموقف النفسي للبحتري وعمق شعوره بمأساته ، وخصوبة خياله ، هو ما جعل للقصيدة مكانة الصدارة في رثاء الدول في التراث العربي .

ورثاء الدول والأيّام المندثرة كموضوع قائم بذاته في الشعر العربي ، سار - بالنسبة لمضامينه - في اتجاهين متوازيين ، تركّز أحدهما على رثاء الأسر البائدة الممثلة

=) ايقاعه الموضوعات الفنائيّة الشجيّة ، اذ لا ينطوي على الجلبة الخطابيّة التي ينطوي عليها وزنا الكامل والطويل مثلا " وما قاله الناقد في هذا الشأن أمر نسبي فهناك من القصائد ما قيلت على البحر الكامل وهي بعيدة كل البعد عن الخطابية - راجع على سبيل المثال قصيدة الشريف الهمزيّة في رثاء أمّه الديوان 42/1 وبشأن الروي قال " وقد قام رويّها على حرف السين المهموسة ممّا يوافق طبيعة الموضوع في الهمس والبثّ والبوح "، والأمر في هذا المجال أيضا نسبي لأنّ طبيعة الحرف في استخدامه كروي يتولّد عن موقف الشاعر النفسي ابّان عمليّة الابداع ، فهو ليس من اختيار الشاعر ، وعلى هذا الأساس قد ترد السين المكسورة كروي في المدح ممّا يمنحها القوة كما في قول المرتضى : (وافر)

رجالٌ لا يبالونَ المَنَايَا تُصَبّحُهم نَهاراً أو تُمَسّي
بألسنةٍ خُلقْنَ لغيرِ ذوقٍ وأفواهٍ شُنِقْنَ لغيرِ نَهْسِ

ديوان المرتضى 127/2 والنهس = كالنهش أخذ الشيء بأطراف الأسنان .

لمرحلة من مراحل الحكم أو الادارة في حقبة ما كما هو عند أبي العبّاس الأعمى في رثاء بني أميّة ، وكما هو عند شعراء العصر العباسي الأول في رثاء البرامكة والاتجاه الثاني والأكثر بروزا في الشعر العربي يتخذ رثاء الأطلال مضمونا محتذيا حذو الجاهليين كما هو عند البحتري في سينيته المشهورة . ويمكن ضمّ الاتجاه الأول من ذلك الرثاء الى جزء من الاتجاه الثاني تحت فكرة واحدة تنبع في الأساس من معايشة الشاعر واخلاصه للدولة التي رثاها في حكامها أو في ما بقي من أطلالها أمّا الجزء الباقي من الاتجاه الثاني فيندرج تحت رثاء الدول البائدة ممّا لم يعايشه الشاعر ولكن التحام الشاعر بالطبيعة وتجاوب تلك الطبيعة بأطلالها المندثرة مع نفسه هو مصدر ذلك الرثاء كما هو عند البحتري في سينيته .

رثاء الدول والأيّام المندثرة في شعر الشريف :

وشعر الشريف الرضي في رثاء الدول المندثرة وأيامها ، يأخذ في مضامينه بكلا الاتجاهين ، فقد عايش أيّام الطائع العباسي وتقلّب في نعيمها ، ممّا جعل قلبه يهفو اليها بعد أن اندثرت ، أمّا الاتجاه الثاني فيتمثّل في محاولة التذكّر من خلال أطلال الممالك المندثرة ، وقد اتخذ من أطلال الحيرة مرتكزا في احدى قصائده ، كما عوّل على رثاء ملوك تلك الأطلال في قصيدة ثانية ، ولكلّ موقف من مواقف الرثاء تلك حالته النفسيّة الخاصّة التي تحتّم علينا التأمّل فيها على حده كما سيأتي :

أ- رثاء أيّام الطائع العبّاسي :

لسنا بحاجة لتكرار ما قلناه عن علاقة الرضي بالطائع العباسي ، فلقد ظلّ الشاعر على وفائه لذلك الخليفة المخلوع

رغم زوال دولته وأفول نجمه ، فأخذ الحنين لتلك الأيّام يعاوده (مجزوء الكامل)

صَانعتُ يومَ فراقِهِ
قلباً قَد اعتَنَقَ الغَلِيلَا
ظَعَنَ الغِنَى عَنّي وحَـ
ـوّلَ رَحْلَهُ إلاّ قَلِيلَا
إنْ عَادَ يوماً عَادَ وجـ
ـهُ الدّهرِ مُقْتَبِلاً جَمِيلَا (1) ..

ورثاء الرضي لأيّام الطائع المخلوع وهو يعيش في خلافة ابن عمّه الذى جلس على انقاض العزل ، يعني الكثير بالنسبة للشاعر ، خاصّة وأنّ أمنياته بعودة عزّ المعزول تعني ضمنا تمنّي زوال خلافة القادر الذي قيلت القصيدة في أيامه ، وهذا يوصّل الى نتيجة مفادها أنّ الشاعر يعيش صراعا نفسيّا عميقا بسبب رفضه للواقع وتحسّره على الماضي (مجزوء الكامل)

لَهْفِي على ماضٍ قَضَى
ألاّ نَرَى منهُ بَدِيلَا
وزوالُ مُلْكٍ لَمْ يَكُنْ
يوماً يُقَدّرُ أنْ يَزُولَا (2)

فالتلهّف في هذا المجال سببه امتلاء النفس بالأسى ،اذ لو كان الشاعر راضيا عن الوضع لما اتخذ منه ذلك الموقف الهروبي ، الذي يستخلص منه أنّ السلطة المتمثلة في الخليفة هي التي ألجأته لذلك ، ولَمّا كان غير قادر على

1، 2) الديوان 2 / 196 ، 195 .

أن يقاوم الوضع لجأ الى الماضي ليدفن فيه أحزانه ويبدي تحسّره على أيّام الطائع (مجزوء الكامل)

يَا نَاظِرَ الدّينِ الّذي
رَجَعَ الزّمَانُ بِهِ كَلِيلَا

يَا صَارِمَ المَجْدِ الّذي
مُلِئَتْ مَضَارِبُهُ فُلُولا

يَا كَوْكَبَ الاحْسَابِ أعْـ
ـجَلَكَ الدُّجى عنّا أُفُولا

يَا غَارِبَ النّعَمِ العِظَا
مِ غَدَوْتَ مَعمُورًا جَزِيلا

يَا مُصْعَبَ العَلْيَاءِ قَا
رَتْكَ العِدَا نِقْضًا ذَلُولا (1)

فالشاعر بندائه التفجعي المتكرر لا يرثي أيّام الطائع، بل يرثي الطائع ذاته وهو مازال حيّا ، فالقصيدة ممّا قاله الشاعر متحسّرا عليه بعد خلعه بعام واحد ، فانتقال الشريف من أيّام النعيم والعز التي عاشها في كنف الطائع، الى أيّام الشقاء والمذلّة التي كابدها في أيّام القادر هي التي أثارت مشاعره وألهبت معاناته فمنح كلّ ذلك قصيدته الصدق وجعلها أقرب الى رثاء النفس من رثاء الأيّام.

ب - رثاء الحيرة وملوكها المناذرة :

خصّ الرضي رثاء الحيرة وملوكها المناذرة بقصيدتين ، رائيّة عدد أبياتها خمسة عشر بيتا ، وقد انصبّ مضمونها على رثاء أولئك الملوك العرب ، وثانية نونيّة عدد أبياتها ستّة وثلاثون بيتا ضمّنها الشاعر وصف أطلال الحيرة وختمها

1) الديوان 195/2 والمصعب = الفحل ، النقض = الهزال .

بالتأسّي على حضارة كلّ من الغساسنة والأكاسرة وملوك اليمن وأقيالها وبعض فرسان العرب المشهوريـن .

وتخصيص الرثاء في الحيرة وملوكها دون غيرهم من الملوك الذين تركوا آثارا خالدة في العراق له أبعاده الخاصّة في شعر الشريف ، وكان سبب مولد كلتا القصيدتين مرور الشاعر بأطلال الحيرة ، أي يمكن اعتبار تلك المشاهدة هي الباعث على أساء المحرّكة لشاعريته ، فالشاعر يريد أن يقول شيئا محتبسا بداخله ساعدت تلك الأطلال على اطلاقه ولكن هناك مثيرا آخر بالنسبة للنونية ، قد يكون هو الأساس في نظمه تلك القصيدة ، فاحتشاد نفسه وتأهّب روحه ، وهو متوجّه الى الكوفة لزيارة قبر الامام عليّ سنة 392 ، ومروره بالحيرة أثناء ذلك ، هو المحرّك لمعاني القصيدة ، وإنْ لم يأت على ذكر الامام ولا على ذكر قبره على الاطلاق فقوله : (كامل)

حُلَلُ المُلوكِ رَمى جَذيمةَ بينَهَا
والمُنذِرَيْنِ تَفايُرُ الأزْمَانِ
طَرْدًا كدأبِ الدّهرِ في طرْدِ الأُلى
وَإلَى الحَفَائِظَ في بَني الدّيّانِ
نَعَقَ الزّمانُ بِجَمْعِهِمْ عن لَعْلَعٍ
وأقضّ منزلَهُمْ عَلى نَجْرَانِ
وَكَالِ جَفْنَةَ أزْعَجَتْهُمْ نبوةٌ
نَقَلَتْ قِبابَهُمُ عَنِ الجَوْلانِ
وَعَلى المدائنِ جَلْجَلَتْ برعادِهَا
عَرَكاً لَكَلْكَلِهَا على الإيوانِ
زَفَرَ الزّمانُ عَلَيْهُمُ فَتَفرّقُوا
وَجَلوا عَنِ الأوْطَارِ والأوْطَانِ (1)

---

1) الديوان 2/ 470 ، 471 . جذيمة = هو جذيمة الابرش، المنذريـن = المنذر الأول والمنذر الثاني ، والثلاثة من ملوك الحيرة ، بني الديّان =

=

لا يعني الرثاء باستعراضه لكلّ ذلك الجمع من الملوك الذين بادوا ، خاصّة أنّه لم يقصر ذكره على من خصّهم بمرثيته من ملوك المناذرة بل تعدّاهم الى بني الديّان وهم بطن من بطون العرب كان سكنهم نجران باليمن ، والغساسنة والأكاسرة وغيرهم من ملوك اليمن ، وهو يقصد من وراء ذلك بعفويّة تامّة أن يقول للامام عليّ ، وهو متوجّه الى زيارته ، وقد امتلأت نفسه بالأسى على آل البيت ، بأنّ كلّ مُلْكٍ مهما عظم وامتدّ به الزمن ، لابدّ أن يؤول الى زوال ، ولن تبقى بعد ذلك الاّ الحقيقة التي حاول الامام المتوجّه اليه اجلاءها ، ولكن رجال عصره حالوا بينه وبين ذلك ، ففارق ولم يترك أثرا ماديّا متمثّلا في بناء شامخ ، أو قصر منيف ، بل ترك فكرا بقي في نفوس شيعته الذين منهم الشاعر ، تلك الحقيقة منحوتة في أعماقه ولكنّه لا يستطيع التصريح بها ، وكأنّه من خلال معاني الأبيات يريد أن يقول لخلفاء وملوك عصره : بأنّ مصيركم جميعا هو مصير أولئك الملوك . فالقصيدة في مجملها - كما أعتقد - هروب من وضع جاثم بكلّ ثقله على صدر الشاعر ، وقد شارك في منح معانيها التدفّق والحيويّة عنصران تاريخيان ، الأول شخصي متعلّق بنسب الشاعر ويكمن في ازماعه زيارة قبر جدّه الامام علي ، أمّا الآخر فقومي يتمثّل في مروره بأطلال الحيرة مدينة المناذرة العرب ، وقد ركّز في رثائه لتلك المدينة الخالدة على السكون الأبدي الذي طبّق أرجاءها بعد أن كانت نابضة بالحياة كما في ندائه التفجّعي : (كامل)

=) بطن من بطون العرب نسبة الى الديّان بن قطن الحارثي أحد أشراف العرب ، لعلع = جبل وماء بالبادية ، نجران = بلد باليمن ، آل جفنه = الغساسنة ، النبوة = البعد ، الجولان = عاصمة الغساسنة بالشّام .

أَمَقَاصِرَ الغِـزْلانِ غيّـرَكِ البِلَـى
حَتّـى غَـدَوْتِ مَرابِـضَ الغِـزْلانِ

وَمَلاعِـبَ الإنْـسِ الجميعِ طَوَى الرَّدَى
مِنْهُـمْ، فَصِـرْتِ مَلاعِـبَ الجِنّـانِ (1)

فتجلّي براعة الرضي في مقارنته بين ماضي المدينة المشرق وحاضرها الكئيب المحزن فالغرف والمقصورات التي يشهد طراز بنائها على عظمة أصحابها قد جلت البهجة عنها بجلاء أهلها ، وزالت نظارتها وأطبق البلاء عليها بعد أن هجرها سكانها فاستحالت الى ملاذ ومراتع للحيوان ، ولم تعد المرابع والساحات الاّ ملاعب للجن الذين تصورتهم مخيلة الشاعر ، بعد أن كانت مضامر لجرى الجياد العربيّة المطهمة ، ومجالس أنس ولهو لأولئك الرجال الذين طواهم الردى فخيّم الدهر بكلكله على تلك الربوع فلم تجد نفعا بالنسبة لأولئك الذين عمّروها ، ولم تحفظهم من غوائل الموت ، ممّا يجعل الشاعر في موقفه التفجّعي الذاهل ذاك يسأل (كامل)

مَا يَنْفَعُ العَاضِينَ إنْ بَقِيَتْ لَهُمْ
خُطَطٌ مُعَمَّرَةٌ بِعُمْرِ فَانِ (2)

أمّا قصيدته الرائيّة في رثاء المنازرة فهي أقرب الى التأمّل الحزين منها الى التفجّع ، فقد استوقفه اعجابه الشديد بالمنازرة أمام ما شيّدوا من عمران يدلّ على مدى قوتهم ، فأثارت ربوعهم في نفسه ذكرى أمجاد الماضين فراح يتأمّل فيها ويسأل رسومها (خفيف)

---

1 ، 2) الديوان 2/ 469 ، 468 .

أَيْـنَ عِقْبَانُـكِ الخَواطِـفُ حلّقْـ
ـنَ ، وأَبْقَيْنَ عِنْـدَكِ الأُوكَـارَا ؟
وَرِجَـالٌ مِثْلُ الأُسُـودِ فيـ
ـكِ، تَدَاعَـوْا قَوائِمـاً وَشِفَـارَا (1)

فتحسّر الشاعر على المنـاذرة لـم يطفـيء جـذوة تحمسـه بوصفهـم فـي موتهـم بالعقبـان فـي تحليقهـا ، والأسـود التـي بارحـت عرينهـا ، وتتجلّـى روعـة التصويـر فـي تشبيهـه الحيـرة فـي منعتهـا مستظلّـة بحكـم المنـاذرة كالوكـر المحلّـق فـي أعالـي الجبـال .

والقصيـدة فـي مجملهـا لا تخـرج عـن كونهـا تأبيـن للمناذرة حـاول الرضـي مـن خلالـه استعـراض مآثرهـم ، مسبـغ عليهـم مـن الصفـات مـا كـان قدامـى الشعـراء يسبغونـه علـى الملـوك والزعماء مـن تنـاه فـي الجـود وفـي اكـرام الضيـف (خفيـف)

المُهِيبُـونَ بِالضُّيُـوفِ، إذا هَبّـ
ـتْ شَمـالاً والمُوقِـدُونَ النّـارَا
كُلّمَـا بَـاخَ ضَوْءُهَـا أَقْضَمُوهَـا
بالقُبَيْبَـاتِ مندليا وَغَـارَا (2)

وفروسيّـة متسمـة بالابـاء والشمـم (خفيـف)

رَبَطُـوا حَوْلَـكِ الجِيَـادَ وَخَطّـوا
لَـكِ مِنْ مَرْكَـزِ العَوالـي عـذارا
وَحَمَـوْا أَرْضَـكِ الحَوافِـرَ حتّـى
لَقَبُوا أَرْضَهَـا خُـدُودَ العَـذارَى (3)

---

1) الديـوان 1/510 . أعتقد أنّ هـذه القصيدة سابقة علـى النونيـة ، لامتيازهـا بحمـاس الشبـاب المتدفّـق .

2، 3) الديـوان 1/509 والمندل والغـار = نوعـان من أنـواع العـود الطيّـب الرائحـة .

ومجد عظيم جاوز النجوم علوا ورفعة (خفيف)

وَقِبَابٍ كأنّمَا رَفَعُوا مِنْـ
ـهَا لِمُسْتَرْشِدِ الظّلامِ مَنَارَا
عَقَدُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نُجُومِ الـ
أُفْقِ مِنْ سَالِفِ اللّيَالِي جِوَارَا (1)

انّ رثاء الشريف للدول البائدة والأيّام المندثرة له علاقة وطيدة بنفسيته لانطلاقه من معايشة للحدث كما في رثاء الطائع ، أو اعتزازه بالانتماء العربي الذي يتوق اليه كما في رثاء الحيرة ، وفي كلتا الحالتين يبقى الرثاء منسجما مع وجدان الشاعر وذاته .

ظاهرة تكرار رثاء الشخص الواحد عنده :

من أهم الظواهر المميّزة لرثاء الرضي ، ظاهرة التكرار ، فهو لا يكتفي في رثائه للكثير من أصدقائه بمرثية واحدة ، بل يعاود الرثاء مرّات ومرّات حتّى لكأنّ المرثي مدفون في أعماقه ، وكلما عاودته الذكريات ، نبش تلك الأعماق مثيرا أساها ومجددا أحزانها فيلجأ الى الرثاء ليطفئ به اللظى ويهدئ من ثائرة الشوق . ويرتبط التكرار عادة بعمليتي التذكّر وتوارد الخواطر عن طريق الاثارة المباشرة أو غير المباشرة ، خاصّة وأنّ استرجاع المواقف لا تتولّد لدى الانسان صدفة ولا اعتباطا ، اذ لابدّ لها من مثير يؤجّجها ، وهذا ما يمكن النظر من خلاله الى ظاهرة التكرار في رثاء الرضي : فأولى مرثياته في الصابي كانت سنة 384 الاّ أنّه عاود رثاءه بعد تسع سنوات من وفاته أي في

---

1) الديوان 1/510 .

سنة 393 ، والمثير الذي بعث الذكرى في نفس الشاعر مروره بقبر صاحبه فكان مولد مرثيته الثانية التي مطلعها : (كامل)

لَوْلا يَذُمُّ الرَّكْبُ عِنْدَكَ مَوْقِفِي
حَيَّيْتُ قَبْرَكَ ، يَا أَبَا إِسْحَاقِ (1)

ثم أنّه يعاود الرثاء مرة ثالثة بفعل التذكّر والمثير أيضا الاجتياز بالقبر (طويل)

أَيَعْلَمُ قَبْرٌ بِالْجَنِينَةِ أَنَّنَا
أَقَمْنَا بِهِ نَنْعَى النَّدَى وَالْمَعَالِيَا (2)

ويقوم تكرار الرثاء - عند الرضي - في مضامينه على أسس ثلاثة :

الأول : تخليد المواقف والاعتراف بالجميل :

فعادة ما تكون العلاقات الانسانيّة السوية مبنية على العطاء والأخذ في كلّ مجالات الحياة ، اذ لا يقتصر ذاك على الأمور المادية بل يتعدّاه الى الأمور المعنويّة ، فقد يكون الشكر والامتنان هو المقابل لإسداء الجميل والعمل الطيّب ، والانسان في مثل هذه المواقف يذكر بمآثره ، وتخلده أعماله العظيمة ، فموت الجسد لا يميت الذكر الحسن في النفوس التي يأسرها المعروف ويقيّدها الاحسان ، والشريف من أولئك الذين يمتلكهم المعروف ، ويطوّق أعناقهم الجميل ، وذلك بدوره يجعل فضل المنعم عليه مخلّدا في أعماقه ، فأصالة العنصر وطيب الأصل لا يمكنان من اندثار الجميل في نفسه مهما ضئل ، اذ تظلّ ذكرى صاحب الفضل عليه

1، 2) الديوان 2/75 ، 579 .

كامنة في أعماقه فالموت لا ينال من وفائه ولا ينقص من حبّه ، فيبقى دائم التحسّر على من أسدى اليه معروفا ، من ذلك قوله في قوام الدين ضمن المرثية الثانية التي نظمها بعد مرور عام على وفاته : (طويل)

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي للأحبّةِ قَدْ أَنَى
لِقَلْبِي سُلُوٌّ، وَاطْمَأَنّ وُلُوعُ
وَلكِنّمَا أَبْكِي المَكَارِمَ أُخْلِيَتْ
مَنَازِلُ مِنْهَا للنّدَى وَرُبُوعُ
وَهَلْ أَنَا جازٍ ذلكَ العَهْدَ بالبُكَاءِ
وَلَوْ أنّ كُحْلَ العَالَمِينَ نَجِيعُ
أَبِيْتُ وَطُرّاقُ الهُمُومِ كَأَنّهَا
مَحَافِلُ حيّ تَنْتَجِي وَجُمُوعُ (1)

فبكاء الأمس بالنسبة للشاعر يختلف عن بكاء اليوم ، لأنّ بكاء الأمس بكاء تشوق ولهفة للقاء الحبيب ، أمّا بكاء اليوم فهو بكاء تحسّر ولوعة على ربوع خلت من المكارم وحلّق المجد عن سمائها ، وان كانت الدموع مهما كثرت وطال أمدها لا توفي ذلك العهد حقّه ولا تطفئ نار الوجد التي برّحها في القلوب ، أمّا السبب الذي جعله يتفجّع على ذلك الماضي ، فهو تذكّر مواقف الفقيد واعترافا بفضله ، اذ يفترض الشاعر أنّه لو كان حيّا لما صارت حاله الى ما هو عليه من هموم ومعاناة وألم (طويل)

أَضُمّ عَلَيْكَ الرّاحَتَيْنِ تَعَلّقًا
وَقَدْ نَزَعَتْهُ مِنْ يَدَيّ نُزُوعُ
أُنَادِيكَ مِنْ تَحْتِ الخُطُوبِ غَدَا لها
بِظَهْرِيَ رَحْلٌ ضَاغِطٌ وَقُطُوعُ

---

1) الديوان 1 / 624 .

وَمَا كَانتِ الأيّامُ يَقْرَعْنَ هَضْبَتِي
لَوَ أنّكَ وَاعٍ للدّعَاءِ سَمِيعُ
رَمَتْنِي سِهَامُ البَأسِ بَعْدَكَ جَهْرَةً
وَأنْبَضَ نَحْوِي عَاجِزٌ وَجَزُوعُ (1)

فالأبيات تصوّر حالة نفس بلغ بها اليأس منتهاه فأصبحت زاهدة في الحياة بعد أن فقدت الناصر والمعين ، ويلاحظ في هذا الشأن اقتصار تكرار الرثاء - في موضع الاعتراف بالجميل - على قوام الدين البويهي ، لما أسداه اليه من جميل رفع من مكانته وأعلى من شأنه (2) في مجتمع العراق .

الثاني : تمجيد الفروسيّة والهيام بالروح العربية :

إنّ عشق الشريف للصحراء وهيامه بروح الفروسيّة العربيّة ليس له حدود ، ولمّا كان من المعتذر عليه أن يعيش تلك الحياة بسبب انتمائه الحضري ، فقد حاول أن يعيشها من خلال شعره ، ومن خلال تكوين صداقات مع أمراء الأطراف الذين ما يزالون يحملون في نفوسهم روح الابناء والشمم العربي كبني حمدان الذين وصفهم أحد المستشرقين بأنهم " أنعشوا لفترة من الزمن روح القوميّة العربيّة المتفسخة بسرعة والتي كادت تنكسر وتخذل " (3) ، وكالعقيليين وعلى رأسهم حسام الدولة مغلّد بن الحسين العقيلي صاحب الموصل (ت 391) (4) ، ومن أصحابه أيضا أبو ليلى البدوي (5) .

---

1) الديوان 1/626 .
2) راجع في هذا الصدد علاقة الشريف بقوام الدين ص 174 من هذا البحث .
3) نكلسن - تاريخ الأدب العباسي ص 39 ، 40 .
4) راجع ترجمته عند : العماد الحنبلي - شذرات الذهب 3/138 .
5) يستفاد ممّا نظمه الشريف الرضي في أبي ليلى البدوي أنّه كان ينتمي لبني عامر بن لؤي واسمه عمر أو كعب وكنيته (أبو العوام) وقد كان دليله في رحلته الى الحج سنة 394هـ.

وعلى الرغم من أنّ الشريف لم يمدح أولئك الأمراء، الاّ أنّ تكرار الرثاء فيهم يعني أنّ علاقته بهم كانت وطيدة وكانت تلك العلاقة مبنية على الصداقة البعيدة عن أيّة منفعة مادية ، ثم أنّ الرضي كان يشعر بأنّه ندّ لأولئك ان لم يكن أرفع منهم منزلة ، ولكن ما أثّر عنهم من شجاعة وباء أسر لبّه ودفّق شاعريته نحوهم ممّا جعله يرى في موتهم خسارة للمجد وضياعا للفروسيّة ، فتكرار رثائه فيهم يعني التحسّر والتفجّع على الأصالة والمجد العربيين ، فيقول في احدى مرثياته في أبي حسّان ابن المفلّد : (طويل)

مَضَى النُّجَبَاءُ الأَطْوَلُونَ كأنّهُمْ
صُدُورُ القَنَا في الشَّرْعَبِيِّ المُعَضَّدِ
خَلَتْ بِهِمُ الأَجْدَاثُ عَنّا وأُطْبِقَتْ
عَلى المَجدِ مِنْهُم كلُّ بيداءَ قُرْدُدِ
تَفَانَوا عَلى كَسْبِ العُلى، وَتَجَرّعُوا
بأيديهِمُ كأسَ الرّدى جَرَعَ الصّدِي
أَلاَ في سَبِيلِ المَجْدِ ثاوُونَ لَمْ تَكُنْ
قُبُورُهُمُ غَيْرَ الدِّلاصِ المُسَرّدِ
وَكانُوا أحادِيثَ الرِّفاقِ فأصْبَحُوا
أغَانِيَ للغَوْرِيِّ وَالمُتَنَجِّدِ (1)

فقد توجّه الشريف من خلال مرثيّه الى التحسّر على المجد والفروسيّة المتمثلة فيمن توفّى من الأجداد الذين باندثارهم اندثرت آيات العز التي بذلوا في سبيلها النفوس وتجرعوا مرارة الموت ، فاستحالت أمجادهم الى ذكريات تثير الحسرة وتبعث الأسى بعد أن كانت واقعا ينتقل صدى رنينه عبر الآفاق .

---

1) الديوان 1/372 والقردد = ما ارتفع من الأرض ، الدلاص = الدرع ، المسرّد = المنسوج زردا .

وينعكس تفجّع الشاعر العميق - على المجد العربي - على شكل قصيدة الرثاء ولغتها ، يقول في احدى مراثيه في أبي ليلى : (رجز)

أَيْنَ أَبُو العَوّامِ لِلْعَواصِي،
يَرُوضُهَا، وَالخَيْلُ وَالدِّلاصِ
وَرَعْيُهَا بَيْنَ القَنَا العَرّاصِ،
مِنْ آمِنِ القُلاّمِ والقُرّاصِ
وَلِلقِرَى والطُّرَّقِ الخِرَاصِ،
وَلِلقَنَا يَلْدَغْنَ بِالأَخْرَاصِ
هَيْهَاتَ لا حَامِي إلى العِرَاصِ،
شِيمَ الظُّبَى وضمّت القَوَاصِي (1)

فالمرثيّة بدوية خالصة في مبناها ومعناها ، وكأنّ الشاعر يريد أن ينعى من خلال معانيها النخوة العربية بتركيز تفجعه على قيم البادية الأصيلة من شجاعة واقدام وكرم وتعاضد في الدفاع عن الأرض والعرض ، واختياره الألفاظ المغرقة في البداوة ذات الجرس القوى المرتكزة على حروف الطباق (الصّاد والضّاد والطاء والظاء) الدالّة في معانيها على الشدّة والقوة ك (العواص والدلاص والعراص، القراص) بالاضافة الى استخدامه بحر الرجز المغرق في بداوته ، كلّ ذلك يدلّ على توق النفس واشتياقها الى الوطن الأم الصحراء ، يقول ضمن مرثية ثانية في المتوفى ذاته : (وافر)

---

1) الديوان 1/568 والدلاص = صفة لمحذوف وهي الدروع البراقة العراص = اللدن اللينة ، القلام = القاقلي وهو نوع من النبات الحامض ، القرّاص = البابونج وهو نور الاقحوان اذا يبس الطرّق الخراص = الجياع المقرورون ، الاخراص = الأسنّة ، العراص = الأرض والحمى ، القواصي = النواحي .

وَمالِـي لا أُراعُ وَقَـدْ رَمَتْنِـي
يَدُ الجُلّى بِقارِعَـةِ التميمـي
أَحِـنُّ إِلَيْـهِ، وَاللُّقْيَـا ضِمَـارٌ
حَنِيـنَ العَـوْدِ لِلوَطَـنِ القَدِيـمِ (1)

فحنيـن الشاعـر للمتوفّـى هـو حنيـن الـى الوطـن القديـم مثلـه فـي ذلـك مثـل الجمـل المسـن فـي حنينـه لذلـك الوطـن وتعبيـر الشاعـر عـن التـوق والحنيـن مـن خـلال مرثيـه لاحساسه بـأنّ ذلـك المرثـي يحمـل سمـات الأصالـة العربيّـة التـي وطّـدت عـرى الصداقـة بيـن الشاعـر وذاك البـدوي ، فتكـرار الرثـاء ليـس سازجـا أو اعتباطيـا عنـد الشريـف ، لأنّـه يقصـد مـن ورائـه تلبيـة حاجـة ملحّـة فـي أعماقـه ، خاصّـة أنّـه لا يكـرّر الرثـاء الاّ فـي شخصيـات معينـة لهـا دلالات مرتبطـة بحيـاة الشاعـر ومثلـه العليـا ، ففقـد أولئـك الأشخـاص يذكـره بتلاشـي تلـك القيـم التـي يتـوق اليهـا ، ممّـا يـؤدّي بـه الـى اجتـرار الحـزن عليهـم مـرّات ومـرّات .

الثالـث : الوفـاء والحـبّ :

تجمـع كلمـة وفـاء ضمنـا كـلّ معانـي الحـب الانسانـي بمـا فـي ذلـك تخليـد المواقـف وتمجيـد الفروسيّـة ، وتقديـس القيـم الأصيلـة وتكـرار الرثـاء يعنـي فـي حـدّ ذاتـه ، وفـاء الشاعـر للمواقـف واخلاصـه وحبّـه للرجـال لأنّ صـدق الشاعـر مـع نفسـه يحتّـم عليـه الصّـدق والوفـاء بالتزاماتـه تجـاه مـن يحـب مـن النّـاس ، وهـو فـي سبيـل الوفـاء للصداقـة لا يقبـل اللـوم ولا يرضـى التقريـح ، فقـد بلغـه أنّ قومـا مـن بنـي عقيـل قـد أغضبتهـم مرثيتـه الرائيّـة فـي أبـي طاهـر الحمدانـي (2)، فعـاد

---

1) الديـوان 2 / 318 .

2) راجع القصيدة في الديون 1/ 490 .

ليؤكّد حبّه واخلاصه للمرثي في قصيدة ثانية ضمنها قوله : (منسرح)

أُلامُ أنّي رَثَيْتُ زافِرَةً،
كانوا نجومَ الفَخارِ أوْ لُمَعَهْ
إنْ لا تَكُنْ الأصُولُ تَجْمَعُنَا
يَوْمًا فإنّ القُلُوبَ مُجْتَمِعَهْ
كَمْ رَحِمٍ بالعُقُوقِ نَقْطَعُهَا
وَرَحِمُ الوُدّ غَيْرُ مُنْقَطِعَهْ (1)

فاللوم لا يثنيه عن التحسّر على أولئك الذين كنّى عنهم بفخار المجد ، لأنّ افتراق المنابت والأصول لا يحول دون اجتماع القلوب ومن الملاحظ أنّ الشاعر قد وضع مرتبة الصداقة فوق مرتبة الرحم والقرابة وفي ذلك قمّة الوفاء وغاية النبل ، يقول في احدى مراثيه في الصابي ، بعد وفاته بتسع سنين : (كامل)

لَوْلا يَذُمُّ الرَّكْبُ عِنْدَكَ مَوْقِفِي
حَيّيْتُ قَبْرَكَ، يَا أَبَا إسحَقِ
كَيفَ اشتياقُكَ مُذْ نأيتَ إلى أخٍ
قَلِقِ الضّميرِ إلَيْكَ بالأشْوَاقِ
هَلْ تَذْكُرُ الزّمَنَ الأنيقَ وَعَيْشُنَا
يَحْلُو عَلى مُتَأمِّلٍ وَمُذَاقِ
وَلَيَالِيَ الصّبَوَاتِ، وَهْيَ قَصَائِرٌ،
خَطْفَ الوَمِيضِ بِعَارِضٍ مِبْرَاقِ
لابُدّ للقُرَبَاءِ أنْ يَتَزَايَلُوا
يوماً، بِعُذْرٍ قِلَّ وَعُذْرِ فِرَاقِ (2)

---

1) الديوان 1/643 ، 644 .

2) الديوان 2/75 .

اذ لم يفتر حماس الشريف نحو صديقه الحميم برغم مرور السنين على افتراقهما فشوقه القديم مازال مضطرما وكأنّ بعدهما بعدانيّ يحاول الشاعر وصله من خلال تذكير ذلك الصديق بالأوقات التي قضياها في كنف السعادة معا والوقت يمضي سريعا وكأنّه وميض البرق الذي ما يفتأ بريقه أن ينقضي ويخفت لمعانه ، ثم أنّه يستخدم كلمة « قرباء » لشعوره باقتراب روحه من روح ذلك الصديق ممّا يؤكّد أنّ الوفاء جبلّة فيه ، اذ ليس من باب التصنّع في الحزن أن يقول في مرثية ثالثة لأبي اسحاق الصابي :

(طويل)

رَضِيْتُ بِحُكْمِ الدّهْرِ فِيْكَ ضَرُورَةً ،
وَمَنْ ذَا الذي يَغْدُو بِمَا سَاءَ رَاضِيَا
وَطَاوعتُ مَنْ رَامَ انْتِزَاعَكَ مِنْ يَدي
وَلَوْ أجِدُ الأعوَانَ أَصْبَحْتُ عَاصِيَا
وَطَامَنْتُ كيما يَعْبُرُ الخَطْبُ جَانِبِي
فَألقَى عَلى ظَهْرِي وَجَرّ زَمَامِيَا (1)

فحزن الشاعر على صاحبه جديد لم يبله الدهر ، ولم تخمد جذوته رغم مرور السنين ، وبالرغم من تضمن القصيدة أبياتا تدلّ بعض معانيها على بعد الشقة الزمنيّة بين موت المرثي وبين نظمها ومن ذلك (طويل)

أيَعْلَمُ قَبْرٌ بالجُنَيْنَةِ أنّنَا
أقَمْنَا بِهِ نَنْعَى النّدَى والمَعَالِيَا
مَرَرْنَا بِهِ ، فاسْتَشْرَفَتْنَا رُسُومُهُ ،
كَمَا اسْتَشْرَفَ الرّوضُ الظّبَاءَ الجَوَازِيَا (2)

(1 ، 2) الديوان 2/581 ، 579 ، 580 .

فقد استعاض الشاعر في مقدمة قصيدته عن بكاء الديار ببكاء ما بقي من آثار قبر صاحبه الصابي ، فاندثار القبر بتقادم عهد الوفاة لم يمنع نفسه الحزينة من الحنين لذلك الصديق محافظة على عهد الصداقة حتّى بعد الوفاة في محاولة منه تكرار الرثاء

شكل المرثية في شعر الشريف الرضي :

تكاد مرثاة الشريف الرضي أن تتخذ نمطا معيّنا لا تحيد عنه ، مثلها في ذلك مثل المرثاة العربيّة في شكلها القديم ، فتصريع المطالع من الأسس التي تمسّك بها في جميع مرثياته التي تربو الواحدة منها على العشرين بيتا ، أمّا المقدمة فلم تستقر في مضمونها على معان معيّنة لاعتمادها على نفسيّة الشاعر واستعداده لتقبّل نبأ الفاجعة ، فقد تكون تلك المقدمة ذات مسحة تأمليّة هادئة ينساب الحزن خلالها بتؤدة كما في رثائه لأبي طاهر الحمداني : (وافر)

تَغُوزُ بِنَا المَنُونُ وَتَسْتَبِدُّ،
وَيَأخُذُنَا الزَّمَانُ، وَلَا يَرُدُّ
وَانْظُرُ ماضِيًا في عَقْبِ مَاضٍ،
لَقَدْ أَيْقَنْتُ أنّ الأمْرَ جِدُّ
رُوَيْدًا بالفِرَارِ مِنَ المَنَايَا،
فَلَيْسَ يَفُوتُهَا السّارِي المُجِدُّ (1)

أو قد يتخذ من المقدمة الطلليّة مدخلا لقصيدة الرثاء كما في رثائه للامام الحسين : (كامل)

---

1) الديوان 1 / 366 .

هَذِي المَنَازِلُ بالغَمِيمِ فَنَادِهَا ،
وَاسْكُبْ سَخِيَّ العَينِ بَعْدَ جَمَادِهَا
إِنْ كَانَ دَينٌ للمَعَالِمِ فَاقْضِهِ ،
أَوْ مُهْجَةٌ عِنْدَ الطُّلُولِ فَفَادِهَا
يَا هَلْ نَبُلَّ مِنَ الغَلِيلِ الْمُبْهِمُ ،
إِشْرَاقَةٌ للرَّكْبِ فَوْقَ نِجَادِهَا (1)

ونادرا ما يجعل النسيب مطلعا لقصيدة الرثاء لما في ذلك من تناقض مع موقف الصوت الذي هو بصدده كما أنّه ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا (2)، إلاّ أنّ حسّه الشعري ودرايته بطبيعة موقف الرثاء هما اللذان يفرضان على المقدمة اتجاها معيّنا ، لذلك فإنّ تقديمه للرثاء بالنسيب في قوله : (طويل)

تَنَاسَيْتُ إِلاّ بَاقِيَاتٍ مِنَ الذِّكْرِ
لَيَالِيَنَا بَيْنَ القَرِينَةِ وَالغَمْرِ
وَكَمْ زَادَنِي فِيهَا الهَوَى عَنْ جِمَامِهِ
وَقَارَعَنِي الغَيْرَانُ عَنْ بَيْضَةِ الخِدْرِ (3)

لم يؤثّر على مجرى الحزن في القصيدة لما لمناسبة موضوع القصيدة والمقدمة من تقارب في مواقف الشاعر، فكلا الموضوعين النسيب والرثاء وردا عند الشاعر في مجال التذكّر، خاصّة وأنّ القصيدة لم تكن في رثاء شخص معيّن ، فهي في رثاء جماعة من عشيرته انقرضوا ، وعلى ذلك فالتذكّر هو الموحي له بتلك المقدمة التي وردت متناسقة مع طبيعة

---

1) الديوان 1/360 .
2) ابن رشيق ـ العمدة 2/151 .
3) الديوان 1/502 .

الموضوع الذي وضعت في سياقه . وفي غالب الأحيان يستغني تماما عن المقدمة فيهجم على موضوع الرثاء في تحسّر وألم كما في قوله : (كامل)

أبكيكِ لَوْ نقعَ الغليلُ بُكائي
وأقولُ لو ذهبَ المقالُ بِدَائي (1)

فمباغتته بالخبر ، وقوة علاقته بالمرثي هما اللذان يحددان نوع المقدمة ، فكلّما تقادم عهده بالمرثي كلّما جنحت مقدمته نحو التأمّل والتذكّر ، أمّا اذا كان خبر الوفاة مفاجئا وجديد عهد بالشاعر فإنّ قوّة وقعه على النفس تكون شديدة ، فتنعكس تلك الشدّة على طبيعة التجربة ، فيحول ذلك بينه وبين التأمّل باحثا في حناياه عمّا يعبر عن عمق حزنه وعظيم أساه ، فيدخل في موضوع الرثاء مباشرة دون أيّة معاضلة فيؤدّي ذلك الى التلاحم بين معاني القصيدة ويجانس بين أفكارها التي عادة ما تجري في نسق معيّن .

نسق المرثية عند الشريف الرضي :
==========

يتّبع الشريف الرضي في مرثياته نسقا معينا يكاد يكون منهاجا يسير على هديه ، مع ملاحظة التقديم والتأخير في العناصر التي بُنيَت القصيدة عليها ، أي أنّ مرونة النظام داخل القصيدة لا تلزمه بترتيب عناصرها ترتيبا متزمتا ، ممّا يسمح بانسياب المعاني في عفويّة تامّة أثناء عملية الابداع ، خاصّة وأنّ ظروف الرثاء تختلف عن ظروف المدح ، فالمناسبة في قصيدة المدح تتيح للشاعر فرصة

---

1) الديوان 1/ 26 .

انتقاء العبارات وتأمّل الصور ، وتنميق الأسلوب بأعمال الفكر في اللغة ، أمّا قصيدة الرثاء فعادة ما تكون فوريّة لا ترتبط بمناسبة معينة ولا بوقت محدد يستعدّ فيه الشاعر ويحشد طاقاته ، فالقصيدة فجائية كالمناسبة التي تخلق من أجلها ، ونسقها ينصبّ في أفكار معيّنة تتفاعل في نفس الرثي أثناء استغراقه في الحزن ، فيكون مولد القصيدة بتلك العناصر المميّزة مع اختلاف في الترتيب ، اذ لا تكاد مرثياته تخلو من العناصر التالية :

1- العبرة والموعظة :

هي نوع من الاستبطان والتأمّل يرد في قصيدة الرثاء معتمدا على مخزون الشاعر الثقافي ، ويستخدمه في التأسّي والاعتبار بالماضين تخفيفا من شدّة الحزن ، اذ تهون على الانسان مصائبه اذا تفكر من مصائب الآخرين ، وقد أشار ابن رشيق الى استخدام ذلك العنصر في شعر المراثي منذ القدم بقوله : " من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الاعزة ، والأمم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال والأسود الخادرة في الغياض" (1) والغرض من ذلك الاعتبار والاتعاظ بأن لا استمرارية في الحياة فالكلّ مآله الزوال وقد استخدم الشريف ذلك بكثرة متكئا فيه على مخزونه التاريخي كما في قوله : (كامل)

أَعْدَى حَذِيمَةَ بالرَّدَى وَعِدا على
رِدْفَيْ جَذِيمَةَ مَالِكٍ وَعَقِيْلِ
وَاسْتَنْزَلَ الأَزْوَاءَ عَنْ نَجَوَاتِهِمْ،
فَفَقَدْوا ذَوِي ضَرَعٍ وَطُولِ خُمُولِ

---

1) ابن رشيق - السابق 2/150 .

وَحَدَا بِآلِ المُنْذِرَيْنِ، فَوَدّعُوا
بالحِيرَةِ البَيْضَاءِ كُلَّ مَقِيلِ
وَسَطَا عَلى أَبْنَاءِ قَيْصَرَ سَطْوَةً
أَمَماً، فأَجْلَتْ عَنْ دَمٍ مَطْلُولِ
وأَعَادَ إِيوَانَ المَدائِنِ مُحْرَماً،
عُرْيَانَ مِنْ بُرْدِ العُلَى المسدول (1)

وقد يعزف عن العبر والمواعظ التاريخيّة، مستلهما اياها من واقع الأيّام في جورها بملاحقة الانسان (وافر)

هِيَ الأيّامُ جائِرَةُ القَضَايَا،
وَمُلْحِقَةُ الأَواخِرَ بِالأَوَالِي
يُمَنّيْنَ الوُرُودَ، فإنْ دَنَوْنَا
ضَرَبْنَ عَلى المَوارِدِ بِالحِبَالِ
نُطَنّبُ لِلمُقَامِ قِبَابَ حَيٍّ،
وَيَحْفِزُنَا المَنُونُ إلى الرّحَالِ (2)

وهذا العنصر لا يستقرّ في موضع معيّن داخل قصيدة الرثاء (3)، فقد يتخذ من صدر القصيدة مقرّا أو قد

---

1) الديوان 2/210 وردفاه = ندياه، الأمم = القصد والمطلول = المهدور

2) الديوان 2/212.

3) في رثاء الشريف لأبي الفتح بن الطائع (ت 399) - الديوان 1/21 - ورد عنصر العبرة والموعظة بمطلع القصيدة واستمرّ حتّى البيت الثاني عشر منها، وفي مرثيته في خاله أبي الحسين أحمد بن الحسين (ت 291) - الديوان 1/147 ورد العنصر بعد البيت السادس عشر واشتمل على سبعة أبيات باشر بعدها متابعة الرثاء، وفي مرثية ثالثة في صديق (ت 381) - الديوان 1/649 - ورد العنصر بعد البيت الخامس عشر واستوعب من مساحة القصيدة

=

يستقر في وسطها أو في ثلثها الأخير ، ولكن لا يختم به الشاعر مرثيته على الاطلاق لأنّ طبيعة العنصر تحتّم أن يكون في أيّ موضع من مواضع القصيدة فيما عدا الخاتمة لما يكتنف معانيه من تأمّل ترتاح النفس له وتتعظ به للتخفيف من أحزانها ، فهو بمثابة الموقف الذى يسترد فيه الشاعر أنفاسه لمتابعة رحلة الحزن عبر معاني القصيدة.

2- الأمنيات في مغالبة الموت :

عادة ما ينتاب الانسان الهلع والتحسّر عندما يفقد عزيزا ، وقد يؤدّي به كلّ ذلك الى تمنّي المستحيل ، أي استرجاع ما فات عبر لحظات الحزن الذي ينتاب نفسه ، وتتابع موت الأهل والأصدقاء والأحبّة على مرأى من الشريف ومسمع ، جعل نفسه الشفافة المشبعة بالأسى والحزن تواقة الى طلب المستحيل في محاولة صد غائلة الموت ، والانتصار عليه ، وكأنّه من الأمور الحسية التي يؤثّر فيها الملام وتردعها القوة ، ولكن تلك المحاولات لم تكن الاّ بأسلوب التمنّي الممتنع ، وقد سيطرت عليه فأخذ يكررها في معظم مراثيه (1) . يقول في احداها : (خفيف)

=) سبعة أبيات عاود بعدها الشاعر بكاءه على ذلك الصديق . ولم يختم الرضي قصيدة الرثاء بعنصر العبرة والموعظة على الاطلاق . وفي " جمهرة أشعار العرب " لأبي زيد القرشي ، وردت سبع مراث لم يرد عنصر " العبرة والموعظة " في خاتمة واحدة منها ، وعلى الرغم من قلّته في هاشميات الكميت الاّ أنّه لم يرد أيضا في خاتمة القصيدة عنده ، كما لم يورد المتنبّي عنصر " العبرة والموعظة " في خاتمة رثائه على الاطلاق ، ممّا يرجّح ما لُحذنا به من رأيٍ في عدم امكانية وروده كخاتمة لقصيدة الرثاء .

1) بصدد عنصر مغالبة الموت راجع على سبيل المثال الديوان 1/26 ، 145 ، 162 ، 2/72 ، 105 .

لَوْ لَوَى عَنْكَ رَائِعَ الخَطْبِ ذَبٌّ،
أوْ رَمَتْ دُونَكَ الحِمَامَ يَدَانِ
لَوَقَتْكَ الرَّدَى نُفُوسٌ عَزِيزَا
تٌ، وأيْدٍ مَلِيئَةٌ بالطِّعَانِ
وَرِجَالٌ، إذا دعُوا غُدْوَةَ الرَّوْ
عِ، وَقَدْ خَفَّ جَانِبُ الأقْرَانِ
شَمَّرُوا يَطْلُبُونَ نَاشِئَةَ الصَّوْ
تِ، خَنَاذِيذَ كالقَنِيِّ اللِّدَانِ (1)

3- هول المصيبة وفداحة الخطب بفقد المرثي :

ويقصد من ذلك ما أحدثته وفاة المرثي من هزّة في مجتمعه إذا كان من الشخصيات المرموقة ، أو ما أصاب أسرته من هلع إنْ كان المتوفى من الأصدقاء المغمورين ، ولهذا العنصر أهميته الكبيرة في جميع المراثي لكونه من عناصر الحزن الرئيسيّة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، ولكن على الرغم من تكراره في جميع مرثيات الرضي ، فإنّه لم يبق عنده على وتيرة واحدة ولم يتخذ نمطا مقولبا في شكل معيّن ، والسبب في ذلك قدرة الرضي الفذّة على التصرّف في معاني الحزن . أضف الى ذلك أنّ الاختلاف في ظروف الموت يساعد على التنوع في الأساليب المفجعة من ذلك قوله ضمن رثاء أبي طاهر الحمداني : (كامل)

اليَوْمَ صَرَّحَتِ النَّوَائِبُ كَيْدَهَا
فِينَا، وَبَانَ تَحَامُلُ الأقْدَارِ
مُسْتَنْزِلُ الأسَدِ الهَزَبْرِ بِرُمْحِهِ
وَلَّى، وفالِقُ هَامَةِ الجَبَّارِ
وَتَعَطَّلَتْ وَقَفَاتُ كُلِّ كَرِيهَةٍ
أبَدًا، وحَطَّ رِوَاقُ كُلِّ غُبَارِ (2)

---

1) الديوان 2/462.
2) الديوان 1/490 .

فقداحة الخطب عند الشاعر تكمن في افتقاد فارس عربي أصيل كان درءا ووقاء لمن يلوذ به أو يطلب نجدته .

وفداحة الخطب بوفاة أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكار (ت 388) تتمثل في افتقاد البلاغة وعلم الكلام لنصير عظيم لهما (كامل)

مَنْ يُشرِقُ الخَصْمَ الألَدّ بريقِه
عَيّاً وَيَقْدَعُ مِنْهُ مَا لَمْ يُقْدَعِ
أمْ مَنْ يُبَلّغُ بالبَلاغَةِ غايَةً
تَلْوِي بِحَسْرَى طالِبِيهَا وظُلّعِ(1)

ويقول ضمن مرثيته في أبي شجاع بكر بن أبي الفوارس مصورا ما أصاب المجتمع من حزن وهلع بسبب وفاته : (وافر)

مُصابُكَ لَمْ يَدَعْ قَلْباً ضَنِيناً
بِفُلّتِهِ، وَلا عَيْناً جَمَادَا
كأنّ النّاسَ بَعْدَكَ في ظَلامٍ
أوِ الأيّامَ ألبسَتِ الحِدَادَا (2)

لذا يمكن اعتبار هذا العنصر من أكثر عناصر رثائه تفجعا إذا ما استثنينا من ذلك عنصر «تفجّع الشاعر على مرثيته».

---

1) الديوان 632/1 .

2) الديوان 375/1 .

4- تحسّر الشاعر على الفقيد :

لا تكاد مرثاة الشريف تخلو من ذاتيته المعنونة عن متانة علاقته بالمتوفّى ومقدار تفجعه على فقده ، اذ يحكم شدّة الأسى وعظم الرزيّة في هذا العنصر متانة رابطته بالمرثي ، بغض النظر عن رابطة القرابة والجنس والدين ، فكلّما كان التوفّى قريبا من نفسه حبيبا اليها ، كلّما برزت ذاتيّة الشاعر المجسّدة لعمق التفجّع والهلع مع نسبة تفاوت بروزها بين مرثية وأخرى ، يقول متفجعا على المظفر أبي الحسن عبد اللّه بن محمد (ت 387) : (كامل)

خِلّي وَتِرْبَ أَبِي لَقَدْ سَلَمَتْ
مِنّي النّوائِبُ أَنْفَسَ الذّخْرِ
قَدْ كانَ مِن عُدَدي إذا طَرَقَتْ
بَرْلاءُ ضَاقَ بِهَا حِمَى الصّدرِ
وَهَوَ الزّمَانُ عَلى تَقَلّبِهِ ،
يَنْوِي العُقُوقَ بِنِيّةِ البِرّ
كَمْ زَفْرَةٍ خَرْسَاءَ أَكْظَمَهَا
مُتَمَسّكًا بِعَلائِقِ الأَجْرِ
ضُمَرَتْ بِجِرّتِهَا عَلَيْكَ ، وَفِي
أَحْشَائِهَا كَلَواعِجِ الجَمْرِ (1)

فلقد كانت وطأة الفقد لذلك الصديق الحميم شديدة على الشاعر ، رغم فارق السن بينهما ، ولكنّه يحاول مغالبة الحزن بالتصبّر والتجمّل وكظم الألم كسبا للثواب - الاّ أن تدفّق الحزن وشدّة التفجّع على ذلك الصديق لا يبلغان مبلغ شدة حزنه على صديقه الصابي (كامل)

---

1) الديوان 1/ 496 .

ضاقَتْ عَليّ الأرضُ بَعْدَكَ كُلُّهَا،
وَتركْتَ أضْيَقَهَا عَليّ بِلادِي
لَكَ في الحَشَى قَبْرٌ، وإنْ لَمْ تأوِهِ
وَبَيَن الدّمُوعِ رَوائِحٌ وَغَوادِي
سَلّوا مِنَ الابْرَادِ جِسْمَكَ وانْثَنَى
جِسْمِي يُسَلُّ عَلَيْكَ في الأبْرَادِ (1)

فكلا الفقيدين يكبرانه سنّا ، وكلاهما صديق حبيب الى نفسه ولكن متانة علاقته بالصابي جعلت الرثاء فيه أفجع وأوجع ، اذ في تفجعه على المظفر يحاول ابداء التجلّد والتصبّر طمعا في الثّواب أمّا في تفجعه على الصّابي فيجعل من حشاه قبرا له ، بما يعني تذكّره أبد الدهر ، وبالفعل فقد رثاه في ثلاث قصائد متباعدة في سنوات نَظْمِهَا (2) ، لذا يمكن القول بأنّه كلّما كان قريبا روحيّا من المتوفّى كلّما كان تفجعه عليه أقوى وأحرّ بغضّ النظر عن أيّة رابطة .

5- التأبين :

" وهو مدح الانسان بعد موته ، وقال ثعلب : هو اذا ذكرته بعد موته بخير " (3) وذلك يعني أنّه عنصر من عناصر الرثاء وليس الرثاء ذاته ، فهناك فروق دقيقة بين الرثاء والتأبين .

فالرثاء هو البكاء على الميّت وتعديد محاسنه بالشعر (4) بمعنى أنّه يضمّ عناصر متعددة تفرضها مناسبة الموت ذكرنا

1) الديوان 1/385 .
2) وردت القصائد الثلاث في الديوان 1/385، 2/75، 579 .
3) ابن منظور - لسان العرب المحيط 2/770 .
4) راجع مادة "رثى" عند كل من - الجوهري - الصحاح 6/2352، ابن منظور - لسان العرب المحيط - 1/1123، الزمخشري - أساس البلاغة ص 221

بعضها اضافة الى المناصر اللاحقة التي من بينها التأبين ، علاوة على ذلك فإنّ الرثاء لا يكون إلاّ بالشعر .

أمّا معنى التأبين فمقصور على تعديد محاسن الانسان " وقد غلب في مدح النادب" (1) وهذا يعني أنّ التأبين لا يختصّ بمدح الموتى فقط ، اضافة الى أنّه يجوز بالنثر كما يجوز بالشعر ، فإذا ورد بالشعر فلابدّ من الحاقه بالرثاء على اعتباره عنصرا أساسيّا من عناصره .

وقد حاول الشريف الرضي أن يرسم من خلال التأبين ، صورة صادقة للخصال التي كان مرثيّه يتميّز بها . يقول في تأبين شرف الدولة (بسيط)

لَمْ يُجْرِ يوماً بأطْرافِ العِراقِ دمًا،
إلاّ وَرَاعَ دِمَاءَ القَوْمِ بِالشّامِ
وكانَ إنْ حافَ عُدْمٌ ثمّ عُذْتَ بِهِ
مَلأتَ أرضَكَ مِنْ خَيْلٍ وأنْعَامِ
يَحْنُو عَلى رَحِمٍ مَجْفُوّةٍ ، وَيَرَى
قطعَ الرّقابِ وَلا قَطْعًا لأرْحَامِ (2)

فضمن تأبينه الملك البويهي يذكر الشاعر ما أُثِر عنه من خصال شدّة المراس والشجاعة والقوة والكرم وصلة الرحم (3) وهي من صفات الفرسان .

---

1) الزمخشري - السابق ص 10 .

2) الديوان 2 / 414 .

3) قال عنه العماد الحنبلي - الشذرات 3 / 94 "كان فيه خير وقلّة ظلم" .

أمّا في رثاء النساء فيركّز في تأبينهنّ على الصفات الاخلاقية أصالة النسب كما في قوله مؤبنا تقية ابنة سيف الدولة : (وافر)

نَعَى النّاعُونَ واضِحَةَ المُحَيّاء
أَلوفَ البَيتِ ذي العَمَدِ الطِّوالِ
مِنَ ابيْضِ العَقائِلِ مِنْ مَعَدّ
بَنَيْنَ قِبابَهُنّ عَلَى الجَلالِ
نَعُوا ظُبَةً لأبيضَ مَشْرَفِيّ
قَدِيمِ الطَّبْعِ عادِيَّ الصّقالِ
لِسَيْفِ الدّولَةِ العَرَبِيّ فِيهَا
صَنِيعُ العَينِ قامَ عَلَى النّصالِ
إذا مَا الفَحْلُ أنْجَبَ ناتجاه ،
فَقَدْ ضَمِنَ النّجابَةَ للسّخالِ (1)

فدراية الشاعر بالتقاليد العربية في رثاء النساء جعلته لا يتعدّى حدود قوله « واضحة المحيا » ولإزالة الشبهة عن قوله اك اتبعه بقوله « ألوف البيت » تحرزا من النقد اللاذع (2) ثم أنّه مازج بين تأبين المتوفّاة وتأبين

---

1) الديوان 2/212 ، 213 .

2) كان الرضي معاصرا لابن عبّاد الذي هاجم المتنبّي هجوما عنيفا بسبب مرثيته في أم سيف الدولة - مطلعها : (وافر)
نُعِدُّ المُشْرَفِيّةَ والعَوالِي وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلَا قِتَالِ
البرقوقي - شرح المتنبّي 3/140 وقد وصفه فيها بفساد الحس وسوء الأدب - وفي ذلك تحامل على المتنبّي - ورغم محاولة لشريف معارضة المتنبّي في مرثيته تلك فقد كان شديد الحذر في رثائه حتّى لا يقال عنه ما قيل للمتنبّي من قبل . في تجريح المتنبّي حول قصيدته تلك راجع العميد - الإبانة في سرقات المتنبّي ص 252 .

أبيها أثناء ذكره لاصالة نسبها ونقاء عنصرها العربي متوقفا في تأبينها عند ذلك الحد لما في ذلك من صعوبة على الشاعر العربي في رثاء النساء بسبب حواجز المجتمع النفسيّة (1) .

6- تعزية أقارب المتوفّى وذويه :

يعني العزاء أساسا الصبر على المصائب وتحمّل النكبات والتهدئة من روع النفس بمقارنة مصابها بمصائب الآخرين، بتطلّع الانسان فيما حوله من تبدّل مضطرد يعني في حقيقته أنّ دوام الحال من المحال ، وعلى ذلك فإنّ التعزية تختلف عن الرثاء من ناحيتين :

الأولى : أنّ قصيدة التعزية توجّه للأحياء من أهل الفقيد وأقاربه لمواساتهم وتصبيرهم على ألم الفقد .

الثانية : أنّ التعزية لا تختصّ في مضمونها بالموت فقط، فقد يعزى الانسان عن نكبة متولّدة عن خسارة أو سجن أو مصادرة أو غير ذلك من الكوارث ، أمّا الرثاء فلا يكون الاّ في الميّت ويقصد به هو لذاته بالبكاء عليه والتحسّر على مآثره ، لذا يمكن اعتبار التعازي غرضا قائما بذاته كما هو الشأن في المراثي ، ولكن قد يمزج الشاعر في قصيدة واحدة بين الرثاء والتعزية ، فإذا كانت التعزية

---

1) حول الصعوبة في رثاء النساء يقول ابن رشيق - العمدة 2/ 154 " من أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلّة الصفات" .

هي الأساس وورد الرثاء ضمنها كغرض فرعي فإنّ القصيدة تكون من باب التعازي ، أمّا اذا وردت التعزية في سياق قصيدة الرثاء فإنها تعتبر عنصرا مكمّلا ، وذلك يعني أنّ تعزية آل المتوفّى وذويه ضمن قصيدة الرثاء هو من العناصر القليلة الشيوع في قصائد الرثاء عامّة ، وعند الشريف الرضي على وجه الخصوص ، ومن ذلك تعزيته قوام الدين البويهي ضمن مرثيته في عميد الجيوش :

(متقارب)

وَمَا بَقِيَ الجَبَلُ المُشْمَخِرّ ،
فَمَا ضَرّنَا الجَبَلُ الوَاجِبُ
وَمَا يُنْقِصُ الثّلْمُ في المَضْرَبَيْنِ
إذا اهْتَزّ في القَائِمِ القَاضِبُ
بِمِثْلِ بَقَائِكَ غَيْثَ الأنَا
مِ يُرْضَى عَنِ الزّمَنِ العَاتِبُ
لَهَانَ عَلَيْنَا ذَهَابُ الرّدِيفِ
مَا بَقِيَ الظّهْرُ وَالرّاكِبُ (1)

7- الدعاء بالسقيا :

انّ ارتباط العربي بالبقعة التي كان يسكنها في الصحراء مقرون بوجود الماء فيها ، فإذا ما جفّت الأرض وشحت السماء بارح تلك البقعة مخلفا وراءه بعضا من ذكرياته ، فالوطن بالنسبة اليه في تلك الصحراء الجرداء المترامية الأطراف مرتبط بالماء ، فهو في سبيل ذلك يغير على جيرانه كما يقول معاوية بن مالك : (وافر)

---

1) الديوان 1/141 ومضرب السيف = حدّه ، القاضب = القاطع

إذَا نَـزَلَ الغَمَـامُ بِدَارِ قَـوْمٍ
رَعَيْنَـاهُ وإنْ كَانُـوا غِضَابَـا (1)

ولمـا كـان المطـر مـن أهـم المصـادر التـي يعتمـدون عليهـا فـي السقيـا والرعـي فقـد أطلقـوا عليـه مـن الأسمـاء مـا يـدلّ علـى علـو قيمتـه وعظـم أهميتـه ، فمـن ذلـك تسميتهـم لـه بـ (الغيـث) لمـا يـدرّه عليهـم مـن خيـر يغاثـون بـه ، كمـا أطلقـوا عليـه كلمـة (الحَيَـا) لأنّـه يحـي مـوات الأرض التـي بدورهـا تبـثّ الحيـاة فيهـم وفـي ماشيتهـم التـي منهـا يأكلـون ويكتسـون ، كمـا سمّـوه (الربيـع) لمـا بينـه وبيـن الربيـع مـن نسـب فـي تجديـد الحيـاة واعـادة البهجـة والخصـب الـى الأرض والـى النفـوس ، لذلـك لـم يجـد الشاعـر الجاهلـي فـي صحرائـه العطشـى أغلـى وأحـبّ مـن المـاء يهديـه الـى قبـور موتـاه ، وكأنّـه بذلـك يهـدي اليهـم الارتـواء وبـلّ الغليـل بسكـب المـاء علـى تلـك القبـور والدعـاء لهـا بالسقيا ، فقلمـا تجـد مرثيتـه تخلـو مـن ذكـر المـاء والدعـاء بالسقيـا ، وكـأنّ الشاعـر يدعـو بذلـك للمتوفّـى بالبـرد والسـلام والارتـواء ، لاحساسه الداخلـي بأهميـة المـاء وقيمتـه . فمـن ذلـك قـول متمـم بـن نويـره فـي رثـاء أخيـه مالـك : (طويـل)

أَقُـولُ وَقَـدْ طَـارَ السِّنَـا فِي رَبَابِـهِ
بِجَـوْنٍ يَسُـحُّ المـاءَ حتّى تريَّعَـا
سَقَـى اللّـهُ أرضًـا حلّهـا قَبْـرُ مَالِـكٍ
زِهَـابُ الغَـوادِي المُدْجِنَاتُ فأَمْرَعَـا (2)

---

1) المرزبانـي - معجـم الشعـراء - ص 391 .

2) - أبـوزيـد القرشـي - جمهـرة أشعـار العـرب ص 598
وتريّـع = تـردّد ، وذهـاب جمـع ذهبـه وهـي المطـر الكثيـر ، المدجنـات = السحـب السـوداء المطمـرة .

أو كقول الخنساء في رثاء أخيها صخر : (بسيط)

سَقْيًا لِقَبرِكَ مِن قَبْرٍ، وَلَا بَرِحَتْ
جَوْنُ الرَّوَاعِدِ تَسْقِيهِ، وَتَحْتَلِبُ (1)

وتواصل الدعاء بالسقيا في العصر الاسلامي ومنه قول مسلم بن الوليد : (طويل)

سَقَى الضَاحِكُ الوَسْمِيّ أعظمَ حُفْرَةٍ
طَوَاهَا الرَّدَى في اللّحدِ وهيَ رُفَاتُ (2)

ومنه أيضا قول الحسين بن مطير في رثاء معن بن زائدة : (طويل)

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ فَقُولَا لِقَبْرِهِ
سَقَتْكَ الغَوَادي مَرْبَعًا ثُمّ مُرْبَعَا (3)

والذي يُلاحظ في الدعاء بالسقيا اقتصار الشاعر العربي في مرثيته على البيت أو البيتين في أغلب الأحيان وذلك بخلاف ما نجده في مراثي الشريف الرضي ، فهيامه بالصحراء وتقاليدها ، وتأثير عطش الامام الحسين وآل بيته على نفسيته يجعل المتوسّط العام لعنصر الدعاء بالسقيا في مراثي الشريف لا يقلّ عن الستّة أبيات (4) وفي

---

1) الخنساء - ديوانها ص 18 .
2) ابن عبد ربّه - العقد الفريد 3/390 .
3) محمد شاكر الكتبي - فوات الوفيات 1/389 .
4) استنتجنا ذلك الرقم من احصاء عنصر الدعاء بالسقيا في أربع عشرة مرثية بلغت أبيات عنصر الدعاء بالسقيا فيها تسعين بيتا - راجع الديوان 1/23، 29، 33، 150، 163، 167، 368، 373، 493، 629، 639، 647، و2/214، 462.

دلالة على حبّه ووفائه كما في قوله يرثي (طويل)

سَقَاهُ وإنْ لَمْ تَرْوَ للقَلْبِ غُلَّةٌ
وَلا زَالَتِ الأنْوَاءُ تَحْبُوهُ مُرْعِداً
وَمَا كَانَ ظَنّي أنْ أقُولَ لَهُ سُقْ
إذا قِيلَ وَلّى عَادَ يَحْدُو عِشَارَهُ
مِنَ العُزْنِ مَلآنَ الحيازيم مُبْرِقَا
وإنْ قِيلَ أرْقَا دَمْعَةَ القَطْرِ أغْدَقَا (1

ولأهمية عنصر الدعاء بالسقيا في رثائه - لما للماء من مكانة في نفسه - فإنّه يتخذ منه طالعاً لقصيدة الرثاء كما في قوله في رثاء أبيه : (كامل)

وَسَمَتْكَ حَالِيَةُ الرَّبِيعِ العُرْهِمِ
وَغَدَتْ عَلَيْكَ مِنَ الحَيَا بِمُودِّعٍ
وَسَقَتْكَ سَاقِيَةُ الغَمَامِ المُرْزِمِ
لا عَنْ قِلًى، وَمِنَ النَّدَى بِمُسَلِّمِ (2)

فعنصر الدعاء بالسقيا من العناصر المنتشرة في معظم مراثيه ، فنادرا ما تخلو مرثية منه ، اضافة الى احتلاله رقعة واسعة من العرشاة ، لأنّها تمثّل بالنسبة للرضي تنفيس عن أساه تجاه العرشي ، فلا يجد ما يدعو به اليه الاّ أن يبقى قبره غضّاً محميّا من الدروس ، طريّا لا يتسلّط عليه ما يزيل نضارته .

مرثاة الشريف الرضي بين الوحدة العضوية والوحدة المعنوية :
==========

يوجد فرق بين الشعر الوجداني الخالص، وبين الشعر المتمازج فيه الفكر بالوجدان ، اذ يتغلّب على الوجداني منه

1، 2) الديوان 2/ 73، 290 .

ـ اذا كان صادرا عن تجربة صادقة ـ السلاسة العاطفية التي تكسب تعابيره الحرارة وصدق الاحساس ، فيجعله ذلك ملتصقا بالنفس متلائما معها بسبب انسجامه مع ما يشعر به المتلقي من فيض عاطفي ازاء الوجود . أمّا الشعر الصّادر عن مزيج الوجدان بالفكر ، فإنّه تتجاذبه نزعتان : النزعة العاطفيّة التي تسبغ عليه من روح الشاعر وذاته ، والنزعة الفكريّة التي تحكم التجربة بالسيطرة عليها من خلال التأمّل الفكري وربط الأسباب بالمسببات، اضافة الى التنسيق الخارجي لعناصر القصيدة من حيث ترابطها العضوي ، وتكاملها المعنوي . وهذا لا يعني أنها إذا كانت نابعة من الوجدان فهي خلو من الفكر، خاصّة من حيث تنسيق المعاني ، وإنْ كان ذلك التنسيق ثانويّا بالنسبة لنا كمتلقّين لا يمكننا إدراك انفعالات الشاعر، أو طريقة تنسيقه للمعاني في أعماقه أثناء عملية الابداع لأنّه هو ذاته يجهل ذلك، ولا يمكنه القيام بوصفه وصفا دقيقا ، لاستغراقه في استحضار المعاني التي هو بصدد معاناتها أثناء ذلك . لذا فإننا نعتقد بأنّه كلّما رجحت كفّة عنصر الفكر على عنصر العاطفة أثناء العمليّة الابداعيّة كلّما جنحت أفكارها نحو الوحدة العضويّة ، ممّا يعني أنّ التوحّد بين أعضاء القصيدة عمل يحتاج الى وعي لا يمكن أن يتفق مع التدفّق العاطفي النابع من النفس المتروكة على سجيتها ، خاصّة وأنّ النفس الانسانيّة لا يمكنها الاستقرار ـ في تأملاتها للحياة وفي رؤيتها للكون ـ في جانب معيّن أو نقطة محدّدة لا تحيد عنها ولو لحظات ، ممّا يستحيل معه التوحّد العضوي للرؤية الانسانيّة ما لم يتدخّل العقل ويكبح جماح التأمّل ليحصره في نقطة معينة يتوق الى بلورتها ، ولكن ما أسرع أنْ يفلت الزمام مرة أخرى إذا تُرِكَتْ على سجيتها .

وبتأملنا لمرثاة الشريف الرضي بعناصرها السبعة سنجد أنّ وحدة الموضوع فيها لا تعني وحدتها العضويّة فمن خلال قراءتنا لجل مرثياته نشعر أنّه أثناء ابداعها يترك نفسه على سجيتها معبّرا عمّا في نفسه من شحنات الحزن المتكاثفة على شكل عناصر تكوّن في النهاية تلك المرثاة ، فالشكل المتكون من تلك العناصر ليس قالبا يصبّ فيه مادته حسب نظام فكري معيّن تنبني على أساسه المرثاة ، ففجائيّة الموقف والتدفّق الوجداني يحولان دون التأمّل الفكري لما للعاطفة من سيطرة على العملية الابداعيّة تجعل القصيدة تصدر من مجرى نفسي واحد أساسه معاناة الشاعر وحزنه ، فيرابط بين عناصر المرثية من حيث المعاني المشتركة ، ولكنها تفتقر في نفس الوقت من الوحدة العضويّة المتمثلة في التسلسل المنطقي في ترتيب العناصر ، فالشريف ذاته لم يلتزم بترتيب عناصر المرثية في نسق واحد لا يحيد عنه ، ففي بعض مراثيه يتخذ الدعاء بالسقيا كمقدمة (1) لقصيدة الرثاء ، كما قد يأتي به في صدر قصيدة أخرى (2) ، ويختم به في مرثية ثالثة (3) ، وقد يكرر بعض العناصر أكثر من مرة في المرثية الواحدة (4)

---

1) راجع الديوان 2/290 فقد قدّم لرثائه بالدعاء بالسقيا .

2) راجع الديوان 1/30 فقد جعل الدعاء بالسقيا في وسط المرثية .

3) راجع الديوان 1/366 فقد ختم الشاعر مرثيته بالدعاء بالسقيا .

4) راجع الديوان 1/381 فلقد تكرر عنصر تفجّع الشاعر في القصيدة أكثر من مرة .

والسبب في كلّ ذلك اندفاعه في الرثاء من خلال عاطفته ، ممّا يمكّن من التقديم والتأخير والحذف في عناصر معظم قصائد الرثاء دون الاخلال في بنائها الفنّي والمعنوي فالرائية في أبي طاهر الحمداني من أروع مراثيه ولفصاحتها وقوة معانيها فسرها ابن جنّي ، الاّ أنّها من حيث تماسكها العضوي لم تخرج عن نسق مرثياته الأخرى ، فقد بلغت التسعة والخمسين بيتا ، هجم فيها على موضوع الرثاء من البيت الأول بقوله : (كامل)

أَلْقِي السّلاحَ ربيعةَ بنَ نِزارِ
أودَى الرّدى بِقَرِيعِكِ المِغْوَارِ (1)

ولقد استوعب ذلك الطالع التفجعي سبعة أبيات تناول بعدها تصوير فداحة الخطب بفقد المرثي في قوله : (كامل)

اليومَ صَرّحَتِ النّوائِبُ كَيْدَهَا
فِينَا وَبَانَ تَحَامُلُ الأقْدَارِ(2)

وذلك في أربعة أبيات حاول من خلال معانيها تصوير الخسارة في موت الفقيد ، ثم انتقل الى فكرة أخرى غلبت النياحة على معانيها تحسّرا على فراق المرثي بدأها بقوله : (كامل)

يَا تَغْلِبَ ابنَةَ وَائلٍ مالي أَرَى
نَجْمَيْكِ قَدْ أفَلا عَنِ النّظّارِ (3)

وقد استوعبت فكرة التحسّر من مساحة المرثية ثمانية أبيات انتقل بعدها الى تأبين المتوفّى في خمسة أبيات مركّزا

---

1 ، 2 ، 3) الديوان 1/ 490 ، 491 .

في ذلك تفجعه على الفروسيّة والشجاعة وطلب الثأر ومطلع الفكرة : (كامل)

يَا طَالِباً بالثّأرِ أعْجَلَكَ الرّدَى
عَنْ أنْ تَنَامَ على وُجُودِ الثّارِ (1)

وببداية البيت الخامس والعشرين انتقل الشاعر الى مرحلة التأمّل من خلال تتابع أجداد الفقيد في طريق الموت وآبائه ، تاركين وراءهم كلّ ما بنوا وعمّروا من مجد لم يبق منه سوى الأثر المشيد لذكرهم المخلد لمآثرهم ، وهو يريد من موقفه الطويل نسبيّا والبالغ أربعة وعشرون بيتا ، الوعظ بأن لا خلود لأحد على وجه الأرض فالجميع الى زوال ، وقد بدأ فكرته بالاستفهام التفجعي (كامل)

أينَ القِبَابُ الحُمْرُ تَفْهَقُ بالقِرَى
مَهْتُوكَةَ الأسْتَارِ للزّوّارِ (2)

ثم ببداية البيت التاسع والأربعين ينتقل الى فكرة الدعاء بالسقيا في سبعة أبيات بدأها بقوله : (كامل)

بَكَرَتْ عَلَيْكَ سَحَابَةٌ نَفّاحَةٌ
تُلْقِي زَلازِلَهَا على الأقطارِ (3)

ثم أنّه ختم مرثيته بتصور تفجعه على فقد المرثي في أربعة أبيات مطلعها : (كامل)

إنّي ذَكَرْتُكَ خَالِياً، فَكأنّمَا
أخَذَتْ عَلَيّ الأرْضُ بالأطْرَارِ (4)

(1، 2، 3، 4) الديوان 1/491 ، 493 .

ومن الملاحظ أنّ كلّ معاني القصيدة تدور في فلك الرثاء ممّا يعني توحدها المعنوي ، فجميع عناصرها متعاونة على ابراز التحسّر على الفقيد وتفجّع الشاعر عليه ، الاّ أنّ تلك العناصر المترابطة في معانيها - لكون صدورها من مجرى نفسي واحد - لم تكن لتقيم القصيدة في بناء عضوي متكامل يستحيل معه الحذف أو التقديم والتأخير ، فعلى سبيل المثال يمكن الاستغناء عن عنصر ((العبرة والموعظة)) دون أن يخل ذلك بالمعنى أو يؤثّر في بناء القصيدة ، فيمكن القول : (كامل)

يَا طَالِبًا بِالثّأرِ أَعْجَلَكَ الرّدى
عَنْ أَنْ تَنَامَ عَلى وُجُودِ الثّارِ
يَعْتَادُ ذِكْرُكَ مَا تَهَزّمِ مِرْجَلٌ
وَطَفى تَغَيّضُ بُرْمَةٍ أعْشَارِ
هَجَرَتْ رِكَابُ الركبِ بَعْدَكَ قَطعَها
هَوْلَ الدُّجَى وَمَهَاوِلَ الأوْعَارِ
وَعَدِمْنَ كُلّ مَفَازَةٍ مَرْهُوبَةٍ
وأمِنّ كُلّ مُخَاطِرٍ عَقّارِ
فَالآنَ يَجْرُرْنَ الأزِمّةَ بُدّنًا
بَيْنَ المِيَاهِ تَغِيضُ والأنْوَارِ
بَكَرَتْ عَلَيْكَ سَحَابَةٌ نغّاحَةٌ
تُلْقِي زَلازِلَهَا عَلى الأقْطَارِ (1)

دون أن يؤثّر ذلك في السياق ، كما يمكن التقديم والتأخير في جل عناصر المرثية دون أن يؤدّي الى أيّ اختلال

---

1) الديوان 1/ 491 ، 493 ومن الملاحظ أننا قد حذفنا بعد البيت الخامس أربعة وعشرين بيتا ثم استأنفنا بقوله (بكرت عليك ...) ولم يؤثّر ذلك على بناء القصيدة الفنّي أو يُخل بمعانيها ويمكن تطبيق ذلك على جلّ مراثيه .

في معانيها فنقل عنصر « التحسّر على الفقيد » وهو ترتيبه الثالث في السياق ،في مكان عنصر « هول المصيبة وفداحة الخطب » الذي ترتيبه الثاني لا يؤثّر في السياق ولا يؤدّي الى أيّ اختلال في المعنى ، كما أنّ مطلع القصيدة الذي ينتهي بقوله : (كامل)

وَاجْتَاحَ ذَاكَ البَحْرَ يَطْفَحُ مَوْجُهُ
وَطَوَى غَوَارِبَ ذَلِكَ التّيّارِ (1)

يمكن مواصلته بقوله : (كامل)

يَا تَغْلِبَ ابْنَةَ وائلٍ إمَالِي أَرَى
نَجْمَيْكِ قَدْ أَفَلا عَنِ النّظّارِ (2)

كما يمكن مواصلة قوله : (كامل)

هَيْهَاتَ لا عَلَقُ النّجيعِ بِعَامِلٍ
يومًا ،وَلا عَلَقُ السُّرَى بِعِذارِ (3)

بقوله : (كامل)

يَا طَالِبًا بالثّأرِ أَعْجَلَكَ الرّدَى
عَنْ أَنْ تَنَامْ عَلَى وُجُودِ الثّارِ (4)

دون أيّ انحراف يؤثّر على معانيها لصدورها من عاطفة الشاعر مصبوغة بوجدانه دون أيّ دخل لعامل الفكر ابّان عمليّة الابداع ممّا يعني انسيابها في عفويّة بعيدة عن أيّ تعقيد فلسفي ممّا يعطي القصيدة دفقات من الحيويّة وحرارة التفجّع .

---

1 ، 2 ، 3) الديوان 1/ 490 ، 491 والعذار = ما سال من اللجام على خد الفرس .

4) الديوان 1/ 491 .

التعبير التفجعي في رثاء الشريف الرضي :

انّ دراسة قصيدة الرثاء عند الشريف الرضي تقتضي الوقوف عند تعابيرها التفجعيّة للكشف عن دور المعاني والأخيلة والصنعة في مرثاته وسبر عمقها وانسجامها مع معاني الموت ، ممّا يعني البحث ضمن القصيدة عن تعامل الشريف مع المعاني وطريقته في توليد الصور التفجعيّة ومقدار ما سمحت به تجربته من الزخرف والبديع .

1- التفجّع المعنوي في مرثاة الرضي :

نقصد بالتفجّع المعنوي طريقة استخدام الشريف لأساليب اللغة المختلفة ابّان محاولة التعبير عن أحزانه بكلّ ما يكتنفها من تشنجات وتأوّهات ودموع ، فقد مكّنته قدرته على تطويع اللغة من استيعاب تجربة الحزن في سهولة ودون أيّ تكلّف ويرجع سبب ذلك الى طبيعة روحه الحزينة فالتنقّل في المرثاة بين أساليب الخبر والانشاء والتقديم والتأخير والحذف والفصل والوصل الى غير ذلك من الأساليب تجري في سياق القصيدة منسجمة تماما مع مجرى الحزن لا دخل للشاعر في تنسيقها أو توجيهها مما يعني المواءمة بين طبيعة التجربة وبين الأساليب المعبّر بها عنها ، اذ أنّ لكلّ تعبير داخل القصيدة قيمته الفنيّة في ابراز تفجّع الشاعر ، خاصّة وأنّ رثاءه من باب الوفاء الخالص الذي لا يرمي الى أيّ هدف نفعي فقوله في رثاء أمّه : (كامل)

طَوْرًا تُكَاثِرُنِي الدموع وَتَارَةً
آوِي إلى أَكْرُومَتِي وَحَيَائِي
كَمْ عَبْرَةٍ مَوْهُتُهَا بِأَنَامِلِي
وَسَتَرْتُهَا مُتَجَمِّلاً بِرِدَائِي (1)

---

1) الديوان 1/26 .

يحوي صورة بالغة التأثير خالية من المبالغات لكونها تصف معاناة نفس صرفها الحزن عن كل ما حولها فجاء تقديم « طورا ، وتارة » على عامليهما ضمن الأسلوب الخبري تعبيرا عن حالة الأسى المفجع الذي بلغه الشاعر ثم أنّ ورود " كم " الخبريّة في مطلع البيت الثاني ضاعف من ذلك الحزن لما أسبغته على السياق من معاني الكثرة اللانهائيّة ، فالتناسق بين اللغة وتجربة الحزن أتاح له توظيف الأساليب الخبريّة في التعبير عن أساه من غير حاجة الى الخيال ، اذ يكفي في هذا المجال ما يضطرم بداخله من حزن ، يقول متفجعا على صديق له خطفه الموت : (كامل)

أَمْسَى أَخُ لَكَ لَمْ يُجارِكَ في الصِّبَا
طَلَقًا وَلا سَاقَاكَ دَرَّ المُرْضِعِ
في صدره أُرَةٌ عَلَيْكَ مِنَ الجَوَى
تُذْكَى بأنْفَاسِ المُعَنّى الموجع (1)

فالبيتان لم يخرجا عن كونهما من الأساليب الخبريّة وقد استطاع الشاعر أن ينحيهما عن معنى الاخبار التقليدي ليعبّر من خلالهما عن عظم تفجعه بالتوجّه بالشكوى ممّا أصابه من حزن للفقيد مباشرة بوصف حالته وما آلت اليه نفسه عن طريق التقديم والتأخير والاعتراض الذي فصل فيه الشاعر بين اسم أمسى وخبرها ليبيّن من خلال جملتي الصفة في قوله " لم يجارك في الصبا ، ولا ساقاك درّ المرضع " أنّ علاقة الأخوة التي تربطه بالفقيد لا تحفل بفارق السن وتسمو بمعانيها على الاخاء المتولّد عن رابطة

---

1) الديوان 1/ 633 ،والارة = موضع النّار .

الأمومة وذلك ما سبّب اشتعال نيران الحزن على فقده ، وقد قدم المتعلّق بالخبر " في صدره " على المبتدأ النكرة " ارة " لتبيان قوة الحزن المعتلة في صدره كالنّار المضطرمة التي لا يحدها مدى ، أمّا قوله في رثاء زوجته : (طويل)

كَفَى أسفًا للقلبِ مَا عِشْتُ أنّني
بِكفّي عَلى عَيْنِي حَثَوتُ مِنَ التُّرْبِ
جَرَتْ خَطْرَةٌ مِنْهَا وفي القلبِ عَطْشَةٌ
رَفَعتُ لهَا رأسِي عَنِ البَارِدِ العَذْبِ(1)

فهو تعبير عن حزن تمكّن الشاعر من تجسيد تفاعلاته بأسلوب الخبر الذي أخرجه عن غرضيه الأساسيين في اللزوم والافادة كي يبيّن به تحسّره وشجاه من خلال التعبير والحركة الداليين في أبعادهما المعنويّة على اضطرام الحزن في أعماقه ، فالتعبير يكمن في ما فرضته العمليّة الابداعيّة من تراكيب لغويّة منحت السياق الاستمراريّة عن طريق التقديم والتأخير في جملة الفعل الماضي « كفى أسفا للقلب » وذلك بتقديم التمييز أسفا على الفاعل للقلب بعد الحاقه بلام الجر التي تعني الاختصاص فاصل التركيب « يكفي القلب أسفا » ثم الحاق الفعل « عشت » بما المصدريّة الزمانية لمنح التحسّر الاستمراريّة مع معاودة التقديم والتأخير في « بكفّي على عيني » تبيانا لمقام الفقيدة من نفسه واضطراره تحت سطوة الموت أن يجعل عضوا من أعضاء جسمه - وهو يده - بالقيام بسفّ التراب على عينه التي يرى الحياة بها كناية عن زوجته التي دفنها ، فالمعاضلة الأسلوبيّة

---

1) الديوان 1 / 169 .

المتمثلة في التقديم والتأخير ضمن أسلوب الخبر هي صورة للمعاضلة التي كانت تنتاب نفس الشاعر ابّان التعبير عن حزنه ، ثم أنّ انتقاله من خلال أسلوب الخبر في الماضي عن طريق التذكّر في قوله " جرت خطرة منها " والفصل بالواو بينها وبين " وفي القلب عطشة " لتبيان حال التياع القلب على أثر تلك الذكرى التي استحالت الى سبب في تأجّج لظى الحزن في أعماقه ، فكانت الحركة في قوله " رفعت لها رأسي " بمثابة المنبّه من الاسترسال في الذكرى والعودة الى الواقع الحزين المؤلم ممّا أتاح للكلمة التوافق مع ابداعات الشاعر التعبيريّة المجسّدة لصدق احساساته ، فاذا كان الأسلوب الخبري ككل له من القيمة البلاغيّة الأثر البعيد في ابراز تفجّع الشريف ضمن قصيدة الرثاء فإنّ ما بداخل الأسلوب من جزئيات ، منح السياق التفجعي دفعات عميقة من الأسى كما في التقديم والتأخير في قوله : (بسيط)

لَكُمْ عَلى الدّهرِ مِنْ أكبادِنا شُغُلٌ
مِنَ الغليلِ، وَمِنْ آماقِنا دُفُعُ
لَواعِجٌ أفْصَحَتْ عَنْهَا الدّموعُ وَقَدْ
كادت تُجَمْجِمُهَا الأحشاءُ والضّلَعُ(1)

فقد قدم الجار والمجرور « لكم ، على الدهر ، من أكبادنا » على المسند اليه « شغل » النكرة الموصوفة بشبه الجملة « من الغليل » مبرزا بذلك اختصاص التشاغل بالحزن على أولئك الذين أشار اليهم بـ (لكم) ، مع ملاحظة ما منحه تنكير المسند اليه للسياق من دفعات الحزن اللامتناهية ، وقد عاود الشاعر تقديم الجار والمجرور على متعلقه في قوله « ومن آماقنا » بعد أن فصل بين

---

1) الديوان 1 / 648 .

الجملتين بالواو وحذف (لكم) على سبيل الاضمار مكتفيا بايرادها في صدر البيت وكأنّه بذلك التقديم والتأخير والفصل والاضمار يريد أن يخصّ من افتقدهم بأكبر قدر ممكن من دموعه وأحزانه في محاولة الى الالتصاق بهم روحيّا عن طريق التعبير بالكلمة معززا تدفّق حزنه ذاك بفصل المسند (أفصحت) عن المسند اليه (الدموع) بالجار والمجرور (عنها) في البيت الثاني ، ثم الفصل بالواو بين جملة الصفة وجملة خبر الموصوف (لواعج) ، مع ما يحويه الفعل (تجمجمها) من ايحاءات كبت الحزن طويلا ثم تفجّره في نهاية الأمر على شكل دموع متتابعة في سيلها وكأنّه بذلك يدور في دائرة مركزها الحزن الذي يعتج منه دون أن ينضب أو تخفّ وطأته ، يقول في تعزية أبي سعيد بن خلف عن ابنه : (خفيف)

لَكِنِ الأمرُ مَا عَلِمْتَ،وَهَلْ
تَنْظُرُ مِنْ وَقْعَةِ الزّمَانِ مُسَرَّا
واقعا بالأضْدَادِ أَرْوَى وَاظْمَا،
وَقَضَى ، واقْتَضَى، وَسَاءَ وَسَرّا
مُذْنِباً كُلّمَا شَكَا شاكَ كيداً،
وإذا قِيلَ قَدْ أَنَابَ أَصَرّا
ضَيْغَماً يَخْبِطَ السُّرُوبَ طَرُوباً،
كُلّمَا مَرّ بِالعَقِيرةِ كَرّا (1)

فبغضّ النظر عمّا ورد في الأبيات من صور وأخيلة ، فإنّ اعتمادها على الأسلوب الخبرى اعتمادا يكاد يكون كلّيّا لم يخفت من جذوتها ولم يحد من حرارة حزنها ،

---

1) الديوان 1/499 ، والسروب = الطرق ، العقيرة = ما عقر من الصيد ، وصوت الباكي .

فاحساس الشاعر بالتناقض في الزمان تجاه تعامله مع الانسان أمدّ الأبيات بطاقات هائلة من الحزن فـ (الأمر) في البيت الأول يعني به حادث الموت الذي لم يذكره رغم طول مقدمة التعزية ذلك لأنّ الشاعر أعطى للكلمة أبعادا معنويّة ذات رهبة ، بحيث لم يعد في حاجة الى معالجة موضوع الموت أو وصفه وصفا مباشرا لما يكتنفه من مجهول بعيد كلّ البعد عن ادراكه ، ممّا يجعله يحمّل الزمان كلّ تبعات ما يحدث للانسان من خير وشرّ ، وقد كشّف تلك المعاني باستخدامه الأفعال الماضية الدالة على حال الحياة في تعاقب أفعالها في قوله « أروى ، أظما ، قضى ، اقتضى ، ساء ، سرا » بما يسمّى في البديع بالمقابلات مع حذف الضمير العائد الى الزمان لربط النفس الشعري بسياق الحزن المتصل ، كما أنّ تتابع الكلمات المتضادة يعكس تجهم الشاعر وحزنه بتركيزه على الجوانب الكئيبة في الحياة لاتفاق ذلك وموقفه التفجعي أثناء الرثاء بالاتكاء على الاستغراق في استمرارية الزمن الكامن في قوله « كلّ يوم » وتقديمه على المسند اليه اضافة الى تتابع الأحوال المجسّدة لشحنات الحزن من خلال تتابعها في جمل كما في قوله « واقعا بالأضداد ، أروى وأظما . . . » ومفردة في ثنايا الأبيات وصدورها كما في قوله « غضبان ، مذنبا » حتّى الأحوال الجامدة استخدمها لتبرير ما بداخله من حزن كما في قوله « ضيغما »، بحيث يمكن اعتبار الأبيات الأربعة بما يكتنفها من وصف لموقف الرضي الذاهل هي عبارة عن وصف لحال الزمان الذي يعاني الشاعر من تصرفه المشين ازاء من يحب ، فأساليب الخبر التي يتكئ الشريف عليها لا تقف عن حد ، فمن ذلك التمازج التّام بين تصوير الحالة الذهوليّة والتقديم والتأخير والحذف كما في قوله ضمن رثاء صديق :

(طويـــــل)

ذَكَرْتُكَ لمّا طَبّقَ الأُفُقَ عـارِضٌ
وَأعرَضَ بَرْقٌ كالضّرامِ لَمُوعُ
وَأنتَ مُقِيمٌ حيثُ لا البَرْقُ يُجتَلى
بعَينٍ، ولا رُوحُ النّسيمِ يَضُوعُ
غَرِيبٌ عَنِ الأوطانِ لا لَكَ هَبّةٌ
إليها ، ولا بَعْدَ المُضيّ رُجُوعُ(1)

فلقد أثار اكتئاب الطبيعة كوامن شوق الشاعر الى ذلك الصديق الذي افتقده محاولا تجسيد عظيم تفجعه من خلال جمل الحال التي استوعبت البيتين الثاني والثالث بتصوير وحشة القبر وغربة الميت مستخدما في ذلك طاقات الأسلوب الخبرى من تقديم المفعول (الأفق) على فاعله (عارض) في الشطر الأول من البيت الأول والحذف في جملة العطف في الشطر الثاني ثم معاودة الحذف في الشطر الثاني من البيت الثاني في قوله « ولا روح النسيم » اعتمادا على ما ورد في شطره الأول « وأنت مقيم حيث لا » والاكتفاء بالخبر (غريب) في مطلع البيت الثالث اضافة الى ما تضمنته الأبيات من فصل ووصل كان لهما الأثر الكبير في تكثيف معاني الحزن وابراز شدتها .

وقد يكتفي الشريف في تفجعه على فقيده بالضمير العائد عليه دون ذكر اسمه والاخبار عنه بالمشتق المتضمّن معنى الرابطة المذهبيّة (متقارب)

نَعُوْهُ عَلى ضَنّ قَلْبِي بِهِ،
فَللّهِ، مَاذا نَعَى النّاعِيَانِ

---

1) الديـــوان 1 / 650 .

رَضِيعُ ولاءٍ لَـهُ شُعْبَـةً
مِنَ القَلْبِ فَوْقَ رَضِيعِ اللِّبانِ (1)

فضمير الغائب في قوله ((نعوه)) يعود على الفقيد ، ولم يستطع ذكر اسمه من فرط حزنه عليه ، وقد عاود ذكر الضمير في بيته الثاني في قوله ((رضيع ولاء له)) ويقصد الشاعر اشتراك الفقيد معه في عقيدة التشيّع وولاة الامام عليّ وهي من أهم الأواصر التي يعتز الشاعر بها ، لذا فهي في موضع الرثاء مثار لتفجعه ، وهذا أدّى به الى اضافتها لصيغة المبالغة (رضيع) .

ويخدم الفعل بصيغه المختلفة تفجّع الشاعر ، بغضّ النظر عن محتواه الزمني ، كتعبيره عن الماضي بلفظ الحاضر ومنه : (كامل)

إنْ تَمْضِ فالمَجدُ المُرَجَّبُ خالِدٌ
أو تَفْنَ ، فالكَلِمُ العِظامُ بَواقِي (2)

فالفعلان (تمض ، تفن) ينطويان على معنى الحاضر وقد وردا ضمن رثاء صديق مضت على وفاته سنوات ، إلاّ أنّ تعلق الشاعر بذلك الصديق ووفاءه له أبيا عليه في حالة ذهوله الحزين أنْ يسلم بالواقع ، فكان حديثه للفقيد عبر التذكّر تعويض عن ذلك الواقع الذي ترفضه نفسه في تسليمه بخسارة الصديق ، ومن ذلك أيضا تنقله بأساه عبر الزمن باستخدامه صيغة زمنيّة واحدة كما في رثائه لأبي حسّان المقلّد بن الحسين : (طويل)

---

1) الديوان 2/ 441 .

2) الديوان 2/ 75 .

وَكانُوا أحادِيثَ الرِّفاقِ، فَأصْبَحُوا
أغَانِيَ للفَوْرِيِّ والمُتَنَجِّدِ (1)

فقد استخدم الفعلين الناقصين (كانوا وأصبحوا) في مقابلة بين ماضي العقيليين المشرّف وما آلت اليه حالهم في الحاضر إذ تتضمّن تلك المقارنة على حزن عميق جسّده التحسّر من خلال التذكّر .

وكثيرا ما يتفجّع الرضي على من افتقدهم بالمشتق كما في قوله : (طويل)

نُؤمِّلُ أنْ نَرْوَى مِنَ العَيْشِ، وَالرَّدَى
شَرُوبٌ لِأعْمَارِ الرِّجَالِ أكُولُ
وَهَيْهَاتَ مَا يُغْنِي العَزِيزَ تَعَزُّزٌ
فَيَبْقَى، وَلَا يُنْجِي الذَّلِيلَ خُمُولُ (2)

فتوظيف الشاعر لصيغتي المبالغة (شروب ، أكول) لوصف الموت إضافة الى استخدامه لإسم الفعل الماضي (هيهات) الدال على البعد والاستحالة ، فيه دلالة على ما تنوء به نفسه من أحزان متراكمة يحاول التعبير عنها بشحذ طاقات الكلمة . فالرضي ساعة اندماجه في الرثاء ، تتيح له قريحته سيلا من الأساليب المعبّرة عن صدق احساسه وعمق تفجعه تجاه من يرثي من أهل وأقارب وأصدقاء شاركهم عيشهم ونعم بمصاحبتهم تاركا لسجينه حرية التعبير عن ذلك الحزن دون تقييدها فكان لأسلوب الخبر أثره العميق في ابراز حزنه ، كما لعبت الأساليب الانشائيّة من استفهام ونداء وتعجّب ودعاء وأمر ونهي دورا أكثر بروزا في تجسيد حزنه واظهار أساه .

---

1) الديوان 372/1 .

2) الديوان 191/2 .

الاستفهـــــــــام :

يحتلّ أسلوب الاستفهام مكان الصدارة في تفجّع الشريف على من رثى من أهل وأقارب، وأصدقاء، فقد حاول استغلال طاقات الأسلوب في تفجير أساه واظهار لوعته مع عدم الاقتصار في ذلك على أداة استفهاميّة معينة، وقد استأثرت الهمزة بالنصيب الأوفى كما في قوله معاتبا الدهر متحسّرا على من افتقد من أهل وأصدقاء : (طويل)

أَفي كُلّ يَومٍ لي صَدِيقٌ مُصَادِقٌ
يُجِيبُ المَنَايَا ، أَوْ قَرِيبٌ مُقَارِبُ ؟ (1)

فالاستفهام منح سياق البيت رنّة من الحزن المتفجّع العميق من خلال معاتبة الأيّام عتابا مرّا لارغامها الاعزاء والخلان الاستجابة الى الموت مع ما في البيت من تجوز اسنادي في قوله " يجيب المنايا " يدلّ على عمق التحسّر بجعله " الموت " مفعولا بالمعنى النحوي وفاعلا بالمعنى المجازي الدقيق ، برضوخ الجميع في الاستجابة طواعية اليها ، فكأنها هي التي تناديهم وتحثهم على السير في الطريق الذي ترسمه . ومن ذلك أيضا : (طويل)

أَفي كُلّ يَومٍ يَعْرُقُ الدّهْرُ أعظُمِي،
وَيَنْهَسُ لَحْمِي جَانِبًا بَعْدَ جَانِبِ ؟ (2)

فالاستفهام في البيت مبني على حيرة الشاعر، فقد جعل السياق في خروجه عن معناه الأصلي يتراوح بين العتاب

---

1) الديوان 1/142 .

2) الديوان 1/150 .

والتحسّر والتعجّب الملتاع مستعيضا بالمجاز في " يعرق الدهر " والاستعارة المكنية في " ينهس لحمي " مكنيا بتبضيع جسمه الى أجزاء عن فقده الأهل والأصدقاء الواحد تلو الآخر .

ولـ " من " الاستفهاميّة دورها أيضا في تفجّع الشريف كما في قوله : (متقارب)

بِمَنْ أَتَسَلّى وَأَيْدِي المَنُون
تُخَالِسُ فَرْعِي قَضِيْبًا قَضِيْبَا ؟
نَزَعْنَ قَوَادِمَ رِيشِ الجَنَاحِ ،
وَأَثْبَتْنَ فِي كُلّ عُضْوٍ ندوبا (1)

فـ " من " الاستفهاميّة في صدر البيت فجّرت كلّ ما ينوء به الشاعر من ألم وكمد ، فاستحال المعنى بعدها الى تعبير عن الزهد في الحياة بعد أن فقد الشاعر أحبابه الواحد تلو الآخر ، وقد عمّق من قيمة الاستفهام التفجعية ما ورد في البيت من تصوير مركّب يدلّ على ما في نفس الشاعر من اشتجار في تشبيه الموت بالانسان ذي الأيدي المتعددة ، وشبّه نفسه بالشجرة المورقة التي تقصفت أغصانها الواحد تلو الآخر ، بفعل تلك الأيدي الغاشمة ، ثم أنّه لا يكتفي بذلك التصوير حتّى تعود نفسه الزاخرة بالأسى لتعاود الصّورة بشكل آخر حين شبه نفسه بالطائر الذي نُزعت قوادمه بفعل تلك الأيدي لتحول بينه وبين التحليق في مباهج الحياة ، فالأغصان المتقصفة والقوادم المنتزعة من جناحيه ما هي الاّ أولئك الأصدقاء الذين افتقدهم أمّا الندوب التي تركتها الأيادي في جسمه فهي الآلام التي يكابدها

---

1) الديوان 1/165 .

والأحزان التي تكدّر عليه حياته جراء افتقاده أولئك ، فكلّ شيء في الوجود في حرب مع الشاعر ، والاستفهام هو المعبّر عن ذلك (بسيط)

مَا لِلّيَالِي يُرِنْقِنَ المُجَاجَةَ مِنْ
شُرْبِي وَيُوبِسْنَ مُصْطَافِي وَمُرْتَبَعِي
عَدَتْ عَوَادِي الرَّدَى بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ ،
وَأَنْزَلَتْكَ النَّوَى عَنِّي بِمُنْقَطِعِ (1)

اذ يطلق الشاعر سؤالا فحواه التعجّب الطلتاع من معاكسة الليالي له في تكديرها صفو عيشه بالتفريق بينه وبين من يحب من أهل وأصدقاء تفريقا أبديّا ، ومن الملاحظ أنّ الشاعر أثناء اندماجه في الرثاء قد يخرج عن السياق اللغوي ، ففي الشطر الأول من البيت الثاني يحادث الشاعر مرثيه بلسان الجمع في قوله « بيني وبينكم » ، ثم يعود في الشطر الثاني الى محادثته بلسان المفرد في قوله « وأنزلتك النّوى » ، وهذا يعني في حدّ ذاته تدفّق الرثاء في عفويّة تامّة .

والتفجّع بالاستفهام في مرثاة الشريف لا يقتصر في اظهار التحسّر على أسلوبي النفي والتعجّب ، فقد يرد في سياق المرثية كمحاولة للاستفسار عن أمر غامض يطلب تفسيره بالاستفهام كما في قوله : (طويل)

لِمَاذا تُرَبّي المُرْضِعَاتُ طَمَاعَةً
لِمَاذا تَخَلّى بِالنّسَاءِ بُعُولُ
أَلَيْسَ إلى الآجَالِ نهوى ، وَخَلْفَنَا
مِنَ المَوْتِ حَادٍ لا يَخُبُّ عَجُولُ (2)

---

1) الديوان 1/650 .

2) الديوان 2/191 ، 192 .

فمحاولة الكشف عن سر الحياة في البيت الأول ليست الاّ نتيجة حتميّة لاستفهام البيت الثاني ، فتحسّر الشاعر أحال الحقيقة التي يتصورها الى استفهامين كبيرين قصده منهما ، أن لا جدوى من هذه الحياة فالانجاب والتكاثر والتربية ما هو الا عبث نهايته الزوال .

الممازجة بين النداء والاستفهام :

ولمّا كان النداء ضمن قصيدة الرثاء يعني الندبة والنواح ، والاستفهام يعني التعجّب والتحسّر ، فقد زاوج الشاعر بينهما في محاولة للتنفيس عن شحنات الحزن التي يكابدها ، كما في قوله ضمن رثاء أبي طاهر الحمداني : (كامل)

يَا تَغْلِبُ ابْنَةَ وائل ! مالي أَرَى
نَجْمَيْكِ قَدْ أَفَلاَ عَنِ النُّظَّارِ
غُرْبًا ، فَذَاكَ غُرُوبُهُ لِمَنِيَّةٍ
عَجْلَى ، وَذَاكَ غُرُوبُهُ لإِسَارِ
مَالِي رَأَيْتُ فِنَاءَ دَارِكِ عَاطِلاً
مِنْ كُلِّ أَبْلَجَ كالشِّهابِ الوَارِي (1)

فالنداء المعقب بالاستفهام في صدر البيت الأول هو بمثابة صرخات ثكلى عايشت الافول واصطلت بناره ، فالشاعر من خلال الاستفهام يحاول استكناه ذاته الحزينة باستخدام ضمير المتكلّم في قوله « مالي » تعبيرا عن ذاته ، مع التصرّف في الزمن داخل الأبيات تصرفا يتفق مع تغاوت موجات الأسى وتشابك الشجن في أعماقه ، فيستخدم الفعل

---

1) الديوان 1/491 .

الواحد بصيغتين مختلفتين ضمن مجرى نفسي واحد ومن ذلك استخدامه الفعل (رأى) ، ففي البيت الأول استخدمه بصيغة الحاضر ثم عاود استخدامه في البيت الثالث بصيغة الماضي في قوله ((رأيت)) وكلا الفعلين وردا ضمن استفهام انكاري حزين إلاّ أنّ الرؤية الأولى تتفق والزمن الداخلي الذي يعاني الشاعر من وطأته ازاء الفقيد ، أمّا الرؤية الثانية فهي تجسيد لتحسّر الشاعر على اندثار المجد والفروسيّة بعد وفاة المرثي فالحاضر يعني شدّة الحزن وحرقة الوجد ، أمّا الماضي فيعني التحسّر والتأسّف ، وكلا الزمنين جالب للهم ومثير للأحزان .

النّداء :

يختلف التفجّع بالنّداء في مرثاة الشريف باختلاف نوعية المنادى ، فاذا كان المرثي هو المنادى فإنّ رنّة التحسّر تكون هي الغالبة على السياق ، كما في قوله ممازجا بين النّداء والاستفهام ضمن رثائه في الصاحب ابن عبّاد : (كامل)

يَا آمِرَ الأَقْدَارِ كَيْفَ أَطَعْتَهَا ،
أَوَمَا وَقَاكَ جَلالُكَ الآجَالا
كَيْفَ اغْتَفَلْتَ فَفَاجَأَتْكَ بِغُرَّةٍ
أَوَلَيْسَ كُنْتَ المِخْلَطَ المِزْيَالا (1)

فالمنادى هو المرثي وقد كنّى عنه الشاعر بآمر الأقدار ، لما له من سلطة وهيبة ، وقد تلا النّداء بالاستفهام بكيف مستفسرا بها عن حال رضوخ المرثي لتلك الأقدار التي كانت رهن اشارته وطوع بنانه ، وقد تعاضدت أساليب

---

1) الديوان 2 / 203 .

الاستفهام مع أسلوب النّداء لتركيز تفجّع الشاعر على فقيده .

ومن باب التحسّر بالنّداء في معاتبة الأرض قوله : (بسيط)

يَا أَرْضُ! مَا العُذْرُ في شَخْصٍ عَصَفْتِ بِهِ
بَيْنَ الأَقَارِبِ والعُوّادِ والحَوَلِ (1)

فنداؤه للأرض بثّ فيها الحياة ممّا مكنه من معاتبتها العتاب المر لعصفها بمن هو عزيز عليه دون بقيّة النّاس، ولكنّه وجد أنّ العتاب لا يجدي نفعا معها فعاود استعطافها علها تستجيب له وتهدئ من بعض روعه كما في قوله : (سريع)

يَا أَرْضُ! نَاشَدْتُكِ أنْ تَحْفَظِي
تِلْكَ الوُجُوهَ الغُرَّ وَالأَعْيُنَا (2)

فبقاء صور من فارقهم من أحبته منحوتة داخل نفسه أثار فيها الرهبة ممّا سيحل بهم تحت التراب، فطفرت توسلاته الى الأرض للمحافظة عليهم وهي توسّلات لن تجاب، فنداؤه للأرض ليس الاّ سبيل لاثارة الأحزان فلا جدوى من الاستعطاف لأرض لا تصيخ سمعا ولدهر غشوم لا يرعوي لعتاب: (منسرح)

يَا دَهْرُ رُشْدًا بِكُلّ نَائِبَةٍ
قَدِ انْتَهَى العَتْبُ وانْقَضَى العَجَبُ
رُدّ يَدِي مَا اسْتَطَعْتَ عَنْ أَرَبِي
لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَرَبُ (3)

---

1) الديوان 2/218 .
2) الديوان 2/489 .
3) الديوان 1/169 .

فنداء الدهر ليس الاّ من باب التذمر بعد أن يئس الشاعر من صدّ غوائله بمحاولة مهادنته وعتابه والاستنكار من أفعاله ، فلم يبق - في نهاية الأمر - الاّ تسليم أمره له بعد أنْ أفقده من كان يعايشهم ، وقد جاء المفعول المطلق " رشقا " النائب عن فعل الأمر بمثابة الاحتمال وعدم الاكتراث كما أنّ الأمر في " ردّ يد " هو بمثابة التسليم والركون للواقع بعد أن أجهدته المقاومة ورجع مجهدا ، لأنّ حربه في حقيقتها لم تكن الاّ مع نفسه في محاولة لتبديد رعبها وحزنها .

وقد يستعيض الرضي في تفجعه على العرثي بالهمزة بدلا من " يا " النداء وذلك للاعراب عن التصاقه روحيّا بالمرثي وقربه منه (وافر)

أَإبْرَاهِيْمُ! أَمّا دَمْعُ عَيْنِي
عَلَيْكَ ، فَمَا يُعَدُّ ولا يُحَدُّ
يُفَصَّصُ بِالأوائِلِ مِنْهُ طَرْفٌ،
وَيَدْمَى بالأَوَاخِرِ مِنْهُ خَدُّ (1)

فهو في تحسّره على الفقيد كأنّه يدعو انسانا قريبا منه يسمعه الاّ أنّ خروج النّداء عن معناه الحقيقي جعل ذلك القرب روحيّا وليس مكانيّا ، في محاولة لوصف حالة الشاعر بعد افتقاد صديقه .

وفي كثير من الأحيان يعمد الشريف الى اضمار أداة النّداء في تفجعه مكتفيا بذكر الفقيد (بسيط)

أُخَيّ لا رَفِهَتْ عَيْنِي وَلا أُذُنِي
مِنْ بَعْدِ يَوْمِكَ فِيْ مَرْأًى وَمُسْتَمَعِ(2)

---

1) الديوان 1/ 367 .
2) الديوان 1/ 650 .

فقد أدّى انشغال بال الشاعر وتحسّره على فقيده الى اضمار النّداء بالتوجّه مباشرة لذلك المرثي وكأنّه يريد بذلك أن يطلعه على حزنه .

الاستغاثة :

وقد يبلغ التفجّع بالنّداء في شعر الشريف مبلغ الولولة والعويل فيستخدم تراكيب الاستغاثة تعبيرا عن ذلك كما في قوله : (طويل)

أَلا يَا لَقَوْمِي للخُطُوبِ الطَّوارِقِ،
وَللعَظْمُ يُرْمَى كَلَّ يَوْمٍ بِمَارِقِ
وَللدّهرِ يُعْرِي جَانِبِي مِنْ أَقَارِبِي،
وَيَقْطَعُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الأَصَادِقِ
وَيُورِي بِقَلْبِي نَارَ وَجْدٍ شَوَاظُهَا
تُرِينِي اللّيَالِي ضوءه في مَفَارِقِي (1)

فالشاعر يستغيث بقومه من مصائب الدهر لأجلهم، فكأنهم المستغاث بهم والمستغاث لهم في آن واحد، بعدما قطع الدهر ما بينهم وبينه من تواصل وودّ بتتبّع الموت لهم، فاكتظاظ الأحزان بداخله أتاح له وصف مؤثّرات تتابع موت الأحبّة على حياته وصفا صادقا وذلك بتحوّل فقدهم الى شواظ ناريّة أحرقت قلبه وأشابت رأسه .

الندبة :

وقد يلجأ الى الندبة في تفجعه على مرثيّه، وذلك لتناسب أسلوبها مع تفجّر الحزن وتحوله الى صرخات

---

1) الديوان 2/ 63 .

ملتاعة ممزوجة بالدموع (كامل)

وَاهاً لَهُ لَوْ كَانَ أَسْرٌ يُقْتَدَى
بِرَغِيبَةٍ أَوْ كَانَ خَرْقٌ يُرْقَعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلنَّعُوشِ مَشِيعٌ
مِنَّا يَرُفُّ وَرَاجِعٌ يَسْتَرْجِعُ (1)

فالتوجّع على المرثي أدّى بالشاعر الى التعبير عمّا في أعماقه من حزن على شكل صرخات ملتاعة جسّدها التمنّي الممتنع (لولا) في اعادة الحياة وتوقيف دوران الكون مع استغراب مشوب بالعتاب لتتابع موت أحبته وأصدقائه حملته معاني البيت الثاني .

الأمر :

ولأسلوب الأمر دوره البيّن في توجّع الرضي على من افتقد من أصدقاء وأهل وأحبّة ، من ذلك قوله : (وافر)

فَقُلْ لِلقَلْبِ : لُبَّك والتَّعَزِّي
وَقُلْ لِلعَيْنِ : جَفْنَكِ وَالرُّقَادَا
مَصَائِبُ لا أُنَادِي الصَّبرَ فِيهَا ،
وَلا أَدْعَى إِلَيْهِ ، وَلا أُنَادَى (2)

فالشاعر في مناجاته مع نفسه الحزينة يأمر قلبه بالتعزّي والتأسّي كما يرجو عينيه النّوم ، فلا طائل من السهر ولا جدوى من اهتصار النفس طالما أنّ المصائب لن تكشف أو تخف فهي متتالية متلاحقة ينفذ صبر الانسان ازاء ملاحظتها وتتبعها ، ومن بديع تصويره لنفاذ صبره ، تشخيصه للصبر وكأنّه انسان وقف منه موقف المعاند في عدم مناداته والاحجام عن قبول دعوته .

---

1) الديوان 1/645 .

2) الديوان 1/374 .

ومن باب التفجّع بالأمر أيضا : (طويل)

فَقُلْ لِلَّيَالِي بَعْدَهُم : هَاكِ مِقْوَدِي
تَقَضّي إِيابي ، فاصْدُرِي بِيَ أَوْ رِدِي
وَدُونَكِ مِنْ ظَهْرِي وَقَدْ غَالَ أُسْرَتِي
طَرِيقُ الرَّدَى ، ظَهْرَ الذَّلُولِ المُعَبَّدِ (1)

فاضمار فاعل الأمر في (قل) ، يعني تحدّث الشاعر الى مجهول هو الموت الذي جعله مفعولا وفاعلا في آن واحد ، مفعولا لقول الشاعر ، وفاعلا بقيامه بعمليّة تبليغ الليالي ، ويتجلّى التجسيد في بثّ الحياة في الليالي في جعلها تقبل الأخذ باستخدام اسم فعل الأمر (هاك) وكأنّه بذلك يستسلم للواقع بعد أن بضّع الردى جسده وأحنى ظهره بافناء أهله وعشيرته فردا فردا ، فالأمر في واقعه تسليم ولكنّه قد يكون في بعض المرثيات تأمّلا استعباريّا صادرا من نفس برّحها الحزن (كامل)

فَاخْلِطْ بِصَوْتِكَ كُلَّ صَوْتٍ وَاسْتَمِعْ
هَلْ فِي المَنَازِلِ مَنْ يُجِيبُ دُعَاءَ
وَاشْمُمْ تُرَابَ الأَرْضِ تَعْلَمْ أَنَّهَا
جَرْبَاءُ تُحْدِثُ كُلَّ يومٍ دَاءَ (2)

فالشريف الرضي يريد ممّن يعزيه أن ينظر فيما حوله من أطلال بارحها أصحابها ورحل عنها سكانها ، علّه يتعظ ويصبر على ما أصابه ، ولكن حزنه الفاضب قد غلب موقفه الوعظي فخالط بين حاستي الشم والرؤية ، فبينما هو يدعو معزيه الى شمّ تراب الأرض ، يتحول الى وصفها وصفا

---

1) الديوان 1/ 373 .

2) الديوان 1/ 22 .

مدركا بالرؤية في قوله ((جرباء تحدث . . .)) والجرب لا يشم بل يُرى ، ولكن تفاعل الأحزان بداخله خلط عليه الأمر .

وقد يستعيض في تفجعه بالأمر عن فعل الأمر المباشر مستخدما بدلا منه المضارع الملحق بلام الأمر ويهدف من ذلك اعطاء سياق الرثاء نوعاً من الاستمرارية كما في قوله : (طويل)

لِتَبْكِ قُبُورٌ أَفْرَغَ المَوْتُ تَحْتَهَا
سِجَالَ العَطَايَا بَعْدَهُمْ وَالرَّغَائِبِ (1)

فالحاق الفعل المضارع بلام الأمر في قوله ((لتبك)) تعني الآنية والاستمرارية ، اضافة الى ما يتضمنه القول من تجوز اسنادي باسناد الفعل العيني للمجهول (تبك) الى غير فاعله ، فأصل البكاء لسكّان تلك القبور لا الى القبور ذاتها ، اضافة الى الاستعارة المكنية في قوله ((أفرع الموت)) بتشبيه الموت بالانسان والرمز اليه بأحد أفعاله الحسيّة وهو الافراغ والقرينة المانعة من ايراد المعنى الأصلي تكمن في الموت .

الدعاء :

ومن أساليب الانشاء التي كثيرا ما يستخدمها الرضي في اظهار تفجعه أثناء الرثاء الدعاء ، كما في قوله يدعو لمرثيه : (طويل)

---

1) الديوان 1/149 .

لَعـاً لَكُـم مِـنْ عَاثِرِيـنَ تَتَابَعُـوا
عَلـى زَلَـلِ الأقْـدَامِ عَثْرَ المُقَيَّـدِ (1):

فقـد صـدّر البيـت باسـم الفعـل الماضـي (لعـا) علـى سبيـل الدعـاء باقالـة عثـرات مـن تتابـع مـن أهـل وأقـارب فـي طـرق الـردى وقـد خـرج بالمعنـى الأصلـي لاسـم الفعـل حيـن أورده فـي سيـاق الدعـاء للموتـى فتحـول الـى ترحّـم عليهـم ملـيء بالأسـى .

ووفـاؤه لمـن افتقدهـم جعلـه يدعـو علـى نفسـه بالسهـر والسهـد حزنـا وأسفـا عليهـم (كامـل)

وَلَقَدْ كَبَا طَـرْفُ الرِّقَـادِ بِنَاظِـرِي
أسَفًا عَلَيْكَ فَلَا لَعـًا لِرُقَـادِي (2)

فقـد استخـدم اسـم الفعـل (لعـا) مقرونـا بالنفـي فـي محاولـة منـه للتعبيـر عـن وجـده والدعـاء علـى نفسـه بمجافـاة النّـوم تحسّـرا علـى مـن افتقـد ، ومـن ذلـك أيضـا دعوتـه علـى اليـوم الـذي افتقـد فيـه عزيـزا عليـه كمـا فـي قولـه مستخدمـا المصـدر : (كامـل)

بُعْـدًا لِيَومِـكَ فِـي الزّمَـانِ، فَإنّـهُ
أقـذَى العُيُـون وَفَـتّ فِـي الأعْضَـاءِ (3)

فتبـرم الشريـف ممّـا جلبـه يـوم الفجيعـة مـن أحـزان دفعـه الـى الدعـوة عليـه بالبعـد ، هروبـا ممّـا وقـع فيـه مـن أحـداث أليمـة لا يطيـق تذكّرهـا .

---

1) الديـوان 1/372 .
2) الديـوان 1/383 .
3) الديـوان 1/381 .

النهـــــــــــي :

ورغم ندرة أساليب النهي في مرثيات الرضي فقد وردت في نسيج القصيدة منطوية على معان من الحزن العميق كما في قوله ناهيا نفسه ضمن تفجعه على فَقْدِ أحد أصدقائه : (كامل)

لا تَطْلُبي، يا نَفْسِ خِلاًّ بَعْدَهُ،
فَلَمِثْلِهُ أَعْيَا على المُرْتَادِ (1)

فافتقاده للصديق الوفي جعل نفسه تهفو للبحث عن مثيل له ولكن شعوره بفداحة الخطب في فقد ذلك الصديق جعله يزجرها بالنهي في قوله " لا تطلبي يا نفس....."

التكرار ضمن قصيدة الرثاء :

انّ تزاحم الأحزان في نفس الشريف واشتجارها في أعماقه تدفعه الى التكرار تنفيسا عن عميق حزنه وعظيم أساه على من افتقد من أهل وأحبّة وأصدقاء. من ذلك تكراره للاستفهام في رثائه للصاحب بن عبّاد : (كامل)

أَكَذَا المَنُونُ تَقَنْطِرُ الأَبْطَالَا ؟
أَكَذَا الزَّمَانُ يَضَعْضِعُ الأَجْبَالَا ؟
أَكَذَا تُصَابُ الأُسْدُ، وَهْيَ مُذِلَّةٌ
تَحْمِي الشُّيُولَ، وَنَمْتَعُ الأَغْبَالَا ؟
أَكَذَا تُقَامُ عَنِ الغَرَائِسِ بَعْدَمَا
مَلأَتْ هَمَاهِمُهَا الوَرَى أَوْجَالَا ؟

---

1) الديـــــــوان 1/385 .

أَكَذَا تُحَطُّ الزَّاهِرَاتُ عَنِ الْعُلَى
مِنْ بَعْدِمَا شَأَتِ الْعُيُونَ مَنَالَا ؟
أَكَذَا تُكَبُّ الْبُزْلُ وَهْيَ مَصَاعِبُ،
تَطْوِي الْبَعِيْدَ ، وَتَحْمِلُ الأَثْقَالَا ؟
أَكَذَا تُغَاضُ الزَّاخِرَاتُ وَقَدْ طَفَتْ
لُجَجًا ، وأَوْرَدَتِ الظِّمَاءَ زُلَالَا ؟ (1)

فقد كرر الاستفهام سبع مرّات معبّرا بذلك عن تزاحم الأحزان في نفسه بحيث لم يستطع الأسلوب الخبرى حملها فتواترت بالاستفهام على شكل صرخات ملتاعة ، مغلّفة بالعتاب المر ، والتعجّب المهول ، وانكار فداحة الخطب، فحيرة الشاعر وانكاره وحزنه تنعكس على الملتقي أثناء التفكر في معانيها ، فهي تارة تأخذه ناحية الاندهاش " أكذا تصاب الاسد ...؟ أكذا تحط الزاهرات ...؟ أكذا تكب البزل " وتارة أخرى تميل به نحو عتاب الموت " أكذا المنون ....؟ أكذا الزمان ....؟" وكأنّ على شفتي الشاعر سؤالا للموت فحواه : لم اخترت الفقيد دون سواه من النّاس ؟ ومن التكرار بالاستفهام قوله أيضا : (طويل)

بِمَنْ تُدْفَعُ الْجُلَّى ، بِمَنْ تُرْفَعُ الْعُلَى،
بِمَنْ تُحْفَظُ الآمَالُ، وَهْيَ تَضِيْعُ
بِمَنْ يُنْقَعُ الظَّمْآنُ وَهْوَ مُحَلَّأٌ،
بِمَنْ يُؤْمَنُ الْمَطْرُودُ، وَهْوَ مَرُوعُ (2)

فتكرار الاستفهام بمن معناه افتقاد المجتمع بموت المرثي كلّ المعاني الانسانيّة التي يتوق الشاعر اليها ، فالاستفهام

---

1) الديوان 2/201 ، 202 .
2) الديوان 1/624 .

في البيتين يعني أنّه لا أحد يستطيع أن يملأ ما خلفه الفقيد من فراغ جعل نفس الشاعر الكئيبة تسترجع الأحزان على شكل موجات متتابعة .

ومن أساليب التحسّر التي يستنجد بها الرضي لتجسيد تفجعه على مرثيه تكرار أسلوب النّداء كما في قوله في رثاء صديقه أبي منصور الشيرازى : (منسرح)

يَا عَلَمَ المَجْدِ لِمْ هَوَيْتَ وَقَدْ
كُنْتَ أَمِينَ العِمَادِ وَالطُّنُبِ
يَا مِقْوَلَ الدّهْرِ لِمْ صَمَتَّ وَقَدْ
كُنْتَ زَمَانًا أَمضَى مِنَ القُضُبِ
يَا ناظِرَ الفَضْلِ لِمْ غَضَضْتَ وَمَا
كُنْتَ قَدِيمًا تُغْضِي عَلى الرِّيَبِ(1)

فتكرار يـاء النّداء وربطها بتذكّر مزايا المرثي من خلال مقارنة ما آل اليه مصيره من صمت أبدي ذاهل ، وما كان عليه بالأمس من حيويّة ونشاط منحت سياق الرثاء ترجيعات من الندبة التي يمكن تصور من خلالها حركات الشاعر الانفعاليّة أثناء حزنه وتحسّره على ذلك الصديق ، وهو يضرب كفّا بكف والدموع تنهمر من عينيه معربا عن تفجعه وعمق أساه .

وكثيرا ما تؤدّي حرقة القلب على الفقيد بالدعاء على أعدائه ومن تسبّب في موته بالضياع والخوف وعدم الاطمئنان وهذا ما نجده في مرثية الشريف في صديقه أبي حسّان ، فضمن تلك المرثية يكرّر الشاعر الدعاء على قتلة الفقيد بعد أن وصمهم بالبغي : (طويل)

---

1) الديوان 1/152 ، 153 .

فَلَا نَعِمَ البَاغُونَ يَوْمًا بِعِيْشَةٍ،
وَلَا حَضَرُوا إلاّ بِأَلأَمِ مَشْهَدِ
وَلَا صَادَفُوا فِي الدّهْرِ مَنْجىً لِخَائِفٍ
وَلَا وَجَدُوا فِي الأَرْضِ مَأوىً لِمُطْرَدِ
وَلَا شَرِبُوا إلاّ دَمًا بَعْدَهُ ، وَلَا
تَحَابَوْا بِغَيْرِ الزّاعِبِيّ المُقَصّدِ
وَلا نَظَرُوا إلاّ بِعَمْيَاءَ بَعْدَهُ،
وَلَا ارْتَضَعُوا إلاّ بِخِلْفٍ مُجَدّدِ (1)

فقد كرّر الشاعر الدعاء على قتلة الفقيد في الأبيات الأربعة ، سبع مرّات تعبيرا عن حرقته ازاء فعلتهم الشنيعة التي ملأت نفسه بالحزن على فقد صديقه وبالكراهية والبغض على القتلة . فامتزج الحزن المتأجّج بالغيظ، فتدفّق على شكل موجات من الحمم المتتابعة في دعوته على أولئك بافتقاد الراحة وعدم الطمأنينة ، وملاحقتهم بالتقتيل فيهم وفي نسلهم من بعدهم ، حتّى يقتلعون من جذورهم ، وكأنّه بتلك الدعوة يريد أن يثأر لصديقه الذي قضى غيلة على يد أحد غلمانه .

ومن التكرار المعبّر عن عمق تفجّع الشريف في رثائه تريد صيغة تعجبيّة واحدة في عدّة أبيات متتابعة كما في قوله ضمن مرثيته الأولى في الصابي : (كامل)

أَعْزِزْ عَلَيّ بِأَنْ أَرَاكَ،وَقَدْ خَلَتْ
مِنْ جَانِبَيْكَ مَقَاوِدُ العُوّادِ
أَعْزِزْ عَلَيّ بِأَنْ يُفَارِقَ نَاظِرِي
لَمَعَانَ ذَاكَ الكَوْكَبِ الوَقّادِ
أَعْزِزْ عَلَيّ بِأَنْ نَزَلْتَ بِمَنْزِلٍ
مُتَشَابِهِ الأَمْجَادِ وَالأَوْغَادِ (2)

---

1) الديوان 371/1 وخلف مجدد = نسل مقطوع
2) الديوان 382 .

فتكرار فعل التعجّب ثلاث مرّات متتابعة هو تصوير للتدفّق العاطفي المتأجّج الذي تزخر به نفسه ازاء ذلك الصديق فلم يكن ليتصور خلو مكانه وغياب صورته وسفره الأبدي بعد " حصوله أخا في المودّة لصيقا ونسيبا في الفضل عريقا " (1).

فظاهرة تكرار أساليب الاستفهام والنّداء والدعاء والتعجب ضمن قصيدة الرثاء عند الشريف الرضي هي تعبيرات تفجعية محتبسة تمازج فيها الوفاء بالحبّ بالحزن فتفجّرت على شكل دموع ملتاعة وأنّات حرّى مبرزة بذلك عظيم وفائه. هذا وانّ اندماج روحه بكلّ احساساتها في الحزن أثناء الرثاء صبغ صوره التفجعيّة - رغم قلتها - بالعتمة المعبّرة عمّا يعانيه من هلع حال طروق نبأ الموت سمعه واحتشاد نفسه للتعبير عن ذلك الحدث المأسوي بالشعر.

2- الصور التفجعيّة في مرثاة الشريف الرضي :

ترد الصورة في مرثاة الرضي منسجمة تماما مع السياق التفجعي الذي هو بصدده، والسبب في ذلك صدورها أثناء عمليّة الابداع ملتحمة بموقفه الذاهل، فهي ليست مفروضة على القصيدة من خارجها لغرض تزييني، لذا فإنّها لا تعتمد فقط على الصّورة البيانيّة المحددة في اطار التشبيه والاستعارة والكناية التي تعمد في استجلاب أجزائها الى الخيال، اذ يمكن لنفسه أثناء العمليّة الابداعيّة من

---

1) الشريف الرضي - رسائل الصابي والشريف الرضي ص 106.

اقتطاع صور حسيّة لتعبّر بها عن الأسى وعمق التفجّع كما في قوله : (طويل)

أَضُمّ عَلَيْهِ الرّاحَتَيْنِ تَعَلّقاً،
وَقَدْ نَزَعَتْهُ مِنْ يَدَيّ نُزُوعُ (1)

فضمّ الراحتين من العمليات التي يمارسها الانسان لا شعوريا عند تحسّره أو تأسفه على شيء افتقده أو أمر أهمّه أو مصيبة حلّت به ، وقد أوردها الشاعر في السياق تعبيرا عن تحسّره على مرثيّه ، ومن ذلك أيضا عضّ الأنامل كما في قوله : (طويل)

أَعَضّ بَنَانِي إِصْبَعاً ثُمّ إِصْبَعاً،
على ثَامِرٍ مِنْ فَرْعِ مَجْدٍ وَوَارِقِ
وَعَقْدٍ مِنَ الاحْسَانِ أَوْهَى نِظَامَهُ
كُرُورُ الرّزَايَا وَاعْتِقَابُ الطّوَارِقِ (2)

فعضّ الأصابع من العادات التي يمارسها الانسان عند النّدم أو تحسّره وقد أوردها الشاعر في سياق الرثاء تعبيرا عن تفجعه على تتابع أصدقائه واخوانه في طريق الموت الواحد تلو الآخر وقد كنّى عن ذلك التتابع بقوله " اصبعا ثم اصبعا " مع تشبيههم في أصالة عنصرهم وفي عطائهم بالثمار الغضة المتدلية من فروع شجرة مورقة معطاء ، وتشبيه تفرقهم بعد اجتماع الشمل بالعقد المنتظم الذي أوهن الموت سلكه وبدد نظام لآلئه .

---

1) الديوان 1/626 .

2) الديوان 2/64 .

ومن العادات التي يعبر بها الانسان عن شدّة هلعه وعظيم حزنه على من افتقد شق الجيوب أو طرح العمائم كما هو شائع عند العرب وقد تمكّن الرضي من خلال تحسّره على الصاحب أن ينقلنا الى الجو المضطرب بغورة الحزن (كامل)

طَرَحَ الرِّجَالُ لَكَ العَمَائِمَ حَسْرَةً
لمّا رَأَوْكَ تَسِيْرُ أَوْ إِجْلَالَا
قَالُوا، وَقَدْ فُجِئُوا بِنَعْشِكَ سَائِرًا
مَنْ مَيّلَ الجَبَلَ العَظِيمَ، فَمَالَا
وَتَبَادَرُوا عَطّ الجُيُوبِ، وَعَاجَلُوا
عَضّ الأَنَامِلِ يَمْنَةً وَشِمَالَا (1)

فالصّورة مع بساطتها تكاد تكون متكاملة الجوانب في تجسيدها لفجيعة النّاس في المتوفى بطرح العمائم تحسّرا بينما ارتفعت الجنازة على أكتاف الجموع الغفيرة وكأنها الجبل الذي زُحزح من أصوله ، وفي موضع آخر من المشهد راح البعض في تمزيق جيوبهم وعضّ أناملهم تحسّرا على الفقيد فالصورة في اطارها المأسوي بعيدة عن التعقيد من حيث التقاط أجزائها ، ولكن دمج تلك الأجزاء واعادة صياغتها بأسلوب يتناسب وحدث الموت قد منحها النبض والحيويّة بتمازج القول بالحركة .

ومن الصّور التفجعية الملتقطة من مشاهد الحياة وواقعها تجسيده للحزن في لطم الخدود وعض الأنامل (طويل)

مَصَابٌ رَمَى مِنْ هَاشِمٍ فِي صَمِيمِهَا
فَأَمسَتْ ذُرَاهَا خُشّعاً والغَوَارِبُ

---

1) الديوان 2/208 .

أَطَالَ بِهِ الشّبّانُ لَطْمَ خُدودِهِمْ،
وَصَكّ لَهُ غُرّ الوُجُوهِ الأشايِبُ
يَعضّونَ مِنْهُ بِالأكُفّ، وانّمَا
تُعَضّ بِأطْرَافِ البَنان العجائب (1)

فالرضي لم يكن مجرد ناقل لحدث الفاجعة فقوله « مصاب رمى من هاشم في صميمها » فقد أشرك نفسه ضمن ذلك الجمع الذي رماه المصاب في صميمه لانتمائه لهاشم في أصوله ، اضافة الى ما منحته الاستعارة المكنية من تعميق للمأساة في تشبيه المصاب بالرامي الذي استطاع باحكام رمايته أن يفتّ من عضد بني هاشم بانتزاعه الفقيد من بينهم واستكمالا لمشهد الحزن نزع الشاعر الى التجسيد من خلال لطم الخدود وعض الأنامل في محاولة لاظهار شدّة التفجّع .

واذا جاز لنا تسمية مشاهد عض الأنامل ولطم الخدود وشق الجيوب بالصّور التفجعيّة الواقعيّة لانتزاعها من مشاهد يفعلها المحزونون بصفة غير ارادية تحسّرا على موتاهم ، فإنّ للشريف أيضا قدرة فائقة على التجسيد من خلال الصور والمشاهد المتخيلة في مجال الرثاء ، كما في قوله : (كامل)

وَلَقَدْ مَرَرْتُ بِبَرْزَخٍ فَسَألتُهُ:
أَيْنَ الأولَى ضَمّتْهُمُ أرْجَاؤُهُ
مِثْلِ المَطِيّ بَوَارِكًا أجْدَاثُهُ ،
تُسْنَى عَلى جَنَباتِهَا بَوْغَاؤُهُ
نَادَيْتُهُ ، فَخَفِي عَلَيّ جَوَابُهُ
بِالقَوْلِ إلاّ مَا زَقَتْ أصْدَاؤُهُ

---

1) الديوان 1/ 143 .

مِنْ نَاظِرٍ مَطْرُوقَةٍ أَلْحَاظُهُ
أَوْ خَاطِرٍ مَطْلُولَةٍ سَوْدَاؤُهُ
أَوْ وَاجِدٍ مَكْظُومَةٍ زَفَرَاتُهُ
أَوْ حَاقِدٍ مَنْسِيَّةٍ شَحْنَاؤُهُ
وَمُسَنَّدِينَ عَلَى الْجُنُوبِ، كَأَنَّهُمْ
شَرِبَ تَخَاذَلَ بِالطِّلَا أَعْضَاؤُهُ (1)

فقد بثّ الحياة في الطبيعة الميتة بسؤاله الأرض، وتحدثه اليها ، وتشبيهه القبور في تجاورها واستطالة أشكالها وارتفاعها عن مستوى الأرض بالجمال الباركة ، فيما أخذت الرياح تسفي عليها الغبار وقد خيّم الهدوء الموحش على كلّ شيء فيما عدا تجاوب صدى السؤال الذي طرحه الشاعر مستفسرا عن أولئك الموتى ومصيرهم ، وخصوبة خياله بصور الحزن أدّت به الى اختراق تلك القبور والتطلّع الى ما آل اليه أولئك الموتى بوصف هيآتهم وما ارتسم على سحناتهم من سمات جمدت بجمودهم فمن مطبق جفنيه في غفوة أبدية وآخر همدت على وجهه علامات الكآبة التي كانت تنم عمّا في قلبه من انشغال وثالث توقفت زفرة الحزن في صدره ورابع سكت الحقد في نفسه والكلّ على جنوبهم في سباتهم الأبدي وكأنّهم سكارى قد أخذت منهم الخمرة مأخذها ، فنفسه

---

1) الديوان 1/32 ، 33 . وبواركا = جمع بارك أو باركه ، ونقول للبعير برك اذا أناخ ، والأجداث = جمع جدث = القبور ، تسفي الرياح = تذرها وتحملها ، واليوغاء = التراب ، وقد أسند الفعل الى التراب والسافي هو الريح فهو مجاز عقلي من اسناد الفعل الى مفعوله ، وزقت = صاحت ، ومطلولة = مهدورة ، سوداؤه = حبّة قلبه ، الشرب بفتح فسكون جمع شارب ويقصد بهم السكارى ، الطلا بكسر الطاء = الخمر .

الكئيبة كثيرا ما كانت تختسرق التراب لتنقل صور الموت (1) ومآسيه التي مابرحت تصطرع في أعماقه وتنفس عليه حياته كلما فجع في صديق أو قريب أو حبيب .

ومن صوره التفجعيّة المتكاملة في تمازجها من حيث الأسى النفسي والخيال قوله في رثاء قوم من عشيرته (طويل)

لَقَدْ أُولِعَ المَوْتُ الزّؤامُ بِجَمْعِهِمْ
كأنّ الرّدى فِيهِمْ تَحَلّلَ مِنْ نَذْرِ
وَرَوْا كَبِدي في آخِرِ الدّهرِ لَوْعَةً
بِمَا بَرّدُوا قَلْبِي عَلَى أَوّلِ الدّهْرِ
مَضَوْا فكأنّ الحَيّ فَرْعُ أَرَاكَةٍ
عَلى إِثْرِهِمْ عُرّي مِنَ الوَرَقِ النّضْرِ
وَأَصْبَحَ وِرْدُ الدّمع للعين بَعْدَهُمْ
عَلى الغِبّ إِذْ وِرْدُ القَرَاءِ عَلَى العَشْرِ
وَمَا تَرَكُوا عِنْدَ الرّمَاحِ بَقِيّةً
لِهَزّ إِلى يَوْمِ القَمَاسِ وَلا جَرّ (2)

فتهالك الشاعر في الحزن منح صورته التكثيف بالمعازجة في عناصرها النفسيّة والخياليّة والبيانيّة ، فالموت وهو أمر معنوى أصبح ذا صفات حسيّة يمثلها الشفف والتحلّل من النّذر ، بينما أصبحت نفس الشاعر الرقيقة في موقف مقارنيّ في تذكرها ماضيا بهيجا وواقعا مؤلما كئيبا ، ففناء أولئك الأهل أحال مرابعهم النيّرة الى صمت

---

1) لمزيد من تلك الصّور راجع على سبيل المثال :
الديوان 29/1 ، 282 ، 638 .

2) الديوان 506/1 .

مقيست ، مثلهم في ذلك مثل الشجرة الوارقة الظلال التي عريت أغصانها من أوراقها النضرة ، كما استحالت العيون في بكائها على فراقهم كالنبع الذي لا ينضب وكأنّ ارتياحها بالبكاء كارتياح حمار الوحش الذي هدّه تعب البحث عن الماء وقتله الظمأ فكان نهيقه عشر مرات تعبيرا عن سعادته في الوصول الى الورد ثم تأتي الكناية في قوله « وما تركوا عند الرماح بقيّه . . . البيت » لتلقي أضواء على حالة الشاعر بعد الفراق الأبدي الذي فتّ عضده وأهار قوته فقوة اندماجه في الحزن هو الذي مازج بين عناصر الصّورة وأسبغ عليها ظلا من القتامة، ومن الصّور التفجعيّة التي يغلب العنصر النفسي عليها في مجال الرثاء قوله : (متقارب)

قَعَدْتُ بِمُدْرَجَةِ النّائِبَاتِ ،
يُمِرّ الزّمَانُ عَليّ الخُطُوبَا
عَلى الهَمّ أُنْفِقُ شَرْخَ الشّبَابِ ،
وَأُعْطِي المَنَايَا حَبِيْباً حَبِيْبَا
تَصَامَمْتُ عَنْ هَتَفَاتِ المَنُونِ
بِغَيْرِي وَلابُدّ مِنْ أنْ أُجِيْبَا (1)

فلقد بلغ الحزن بالشاعر مرحلة جعلته يبثّ الحركة والاحساس في كلّ ما يحيط به، فللنائبات أماكن تسلكها ، والزمان يُمِرُّ عليه المصائب متعمّدا ، والشباب استحال الى أمر حسيّ ينفقه على الهموم ، والمنايا تأخذ بِنَهَمٍ ما يعطيها الشاعر ، والموت يهتف بغيره على مسمع منه بينما لا يعبره هو أذنا صاغية مع تأكّده أن لابدّ لذلك التصامم من حد اذ لابدّ له من أن يستجيب لذلك النّداء عاجلا أو آجلا ، فالتجسيد والحيويّة في الصّورة ليس الاّ تعبيرا

---

1) الديوان 1/165 .

عن معاناة الشاعر في تراوح نفسه بين الخوف والحزن ابّان الرثاء ، وليس أدلّ على ذلك من تصريحه بالتصامم عن هتاف الموت المتضمّن البيت الثالث ،لأنّه محاولة هروب مؤقّت لا يدري متى تكون نهايته ، فانسياب الصّور الحزينة داخل قصيدة الرثاء بعفويّة جعلها تنسجم انسجاما تامّا مع السياق التفجعي ، الاّ أنّ ذلك لا يعني اقتصار رثائه على نمط معيّن من الصّور ، فشراء تجربته في مجال الحزن أثرى بدوره مراثيه بأنماط من الصّور التخيليّة ، والواقعيّة المنتزعة من مشاهد الحياة ، كما أنّ للصّور البيانيّة الخاطفة دورها التفجعي في العديد من تلك المراثي ، فمن ذلك ، التشبيه في قوله : (خفيف)

وَكَأنّ القُبُورَ مِنْهُمْ بِذِي الجِزْ
عِ عِيَابٌ حَمَلْنَ دُرّاً وَعِطْرَا (1)

فقد شبّه القبور بالأوعية الثمينة التي ضمّت في أحشائها الغالي من الأحجار الكريمة والزكي الفوّاح من العطور وفي ذلك دلالة على حبّه وتعلّق نفسه بأولئك الذين ضمتهم تلك القبور ، ومن ذلك أيضا تشبيه التمثيل في قوله : (وافر)

كَأنّ النّاسَ بَعْدَك في ظَلامٍ
أوِ الأيّامَ أُلْبِسَتِ الحِدَادَا (2)

فقتامة الحياة في عين الشاعر بسبب موت المرثي أوحت له بتصور النّاس بعد موته في ضياعهم أصبحوا كالمتخبطين في ظلام ، كما شبّه انحسار السرور على الأيّام بسبب

---

1) الديوان 1/501 - العياب = مفرد عُيبة بفتح العين وسكون الياء الوعاء الذي يحفظ فيه الثياب أو الأشياء الثمينة .

2) الديوان 1/375 .

الفقد بالمتوشّح بالحداد حزنا ، فالتشبيه في البيت لم يقتصر على التصور بين المتشابهين بل تعدّاه الى الحركة وبثّ الحياة في الجامد . ومن تشبيه التمثيل في مجال التحسّر قوله أيضا : (كامل)

وَكَأنّ طُولَ العُمْرِ رَوْحَةُ رَاكِبٍ
قَضّى اللُّغُوبَ وَجَدّ في الاسْرَاءِ (1)

إذ تتجلّى براعة الشاعر في تشبيه سرعة انقضاء العمر بالراكب الذي أخذ قسطا من الراحة ثم عاود مزاولة السير ، مشبّها سرعة الزمن بالنسبة للانسان بحركة سرعة المسافر الذي يأخذ من الراحة بالقسط القليل ليعود الى متابعة السير ، مع ملاحظة استخدام الشاعر تعبير " جدّ في الاسراء " التي تعني السير في الليل وهو عادة عند المسافرين عبر الصحراء هروبا من وهج الشمس مع ما ينطوي عليه الاسراء من ظلام يعني المجهول أو قد يعني الموت في بيت الشاعر .

وقد يتكىء الشريف على الاستعارة كمصدر من مصادر تجسيد أساه في مجال الرثاء كما في قوله : (خفيف)

وإذَا قُلْتُ:يَنْزِعُ الدّهْرُ نابًا
مِنْ بَقَايَا ذَوِيّ أعْلَقَ ظُفْرَا (2)

فقد شبّه الدهر - في تتبعه بالموت لذويه وأهله - بالحيوان المفترس ورمز اليه ببعض لوازمه بجامع الفناء في كل ، ومن ذلك أيضا قوله متبرما من الدنيا : (طويل)

---

1) الديوان 1/ 27 .

2) الديوان 1/ 501 .

أَتَرْضَى عَنِ الدُّنْيَا وَمَازَالَ بَرْكُهَا
عَلَى مَقْصَدٍ مِنَّا، وَشِلْوٍ مُمَضَّعُ (1)

فقد شبّه الدنيا بالجمل ورمز اليه باحدى صفاته وهو البرك بجامع استمراريّة الاطباق على الخناق في كل وقد ترد الاستعارة التمثيلية ضمن قصيدة الرثاء لتبث في معانيها نوعا من التفجّع المكبوت كما في قوله : (طويل)

وَمَنْ كَانَتِ الأيّامُ ظَهْرًا لِرَحْلِهِ
فَيَا قُرْبَ مَا بَيْنَ المَدَى وَالرَّكَائِبِ (2)

ويقال ذلك لمن عاجلته المنيّة بغتة وهو معافى ومتمتّع بكامل صحته ، دون أن يحسب لها حسابا بجامع السرعة في سير الراحلة والزمن المتمثّل في الأيّام ، ومن ذلك قوله أيضا : (طويل)

وَمَنْ أَصْبَحَ المِقْدَارُ حَادِي مَطِيّهِ
أَجَدّ بِلَا رُزْءٍ وَلَا سَوْطِ ضَارِبِ (3)

فقد استعار الحداء للقدر وهو صفة من صفات الانسان وذلك في مجال مباغتة القدر في كل ، لما في الحداء من حث للراحلة على السرعة وما في القدر من سرعة في طي الزمن الذى بدوره يطوي الأعمار حسب تصوّر الشاعر .

وللكناية - رغم قلّة ورودها - دورها الأساسي في تفجّع الشريف ضمن قصيدة الرثاء ومن ذلك قوله : (خفيف)

---

1) الديوان 1 / 640 .

2 ، 3) الديوان 1 / 147 .

كَمْ حَشَوْتُ الثَّرَى حُسَاماً طَرِيراً،
وَطَوِيلاً لَدْنًا ، وَطِرْفًا أَغَرّا (1)

فقوله « حساما طريرا ، طويلا لدنا ، طرفا أغرّا » كنايات عن الشجاعة والكرم وطيب العنصر ، والشاعر يتحسّر على تلك الصفات التي أودعها التراب فيمن افتقدهم وقد عبّر عن كثرتهم بكم الخبريّة ، ومن الكنايات ضمن الرثاء قوله أيضا : (كامل)

لَوْ كُنْتَ تُفْدَى لافتدتك فَوَارِسٌ
مُطِرُوا بَعَارِضِ كُلِّ يَوْمٍ طِرَادِ
لَكِنْ رَمَاكَ مُجَبِّنُ الشُّجعَانِ عَنْ
إِقْدَامِهِمْ وَمُضَعْضِعُ الانْجَادِ (2)

فالتمنّي المتعذّر في دفع غائلة الموت عن الفقيد لم يحل دون وقوعه إلاّ أنّ الشاعر لم يذكر الموت في السياق بل كنى عنه بقوله « مجبّن الشعان ، مضعضع الانجاد » دلالة على ما تكنّه نفسه من رهبة ازاء الموت .

انّ خصوبة خيال الشريف ودقّة ملاحظته للأشياء فيما حوله وتفاعل كل ذلك مع تجربة الحزن لديه أغنت رثاءه بصور متنوعة المصادر تتولّد داخل القصيدة من فيض خياله أو من واقع رؤيته وهي في كلتا الحالتين تصدر بعفويّة تامّة من خلال معاناته مصبوغة بقتامة الرؤية لانبثاقها من المخاضات الوجدانيّة الكثيرة التعقيد ، ذلك أنّ وجدان الشاعر يتأثّر بمظاهر البيئة تأثّرا عفويّا ويقع ذلك في عتمة

---

1) الديوان 501/1 .

2) الديوان 382/1 .

ضعيـــره" (1) ومـن ثـم يعيـد بنـاء ذلـك التصـور مصبوغـا بأسـاه فيحـول ذلـك - فـي الغالـب - بينـه وبيـن العمليّـة التزينيّـة المتمثلـة فـي البديـع لتعـارض ذلـك مـع الحـزن والتفجّـع .

3- البديـع وصـدق العاطفـة فـي تفجـع الشريـف الرضـي :

انّ محافظـة الشريـف الشديـدة فـي تمسكـه بعمـود الشعـر جعلتـه لا يعمـد الـى استجـلاب البديـع فـي شعـره عامّـة، وفـي رثائـه علـى وجـه الخصـوص ، خاصّـة اللفظـي منـه ، لأنّ انشغـال نفسـه بالحـزن أثنـاء الرثـاء ينسأى بهـا عـن كـلّ أمـر عـارض يحـول دون تدفّـق الشعـر والحـدّ مـن انسيابـه الطبيعـي ، فـإذا مـا ورد المحسـن البديعـي أثنـاء ذلـك فإنّـه يكـون عفويّـا ومنسجمـا مـع أسـى الشاعـر وحزنـه فـي أغلـب الأحيـان فـورود المجانسـتين فـي قولـه : (مجـزوء الكامـل)

لَـوَداع إِخـوانِ الشّبَـا
بِ مَضَـتْ مَطَايَاهُـم تَخُـبُّ
فَارَقْتُهُـمْ ،والعَيْـنُ عيـ
ـنٌ بَعْدَهُـم،وَالقَلْـبُ قَلْـبُ (2)

بيـن " العيـن وعيـن " وبيـن " القلـب وقلـب" قـد وردتـا ضمـن أبيـات رثـاء قالهـا الرضـي بديهـة اثـر مفاجأتـه بنبـا وفـاة صاحـب مـن أعـزّ أصحابـه ممّـا لـم يتـح لـه كـدّ فكـره فـي استجلابهمـا فجاءتـا منسجمتيـن انسجامـا تامّـا مع السيـاق التفجعـي ، فالعيـن الأولـى تعنـي حاسـة الإبصـار أمّـا العيـن

---

1) ايليا حاوى - فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ص 141 .

2) الديـــوان 1 / 170 .

الثانية : عني النبع المنهمر ، ويعني القلب الأول عضو الحياة النابض في صدر الانسان أمّا القلب الثاني فهو مصدر (قلب ، يقلب قلبا) اذا حوله عن وجهه ، وقد أخبر به الشاعر على سبيل المبالغة . ويريد بذلك أنّ عينه بعدهم لا يجف دمعها وانّ قلبه لا يستقيم له تفكير ، فافتراق المحض جعل حياته لا تستقر على حال

ومن الجناس الناقص ما ورد في تفجعه على أبي طاهر الحمداني (كامل)

خُرّقَ قَدِ اعتَنَقُوا الصّفيحَ وَظَالمًا
اعتَنَقُوا الصّفائِحَ والدّمَاءُ جَوَارِ (1)

فالمجانسة الناقصة بين ((الصفيح والصفائح)) منحت السياق بعدا من التحسّر العميق ، أوحت به المقارنة بين أمس الحمدانيين المشرق ، وما آل اليه مصيرهم من اندثار استحال لي قلق بالنسبة للشاعر . فكلمة صفيح تعني القبور أمّا كلمة صفائح فتعني السيوف . فهو يعمد الى الجناس التّام والناقص في مجال الرثاء قصد توظيفه لغرض معنوي لا يمت للزينة والزخرفة بصلة كما في قوله : (طويل)

لَنَا كُلّ يَوْمٍ رَنّةٌ خَلْفَ ذَاهِبٍ،
وَمُستَهلَكٍ بَيْنَ النّوَى والنّوَادِبِ (2)

فالمجانسة بين كلمتي ((النوى والنوادب)) متفقة مع معاني الموت لما يتضمّن النّوى من افتراق وبعد وما تعنيه كلمة نوادب من بكاء وعويل وتحسّر .

ورغم قلّة الاسجاع في مرثياته خاصّة وشعره على وجه العموم - اذا ما استثنينا التصريع في مطالع قصائده - فإنّها

---

1) الديوان 1/493 .

2) الديوان 1/146 .

لا ترد في سياق قصيدة الرثاء الاّ متكلفة يشعر القاريء بثقل الصنعة فيها كما في قوله ضمن تعزية أخيه في ابنة له توفيت : (طويل)

لأَظْمَا مُعلّينَا وأَرْوَى المَصَائِبَا ،
وَأَسْخَطَ آمَالاً وَأَرْضَى نَوَائِبَا
مَصَابُ نُجُومُ المَجْدِ فِيهِ نَوَاجِمٌ
تَرَكْنَ نُجُومَ الصّبرِ عَنْهُ غَوَارِبَا (1)

فالتكلّف بادٍ على الاسجاع المطرّفة في قوله " أضما وأسخط " وبين " أردى المصائبا وأرضى النوائبا " ، كما أنّ الصنعة ظاهرة بجلاء على الجناس في قوله " نجوم المجد ، ونواجم ونجوم الصبر " فقد كنّى الشاعر عن أهله وذويه بنجوم المجد ، ويعني بالنواجم الظواهي الجلية للعيان ، أمّا نجوم الصبر فهي كناية عن استطالة الصبر وبعد منالـه .

هذا فيما يخصّ توظيف المحسن البديعي اللفظي ضمن رثائه ، أمّا عن المحسن المعنوى فانّه أوسع انتشارا فيه اذا ما قيس بالمحسن اللفظي ، ومن ذلك : التقسيم في قوله : (طويل)

نَعَمْ إنّهَا الدُّنْيَا سِمَامٌ لِطَاعِمٍ ،
وَخَوْفٌ لِمَطْلُوبٍ ، وَهَمٌّ لِطَالِبِ (2)

فقد قسّم الدنيا الى أقسام ثلاثة تشي بما يكنّه في نفسه من زهد فيها ، فهو لم يورد ضمن تلك الأقسام واحدا ينم عن تعلقه بها أو حبّه لها .

---

1) الديوان 1/156 ، ومعلّينا = من أعلّه سقاه سقيا بعد سقي .
2) الديوان 1 / 146 .

ومن باب التقسيم قوله متأملا في متناقضات الحياة (طويل)

وَمَا النّاسُ إلاّ دَارِعٌ مِثْلُ حَاسِرٍ
يُصَابُ، والاّ دَاجِنٌ مِثْلُ سَارِبِ (1)

فقد قسّم الشاعر النّاس في مسيرتهم في هذه الحياة الى قسمين ضمّن الأول منهما « الدارع والحاسر » وضمّن الثاني « الداجن والسّارب » مع وضع كل قسم منهما في طباق تضاد ، وقد استخدم (مثل) لتبيان التشابه في متناقضات الحياة ، فالمتحصّن والذي يعيش في العراء كلاهما سواء بالنسبة للموت كما أنّ الذاهب والمقيم سيّان .

ومن التقسيم المقرون بمطابقة التضاد قوله في رثاء والدته : (كامل)

رُزآنِ يَزْدَادَانِ طَوْلَ تَجَدُّدٍ
أَبَدَ الزّمَانِ : فَنَاؤُهَا وَبَقَائِي (2)

فقد أجمل الرزئين في الشطر الأول وعاد الى تفصيلهما في عجزه بقوله « فناؤها وبقائي » مع ما في التعبير من تضاد اضافة الى التتميم في « أبد الزمان » ، وقد ورد في السياق تبيانا لاستمراريّة الحزن الذي يكابده بعد موت أمّه .

ويستأثر الطباق والمقابلة بالنصيب الأوفى في تحريك معاني التفجّع داخل قصيدة الرثاء ، والسبب في شيوعهما أكثر من غيرهما من المحسنات هو ما يتضمنانه من معاني التناقض المتناسبة مع موقف الشاعر من رؤيته للحياة

---

1) الديوان 1 / 146 .

2) الديوان 1 / 23 .

أثنـاء الرثـاء ، خاصّـة أنّ الطبيعـة مـن حولـه يكتنفهـا التناقض فـي كـل مظاهرهـا مـن تعاقـب للفصـول وحركـة المـدّ والجـزر والليـل والنهـار والبدايـة والنهايـة والميـلاد والمـوت، الـى غيـر ذلـك مـن مشاهـدات تلعـب دورا هامّـا فـي قصيـدة الرثـاء لذلـك فـإنّ رؤيـة الشاعـر الذاهلـة أثنـاء الرثـاء تنطلـق مـن محاولـة كشـف تناقضـات الحيـاة والتعبيـر عـن أسـاه تجاههـا ، فالتفجّـع فـي قولـه : (طويـل)

أَصَابَتْ سِهَامُ الحَادِثَاتِ قُلُوبَهَا ،
فَكَمْ أَعْقَبَتْ رَوْعًا يَرُوعُ العَوَاقِبَا
لَقَدْ وَعَدَتْنَا ، إِذْ رَغِبْنَا رَغَايِبًا
فَلَمَّا أَصَبْنَ الظَّنَّ أَعْطَتْ مَصَايِبَا
وَأَرْضَعْنَ أَفْوَاهَ المَطَامِعِ فَجْعَةً
فَطَمْنَ بِهَا عِنْدَ النَّجَاحِ المَطَالِبَا (1)

يكمـن فـي تطويعـه ألفـاظ اللغـة لتـؤدّي دورهـا فـي الاستجابـة لمـا يشتعـل داخلـه مـن حـزن ، فالتوكيـد بالمفعـول المطلـق فـي قولـه " روعـا يـروع ، رغبنـا رغايبـا " هـو محاولـة لتفريـغ بعـض مـن شحنـات الأسـى المزدحمـة فـي أعماقـه ، ولقـد جـاءت المقابـلات لتؤجّـج مـن لهيبـه فـي الوعـد المتمثّـل فـي الشطـر الأول مـن البيـت الثانـي والاخـلاف المتمثّـل فـي شطـره الثانـي ، والارضـاع الـوارد فـي صـدر الشطـر الأول مـن البيـت الثالـث مقابـل الفطـم الـوارد فـي صـدر شطـره الثانـي مع ملاحظـة مـا تضمنتـه المقابلـة الأولـى مـن مجـاز فـي اسناد الوعـد والعطـاء للدنيـا ، وبنـاء المقابلـة الثانيـة علـى الاستعـارة بتشبيـه المصائـب بالانثـى التـي رمـز اليهـا بصفتـي الفطـم والارضـاع، وكأنّـه بهـذا التركيـب المزدحـم بأساليـب البلاغـة يريـد أن يفـرغ مـن شحنـات الحـزن المتفاعلـة داخـل نفسـه .

---

1) الديـوان 1 / 157 .

ومن التفجّع بالمطابقة المستوحاة من التأمّل في الطبيعة قوله : (كامل)

لا زَالَ زَائِرُ قَبْرِهِ فِيْ عَبْرَةٍ
تَنْعَى البَقَاءَ إِلَيْهِ، وَاسْتِعْبَارِ
وَالرَّوْضُ مِنْ حَالٍ عَلَيْهِ وَعَاطِلٍ
والمزن مِنْ غَادٍ عَلَيْهِ وَسَارِ (1)

فقد قابل بين "حال وعاطل" و"غاد وسار" ليبيّن من خلال ذلك استمرارية الكون على المتوفى متكئا في ذلك على صيغة الدعاء "لا زال".

وتداخل المشاعر في بعضها بعضا في مرثية الشريف الرضي يجعل من المقابلات بالتضاد غاية في التشابك، لتدفقها من نفسه على شكل موجات من الحزن المتلاحق دونما توقّف كما في قوله : (كامل)

إِنّ الدّمُوعَ عَلَيْكَ غَيْرُ بَخِيلَةٍ
وَالقَلْبُ بالسُّلْوَانِ غَيْرُ جَوَادِ
سَوّدْتَ مَا بَيْنَ الفَضَاءِ وَنَاظِرِي،
وَغَسَلْتَ مِنْ عَيْنَيّ كُلّ سَوَادِ
رَيُّ الخُدُودِ مِنَ المَدَامِعِ شَاهِدٌ
إِنّ القُلُوبَ مِنَ الغَلِيْلِ صَوَادِ (2)

فلقد بنى تفجعه على صورة نفسيّة غاية في القتامة، مكوّنة من المقابلات التي جعلت المعاني نابضة بالأسى بمراوحته في تجسيد حزنه بين المظاهر الخارجيّة في مقابل ما يعانيه من برح وألم في الداخل، فسخاء الدموع حزنا

---

1) الديوان 1 / 494 .
2) الديوان 1 / 384 .

على المرثي يقابله عدم جود القلب بالنسيان ، واسوداد الدنيا في ناظره قابله انحسار ذلك السواد - وهو مركز الرؤية - عن عين الشاعر وارتواء الخدود من كثرة الدموع ، هو دلالة على ما يعانيه القلب من عطش ولظى لفراق صاحبه العزيز ذاك .

انّ احتشاد معاني الحزن في نفسه ، تتيح له سيلا من التعبيرات المتناقضة التي تتسق ورؤاه لتكون شاهدا على ما في الكون من تضاد هو الأساس في هلع الانسان وخوفه ممّا يحيلها في كثير من الأحيان الى نظرات تأمليّة تنعكس على تصرف الانسان في أقواله وأفعاله ومن ذلك قوله ضمن رثاء سفير القرامطة في العراق أبي بكر بن شاهويه : (طويل)

أَخِي مَا أَقلّ التّابِعِيكَ إلى الثّرَى،
وَإِخْوَانُكَ الأَدْنَوْنَ مِنْ قَبْلِهَا كُثُرُ (1) :

فالمقابلة بين قلّة من مشى في جنازة الفقيد ، وبين كثرتهم في تقربهم اليه وسعيهم نحوه أثناء حياته ، تعني احتقار الشاعر لنفوس الكثرة من أبناء مجتمعه لما يحملونه من زيف وملق ، فتفجعه في هذا الصّدد لا يقتصر على الموت ضمن قصيدة الرثاء بل يتعدّاه الى الرؤية المتناقضة بين أفعال الانسان وأقواله في محيطه الاجتماعي بين أهله وأصدقائه وكل الأشخاص الذين تحتّم عليه الحياة الاحتكاك بهم .

---

1) الديوان 1 / 498 .

الفصـــل الثالـــــــث

التفجّع والمجتمع في شعر الشريف الرضي

الصراع بين الماضي المسلوب والواقع المؤلم والمستقبل المرتقب :

لم يخلق تفجّع الشريف الرضي الاجتماعي من فراغ، فهو متولّد بفعل تراكمات اجتماعيّة متعددة الجوانب ثرية بالأحداث عبر قرون متعاقبة من الحزن والألم وذلك بفعل الموروث الاجتماعي في الوسط العائلي الذي يعيشه، ممّا عكس انطباعات ذلك الموروث على شعره، فجاء صورة معبّرة وصادقة عن ذلك المجتمع ، وانْ حاول الشاعر التستّر وراء التعابير المختلفة تلافيا للسخط إنّ هو جاهر بمكنونات نفسه ، فأدّى به ذلك الى المعاناة والصرعات النفسيّة العميقة التي طفح بها شعره ، لترسم - من خلال أساه - طموحاته وآماله المقترنة بالاخفاق والفشل ، فأدّى به ذلك الى الانتقال بتلك الآمال من الواقع المؤلم الى الماضي المشرق المسلوب ، خاصّة وأنّ تنقّل الرضي بآماله عبر الماضي قد يعني من الوجهة النفسيّة هو محاولة تجاهل للواقع، وهو هروب لا يمكن ادراكه بسبب صورة الفخر التي تغطي ذلك الهروب أو بالأحرى الاخفاق في تحقيق الآمال ، فقوله: (بسيط)

جَدّي النّبيّ، وَأُمّي بنتُهُ وَأبي
وَصِيّهُ، وَجُدُودي خِيَرَةُ الأُمَمِ (1)

هو فخر حاول الشريف من خلاله أن يبيّن قيمته الاجتماعيّة بالانتماء الى الرسول (ص) وآل بيته، ولكنّه في ذات الوقت تغطية لخيبة أمل يعاني منها لأنّ التمسّك بالماضي أو حتّى

---

1) الديـــــوان 2/388 .

اللجوء اليه هو محاولة للاحتماء من مجابهة الذات.

الأمر الأول ـ الماضي المسلوب والواقع المؤلم :

وينطلق الرضي في هروبه الى الماضي من عاملين يتجاذبان حياته ويقلقان نفسه الشفافة ، فيصبغان شعره بالحزن المتراوح بين عتمة التفجّع ، وبين الأسى الخفيف ويمكن ردّ ذينك العاملين الى :

1- الانتماء لآل البيت :

عادة ما يؤدّي القهر بالانسان المغلوب على أمره الى النزوع الى أحد أمرين : التمرّد على الواقع أو الرضوخ اليه ، فيحاول جاهدا الانفلات من ذلك الواقع وتغييره بكلّ ما أوتي من قوة ، ثم أنّه يحتمي بما يتصوّر أنّ فيه وقاية له من التسلّط والقهر اذا ما فشلت مقاومته ، فيكون التباهي بالنسب والتفنّي بأمجاد الأجداد احدى الوسائل الواقية ظاهريّا في مجتمع لا يعترف الاّ بالقوّة أساسا في السيادة ، ممّا يعني الفشل والانكفاء على الذات ، وعلى هذا الأساس فإنّ التفنّي بالانتماء وبعراقة النسب ليستا الاّ محاولة لاثبات الذات والمصالحة مع النفس ، والمواءمة بين الداخل والخارج بطلاء واهٍ سرعان ما تفضحه تصرفات ذلك الفرد المغلوب على أمره ، ففشل الشريف الرضي في تحقيق ذاته في الواقع أدّى به الى التجنيح بآماله في فضاء واسع من الأحلام العريضة التي أدّت به في بعض الأحيان الى تصوّر نفسه متربعا على سدة الخلافة فيحدثها قائلا :

(كامل)

هَذا أَمِيرُ المُؤمِنِينَ مُحَمَّدٌ
كَرُمَتْ مَغَارِسُهُ وَطَابَ المَوْلِدُ

أَوَ مَا كَفَاكَ بِأَنَّ أُمَّكَ فَاطِمٌ،
وَأَبُوكَ حَيْدَرَةٌ، وَجَدُّكَ أَحْمَدُ
يُمسِي وَمَنزِلُ ضَيْفِهِ لا يُحتَوى
كَرَمًا ، وَبَيْتُ نُضَارِهِ لا يُقْلَدُ (1)

فلقد هرب الشاعر بأحلامه بعيدا حين تصوّر نفسه متربعا على كرسي الخلافة ، معتمدا في وصوله الى ذلك المنصب الرفيع بانتمائه لآل البيت ، متصوّرا داره وهي تعجّ بالضيوف من كل حدب وصوب ، ولكن حديث النفس المجنح ذاك لم يمنعه من النزول الى الواقع (طويل)

فَيَا عَجَبًا مِمَّا يَظُنُّ مُحَمَّدٌ
وَلِلظَّنُّ في بَعْضِ المَوَاطِنِ غَرَّارُ
يُقَدِّرُ أَنَّ المُلْكَ طَوْعَ يَمِينِهِ
وَمِنْ دونِ مَا يَرْجُو المُقَدِّرُ أَقْدَارُ
لَهُ كُلَّ يَوْمٍ مُنْيَةٌ وَطَمَاعَةٌ
وَنَبْذُ قَرِيضٍ بِالأَمَانِيِّ سَيَّارُ (2)

فالحديث مع النفس هنا لم يعد كسابقه ، فالملك لم يعد طوع بنانه كما كان يتصوّر ، فلا مجال للأماني والخيالات المجنّحة في مجتمع لا يعرف سوى القوّة والقهر مبدأ في الوصول الى السلطة والمسك بزمام الأمور ، ولما كان لا يستطيع الصبر على هذا ، ولا يمكنه الوصول الى ذاك فإنّه يثور على واقعه معتمدا على نسبه في قوله : (كامل)

رُدّوا تُرَاثَ مُحَمَّدٍ رُدّوا ،
لَيْسَ القَضِيبُ لَكُمْ وَلا البُرْدُ
هَلْ عَرّقَتْ فِيكُمْ كَفَاطِمَةٍ
أَمْ هَلْ لَكُمْ كَمُحَمَّدٍ جَدُّ (3)

---

1) الديوان 1/409 .
2) الديوان 1/536 .
3) الديوان 1/407 .

ولكنهـا ثـورة سلبيّـة تنطـوى علـى الاحبـاط الداخلـي والمعانـاة التـي يكابـد منهـا ، وإنّ حـاول التستّـر وراء الكلمـات لاخفـاء اخفاقـه وألمـه ، فالماضـي المتمثّـل فـي الخلافـة التـي يعدهـا الشريـف حقّـا شرعيّـا لـه ولأسرتـه لا يمكنـه بلورنـه الـى واقـع.

2- عامـل الانتمـاء العربـي :

إنّ احسـاس العربـي بالخيبـة تحـت طائلـة قهـر التّـرك والفـرس الذيـن استأثـروا بالسلطـة فـي القـرن الرابـع، جعلـه دائمـا فـي موقـف الناقـم علـى تلـك الأجنـاس التـي نالـت مـن مكانتـه وأنزلتـه مـن علیائـه ، ومـا قيـام دويـلات عربيـة - كامـارة العقيليين فـي الموصـل ، وامـارة الحمدانييـن فـي حلـب - الاّ ردّة فعـل واثبـات للـذات تجـاه ذلـك المتسلّـط الأجنبـي الـذي كـاد أن يحسـر سلطـان العـرب عـن كـلّ البقـاع لـولا قـوة اللغـة العربيّـة التـي تستمـدّ سلطانهـا مـن القـرآن الكريـم ، ولقـد حـاول الشاعـر العربـي أن يعبّـر عـن تألمـه بسبـب انحسـار السلطـان العربـي كمـا فـي قـول المتنبّي : (منسرح)

وإنّمـا النّـاسُ بِالمُلـوكِ وَمَـا
تُفلِـحُ عُـرْبٌ مُلوكُهَـا عَجَـمُ (1)

فالحنيـن الـى الأصالـة تحـت طائلـة العنصـر الأجنبـي جعـل الشاعـر العربـي يسلـك فـي تمـرده علـى الواقـع اتجاهين :

1- اتجاهـا ثوريّـا صريحـا كمـا لحظنـاه عنـد المتنبّـي ، ولا يتأتّـى ذلـك لـه الاّ فـي حالـة احتمائـه بحكّـام يسنـدون اتجاهـه ويتعاطفـون معـه .

---

1) البرقوقـي - شـرح ديـوان المتنبّـي 4/179 .

2- اتجاها هادئا مغلفا بشتّى أنواع التوريات، اذا وجد الشاعر نفسه مضطرّا الى الرضوخ للواقع في ظلّ الحكم الأجنبي ، وقد يسلك في تمرده اتجاهات لا يمكن ملاحظتها الاّ بالسير مع شعره خطوة خطوة لسبر أغوار كلماته ، وملاحظة شتّى اتجاهاته التعبيريّة ، وهذا ما سنلحظه في تتبعنا لأساليب الشريف الرضي ، فقد كان يعيش في العراق الخاضع لسلطان البويهيين والتّرك الذين هيمنوا على الوظائف الاداريّة والعسكريّة ، واحتكروا لأنفسهم جميع مناصب الدولة ، فأصبح العنصر العربي على هامش الحياة وقد أحسّ الرضي بذلك وحاول التعبير عنه ، ولعلّ تمسكه بالمقدمة الطلليّة في مدح البويهيين بالذات هو تعبير عن الانتماء العربي ، كما في مدحه بهاء الدولة : (خفيف)

يَا دِيَارَ الأحْبَابِ كَيْفَ تَغَيّرْ
تِ وَيَا عَهْدُ مَا الذي أَبْلاَكَا
هَلْ أُولاَكَ الذينَ عَهْدي بِهِمْ فيـ
ـكَ على عَهدِهِمْ وَأَيْنَ أُولاَكَا
لَمْ تَدَعْ فِيْكَ نَائِبَاتُ اللّيَالي
أَثَراً للهَوَى سِوَى مَغْنَاكَا
وَأَشَافٍ كَأَنّهُنّ رَذَايَا ،
وَأَسَارَى لا يَنْظُرُونَ فِكَاكَا
وَشَجِيجٍ طَمّ الزّمَانُ نواصيـ
ـه ، كما شَعّثَ الوَليدُ السّوَاكَا (1)

فقد استلهم الشاعر كل معانيه من صميم الصحراء ، بوصف أساه ولوعته تجاه مشهد الطلل ، وهو تقليد عربي اتجهت اليه نفس الرضي في عفويّة تامّة ، فالسيل العاطفي الذي يسري خلال الأبيات ينبض بحزن الشاعر ، وألمه لم يتولّد

---

1) الديوان 99/2 والشجيج = الوتد .

من فراغ ، فلعلّه يقصد بالتغيير الذي طرأ على ديار الأحباب هو ما طرأ على الأصالة العربيّة من تشويه يؤجّج أساه ويثير أشجانه ، فالمقدمة الطلليّة وان كانت تعني تقليدا متّبعا ، فهي في مجال مدح البويهيين وغيرهم من الفرس ـ كما أعتقد ـ تحمل من الدلالات ما يمكن اعتباره تمسكا بالتقاليد العربيّة الأصيلة ، واعتزازا بها ، فحنينه الى الماضي يكمن في توقه الى ما في الصحراء من أصالة كما في قوله : (متقارب)

وَمَا العَيْشُ عِنْدِيَ إلاّ الإبَاءُ ،
وَبُعْدِي عَنِ المَنْزِلِ المُسْتَبَاحِ
أُحِبُّ الخِيَامَ وَسُكّانَهَا
وَأَحْسُدُ كُلّ بَعِيدِ المَرَاحِ
وَأَغْبِطُ كُلّ فتىً لا يَزَالُ
عِبْئاً عَلى الزّاعِبَاتِ القِمَاحِ
يُخَاطِرُ فِيهَا بِعَقْرِ السّوَامِ ،
وَيَشْرَبُ مِنْهَا لِبَانَ اللّقَاحِ
طَرُوبُ المَسَامِعِ أيْنَ اسْتَقَلّ
صَهِيلُ الجِيَادِ وَجَرْسُ النّبَاحِ (1)

فالحنين الى الصحراء ، وممارسة حياة الحرّية بسكنى الخيام والفروسيّة وخشونة العيش ، هي محاولة هروب من الواقع المتمثّل في تسلّط الجنس غير العربي الذي لم يترك للعرب الاّ السلطة الاسميّة الممثلة في الخلافة . والشاعر وان لم يتعرّض للبويهيين تفاديا لسخطهم الاّ أنّ في قوله :

---

1) الديوان 1/ 248 والزاعبات = النوق السريعة ، القماح من قمح البعير = رفع رأسه عند الحوض وامتنع عن الشّرب .

(رمـــــــــل)

اُذْكُرُونَـا يَـوْمَ ذي قَـارٍ ، وَقَـدْ
أَقْبَلُـوهُ عَـارِضَ الطَّعْـنِ بَـرَدْ
رُخِـصَ الأَظْفَـرُ فـي تَيّـــــارِهِ ،
وَرَدَ العِلْـجُ ، وَمَا كَـادَ يَـرِدْ
يَصْطَلِي نَـارَ طِعَـانٍ مُضَـــةً
أَوْقَـدَتْ فيهـا نِـزَارُ بـنُ مَعَـدْ (1)

مـا ينبّـيء عـن موقفـه ازاء التسلّـط الفارسـي خاصّـة وأنّ " كـــلّ شـيء لـه فضـل تعلّـق بالقلـب تجـد لـه فضـل تعلّـــــق باللسـان " (2) فأبيـات الفخـر لمعركـة ذي قـار الفاصلـة بيـن العـرب والفـرس قـد وردت ضمـن مـدح الشريـف فـي بهـــاء الدولـة البويهـي ، وفـي ذلـك مـن الـدلالات الكثيـرة علـى النزعـة العربيّـة التـي يحـاول اخفاءهـا ولكنهـا تظهـر فـي شعـره علـى شكـل ومضـات سريعـة كمـا فـي قولـه : (طويـل)

إِذَا عَرَبِـيٌّ لَـمْ يَكُـنْ مِثْـلَ سَيْفِـهِ
مَضَـاءً عَلـى الأَعْـداءِ أَنْكَـرَهُ الجِـدُّ (3)

فتنكيـره لفظـة (عربـي) فـي البيـت تعنـي كـلّ العـرب الذيـن يحـاول استنهاضهـم فـي عصـره وهـو يـرى مجدهـم فـي أفـــول بعـد أن أصبـح نهبـا للعنصـر الدخيـل ، فذكـر العـرب والفخـر بهـم ، والتغنّـي بأمجادهـم هـو اثبـات لذاتـه فـي خضـمّ ذلـك المـد الأجنبـي الجـارف ، وهـو ارتمـاء فـي أحضـان الماضـي كمـا فـي قولـه : (وافـــــر)

---

1) الديـــــوان 1/275 .
2) محمد أبـو موسـى ـ خصائـص التراكيـب ص 139 .
3) الديـــــوان 1/335 .

وَلَـوْلا صَوْلَـةُ الأيّـامِ دُونـي ،
هَجَمْتُ على العُلا مِنْ كُلّ بَابِ
وَمِنْ شِيَمِ الفَتَى العَرَبِيّ فِينَا
عِنَـاقَ البِيضِ وَالخَيـلِ العِـرَابِ (1)

فالشريف يرى أنّ الأيّام هي التي تحول دون تحقيق طموحاته في المجد والسؤدد ، رغم ادراكه أنّ المجد العربي لن يعود الاّ بالقوّة ، وما الأيّام التي يقصدها الاّ واقعه الحالي المتمثّل في سلطة حكّام عصره ، وقد استخدم (لولا) التي تعني الامتناع بسبب وجود الصعوبات التي تعترض طريق ما يهدف اليه ، فيكون ذلك سببا في عذابه وأساه ، فهو يبحث في حناياه عن الكلمة المعبّرة عن مشاعره ويحاول صبغها بالفخر لستر اخفاقه وضعفه ، وما هروبه في شعره الى الصحراء الاّ فرار من واقعه المؤلم ، الاّ أنّ ذلك الهروب الذي يُخْلِدُ فيه الرضي لأحلامه لا يدوم طويلا ، فسرعان ما يحطّ على أرض الواقع فيشعر بالمرارة فينكفئ على حزنه ويعاود ألمه .

الأمر الثاني ـ المستقبل المرتقب :

انّ تمازج عنصري الانتماء العلوي والانتماء العربي وما يكتنفهما من تداخل ، منحا الشريف احساسا بالتميز على بقيّة أفراد مجتمعه ، وقد أدّى به ذلك الى الشعور بأنّ وضعه في ذلك المجتمع دون ما يطمح اليه بكثير ممّا سبّب له المعاناة والألم ، ينبئ عن ذلك قوله : (طويل)

---

1) الديوان 1/113 ، 114 .

أأبقى على نضو الهموم كأنما
سقتني الليالي من عقابيلها سما ؟
وأكبر آمالي من الدهر أنني
أكون خليا لا سرورا ولا همّا
أكرّ أحاديث المطامع ضلّة ،
وألقح من هذى المنى أبطنا عقما
فلا جامعا مالا ولا مدركا علا
ولا محرزا أجرا ، ولا طالبا علما
بأرجوحة بين الخصاصة والغنى ،
ومنزلة بين الشقاوة والنعمى (1)

فالاستفهام في صدر الأبيات مزيج بين الانكار والتفجّع: الانكار على الدهر لمضايقته في آماله ، والتفجّع من ملازمة الهموم له ، مع تمن في عيش على هامش الحياة بعد أن يئس من تحقيق أمنياته في الوصول الى ما يطمح اليه من مجد ورفعة ، ولمّا كان لا يستطيع التصريح بأسماء أولئك الذين يحولون بينه وبين تحقيق تلك الطموحات فقد انصبّ لومه على الزمان والدهر والأيّام مكنّيا بذلك عن أولئك المتسلطين من خلفاء وملوك كما في قوله :

(طويل)

شربنا من الأيّام كأسا مريرة
تدار بأيد لا نردّ شرابها
نعاتبها ، والذنب منها سجيّة ،
ومن عاتب الخرقاء ملّ عتابها
وقالوا : سهام الدهر خاطٍ وصائب ،
فكيف لقينا ، يا لقوم ، صيابها

---

1) الديوان 352/2 .

أَبَتْ لِقْحَةُ الدُّنْيَا دُرُورًا لِعَاصِبٍ،
وَيَحْلُبُهَا مَنْ لا يُعَانِي مِصَابَهَا
وَقَدْ يُلْقِحُ النَّعْمَاءَ قَوْمٌ أَعِزَّةٌ،
وَيُنْتِجُ قَوْمٌ عَاجِزُونَ سِقَابَهَا (1)

فالأيّام هي التي تسقي كؤوس المرارة للشاعر، فعتابها لا جدوى منه، لأنّ تتالي الأحداث والمصائب جبلّة فيها، فالقول بأنّ المصائب تارة تخطئ وأخرى تصيب لا ينطبق وحال الشاعر وقد أتت الاستغاثة في قوله " يا لقوم" لتؤكّد امتلاء نفسه، لاعتقاده، بأنّ الدهر في حرب دائمة مع ذوي الهمم العالية والنفوس العزيزة، فهو يعطي من لا يستحق ما يسلبه من المستحق. ولمّا كان لا يستطيع التصريح بما في نفسه تجاه المتسلطين على الحكم دون أيّة أحقية أو أهلية، فقد ورّى بالتصوير البياني تفاديا للنكبات التي عصفت بالكثير من رجال عصره، فالاستعارة المكنيّة في تشبيه الدنيا بالحيوان الحلوب الذي يأبى أن يدرّ الاّ لأولئك الذين لم يعانوا في ترويضه، هي بمثابة السخط المكبوت، والحزن المتأجّج تجاه من وصفهم بالعجز في البيت الخامس من خلال استعارته التمثيليّة في وصف حال الدنيا بالعطاء لمن لم يعمل على حساب من كدّ وكدح، وكأنّه بذلك التكثيف في معاني الأبيات، يريد أن يعيدنا الى الوراء قرونا ليستوحي من خلالها بطولات أجداده وجهادهم في نشر الاسلام ودعم مبادئه، واذا بهم يقصون عمّا شرّعه اللّه لهم، ليجني ثمرة ذلك الجهد غيرهم ممّن لم يبذلوا جهدا، سوى انتهاز الفرص وتسنّم المراكز لذلك فإنّ الماضي والحاضر

---

1) الديوان 1/72 والخرقاء = الحمقاء، وسقابها من السقاب = ولد الناقة ساعة يولد.

سيان ، فحديث الشاعر مع نفسه الملأى بالأسى في قوله : (وافر)

أَقُولُ إذا امْتَلأتُ أَسىً لِنَفْسِي:
أَيَا نَفْسِ اصْبِرِي أبداً وَطِيْبِي
فَلَيْسَ الحَظُّ لِلْبَطَلِ المُحَامِي،
وَلا الإقْبَالُ لِلرَّجُلِ المَهِيبِ
وَنَيْلُ الرِّزْقِ يُؤخَذُ مِنْ بَعِيدٍ،
كَنَيْلِ الرِّزْقِ يُؤخَذُ مِنْ قَرِيبِ
وَغَايَةُ رَاكِبِي خُطَطِ المَعَالِي
كَغَايَةِ مَنْ أَقَامَ عَنِ الرُّكُوبِ (1)

هو من باب التسليم بالأمر الواقع ، في مجتمع طغت المادة فيه على كل القيم ، وقد تجسّد سخط الشريف وتهكّمه ضمن الأبيات خلال المقابلات بين : بعيد وقريب في قوله « ونيل الرزق من قريب ـ كنيل الرزق من بعيد » وبين : الركوب وعدمه في قوله « وغاية راكبي .. ـ كغاية من أقام عن الركوب » فهو بذلك يحاول ابراز ما في مجتمعه من تناقض فرضته ازدواجيّة السلطة ـ بتوزعها بين عباسيين وبويهيين ـ كواقع مسلم به ، لذلك لابدّ له من الرضوخ والتأقلم مع ما سنّه ذلك المجتمع من نظم وتقاليد تأباها نفسه ، ممّا يجعله في صراع بين ما يفرضه الواقع وبين ما يريده هو ، كما في قوله : (طويل)

يَقولونَ مَاشِي الدَّهْرَ مِنْ حَيْثُ ما مشَى،
فَكَيْفَ بِمَاشٍ يَسْتَقِيمُ وَأَظْلَعُ ؟
وَقَالُوا: تَعَلَّلْ إنَّمَا العَيْشُ نَوْمَةٌ
يُقَضَّى وَيَمْضِي طَارِقُ الهَمِّ أَجْمَعُ
وَلَوْ كَانَ نَوْمًا سَاكِنًا لَجَمَدْتُهُ
وَلَكِنَّهُ نَوْمٌ مَرُوعٌ مُفَزَّعُ (2)

---

1) الديوان 1/102 .
2) الديوان 1/667 .

فالرضي ينعى على من يعيش بين ظهرانيهم من النّاس مطالبته بالسير في التيّار ، ومجاراة الوضع والتعامي عن العيوب ، وكل ذلك يخالف مبادئه ، فقولهم بالتصبّر على مضض العيش واحتماله لأنّ الحياة قصيرة ، لا يتناسب مع ما ينطوي عليه ذلك الواقع من ترويع وآلام لنفسه التي تطلب الهدوء وتنشد الأمن بعد أن أضناها في الجري وراء الأحلام التي كان يرمي من ورائها الى تحقيق ما لم يتمكّن أجداده من تحقيقه ، ومعالنة الدهر والرضوخ الى الواقع من المعاني التي تكاد تستولي على روح الرضي وتستأثر بجزء وافر من شعره ، رغم ما تنطوى عليه من سلبيات تتنافى وروحه الطموحة ، وذلك يجعلنا نعتقد أنّ تلك الأفكار اليائسة قد استولت على الشاعر في أخريات حياته ، بعد أن خمدت جذوة الطموح في نفسه ، ومن شعره اليائس قوله : (طويل)

يَقُولُون: نَمْ في هِدْنَةِ الدّهْرِ آمِنًا
فَقُلْتُ: وَمَنْ لِي أنْ يُهَادِنَنِي الدّهْرُ
هَلِ الحَرْبُ إلاّ مَا تَرَوْنَ نَقِيصَةً
مِنَ العُمْرِ، أوْ عُدْمٌ مِنَ المَالِ أوْ عُسْرُ (1)

فردّه على آمريه بالتغاضي والاستلام هو انعكاس لما يكظم من غيض تجاه الواقع الزائف الذي لا يجد فيه راحة ولا اطمئنان ، فالحرب في البيت الثاني كناية عن المعاناة والهلع جراء السرعة المذهلة في طي الزمن للعمر وتقريبه من النهاية المحتومة ، والافتقار للمال ذلك العنصر الذي لا تسير الحياة بدونه ، والصعوبة في الاندماج في

---

1) الديوان 1/538 .

حيـاة لا تنسجـم وطبيعتـه ، لـذا فـإنّ الصبـر أجـدى فقـد يكـون المستقبـل أفضـل فـي تحقيـق الطمـوح والوصـول الـى الغايـات : (طويـل)

سَأصْبِرُ إنّ الصّبْرَ مُرٌّ صُدُورُهُ
ألاَ رُبّمَا لَذّتْ لِقَلْبِي عَواقِبُهْ
وَلا بُدّ أنْ نُعطى على البُعْدِ دَوْلَةً،
فَنأمَنَ بَيْنَاً، أوْ رَقِيباً نُراقِبُهْ (1)

فعلـى الرغـم مـن معانـاة الشريـف مـن واقعـه وشكـواه الكثيـرة منـه الاّ أنّ نظرتـه الـى المستقبـل كانـت مفعمـة بالطمـوح والأمـل ، فالصبـر وطـول الانتظـار قـد يأتيـان بنتيجـة ، فالمجهول محبـب الـى نفسـه وليـس أدلّ علـى ذلـك مـن قولـه " ألا ربمـا لـذت لقلبـي عواقبـه " فـ (رب) فـي سيـاق البيـت تعنـي التفـاؤل والأمـل ، واصـراره فـي البيـت الثانـي أحـل التوكيـد محـل الأمـل فـي قولـه " ولا بـدّ أن نعطـى علـى البعـد دولـة " ولهـذا المعنـى فـي العـرف الشيعـي أبعـاده ، فقـد يعنـي بالعطـاء المستقبلـي مـا يتـوق اليـه هـو نفسـه ، كمـا قـد يعنـي بذلـك مـا يعتقـده الشيعـة الاماميّـة فـي عـودة الحـق لأصحابـه بظهـور الامـام المهـدي وتقلـده للأمـور فـي آخـر الزمـان ، فكـلا الافتراضيـن قائـم ، ولكـن الافتـراض الأول أقوى لامتـلاك ذات الشاعـر لزمـام الأبيـات ممّـا يقـوي مـن ألمهـا ويزيـد فـي ضياعهـا ، لأنّ قـوة الشعـور بالـذات يزيـد مـن محنتهـا ويضاعـف مـن أساهـا ، فـاذا كانـت تلـك المحنـة وذلـك الأسـى أقـوى مـن أن يتصـدّى لهمـا الشاعـر ، فإنّـه يعـود الـى ذاتـه ويتقوقـع علـى نفسـه ويعيـش سجيـن أحزانـه ، ويرتمـي فـي أحضـان اليـأس ، فيصطبـغ شعـره بغلالـة مـن الحـزن والأسى ويغلـب عليـه مناجـاة النفـس وعتابهـا بسبـب تماديهـا فـي

---

1) الديـوان 1/184 .

الأحلام والجري وراء سراب المطامع كما في قوله : (كامل)

قَدْ قُلْتُ لِلنَّفْسِ الشَّعَاعِ أَضُمُّهَا :
كَمْ ذَا القِرَاعُ لِكُلِّ بَابٍ مُصْمَتِ
قَدْ آنَ أَنْ أَعْصِي المَطَامِعَ طَائِعًا
لليَأسِ، جَامِعَ شَمْلِيَ المُتَشَتِّتِ (1)

فمناجاة الشاعر لنفسه هي من باب تقريحها ولومها ،ففي وصفه النفس (بالشعاع) دلالة على تفرّق همومه وتشتّت آرائه جريا وراء سراب الأحلام ، محاولا كبت تلك النفس وردعها واجبارها على النزول للواقع لما في ذلك راحة لباله لأنّه يدرك تماما عدم امكانية الوصول الى غايته فهو من القوم الذين كتب عليهم التضحية والمعاناة والألم فيجب أن يرضى بواقعه ويقبل بما قسمه اللّه له كما في قوله : (رمل)

نَحْنُ قَوْمٌ قَسَمَ اللّهُ لَنَا
بالرّزايَا ، وَرَضِينَا بِالقَسَمْ (2)

وذلك ما جعل نظرته الى المستقبل في نهاية الأمر يشوبها نوع من الضبابية التي أدّت به الى الغربة في مجتمعه .

غربة الشريف الرضي في مجتمعه :

عاش الشريف في مجتمعه وبين ظهراني أهله غريبا فقد كان يحمل بين ضلوعه من الطموح والآمال ما لم يتمكّن من تحقيقه ، وكان أيضا ينظر الى الحياة نظرة

---

1) الديوان 1/220 .
2) الديوان 1/425 .

مثاليـة ليـس بالامكـان تحقيقهـا علـى أرض الواقـع، فـذاب كمـدا وهـو يـرى مـن هـم أقـل منزلـة وكفـاءة يتسنمـون المناصـب الرفيعـة ، ويجنـون الثّـراء ، ويوصفـون بالكـرم والشجاعـة ، اضافـة الـى ذلـك فـإنّ علاقاتـه الاجتماعيّـة التـي كـان يريـد لهـا أن تسمـو فـوق الشهـوات الماديـة ، لـم تجـد لهـا اذنـا صاغيـة إلاّ فـي القليـل النّـادر ، فوجـد نفسـه فـي خضـم المتناقضـات التـي تأباهـا نفسـه مرغمـا علـى المجاملـة بالقـول والفعـل ليتمكّـن مـن العيـش بسـلام ، بينمـا قلبـه ينضـج ألمـا وهـو يعانـي فـي نفسـه شخصيـة الأبـي الطمـوح وشخصيـة الخانـع الذليـل فـي آن واحـد ، ويصـوّر ذلـك قولـه : (متقارب)

أُكَاثِـرُ أَبْنَـاءَ هَـذا الزّمَـانِ،
وَأهْـزَأُ مِنْ نُبْلِهِـمْ بِامْتَدَاحِـي
فَبَيْنَ البَوَاطِنِ حَـلُّ الطّـلاقِ،
وَبَيْنَ الظّوَاهِرِ عَقْـدُ النِّكَـاحِ (1)

فالرضـي يعتـرف بتصنعـه الضحـك والابتسـام لأبنـاء مجتمعـه باستخدامـه الفعـل (أكاثـر) لمـا فيـه مـن معنـى التكلّـف الـذي لا ينبـئ عـن الابتسـام إلاّ فـي مظهـره ، أمّـا الجوهـر فهـو البغضـاء والكـره ، كمـا أنّ تفنيـه بنبـل أولئـك النّـاس هـو استهـزاء وتهكّـم بهـم ، وقـد جسّـدت المقابلـة التـي وردت فـي البيـت الثانـي موقفـه النفسـي أثنـاء تعاملـه مـع مـن يعايش مـن أفـراد ذلـك المجتمـع اذ يبطـن لهـم خـلاف مـا يظهـر علـى سبيـل المجاملـة ليـس غيـر وذلـك فـي مقابلتـه بيـن « حـلّ الطـلاق » وبيـن « عقـد النكـاح » .

ولمّـا كـان صدقـه مـع نفسـه يحـول بينـه وبيـن تقمّـص شخصيـن فـي آن واحـد فقـد غلـب طبعـه تطبعـه فـأدّى بـه

---

1) الديـوان 1/248 .

ذلك الى التمرد على واقعه ومحاولة مغالبته ، فكانت نتيجة ذلك ضياعه وغربته ، ممّا جعل روحه موزعة بين : عنصري الطموح والبحث عن الصداقة الحقّة ، فكانت غربته غربتين اذ لم يستطع أن ينسجم مع الأصدقاء ، كما لم يتمكّن من إطفاء ظمأ طموحه ، ولقد أحسّ هو بذلك ولكنّه لم يستطع أن يوازن نفسه حتّى يتأتى له التجاوب مع واقعه فكان قوله : (بسيط)

ليس الغريب الذى تنأى الديار به ،
انّ الغريب قريب غير مودود (1)

يمثّل الغربة التي يعانيها ،فهو وان كان بين أهله وأقاربه وأصحابه ، الاّ أنّه غريب عنهم بطباعه وتفكيره وميوله ، فهم حين لا يواطنونه العيش ليس لأنّه ثقيل أو منبوذ ، ولكن السبب في ذلك الاختلاف في مفاهيم الحب والعلاقات الانسانيّة عند كلا الطرفين ، خاصّة وأنّه يرى أنّ علاقات القرابة والصداقة هي ما تسمو بصاحبها عن الأمور الماديّة ، وعليه فإنّ الفقد والغربة الحقيقيتان هما فقد الأحبّة وهجرهم : (طويل)

فَقَدْتُ،وَفي فَقْدِ الأحِبّةِ غُرْبَةٌ
وَهِجرانُ مَنْ أَحْبَبْتُ أعظَمُ داء (2)

فنفسه التواقة للارتباط بعلاقات انسانيّة نبيلة ، تعرّف الغربة بفقد الأحبّة ، فالاستئناف في قوله « وفي فقد الأحبّة غربة » أعطى لجملته خصوصيتها بتبيان أهميّة الفقد بالنسبة

---

1) الديوان 13/1 .

2) الديوان 12/1 .

لما يعتلج في نفسه ، فغربته الحقيقيّة تكمن فقده أحبائه المخلصين . والهجر والتنائي في هذا الصدد لا يقاسان بالمقاسات المجردة ، لذلك جاءت مواقفه من مجتمعه صادقة يشوبها الأسى ويغلفها الحزن ، بسبب الاختلال في ميزان المعادلة المتكونة من الشاعر الذي يريد أن يكون المجتمع شيئا ، ومن واقعه الاجتماعي الذي يفرض على شخصه واقعا يأباه ويمجّه ، ممّا يؤدّي الى التضارب في المواقف التي لابدّ أن تنحسم لصالح أحد الطرفين ، ومنطق الحياة يفرض ذلك لصالح الأقوى ، فينتاب الطرف المغلوب - على اثر ذلك - الضياع والحزن وهو ما سنلحظه في علاقات الشريف بمجتمعه .

موقف الشريف الرضي من عيوب مجتمعه :

عادة ما يؤدّي توزع السلطة في مجتمع ما بين فئتين متباينتين - في الفكر والمعتقد - الى تصدّع في قيم ذلك المجتمع ، خاصّة اذا انعدم التكافؤ بتسلّط القوي المستبد على الضعيف الخانع ، وهذا ما يمكن تصوره في مجتمع العراق في القرن الرابع الهجري ، لاستئثار البويهيين ، وهم أعاجم وشيعة ، بالسلطة مبقين على هيكل الخلافة السنية ليضفي ذلك على حكمهم الشرعيّة التي تمكنهم من جني النفع والاستئثار بالخيرات ، وعلى اثر ذلك الاختلال في هياكل الدولة برزت فئة اجتماعيّة جديدة همها الوحيد تحقيق المكاسب وجني المال بشراء المناصب الرفيعة ، وقد شجّع الحكّام ذلك الاتجاه المنحلّ لما فيه من عوائد ماديّة فاتخذوا من التزوير وسيلة للايقاع ببغضهم البعض ، وانتشرت الرشوة ، وصارت أمور النّاس نهبا للمتسلقين ، وكثرت المصادرات . كما أدّت ازدواجية السلطة الى اختلاف

الأزمات ، باعتداء كل فئة على الفئة الأخرى فهتكت الحرمات وحرقت الأسواق واضطرب الأمن (1) . وقد عايش الرضي تلك الأحداث واكتوت أسرته بنارها ، فعلا صوته منددا بكل ذلك حانقا عليه ، وقد نقل الينا من خلال شعره الكثير من العيوب السياسيّة والاجتماعيّة والاخلاقية لذلك المجتمع ، مضفيا عليها من ذاته الرافضة لذلك الوضع ما يؤجّج حزنه ويجسّد ثورته ، فموقف الشريف الرافض لذلك الوضع العزري يعتبر عنصرا من عناصر تفجعه . يقول في رجال مجتمعه : (وافر)

أَيَا لِلمَجْدِ مِنْ قَوْمٍ لِئَامٍ
أَلَا حُرٌّ عَلى عِرْضٍ يَغَارُ
فَأشْجَعُهُم إذا فَزِعُوا، جَبَانٌ،
وَأَذْكَاهُمْ إذا نَطَقُوا حِمَارُ (2)

فهو يستغيث للمجد من وقوعه في براثن أناس لئام مستغربا عدم غيرتهم على أعراضهم ، ساخرا من جبنهم وذكائهم باستخدامه أسلوب التفضيل في (أشجع وأذكى) للتدليل على شدة جبنهم وتناهي غباوتهم مع تشبيههم بالحمير ، فنقده اللاذع تعبير عن عمق أساه وشدة وجده على رجال ذلك المجتمع التداعي في قيمه . فلقد تسنم أولئك المراكز العالية واستطابوا رغد العيش دون أن يبذلوا أيّ جهد فهم (بسيط)

نَالُوا المَعَالِي، وَلَمْ تَعْرَقْ جِبَاهُهُمُ
فِيهَا لُغُوباً وَمَا نَالَ الذي كَدَحَا (3)

---

1) لادراك ما اعتور مجتمع القرن الرابع الهجرى من فساد راجع الحالة الاجتماعيّة ص 36 وما بعدها من هذا البحث.

2) الديوان 1/473 .

3) الديوان 1/245 .

فقد استجاب المحسن البديعي المعنوي لأسى الشاعر وثورته في المقابلة بين شطرى البيت، اضافة الى التتميم في قوله « فيها لغوبا » فقد كشفت تلك التعبيرات عمّا يعانيه الشاعر من ألم بسبب ريف الحياة الذي يعيشه بين أولئك القوم الذين سادوا أناسا لا يفرقون بين الصواب والخطأ كما في قوله : (بسيط)

أَرَى رِجَالاً كَبُهْمِ القَاعِ عِنْدَهُمُ
سِيَّانِ مَنْ مَذَقَ الآراءَ أَوْ صَرَحَا
يَعْلُو عَلَى قُلَلِ الأَعْنَاقِ بَيْنَهُمُ
مَنْ غَشّ رأياً وَيُوطأ عنقُ مَنْ نَصَحَا (1)

فلم يستطع أولئك الانتهازيون الوصول الى غاياتهم الدنيئة الاّ في مجتمع متفسّخ لا يميّز رجاله بين الصواب والخطأ وتعبيرا عن امتلاء نفسه وشجاه فقد استخدم « المذق » في مقابل « الصراحة » لما تنطوى عليه اللفظة الأولى من معنى دقّة المزج بين صالح الآراء وطالحها وما يكتنف ذلك من تمويه - من قبل أولئك المتسلطين - يصعب اكتشافه ، بالاضافة الى ما تتضمنه المقابلة من دقّة المعنى فهي أيضا صورة بعيدة الغور حاول الشاعر من خلالها تجسيد الواقع بتشبيهه الانتهازيين من رجال مجتمعه - في تمويههم على النّاس - بمن يخلط اللبن بالماء ويبيعه على أولئك الذين لا يفرقون بين اللبن الصراح واللبن المغشوش لعدم امكانيتهم التمييز بين الصح والخطأ فيحملون - لجهلهم - على الأعناق من يجعل الغش والكلام المعسول مطيّة لمآربه ، ويسحقون بأقدامهم كل من حاول بذل النصيحة ذلك لأنهم كالبهائم التي تقاد لحتفها ، فيوغر كلّ ذلك صدره ويؤجّج غضبه فيصبّ حنقه على أولئك الحكّام ودياركم

---

1) الديوان 1/246 .

مستنجدا في ثورته بالطبيعة كما في قوله : (مجزوء الرجز)

يَا بَرْقُ ,انْ صُبْتَ الحِمَى
فَلا تَصُبْ إلا بِدَمْ
عَلَى دِيَارِ مَعْشَرٍ
خَانُوا العُهُودَ وَالذِّمَمْ
تَجَهَّمُوا ضَيْفَ العُلَا
وَامْتَهَنُوا زَوْرَ النَّعَمْ
مِنْ كُلِّ رَاعِي أُمَّةٍ
أَجْهَلَ مِنْ رَاعِي غنم
ما بينهم فِي المَكْرُمَاتِ
تِ نَسَبٌ وَلَا رَحِمْ
وَمَابِهِمْ إلَى النَّدَى
لا ظَمَأٌ وَلَا قَرَمْ (1)

فقد تجلّى سخط الشاعر في ندائه للبرق وتوسله بخطفاته وشدة ايماضه وما يكتنف ذلك من تجهّم مدمر ، طالبا منه أن يصبّ جام غضبه على ديار من وصمهم بالخيانة ونقض العهود بتنكرهم للمكرمات لخمول نسبهم ولؤم طباعهم وجهلهم برعاية شؤون النّاس ، فحنقه على الوضع السياسي القائم مرجعه مقته للزيف المطبق على ذلك المجتمع بفعل جهل الحكّام بسياسة الرعيّة ، وانصرافهم الى ملذاتهم . ولمّا كان لا يستطيع التغيير بيده فقد لجأ الى الكلمة باثّا من خلالها سخطه وثورته تارة ، وحزنه وأساه وعتابه للدهر تارة أخرى كما في قوله : (بسيط)

أمَا تُحَرِّكُ لِلأَقْدَارِ نَابِضَةٌ ؟
أمَا يُغَيِّرُ سُلْطَانٌ وَلا مَلِكُ ؟

---

1) الديوان 2/ 277 .

قَدْ هَادَنَ الدّهْرُ حَتّى لا قِرَاعَ لَهُ،
وَأطْرَقَ الخَطْبُ حَتّى مَابِهِ حَرَكُ ؟
كُلٌّ يَفُوتُ الرّزَايَا أنْ يَقَعْنَ بِهِ،
أمَا لِأيْدِي المَنَايَا فِيهِمُ دَرَكُ ؟
قَدْ قَصّرَ الدّهْرُ عجزًا عَنْ لَحَاقِهِمُ،
فَأيْنَ أيْنَ ذَمِيلُ الدّهْرِ وَالرّتَكُ ؟
أخَلّتِ السّبعَةُ العُلْيَا طَرَايِقَهَا ؟
أمْ أخْطأتْ نَهْجَهَا أمْ سُمّرَ الفَلَكُ ؟ (1)

فقد بلغ الأسى والسخط بالشاعر من سياسة مجتمعه الذروة وفاضت روحه بحيث لم يعد يحتمل السكوت والتغاضي ، فكان الاستفهام الانكاري في مصراعي البيت الأول تفريغا لشحنات الألم المكتظّة في أعماقه ، فقد لجأ من خلال ذلك الاستفهام الى تصوير الأقدار وكأنها ميت قد سكت فيه النبض وجمدت الحركة ، وقد ألجأه تأففه من الوضع القائم الى استخدام المجاز تجسيدا لأساه باسناده المهادنة للدهر والاطراق للخطوب تجاه ساسة عصره الذين يمرون على المصائب دون أن يمسهم شيء منها ، منكرا على المنايا عدم ادراكها لهم وذلك من خلال أسلوب استفهام المصراع الثاني من البيت الرابع ، فالدهر الذي طالما وصفه في رثائه بالسرعة في التهام أصحابه ، فقد قصّر عن اللحاق بأولئك الملوك ، مع العودة للاستفهام المشبع بالحزن بتكرار الأداة (أين) وعطفه الذميل وهو نوع من أنواع سير الناقة على نوع آخر من السرعة وهو (الرتك) واضافة (الذميل) للدهر وكأنّه ينعى عليه بطء التغيير ، ثم أنّ شوقه وتحرقه للتغيير جعل روحه تخترق الاستفهام " أخلّت . . . أم أخطأت " حجب الغيب محاولا استكناه حقيقة التغاضي عن أولئك الحكّام واغفالهم .

---

1) الديوان 2/110 .

فكل شيء في الوجود ثابت في صالحهم وكأنّ الفلك قد تسمّر وهمدت الحركة فيه . وقد انجرّ عن ذلك الجمود خلل اداري زعزع القيم ، فلم يعد للكفاءات مكانتها بسبب جشع الحكّام وتغلب المادة واستفحال الرشوة ، يقول الشريف في ذلك : (كامل)

قَدْ يَبْلُغُ الرَّجُلُ الجَبَانُ بِعَالِهِ
مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ الشُّجَاعُ المُعْدِمُ
لاَ تَخْدَعَنْ عَنْهُ فَرُبَّ ضَرِيبَةٍ
يَنْبُو الحُسَامُ بِهَا وَيَمْضِي الدِّرْهَمِ (1)

فقيمة الانسان بما يمتلك من ثروة يستطيع بها تحقيق كلّ مآربه والوصول الى غاياته من مراكز حساسة ومراتب سامية أمّا الشجاع الشريف فلا مكانة له ، فالمظاهر البراقة والزيف لا يعيران واقع الأمور أيّة أهمية ولا يضعان للصدق والأمانة أيّ اعتبار، لتسلّط المادة على جميع أجهزة السلطة ، ممّا مكّن للأدعياء أن يسوسوا النّاس ويتحكموا في رقاب العباد ، وذلك كلّه جعل الشاعر يلجأ الى المقارنة بين الماضي العشرق والحاضر العزري في قوله ، (وافر)

مَضَى حَسَبٌ مِنَ الدُّنْيَا وَدِينٌ
وَأَعْقَبَ مِنْهُمَا عَارٌ وَغَيٌّ
فَذَاكَ الطَّيُّ للماضين نَشْرٌ
وَهَذَا النَّشْرُ للبَاقِينَ طَيٌّ
تَقَدَّمَتِ الذَّوَائِبُ والقُدَامَى
وَخُلِّدَ بَعْدَهَا هَيٌّ وبَيٌّ (2)

---

1) الديوان 2/325 .

2) الديوان 2/579 .

فالمقارنة ضمن الأبيات هي عبارة عن استنفار لغيظ مكبوت وثورة على واقع مقيت يحاول الشاعر الهروب منهما ليرتاح في كنف الماضي فاستيعاب المقابلات لجميع الأبيات قد منحت السياق أبعادا من الطاقات الايحائيّة، فالحسب في مقابل العار والدين في مقابل الغي، يريد من ورائهما الشاعر فضح ما أصاب ذلك المجتمع من انحلال أخلاقي لا يطاق، وقد بيّن البيت الثالث كثافة سخط الشاعر بمزجه المحسن المعنوى المتمثّل في المقابلة بين شطريه في قوله " تقدمت الذوائب . . ." " وخلّد بعدها . ." بالصورتين البيانيتين المتمثلتين في تشبيه رجال الأمس بالذوائب والقدامى، والكناية في قوله " هيّ وبيّ" عمّن تسنموا المراكز من رجال عصره وهم ليسوا من ذوي الخبرة والدراية وليس لهم من رادع يردعهم عن السوء لأنّهم على شاكلة أسيادهم من الملوك والأمراء، يركبون في سبيل مآربهم كل الغايات غير آبهين بأيّة قيمة أخلاقيّة، لهذا فإنّ بحث الرضي عن العدل في ذلك المجتمع لن يجدي وهو مدرك حقيقة ذلك : (رمل)

أبْتَغِي عَدْلَ زَمَانٍ قَاسِطٍ،
إنّما النّاسُ على دينِ المَلِكْ
بَاخِلٌ إنْ ضَافَه الحَقُّ، فَلا
أعْتَقَ المَالَ، ولا العِرْضَ مَلَكْ (1)

فبحث الشاعر عن العدل والحق في ركام من القيم المنهارة هباءً، واستجابته لظروف مجتمعه يعني تنازله عن عن مبادئه، وذلك بالنسبة اليه ضرب من ضروب المستحيل

---

1) الديوان 2/113 .

فلا يمكنه أن يغلّف مثله بما يتماشى مع الوضع المبني على اللؤم والخداع والذل ممّا يؤدّي به الى السأم والضياع (طويل)

سَئِمْتُ زَماناً ، تَنْتَجِينِي صُرُوفُهُ ،
وُثُوبُ الأَفَاعِي أَوْ دَبِيبُ العَقَارِبِ
مَقَامُ الفَتَى عَجْزٌ عَلَى ما يَضِيمُهُ
وَذُلُّ الجَرِيءِ القَلْبِ إِحْدَى العَجَائِبِ(1)

فقد بنى الشاعر كرهه للزمن على التشبيه ، فقوله « وُثُوبُ الأفاعي » مفعول مطلق القصد منه التشبيه وناصبه (تنتجيني) فنفسه المشحونة بالشجن جراء اجتكاكه بأفراد مجتمعه جعل تعابيره تفيض بالألم بتصوره ان حوادث الأيّام ونوازلها تقصده قصدا ، فهي تارة وثوب الأفاعي في مجاهرتها ووضاحة كيدها ، وتارة أخرى كدبيب العقارب في استتارها وتخفيها ، لذا فإنّ مكوثه على ما يجلب لنفسه الضيم عجز ورضوخه وهو الجرئ الشجاع تحت طائلة الذل والامتهان من العجائب المنكرة ، ولكنّه وان تاق الى الفرار فإنّه لم يستطع لذلك سبيلا لإدراكه يقينا أنّ كلّ البلاد الاسلاميّة سواء ممّا جعله يرضخ لواقعه مرغما فأدّى ذلك به الى اليأس والركون الى الحزن لاحساسه بوحدته بين أعداء لا يحصى عددهم وفي هذا الصّدد يقول : (متقارب)

لَحَى اللّهُ دَهْرًا كَثِيرَ العَدَدْ ،
حَتّى الظّلامُ يُعَادِي النّهَارَا
تَصَفَّحْتُ أَوْجُهَ أَبْنَائِهِ ،
فَلَمْ يَجِدِ اللّحْظُ فِيهِمْ قَرَارَا

---

1) الديوان 1/89 وتنتجيني = تقصدني وتتجه نحوى .

رَأيتُ الصّبَاحَ يَذُمُّ المَسَا
ءَ ذَمّي، وَيَكْرَهُ مِنْهُ الجِوَارَا (1)

فشعور الرضي بالعداء من ذلك المجتمع غير المتجانس مع طبيعته الخيرة الميّالة الى الحب صبغ نظرته بنوع من التجهّم الكئيب ، انعكس على الطبيعة ، فتولّد عن ذلك التقابل بين مظاهرها ، فقد استشرى العداء البغيض بين الظلام والضياء ، ولم يعد يجدي النظر في الوجوه التي غاض كرمها ونضب حياؤها وشرفها ، فتجهّم روحه انتقل الى حركة تعاقب الزمن فاستحال الى عداء بين الصباح والمساء أو بين النّور الذي يتوق اليه والظلام الذي يطبّق على الحياة من حوله ، فتصوره للظواهر الطبيعيّة بتلك القتامة هو ايحاء بما تنطوي عليه نفسه من اكتئاب لعدم مواطنته العيش مع ما يأباه ويمقته ، فمشكل الشاعر يكمن في عدم قدرته على قبول الواقع بكلّ عيوبه ، وقد أحسّ هو بذلك فضمّنه قوله : (بسيط)

فِي كُلِّ يَوْمٍ مَوَدّاتٌ مُطَلّقَةٌ
قَدْ كَانَ أنْكَحَنِيْهَا الدّهْرُ مَغْرُورَا
يُطَيّبُ النّفْسَ عَنْ قَطْعِي عَلائِقَها
أنّي أُفَارِقُ مَنْ فَارَقْتُ مَعْذُورَا
كُنْ فِي الأنَامِ بِلَا عَيْنٍ وَلا أُذُنٍ
أوْ لا فَعِشْ أبَدَ الأيّامِ مَصْدُورا (2)

فقد عبّر الشريف عن مقاطعته لودّ ذلك المجتمع بالطلاق في مقابل ما فرضه عليه الدهر دون ارادته بالنكاح القسري

---

1) الديوان 1/441 .
2) الديوان 1/525 .

لذلك فهو غير آسف أو حزين على مفارقته أولئك النّاس الذين لا يجد في تصرفاتهم سوى ما يوغر الصدر ويجلب الهموم ، وقد رشّح كلّ تلك المعاني أسلوب الانشاء المتمثّل في الأمر الذي استوعب البيت الثالث بمصراعيه ، بما يتضمنه من معاني الانفصام الروحي بين الشاعر وبين ذلك المجتمع الذي يحبّذ أن يعيش الفرد فيه متعاميا عن كلّ عيوبه ، ومتصامّا عمّا يسمع من مهاترات وأباطيل حتّى يتمكّن من العيش في طمأنينة وراحة بال ، مع تجسيد للمعاناة والألم جراء التعامل مع ذلك المجتمع في قوله « أو لا فعش أبد الأيّام مصدورا ». فإحساس الشاعر بالتفاضي عمّا حوله من زيف في محاولة لمهادنة الأيّام وتجنّب المشاكل والعيش على هامش الحياة لم يتأت له ، لأنّ الوسط السياسي الذي يذمّه ويحاول الهروب منه بسبب جوّه الخانق وبهرجه الزائف لم يكن الاّ صورة مصغّرة لمجتمعه المتكون من أصدقاء وأهل وأقارب احتك بهم وعرف طبيعة نفوسهم ، فالكلّ يسلك طريق النفاق للوصول الى ما يريد ، ممّا يؤدّي به الى إطلاق سؤال ملؤه الانكسار والحزن المشبع بمرارة الألم (طويل)

أَكُلُّ قَرِيبٍ لي بَعِيدٌ بِوُدّهِ
وَكلُّ صَدِيقٍ بَيْنَ أَضْلُعِهِ حِقْدُ !
وَحَوْلِيَ مِنْ هَذا الأنَامِ عِصَابَةٌ
تَوَدُّدُهَا يَخْفَى وَأَضْغَانُهَا تَبْدُو (1)

فورود المطابقة بين « قريب وبعيد » ضمن أسلوب الانشاء المتمثّل في الاستفهام مع استخدام (كل) التي تعني الشموليّة في كلا مصراعي البيت الأول هو تعبير عن تفجعه بسبب الجو الخانق الذي يعيشه بين أفراد مجتمعه ،

---

1) الديوان 1/ 333 .

بحيث لم يعد يطمئن لا الى قريب ولا الى صديق ، وقد عزز ذلك الحزن العميق ما ورد من تقديم وتأخير خلال أسلوب الخبر الذي استوعب كلا مصراعي البيت الثاني بتقديمه الظرف والجار والمجرور على المسند اليه مع حذف المتعلّق في « وحولي من هذا الأنام عصابة » (1) توكيدا لشعوره بالمرارة بين أفراد مجتمعه اضافة الى المقابلة بين جملتي المصراع الثاني بين (اخفا ، التودد ، وابداء الأضغان) فإنّه يقصد من وراء ذلك تبيان حقيقة ما جبل عليه أفراد ذلك المجتمع . فمن أجل تجسيد مرارته والبوح بأساه يستقطب كلّ طاقات اللغة ويعزجها بعاطفته فهو " يجد من نوائبه الوجدانيّة ينابيع للحزن لا تنضب ولا تفيض "(2) لأنّه لا يتكلّف الحزن فهو متولّد من عدم قدرته على التغاضي - مثل الغالبية العظمى - عن الفساد الاخلاقي المتفشّي في مجتمعه ، فقوله : (وافر)

---

1) قدّم المتعلّق بالخبر المتكون من الظرف والجار والمجرور وجوبا لكون المبتدأ نكرة محضة فأصل الكلام على التقدير (عصابة كائنة من هذا الأنام حولي) وقد حذف الخبر وقدم متعلقه - مع ملاحظة أنّ تنكير المبتدأ في هذا المجال قيمته البلاغيّة - لأنّ (عصابة) تعني جماعة من النّاس المجهولين الذين لا يعرف حقيقة ما يضمرون له من عداء رغم كثرتهم .

2) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي 2 / 71 .

وَكَيْفَ تَتِمُّ فِي بَلَدٍ صَلاةٌ ،
وَجُلُّ بِقَاعِهِ قِبَلَ الفُجُورِ
أُلاحِظُ فِيْ جَوانِبِهَا رِجَالاً ،
فَأَعْرِفُ مَنْ أرى غَيْرَ النَّظِيْرِ (1)

هو صورة تعبيريّة دقيقة لما يحويه مجتمعه من فساد اخلاقي منتشر في معظم البقاع ، فذلك المجتمع مثله مثل الأرض النّجسة التي لا يجوز الصلاة عليها ، والتشبيه الضمني بتسويره بالاستفهام التعجبي هو دلالة على عظم المعاناة واتساع المحنة التي ضاعفها عدم وجود النظير الذي يمكنه الانسجام معه ممّا يجعله موضع شكوى من قبل الأصحاب والأصدقاء الذين أحسّوا بابتعاده عنهم وتبدله تجاههم كما في قوله : (كامل)

يَشْكُو تَبَدّلِيَ الصِّحَابُ وَعَاذِرٌ
أنْ يَنْبُذَ المَاءَ المُرنّقَ شَارِبُ
مِنْ أَجْلِ هَذا النّاس أبعدتُ الهَوى ،
وَرَضِيْتُ أَنْ أَبْقَى وَمَالِيَ صَاحِبُ (2)

فنأي الشاعر بنفسه عن أبناء مجتمعه ليس الاّ لعذر رمز اليه في قوله « عاذر أن ينبذ الماء المرنّق شارب » في تشبيهه الصحاب في تعاملهم بالماء الكدر الذي تمجّه النفس ، لذا فقد كبح جماح نفسه وصارع أهواءه ورضي أن يكون بلا صحاب ، واضعا كرامته وعزة نفسه فوق كلّ اعتبار ، متجنبا - في حيطة وحذر - الاحتكاك بالسلطات حتّى ينأى بنفسه عن النكبات التي صارت من عادة الحكّام في عصره ، يوقعونها بالخلفاء وعلية القوم من وجهاء وأعيان جريا وراء العادة ، وقد عكس أصنافا من تلك النكبات في شعره .

---

1) الديوان 1/443 .

2) الديوان 1/85 .

نكبات الأفراد وأثرها في شعر الشريف :

نكب الأفراد في أموالهم وممتلكاتهم صورة من صور مجتمع القرن الرابع الهجري ، تولّدت عن عجز ايرادات الدولة في تلبية رغبات الحكّام وأمراء الجيوش وغيرهم ممّن يمتّون للسلطة بصلة ، فصارت المصادرات والنهب من الوسائل التي تصب المال في خزينة الدولة كلما دعت الحاجة لذلك (1) .

وقد عايش الرضي بعضا من تلك النكبات ، وأصابه رذاذ بعضها ، فسجّل ذلك شعرا مشبعا بالأسى والفيظ يقول ضمن مواساته لصديق في نكبة : (وافر)

خُطُوبٌ لا يُقاوِمُهَا البَقَاءُ،
وَأَحْوَالٌ يَدِبُّ لَهَا الضَّرَاءُ
وَدَهْرٌ لَا يَصُحُّ بِهِ سَقِيمٌ،
وَكَيْفَ يَصُحُّ، وَالأَيّامُ دَاءُ
وَأَمْلاكٌ يَرَوْنَ الفَتْكَ غُنْمًا،
وَفي الأَمْوَالِ لَوْ قَنَعُوا فِدَاءُ
هُمُ اسْتَوْلَوا عَلَى النَّجَبَاءِ مِنّا،
كَمَا اسْتَوْلَى عَلى العُودِ اللّحَاءُ
مَقَامٌ لَا يُجَاذِبُهُ رَحِيلٌ،
وَلَيْلٌ لَا يُجَاوِرُهُ ضِيَاءُ (2)

---

1) لادراك أساليب الابتزاز التي كان الخلفاء والحكّام يتبعونها لجمع المال راجع ص 29 وما بعدها من هذا البحث .

2) الديوان 1/36 .

فمواساة الشريف لصديقه في نكبته ليست من باب المجاملة، فالمصائب التي لا تقاوم، والأحوال التي لا يمكن دفع ضرها قد مست الشاعر في أبيه، لأنّه حرم حنانه ولم يزل في سن العاشرة (1)، فالواقع المؤلم الذي يراه متمثلا في نكبة ذلك الصديق هو امتداد لمآس مأسوي عانى الشريف منه كثيرا، فأصبح ذلك الوضع من منظوره الخاص كالوباء الذي لا يمكن دفعه أو الاستشفاء منه لكون الأيّام حاملة لجرثومته وقد عزز من ذلك المعنى الفصل بين مصراعي البيت الثاني بالمراوحة بين الخبر في « ودهر لا يصح .... » والانشاء المتمثّل في الاستفهام في « وكيف يصح .... »، ثم العودة للفصل بين شطري البيت الثالث في الاخبار ببشاعة الأساليب التي يستخدمها الملوك في عسف بالنّاس والفتك بهم وعدم الاكتفاء بمصادرة الأموال، وتوكيدا لأفعالهم الشنيعة استخدم ضمير الغائب العائد على أولئك الطغاة، وادماجه في صورة مجسّدة لعظم تجبرهم بتشبيه أفعالهم ازاء الكرام من أبناء المجتمع باللحاء الذي يغطّي العود، وفي ذلك دلالة على استبدادهم المطبق على كلّ شيء، فايذاؤهم للنّاس وفتكهم بالشرفاء ليس معه شيء من النفع ولا أمل في انفراجه. فنكبة ذلك الصديق استثارت ما في أعماقه من حزن دفين خلفته نكبة أبيه، فاستعاد الموقف بكلّ أبعاده التفجعيّة كما في قوله يصف ولهه وهو ينظر لدار ذلك الصديق، وقد سرت الوحشة في أرجائها : (وافر)

أَمُرُّ بِدَارِهِ فَأُطِيلُ شَوْقًا
وَيَمْنَعُنِي مِنَ النَّظَرِ البُكَاءُ

---

1) فصّلنا القول في نكب عضد الدولة لوالد الشريف في ص 127 وما بعدها من هذا البحث.

تَعَرَّضُ لِيْ فَتُنكِرُهَا لِحَاظِي،
مُعَطَّلَةً كَمَا نُقِضَ الخِبَاءُ
كَأَنِّي قَائِفٌ طَلَبَ المَطَايَا،
عَلى جَدَدٍ تُبَعْثِرُهُ الظِّبَاءُ (1)

فاستحالة دار صديقه الى أطلال بعد تعرضها للسلب والنهب حركت داخل نفسه لواعج الحزن فلم يعد في استطاعته النظر اليها ، ومحاولة التغاضي عن مشاهدتها لم يمنعها من التعرض اليه ،رغم نكران لحاظه لمشهدها بعد أن زالت بهجتها واندثرت معالمها ، فأدّى به ذلك الى تلمّس تلك المعالم مثله مثل من يحاول اقتفاء آثار قافلة الأحبّة على طريق بعثرت ظباء الصحراء آثاره فتعذر معرفته ، فالضياع في هذا الصدد حسّي ومعنوي في آن واحد : حسّي في نظرته للواقع الممثّل في الأطلال التي خلفتها النكبة ،ومعنوي بسبب احساس الشاعر بالخيبة والحزن وهو يعيش في مجتمع يرزح تحت طائلة القهر ، فالشريف والوضيع سيّان والكلّ يتوقّع الكارثة في أيّة لحظة .

فالنكبات الاجتماعيّة تتزامن مع مراحل حياة الشاعر بحيث لا تتركه مرتاحا مطمئنّا ، فهي ان لم تحق به ، فإنها تقع على أقرب النّاس اليه من أهل وأحبّة وأصدقاء ، ففي سنّ العاشرة يعيش نكبة أبيه كما مرّ بنا ، وتتكرّر المأساة مرّة ثانية مع ذلك الصديق الذي مرّت بنا مواساة الشريف له ، ونصادف الشاعر مرّة ثالثة يهنئ صديقه الحميم أبا سعيد بن خلف لتخلصه من نكبة لحقت به منها قوله : (كامل)

---

1) الديوان 1/ 38 وقائف اسم فاعل من القيافة = تتبّع الآثار لمعرفة سير أصحابها ، والجدد = المستوي من الأرض.

كَانَتْ غَيَابَةَ حَادِثٍ فَجَلا
دَيْجُورَهَا قَمَرٌ مِنَ السَّعْدِ
وَنَهَضْتَ مِنْهَا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ
مِثْلَ الحُسَامِ نَزَا مِنَ الغِمْدِ
اللّهُ جَارَكَ مَا رَمَتْكَ نَوًى
تُذْرِي الرَّكَائِبَ أَوْ قَطَا الجُرْدِ (1)

لقد تتبّع الرضي أحداث نكبة صديقه ، وحزّ في نفسه ما أصابه ، فما ان انجلى الخطب حتّى بادر باعلان فرحته بأسلوب لم يبارحه الحزن ، فاضافة الحادث الى الغيابة في ((غيابة حادث)) تعني عمق الحدث وما جلبه من أسى تغلغل في قرار النفس وأظلم حناياها ، فما أنْ انجلى حتّى تبدد ذلك الظلام وعادت الطمأنينة بعد أنّ تمكّن صديقه من استعادة مكانته بنفض غبار تلك النكبة عن نفسه وازالة غشاوتها ، فاستخدام الشريف الظلام بالمعنى المجازي مقابل النّور المتمثّل في القمر ، هو توق لمهادنة الدهر والعيش في كنفه بسلام ، ولكن تتابع النكبات فيمن يحسب غلّب الأسى والقتامة والظلام على شعره الصّادر عن معاينة ومعاناة لتلك النكبات ممّا يجعل تعابيره في هذا الصدد صادقة في تجسيد احساساته. يقول في معايشته لنكبة الطائع العباسي (2) : (بسيط)

أَعْجِبْ لِمُسْكَةِ نَفْسٍ بَعْدَ مَا رُمِيَتْ
مِنَ النّوَائِبِ بِالأَبْكَارِ وَالعُونِ
وَمِنْ نَجَائِيَ يَوْمَ الدّارِجِيّنَ هَوَى
غَيْرِي وَلَمْ أَخْلُ مِنْ حَزْمٍ يُنَجّينِي

---

1) الديوان 1/ 323 .

2) لقد عرضنا لنكبة الطائع بالتفصيل في ص 144 من هذا البحث.

مَرَقْتُ مِنْهَا مُرُوقَ النَّجْمِ مُنْكَدِرًا،
وَقَدْ تَلَاقَتْ مَصَارِيعُ الرَّدَى دُونِيْ
وَكُنْتُ أَوَّلَ طَلَّاعٍ ثَنِيَّتَهَا
وَمِنْ وَرَائِيَ شَرٌّ غَيْرُ مَأْمُونِ (1)

فعادة ما ينزع الانسان في حالة شعوره بالخطر لاتخاذ موقف يحاول من خلاله اتقاءه والافلات منه، ويكون ذلك النزوع تلقائيّا آنيا ذاتيّا، لذلك فإنّ تماسك الشاعر ازاء حدث نكبة الطائع والنجاة بنفسه بعد أن أهين علية القوم على مشهد منه هو أمر طبيعي في النفس الانسانيّة، ولكنّه مخالف لمبادئ الشاعر، فالتلقائية هي التي أدّت به الى انتهاج ذلك الطريق في لحظة جعلت تفكيره ينحصر في ذاته، وما ان أفاق من ذلك التفكير الفوري الارتجالي حتّى أخذ عذاب الضمير ينهش داخله، فأساس التعجّب في مطلع الأبيات هو تبرير لذلك الموقف الهروبي الذي أخذ يلاحق الشاعر طوال حياته. فقصيدته في نكبة الطائع هي من باب التذكّر المأسوي الذي أحال بعضا من معانيها الى رثاء مفجع كما في قوله: (بسيط)

مَا لِلحِمَامِ غَدَا، فَاعْتَامَ زافرتي
وَاخْتَارَ مَا كَانَ يُعْطِينِي وَيُعْطِينِي
خَلَّى عَلَيَّ مَرَارَاتِ الحَيَاءِ، وَمَضَّتْ
أَحْدَاثُهُ بِالمَطَاعِيمِ العَطَاعِينِ
يُشَجِّعُونَ عَلَيَّ الدَّهْرَ إِنْ جَبُنَتْ
خُطُوبُهُ، وَتَوَقَّى أَنْ يُنَادِينِي
إِذَا رَأَوْا مَدَّهُ نَحْوِي يَداً وَضَعُوا
فِيهَا عِظَامَ جَلَامِيدٍ لِتَرْمِينِي (2)

---

1) الديوان 2/446.

2) الديوان 2/447.

فتمثله لأحداث النكبة بكلّ أبعادها جعل من شعره سيلا من معاني التحسّر الملتاع ، فكان الاستفهام التفجعي في مطلع البيت الأول بمثابة الطريق الذي التمس الشاعر فيه مفتاحا للتعبير عن تفجعه فاستحالت النكبة الى موت مثّله ((الحمام)) الذي رأى فيه الرضي عدوا مباغتا في اختياره الخلاّن والأحبّة ومن يعتمد عليهم في الملمّات . وتتابع الأساليب الخبريّة في بقيّة الأبيات بما فيها الشطر الثاني من البيت الأول لم يحد من جذوة الحزن ، لأنّ شعوره بمرارة الحدث أتاح له التجسيد من خلال المجاز، بجعل الحمام يعتام ويختار، ليترك على كاهل الشاعر ((مرارات الحياة)) مع ملاحظة ما يتضمنه جمع (مرارة) من عمق مأسوي لا يمكن حدّه بحدود كما أنّ الأحداث المتولّدة من الحمام أخذت بدورها تشجع الدهر على تتابع خطوبه الجبانة التي لا يكنهها مسّه أو النيل منه لو كان من يعني باقيا ، وتتابع الاستعارات في الأبيات تعميق للحزن وتجسيد للأسى ، فالدهر يخلي على الشاعر مرارات الحياة ، والأحداث ماضية في اطعامه الألم بكل شراسة وقسوة ، فهي تشجّع الدهر ذا الخطوب الجبانة ، والدهر ينادي الشاعر ، والخطوب ترى الدهر يمدّ يده نحو الشاعر ، وتضع في تلك اليد ما يمكّنها من رمي الشاعر، فكلّ الأمور المعنويّة من مرارات وحمام وأحداث وخطوب استحالت الى حركة وحسّ تناصب الشاعر العداء وتحاول الفتك به ، وما ذلك الاّ تنفيس عن طاقات يعانيها ، بما يعني أنّ نكبات عصره في حدّ ذاتها عامل من عوامل التفجّع في أساليبه الشعريّة ، لارتباطها بمراحل حياته ارتباطا وثيقا ، فهي التي فجّرت معاناته ،

ومنحت تجربته العمق منذ بدايتها وصبغت أساليبه بنوع من القتامة (1) .

فظاهرة النكبات التي استشرت في مجتمعه جعلته ينظر فيما حوله بارتياب، حتّى الأهل والأصدقاء كانت له فيهم نظرة معينة غلب على جانب كبير منها الحزن على اعتبار أنّ الوفاء والصّدق لا يتوأمان مع البطش والارهاب .

الصديق والصداقة وأثرهما في شعر الشريف الرضي :

من الظواهر الاجتماعيّة التي تلفت النظر في شعر الشريف الرضي ، تصوير الصداقة في أسمى معانيها ، ورسم معالمها بدقّة تكاد تحيط بكلّ صفات النموذج السامي النّادر للصديق الحق المعوّل عليه في الشدّة والمؤتنس به في الرخاء ، الحافظ له في غيابه الحريص على حبل مودته والغافر لاساءته ، والمجيب لدعوته ، المحتال له في العذر عند زلّته والناصح الرفيق به اذ ضلّ السبيل .
يقول في مجال البحث عن الصديق : (كامل)

مَنْ لي بِفُرّةِ صَاحِبٍ
لا يَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ عَابُ
مَا حَارَبَ الأيّامَ إ
لاّ كَانَ لِي وَلَهُ الغِلَابُ
وَلِكُلّ قَوْلٍ سَامِعٌ
وَلِكُلّ دَاعِيَةٍ جَوَابُ

---

1) على اعتبار أنّ البداية الحقيقيّة لشعره المتولّد عن معاناة مقطوعته الخائيّة التي بشّر فيها أباه بوفاة عضد الدولة - راجع ذلك بالتفصيل ص 299 من هذا البحث .

مَنْ لِي بِهِ سَمْحاً، إذا
صَفِرَتْ مِنَ القَوْمِ الوِطَابُ
غَيْرَانَ دُونَ الجَارِ، لا
يَطْوِي عَزائِمَهُ الحِجَابُ
مَنْ لِيْ، بِهِ، يَا دَهْرُ والأ
يّامُ كَالِحَةٌ غِضَابُ
إنّ الصّدِيقَ مُشَيّعٌ،
إنْ جَلّ خَطْبٌ أوْ خَطَابُ
وَبَجُودُ عَنْكَ بِنَفْسِهِ،
وَالحَرْبُ تَقْرَعُهَا الحِرَابُ (1)

فوضع التمنّي في اطار الاستفهام وتكراره في (من لي) يوحي بندرة ما يلحّ الشاعر في طلبه حينما يضع شروطا للصديق قلّما تتوفّر في فرد ضمن مجتمع طغت المادة عليه فأصبحت المقيّمة لكل شؤونه. فبحث الرضي عن الصاحب الذي رسمته مثاليته المتناهية ضرب من ضروب المستحيل، إذ لا يوجد على الاطلاق من يخلو من العيوب، كما أنّه من النّادر جدّا أن يجود الزّمان بمن يرفعه خلقه الى التضحية بحياته وماله وسعادته في سبيل غيره، فالتوكيد في قوله "إنّ الصديق مشيّع" ضمن أسلوب الخبر الذي استوعب البيتين الأخيرين، هو بمثابة نتيجة توصل اليها الشاعر من خلال المقدّمات التي تضمنتها الأبيات السابقة لها، ولكنها رغم سموها ومثاليتها لا يمكنها أن تصمد أمام الواقع في مجتمعه المتضارب الأهواء، إلاّ أنّ ذلك كلّه لم يحل دون الشريف ومتابعة البحث والتقصّي عن ذلك الصديق باصرار كما في قوله : (كامل)

---

1) الديوان 1/119، 120 ومشيّع بضم الميم وتشديد الياء المفتوحة يحتمل معنيين = الأول : أن يكون أراد به الشجاع الجريء المقدام، والثاني : أن يكون أراد به سريع الاستجابة.

مَنْ لي بِمَنْ إنْ بَانَ عَيْبُ خَلِيلِهِ
غَطّاهُ عَنْ ثَانِيهِ أَوْ مَنْ يَصْدُقُ
لَا تَطْلِكُ الفَحْشَاءُ جَانِبَ سَمْعِهِ
وَيَزِلُّ قَوْلَ الهُجرِ عَنْهُ وَيَزْلَقُ (1)

فلقد استخدم الرضي التمنّي بالاستفهام ليعبّر عن توقه الى التسامي ومحاولته الاندماج في المجتمع على أسس اخلاقيّة وفضائل نفسيّة يندر وجودها في ركام القيم المنهارة ، وقد عزّز التوق ما ورد من اسناد مجازي ضمن أسلوب الخبر في البيت الثاني بأكمله حين جعل الفحشاء عاجزة عن الوصول الى سمع الصديق الذي يتمنّاه، وأيضا اسناده الزلل والانزلاق لقول الهجر المتضمّن معنى البهتان والكذب ففي كلا المجازين من الدقّة ما يدلّ على المثاليّة في جعل الفحشاء تنأى حتّى عن جانب السمع، وجعل قول الهجر يزل ويخطىء الطريق وينزلق أي يتعدّى دون أن يترك أثرا في النفس، والتمنّي في هذا الصدد يعني عدم امكانية وجود مثل ذلك الصديق ممّا يولّد في النفس الحسرة والأسى ، مع محاولة في التمسّك بأيّ صديق يتصف بأكبر قدر من تلك الخصال .

لذا فإننا نلمس من خلال قراءة شعر الصديق والصداقة عند الرضي ، مدى اخلاصه ووفائه وحبّه للصديق ، وتقديسه للصداقة بغضّ النظر عن فارق السنّ والتفاوت الطبقي والاختلاف في العقيدة والدين وحتّى في التصرفات الفرديّة ، فمجون الشاعر الحسين بن الحجّاج لم يحل دون حب الرضي له وتعلقه به كصديق ، وحزنه على فقده

---

1) الديوان 2 / 3 .

حين سمع بنعيه (1)، كما أنّ فارق السنّ واختلاف الدين لم يحولا بين الشريف وارتباطه بأبي اسحاق الصّابي بأواصر لم تتمكّن حوادث الدهر من فكّ عراها ولا الفراق الأبدي من فتّ عضدها، يقول الشريف الرضي ضمن رسالة كتبها الى صديق بعد وفاة الصابي متحسّرا على فراقه :

" الصديقِ الصّادقِ والحميمِ العوافقِ أبي اسحاقِ ابراهيم ابن هلالِ الصابيءِ، فإنّه كما لم يُغيّرْ لي ودّه في حياتهِ، رماني بالخطبِ الجليلِ من وفاتهِ، وانتزعَه من يديّ على حينِ انضمامِهَا في إخائه، وتشبثُهَا بعقدِ صفائه، وحصوله أخاً في المودّةِ لصيقاً، ونسيباً في الفضلِ عريقاً. وإلى اللّه أشكو دهراً حالَ دونه وقطَعَ مَا بيني وبينَه وأفردني عَنْهُ إفراد الأمّ عَنْ جنينِهَا والشمالِ عَنْ يمينِهَا ..." (2).

فمن خلال عبارة الرسالة المتدفقة وفاء لعهد المتوفّى يتبيّن مدى حرص الشريف على رابطة الصداقة الحقّة، فقد وضعها في مرتبة أعلى من مرتبته القرابة. لذلك فإنّ كثرة عتابه لمن عاشر من الأصدقاء تدلّ على شوق عظيم في رأب الصّدع والحفاظ على حبل المودّة متصلا متينا، فعتاب الأصدقاء ولومهم على التقصير في صداقته بمثابة " نغتة من أوغر صدره، واستراحة من أثقل ظهره " (3) لأنّ حسّه

---

1) حول رثاء الشريف لابن حجّاج راجع الديوان 2/441 وقد عرضنا لبعض أبيات المرثية بالتحليل ص 617 من هذا البحث.
2) الشريف الرضي - رسائل الصابي والشريف الرضي ص 105، 106.
3) السابق ص 104.

الرقيق وتشبثه القوي بالصداقة لا يمكنان لنفسه البقاء في طمأنينة وراحة بال في منأى عن الصديق. يقول في عتاب صديق محاولا رأب ما تصدّع في علاقتهما :

(خفيف)

إنْ تَكَرَّمْتَ فالخَلِيلُ كَرِيمٌ،
أَوْ تَمَنَّعْتَ فالطُّلُولُ عَنِيفُ
أَوْ يَكُنْ أَنْكَرَ الإِخَاءَ قَدِيمًا
مِنْكَ قَلْبٌ فإِنَّ قَلْبِي عَرُوفُ
أَحْمَدُ اللَّهَ أَنَّنِي مَا تَقَصَّيْـ
ـتُ، وَإِنَّ الذي طَلَبْتُ طَفِيفُ
فاجْعَلِ الآنَ مَا سَأَلْتُكَ بِرًّا
إِنَّمَا البِرُّ مَنْزِلٌ مَأْلُوفُ
وَاحْتَمِلْ سَطْوَةَ العِتَابِ فَخَيْرُ الـ
ـتَّبِعِ مَا مَدَّ مَتْنَهُ التَّثْقِيفُ
وَعِتَابِي هَزًّا لِعِطْفِكَ، وَالأَغْـ
ـصَانُ مَا لَمْ تَهُزَّهُنَّ وُقُوفُ (1)

فكرم خلقه وحرصه الشديد على الصداقة أدّى به الى الاستعطاف في محاولته الابقاء على الودّ متصلا، فهو يرى في المواصلة من قبل الصديق تكرما ففي قوله :

إن تَكَرَّمْتَ فَالخَلِيلُ كَرِيمٌ
أَوْ تَمَنَّعْتَ فَالطُّلُولُ عَنِيفُ

ضمن استعطافه بأسلوب الشّرط المقابلة بين شطري البيت « تكرمت فالخليل كريم » في مقابل « تمنعت فالطلول عنيف » وذلك في محاولة منه لاقناع الصديق في العدول عن رأيه والرجوع الى سابق عهده، وفي مقابلته بين صيغتي

---

1) الديوان 26/2 .

المبالغة "كريم وعنيف" ما يوحي بميله نحو الوئام ونبذه للعنف، ويتابع الشريف استعطافه في البيت الثاني بعطفه بالأداة (أو) وكأنّه يخيّره بين أمرين وهو في الحقيقة يطلب منه أن يسير في طريق واحد لا غير، فيقول له :

أَوْ يَكُنْ أَنْكَرَ الإِخَاءَ قَدِيمًا
مِنْكَ قَلْبٌ فإنّ قَلْبِي عَرُوفُ

فالبيت امتداد لمعاني الاستعطاف التي ضمنها بيته الأول بجعله الشّرط مبنيّا على المقابلة بين النكران والعرفان وقد فضل العرافات بصيغة المبالغة (عروف) وتركيز الرضي على المفعول (الاخاء) بتقديمه - هو والظرف (قديما) والجار والمجرور (منك) على الفاعل (القلب) - قلب الصديق - لهو دلالة على عظم انشداده للعلاقات الأخويّة فعتابه الحاني الرقيق يؤدّي به الى اتهام نفسه ليجد عذرا لقطيعة ذلك الصديق فيرى أنّه ليس ثمة ذنب يعاقب عليه ولا تقصير يلام بسببه فيقول لذلك الصديق والمرارة تعتلأ نفسه :

أَحْمَدُ اللّهَ أنّنِي مَا تَقَصّيْـ
ـتُ، وإنّ الذي طَلَبْتُ طَفِيفُ

فهو لم يخطئ في حق صاحبه ولم يشط في طلبه، فما يرغب فيه وتطلح روحه عليه أمر طفيف، يطلب من ذلك الصديق الاستجابة له بالمواصلة والابقاء على عهد الصداقة بأسلوب متناه في الدماثة والرقّة في قوله :

فَاجْعَلِ الآنَ مَا سَأَلْتُكَ بِرّاً،
إنّمَا البِرّ مَنْزِلٌ مَأْلُوفُ

فهو يرجو صديقه الاستجابة للحفاظ على الودّ والابقاء

على الصداقة على سبيل المعروف والاحسان موظفا (البر) في شطره الثاني توظيفا مجازيّا في كونه مثل المكان الذي يألفه الفرد ويحسّ فيه بالأمن ، وفي ذلك دلالة على شوق الشاعر وتعطشه للألفة والحبّ. وما رجاؤه الصديق لاحتمال عتابه في قوله :

واحْتَمِلْ سَطْوَةَ العِتَابِ فَخَيْرُ الـ
ـتَّبْعِ مَا مَدَّ مَتْنُهُ التَّثْقِيفُ

إلاّ لشعوره بالألم وهو يقف منه موقف اللاّئم مضمنا البيت تشبيها ضمنيّا بتشبيهه الصديق في الاستجابة لطلبه وتحمل عتابه مثل أعواد القسي اللدنة الطيعة التي تستجيب لمثقفها دلالة على جودة عنصرها ، فعتابه للصديق هو محاولة لاستجابة أريحيته واستسماحا لخلقه وذلك في قوله :

وَعِتَابِي هَزًّا لِعِطْفِكَ وَالأغْـ
ـصَانُ مَا لَمْ تَهُزَّهُنَّ وُقُوفُ

فقد كنّى عن محاولته في اقناع صديقه للعودة للودّ وتحمل العتاب بهز (العطف) أو بالأحرى هز الرداء الذي يشتمل على الجسم كلّه بما في ذلك القلب الذي يعنيه الشاعر ، محاولا ترشيح الكناية أيضا بتشبيه ضمني في تشبيهه صديقه بالغصن الذي يهزّه الشاعر ليستجيب له في تساقط ثمره .

فمعالجته لأمور الصديق والصداقة تستولي على شتات روحه وتسلبه تفكيره فهو لا يحتمل فقدان الصديق أو الابتعاد عنه ، يقول في معاتبة صديق آخر طال بعده : (كامل)

رِفْقًا بِقَلْبِي ، يا أَبَا حَسَنٍ
العَيْنُ مِنْكَ ، وَأنْتَ تَطْرِفُهَا

فَكَأَنَّنِي بِعَلائِقِ شُعَبٍ
قَدْ زَالَ عَنْ أَمَمٍ تَأَلُّفُهَا
وَمُقَوَّمَاتٍ مِنْ غُصُونِ هَوًى
يَعْوَجُّ أَطْوَاراً مُثَقِّفُهَا
فِي القَلْبِ مِنْكَ جِرَاحَةٌ أَبَداً،
مَازِلْتُ أَدْمُلُهَا وَتَقْرِفُهَا
كَمْ مِنْ مَعَاقِدَ بِتَّ تَفْسَخُهَا،
وَمَوَاعِدٍ بِالقُرْبِ تُخْلِفُهَا (1)

فمن الطاقات الايحائيّة لتلك الأبيات يمكن تصوّر حالة الرضي النفسيّة ازاء حرصه على المحافظة على الصداقة، فتعلقه بالصديق واخلاصه له أديا به الى استعطافه بالأمر والنّداء في قوله :

رِفْقًا بِقَلْبِي ، يَا أَبَا حَسَنٍ
العَيْنُ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَطْرِفُهَا

فالاستعطاف يكمن في استخدامه المفعول المطلق نيابة عن فعل الأمر (ارفق) في صدر البيت والنّداء في قوله "يا أبا حسن" اضافة الى وصل تينك الجملتين الانشائيتين بالأسلوب الخبري والمتكوّن من الشطر الثاني والموحي بمدى تجاوب الشاعر مع تلك العلاقة النبيلة، في مقابل صدود الطرف المقابل عنها وتجاهلها ، فيتسبّب ذلك التصرّف في تولّد صراعات نفسيّة حاول الشاعر التنفيس عنها بشتّى التعابير فقوله :

فَكَأَنَّنِي بِعَلائِقِ شُعَبٍ
قَدْ زَالَ عَنْ أَمَمٍ تَأَلُّفُهَا

---

1) الديوان 31/2 .

وَمُقَوَّمَاتٍ مِنْ غُصُونِ هَوًى
يَعْوَجُّ أَطْوَارًا مُثَقِّفُهَا

يصور تفرق نفسه بعد اجتماعها، وتشتت حاله بتضارب الأفكار بين يأس ورجاء، وقنوط وأمل فهواه الصادق وحبه القوي في اضطراب كالأغصان اللدنة الطريّة المستقيمة التي أودها كثرة التثقيف، فقد تركت تصرفات الصديق القاسيّة ألما مبرّحًا في نفس الرضي مثله قوله:

فِي القَلْبِ مِنْكَ جِرَاحَةٌ أَبَدًا
مَازِلْتُ أَدْمُلُهَا وَتَقْرِفُهَا

فقد طفح الألم بنفس الرضي حتّى لم يعد يحتمل المزيد، فكلما حاول رأب الصّدع ومواصلة ذلك الصديق، عاد عليه فعله بالخسران فكنّى عن ذلك بجرح القلب المستمرّ في نزيفه، فكلما حاول أن يدمله، نكأه الصديق ليعود للنزيف المستمرّ. وقد ضاعف من تعميق معاني الألم، ما ورد من تقديم وتأخير حين قدّم (القلب) أولا - يعني به قلبه - و (منك) ثانيا - ويعني بالضمير صديقه - على المسند اليه (جراحه) تعبيرا عن عظم ما يعانيه من ضيق واضطراب من مواقف ذلك الصديق تجاهه، مع اصراره على الاستمرار الكامن في الظرف (أبدا) والفعل الناقص (مازلت) فقسوة الصديق وعدم اخلاصه للصداقة كانا السبب في قول الرضي:

كَمْ مِنْ مَعَاقِدَ بِتُّ تَفْسَخُهَا
وَمَوَاعِدٍ بِالقُرْبِ تُخْلِفُهَا

فتصديره البيت بكم الخبريّة يعني كثرة إخلاف ذلك الصديق للوعود واحنائه للعهود حتّى القريب العهد الذي لم يمض عليه وقتا طويلا. والبيت بأكمله تعبير عن مرارة بلغت

مبلغ التفجّع لما اشتملت عليه (كم) من تنهدات حارّة وعتاب عميق حزين .

لكن سعة صدر الشريف تجعله دائم التسامح مع الأصدقاء والتغاضي عن أخطائهم الى حد التدلّه الذي قد يعتبرونه ضعفاً فيه . يقول ضمن عتاب صديق : (كامل)

إيهاً مُؤمِّلَ طَيِّءٍ لا تَنْقَضَنْ
وِدّاً لَهُ مِنْ ذِمّةٍ إمْرارُ
فَلَقَدْ حَلَلْتَ مِنَ الفُؤادِ مَحَلّةً
فِيْ حَيْثُ لَيْسَ مِنَ الوَرَى لَكَ جَارُ
فَلَئِنْ وَفَيْتَ فَمَا الوَفَاءُ بِبِدْعَةٍ
إنّ الوَفَاءَ لِذي الصّفَاءِ شِعَارُ
وَلَئِنْ غَدَرْتَ، وَلا عَجِيْبٌ أنّهُ
بَعْضُ الزّمانِ بِبَعْضِهِ غَدّارُ
نَفْسِي فِدَاءُ الغَادِرِيْنَ تَبَاعَدُوا
أوْ قَارَبُوا أوْ أنْصَفُوا أوْ جَارُوا (1)

فمن خلال سيل من العواطف الجياشة بالحب يزجر صاحبه في رفق كيلا ينقض العهد المحكم والوفاء المبرم بينهما مستخدما الزجر بالأداة (ايها) والنهي المؤكّد في قوله « لا تنقضن » وقد أعانه التلاحم بين شطري البيت على ابراز تلاحم الود الذي يحسّه الشاعر ازاء صديقه فيما يسمّيه البلاغيون كمال الاتصال وما زجره ذلك إلاّ حفاظا على الصداقة الوكيدة والمكانة التي احتلّها ذاك الصديق من نفسه ، وما ادخال (لقد) على الأسلوب الخبري

---

1) الديوان 1/ 513 .

في البيت الثاني إلاّ توكيد لما يكنّه من اخلاص وحبّ فيّاض عجزت اللغة عن التعبير عنه فجاء التعقيد الأسلوبي والتعثّر في قوله «في حيث ليس من السوى لك جار» كي يصوّرا انفعال الشاعر وقوة معاناته وعمق اخلاصه ، فامتزاج عاطفة الحب بعاطفة الخوف أربك نفسيته فانعكس ذلك على أسلوبه. فتوقه للصداقة بمعناها الاخلاقي النبيل ، وشعوره بالحاجة الماسّة للصديق حمّلا نفسه الكثير من المعاني الانسانيّة المبنيّة على المقابلات كالوعد والاخلاف والغدر والوفاء ، محاولا من خلال ذلك التضاد بين المعاني استخلاص نتائج أو قواعد عامّة تكون بمثابة العرف أو حتّى القانون الذي ينطلق منه في ارساء دعائم صداقاته فمزاوجته بين الشّرط والتوكيد ضمن أسلوب الخبر في قوله :

فَلئِنْ وَفَيْتَ فَمَا الوَفَاءُ بِبِدْعَةٍ
إنّ الوَفَاءَ لِذي الصّفَاءِ شِعَارُ

أدّى به الى مواصلة شطرى البيت ، والالتحام العضوي العفوي هو دلالة على التحرق والشّوق للاخلاص بمعناه الواسع العام فقلّة الوفاء وندرته ليس لأنّه بدعة مادام هناك من يلتزمون به من الأصفياء الشرفاء ، فالتوكيد بالمثل أو الحكمة في شطره الثاني جعل من الوفاء أمرا حاصلا وأصيلا في النفس الانسانيّة وإنْ كان نادرا ومقتصرا على بعض من النّاس .

وفي مقابله الغدر الذي للشريف الرضي وجهة نظر خاصّة فيه :

وَلئِنْ غَدَرْتَ، وَلا عَجِيبٌ أنّهُ
بَعْضُ الزّمانِ بِبَعْضِهِ غَدّارُ

فلقد عطف جملة الشرط « لئن غدرت . . » على جملة الشّرط « فلئن غفرت » ولم يورد جملة جواب الشّرط في بيته الثاني مستعيضا في ذلك بجملة الحال في قوله « ولا عجيب أنّه » التي صار لها دوران في السياق، فهي وإنْ صورت حالة الغدر بالنسبة لهذه الحياة، فإنّه يمكن تعويض جواب الشّرط المحذوف بها، والبيت في مجمله مبني على عرف عام مفاده أنّ الغدر من طبيعة النّاس في مقابل الوفاء الذى هو من خصوصيات ذوى الصفاء منهم، فالشاعر يرغب بكل الحاح في أن يكون صديقه من تلك القلّة، ولكنّه أيضا يحبّه ويفديه بروحه متقبّلا ايّاه على علاّته، وقد مثّل ذلك الحب العظيم الطباق ضمن التقسيم في قوله :

نَفْسِي فِدَاءُ الغَادِرِينَ تَبَاعَدُوا ،
أَوْ قَارَبُوا ، أَوْ أَنْصَفُوا ، أَوْ جَارُوا

فتقديسه لرابطة الصداقة ، ومحاولته الحفاظ عليها تحت كلّ الظروف أدّيا به الى التنازل عن كثير من شروطه التي يجب أن تكون في ذلك الصديق لأنّه عرف في نهاية الأمر : أنّه من المتعذّر تشكيل النّاس حسب طبيعة معينة توافق هواه وطبيعته . يقول محدّثا نفسه : (بسيط)

إِنْ كُنْتَ لا تَصْطَفِي إلا أَخَا ثِقَةٍ
فَاخْلُقْ لِنَفْسِكَ إِخْوانًا عَلَى قَدَرِ (1)

وهي حقيقة لا يمكن ادراكها الاّ بالمعايشة ومن خلال الاحتكاك المباشر بالنّاس، وقد أدركها الرضي بعد أن عانى الكثير، اذ لا يمكن على الاطلاق تشكيل عادات جميع

---

1) الديوان 1 / 524 .

النّاس حسب نمط معيّن نرغبه، كما لا يمكن أن يكون الأصدقاء سواء في أخلاقهم ومعاملاتهم. الاّ أنّ ادراك الرضي لتلك الحقيقة لم يثنه عن الصداقة، وما ذاك الاّ لأنّه يريد أن يندمج في مجتمع يجد نفسه فيه بلا صديق (طويل)

كَفَى حَزَنًا أنّي صَدِيقٌ وَصَادِقٌ
وَمَالِيَ مِنْ بَيْنِ الأنَامِ صَدِيقُ (1)

فجزع الشاعر وتفجعه يكمن في افتقاده الصديق رغم صدقه واخلاصه وهيامه بالصداقة الحقّة المترفعة عن كلّ ما يدنسها أو ينال من قدسيتها، لذا فقد استحال عتابه للأصدقاء - على تقصيرهم نحو حق الصداقة - الى شكوى مرّة بلغت حدّ التفجّع : (كامل)

أنْبَتَّ بَعْدَكَ حَبْلُنَا، وَحَدَثْ
كُلاًّ لِطَيّتِهِ نَوًى قُذُفُ
وَانْفَكَّ سِلْكُ نِظَامِنَا بَدَدًا،
وَلَقَدْ غَنِينَا وَهُوَ مُؤتَلِفُ
وَتَجَنَّبَ البَتُّ جَانِبَنَا،
وَنَبَا فَلا وُدٌّ، وَلا شَغَفُ
وَقَلَى مَجَالِسَنَا، وَمَالَ بِهِ
عِطْفٌ إلى البُغْضَاءِ مُنْعَطِفُ
وَأُزِيحَ ذَاكَ الأُنْسُ أَجْمَعَهُ،
وَأُمِيطَ ذَاكَ البِرُّ وَاللُّطْفُ
جَعَلَ الوَصِيَّةَ تَحْتَ أَخْمَصِهِ،
وَأتَى الإسَاءَةَ وَهْوَ مُعْتَرِفُ
إنّا نَذُمُّ إلَيْكَ خُلّتَهُ،
فَهُوَ المَلُولُ الغَادِرُ الطَّرِفُ (2)

---

1) الديوان 2/80 .
2) الديوان 2/23 .

فاضطرام الشّوق الى الصديق ، والشكوى اليه من جفاء الأصدقاء وقطيعتهم أحال تعابيره الى دفعات متتابعة من الحزن المتدفّق ، فالفصل بين الجمل الخبريّة داخل الأبيات لم يحل دون تتابعها العاطفي فالعطف في قوله " انبت، وحدت، وانفك ، وتجنّب ، ونبا ، وقلى ..... " ما هو الاّ محاولة للتعبير عن حالة المعاناة التي يكابدها الشاعر ، فالرضي يريد من تتابع الجمل اعلام صاحبه بالحالة التي تردت الصداقة اليها بعد فراقه ، وقد استنجد في ذلك بالاسناد المجازي والصور البلاغيّة والمحسنات المعنويّة ، كلّ ذلك في سبيل وضع الصديق أمام المشكل الذي هو بصدد الشكوى منه علّه يستجيب له لتعود الحياة الى سابق عهدها ، وذلك منه منتهى الوفاء ، فقد شبّه تفرّق الأصدقاء بالحبل المنبت ، كما أسند الحداء للنوى في محاولة للتعبير عن المسافة الزمنيّة والروحيّة التي فرّقت بين الأصدقاء ، وذلك بتشبيه النّوى بحادي الركب الذي ينذر بالفراق وتشتّت الشمل بحدائه الذي عادة ما تشوبه رنّة من الحزن والأسى ، فاختلاط السمع بالرؤية ضمن الاسناد المجازي المتولّد عن تحسّر الشاعر ابّان تذكّره التئام الشمل والاستمتاع برؤية أولئك الأصدقاء والسماع اليهم ، هو تعبير عن توق لعالم الصداقة والهروب من ظلام الوحدة ، كما أنّ تشبيهه تفرّق الأصدقاء في البيت الثاني بالعقد المنخرم ومزج ذلك التشبيه بالمقابلة بين التبدّد والائتلاف في (انفك . بددا ، غنينا وهو مؤتلف) هو تأكيد على ذلك التحسّر ، أمّا شكواه من موقف صديقه الحميم (البتي) فهو طلب ضمني من الصديق المشكو اليه في محاولة للتوسّط لرأب الصّدع بين الشاعر وبين الصديق المشكو منه ، حفاظا على الودّ وتمسكا بشعار الوفاء الذي لم يرعه البتي حين وضعه تحت اخمص قدميه .

ولقد كابد الشريف كثيرا من تصرّف الأصدقاء في تظاهرهم بعكس ما يضمرون، متخذين من النفاق نقابا يستترون به حقيقتهم الزائفة، يقول في وصف أحد أصحابه : (مديد)

صَاحِبٌ كالغِرّ لَسْتُ أرَى
جِدَّهُ مِنّي وَلَا لَعِبَهْ
يَتّقِينِي بِالخِلَابِ . وإنْ
جَدَحُوا عِرْضِي لَهُ شَرِبَهْ
دَاعِيًا لِي بِالخُلُودِ ، وَلَوْ
طَلَبُوا مِنْهُ دَمِي وَهَبَهْ (1)

فقد شبّه صاحبه في جهله كالطفل الصغير الذي لا دراية له بعواقب الأمور، فيقصر نظره تصور أنّ بامكانه أن يخدع الشاعر، لما مسّه في شخصه من تسامح وليّن جانب عدّهما ضعفا وغباء، ولكن تمرس الرضي بمخالطة النّاس ومعرفة دخائلهم، أمدّتاه بخبرة واسعة في كشف نواياهم، فمكنه ذلك من فضح حقيقة ذلك الصاحب النكرة، بوصف التناقض بين أقواله وبين أفعاله وصفا دقيقا، ينم عن الازدراء والغيظ والاحتقار، ففي قوله « يتقيني بالخلاب » معنى التلوّن والتستّر وراء التسكن بالتظاهر بالود والحب خديعة ومكرا في مقابل الضغينة والحقد حال مؤاتاه الفرصة التي عبّر عنها بالجدح الذي يعني الخوض في الأعراض غيبة مع الدعاء للشاعر بالبقاء وطول العمر واضمار الهلاك وتمنّي الزوال له.

---

1) الديوان 1/203 والغر = الجاهل الذي لا تجربة له ولا يعرف عواقب الأمور، الخلاب = بكسر الخاء الخديعة والمكر، جدحوا = خاضوا وخلطوا، الجدح = الخوض والخلط.

فتسامح الشريف مع الأصدقاء والتواضع لهم ليسا عن سذاجة وقلّة خبرة، فرقّة الاحساس وغلبة العاطفة لم يحولا دون تمييز العقل للصداقة الحقّة والتعلّق بها الاّ أنّ المثالية المتناهية وصدق الوفاء والاخلاص كانت - في معظم الأحيان - من أسباب اخفاقه في عقد صداقات متينة لا تعكّر المادة صفوها، لما في ذلك من تعارض مع قيم مجتمعه الذي طغت فيه المادة على كلّ العلاقات الانسانيّة، ممّا أدّى الى انفصام في علاقات الشاعر بالكثير من أصحابه وأصدقائه، لذلك فقد تحوّل عتابه لهم في معظم الأحيان الى حزن كئيب وتحسّر ملتاع جعل من الحاحه في طلب الصداقة الحقّة رافدا من روافد التفجّع في شعره.

أثر العلاقات الأسريّة في تفجّع الشريف الرضي :

من خلال دراستنا لنماذج من شعر الشريف في أفراد أسرته نستشف أنّه كان على خلاف مع الكثيرين منهم ويمكن ارجاع ذلك الخلاف الى عاملين :

الأول - التنافس على المركز : فلقد عاش الشريف في أسرة كبيرة في عدد أفرادها، قويّة في نفوذها، قطن أفرادها جميع البقاع الاسلاميّة فاحتلّوا كلّ ودّ واحترام لقرابتهم من الرسول (ص)، وليس أدلّ على ذلك من تمييزهم دون بقيّة النّاس بالنقابة التي من أهم أهدافها المحافظة على صراحة نسبهم ومراعاة حرمتهم وحراسة حقوقهم، والزامهم بمراعاة الأخلاق التي تجنبهم العار وتنأى بهم عن المزالق (1)، وقد أدّى ذلك الى تنافس

---

1) في شأن الهدف من النقابة راجع - الماوردي - الاحكام السلطانيّة ص 85 وما بعدها.

أبناء الأسرة العلويّة من ذوي الطموح على المراكز السامية ومحاولة الوصول الى ذرى المجد ، فلم يكن الشريف الرضي هو الذي ملأ الطموح نفسه دون بقيّة أفراد أسرته ، وقد صوّر شعره بعضا من جوانب تلك المنافسة على النقابة ، كما في قوله وقد بلغه أنّ رجلا من الطالبيين اغتابه اثر تولّيه النقابة : (مجزوء الكامل)

قُلْ للعِدَى مُوتُوا بِغَيْـ
ـظِكُمُ ، فَإنّ الغَيْظَ مُرْدِي
وَدَعُوا عُلَى أَحْرَزْتُهَا ،
يَا وَادِعِينَ بِطُولِ جُهْدِ
كَمْ بَيْنَ أَيْدِيكُم ، وَبَيْـ
ـنَ النّجْمِ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدِ
وَلِيَ النّقَابَةَ خَالُ أُ
مّي قَبْلُ ، ثُمّ أَبِي وَجَدّي
وُلّيتُهَا طِفْلاً ، فَهَلْ
مَجْدٌ يُعَدّدُ مِثْلَ مَجْدِي (1)

فالأبيات تشي بالمنافسة الشديدة التي كانت بينه وبين بعض أفراد أسرته على تولّي مركز النقابة ، ممّا دعاه الى تسميتهم بالعدى لشعوره بالضيق منهم ، لأنهم يكيدون له في الخفاء ، ويبذلون المال للوصول الى غاياتهم بشراء المركز ، كالذي غنّاه بهذه الأبيات : (وافر)

شَفَى بِلِبَاسِهَا غِلاًّ قَدِيمًا ،
وَعُدْتُ بِنَزْعِهَا ، فَشَفَيْتُ غِلاّ
فَإنْ يَكُ نَالَهَا ، فَلَقَدْ أَنَفْنَا
فَأَرْخَصْنَا بِقِيمَتِهَا ، وَأَغْلَى

---

1) الديوان 1/358 .

فَلَمْ يَكُ جُودُهُ فِي ذَاكَ جُوداً ،
وَلَمْ يَكُ بُخْلُنَا فِي ذَاكَ بُخْلا
فَمَا المَغْبُونُ إلاّ مَنْ تَوَلّى ،
وَمَا المغبوط إلاّ مَنْ تَخَلّى (1)

وقد أوغر ذلك المسلك المشين صدر الشريف، فترجمه الى حزن ساخط، لما تنطوي عليه لفظة (غل) من معاني البغض والكراهيّة بادراجها ضمن المقابلة الكامنة في الاستعارة المكنية بتشبيهه النقابة بالثّوب التي رمز اليها بالباس الغل تصويرا للحقد والكراهيّة اللذين يعتملان في قلب منافسه في مقابل نزع الرضي لذلك الغل تجنبا للعداء والنأى بنفسه عن المكاره، كما أنّ المقابلات بين (أرخصنا وأغلى ، والجود والبخل ، والمغبون والمغبوط، وتولّى وتخلّى) بالاضافة الى استخدامه لضمير الغائب اشارة الى النقابة ومن استحوذ عليها في قوله ((نالها)) هي دلالات على السخط والغيظ اللذان يعتملان في نفسه، أدّت الى القطيعة بينه وبين الكثير من ذوي المكانة من أبناء أسرته العلويّة .

الثاني - وسببه الاحتكاك بجميع أفراد أسرته من العلويين لاتصاله المباشر بهم عن طريق النقابة أيضا . فتعارض المصالح عادة ما تؤدّي الى نشوب الخلافات وتحميل النفوس بالبغض، فكثرة العلويين وشعورهم بالزهو على غيرهم في مجتمع القرن الرابع جعلهم في كثير من الأحيان مصدر قلق للسلطة لما يثيرون من فتن (2)، فكان لابدّ من وجود من يحدّ من تسلطهم ويكف أيديهم

---

1) الديوان 2 / 244 .

2) راجع - الصابي الكاتب - تاريخ هلال بن المحسن الصابي ص 106 وما بعدها - فقد ذكر بعض ما كان يثيره العلويون من شغب أقلق راحة النّاس .

عن النّاس، ممّا جعل السلطة تضع الحزم والشدّة من أهم الشروط توفّرا فيمن يتولّى النقابة عليهم، وقد بذل الشريف ما في وسعه لأن يكون عند حسن الظنّ حين ولي ذلك المركز الحسّاس، بالجام رغبات الطالبيين وكبح شهواتهم ممّا ولّد تحفظا شديدا بينه وبينهم، يقول في هذا الصّدد مفتخرا : (كامل)

وَلِيْتُ فِي السِّنّ القَرِيبَةِ أُسْرَتِي
فَوَكَلْتُ فَاسِدَهُمْ إلى إصْلاحِي
بِمَهَابَةٍ عَمّتْ بِغَيْرِ تَكَبُّرٍ
وَصَرَامةٍ أَدْمَتْ بِغَيْرِ جِرَاحِ
حِلْمٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونَهُ
بَأْسٌ يَدُقُّ عَوَامِلَ الأَرْمَاحِ (1)

ولكن جدّيته وصرامته في أخذ أهله وقرابته بالحزم (2) سببت له الكثير من المتاعب بتحامل أفراد أسرته عليه ومحاولتهم الاساءة اليه فزاد ذلك من أساه وغربته حتّى ضاق ذرعاً بالنقابة، وما جلبته عليه من نقمة، فحاول جاهدا الاستعفاء منها بحثا عن الطمأنينة (3) وراحة البال، كما في قوله محدّثا نفسه : (وافر)

مُحَمّدُ طَالَ مَا شَمّرْتَ فِيهَا،
فَدُونَكَ فَاسْحَبِ الذّيْلَ الرِّفَلا
وَنَمْ مُسْتَوْدَعاً صَوْناً وَأمْناً
فَقَدْ أَسْلَفْتَهَا جَزَعاً وَذُلاّ (4)

---

1) الديوان 1/253 .

2) حول حزم الرضي راجع ص 234 من هذا البحث .

3) من أهم القصائد التي ألحّ فيها الرضي على طلب الاستعفاء من النقابة قيدته الميميّة ـ الديوان 2/301 وقد عرضنا لتحليل بعض أبياتها في ص 147 وما بعدها من هذا البحث.

4) الديوان 2/242 .

ففي حديث الشاعر مع نفسه ما ينم عن معاناة وضيق سببهما النقابة جراء احتكاكه بأهله وذويه، اذ ينطوي البيتان على التعب النفسي الذي يكابد منه، فالأمر في قوله "نم مستودعا" دلالة على افتقاده للراحة وطمأنينة البال، أمّا قوله "فقد أسلفتها جزعا وذلاّ" فيعني تركه للنقابة لأولئك المتكالبين عليها بعد أن استحالت الى ذلّ وهوان وخوف.

وهناك عامل ثالث يمكن اضافته الى عوامل الانفصام في علاقاته الأسريّة ويكمن في تنافر طباعه عن طباع أبيه وأخيه بسبب اختلاف النظرة لأمور السياسة والعلاقة بالحكّام، فبينما كان أبوه وأخوه ينظران الى تلك العلاقات من منظور واقعي متسم بالهدوء والتعقّل (1)، فقد كان الرضي ينظر اليها من وجهة عاطفيّة، فأدّى ذلك الى التباين في المواقف، ممّا ولّد لديه الشعور بالوحدة وسلوك محجة الحزن، يقول ضمن عتاب لأبيه وأخيه في أمر جرى بينهما وبينه: (طويل)

تَهَضّمَنِي مَنْ لا يكُونُ لِفَيْرِهِ
مِنَ النّاسِ إطراقي عَلَى الهُونِ أَوْ غَضّي
أُفَوّقُ نَبلَ القَولِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَيُؤلِمُنِي مِنْ قَبلِ نَزْعِي بِهَا عِرْضِي
وَأَرْجَعُ لَمْ أُولِغْ لِسَانِيَ فِي دَمِيْ،
وَلَمْ أُدْمِ أَعْضَائِي بَنْهشي وَلا عَضّي (2)

انّ العوامل الثلاثة قد أخذت بنفس الشريف للسير في طريق الحزن وتجنّب الاحتكاك بأبناء أسرته في كثير

---

1) عرضنا لموقفه من أبيه وأخيه في علاقته الأسرية ص 213 و218.
2) الديوان 1/585.

من الأحيان لشعوره بالغربة وعدم الانسجام مع طباعهم كما في قوله : (طويل)

وَمَا النَّفْسُ فِي الاهلِينَ إلاّ غَرِيبَةٌ،
إذا فُقِدَت أَشْكَالُهَا وَلِداتُهَا (1)

فقصر الغربة على النفس في حال افتقادها المماثل والشبيه بين الأهل والأقارب هو ما حدا بالشريف الى الشكوى المعزوجة بالألم والأسى ، يقول ضمن احدى فخرياته: (سريع)

أَقَارِبُ إنْ وَجَدُوا غَمْزَةً،
رَاشُوا إلى قَلْبِيَ مِرْطُ السِّهَامْ
وَيَعْرِقُونِي بِالأذَى كُلَّمَا
لانَ لَهُمْ مَسِّيَ عَرْقَ العِظَامْ(2)

فبغض النظر عن تعبير شكواه ومعاناته من أقاربه بالكناية في قوله " راشوا الى قلبي مرط السهام " والتشبيه في قوله " ويعرقوني بالأذى عرق العظام " ، بغض النظر عن ذلك فقد أورد ضمن كلا الصورتين البيانيتين من التعبيرات ما ينم عن عظم أساه وشدّة معاناته ، فاضافة السهام الى وصفها (مرط) داخل الكناية دلالة على ما كابد من ألم بسبب ما يصك سمعه من أخبار تخترق قلبه كاختراق السهام التي تساقط ريشها ، كما أنّ المفعول المطلق في قوله (عرق) بيّن شدّة الأذى الذي شبهه بالحاء اللحم عن العظم الحاء تامّا ، فهو لم يجن من اعتماده على أولئك الأقارب الاّ الندامة والخسران وامتلاء النفس بالهموم كما في قوله : (كامل)

---

1) الديوان 1/ 213 .

2) الديوان 2/ 315 .

أَعْدَدْتُكُمْ لِدِفَاعِ كُلِّ مُلِمَّةٍ
عَنِّي ، فَكُنْتُمْ عَوْنَ كلِّ مُلِمَّةِ
وَتَخِذْتُكُمْ لي جُنَّةً فَكَأَنَّمَا
نَظَرَ العَدُوُّ مَقَاتِلي مِنْ جُنَّتِي (1)

فقد وجد الشاعر أنّ اعتماده على قرابته وأبناء عمومته من العلويين في الدفاع عنه والوقوف الى جانبه في الملمّات ليس في محلّه لأنهم كانوا يعينون النوائب عليه ويساعدون في ازدياد شقائه فاتخاذه اياهم وقاية وحماية كان بمثابة الثغرة التي فتحها على نفسه ليصيب الأعداء منه مقتلا ، فاخفاقه في الانسجام مع طبائع أبناء أسرته بسبب اختلاف الأمزجة أدّى به الى الهلع والشعور بالضياع وقد جسّد ذلك نداؤه المشحون بالتفجّع ضمن قصيدة وجهها لأبيه : (كامل)

يَا ضَيْعَةَ الأَمَلِ الَّذي وَجْهْتُهُ
طَمَعًا إلى الأَقْوَامِ بَلْ يَا ضَيْعَتِي (2)

فضياع أمله هو ضياع وتشتّت لروحه لكونه رجى من أهله الخير فكانت النتيجة خيبة الأمل والشعور بالهضيمة والاحساس بالمرارة فكان وصفهم باللؤم في قوله : (بسيط)

أَقَارِبُ لَمْ يَزَلْ بِي شَرُّ عِرْقِهِمُ ،
عِرْقٌ مِنَ اللُّؤْمِ يُعْدِيهِم وَيَعْدُونِي
تَلَحَّوا بِي كَأَنِّي حَمْضَةٌ قُطِعَتْ ،
لَابُدَّ بَعْدَ مَدًى أَنْ يَسْتَمِرُّونِي
هَبُّوا أُصُولَكُمُ أَصْلِي على مَضَضٍ ،
مَا تَصْنَعُونَ بِأَخْلَاقٍ تُنَافِينِي؟ (3)

---

1 ، 2) الديوان 1/ 220 ، 221 .

3) الديوان 2/ 447 .

دلالة على محنته بالانتساب اليهم وتنافر طباعه عن طباعهم وتركيب الصّورة بوضع التشبيه بين كنايتين في قوله " تملحوا بي كأنّي خمضة ليستمرونني " وتجاذب التشبيه لكلتيهما ، هو تعبير من الشاعر عن استعذاب أقربائه اغتيابه والكيد له في الخفاء في مقابل ما يحمله لهم من غيظ مكبوت لابدّ أن يظفر بمخرج ليقلب ما يستعذبونه الى مرارة ، مع ملاحظة استخدامه لكلمة (حمضة) التي تعني ما كان مرّا ومالحا من النبات في آن واحد ، ثم أنّه يؤكّد في البيت الثاني بأسلوبي الأمر والاستفهام أنّه وان كان ينتمي اليهم بالنسب الاّ أنّ طباعه وأخلاقه تنفر منهم ولا تتناسب معهم ، لذلك فقد صاروا مجلبة ضرر له كما في قوله : (متقارب)

أَضَرُّ الأَنَامِ لِيَ الأَقْرَبُونَ
وَأَعْدَى الوَرَى لِيَ جَيْرَانِيَهْ (1)

فاستخدامه لأفعال التفضيل (أضر وأعدى) في سياق أسلوب الخبر مع تكرار المتعلّق بهما (لي) في كلا الشطرين هو توكيد على ما يكابد من معاناة بسبب ضرر الأقارب وعداء الجيران ، وطبيعيّ أن يكون ظلم ذوي القربى أشدّ مرارة على نفس الرضي بحيث لا يمكنه احتماله والصبر عليه ، يقول معبّرا عن مرارة ذلك الشعور : (متقارب)

وَإِذَا رَمَتْكَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصٌ ،
فَسِهَامُ ذِي القُرْبَى القَرِيبَةِ أَجْرَحُ (2)

---

1) الديوان 2/ 583 .

2) الديوان 1/ 258 .

فتفجّع الشريف الرضي في شعره الأسري لم يكن من قبيل التصنّع محاولة في اعطاء ابداعه الشعري دفعات من العمق المتكلّف بل أنّه حزن كثيف نابع من ذات الشاعر جراء الانفصام الذي حدث بينه وبين أفراد أسرته بسبب تنافر الطباع وتعارض المصالح والتنافس على المركز .

الحكمة في شعر الشريف الرضي :

لا يمكن عد الشريف الرضي من الحكماء أو الفلاسفة لاعتبارين هما : ورود الحكمة في شعره بنسبة ضئيلة تمثّل 1،96٪ من مجموع شعره ، أمّا ثانيهما فيكمن في انسياب الحكمة بعفويّة تامّة ضمن القصيدة دون أيّ تعقيد فلسفي ، فهي تنبثق داخل القصيدة متلائمة مع موضوعها ومعبّرة عن وجهة نظر الشاعر البسيطة فقوله : (طويل)

إذا قلّ مالُ المَرْءِ قَلّ صَدِيقُهُ ،
وَفارَقَهُ ذاكَ التَحَنّنُ وَالوُدُّ (1)

منتزع من صميم مجتمعه الذي غلبت عليه العادة وقد نتج عن ذاك الشعور عنده جراء احتكاكه بنماذج شتّى من النّاس المتباينة ميولهم وطباعهم. كما قد ترد الحكمة عنده منبثقة من خلاصة تأمله الى نفسه وما يطرأ عليها من تغيير بفعل تعاقب الأيّام ومرور السنين كما في قوله : (رجز)

عُمْرُ الفَتَى شَبابُهُ، وإنّمَا
آوِنَةُ الشّيْبِ انْقِضَاءُ العُمُرِ (2)

---

1) الديوان 1/335 .

2) الديوان 1/476 .

فالشباب والشيب مرحلتان يمرّ بهما من يعمّر من الكائنات وبتدرجهما المرحلي يدرك الانسان النهاية الحتميّة التي من سماتها في الغالب ظهور الشيب في مرحلة من مراحل العمر، ومن خلال قراءتنا في شعر الرضي ندرك مراقبته للتبدّل الذي يطرأ على لون شعره، وهلعه من ذلك التبدّل. يقول في سن الثالثة والعشرين وقد شاهد طاقات الشيب التي غزت رأسه : (سريع)

عَجِلْتَ يَا شَيْبُ عَلى مَفْرِقِي
وأيُّ عُذْرٍ لَكَ أنْ تَعْجَلا
وَكَيْفَ أقْدَمْتَ عَلَى عَارِضٍ
مَا استغرق الشّعْرَ ولا اسْتَكْمَلا (1)

فطبيعي أن ترتبط الحكمة بذلك التبدّل الفجائي في تلك السنّ المبكرة، فقد أحدث ذلك هزّة عنيفة داخل نفسه الرقيقة ممّا جعل معاني الحكمة مرتبطة في أغلب الأحيان بنظرته الى الحياة والمجتمع،وما يكتنفهما من أحداث متناقضة، ومتراوحة بين تشاؤم وتفاؤل ، والحكمة في كلا الموقفين وليدة خواطره التي عادة ما تتسم بالحزن والارتياب والخوف، فلم يستطع التفاؤل أن يغيّر من طبيعتها الحزينة حتّى في مدحه وفخره لأنّه لا يبثها الاّ في سياق الفكرة الحزينة . فقوله : (كامل)

قَدْ عَزّ مَنْ ضَنّتْ يَدَاهُ بِوَجْهِهِ،
إنّ الذّلِيلَ مِنَ الرّجَالِ الطّالِبُ (2)

قد ورد في مقدمة قصيدة مدح في أبيه. ومقدمة قصيدة المدح في أغلب الأحيان تكون ذاتيّة مرتبطة بالشاعر،

---

1) الديوان 2/224 .
2) الديوان 1/85 .

يبثّ من خلالها شكواه أو تذكّره أو حنينه، فهي تعكس رؤيته للحياة أثناء موقف معيّن، ولما كان الشريف أثناء مقدمته الوجدانيّة في موقف هروبي، يحاول من خلاله اثبات فروسيته، بالحنين الى الصحراء بحثاً عن المجد، وعن الأصالة، فقد جاءت الحكمة في سياق مقدمته مناسبة للاباء الذي ملأ عليه نفسه معبّرة عن رفضه للذلّ الذي يُراد فرضه عليه، بوضعه تحت طائلة الاحتياج ليضطرّ الى الاستجداء، فالحكمة على ذلك وان كانت ذات محتوى شمولي يصلح لكلّ النّاس إلاّ أنها خاصّة بالشاعر معبّرة عن ذاته ازاء موقف معيّن، لذا فإنها في شعر الشريف تعبير عن نظرته الخاصّة للحياة لأنها متعلقة باضطراب نفسه الطموحة مصوغة بذاته، ولا يمكن فهم ايحاءاتها المتعلقة بالشاعر إلاّ من خلال ادراجها في السياق الذي وردت فيه فقوله : (طويل)

فَكُلُّ غَرِيبٍ يَألَفُ الهَمَّ قَلْبَهُ
ولاسِيّمَا قَلْبُ الغَرِيبِ المُفَارِقِ (1)

هو خلاصة لتجربة خاصّة بالرضي، عاناها من خلال وصفه لغربته أثناء رحلته لممدوحه، وان كانت هذه الرحلة متخيلة لأنّ الممدوح أبوه، ولكن الغربة التي عبّر عنها لم تكن مصطنعة أو متخيلة كرحلته لأبيه، بل هي وليدة معاناة عاشها الشاعر بسبب مفارقته لأبيه أثناء طفولته، واحساسه بغربته الروحيّة بين أهله وذويه أثناء رحلته في الحياة .

فورود الحكمة ضمن أغراض شعره المختلفة، لم يؤثّر في اندماجها داخل اطار فكرة من أفكار تلك القصيدة

---

1) الديوان 2 / 58 .

خاصّة وأنها لا ترد الاّ في قصائده ذات الوحدة المعنويّة، ولا ترد اطلاقا في قصائده ذات الوحدة العضويّة كمقطوعات الوصف والنسيب وقليل من قصائد الرثاء، لأنّ التحام أجزاء القصيدة في كلّ متكامل البناء لا يتيح له فرصة التعبير عن موقفه التأملي الذي يحدث انفصاما في البناء العضوي للقصيدة، لأنّ ورودها في السياق يحتّم موقفا تأمليا ذاهلا يتيح لها الانسياب، كاشفة نظرة الشاعر الى الحياة بتعبير وجيز، فهي كما أسلفنا عقليّة في مضمونها، ذاتيّة في صياغتها (1) لكونها وليدة معاناته وتجاربه الخاصّة وذلك ما يميّزها بخصوصيات المضمون الشعري الذي ترد في سياقه، فامتزاجها بأسى الشاعر في معظم الأحيان لا يفيّر من طبيعتها فهي في المدح غيرها في الفخر كما أنها تختلف عن كلّ ذلك في الرثاء لأنّ للمضمون دخلا في بلورة محتواها .

أ) الحكمة في شعر المدح :

يغلب على الحكمة الصّادرة في مدح الشريف الرضي ثلاثة أمور :

1- نبذ المادة، كالفخر بالفقر (بسيط)

مَا الفَقْرُ عَارٌ وإنْ كَشَفْتَ عَوْرَتَهُ
وإنّما العارُ مَالٌ غيرُ مَحْمُودِ (2)

الدعوة للبذل والسخاء (طويل)

وَلَيْسَ فتىً مَنْ يَدّعي البأسَ وَحْدَهُ
إذا لَمْ يُعَوِّدْ بَأسَهُ بِسَخَاءِ (3)

---

1) راجع ص 371 من هذا البحث فلقد عرضنا لذلك بالتفصيل .
2) الديوان 1/214 .
3) الديوان 1/11 .

وملاحظتنا على مثل هذه الحكمة المرتبطة بالمال ،أنّها ترد في معظم الأحيان في مقدمة قصيدة المدح ، ممّا يجعلها ذات علاقة وطيدة بالشاعر وبالممدوح لكونه المتلقّي على سبيل الاختيار، ولمّا كان المال من الأساسيات التي يحرص حكّام عصره عليها ، فقد نفى حاجته اليه تلميحا حتّى يطمئنّ ممدوحه أنّه لا يرمي من مدحه الى غاية ماديّة ، وهو ما يعنيه الشاعر بالفعل ، حتّى أنّه يرفض الهدايا التي لا تنسجم مع ما اختطه لنفسه من مبادىء ، فممّا يحكى عنه أنّ صديقا " أهدى اليه رداء فلم يقبله فعتب عليه فكتب (الرضي) اليه"(طويل)

عَقِيدَ العُلى لازِلْتَ تَسْتَعْبِدُ العُلى،
وَتُعْتِقُ مِنْهَا رِقَّ كُلّ أسِيرِ
لَئِنْ خَفّ مِنْ ضَافِي رِدائِكَ عَاتِقِي
فَودُّكَ يَخْطُو فِي رِداءِ قَتِيرِي
سَتَعْلَمُ أنّ الثّوْبَ يَدْثُرُ رَسْمُهُ ،
وَرَسْمُ الهَوَى فِي القَلْبِ غَيْرُ دَثُورِ
فَلا تُشْمِتَنّ الحَاسِدِينَ ، فَسِرُّهُم
يَشِفّ لِظَنّي مِنْ وراءِ أُمُورِ (1)

وعليه فإنّ نبذ المادّة في قصيدة المدح ، يرمي الى غرضين هما : الايحاء للممدوح بأنّ مدحه فيه ليس الاّ لغاية المدح ، ثمّ أنّه يريد أن يبرئ ساحته من أيّ غرض مادّي .

2- ابداء الضيم والسمو بالنفس عمّا يدنسها - كقوله في صون العرض : (كامل)

---

1) الديوان 1/468 والقتير = الشيب .

وَمَا العِرْضُ إلاّ خَيْرُ عُضْوٍ مِنَ الفَتَى
يُصَابُ وأقْوالُ العُداةِ نِبَالُ (1)

أو كقوله في محاولة الانفلات من ربقة الذلّ (طويل)

مَقَامُ الفَتَى عَجْزٌ على ما يَضِيمُهُ،
وَذِلّ الجريءِ القَلْبِ إحدَى العَجَائبِ(2)

أو كقوله في التغرّب صونا للنفس واكرامها (طويل)

وأوْلَى بِلادٍ بالمُقَامِ مِنَ الدُّنَا
بِلادٌ مَتَى يَنْزِلْ بِهَا الحُرُّ يَغْنَمِ(3)

ومكان مثل تلك الحكم مقدمة قصيدة المدح لكونها خلاصة تجربة الشاعر جراء احتكاكه بالحكّام وذوي المراكز العالية الذين يحاولون اذلال النّاس، كلّ حسب مستواه، حفاظا على هيبتهم ببثّ الرعب في النفوس، وتلك طبيعة المجتمع المستبد، اذ يزاول كلّ فرد تسلطه واستبداده حسب تدرجه الطبقي السائد ممّا جعل الرضي يتخذ من أولئك موقفا حذرا في شعره، فعن طريق الحكمة يحاول تلميحا الاشارة الى ابائه وسمو نفسه وأنّ مدحه لأولئك القوم ليس خوفا ولا رهبة أو اذلالا، خاصّة وأنّه لا يساوم في هذا الصّدد اطلاقا وشعره يفيض بمعاني الاباء والشمم وعزّة النفس، يقول ضمن قصيدة في عتاب أبيه وأخيه: (طويل)

خَلِيلَيّ مَا عُودِي لأوّلِ غَامِزٍ
وَلَا زُبدُ وَطْبِي للمُقِيمِ عَلَى مَخْضِ(4)

---

1) الديوان 125/2 .
2) الديوان 89/1 .
3) الديوان 405/2 .
4) الديوان 584/1 والوطب أو الوطاب = سقاء اللبن .

اذ أنّ لمثل تلك الحكمة في مقدمة قصيدة المدح دورها في التعبير عن حقيقة الشاعر تجاه الممدوح .

3- التسامح في غير ضعف والتفكر من عواقب الأمور قبل الاقدام عليها والعمل بما يشرّف النفس ويسمو بها فالرضي يرى أنّ العفو عند الاقتدار من مكارم الأخلاق وإنْ عدّه مجتمعه ضعفا وتفافلا (كامل)

والعَفْوُ مَكْرُمَةٌ فإنْ أغْرَى بِهَا
مُتَفَافِلٌ قَالَ الرِّجَالُ: مُغَفَّلُ (1)

وأنّ من الجديّة أن لا تؤخذ أمور الحياة على علاّتها ، فاللبيب من تفكر قبل اتخاذ القرار (خفيف)

وإذا قَلَّبَ الزَّمَانَ لَبِيْبٌ
أبْصَرَ الجَدَّ حَرْبَ عَقْلٍ وَلُبّ(2)

وملاحظتنا على هذا الضّرب من الحكم أنّه قد يرد في مقدمة قصيدة المدح وقد يرد في المدح ذاته ، لذلك لم يقتصر مضمونه على ذات الشاعر كالنوعين السابقين ، فإذا وردت الحكمة ضمن سياق المدح كما في قوله : (بسيط)

لَوْلَا الكِرَامُ أَصَابَ النَّاسَ كُلَّهُمْ
دَاءُ البعَادِ عَنِ الأَوْطَانِ وَالحِلَلِ (3)

فإنّ المعنى بمضمونها الممدوح الذي وصفه الشاعر بالكرم من خلال تجربته الذاتيّة بعد أن وجد بعض الاستقرار

---

1) الديوان 2/158 .

2) الديوان 1/51 .

3) الديوان 2/128 ، والحلل = الواحدة حلة المجتمع ومكان حلول القوم .

النفسي في كنف شرف الدولة البويهي الذي أعاد لأبيه مجده وعزّه بعد أن أطلق سراحه من سجنه وعاد به الى بغداد معزّزا مكرّما (1). فالحكمة في هذا المجال وان كانت خلاصة لتجربة الرضي ، الاّ أنها أبعد ما تكون عن ذاتيته لكونها صفة من صفات ممدوحه أراد اجلاءها ووضعها في الشكل الذي يليق بصاحبها .ولكنّ ذلك لا يمنع من ورود مثل تلك الحكمة ضمن مقدمة المدح ملتصقة بذات الشاعر لكونها من صفاته التي يفخر بها أمام ممدوحه كما في قوله : (بسيط)

مَنْ يَعْشَقُ العِزَّ لا يَعْنُو لِفَانِيَةٍ
فِي رَوْنَقِ الصَّفْوِ مَا يُغْنِي عَنِ الكَدَرِ(2)

فالقول موجة من الشاعر الى نفسه على سبيل التنبيه الى وعورة طريق ما ترمي اليه من رفعة وعلو، وقد ورد في سياق مقدمته نسيب حزين لقصيدة مدح في أبيه.

وامتزاج الحكمة بذات الشاعر في مقدمة قصيدة المدح يلقي عليها ظلاّ من الحزن الشفاف الذي لا يكاد يلمح الاّ من خلال قراءتها في سياق تلك المقدمة التي عادة ما تكون حزينة ، أو على الأقلّ تتخللها موجات من الحزن المتقطّع لارتباطها بأساه الذي ظلّ يلازمه في معظم مراحل حياته . ونستثني من ذلك حكمته الواردة في سياق المدح لارتباطها بالممدوح ، وتتضمّن معانيها بعضا من صفاته ، ممّا يؤدّي بالشاعر الى الاحتفال بها وصياغتها

---

1) راجع ص 160 من هذا البحث فلقد عرضنا بالتفصيل الى علاقات الشريف بشرف الدولة .

2) الديوان 1/458 .

بأسلوب تنم عباراته عن الزهو الذي يريد الشاعر أن يبثّه في نفس ممدوحه ممّا يجعل الصنعة بادية عليها لكون ورودها في السياق تفرضه مناسبة المدح ولا يأتي طواعية من نفس الشاعر .

ب) الحكمة في شعر الفخر :

يندر انبثاق الحكمة داخل شعر الفخر لتعارض طبيعتها الهادئة مع طبيعة الفخر في هديره. صحيح أنّ الذات هي منبع كلا الغرضين ، ولكن توترها وتدفّق حماسها في حالة الفخر ، يحول بينها وبين التأمّل والاستبطان ، لأنّ العبارات ضمن الحكمة سكونيّة ، بعكس عبارات الفخر فإنها تتميّز بالحماس، كما أنّ الحكمة تصدر في الشعر - في أكثر حالاتها - ممتزجة بتبرّم النفس أو تأسّيها من خلال تجربة حادّة عاشها الشاعر أثناء تعامله مع نمط معيّن من النّاس في وسطه الاجتماعي وعلى هذا الأساس فإننا لن نحظى الاّ بالنزر القليل من الحكم ضمن فخر الشريف الرضي ؛ أمّا في حالة ورودها فلا تكون متولّدة الاّ من تعارض ميوله وطباعه مع الطباع السائدة في مجتمعه ، ممّا يجعلها تحمل في طياتها نوعا من التبرّم الحزين كما في قوله: (كامل)

عَادَاتُ هذا النّاسِ ذَمٌّ مُفَضَّلٌ
وَهَلامُ مِقْدَامٍ، وَعَذْلُ جَوَادِ (1)

فالسبب في ظهور ذلك القول الحكمي ضمن فخره، هو جزعه من تزعزع بعض القيم الخلقيّة في نفوس أبناء مجتمعه ، فصفات الفضل والاقدام والجود التي يلام الانسان بسببها ويذم عليها - كما هو وارد ضمن الحكمة - هي من الصفات

---

1) الديوان 1 / 337 .

التي أسبغها الشاعر على نفسه بطريق غير مباشر من خلال الفخر، وعابه النّاس بسبب تمسكه بها، فالحكمة على هذا الأساس فخر ضمني يفهم من السياق، فموقفه الحزين من عناد الزمان ضمن الاستفهام الانكاري في قوله : (كامل)

مَا للزّمانِ يَذُودُنِي عَنْ مَطْلَبِي
وَيُرِيغُنِي عَنْ طَارِفِي وَتِلَادِي
يَحْنُو عَليّ إذا أقَمْتُ كَأَنّنِي الـ
أسْرَارُ فِي أَحْشَاءِ كلّ بِلَادِ (1)

جعله مهزوما تجاه مصارعة الزمان لكونه مفعولا والزمان فاعلا، وقد سببت له هزيمته تلك تفجعا عميقا حملته الكلمة الشعريّة في ثناياها، فكان ذلك سببا في التأمّل والاستبطان الذاتي الذي أدّى الى انبثاق الحكمة السابقة على البيتين المذكورين كخلاصة لما توصلت اليه نفسه من حقيقة لم يستطع ادراكها إلاّ بعد أن ذاق مرارتها بمعايشته لمجتمعه، فمعاشرة النّاس فتحت عينه على الكثير من عيوبهم كما في قوله : (طويل)

إذا قَلّ مَالُ المَرْءِ قَلّ صَدِيقُهُ
وَفَارَقَهُ ذَاكَ التَحَنّنُ وَالوُدّ (2)

فهو من خلال ذلك القول الحكمي يفخر ضمنا بأنّ صداقته لا تقوم على الاطماع الماديّة، فالفقر لا يغت من عضدها ولا يغتر من حرارتها لأنّه يرى (وافر)

وَبَعْضُ العُدْمِ مَأثَرَةٌ وَفَخْرٌ
وَبَعْضُ المَالِ مَنْقَصَةٌ وَعَابُ (3)

---

1) الديوان 1/337 .
2) الديوان 1/335 .
3) الديوان 1/125 .

ج) الحكمة في شعر شكوى الزمان :

عنصر شكوى الزمان من العناصر المنتشرة في شعر الشريف (1) ضمن موضوع الفخر في غالب الأحيان ، ممّا يجعلنا نعتقد بأنّه نتيجة طبيعيّة متولّدة من اخفاق الشاعر في المواءمة بين طموحه في تحقيق ما يرمي اليه من أهداف وبين ما يفرضه عليه واقعه من خنوع واستكانة تأباهما نفسه ، فتكون الشكوى عبارة عن رثاء للنفس وتبرّم مرّ من الأيّام كما في قوله : (بسيط)

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ ، وَالأَيّامُ عَالِمَةٌ ،
أَنّ اللّيَالِي تُقَاعِيْنِي لِتَنْهَشَنِي
قَدْ أَدْمَجَ الهَمُّ فِي عُنْقِي حَبَائِلَهُ ،
وَلَزّةُ الهَمّ تُنْسِي لَزّةَ القَرَنِ (2)

وكثرة شكواه جعلته ينظر الى مجتمعه نظرة الحذر المرتاب المتأمّل في نفسه وفيما حوله ، فأدّى ذلك الى ظهور الحكمة متشبعة بأسى نفسه حاملة في طياتها ارتيابه وهلعه ممّا جعله تارة مسالما خانعا (كامل)

سَالِمْ تَصَارِيْفَ الزّمَانِ ، فَمَن يَرُمْ
حَرْبَ الزّمَانِ يَعُدْ قَلِيْلَ النّاصِرِ (3)

وتارة أخرى متشكّكا مرتابا (طويل)

---

1) عرضنا لعدد أبيات شكوى الزمان في ديوان الرضي ، في جدول المضامين ص 336 من هذا البحث وكثيرا ما يمزج الرضي الفخر بشكوى الزمان من ذلك ما ورد في الديوان 2/ 381 ، 394 ، 408 ، 423 ، 429 .

2) الديوان 2/ 543 ، وتقاعيني = تجالسني ، اللز = الضيق .

3) الديوان 1/ 480 .

وَمَا وَاثِقٌ بِالدَّهْرِ إلاّ كَرَاقِدٍ
عَلَى فَضْلِ ثَوْبِ الظِلِّ وَالظِلُّ يُسْرِعُ (1)

وتارة ثالثة عزيزا أبيّا لا يرضى الذلّ ولا يركن للضيم، ومثل هذه المعاني الحكميّة في شكوى الزمان كثيرة، وممّا قاله معتمدا على حذف فعل الأمر (اسْتَبْدِلْ) : (بسيط)

لا تَخْلُدَنّ إلى أَرْضٍ تَهُونُ بِهَا
بِالدَّارِ دَارٌ، وَبِالجِيْرَانِ جِيْرَانُ (2)

ومن الملاحظ أنّ كلّ المعاني السابقة، وما يمتّ اليها بصلة: من الجهاد في طلب العيش والتصبّر في عواقب الأمور الى غير ذلك من نظرات تأمليّة، هي افرازات لمعاناة عميقة عاشها الرضي بسبب طموحاته التي تعذّر عليه تحقيقها، فأدّت الى خيبة الأمل التي مني بها في مجتمعه، وقد تركت تلك الخيبة أثرا واضحا على الحكمة ضمن شعر الصديق والصداقة .

د) الحكمة في شعر الصداقة والصديق :

ترتفع نسبة الحكمة في شعر الصداقة عند الشريف خاصّة في مجال العتاب، فتقوم مقام التصريح الجارح الذي تنفر منه النفس، من ذلك قوله ضمن أبيات في الصفح عن صديق أغضبه : (طويل)

وَمَنْ قَيّدَ الأَلْفَاظَ عِنْدَ نِزَاعِهَا
بِقَيدِ النُّهَى أَغْنَتْهُ عَنْ طَلَبِ العُذْرِ (3)

---

1) الديوان 1/ 667 .
2) الديوان 2/ 449 .
3) الديوان 1/ 51 .

فيستشف من الحكمة السابقة أنّ سبب غضب الرضي من صديقه هو عدم قدرته على التحكّم في أقواله، ومن ذلك أيضا قوله ضمن عتابه لصديق قد اغتيب في داره : (كامل)

وإذا الحَلِيْمُ رَمَى بِسِرّ صَدِيقِهِ
عَمْدًا، فَأَوْلَى بِالوِدادِ الأَحْمَقُ (1)

فكأنّه في فورة غضبه تلك يتهم ذاك الصديق بالحمق لأنّه سمح لنفسه أن يغتاب الصديق في داره وعلى مسمع منه .

ومن ذلك أيضا قوله ضمن عتابه لصديق حاول قطيعته : (بسيط)

مَنْ أَضْمَرَ الصّدَ عَمّنْ لَيْسَ يُضْمِرُهُ
بَغْيًا، مَشَى فِي نَوَاحِي سِرّهِ النّدَمُ (2)

فالبيت يتضمّن تحذيرا لذلك الصديق بسبب تعاديه في صدود لا مبرر له .

فارتباط الحكمة في مجال الصداقة بالعتاب، أسبغ على تعابيرها نوعا من الاكتئاب وعلى ألفاظها مسحة من التبرّم (كالصدّ، والبغي، والندم، والاعتذار، والحمق، وسر الصديق) الى غير ذلك من تعابير وألفاظ حزينة منسجمة تماما مع موضوع العتاب الذي هو نوع من الحزن المتولّد من انفصام رابطة الصداقة .

---

1) الديوان 2 / 83 .

2) الديوان 2 / 393 .

هـ) الحكمة في شعر الرثاء :

الرثاء هو الميدان الواسع الذي تنطلق فيه الحكمة في شعر الشريف، فقضيّة الموت التي طالما شغلت نفسه وأججت عواطفه، جعلته ينظر فيما حوله نظرة مشبعة بالأسى العميق، فإحساسه بالحزن العميق اثر وفاة أمّه صوّره قوله : (كامل)

وَتَفَرُّقُ البُعَدَاءِ بَعْدَ مَوَدَّةٍ
صَعْبٌ، فَكَيْفَ تَفَرُّقُ القُرَبَاءِ (1) ..

وهو خلاصة لنتيجة اللقاء والفراق اللذين طالما عانى الشاعر منهما في رثائه الأحبّة والاخوان والأصدقاء .

ونظرة الشاعر الى الطبيعة حوله بعين الحزن والاكتئاب أثناء الرثاء، ولّدت في شعره نوعا من الحكمة التي تتضمّن صورا لبعض ظواهر الطبيعة في حالة اكتئابها كقوله في تشبيه الفناء بالغصن الذابل : (خفيف)

غَايَةُ النّاسِ في الزّمَانِ فَنَاءٌ
وَكَذَا غَايَةُ الغُصُونِ الذّبُولُ (2)

أو تشبيه حقيقة الحياة بالظلّ الزائل (طويل)

وَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيَا بِعَيْنِ حَقِيْقَةٍ
دَرَى أنّ ظِلاًّ لَمْ يَزُلْ سَيَزُولُ (3)

فالعيش في نظر الشريف ركام من المتناقضات يجمعها قوله : (طويل)

---

1) الديوان 1 / 27 .
2) الديوان 2 / 187 .
3) الديوان 2 / 191 .

وَمَا العَيْشُ إلاّ غُمَّةٌ وارْتِيَاحَةٌ،
وَمُفْتَرَقٌ بَعْدَ الدّنُوِّ وَمُلْتَقَى (1)

لذا يجب أن يكون الانسان واقعيّا، ينظر الى حتميّة الموت بعين العقل، ويواجهه بالصبر والتعقّل (طويل)

إذَا لَمْ يَكُنْ عَقْلُ الفَتَى عَوْنَ صَبْرِهِ
فَلَيْسَ إلى حُسْنِ العَزَاءِ سَبِيْلُ (2)

ويرتبط ورود الحكمة ضمن رثاء الرضي، بحالته النفسيّة، وشدّة حزنه أثناء الرثاء، فكلما كان الرثاء متأجّجا حارّا قلّت أبيات الحكمة ضمن ذلك الرثاء، لتسلّط العاطفة على الهمام الشاعر أثناء العمليّة الابداعيّة، فيؤدّي به ذلك الى الاسترسال في النواح والعويل ممّا يحول بينه وبين التأمّل الذي هو العنصر الرئيسي لانبثاق الحكمة في الشعر. ففي قصيدته الهمزيّة التي رثى بها أمّه - وهي من أكثر مرثياته تفجّعا - لم تظهر أبيات الحكمة الاّ بعد البيت السابع عشر، أي بعد أن استنفد طاقته، فعاد الشاعر الى عتاب الزمان والتشكّي منه في قوله : (كامل)

وَجَرَى الزّمَانُ عَلَى عَوائِدِ كَيْدِهِ
فِي قَلْبِ آمَالِي، وَعَكْسِ رجائي
قد كنت آمل أن أكون لك الفدا
ممّا ألمّ، فكنت أنت فدائي (3)

ثمّ أردف ذلك بأربع حكم متتالية بالعطف بالواو، في محاولة لتعزية النفس والتأمّل في الوجود، وتختفي الحكمة بعد ذلك في بقية الرثاء، لمعاودة الحزن في محاصرة الشاعر

---

1) الديوان 2/71 .
2) الديوان 2/192 .
3) الديوان 1/27 .

داخل معاني التذكّر من خلال ما خلفته الفقيدة من آثار حسنة وايادٍ بيضاء عليه .

ويمكن ملاحظة اختفاء الحكمة أيضا في رثائه الفوري الصّادر عن بديهة، لما يكتنفه من فجائيّة لا تتيح للشاعر التأمّل، كما في رثائه لصديقه البتّي (1)، أو في مقطوعات الرثاء القصيرة التي تفتقر الى النظرة التأمليّة بسبب تركيز الشاعر فيها على الرثاء المحض المجسّد للحزن في صوره التفجّعيّة العميقة (2).

فظاهرة الشعر الحكمي وارتباطها بالحزن في شعر الشريف، هي نتيجة طبيعيّة للتعبير عن خيبة الأمل والاخفاق في مجتمع طغت فيه المادة، وتعالت في أرجائه أصوات البطش حتّى صار امتهان الفرد ومصادرة ممتلكاته من الأمور العاديّة التي يمارسها الحكّام، بحيث لم يعد شاعرنا يأبى على نفسه حقد الأقارب أو مكر الأصدقاء بعد أن خالطهم واطّلع على خائنة نفوسهم، فكانت الحكمة خلاصة لتجربة مرّة سحبت أساها على بقيّة أغراض شعره خاصّة الرثاء .

---

1) راجع الديوان 1 / 170 .

2) في هذا الصدد راجع رثاءه في صديق 1/168 ورثاءه في صديق آخر 1/168 ورثاءه في زوجته 1/169. فالقصائد الثلاث خالية تماما من الحكمة .

الفصل الرابع

المرأة وأثرها في تفجّع الشريف الرضي

مكانة المرأة في شعر الشريف الرضي :

تحتلّ المرأة مكانة عالية في نفس الشريف الرضي وشعره، فلقد تطرّق اليها كأمّ وأخت وزوجة وحبيبة، فيقدّر ما قاله فيها من نسيب وغزل خالصين سبعمئة وأربعة وتسعون بيتا (1) أى بنسبة 4،9 ٪ من مجموع شعره تقريبا، وإذا ما أضفنا رثاءه في النساء، ويقارب أربعمئة وواحدا وثلاثين بيتا، فإنّ نسبة ما قاله في المرأة من شعر سترتفع الى 7،57 ٪ تقريبا من مجموع شعره، هذا عدا المقدمات الطلليّة المتضمنة بعضا من الغزل، بالاضافة الى قصائد الفخر الممزوجة بالغزل، وثراء التجربة بذلك العدد الضخم من الأبيات في المرأة له من الدلالات ما يحملنا على دراسة علاقة ذلك بتفجّعه في الاطار المحدّد برثائه ونسيبه، وهذا يقتضي تناول دراسة علاقته بالمرأة من النواحي التالية :

أ) مكانة المرأة كأمّ (2) :

رثى الشريف الرضي أمّه بقصيدة بلغ عدد أبياتها ثمانية وستين بيتا، هي من أروع ما قيل في رثاء الأمهات (3) في الشعر العربي، والقصيدة هي النصّ الوحيد

---

1) راجع جدول المضامين ص 336 من هذا البحث.

2) عرضنا الى علاقة الشاعر بأمّه بالتفصيل في ص 216 وما بعدها من هذا البحث.

3) عرضنا لدراسة المرثية في ص 563 وما بعدها من هذا البحث.

الذي يمكننا التعويل عليه في معرفة مكانتها في نفس الشاعر، فمن أبياتها التي تدلّ على عظم منزلتها في نفسه قوله : (كامل)

لَوْ كَانَ مِثْلَكِ كُلُّ أُمِّ بَـرَّةٍ
غَنِيَ البَنُونَ بِهَا عَنِ الآبَاءِ (1)

بدلالة اعتبارها - بالاضافة الى دورها كأمّ - بمثابة أبيه خاصّة أثناء المحنة التي عاشتها الأسرة خلال السنوات التي قضاها الأب بعيدا عنهم في منفاه بفارس، فارتباطه المتين بها جعل وطأة فقدها ثقيلة على نفسه، فقد تسبّب له ذلك الرزء في أسى ظلّ يلازمه كلّما تذكّر العلاقة الروحيّة التي تربطه بها (كامل)

كَانَ ارْتِكَاظِي فِي حَشَاكِ مُسَبِّباً
رَكْضَ الغَلِيلِ عَلَيْكِ فِي أَحْشَائِي (2)

فحبّه لها وبرّه بها جعل فقدها بمثابة الظمأ الذي بقي معاودا لنفسه كلّما تذكّر ما تجشمته من عناء في سبيل بقائه وسعادته، وقد انعكس ذلك الحبّ الزاخر بفيض من عواطفه الرقيقة على علاقته بمن خلّفت تلك الأم العظيمة من أخوات يرى فيهنّ الشريف الرضي صورة منها في طباعهنّ ودماثة خلقهنّ .

ب) المرأة كأخت في شعر الشريف الرضي :

لا نعرف للنقيب أبي أحمد الموسوي سوى ولدين وبنتين ذكرهم الخوانساري بقوله " ولد أبو أحمد زينب

---

1) الديوان 1 / 27 .
2) الديوان 1 / 30 .

وعليّاً ومحمّداً وخديجة " (1) وقد رثى الرضي احدى الأختين (2) بقصيدة بائيّة - سبق ذكرها-(3) ضمنها صادق مشاعره وعظيم حزنه منها : (مجتث)

إنْ كَانَ لِلشّخْصِ بُعْدٌ فَلِلْعَلائِقِ قُرْبُ
أَغُبّةً، وَبِرُغْمِي إنّ الزّيَارَةَ غِبّ
لَئِنْ خَلا مِنْكِ طَرْفٌ لَقَدْ مُلِي مِنْكِ قَلْبُ
وإنْ غَرَبْتِ فَلِلطّا لِعَاتِ شَرْقٌ وَغَرْبُ (4)

---

1) روضات الجنّات 1/ 377 .

2) لا شكّ أنّ التي رثاها الشريف الرضي من الاختين هي الصغرى المسمّاة " خديجة " لأنّ ترتيب الخوانساري للأبناء يدلّ على أنّ أكبر أبناء أبي أحمد الموسوي هي " زينب" ويأتي بعدها في المرتبة الثانية الشريف المرتضى " علي" ثم الرضي " محمّد " ثم " خديجة " علما بأنّ للشريف المرتضى مرثيتين في أختيه الأولى " قافيّة " من الطويل اشتملت على واحد وعشرين بيتا لم يؤرّخ لها ديوان المرتضى 3/309. وأعتقد أنها في نفس الأخت التي رثاها الرضي ، أمّا المرثية الثانية " ميميّة " من الكامل بلغت اثنين وستين بيتا وهي بالتأكيد في أخته الكبرى " زينب" ، فقد علّق عليها ناسخ الديوان بقوله " وقال يرثي أختا له اسنت فبلغت من العمر نيفا وتسعين سنة وكانت وفاتها في أواخر شعبان من سنة 419 " - ديوان المرتضى 3/186 ، فالأخت التي رثاها الرضي هي الصغرى التي توفيت في سنّ مبكّرة .

3) راجع ص 576 من هذا البحث .

4) الديوان 1/163 ، 164 .

فوفاة تلك الأخت، وغياب صورتها لم يحل دون تذكرها والحنين اليها ، فمحياها منحوت في نفسه ، وبعد الشقة بين سكنه وبين قبرها زاد من لواعج ذلك الحنين (1) ، فهي التي طالما نعم باللعب معها والتحدّث اليها ، فذكرياته معها مرتبطة بجميع مراحل حياته ، خاصّة وأنها أصغر أفراد أسرته ، ممّا يجعلها موضع حبّ ورعاية الجميع ، فحبّه لها ، وشوقه عبّرت عنهما المطابقة في البيت الثالث في قوله " خلا منك طرف .... ملي منك قلب " ، ورثاؤه لأخته - في حدّ ذاته - تعبير صادق عن حبّه لها ومكانتها في نفسه ، لأنّ رثاء الشعراء لأخواتهم وبناتهم من النّادر القليل في الشعر العربي القديم (2) .

ج) مكانة المرأة كزوجة في شعر الشريف الرضي :

يمكن ادراك مكانة المرأة كزوجة في شعر الرضي من خلال رثائه لزوجته ، فقد بلغ ذلك الرثاء ثمانية وثلاثين

---

1) لأنّ الشاعر يسكن في الكرخ احدى ضواحي بغداد وقد دفنت أخته تلك في مشهد الامام الحسين - راجع تعليق ناسخ الديوان على المرثية - الديوان 1/159 .

2) اعتمدت في استنتاجي ذاك على بعض الاحصائيات في نماذج من الشعر العربي القديم فقد ورد عند أبي تمام في حماسته بباب المراثي مئة وسبعة وثلاثون شاهدا بلغت خمسمئة وسبعة وتسعين بيت رثاء لم يرد ضمنها ولا بيت واحد في رثاء أخ لأخته أو أب لابنته ، كما استشهد ابن عبد ربّه في الجزء الثالث من " العقد الفريد " بثمان مئة وستّة وسبعين بيتا في الرثاء لم يورد ضمنها شاهدا واحدا في رثاء شاعر لاخته أو لابنته ، وفي ذلك دلالة على ندرة رثاء الأخوات والبنات في الشعر العربي .

بيتا ضمن قصيدة ومقطوعتين (1)، وقد حملت تلك الأبيات أسمى معاني الود الممزوج بالأسى واللوعة، فحزنه على فقدها أعظم من أن يكبت (متقارب)

وَيأبَى الجَوَى أنْ أُسِرّ الجَوَى،
إذا مُلِئَ القَلْبُ فَاضَ اللّسَانُ (2)

فليس ثمّة سبيل الى حبس الأحزان التي تأبى الاّ أن تذيع ما في القلب من اضطرام يحاول الشاعر اخماده بالتجلّد والتصبّر فيظهر في شكل فلتات ملتهبة، فلا مجال للنصح براحة القلب واطمئنان النفس بعد أن وارى التّراب من هو أعزّ على النفس من النفس (طويل)

وَقالُوا : أَرِحْ قَرْحَ الفُؤادِ، وإنّما
أَحَبّ فُؤادَيّ انْطَوَى دُونَهُ البُرَى (3)

فالمتوفّاة أحبّ اليه من روحه، وقد تمثّل اخلاصه لها، أن ظلّ وفيّا لعهدها حتّى بعد مماتها، فلم تخبرنا سيرته بأنّه فكّر في الزواج من غيرها، فبقي أرملا الى أن وافته المنيّة بعد وفاتها (4) بسبع سنين تقريبا .

د) مكانة المرأة كحبيبة في شعر الشريف الرضي :

الغزل العذري من المضامين الشعريّة التي اهتمّ الرضي بها، وأكسبته شهرة واسعة، فقد طار صيت

---

1) راجع الديوان 1/169 ، 507 ، 2/473 .

2) الديوان 2/ 473 .

3) الديوان 1/508 والبرى بضم الباء = التراب .

4) راجع علاقة الشريف بزوجته ص 225 وما بعدها من هذا البحث فقد فصلنا القول في ذلك .

حجازياته في الآفاق حتّى عدت " من فرائد الشعر العربي .... والشريف في هذه القصائد من فحول الابتكار والابداع، فهو لم يكرّر ما سبق اليه الشعراء "(1). اضافة الى قصائد الغزل ومقطوعاته التي كانت تزخر بعاطفة الحبّ، هذا عدا المقدمات الغزليّة التي استهلّ بها الكثير من قصائد المدح والفخر، فقد استوعب كلّ ذلك مساحة واسعة من ديوان شعره، وهو ما يجعل الباحث في حيرة، فحرارة العاطفة التي تسرى في ذلك الغزل تؤكّد عشق الشاعر وهيامه ممّا يتعارض ومكانته الدينيّة ومركزه الاجتماعي .

لم يتعرّض القدامى ممّن ترجموا له الى علاقته بالمرأة رغم اشادتهم بشاعريته في مجال النسيب، من ذلك قول الباخرزى " اذا نسب انتسبت الرقّة الى نسيبه، وفاز بالقدح المعلّى من نصيبه حتّى لو أنشد الراوى غزلياته بين يدى العزهاة لقال له من العزّ هات" (2). أمّا أولئك الذين تعرّضوا لدراسة غزله من المحدثين، فقد وقفوا من علاقته بالمرأة كحبيبة مواقف متباينة . فبينما يقول عبد الحسين الحلي عنه " أنّه لم ينظّم ذلك الاّ للفن خالصا، ونحن نعلم بأنّه لم يرقص قلبه يوما لموعد وصل، ولم تنكمد نفسه لوشك رحيل"(3). نرى زكي مبارك يقف من غراميات الرضي موقف الحائر، فتارة يجعلها عاطفة مشبوبة ليس لها مكان سوى صدر الشاعر لأنّ مكانته

---

1) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي 2/124 .

2) دمية القصر 1/288 والعزهاة = المسن الذي لا يطرب ولا يصبو .

3) حياة الشريف الرضي ص 90 .

الاجتماعيّة " لا تسمح لرجل مثله أن يخاطر بمركزه الأدبي والديني في سبيل الوجد والصبابة " (1) ، الاّ أنّه يعود ثانية فيجعل للهو الشريف وحبّه أماكن معينة يحاول اخفاءها " فهو يذكر مواضع ومنازل لا يعنيها بالذات، وانما يجعلها حجازا بينه وبين الواشين ممّن يسوءهم أن يصرح بمواقع هواه في الكرخ وبغداد " (2). وهناك باحث ثالث يرى أنّ الرضي " لم يستطع أن يقول في حجازياته كلّ شيء ، كما لم يستطع أن يفعل في سائر الغزل والنسيب عنده، فشرفه ومكانته من أهل بيته ومركزه الديني وتولّيه نقابة الطالبيين كانت من معوقات الانطلاق في الغزل عنده " (3) اذ يفهم ضمنا من المقولة السابقة أنّ للشريف علاقات غراميّة لم يتمكّن من البوح بها أو الاعلان عنها .

ونحن لا نوافق ذلك الباحث على مقولته تلك، فلقد بثّ الرضي في حجازياته وسائر غزله كل ما ورد في نفسه من أحاسيس صادقة تجاه المرأة، فتغنّى بجمالها ، كما صوّر شوقه اليها ، ممّا ميّز غرامياته بتصوير حرقة الحبّ ولوعته بسبب تمنّع الحبيب وصدّه، بجانب ما اكتسى به ذلك الغزل من عفّة وطهارة ونقاء .

ونستبعد أيضا قول عبد الحسين الحلّي بشأن ما ورد من نسيب وغزل في شعر الشريف، لأنّ ذلك القول لا يتفق وطبيعة الانسان فالشريف ليس صخرا حتّى لا يخفق

---

1) عبقرية الشريف الرضي 2 / 90 .

2) السابق 2 / 103 .

3) محمد عبد الغني حسن ـ الشريف الرضي ص 73 .

قلبه للحب، فقبل أن يكون رجل دين فهو انسان له مشاعر وأحاسيس لا يمكنه كبتها، وهل يعقل أن لا يخفق للحب قلب من يقول : (كامل)

وَمُقَبِّلٍ كَفّي وَدَدْتُ بِأَنَّهُ
أَوْمَى إلى شَفَتَيَّ بِالتَّقْبِيلِ (1)

فالبيت مرتبط ارتباطا تامّا بمكانة الشريف الدينيّة، فالمرأة التي قبلت كفّه تبركا، لها من الجمال ما أدّى به للتمنّي لو أنّ قبلتها تلك انطبعت على شفتيه بدلا من يده، فقد يكون ذلك من باب التمنّي، ولكنّه واقعا خفق له قلبه وتمنّاه وباح به في شعره وان لم يتمكّن من تحقيقه. اضافة الى ذلك فإنّه ليس المفروض فيمن يحبّ حبّا عفّا أن ينادم الغواني أو يسامر الظرفاء (2)، فقول الشريف: (بسيط)

أَنْتِ النَّعِيمُ لِقَلْبِي وَالعَذَابُ لَهُ،
فَمَا أَمَرُّكِ فِي قَلْبِي وَأَحْلَاكِ (3)

هو تعبير صادق عن المنزلة الرفيعة التي تحتلها المرأة من نفسه فهي ليست من الجواري المبتذلات اللواتي يتغنّى معظم شعراء القرن الرابع بحسنهنّ، ووصفهنّ وصفا حسيّا أثناء طوافهنّ بالشراب في وسط مجالس الأنس، فهي نعيم في جمالها وحسنها وعذاب في بعدها وصدها وتمنعها مرّة في معاملتها حلوة في شمائلها .

---

1) الديوان 2 / 223 .

2) ذلك رد على مقولة عبد الحسين الحلّي : أنّ الشريف " لم ينادم غانية، ولم يكن حتّى في ابّان شبيبته يسامر الظرفاء الذين يغازلون ويتغزّلون " .

3) الديوان 2 / 107 .

أمّا زكي مبارك فيمكن قبول رأيه مع بعض التحفظات، فلا يمكن لانسان لم يخفق قلبه للحبّ أن يقول : (طويل)

أَقُولُ وَقَدْ أَرْسَلْتُ أَوَّلَ نَظْرَةٍ
وَلَمْ أَرَ مَنْ أَهْوَى قَرِيبًا إِلَى جَنْبِي
لَئِنْ كُنْتُ أَخْلَيْتُ المَكَانَ الذي أرى،
فَهَيْهَاتَ أَنْ يَخْلُو مَكَانُك مِنْ قَلْبِي
وَكُنْتُ أَظُنُّ الشَّوْقَ للبُعْدِ وَحْدَهُ
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الشَّوْقَ للبُعْدِ وَالقُرْبِ (1)

فقول الشاعر موجة الى حبيب غائب، طفر على لسانه بعد أن برّحه الحنين وأضرم فؤاده الشّوق ، ولولم يذق طعم الفراق لما تمكّن من التعبير عنه بتلك الصّورة التحسّريّة التي انطوت على الحزن العميق ، . فحبّ الشريف، وان كان متوقّدا يملأ عليه كلّ احساساته ، الاّ أنّه مقهور كبته الشاعر بكلّ قوته حتّى ينأى بنفسه عن القيل والقال الذي قد يودّي بمكانته ويحطّ من قدره في مجتمع يعد على أمثاله من الشخصيات أنفاسهم ويتصيّد لهم السقطات، لذا فإنّ حبّه المقبور في صدره لم يتح له بأن يخصّص لنفسه أماكن يلتقي فيها بمن يحب، فالأماكن التي ترددت كثيرا في نسيب الرضي وحجازياته لم تكن حجازا عن أماكن في الكرخ وبغداد (2) كما زعم زكي مبارك وانما هي أماكن حقيقيّة ، قد يكون الشاعر مرّ بها أثناء حجّه فارتبطت بشوقه المتأجّج الذي مات مع الشاعر كموت بقيّة آماله وطموحاته التي لم يبق منها سوى ذلك الشعر الملتهب بالعواطف الصّادقة ، فاصرار الرضي على العفّة

---

1) الديوان 1 / 171 .

2) ذلك رد على ما جاء في مقولة زكي مبارك التي وردت في ص792 من هذا البحث .

والطهارة حتّى في غزله الحسّي هو تأكيد على نقاء سريرته ازاء من يحبّ، وتزكية لنفسه عن كلّ ريبة، ممّا يحمل على القول أنّ الشاعر لم يرتكب محرما فقوله : (بسيط)

بِتْنَا ضَجِيعَينِ في ثَوْبَيْ هَوىً وَتُقًى،
يَلُفُّنَا الشَّوْقُ مِنْ فَرْعٍ إلى قَدَمِ (1)

قد لا يتسق مع ما نحن بصدده من تبرئته ممّا اتّهم نفسه به ، ولكن الذي يحدونا الى تبرئته اعتقادنا أنّ ذلك اللقاء لم يحدث، إنما هو توق يخفق له قلبه، وثمن يعالجه بالقول ، فبيات الرجل مع امرأة ومضاجعتها ينفي التقى ، فكيف تتساوق العفّة مع القبل في قوله : (بسيط)

وَبَاتَ بَارِقُ ذَاكَ الثَّغْرُ يُوضِحُ لِيْ
مَوَاقِعَ اللَّثْمِ في دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ(2)

فذلك يتنافى تماما مع ما يتحلّى به الشريف من أخلاق اسلاميّة لذا فالمعتقد في هذا الصدد أنّ غزل الشريف ينقسم الى قسمين :

الأول : هو الحسّي منه ويمثّل نسبة ضئيلة من غزله وعادة ما يعمد فيه الشاعر الى التذكّر، اثر مقابلة غراميّة عاشها كما في قوله : (كامل)

يَا صَاحِبَ القَلْبِ الصَّحِيحِ أَمَا اشْتَقَى
أَلَمُ الجَوَى مِنْ قَلْبِيَ المَصْدُوعِ
قَلْبِي وَطَرْفِي مِنْكَ : هَذا فِي حِمَى
قَيْظٍ، وَهَذا فِي رِياضِ رَبِيعِ

---

1) الديوان 2 / 274 .
2) الديوان 2 / 274 .

مَا كَانَ إلاّ قُبْلَةُ التَسْلِيمِ أرْ
دَفَهَا الفِرَاقُ بِخَمّةِ التَوْدِيعِ
كَمَدِي قَدِيمٌ فِي هَوَاكَ، وإنّمَا
تَارِيخُ وَصْلِكَ كَانَ مُنْذُ أُسْبُوعِ (1)

والشريف في مثل هذا الشعر لا يعبّر عن ذاته لأنّه يورد تلك المعاني على سبيل التفكّه ومجاراة شعراء عصره، وان لم يبلغ مبلغهم في التهتّك والافتضاح، فهذا الضّرب من الغزل الحسّي لا يتفق أصلا وما رأينا في شخصه من حزم (2)، مع ملاحظة أنّ كلّ ما قاله من وصف - وهو نادر جدّا - في غلام أعجمي أو مجلس خمر (3) كان بطلب من بعض أصدقائه على سبيل التفكّه. ورغم حسّية مثل ذلك الغزل الاّ أنّ رنّة الحزن لا تبارحه كما في قوله: (بسيط)

وَرُبّ لَيْلٍ مَنَعْنَا مِنْ أوَائِلِهِ
إلى الصّبَاحِ جَوَازَ النّوْمِ بِالمُقَلِ
بِتْنَا ضَجِيعَيْنِ فِي ثَوْبِ الظّلامِ كَمَا
لَفَّ الغُصَيْنَيْنِ مَرُّ الرّيحِ بِالأُصُلِ
طَوْراً عِنَاقاً كأنّ القَلْبَ عَنْ كَثَبٍ
يَشْكُو إلى القَلْبِ مَا فِيهِ مِنَ الغُلَلِ
وَتَارَةً رَشَفَاتٍ لا انْقِضَاءَ لَهَا
شُرْبُ النّزِيفِ طَوَى عَلاّ عَلَى نَهَلِ
وَكَمْ سَرَقْنَا على الأيّامِ مِنْ قُبَلٍ
خَوْفَ الرّقِيبِ كَشُربِ الطّائِرِ الوَجِلِ (4)

---

1) الديوان 1/652.
2) بصدد حزم الشريف الرضي راجع 232 من هذا البحث.
3) عن قوله في غلام أعجمي راجع الديوان 2/273، أمّا عن وصف مجلس خمر فراجع الديوان 1/393.
4) الديوان 2/222.

فتصور الأبيات ليال قضاها الشاعر في كنف الحبيب قد سترهما الظلام بين عناق وقبل ، تتشاكى فيها القلوب ما تعانيه من عطش وشوق ، فالعناق لا يكاد ينتهي والقبل لا تكاد تحد وكأنّ روحيهما العطشانتين قد بلغتا ورد الماء فأخذتا تنهلان دونما توقّف طلبا في الارتواء ، وقد تخلّل أيّام الحب السعيدة تلك فترات لقاء قصيرة كانت القبل خلالها سريعة قصيرة وجلة ، مثلهما في ذلك الطيور العطشى التي تحط على المياه لتنهل منها في عجل وخوف ، . فالسعادة والسّرور اللذان يصورهما الشاعر هما من قبيل التذكّر الذي يجلب الأسى ويثير الحسرة ، فالتذكّر هنا توق للماضي الذي لا مكان له في نفس الشاعر، بسبب حنينه للمرأة ، اذ يجد في ذلك الغزل المتخيّل راحة ولذّة نفسيتين يعوض بهما عن بعض مشاعره الحبيسة .

الثاني : وهو غزله العذري أو ما أطلق عليه مصطلح " الحجازيات " وتجمع معانيه ما بين التودد للمرأة كما في قوله : (بسيط)

لَيْتَ الأَحِبَّةَ أَغْرَيْنَ الرِّيَاحَ بِنَا ،
وَإِنْ نَأَيْنَ عَلى شَحْطٍ وَتَبْعِيدِ
وَلَيْتَهُنّ عَلى يَأسِ اللِّقَاءِ لَنَا
عَلَّلْنَ بِالوَعْدِ سَيْرَ الضُّمَرِ القُوْدِ (1)

وبين رثاء النفس بتصوير حزنها نتيجة خيبة الأمل والاخفاق في تجربة الحبّ، كما في وصف حاله بعد أن بارحه الأحباب : (طويل)

---

1) الديوان 1 / 313 .

هُمُ خَلّفُوا دَمْعي طَلِيقاً ،وَغَادَرُوا
فُؤادِي عَلى داءِ الغَرامِ حَبِيْسَا
طِلاعُ الحَشَى لَمْ يَتْرُكُوا فِيهِ فَضْلَةً
تَضُمُّ جَوىً مِنْ بَعْدِهِمْ رسيسا (1)

فمبارحة الأحبّة له أضنت فؤاده ، وأطلقت دموعه مدرارة ، فلم يعد فيه بقيّة من روح تحزن أو يسمع لها أنين .

ومن الملاحظ على مثل ذلك الغزل العذري ، ذهول الشاعر بوصف حالته النفسيّة ازاء ابتعاد الحبيب ومعاناته من فراقه ، وشدّة شوقه اليه ، ممّا أحال تعبيراته الى فيض من التفجّع العميق كما في قوله : (بسيط)

هَلْ يُبْلِغَنَّهُمُ النَّفسَ التي ذَهَبَتْ
فِيهِمْ شَعَاعاً ، أَوِ القَلْبِ الذي قَرِحَا
إِنْ هَانَ سَفْحُ دَمي بِالبَيْنِ عِنْدَهُمُ
فَوَاجِبٌ أَنْ يَهُونَ الدّمعُ إِنْ سُفِحَا (2)

فتصويره لتفرّق نفسه ، وتقرّح فؤاده ، وهوان دمه المسفوك ودمعه المسفوح ، هو أقرب الى العتاب المر منه الى النسيب ، فالعبارات صادرة من أعماقه وممتزجة بأحاسيسه المتولّدة عن معاناة يحاول محاصرتها ، ولكنها تأبى الاّ أن تظهر لتفضح أمره وتعكس ما بداخله من شوق وحنين تجاه المرأة التي لا يعرض لها بالذكر الاّ من خلال نفسه ، فصونه لها وتعلّقه بها جعله يحافظ حتّى على تراب الأرض التي كانت تحلّ بها (طويل)

---

1) الديوان 1 / 563 .

2) الديوان 1 / 243 .

أَصُونُ تُرابَ الأرضِ كانُوا حُلولَها ،
وَأحْذَرُ مِنْ مَرّي عَلَيْهَا وَأُشْفِقُ (1)

ولكن في تلك المبالغة ما يصور مكانة المرأة من نفسه ، ومدى تعلقه بها ورعايته لها ، فمن كلفه بها وتلهفه عليها ، يحفظ عهدها ويرعى حبّها أكثر ممّا يفعله الأقارب والأهل ، حتّى في حالة نأيها عنه (طويل)

وإنّي لأرعَى مِنْ وَدادِ أَحِبّتِي
عَلى بُعْدِ ، مَا لَا تُراعي الأقارِبُ(2)

لذا بقيت المرأة مصونة في نفسه لم يشهّر بها ، ولم يذكر اسمها ، فهي مجهولة لقارئ نسيبه ، فشغفه بها ، وخوفه عليها جعله يتكتّم عليها ، فكان ذلك التكتّم سبّبا في عذابه ، ومدعاة لشوقه الذي ظلّ حبيسا في نفسه ، فصدر في شعره محملا بأعباء حزنه وتفجعه ، وقد بدأ ذلك واضحا في الجوانب التي تتعلّق بارتباطه بها من قريب أو من بعيد .

المرأة وحنينه الى العقب في شعره :
==========

عاش الشريف الرضي مع زوجته ما يقارب العشرين (3) عاما دون أن تنجب له ، ولكن العثور في شعره على أبيات تشير الى ذلك ضرب من المستحيل ، فهو لم يتطرّق الى الانجاب في ديوانه الضخم الاّ في بيت

---

1) الديوان 2/ 77 .

2) الديوان 1/ 176 .

3) راجع ص 227 من هذا البحث فقد فصلنا القول في زواج الشريف وانجابه .

واحد أثناء حديثه مع نفسه وهو يشكو زمانه (طويل)

وَمَا كُنْتَ إلاّ كالمُوَارِبِ نَفْسَهُ
بَغَى وَلَداً ، وَالعِرْسُ جَدّاءَ عَاقِرُ (1)

وما يمكن استخلاصه من ذلك البيت اليتيم في ديوانه أنّه كان يلحّ في طلب الولد ، واصفا الحاحه ذاك بالمواربة أو مخاتلة النفس بتمنيتها ، رغم الاحساس بأنّ الزوجة لا تنجب وقد تسبّب له ذلك الشعور في الكثير من الأحزان فعكسها في تشكيه من الزمان وتعثّر حظه ، كما في قوله ضمن تهنئة أخيه بمولوده : (بسيط)

مِنّي إلى الدّهْرِ شَكْوَى غَيْرُ غَافِلَةٍ
عَنْ مُوثَقٍ بِحِبَالِ العجز مَصْفُودِ
يُحَارِبُ الهَمَّ إنْ مَالَ الرُّقَادُ بِهِ ،
حَتّى تَجَلّى غَيَابَاتُ المَرَاقِيدِ (2)

فشعوره بالعجز عن بلوغ مراده يقوده الى التشكّي الى الدهر ، ومصارعة الهموم التي تكالبت عليه وحالت بينه وبين الهجوع ، فكلّما تقدّم به العمر وانطوت السنون وشاهد ما يطرأ على نفسه من تغيّر دون أن يصل الى مبتغاه ويحقّق أمانيه في الحياة ، اسودّت الحياة في ناظريه (كامل)

أَبَيَاضُ رَأسٍ وَاسْوِدَادُ مَطَالِبٍ ؟
صبراً عَلى حُكْمِ الزّمَانِ الجَائِرِ (3)

فبياض الرأس كناية عن تقدّم السن ، واسوداد المطالب كناية عن الاخفاق وخيبة الأمل ، مع الرضوخ قسرا لجور

---

1) الديوان 1/532 والجداء = صغيرة الثدي .
2) الديوان 1/314 .
3) الديوان 1/480 .

الزمان وقبول الواقع على مضض. لذلك فإنّ افتقادنا الشاهد الملموس والحجّة القويّة في شعره ازاء تأثير قضيّة عدم الانجاب على نفسيته لا يمنع من البحث عن شواهد محسوسة في شعره .

الشواهد المحسوسة في شعره :

من اللافت للنظر في شعر الشريف تهنئة بعض أفراد أسرته وبعض أصدقائه بالمواليد التي ينجبونها ، فقد وردت في ديوانه ست قصائد (1) تهنئة بلغت مئتين وخمسة وثمانين بيتا ، بينما لا نجد صدى للتهنئة بالمواليد عند غيره من شعراء عصره ، فعلى الرغم من كثرة المدائح والتهاني في ديوان المتنبّي (2) لم يورد شيئا من ذاك ، كما لم يتطرّق ابن هاني (3) الى التهنئة بالمواليد على الاطلاق في ديوانه الذي بلغ أربعة آلاف وثلاثة وأربعين بيتا ، ولم يورد المرتضى (4) شيئا من ذلك في ديوانه الذي بلغ ثلاثة عشر ألفا وثمانمئة وواحدا وخمسين بيتا ، حتّى أنّه لم يذكر ضمن ذلك الشعر حدث ولادة ابن أخيه " عدنان " الذي أشارت

---

1) راجع الديوان 1/ 98 ، 313 ، 323 ، 465 ، 610 ، 2/ 534 .

2) استنتجت ذلك من بحثي في الديوان بأجزائه الأربعة - البرقوقي - شرح ديوان المتنبّي .

3) استنتجت ذلك من بحثي في الديوان - ط دار بيروت - 1980 .

4) استنتجت ذلك من بحثي في الديوان بأجزائه الثلاثة .

كتب التاريخ (1) الى سنة ولادته، كما أنّ التهنئة بالمواليد وإنْ وردت عند بعض شعراء القرن الرابع، فإنها لا تتعدّى الأبيات ولا تبلغ مبلغ القصيدة المتكاملة الاّ في النّادر القليل، فقد بلغت أطول قصيدة تهنئة بمولود واحدا وعشرين بيتا (2)، وكانت في تهنئة الصّاحب ابن عبّاد بولادة حفيده من ابنته ومطلعها : (بسيط)

بُشْرَى فَقَدْ أنجزَ الاقْبَالُ مَا وَعَدا
وَكوكبُ المَجدِ في أفقِ العُلا صَعَدَا (3)

بينما بلغ متوسّط طول قصيدة التهنئة بمولود عند الشريف الرضي ثلاثة وأربعين بيتا . وبطبيعة الحال فإنّ لذلك أبعاده النفسيّة بالنسبة للشريف الرضي، لأنّ " الحرمان والألم ينشطان الموهبة الفنيّة، وبواسطة الابداع الفنّي يعوّض الفنّان نفسه عمّا حرمته منه الحياة " (4) خاصّة وأنّ شاعرنا في تهانيه تلك يلحّ على انجاب الولد دون البنت، فمن الطريف في ذلك أنّه يسبق الأحداث، فقد أعدّ في تهنئة أخيه بمولود قصيدتين (5) ولكن القدر يأبى الاّ أن يولد لأخيه بنت في المرتين، فالتلهّف على انجاب

---

1) ممّن أرّخ لولادة "عدنان" ابن الشريف الرضي - ابن الأثير - الكامل 7 / 250 .

2) للتحقّق من ذلك راجع - الثعالبي - يتيمة الدهر 2/236 وما بعدها .

3) السابق 2/236 والقائل أبو محمّد الخازن .

4) سامي الدروبي - علم النفس والأدب ص 244 .

5) راجع الديوان 1/323، 610، فقد علّق ناسخ الديوان على القصيدتين بأنهما أعدهما لتهنئة أخيه بمولود ذكر فلم يتفق ذلك .

الولد هو ما دعاه الى ذلك لا شعوريّا ، لأنّه يرى في الانجاب الخلود وبقاء الذكر ، يقول ضمن قصيدة تهنئة بمولود : (طويل)

فَلَوْ قِيلَ يَوْماً : أَيْنَ صَفْوَةُ يَعْرُبٍ؟
رأيتَ العُلَى تومي إلى ذَلِكَ المَهْدِ (1)

فخلاصة يعرب وعلاها ستبقى مستمرّة ببقاء ذلك الطفل الذي ضمّه مهد الرفعة والعلو المتمثّل نجابته ونقاء عنصره .

فحرمانه من عاطفة الأبوّة وتعطّشه الشديد للخلف تنضجان في تكراره ترشيح المولود للمعالي والشجاعة والسيف لتوقه الى صفات الفروسيّة وحرمانه منها ، وحلمه في تحقيقها في أقرب النّاس اليه ، فإن لم يكن ابنه ففي ابن أخيه والاّ في ابن خاله (وافر)

هَوَ الذّكَرُ المُرشّحُ للمَعَالِي
وللبِيضِ القَواضِبِ واللّدَانِ (2)

فهو وان كان يكن الحب والود للمرأة الاّ أنّه في مجال الخلف والانجاب يفضّل الذكر على الأنثى ، وما محاولاته الفاشلة في تكرار الزواج مرتين (3) - في حياة زوجته - الاّ دلالة على الشّوق للولد الذي أنجبه قبل وفاته بسبع سنين .

---

1) الديوان 1/326 .
2) الديوان 2/534 .
3) راجع ص 228 وما بعدها من هذا البحث فقد فصلنا القول في تلك الزيجتين كما أشرنا ضمن ذلك الموضوع الى تاريخ انجاب زوجته لولده عدنان .

كان على الشريف أن يختار بين أمرين : أن يسمو بمكانته ويسود في مجتمعه ، ويرضي طموحه في الوصول الى مراقي المجد . أو أنْ يحيا حياة بسيطة بعيدة عن كلّ تعقيد ، يحبّ ويعشق ويلهو ويتغنّى بالجمال متى يشاء ، وقد أدرك أنّه لا يمكنه الجمع بين كلا الأمرين ، فمن يحمل في نفسه أحلاما عظيمة لا يمكنه الارتماء في أحضان الغواني ، والسهر في مجالس السمر (بسيط)

مَنْ يَعْشَقُ العزّ لا يَعْنُو لِغانِيَةٍ،
في رَوْنَقِ الصَّفْوِ مَا يُغْنِي عَنِ الكَدَرِ
شُغِلْتُ بِالمَجْدِ عَمّا يُسْتَلَذّ بِهِ،
وَقائِمُ اللّيلِ لا يَلْوِي عَلَى السَّمَرِ(1)

فبلوغ المجد هو ما يشغل باله وتتوق اليه نفسه ، لذا لم تعد ملذّات الحياة ومغرياتها تستهويه ، لأنّ لذّته الوحيدة الوصول الى مراده في العزّ والعلو والرفعة . ولكن ذلك التصميم وتلك العزيمة يقابلهما ضعف وذلّ في الحبّ (كامل)

أَهَوىً وَذُلاً في الهَوَى وَطَماعَةً،
أَبَداً ، تَعالى اللّهُ مَا أَشْقاكَا
يَا قَلْبِ كَيْفَ عَلِقْتَ فِيْ أَشراكِهِمْ،
وَلَقَدْ عَهِدْتُكَ تُفْلِتُ الأَشْرَاكَا(2)

فالشاعر يعتب على قلبه ما جرّه عليه من ذلّ تسبّب في شقائه لوقوعه في شراك الحبّ، فالغواني اللواتي

---

1) الديوان 1/458 .

2) الديوان 1/108 .

لا يعنو لهن عدن ليكبلن قلبه ويأسرن نفسه، فجرّ عليه ذلك الشقاء المستديم الذي ليس له فرار منه. ولقد تولّد من اصطراع كلا الأمرين في نفسه صراع بين عاطفته وعقله، عاطفته التي تريد منه أن يستجيب لنداء القلب، ويلبّي رغباته ويعيش حياته كما في قوله يصف لقاءه بحبيبه : (طويل)

وَلَيْلَةِ وَصْلٍ بَاتَ مُنْجِزُ وَعْدِهِ
حَبِيْبِيَ فِيْهَا، بَعْدَ طُوْلِ مَطَالِ
شَفَيْتُ بِهَا قَلْبًا أُطِيلَ غَلِيلُهُ،
زَمَانًا، فَكَانَتْ لَيْلَةً بِلَيَالِي
فَيَا زَائِرًا، لَوْ أَسْتَطِيعُ فَدَيْتُهُ
بِأَهْلِي، عَلَى عِزّ القَبِيْلِ، وَمَالِي (1)

فغزله وان كان يعتمد على تذكّر ليلة وصل انقضت، وبقي أثرها عالقا بنفسه، فإنّ ذلك يعني الحنين والشّوق، وقد يكون ذلك تخيّلا، الاّ أنّه ينم عن توق وحنين الى حياة الصبابة والحب.

أمّا عقله فيريد منه أن يكبح جماح نفسه في سبيل الوصول الى غاياته في الرفعة والعلو وتسنّم مراقي المجد، فهو في سبيل ذلك يضاجع الأمل بدلا من مضاجعته الحسان، رغم ما يكتنف تلك المضاجعة من شقاء (وافر)

أَبِيتُ مُضَاجِعًا أملي، وانّي
أَرَى الآمالَ أَشْقَى لِلرِّكَابِ (2)

---

1) الديوان 2/223، 224.

2) الديوان 1/114.

فهو لم يعد يفكّر في شيء سوى العلى والعز فهما أمله الذي أخذ يراوده في حله وترحاله (بسيط)

مَالِي بِغَيْرِ العُلَى في الأرض مُضْطَرَبٌ،
وَلا لِجَنْبِي بِغَيْرِ العِزّ تَمْهِيدُ (1)

ولكن ذلك التصميم وتلك العزيمة لم تكونا لتحدا من عاطفته لأنّه يدرك ما للحبّ من سلطان على القلوب ممّا يؤدّي بارادته وتصميمه الى الانهيار أمام الحاح القلب، فالشغف بالوقار لا يمنع من الحنين الى العشق والتصابي (متقارب)

وإنّي عَلى شَغَفِي بِالوَقَارِ
أحِنُّ إلى خَطَرَاتِ الصِّبَا (2)

فانشداده الى الحشمة والوقار لا يتفق أصلا مع ما يعتلج في نفسه من حنين الى الانطلاق على السجيّة والتمتّع بملذّات الحياة، والتنعّم بعلاقة الحبّ وذلك ما يؤكّد ما بداخله من صراع بين ما يريده عقله وبما يلحّ قلبه في طلبه (كامل)

لَوْلا هَوَاكِ لَمَا ذَلَلْتُ وإنّمَا
عِزّي يُعَيّرُنِي بِذُلّ فُؤادِي (3)

فقلبه يريده أن يذوب حبّا وعقله يلح عليه في تجنّب ذلك حفظا لنفسه من الذلّ وهو ما يولّد الصّراع بين العقل والقلب، فيجعل النفس لا يقرّ قرارها وهو ما يتجلّى بوضوح في الكثير من قصائده الحماسيّة التي تتجاذب معانيها : العاطفة المتمثلة في الحب، والعقل المتمثّل في الحرب .

---

1) الديوان 1/ 270 .
2) الديوان 1/ 41 .
3) الديوان 1/ 337 .

الصّراع بين الحب والحرب في شعر الشريف الرضي :

اذا جاز لنا أن نطلق على الطموح الى الرفعة والمجد والعلو (العقل) وعلى الحبّ (العاطفة) أو القلب، فإنّ الكثير من شعر الرضي الحماسي ينبني على هذين القطبين المتنافرين ، وهما أساس الصّراع النفسي المتولّد بداخله تجاه علاقته بالمرأة في محيطه الاجتماعي ، فهو يحبها ويتوق اليها ولكنّه يخاف على نفسه من ارتباطه بها فقد تلهيه عمّا يطمح اليه من مجد وعلو، والخوف هنا ذو طرفين كلاهما يتعلّق بذات الشاعر : فالطرف الأول خوفه على نفسه، لأنّ ارتماءه في أحضان المرأة سيشغله عن الوصول الى طموحاته. أمّا الطرف الثاني فهو أنّ علاقته بالمرأة أيضا قد يسيء الى مركزه الاجتماعي ، فتنعدم ية من يعوّل على كسب ودّهم واحترامهم ، لأنّ ما يطمح اليه من مجد مرتبط بمجتمعه ارتباطا وثيقا ، فالسيادة لا يمكن تحقيقها الاّ داخل المجتمع على أساس كسب الاحترام والتعويل على السمعة الطيّبة البعيدة عن كلّ نزق ، خاصّة وأنّ الرضي يريد أن يحقّق مبتغاه على أسس اخلاقيّة تتناسب ومكانة آل البيت فقوله : (طويل)

تُضَاجِعُنِي الحَسْنَاءُ وَالسّيْفُ دُونَهَا
ضَجِيْعَانِ لِيْ وَالسّيفُ أَدْنَاهُمَا مِنّي
إذا دَنَتِ البَيْضَاءُ مِنّي لِحَاجَةٍ
أبَى الأبْيَضُ المَاضِي، فَأَبْعَدَهَا عَنّي (1)

وان كان بعيدا عن الواقع ، هو في حقيقته صراع بين عاطفته وعقله ، بين طبيعته كانسان له احساساته ومشاعره

---

1) الديوان 2/ 484 .

وبين ما يرغب في تحقيقه، فالحسناء واقع أمّا السيف فتوق، وكلاهما يلح على نفسه، وان كان الواقع هو المنتصر، اذ قد يتبادر الى أذهاننا انّ العقل المتمثّل في السيف هو المنتصر، ولكن البيتين ينمان عن عكس ذلك، فالشاعر هنا مفعول للمضاجعة، أي أنّه في موقع سلب بالنسبة للبيضاء، التي هي المُضَاجِعة وهي المتحركة والملحّة فالتمنّع هنا ما هو الاّ خيط واه يحاول الشاعر التعلّق به فعناء الشوق دليل على تغلّب العاطفة (كامل)

للّهِ مَا أَغْضَتْ عَلَيْهِ جَوَانِحِي
وَالشّوقُ تَحْتَ حِجَابِ قَلْبِي عَانِ (1)

فمغالبة الشّوق ،ومحاولة الهروب بالكلمات، ما هو الاّ فضح لما تنضح به النفس من تأجّج ممّا يجعل للقلب الغلبة في نهاية الأمر وان أصرّ الرضي على عكس ذلك، فقوله : (طويل)

وَقَدْ كُنْتُ آبي أَنْ أُذِلّ لِصَبْوَةٍ،
وَأَنْ تَمْلِكَ البِيْضُ الحِسَانُ عِقَالِي
خَمِيصاً مِنَ الأشْجَانِ لا يُوضِعُ الهَوَى
بِقَلْبِي ،فَلا اجْتَازَ الغَرَامُ بِبَالِي
إلى أَنْ تَرَاءى السِّرْبُ بَيْنَ غَزَالَةٍ
تَرَنّحُ فِي ثَوْبِ الصّبَا ، وَغَزَالِ
فَلَمّا التَقَيْنَا كُنْتُ أَوّلَ وَاجِدٍ ،
وَلَمّا افْتَرَقْنَا كُنْتُ آخِرَ سَالِي (2)

لهو دلالة على انهيار عزيمته أمام سحر المرأة، فإباؤه وتمنعه وصد قلبه عن حبها ، لم يكن ليحول دون وقوعه

---

1) الديوان 2/ 517 .

2) الديوان 2/ 223 .

في شرك الغرام فاستحال لقاؤه بها الى خوف وهلع من خشية فراقها ، لأنّ في ذلك صنى لروحه وعذابا لنفسه ، فهو لا يستطيع الفرار من سحرها ، كما أنّه لا يرغب فيه وان تظاهر بعكسه ، فهي نعيم قلبه وعذابه ، وكلاهما مستعذب عنده (بسيط)

أَنْتِ النَّعِيمُ لِقَلْبِي والعَذَابُ لَهُ ،
فَمَا أَمَرُّكِ فِي قَلْبِي وَأَحْلَاكِ (1)

فالنعيم وحلاوته إنْ هي واصلته ، والعذاب والمرارة إنْ هي صدت عنه ومطلته . فمغالبة النفس حيال علاقته بالمرأة من أهم مسببات أساه وتفجعه ، لذلك فإنّ علاقته بالمرأة لم تقتصر على غزله وحبّه بل تعدتهما الى سائر مضامين شعره الأخرى ، وقد كثر ذلك في استخدامه المصطلحات الفقهيّة المتعلقة بارتباط المرأة بالرجل ، اضافة الى التعبيرات اللغويّة الدالّة على تعلّق المرأة بالرجل .

استخدام مفهوم المرأة في شعره عامة :

بغضّ النظر عمّا قاله الشريف الرضي في المرأة من شعر في غزله ومقدماته الطلليّة ، فقد رافقت المعاني الغزليّة الكثير من مضامينه الشعريّة عامّة والمضمون الحماسي على وجه الخصوص كما في قوله : (طويل)

يَا قَائِدَ الخَيْلِ ، إِنْ كَانَ السِّنَانُ فَمًا ،
فَإِنّ رُمْحَكَ مُشْتَاقٌ إِلى القُبَلِ (2)

فشوق رؤوس الرماح الى المضي في صدور الأعداء ما هو إلاّ انعكاس لتوق الممدوح للوصول الى غايته في تحقيق

---

1) الديوان 2/107 .

2) الديوان 2/129 .

النصر، كالعاشق الوله الى تقبيل حبيبته، فالمعازجة بين عنف الحرب ورقّة الحب هو تعبير عمّا يحتدم من صراع بداخله مثله مثل الحرب في توقه للمرأة ومحاولة الانعتاق من اسرها .

والسعي الى المجد وبلوغ الغايات، مرتبط بالمرأة فقوله لممدوحه : (رجز)

خَطَبْتَهَا عَلى النّجِيعِ المِهْرَاقْ
غَرّاءَ مَا نَاكِحُهَا بِمِطْلَاقْ (1)

ينبّىء عن مدى اصرار ممدوحه للوصول إلى العلو والتمسّك بالرفعة وقد كنّى عن ذلك بالمرأة، كما كنّى عن تمسّك الممدوح بمثله وحبّه لها بعدم الطلاق، والخطبة، والنكاح والطلاق من المعاني المتعلقة بالمرأة التي تنضج نفس الشريف الرضي بها . فهي أيضا في فخره (متقارب)

أَمَا عَانَقَتْنِي صُدُورُ السُّيُوفِ،
أَمَا قَبّلَتْنِي نُصُولُ السّهَامِ (2)

فالعناق والتقبيل من المعاني التي تتعلّق بالنساء، وقد استعارهما الرضي في فخره للسيوف والسهام دلالة على تعلقه بالمرأة واشتياقه لها .

والصداقة في شعر الشريف عروس تزفّ اليه بعد أن يبذل لها الصداق، يقول متشوّقا : (متقارب)

لِقَاؤُكَ جَرّ عَلَيّ الفِرَاقَا،
وَمَا زَادَنِي القُرْبُ إلاّ اشْتِيَاقَا
جَلَوْتَ عَلَيّ هَدِيّ الوَدَادِ،
فَأَسْلَفْتَهَا بِالقَبُولِ الصّدَاقَا (3)

---

1) الديوان 2/ 44 .
2) الديوان 2/ 369 .
3) الديوان 2/ 88 .

ولقاء الصديق والتشوق اليه هو بمثابة جلوة العروس إلى بعلها والربط بين الصداقة والمرأة يعني ضمناً تعطشه لكليهما وإنْ كان في طلبه للصداقة أوضح وأصرح لما في ذلك من هيام لا يجلب اللّوم .

وترد المرأة في ذمّه للزمان كعامل من عوامل عذاب النفس وألمها بسبب إعراضها وصدودها المتولّد عن الشيب الذي حطّ برأسه كما في قوله ضمن ذمّه للزمان : (سريع)

يَا قَاتَلَ اللّهُ الغَوَانِي لَقَدْ
سَقَيْنَنِي الطَّرْقَ بُعَيْدِ الجِمَامْ (1)

فمن صدودهنّ عنه بعد أن أوشك الشباب على الانحسار يتصورهنّ وكأنهنّ يسقينه كدر الماء الذي خاضته الابل بعد أن نهلت منه وارتوت مع أنّه كان رائقا وميسورا ، وهو في حاجة اليه قبل ورود تلك الابل بقليل ، وتعبيره بكلمة " الطرق " بما تتضمنه من مرارة وألم يعني ضمنا الحاجة الملحّة للمرأة .

ويبدو الرضي ثائرا على المرأة في رثائه ، حين يشبّه الدنيا بالمرأة المتقلبة المزاج التي لا تستقرّ على زوج ، فهي لا ترضى ببعل واحد مع استمراريتها في تغيير أزواجها (كامل)

لا تأمن الدنيا عليك ، فإنها
ذاتُ البُعُولِ تُبَدِّلُ الأبْدَالا (2)

---

1) الديوان 2/ 313 ، والطرق = الماء الذي خوضته الابل .

2) الديوان 2/ 203 .

ويستحضر صورة المرأة في بعض تعازيه كدليل على تعلقه بها في جعلها مشبها كما في قوله ضمن تعزية صديق : (بسيط)

وَحَسْبُ مِثْلِي مِنَ الدُّنْيَا غَضَارَتُهَا ،
وَقَدْ رَضِيْنَا مِنَ الحَسْنَاءِ بِالقُبَلِ (1)

فالدنيا في غضارتها وجمالها كالحسناء التي يرجو منها الكثير ، ولا تمنحه الاّ القليل الذي يجعله في شوق دائم اليها وهيام بها فتوقه للمرأة وتعلقه بها يعكسه حنينه الدائم الذي عالجه بشتّى الأساليب التي تنم عن معاناته العظيمة وهي بعيدة عنه وهذا ما يمكن ادراكه من الحزن والتفجّع اللذين اكتسى بهما نسيبه .

التفجّع في نسيب الشريف الرضي :

شاع في الأعصر العباسيّة - وفي القرن الرابع على وجه الخصوص - الغزل الخليع الذي يخدش الحياء ويجرح الشعور ، وقد نجم عن ذلك نوع من الغزل الممقوت ، هو التغزل في الغلمان ، فاستحال شعر الحب الى ضروب من المجون والفساد الاخلاقي ، لكن ذلك وإنْ انسحب على شعر الغالبية من الشعراء ، فقد بقيت قلّة منهم محافظة على الرصانة في القول والابتعاد عن الاسفاف في مجال الغزل ، فظلّ غزلهم متسما بالمسحة العذريّة والنقاوة البدوية . من أولئك الشعراء المتنبّي الذي ظلّ محافظا على رقّة الغزل وعفته في الكثير من مقدمات قصائده كما في قوله : (كامل)

---

1) الديوان 219/2 .

فِي الخَدِّ أَنْ عَزَمَ الخَلِيْطُ رَحِيلَا
مَطَرٌ تَزِيْدُ بِهِ الخُدُودُ مُحُولَا
يَا نَظْرَةً نَفَتِ الرُّقَادَ وَعَاوَدَتْ
فِي خَدِّ قَلْبِي مَا حَبِيْتُ ذُلُولَا
كَانَتْ مِنَ الكَحْلاءِ سُؤْلِي إِنَّمَا
أَجَلِي تَمَثَّلَ فِيْ فُؤَادِي سُولَا (1)

ومن الشعراء الذين اشتهروا بعفّة غزلهم في القرن الرابع الشريف المرتضى ، ومن ذلك قوله : (طويل)

ولمّا قُرِعْنَا بِالنَّوَى حِيْنَ غَفْلَةٍ
تَجَلَّدتُ مُشْتَاقًا لِتَحْسَبَنِي جَلْدَا
وَطَارَ بِقَلْبِي طَائِرُ البَيْنِ عَنْ يَدِي
عَلى أَنَّنِي مَا جُرْتُ يَوْمَ النَّوى قَصْدَا (2)

ويبلغ الشريف الرضي بالغزل العذري الذروة من حيث الكم والكيف في القرن الرابع ، اذ لم يبلغ أحد من شعراء ذلك القرن شأوه ، فلم يقصر المتنبّي في شعره قصائد على الغزل (3) ، كما لم يتمكّن الشريف المرتضى من بلوغ ما بلغه الرضي في شعر الغزل لا من حيث النفس الشعري ، ولا من حيث التدفّق العاطفي (4) . فقد

---

1) البرقوقي - شرح ديوان المتنبّي 3/349 .
2) الشريف المرتضى - ديوانه 1/252 .
3) لم يرد النسيب قائما بذاته عند المتنبّي الاّ في بيتين على روى النّون قالهما في صباه وأولهما (بسيط)
كتمت حبك ، حتّى منك ، تكرمه ثم استوى فيك اسرارى واعلاني
الديوان 4/324 .
4) راجع ص 219 وما بعدها من هذا البحث، فقد عرضنا هناك لمقارنة بين النسيب عن كلا الأخوين .

صوّر الرضي عاطفة الحب بأساليب مفعمة بالرقّة، بعيدة عن الجفاف، مع ارتباط قوي بالقديم الذي ينشد اليه من خلال معانيه البدويّة. فقد كانت حجازياته صورة من الجو الحجازي بلهجة عباسيّة رفقتها الحضارة، فهو غزل متسم بشفافية الوجدان، في ممازجة عفويّة بين انفعالات المحب من بسمة ودمعة وخلجات قلب، وانتظار بين أمل ويأس، واشتياق حار لساعة اللقاء، وتصوير طبيعة الحبيب في انجاز الوعد ومطله الى غير ذلك من انفعالات تساور العاشق المتيّم، واحساسات ومشاعر تكاد تكون أقرب الى الحزن منها الى السعادة والسّرور. فنقاء طويته وجنوح نفسه نحو الحب المترفّع عن كلّ مظهر مادي أحال ذلك الغزل العفيف الى تأوهات ملتاعة، وأحزان مشفوعة بالدموع، واننا رغم اقتناعنا بأنّ هذا الغزل هو تعاريف أسلوبيّة وعادة متبعة فإنّ فيه من معاني التفجّع وعبارات الحزن والأسى المنبثقة من نفسيّة الشاعر الحزينة ما يعطي لهذا النسيب مسحة الصّدق ونحن نسبطها فيما يلي :

1- اللقاء :

يرد اللقاء في نسيب الشريف الرضي على سبيل التذكّر، فلم يحاول قطّ أن يصف انتظاره لموعد غرام، ممّا يحيل قربه بمن يحب الى تعنّ وشوق. يقول في وصف ليلة لقاء انصرمت : (مجزوء الكامل)

يَا لَيْلَةً كَرُمَ الزّمَا
نُ بِهَا لَوَ انّ اللّيْلَ بَاقِ
كَانَ اتّفَاقٌ بَيْنَنَا ،
جَارٍ عَلَى غَيْرِ اتّفَاقِ

وَاسْتَرْوَحَ المَهْجُورُ مِنْ
زَفَرَاتِ هَمٍّ وَاشْتِيَاقِ
فَاقْتَصَّ للحِقَبِ المَوَا
ضِي بَلْ تَزَوَّدَ لِلْبَوَاقِي
حَتّى إذا نَسَمَتْ رِيَا
حُ الصُّبْحِ تُؤذِنُ بالفِرَاقِ
بَرَدَ السَّوَارُ لَهَا، فَأحْـ
ـيَتَ القَلَائِدَ بالعِنَاقِ (1)

إنّ تصف الأبيات لقاء الرضي بمحبوبته صدفة، فاطمأنّت نفسه وهدأ وجيب قلبه بين عناق وقبل طوال ليلة يتمنّى لو أنها تعود وقد اعتمد في سرده لأحداث ذلك اللقاء السعيد على الزمن الماضي " كرم - كان - استروح اقتصّ - تزوّد " ممّا يعني التحسّر من خلال التذكّر، فمن الملاحظ أنّ الفعل المضارع لم يرد في الأبيات الاّ مرّة واحدة في قوله " تؤذن " مقرونا بالفراق اضافة الى النّداء المقرون بالتمنّي الممتنع في " يا ليلة ..... لو أنّ ... " ممّا يحيل لذّة الحب وجمال اللقاء الى تذكّر ملتاع، يزيد في أسى النفس، ويجعلها تلحّ في طلب توقّف الزمن في كنف استمرارية الحب كما في " لو أنّ الليل باق "، فلقاء الشريف بمن يحب مقرون دائما بالتذكّر والشّوق والخوف، ولا يتحقّق الاّ بعد فراق طويل يعذب نفس الشاعر فما أنْ تتاح له فرصة ذلك اللقاء حتّى يغرق في العناق والقبل التي لا انقضاء لها (بسيط)

---

1) الديوان 2/ 77 .

وَرُبَّ لَيلٍ مَنَعْنَا مِنْ أَوَائِلِهِ
إِلى الصَّبَاحِ جَوَازَ النَّوْمَ بِالمُقَلِ
بِتْنَا ضَجِيعَيْنِ فِيْ ثَوْبِ الظَّلامِ كَمَا
لَفَّ الغُصْنَيْنِ مَرُّ الرِّيْحِ بِالأُصُلِ
طَوْراً عِنَاقاً كَأَنَّ القَلْبَ مِنْ كَثَبٍ
يَشْكُو إِلى القَلْبِ مَا فِيْهِ مِنَ الغُلَلِ
وَتَارَةً رَشَفَاتٌ لا انْقِضَاءَ لَهَا،
شُرْبَ النَّزِيْفِ طَوَى عَلاًّ عَلَى نَهَلِ (1)

فكل ما حول الحبيبين يدعوهما الى اغتنام الفرصة، والاقتصاص من ألم الفراق المعض، وقد أسعفتهما الطبيعة على ذلك، فالليل هادئ، فلا رقيب أو عذول يعكّر صفو اللقاء، والنّوم مبارح عيونهما، وقد استحالا الى غصنين لدنين لفّهما الظلام بفلالته الشفافة بينما أخذ النسيم يداعبهما، وقد أخذ العناق يشدّ القلب للقلب، وسيل القبل يطفئ اوام ما عانياه من ألم البعد المعض، إلاّ أنّ " رب " في صدر الأبيات كستها بمسحة من الحزن الرقيق، لما تنطوي عليه من تذكّر يعني شوقه المبرح للمرأة.

فالتعبير عن عاطفة الحب وان لم تكن حقيقيّة الوقوع وأكيدة التلازم بالنسبة لشخصية الشريف الرضي - خاصّة وأنّه يحكي أحداثها من خلال تخيّلات البيئة البدويّة البعيدة عن واقعه الحضري - إلاّ أنّ ما يغلفها من صدق وحرارة، يجعلها في منأى عن الافتعال والتكلّف فإنها تعويض بالقول عن حرمان مكبوت، خفق له قلبه ولكنّ الشاعر حاصره في نفسه، فاستحال الى حقيقة داخليّة يلتذّ بها ويعيشها في أحلامه، ويتغنّى بها كواقع نعم فيه بما

---

1) الديوان 2/222.

يتمنّى ، فاللقاء الذي يتصوره ما هو الاّ توق ، والحبيب الذي ينعم بلقياه ما هو الاّ طيف يزور نفسه الولهى في هدأة الليل فيكون اللقاء والحبّ (خفيف)

إنّ طَيْفَ الحَبِيبِ زَارَ طُرُوقاً ،
وَالمَطَايَا بَيْنَ القِنَانِ وَشَعْبِ
زَارَنِي وَاصِلاً عَلى غَيْرِ وَعْدٍ ،
وَأنْثَنَى هَاجِرًا عَلَى غَيْرِ ذَنْبِ
بِتُّ أَلْهُو بَنَاعِمِ الجِيْدِ غَضٍّ ،
وَفَمٍ بَارِدِ المُجَاجَةِ عَذْبِ
سَامِحًا لِيْ عَلَى البِعَادِ بِنَيْلٍ
كَانَ يَلْوِيهِ فِي زَمَانِ القُرْبِ
كَانْ عِنْدِي أنّ الغُرُوَر لِطَرْفِي ،
فَإذا ذَلِكَ الغُرُوُر لِقَلْبِي (1)

فالحبيب الذي طالما طرق الشاعر ليلا ، ما هو الاّ طيف يشعر بالطمأنينة في كنفه وبالحبّ بجانبه أثناء استرساله في خيالاته وأحلامه خلال ركونه الى الوحدة في رحلاته الحقيقيّة أو المتخيلة عبر الصحراء ، فما نعم به الشريف من سعادة منحها ايّاه ذلك الحبيب ، ما هو الاّ وهم تصوره له عينه ويعده به قلبه ، لأنّ طغيان الوجدان على العقل في القول دون العمل هو ما حدا بشعره الى التجنيح ، خاصّة وأنّ تحقيق علاقته بالمرأة كحبيبة على أرض الواقع يعتبر ضربا من ضروب المستحيل لرجل في منزلته الدينيّة ومركزه الاجتماعي ، والدلالة على ذلك عدم اقصاره في غزله - رغم عذريته - على امرأة معينة يمكن التعرّف عليها فحبيبته وإنْ كانت بدويّة حجازية الاّ أنها مجهولة

---

1) الديوان 172/1 .

الاسم ، فهي لعياء في بعض قصائده (طويل)

وَمالِيَ يَا لَعْيَاءُ بِالشِّعْرِ طَائِلٌ،
سِوَى أنّ أشْعَارِي عَلَيْكِ نَسِيْبُ (1)

وهي أيضا ريم (سريع)

يَا رِيْمَ ذَا الأَجْرَعِ يَرْعَى بِهِ
ثِمَارَ قَلْبِي بَدَلَ الرَّطْبِ (2)

وهي ظبية في موضع ثالث من ذاك النسيب (بسيط)

يَا ظَبْيَةَ البَانِ تَرْعَى فِي خَمَائِلِهِ
لِيَهْنَكِ اليَوْمَ أنّ القَلْبَ مَرْعَاكِ (3)

فالحبيبة ـ كما اعتقد ـ وصف لامرأة يتوق اليها ، وليست تورية عن امرأة معينة لأنّ موطنها مجهول ، فهي عربية من اليمن (طويل)

أَلا أيُّها الرَّكْبُ اليَمانُونَ عَهْدُكم،
عَلى مَا أرَى، بِالأبْرَقَيْنِ قَرِيْبُ (4)

وقد تكون من نجد (بسيط)

يَا قَلْبِ ! مَا أنْتَ مِنْ نَجْدٍ وَسَاكِنِهِ،
خَلَّفْتَ نَجْدًا وَرَاءَ المُدلِجِ السَّارِي (5)

---

1) الديوان 1/175 .
2) الديوان 1/179 .
3) الديوان 2/107 .
4) الديوان 1/179 .
5) الديوان 1/517 .

وقد تكون حجازيّة (خفيف)

عَارِضَا بِيْ رَكْبَ الحِجَازِ أُسَائِلُـ
ـهُ: مَتَى عَهْدُهُ بِسُكّانِ سَلْعِ (1)

فحبيبة الرضي على هذا الحال مجهولة المكان والاسم لا نعرف عنها إلاّ أنها من سكّان شبه جزيرة العرب، ويتميّز تواصله بها بالعفّة والنقاء والطهارة (طويل)

وَمَا عَلِمُوا أنّا إلى غَيْرِ ريبَةٍ،
بَقَاءَ اللّيَالِي نَفْتَدِي وَنَؤُوبُ
عَفَافِي مِنْ دُونِ التّقِيّةِ زَاجِرٌ،
وَصَوْنُكِ مِنْ دُوْنِ الرّقِيْبِ رَقِيْبُ (2)

ويلحّ الشريف على تغليب العقل على العاطفة أثناء اللقاء في محاولة منه للسمو بالحب عن كلّ المظاهر الماديّة (طويل)

وَكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا عَلَى غَيْرِ رِيْبَةٍ
علينا عُيُوْنُ للنُّهَى وَمَسَامِعُ
نَغُضُّ حَدِيْثاً عَنْ خِتَامِ مَوَدّةٍ،
مَعَاقِلُهَا أَحْشَاؤُنَا وَالأَضَالِعُ (3)

وتبلغ مثالية الشريف في تصويره لنقاء حبّه وطهارته الى حدّ التناقض في الأقوال، ممّا يجعلنا في حيرة ازاء ما يقول، ففي الوقت الذي يحاول ابعاد كلّ ريبه عن لقائه بمن يحب فإنّه يجمع النقيضين في قوله : (بسيط)

---

1) الديوان 1/ 657 .
2) الديوان 1/ 175 .
3) الديوان 1/ 658 .

وَالْمُسْتَنِي وَقَدْ جَدّ الوَدَاعُ بِنَا ،
كَفّاً تُشِيْرُ بِقُضْبَانٍ مِنَ العَنَمِ
وَالْثَمْتَنِيَ ثَغْراً مَا عَدَلْتُ بِهِ
أَرْيَ الجَنَى بِبَنَاتِ الوَابِلِ الرُّزَمِ
ثُمَ انْثَنَيْنَا ، وَقَدْ رَابَتْ ظَوَاهِرُنَا ،
وَفِي بَوَاطِنِنَا بُعْدٌ مِنَ التُّهَمِ (1)

فهو وان حاول ابعاد الريبة عن لقائه ذاك ، إلاّ أنّ تصرفه يشي بعكس ذلك ، وإنْ حاول أنْ يجعل المبادرة من الطرف المقابل في " المستني ، الثمتني " بوضع نفسه مفعولا أو مطلوبا من قبل المرأة ، إلاّ أنّه في حقيقة الأمر هو المتشبّث بها والساعي في طلبها ، وما اخفاء اسمها وتعدّد أوطانها الاّ دلالة على تشتّت روحه ، ممّا يحيل وداعها الى فراق أبدي يعيش مرارته .

2- الوداع :

عادة ما يربط الشريف الرضي وداع الحبيب بالدموع ، مصوّرا من خلال ذلك لوعته ، فتنعكس نظرته الكئيبة على الطبيعة التي تستجيب لأساه وتشاطره عظيم حزنه ساعة وداعه الحبيب وديارَه ، من ذلك قوله : (بسيط)

اللّيْلُ يَنْصُلُ بَيْنَ الحَوْضِ وَالعَطَنِ ،
وَالبَرْقُ يُسْدِي بُرُودَ العَارِضِ الهَتَنِ

---

1) الديوان 2/ 74 ، 75 والعنم = شجر يكثر بالحجاز له ثمر أحمر يشبّه به البنان المخضوب ، الأَري = العسل ، الرزم ، مفرده رذوم = السائل من كل شيء .

وَالجَفْنُ يَفْتَرُّ عَنْ طَرْفٍ صَحَبْتُ بِهِ
إِنْسَانُهُ مُثْقَلُ العِطْفَيْنِ بِالوَسَنِ
فِيْ لَيْلَةٍ أَوْعَدَتْ بِالبَيْنِ، فَاخْتَلَسَتْ
مِنَ العُيُونِ بَقَايَا غُبَّرِ الوَسَنِ
حَتّى نَظَرْتُ وَلِي عَيْنٌ مُؤَرَّقَةٌ،
تُقَسِّمُ الدَّمْعَ بَيْنَ الرَّبْعِ وَالظُّعُنِ (1)

فقد أسقط الشاعر اكتئابه وحزنه على الطبيعة ليجسّد من خلالها تفجعه ساعة الوداع، فالليل آخذ في المشيب، بينما أخذ البرق يكسو بنوره الخاطف زخّات المطر المتهاطلة ليزيد من لمعانها، موحيا بمشاركة السماء له حزنه وسهاده الذي أثقل جفنيه في تلك الساعة المبكّرة من الفجر بسبب مبارحة النّوم لعينيه في الليلة التي آذنت بالفراق، بينما أخذت الأضعان أهبتها للرحيل وقد وقف الشاعر عن كشب موزع القلب ودموع عينيه مقسّمة بين هوادج الأحبّة التي أزمعت على الرحيل، وبين المضارب الكئيبة التي تجاوبت مع حزنه، فوجدان الشريف يكاد يتفلغل في كلّ بقعة من بقع المشهد ليتجاوب الكلّ مع حزنه العظيم.

وقدرة شاعرنا الفذّة على الابداع في التشخيص، جعلته لا يقصر تعبيره على تصوير انفعالاته الخاصّة ساعة الوداع بل تعدّاها ليدخل في خبايا نفس طرفه المقابل، ليصوّر لنا عظيم تفجعه، ممّا يجعل العواطف غاية في التشابك والتعقيد أثناء تلك اللحظات الحرجة، من ذلك قوله مصوّرا ساعة وداع : (خفيف)

قَالَ لِيْ صَاحِبِي، غَدَاةَ التَقَيْنَا
نَتَشَاكَى حَرَّ القُلُوبِ الظِّمَاءِ :

---

1) الديوان 2/510 .

كُنْتَ خَبَّرْتَنِي بِأَنَّكَ فِي الوَجْـ
ـدِ عَقِيْدِي ، وَأَنَّ دَاءَكَ دَائِـيْ
مَا تَرَى النَّفْرَ والتَّحَمُّلَ لِلبَيْـ
ـنِ ، فَمَاذَا انْتِظَارُنَا لِلْبُكَـاءِ؟
لَمْ يَقُلْهَا حَتَّى انْثَنَيْتُ لِمَا بِيْ
أَتَلَقَّى دَمْعِي بِفَضْلِ رِدَائِـي (1)

فلقد كشّف الشريف كل المعاني الدالّة على ما ينتاب العاشق الوله من شوق وحرقة وألم في قوله " نتشاكى حرّ القلوب الظماء " وفي ذلك تصوير لما يضطرم في نفسه من هيام ساعة اصغائه لمن يحب وقد غلّف حديثه العتاب الحزين وهو ينتزع كلمات الوداع من نفسه انتزاعا مذكرا الشاعر قوله في لقاءات سابقة عن مدى تعلقه وشدّة هيامه وصدق حبّه ، وكأنّه يريد أن يتأكّد من مدى مصداقية ذلك القول ومدى التزام الشاعر به ، سائلا ايّاه عن سبب الانتظار المشحون بالتأوهات الملتاعة ولم يعد هناك وقت لكلّ ذلك فساعة الرحيل قد حان حينها ولا بدّ من الفراق ، والشاعر صامت في ذهوله وحيرته ، إلاّ أنّه ما أنّ أحسّ بساعة الوداع حتّى اضطرب قلبه ، وتزعزع كيانه ، وفضحت دموعه التي حاول أن يخفيها ما يعاني من وجد وجوى ، خاصّة وأننا نكاد نشعر بأنّ الوداع في شعر الشريف لا لقاء بعده ، فهو كالموت في مرثياته ، ففي وصف ساعة وداع يقول : (بسيط)

أَهْوَى إِلَيَّ يَدًا عَقْدُ العِنَاقِ بِهَا ،
والبَيْنُ يَعْذُلُهُ ، وَالحُبُّ يَعْذِرُهُ
وَقَالَ : تَذْكُرُ هَذَا بَعْدَ فُرْقَتِنَا ؟
فَقُلْتُ : مَا كُنْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ (2)

---

1) الديوان 1/35 وعقيدى = معاهدى .
2) الديوان 1/516 .

فاستسلام الحبيب للعناق قبيل الوداع، وقد احتارت الكلمات على الشفاه لم يحل دون تصويرها على شكل حديث مقتضب جسّده الرضي في السؤال الحائر الحزين الذي تفوهت به الحبيبة لتتأكّد من مكانتها في نفس الشاعر بقولها " أتذكر هذا بعد فرقتنا " وهي تعني بذلك، ما هما عليه من عناق حار، فيبادرها بالجواب " ما كنت أنساه فأذكره " لأنّ الذكرى لا ترد الى الخاطر الاّ بعد نسيان ، والرضي ليس من أولئك الذين ينسون الحبّ، ويتنكرون للود ومحاولة تأكيد الذكرى دون الوعد باللقاء تعني ضمنا الفراق الأبدي ، وعلى ذلك فإننا لا نجد في شعر الشريف ما ينم عن موعد لقاء اطلاقا ، وهذا بدوره يؤدّي الى الحنين المشوب بالتحسّر والحزن والألم .

3- الحنين :

الحنين شوق يضطرم في النفس ولا يقتصر على ناحية معينة من نواحي الحياة، فقد يكون الحنين الى الوطن اذا ابتعد الانسان عنه، كما في قول شاعرنا ، مصوّرا شوقه الى وطنه أثناء عودته من حج سنة 394 (طويل)

نُشَاقُ إلى أَوْطَانِنَا ، وَتَعُوقُنَا
زِيَادَاتُ سَيْرٍ مَا حَسِبْنَا حِسَابَهَا (1)

وقد يكون الحنين الى أيّام جميلة يتوق الانسان الى استعادتها (طويل)

وَللّهِ أيّامٌ عَفَوْنَ كَمَا عَفَا
ذَوَائِبُ مَيّاسِ العَرَارِ رَطِيْبِهِ

1) الديوان 1/ 74 .

أحِنّ إلى نَورِ الرُّبَى فِي بِطَاحِهِ،
وَأظْمَا إلى رَيّا اللّوَى في هُبُوبِهِ(1)

وقد يكون الحنين الى أناس عاش في كنفهم وتمتع بالسعادة في جوارهم وهو ما نرمي اليه من خلال علاقة الحب الذي طالما تغنى به الشريف اذ لا تخلو معظم قصائد الغزل ومقطوعاته من الحنين الى المرأة، والحاحه على ذلك بكثرة يعني الاخلاص الوكيد والوفاء اللذين يخفق بهما قلبه ويعتلجان في نفسه ، ولو كان من أولئك الشعراء اللاهين لما تكرر الحنين بصوره الحزينة بتلك الكثرة فتقديسه لعاطفة الحب حتم عليه عدم تعويضه بحب آخر فقوله : (بسيط)

مَا سَاعَفَتْنِي اللّيَالِي بَعْدَ بَيْنِهِمُ
إلاّ بَكَيْتُ لَيَالِينَا بِذِي سَلَمِ
وَلا استَجَدّ فُؤادِي فِي الزّمَانِ هَوىً
إلاّ ذَكَرْتُ هَوَى أيّامِنَا القُدُمِ
لا تَطْلُبَنّ لِيَ الأبْدالَ بَعْدَهُمُ
فإنّ قَلْبِيَ لا يَرْضَى بِغَيْرِهِمِ(2)

مرتبط بذكرى الفراق المضني الذي كلّما عاود نفسه عاد الى التحسّر والبكاء ،وكلّما حاول التشاغل والنسيان بحب جديد ، عاوده الحنين الى محبوبه القديم وأيامه السعيدة ،فزجر النفس في عدم طلب البديل - وإنْ تعذر الوصول اليه - هو استجابة للقلب الذي رضي باللوعة والحرمان تعلقا بالحب القديم ،وتفانيا في الوفاء له ،ممّا يجعل الحنين مستمرا مدى الأيام : (وافر)

أَحِنّ إلى لِقَائِكِ كُلّ يَومٍ
وَأَسْأَلُ عَنْ إيَابِكِ كُلّ وَقْتِ
وَأَذْكُرُ مَا مَضَى فيفيض صَبْرِي
وَتَغْدُرُ عَبْرَتِي وَيَبُوحُ صمتي (3)

---

1) الديوان 1/132.
2) الديوان 2/275.
3) الديوان 1/219.

فمعاودة الحنين الى اللقاء ، والسؤال عن أوبة الغائب مع ارتباط كل ذلك بتذكر ما مضى من أيام سعيدة ،يضرم الشوق في نفس الشاعر ، وينفذ صبره من طول الانتظار ،فيلجأ الى الدموع والبوح بما في النفس من كمد ، وشجن ، لأنه يدرك في قرارة نفسه أن ما مضى لا يعود ،خاصة وأن ما يطلبه هو في حقيقته صورة مثالية للحب تعلقت نفسه الرقيقة بها ، فاستحالت الى شوق لم يتمكن من تحقيقه ،لأنه تعرف عليها في صحرائه التي تاه حبا بها فجعلها دائمة الترحال لا تستقر في مكان فتبعها بقلبه باكيا أطلالها .

4- الطلل :

الطلل في نسيب الشريف الرضي عنصر من عناصر التذكر المشبع بالحزن الذي يبلغ في الكثير منه مرحلة التفجع (1) ،ففي قوله : (طويل)

فواها مِنَ الرَّبْعِ الذي غَيَّرَ البلى
واه على القوم الذين تفرّقوا
أصُونُ تُرَابَ الأرضِ كانُوا حُلُولَها
وأحْذَرُ مِنْ مَرّي عَلَيْهَا وأُشْفِقُ
وَلَمْ يَبْقَ عِندي للهوى غيرَ أنني
إذا الرَّكبُ مَرّوا بِي عَلى الدّارِ أشْهَقُ (2)

هو الى الرثاء الملتاع أقرب منه الى الحنين والتذكر ، فتوزع روحه الولهى بين ما كانت تمثله تلك الربوع من سعادة وأمن وبين ما آلت اليه من دمار وخراب واندثار ،جعل نفسه الحساسة تكرر ذلك التغيّر المريع ، فصدر ذلك على شكل تفجّع وتوجع جسّدتهما الندبة في "واها" و التوجع "آه" فخشيته على تراب تلك الربوع حتى من وطئة عليها في الماضي لم يحل دون اندثارها الذي أثار دموعه وأجّج أشجانه فلم يستطع كظم

---

1) يتجلى ابداع الرضي في وصف الطلل فيما عرضنا له من أبيات في ص 365 وما بعدها من هذا البحث.

2) الديوان 2/ 7.

تحسره الملتاع أثناء مروره بتلك الديار ، فصدر على شكل شهقات ، فالاستفهام في مجال الوقوف على الأطلال يعني التحسّر وحرقة القلب ، لما في ذلك من تلمس وبحث عن مرابع الحب ومجامع الانس خلال ركام من الآثار المندثرة التي عدى الدهر بصروفه عليها .

فنسيب الرضي يمكن اعتباره - بشيء من التحفظ - جزءاً من رثائه ، لأن سعادته بالحب في ذلك النسيب لا تعدو أن تكون سويعات قليلة ، يعقبها فراق أبدي تتضح بمرارته تعبيرات الأسى الذي ظل يلازمه مع من أحب في محيطه الاجتماعي : الأموات برثائهم ، والأحياء في صدهم أو فراقهم ، فانعكس ذلك الحزن على معظم ما نظم من نسيب فأحال الكثير من تعبيراته الى تلهف وتوجع وندبه كما في قوله (وافر)

فَوَاهاً كَيْفَ تَجْمَعُنَا اللَّيَالِي ؟
وَآهاً مِنْ تَفَرُّقِنَا وَآهَا (1)

فالندبة في "واها" والتوجع بتكرار "آها" مرتين وتوسط الاستفهام في "كيف تجمعنا الليالي" ، بينهما يعني استحالة اللقاء ، فهو تكثيف لتحسر بلغ بالشاعر مرحلة من الحزن الذي أضنى نفسه وألهبَ فؤاده ، فاستحال الى تلهفات ملتاعة وشقهات ملتهبة ذابت لها نفسه : (طويل)

فَوَالَهَفِي كَمْ لِي على الخَيفِ شَهْقَةً
تَذُوبُ عَلَيْهَا قِطْعَةٌ مِنْ فُؤادِيَا (2)

ان استحالة علاقة الحب - في نفسه - الى تحسّر وأسى قد بلغت مرحلة عظيمة من الحزن ، خاصة حين أحسّ بسرعة طي الزمن لشبابه الذي لم يتأت له الاستمتاع فيه بحياته ، ممّا جعله يبكي الشباب ويذم الشيب في الكثير من شعره وهو ما زال في مرحلة مبكرة من السنّ .

بكاء الشباب وعلاقته بالتفجع في شعر الشريف الرضي :

تبلغ عدد أبيات الشباب والشيب في شعر الرضي خمسمئة وخمسة

---

1) الديوان 2 / 563 .
2) الديوان 2 / 570 .

وأربعين بيتا تقريبا (1). أي ما يعادل 3،37 ٪ من مجموع شعره ،وقد تلازم ذلك الشعر مصطبغا بأساه وحزنه مع مختلف مراحل حياته ،لأن الشيب بدأ يغزو شعره وهو في سنّ العشرين فما أن بلغ الثالثة والعشرين حتى استحال ذلك الشيب الى طاقات أهلعته وأهمت نفسه فقال معاتبا إيّاه سنة 383 هـ :

(سريع)

عَجِلْتَ،يَا شَيْبُ ،عَلَى مَفْرِقِي،
وَأيُّ عُذْرٍ لَكَ أنْ تَعْجَلا
وَكَيْفَ أقْدَمْتَ عَلَى عَارِضٍ
مَا اسْتَغْرَقَ الشَّعْرَ وَلا اسْتَكْمَلا
كُنْتُ أرى العِشْرِينَ لِيْ جُنَّةً
مِنْ طارق الشَّيْبِ إذا أقْبَلا
فَالآنَ سِيّانِ ابنُ أمِّ الصِّبَا،
وَمَنْ تَسَدّى العُمُرَ الأطولا (2)

فعتابه للشيب في هذه المرحلة المبكرة من سنّ الشباب ليس دلالة على الهرم أو الخور في جسمه ، ولكنه شعور بالرهبة داخلي لما يحمله ابيضاض الشعر من معاني العجز الحقيقي اذا اقترن بالشيخوخة والعجز الوهمي اذا اقترن بالشباب ، فالشريف في جعله الشاب الفتى والشيخ الطاعن في السنّ على قدم المساواة بسبب تغيّر لون الشعر في البيت الأخير ،ما هو الا تعبير عن تبرم ومعاناة يمكن اعتبارهما حالة يأس مؤقتة انتابته بسبب تواتر الهموم على نفسه لأن الشيب في حقيقته " لا يقدم مؤخرا ولا يؤخر مقدما " بل ربّما عدل بجلائل الأمور ، ومهمات الخطوب عن المشايخ الى الشباب لاستقبال ايامهم ،وسرعة حركاتهم ، وحدّة اذهانهم وتيقظ

---

1) هذا الرقم يعادل كل ما جاء في شعر الرضي من شيب وشباب ، أما قصائده ومقطوعاته التي قصرها على الشيب وحده فلا تزيد عن السبعة والستين بيتا ، راجع جدول المضامين ص

2) الديوان 2/ 224.

طباعهم ، لأنهم على ابتناء المجد أحرص واليه أصبى وأحوج" (1) . فلظهور الشيب في السنّ المبكرة عوامل كثيرة منها القلق والخوف كما يبدو من قول عبد الملك بن مروان " شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن " (2) ، ومن عوامل غزو الشيب للمرء في مقتبل عمره أيضا الاحباط الذي تصاب به النفس الطموحة ، جراء شعور الفرد بعدم تقدير المجتمع لقدراته ، والحيلولة دون تحقيق آماله ومحاولة النيل منه في شخصه ، أو قد يكون المتسبب في الشيب شعور الفرد بظلم الحكام في هضم حقّه وزعزعة كيانه ببثّ الرعب في نفسه واقلاق راحته في وسطه الاجتماعي من خلال علاقاته الانسانية المتعددة الجوانب ، كالصداقة ،ورابطة القرابة والفشل في عقد أواصر النسب عن طريق الزواج . وتكاد كل تلك العوامل تنطبق على حياة الشريف الرضي خلال تعامله مع الحكام والوزراء والأهل والأصدقاء ، ممّا يعني أن شعره في ذكر الشيب والبكاء على الشباب هو جزء من حياته لازمه ملازمة الظل في الكثير من شعره ، فرغم وروده على شكل أبيات متفرّقة خلال قصائده الطويلة - في معظم الأحيان - إلّا أنه تعبير صادق عن معاناة حقيقية ،فالقارئ لشعره المقسم على جميع مراحل حياته يلاحظ أنّه دائم الملاحظة للتغيير الذي يطرأ على لون شعره ،وكأنّه ينظر الى الزمن من خلال ذلك التغيير المريع ، حتى أنّنا نجده يؤرخ لذلك . ففي سنّ الثالثة والعشرين قال قصيدته اللامية التي ذكرنا أبياتا منها (3) ، وفي سنة 392 هـ أي بعد أن جاوز الثلاثين بقليل نصادف أبياتا أخرى في التأسف على انجسار الشباب وذلك عندما حلق شعره بمنى : (كامل)

لا يُبْعِدَنّ اللّهُ بُرْدَ شَيْبَةٍ
أَلْقَيْتُهُ بِمِنىً ،وَرُحْتُ سَلِيْبَا
شَعْرٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبَابَ غُرانقًا
وَالعَيْشَ مُخْضَرَّ الجَنَابِ رَطِيْبَا

---

1) الثعالبي - اللطائف والطرائف ص 166 .

2) ابن عبد ربه - العقد الفريد 3/ 41 .

3) عرضنا للأبيات في ص 828 من هذا البحث .

بَعْدَ الثّلاثِينَ انْقِـــراضُ شَيْبَـةٍ،

عجبا أميم لقد رأيت عجيبا (1)

فالدعاء للشباب بالدوام والبقاء لن يغير من الواقع ، فتلك سنة الكون وطبيعة الحياة ، فعيش الشاعر في حمى شبابه المخضر الجوانب وشعره الأسود لم يدم له طويلا ،لأن سنّ العشرين كان بداية غزو الشيب لرأسه ، لذا فليس لعجب الرضي مكان حين يشاهد كثرة ذلك الشيب في سنّ الثلاثين ، ولكن حبّه للحياة وتطلعه لمرحلة الشباب على أنها قوّة ووقاء من النهاية الحتمية للانسان يجعلانه دائم التشبث بسواد الشعر لون الشباب والدلالة عليه. فشعر الشيب في هذه الحالة رثاء للنفس ، فقد وصفه بعض النقاد القدامى بذلك ، فبسبب قيمته **التأثيرية** قال عنه الاصمعي " أحسن أنماط الشعر المراثي والبكاء على الشباب " (2) ،وينطلق الاصمعي في حكمه ذاك ممّا يتركه الشيب في نفس الانسان من شعور بالعزلة بنفور الغواني والخوف من العتاب أثناء محاولة التمتع بملذات الحياة لما في الشيب من وقار يتنافى وتصرفات الشباب المتسمة بالنزق والطيش في نظر المجتمع ، هذا بالاضافة الى ما يسببه الشيب من هلع يؤدي الى الجنوح الى عتاب النفس والنظر الى ملذات الحياة ومتعها بحسرة وألم ، فتستحيل المشاعر الى رثاء مفجع ،خاصة وأن الشيب وانحسار الشباب شعور ذاتي يعبر فيه الانسان عن أحاسيسه تجاه نفسه، لأنه لا يشعر بقيمة الشباب وغضارته الاّ بعد فوات حينه ، فيعيش الندم بسبب عدم استغلاله لأيّامه الى أبعد الحدود ، والحسرة على فواته في سرعة مذهلة ، مقارنًا بين تذكر الزهو به والبكاء عليه .

بكاء الشباب في شعر الرضي :

لم يكن الشريف متفرغا لنفسه ليصف مشاعره تجاه لذة العيش والتغني بالشباب ،فانشغال روحه بما يهمها من مجد وطموح وعلاقات اجتماعية شغلته عن الاستمتاع بشبابه وعن التغني به أثناء

---

1) الديوان 1/ 180 .

2) ابن عبد ربه السابق 3/ 46 .

غضارته ، لذلك لن نظفر في شعره بأبيات خاصة تصف استمتاعه بشبابه ،فجميع ما ورد عنده من شعر في مجال الزهو بالشباب هو على سبيل التذكر ، من ذلك قوله : (كامل)

وَلَقَدْ أَكُونُ مِنَ الغَوانِي مَرَّةً
بِأَعَزِّ مَنْزِلَةِ الحَبِيْبِ الأَقْرَبِ
أَقْتَادُهُنَّ بِفَاحِمٍ مُتَخَايِلٍ
فَيُزِينُنِي وَيَزِينُ لِي وَيَزِيْنُ بِي
وإِذا دَعَوْتُ أَجَبْنَ غَيْرَ شَوامِسٍ
زَفَّ النِّيَاقِ إِلى رُغَاءِ المُصْعَبِ
فَاليَوْمَ يَلْوِينَ الوُجُوهَ صَوادِفاً
صَدَّ الصَّحَاحِ عَنِ الطُّلِيِّ الأَجْرَبِ (1)

فقول الشريف "أكون" لا يعني وصفه لحالة آنيّة يعيشها ويستمتع بلذاتها ، فالتعبير بالحاضر ما هو الا توق من خلال تذكر الماضي الذي يحاول الارتماء فيه لا شعوريا ،فوصفه لحال علاقته بالغواني حين كان الشعر أسود اللون ، فقد كنّ يحوّمن حوله ،ويأتمرن بأمره ويستجبن لدعوته في تلهف ، وهو تذكر وتحسّر بمقارنته بصدود هنّ عنه تجنبهن طريقه في قوله "اليوم يلوين . . ." مثله مثل الجمل الأجرب الذي تتجنبه النوق الصحاح حتى لا تصيبها العدوى فالتلهف على أيام الشباب تذكر مفجع متولد عن مقارنة بين أمس جميل ، وبين حاضر كئيب : (كامل)

لَهْفِي لِأَيّامِ الشَّبَابِ عَلى نَدَى
أَطْرَافِهِنَّ وَظِلِّهِنَّ الأَبْرَدِ
أَيّامُ أَنْغُضُ لِلمَرَاحِ ذَوائِبِي
وَأَرُوحُ بَيْنَ مُعَذَّلٍ وَمُفَنَّدِ
فَالآنَ إِذْ قَرَعَ النَّوائِبُ مَرْوَتِي
وَأَلَنَّ مَعْجِمَ عُودِيَ المُتَشَدِّدِ
أَلْبَسْنَنِي بُرْدَ الوَقَارِ ضَرُورَةً
وَأَرَيْنَنِي جَدَدَ الطَّرِيقِ الأَقصَدِ (2)

---

1) الديوان 1/ 181 . والزف : الاسراع ، المصعب : الفحل .

2) الديوان 1/ 350 . والجدد : الأرض الغليظة المستوية ، الأقصد : الأشد استقامة .

فتذمر الرضي من واقعه جعله يجنح الى الماضي متلهفا عليه متذكرا متعه وجماله الذي حصره في ذوائب سوداء فاحمة جعلته محط أنظار الحسان وتلهفهن عليه ، فكان استمتاعه بفضارة الحياة وبهائها غير آبه الى لوم اللائمين وعتاب المستكرين ، أمّا حاضره - بعد أن كلل الشيب هامته - فقد أحال الحياة الى عداء مستحكم تجاهه ،فمصائبها تتوالى عليه مهيضة جانبه و ميبسة عوده ، مرغمة اياه على اكتساء الشيب الذي كنّى عنه "ببرد الوقار" في محاولة تحسينه في عينه وتحبيبه الى نفسه لرفضها اياه كواقع مؤلم لا يمكن الفرار منه ،وحلول الشيب برأسه وهو ما زال صغيرا جعله يكرر معاني الحنين الى أيام الشباب والتحسّر عليها في الكثير من شعره الذي يتيح له فرصة التعبير عن تلك المعاني ، يقول متسائلا عن عيشه بعد أن حطّ الشيب في رأسه : (رجز)

عِشْرُونَ أَعْجَلْنَ الصّبا وَجُزْنَ بِي
غَايَاتِهِ ، وَمَا قَضَيْنَ وَطَرِي
فَكَيْفَ بِالعَيْشِ الرّطِيبِ بَعْدَ مَا
حَطّ المَشِيْبُ رَحْلَهُ في شَعَرِي
سَوَادُ رَأسٍ أمْ سَوَادُ نَاظِرِ ،
فَإنّهُ مذ زَالَ أقْذى بَصَرِي
مَا كَانَ أضْوَى ذَلِكَ اللّيْلَ عَلَى
سَوَادِ عِطْفَيْهِ ، وَلَمّا يُقْمِرِ
عُمْرُ الفَتَى شَبَابُهُ ، وَإنّمَا
آونةَ الشّيْبِ انْقِضَاءُ العُمُرِ(1)

فالشيب في سنّ العشرين لا يعني بلوغ صاحبه مرحلة الهرم ،ولكن تعلق الرضي بالحياة وتوقه الى المجد ، وخوفه من النهاية دون أن يبلغ غاياته ويحقق طموحاته ،جعل نفسه الهالعة تربط الزمن بظاهرة الشيب ، فلم يعد -في نظره- للحياة طعم بعد أن حطّ الشيب برحاله في شعره ، فزوال سواد الرأس سوّد الحياة في عينيه فاستجال انحساره عن الرأس الى تفجع جسّده التعجّب الانكاري

---

1) الديوان 1/476.

بما كمن فيه من تضاد استوعبه قوله " ما كان أضوى ذلك الليل . . " فالضوء يعني البهاء والجمال الذي يتمناه الشاعر في سواد شعره أمّا "يقمر" في عجز البيت فتعني البياض الذي ينفر منه وقد رشّح حنينه الى الشباب الكامن في سواد الشعر نظرته التأملية من خلال نفسه الهالعة بربطها انقضاء عمر الإنسان بحلول الشيب كما في البيت الخامس ،وليس ذلك بالشئ الحتمي ولا القياس الصائب إلّا أن جري الزمن بشاعرنا دون أن يبلغ مراده ويحقق طموحاته جعله يكبر وهو ما زال يخطو في مرحلة الشباب ، فجاء التمني الممتنع في قوله : (كامل)

لَوْ يُفْتَدَى ذَاكَ السَّوَادُ فَدَيْتُهُ

بِسَوَادِ عَيْنِي بَلْ سَوَادِ ضَمَائِرِي

أَبْيَاضُ رأسٍ وَاسْوِدَادُ مَطَالِبٍ

صَبْرًا عَلى حُكْمِ الزَّمَانِ الجَائِرِ(1)

كشفا عمّا نوء به نفسه - التي عذبها الطموح - من تفجع ، فتمنيه ببذل عينيه وحياته لافتداء الشباب الذى كنّى عنه بالسواد ،لن يعيد الزمن كي تعود اليه نضارته ،وادراك شاعرنا لاستحالة تحقيق ذلك جسّده التمني بـ(لو) ، فجاء الاستفهام في " أبياض رأس . . . ؟ كعتاب مرير للزمن الذي عجّل به الى المشيب وهو ما زال في بداية الطريق ، فكان قوله " صبرا على حكم الزمان الجائر" ترجمة لما يكابد من ألم ويعاني من اخفاق بتجسيده الحيوية في الزمن بوصفه بالجور . فتأسفه على مضي الشباب ، وبكاء عهده النضر أدّى به الى ذمّ الشيب والتفجع منه في جل ما ورد عنده من شعر في الشيب والشباب .

ذم الشيب في شعر الشريف الرضي :

يكاد ذمّ الشيب يستولي على جميع المعاني الشعرية المرتبطة بالزمن الذي ينظر اليه شاعرنا بارتياب وخوف لما يكتنفه من طي للأعمار ، لذا فمن النادر جدا أن نجد في شعره مدحا للشيب ، فإذا ما ورد مثل ذلك المدح فإنّه لا يكون إلّا في

---

1) الديوان 1/480.

المقدمات الفخرية التي يبدأ بها قصائد مدحه في الخلفاء والملوك ومن ذلك قوله ضمن مقدمة قصيدة مدح في الطائع: (طويل)

مَسِيْرِي إلى لَيْلِ الشَّبَابِ ضَلالُ،
وَشَيْبِي ضِيَاءٌ فِي الوَرَى وَجَمَالُ
سَوَادٌ ،وَلكِنّ البَيَاضَ سِيَادَةٌ،
وَلَيْلٌ ،وَلكِنّ النّهَارَ جَلالُ (1)

وامتداحه للشيب في مثل تلك المقدمات يغلب عليه الصنعة محاولة منه لاثارة انتباه ممدوحه فطبيعة المدح يحتاج الى مقدمات يحاول الشاعر من خلالها اظهار براعته ومقدرته الفنية في تطويع العبارة لتتناسب ومكانة الممدوح ، لذا فليس من المعقول أن يضمن مقدمة مدحه بما ينبئ عن ضعفه وانهيار شبابه لتجلل رأسه بالشيب فعادة ما يغلب على المدح عملية الانتقاء المعبرة عن حسن ذوق الشاعر باختياره الألفاظ الجزلة والمعاني القوية ، المشبعة بالأمل والحماس ، البعيدة عن التشاؤم الذي لا يتناسب وطبيعة المدح. وعلى ذلك وان كان الشيب مذموما لا يسيغ الرضي النظر اليه ،فإن مناسبة المدح تحتم عليه أن يقول فيه ما يتطلبه الموقف فقوله لممدوحه : (بسيط)

يُهَابُ سَيْفُكَ مَصْقُولاً وَمُخْتَضِبًا
وَأَهْيَبُ الشَّعْرِ شَيْبٌ غَيْرُ مَخْضُوبِ (2)

فيه ترشيح لهيبة الممدوح وشجاعته بالتشبيه الضمني في " واهيب الشعر شيب . . . " ، بما يعني من ناحية ثانية قيمة الشيب كوقار وهيبة للانسان ،وهو تزيين مؤقت لا يرد إلّا في مواضع يهدف الشاعر منها إمّا الى الحفاظ على توزان المدح داخل قصيدته ، أو تهدئة ثائرة نفسه وطمأنتها بترغيبها فيما هو معقوت لديها كأمر واقع لا مفر منه ، ولكن لا يغير من حقيقة شيب الرأس بأنه شئ مذموم لا يسيغه الانسان ، ويتمثل ذمّ الشيب في شعر الشريف الرضي في عناصر ثلاثة هي :

---

1) الديوان 2/ 124.
2) الديوان 1/ 62.

أ- المنية والشيب :

ربط الموت بالشيب قديم في الأدب العربي ،فمنه قول قيس بن عاصم المنقرى " الشيب خطام المنية " (1) ،وهو " عنوان الموت " (2) عند أكثم صيفي ، وقد أورد الشعراء الشيب مرتبطا بالمنية في مختلف عصور الأدب ، من ذلك قول دريد بن الصمّة (طويل)

وَمَاذَا تُرَجِّي بِالسَّلَامَةِ بَعْدَمَا
نَأَتْ حِقَبٌ وَابْيَضَّ مِنْكَ المُرَجَّلُ (3)

أو كقول عدى بن زيد العبادى : (خفيف)

وَابْيِضَاضُ السَّوادِ مِنْ نُذُرِ المَوْ
تِ وَهَلْ مِثْلُه لِحَيٍّ نَذِيرُ (4)

ومنه أيضا قول محمود الورّاق : (مجزوء المتقارب)

بَكَيْتُ لِقُرْبِ الأَجَلْ وَبُعْدِ فَوَاتِ الأَمَلْ
وَوَفْدِ شَيْبٍ طَرَا بِعَقْبِ شَبَابٍ رَحَلْ (5)

ويتناول ابن الرومي ارتباط الشيب (6) بالموت في الكثير من شعره ، لما أثر عنه من تشاؤم وطيره (7) ، فمن ذلك قوله (طويل)

وَفَقْدُ الشَّبَابِ المَوْتُ ، يُوجَدُ طَعْمُهُ
صُرَاحًا ،وَطَعْمُ المَوْتِ بِالمَوْتِ يُفْقَدُ (8)

وكذلك عند شاعرنا يقترن الشيب بالمنية في كثير من المواضع في شعره كما في قوله : (رجز)

---

1) و 2) الثعالبي - التمثيل والمحاضرة ص 385.
3) دريد بن الصمّة - ديوانه ص 102
4) الجاحظ - البيان والتبيين 2/332.
5) ابن عبد ربه - السابق 3/41.
6) يعتبر ابن الرومي من الشعراء المكثرين في شعر الشيب راجع على سبيل المثال ديوانه 1/265 ، 258 ، 334 ،و 2/584 ، 670 ، 766.
7) حول ما قيل عن طيرة وتشاؤم ابن الرومي راجع - ابن رشيق - العمدة 1/69.
8) ابن الرومي - ديوانه 2/585.

عُمْرُ الفَتَى شَبَابُهُ، وإنّمـــا
وَنَةُ الشّيْبِ انْقِضَاءُ العُمُرِ (1)

فشاعرنا يحصر شباب الانسان وعمره في مرحلة ما قبل ظهـــور الشيب ، معتبرا مشيب الرأس نهاية الانسان . يقول في موضع آخر (كامـــل)

كَانَ الشّبَابُ دُجُنّةً، فَتَمَزّقَـــتْ
عَنْ ضَوْءِ لاَحَسَن ، وَلا مَألُـوفِ
وَلَئِن تَعَجّلَ بِالنّصُولِ، فَخَلْفَـــهُ
رَوْحَاتُ سَوْقٍ للصنون عَنِيـــفِ (2)

اذ يعتبر الشباب المتمثل في سواد الرأس بظلمته كالوقاء والستـــر ويعتبر الشيب الممزق لذلك الوقـاء والستر قاصدا الكشـف عـــن ضعف الانسان ليقتاده الى الحتف ، فما ان يحل الشيب حتـــى يسوق صاحبه بعنف الغ طريق الفناء .

ومن الملاحظ أن اقتران الشيب بالغنية لا يرد في شعر الرضي الاّ ضمن مقارنته بالشباب ، والمقارنة في هذا الصدد تعني التحسّر على الماضي والخوف والهلع من الحاضر وممّا ستجلبه الأيام فـــي طيّاتهـا : (بسيـــط)

وَلّى الشّبَابُ وَهَذا الشّيْبُ يَطْـرُدُهُ،
يَغْدِي الطّرِيدةَ ذَاكَ الطّارِدُ العَجِلُ
مَا نَازِلُ الشّيْبِ فِي رَأسي بِمُرْتَحِـلٍ
عَنّي ، وَأعْلَمُ أنّي عَنْهُ مُرْتَحِـــلُ (3)

ففي قوله " ولى الشباب " تكمن الحسرة على شئ ثمين قد ضـاع لم يتمتع به طويلا ، وقوله " وهذا الشيب يطرده " يمثل الألـــم من واقع مضطـــرد الازدياد أجبر الشاعر على الرضوخ اليه. وقـد تجلى خوف الشاعر وحزنه في جعله حياته كلها بما في ذلـــك شبابه طريدة للشيب الذي سيبقى بلونه الناصع البياض بعـــد أن يرتحل هو الى دار الفناء . فالشباب ليل يضل صاحبه لما يكتشـف أيامه من نزق وطيش ، كما أن الشيب بالنسبة اليه كالسيف المسلـط

---

1) الديـــوان 1/476.
2) الديـــوان 2/12.
3) الديـــوان 2/179.

فإذا كان لون الشباب لا يدوم ،فإنّ حياة الانسان بعد شيب الرأس قصيرة أيضاً : (طويل)

شَبَابُ الفَتَى لَيْلٌ مُضِلٌّ لِطُرْقِهِ،
وَشَيْبُ الفَتَى عَضْبٌ عَلَيْهِ صَقِيلُ
فَمَا لَوْنُ ذَا قَبْلَ المَشِيبِ بِدَائِمٍ،
وَلا عَصْرُ ذَا بَعْدَ الشَّبَابِ طَوِيلُ
وَحَائِلُ لَوْنِ الشَّعْرِ فِي كُلِّ لِمَّةٍ،
دَلِيلٌ عَلى أنَّ البَقَاءَ يَحُولُ (1)

فالأبيات،بما تحمله معانيها من حزن عميق منساب في هدوء، قد وردت ضمن تعزية للخليفة الطائع ،وقد ابتغى الرضي من ايرادها بهذا الأسلوب الهادئ التخفيف من روع الخليفة ، ولكنه في ذات الوقت كان يحاول تعزية نفسه والتهدئة من مخاوفها ازاء الشيب الذي غزا لمّته مؤذنا برحيله ، وذلك ما جعله ينظر الى الحياة في استحالة بقائها على حال واحدة من خلال ما يطرأ على شعره من تغير ، فالشيب الذي استخدمه كعبرة وموعظة هو وليد معاناة خاصة مرتبطة بذات الشاعر ، وما فيه من دلالة على عدم ديمومة الحياة ليس الاّ محاولة لاقناع النفس للركون الى الدعة والرضوخ للواقع . وما دام الشيب ضيفا ثقيلا لا بدّ من استقباله برغم ما يحمل في طيّاته من ردى فلقد سلم شاعرنا قياده باكيا عمره الراحل : (طويل)

أَلا حَيِّ ضَيْفَ الشَّيْبِ إنّ طُرُوقَهُ
رَسُولُ الرَّدَى قُدّامَهُ وَدَلِيلُهُ
وَقَدْ كَانَ يُبْكِينِي لِشَعْرِي نُزُولُهُ،
فَقَدْ صَارَ يُبْكِينِي لِعُمْرِي رَحِيلُهُ (2)

فبكاء الماضي كان بسبب تغيّر لون الشعر صار في الحاضر بكاء على العمر الراحل ،وبدايات ذلك الرحيل العزلة ونفور الغواني .

ب - نفور الغواني من الشيب :

تقوم العلاقة بين الغواني والشيب في الشعر العربي على

---

1) الديوان 2/191.
2) الديوان 2/269.

التنافر والتضاد ، فما أنْ يبيض شعر الرأس حتى تنأى الغواني عن صاحبه وتتجنب وصاله ، يقول محمد بن أمية مصورا إعراض الغواني عنه نتيجة رؤيتهن الشيب في رأسه : (طويل)

رَأَتْنِي الغَوَانِي الشَّيْبُ لاَحَ بِعَارِضِي
فَأَعْرَضْنَ عَنِّي بِالخُدُوْدِ النَّوَاضِرِ (1)

ويقول المتنبي في علاقة الغواني بالشيب : (وافر)

وَمَنْ خَبَرَ الغَوَانِي فَالغَوَانِي
ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلاَمُ
إِذَا كَانَ الشَّبَابُ السُّكْرَ ، وَالشَّيْـ
ـبُ هَمًّا ، فَالحَيَاةُ هِيَ الحِمَامُ (2)

فتجربته مع المرأة جعلته يتّخذ من الحسان موقفًا حذرًا لأن ظاهرهن لا ينبئ عن باطنهن ،فالتعلق بهنّ كالتعلق بالحياة التي تقود الانسان الى حتفه ، فهنّ في مرحلة الشباب يشغلنه ويتلهين به ويجعلنه في سكر دائم لا يصحو منه إلاّ بعد أن يكلل الشيب شعره،فينأين عنه مثلهنّ مثل الحياة في إقبالها وادبارها . لذلك فإنّ ظهور الشيب يوغر الصدر وينغص الحياة فلا يقبل فيه عذر، ولا يصاخ لصاحبه سمع من لدن الغواني، ممّا يؤدي بصاحبه الى الدعاء عليه تبرما منه وممّا يسبب من مشاكل كما في قول الشريف المرتضي : (كامل)

لَا مَرْحَبًا بِالشَّيْبِ أَظْلَمَ بَاطِنِي
لمّا تَجَلَّلَنِي وَأَشْرَقَ ظَاهِرِي
شَعْرُ أَبَى لِي فِي الحِسَانِ إِصَاخَةً
يَوْمَ العِتَابِ إِلى قَبُولِ مَعَاذِرِي (3)

وما إظلام الباطن الاّ تعبير عن المعاناة ، لأن استحالة سواد الرأس الى بياض أصبحت سببا في مجلبة الهموم الى نفسه وقلة الاهتمام به أو الاصغاء اليه من قبل الغيد الحسان اللواتي يمثلن بهجة الحياة وجمالها .

---

1) ابن عبد ربه - السابق 3/ 43 .
2) البرقوقي - شرح ديوان المتنبي 4/ 193 .
3) الشريف المرتضي - ديوانه 2/ 73 .

فالتضاد بين اقبال الشيب وادبار الحياة بملذاتها المتمثلة في المرأة ، هو تعبير حزين عن خوف من الوحدة وافتقاد الحنان والعطف ، فالمرأة على هذا الأساس تتوق الى الإطمئنان والسلام في مرحلة الشيب ، وصدودها هو تصوير إلى الركون للعزلة والرضوخ للواقع لِقُرْبِ النهاية . فكلّما كان الاحساس بالحزن قويا كانت مأساة الشاعر أعمق في علاقته بالحياة المتمثلة في المرأة اثر ظهور الشيب في الرأس ، بغض النظر عمّا لصغر السنّ من أهمية لأن ما يؤخذ به ويقاس عليه في مثل هذه الحالة هو المظهر الخارجي .

واستحالة السواد الى بياض هو ما جعل الشريف الرضي يشكو نفور الغواني منه في سنّه المبكرة . فقوله : (طويل)

وَقَالُوا : غُلامًا زَيّنَ الشّيْبُ رَأسَهُ ،
فَبُعْدًا لِرَأسٍ زَانَهُ الشّيْبُ وَالنّزَعْ
تَسَلّى الغَوَانِي عَنْهُ مِنْ بَعْدِ صَبْوَةٍ ،
وَمَا أَبْعَدَ النّبْتَ الهَشِيمِ مِنَ النّجَعْ (1)

هو استهجان من أولئك الذين قالوا عن الشيب الذي حطّ برأسه -في صغر سنّه- أنه زينة ، داعيا عليه بالبعد ،وبالفناء على رأسه الذي قَبِلَ الشيب زينة ، فبينما كانت الحسناوات تصبون اليه متلهفات اذا بهن يتجاهلنه ، مشبهًا الشيب بالنبات الجاف الذي تصدف الماشية عنه . فالسواد الذي تحوّل الى بياض وهو ما زال في مقتبل العمر زاد من اكتئابه ، وضاعف من أحزانه فتصور نفسه يسير الى الشيخوخة بصدّ المرأة عنه : (سريع)

صَدّتْ ،وَمَا كَانَ لَهَا الصّدُودُ ،
وَازْوَرّ عَنّي طَرْفُهَا وَالجِيْدُ
يَقُولُ لمّا أَخْلَقَ الجَدِيْدُ ،
إذا البَجَالُ ذَلِكَ الوَلِيْدُ (2)

---

1) الديوان 1/ 657.

2) الديوان 1/ 391 والبَجَالُ : الشيخ الكبير المبجل.

فصد الحسناء وازورارها كانا نتيجة بلى الجديد وتحول سواد الرأس الى شيب أكسبه وقارًا وهو ما زال وليدًا، فخلّف في نفسه حسرات ملتاعة جسّدها النداء التفجعي المقرون بالاستفهام التحسري في قوله : (سريع)

يَا أَيْنَ ذَاكَ الخَضِلُ الأُمْلُودُ،
رَيّانَ من مَاءِ الصِّبَا يَمِيْدُ
تُصْحِبُهُ اللّحَظَ العَذَارَى الغِيْدُ،
غَدَا الغَزَالُ اليَوْمَ، وَهْوَ سِيْدُ (1)

فلقد مضى عهد الصبا الغض وانحسر لون الشباب المصحوب بلحاظ العذارى، واستحال الاعجاب الى نفور، فشعوره بالعزلة جعله يشبّه نفسه بالذئب الشرس، بينما كان بالأمس في مرح الغزلان فحلول الشيب آلم نفسه وأحال أيامه الجميلة المشرقة الى حزن وظلام : (سريع)

لَشَدّ مَا أَوْجَعَنِي الغَقِيْدُ،
أَيّامُنَا بَعْدَ البَيَاضِ سُوْدُ (2)

فالسعادة التي كان يعيش في كنفها بالأمس القريب كانت كالخيالات التي سرعان ما استيقظ منها ليعيش الحياة على حقيقتها المؤلمة : (مخلّع البسيط)

فَمُنْذُ أَضَاءَ المَشِيْبُ فَوْدِي،
تَوَرّعَ الزّوْرُ عَنْ مَزَارِي
مِثْلُ الخَيَالاتِ زُرْنَ لَيْلاً،
وَزُلْنَ مَعْ طَالِعِ النّهَارِ (3)

فربط الشيب - وهو داعية الفناء - بنفور المرأة التي تحمل معاني السعادة والجمال والاقبال على الحياة قد يؤدي الى الاعتقاد بأنّ الشريف الرضي لا يقصد المرأة لذاتها، وانّما يقصد بذلك كل ما يعتلج في نفسه من حب وطموح يرى في الشيب حائلاً دون تحقيقه، وتوقه الى المرأة وتعلقه بها مع شعوره

---

1) و 2) الديوان 1/291.

3) الديوان 1/515.

باستحالة مواصلتها، أدّى به الى ربطها في ذلك بكلّ هدف تعذّر عليه بلوغه ، خاصة وأنّه يراها في شِعْرِهِ مجلبة لهمومه ومعينة على انتشار الشيب في شَعْرِهِ : (سريع)

أَلْهَاكِ عَنّا، رَبّةَ البُرْقُعِ،
مَرُّ الثّلاثِينَ إلى الأَرْبَعِ
أَنْتِ أَعَنْتِ الشّيْبَ فِي مَفْرِقِي
مَعَ اللّيَالِي فَصِلِي أَوْ دَعِي (1)

فمن يتحدث اليها الرضي لا يمكن أن تكون امرأة ، لأن البرقع الذي تخفي وراءه وجهها يعني أنها مجهولة ، إضافة الى أنّ الشاعر قد قرنها بالليالي في المعاونة على جلب الشيب ، فإذا كانت الليالي تعني الزمن وما يحدث فيه من نكبات ،فإنّ ذات البرقع هي الحياة بما يحيطها من مجهول يحاول الشاعر مواصلته أملاً في الوصول الى الغايات ، لأنّ ربط الحياة بالمرأة من الظواهر البارزة في شعر الشريف الرضي ، فهي كالمومس في المنح والمنع : (كامل)

وَخَلائِقُ الدّنْيَا خَلائِقُ مُومِسٍ
لِلْمَنْعِ آونةً ، وَلِلإعْطَاءِ (2)

والدنيا أيضا مزواج لا تستقر على بعل واحد : (كامل)

لَا تَأمَنِ الدّنْيَا عَلَيْكَ فإنّهَا
ذَاتُ البُعُولِ تُبَدِّلُ الأَبْدَالَا (3)

وهي كالزوجة التي تتسبب في ايذائه بما تجلبه عليه من مصائب وما ترمي فوق كاهله من محن وآلام متتالية تؤدي الى طلاقها (كامل)

طَلّقْتُهَا أَلْفاً لأَحْسِمَ دَاءَهَا ،
وَطَلاقُ مَنْ عَزَمَ الطّلَاقَ ثَلَاثُ (4)

---

1) الديوان 1/599.
2) الديوان 1/27.
3) الديوان 2/203.
4) الديوان 1/228.

فالدنيا امرأة منحته الحب والأمان بتحقيقها بعضاً من طموحاته ابّان ريعان الشباب ، لكنها سرعان ما قلبت له ظهر المجن وازورّت عنه بناظريها حين بدأ الشيب يغزو شعره ، مروعة اياه فكان عتابه لها في قوله : (متقارب)

أَحَيْنَ فَشَا الشَّيْبُ فِي شَعْرِهِ
وَكَتَّمَ أَوْضَاحَهُ بِالخِضَابِ
تَرُوعِينَ أَوْقَاتَهُ بِالصُّدُودِ
وَتَرْمِيْنَ أَيّامَهُ بِالسِّبَابِ (1)

فمرارة العتاب غلّفت الاستفهام في قوله " أحين فشا الشيب . . . ؟" برنّة من الحزن جسّده تعكير - من يعاتبها - صفو حياته والصاقها العيوب به ، رغم محاولته ستر ما وضح من شيبه بالخضاب في محاولة تمويه مع ادراك أن ذاك لن ينطلي عليها ولن يغير من الواقع ، لأن الخضاب طلاء زائف زائل ، لذلك لم يستخدمه في شعره على الحقيقة ,الّا في النادر القليل .

جـ - الشيب والخضاب :

خضاب الشيب في الأدب والشعر تارة ممدوح وتارة أخرى مذموم ،فبينما يقال عنه " أحد الشبابين " (2) ، يقال عنه أيضاً أنّه " من شهود الزور " (3) ، ويقول المتنبي في استحسان الخضاب (طويل)

وَمَا خَضَبَ النّاسُ البَيَاضَ لأَنّهُ
قَبِيْحٌ وَلَكِنْ أَحْسَنُ الشَّعْرِ فَاحِمُهْ (4)

ثمّ يعود في موضع آخر من شعره ليذمه بقوله : (بسيط)

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مَوَدَّتُهُ
تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيْبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ
وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ
رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فِي الرأس مَكْذُوْبِ (5)

---

1) الديوان 1/121 .
2) و 3) الثعالبي - التمثيل والمحاضرة ص 388 ، 389 .
4) شرح ديوان المتنبي 4/52 ،والتمثيل والمحاضرة ص 388 .
5) شرح ديوان المتنبي 1/292 ،والتمثيل والمحاضرة ص 390 .

وعلى الرغم من كثرة بكاء الشباب والشكوى من الشيب في شعر الرضي إلاّ أنه لم يذكر الخضاب إلاّ في ستّة مواضع من ذلك الشعر ،ثلاثة منها ورد فيها الخضاب على سبيل الحقيقة كما في قوله : (طويل)

وَلَيْسَ خِضَابُ المَرْءِ إلاّ تَعِلَّةً
لِمَنْ شَابَ مِنْهُ عَارِضٌ وَقَذَالُ (1)

وقد أورد البيت على سبيل الحكمة ضمن قصيدة مدح في الطائع يفهم من معناه في السياق الذي ورد فيه أن الرضي يفضل أن يكون شعره طبيعيا دون أن يموهه بالخضاب ، استنادا الى بيته المتقدم على السابق : (طويل)

وَمَا المَرْءُ قَبْلَ الشَّيْبِ إلاّ مُهَنَّدٌ
صَدِئٌ ، وَشَيْبُ العَارِضَيْنِ صِقَالُ (2)

فالبيت يتضمن مقارنة بين الشباب والشيب ، فضّل فيها الرضي الشيب على الشباب حين كنّى عن قلة تجارب المرء في شبابه بالسيف الصدئ ويعني بذلك سواد الشعر ، كما كنّى عن ذي الخبرة والتجربة بعد الشيب بصقل ذلك السيف ، فالبيت الذي ذكر فيه الخضاب ، هو فخر بنفسه ضمن مقدمة مدح يريد أن يقدم نفسه من خلالها انساناً مؤهلا للسيادة ، حتى ينال ما يطمح اليه من مراكز رفيعة كانت تداعب نفسه ، خاصة أنّه قال القصيدة سنة 377 أي في سن التاسعة عشر ، ممّا يجعل ممدوحه يظن أنّه ما زال صغيراً على تسلم المراكز التي تحتاج الى مران ودربة وتجربة ، ولعل الشاعر رمى من وراء تلك المقدمة بمدحه للشيب ونبذه للخضاب - دفع تهمة صغر السنّ وقلة التجربة عن نفسه وعلى كل يمكن اعتبار البيتين من شعره المشبع بالأمل والتفاؤل بالشيب ، وهو من الشعر القليل إذا ما قيس بشعره الحزين .

أمّا الموضع الثاني الذي ورد فيه الخضاب على سبيل الحقيقة ففي قوله : (بسيط)

---

1) الديوان 2/125.

2) الديوان 2/124.

وَغافِلِينَ عَنِ العَلْيَاءِ قَائِدُهُمْ
فِي كُلِّ غَيٍّ فَتِيُّ العَقْلِ مُكْتَهِلِ
شَنُّوا الخِضَابَ حِذَارًا أَنْ يُطَالِبَهُمْ
بِحِلْمِهِ الشَّيْبُ، أَوْ يُقْصِيهِمُ الغَزَلُ (1)

فقد ورد الخضاب ضمن هجاء قوم غفّلهم الجهل فسوّدوا عليهم رجالاً شيوخاً في مظاهرهم ،صفاراً في خبراتهم وتجاربهم ،فمن جهلهم وقلة فطنتهم بأمور الحياة استخدامهم الخضاب كطلاء يزيّفون به حقيقتهم ويسترون وراءه عيوبهم ، فظهور الشيب قد يردعهم عن غيهم ويكفهم عن التمادي في لهوهم . فالخضاب على هذا الأساس تمويه على الحقيقة وزيف وكذب .

وارتبط ورود الخضاب في الموضع الثالث بشكواه المشبعة بالحزن (2) ، خاصة وأنه لم يغيّر من نظرته له على أنه تمويه وزيف .

أمّا المواضع الثلاثة الأخرى فقد استخدم فيها الخضاب استخداما مجازيا ،كما في قوله ضمن مدح الوزير سابور بن اردشير (بسيط)

يُهَابُ سَيْفُكَ مَصْقُولاً وَمُخْتَضِباً،
وَأَهْيَبُ الشَّعْرِ شَيْبٌ غَيْرُ مَخْضُوبِ (3)

فقد ورد الخضاب في المصراع الأول كناية عن "الدم" ،كما ورد في عجز المصراع الثاني في اطار التشبيه الضمني بمشابهة هيبة السيف في صقالته ولمعانه كهيبة الشعر الشائب غير المخضوب الذي يكسب صاحبه وقارا .

ومن استخدام الخضاب في المجاز قوله في تهنئة خاله بمولودة : (بسيط)

وَاصْدُمْ بِكأسِكَ صَدْرَ الدَّهْرِ مُعْتَقِلاً
بِصَارِمِ اللَّهْوِ يَجْلُو قَسطَلَ الكُرَبِ

---

1) الديوان 2/180 .
2) وردت الأبيات في ص 842 من هذا البحث .
3) الديوان 1/62 .

كَأسٍ إذا خضبت بالماء لِمّتُهَـــا
شَابَتْ ،وإن زَلّ عَنْهَا المَاءُ لَمْ تَشِبِ (1)

فقد استعار الخضاب بالماء للخمرة على سبيل تشبيهها بالمـــرأة التي رمز اليها بإحدى لوازمها وهي (اللّمة) وقد منع ايـــراد المعنى الأصلي عبارة "كأس" التي يعني بها الخمر ، مع ملاحظة أن معنى الخضاب في البيت مزج الخمر أو تخضيبها-حسب تعبير الرضي - بالماء الذي يجعلها تشيب بسبب ما يطفح عليها مـــن زبد ، فشيب الخمرة مرهون باختضابها بالماء ، وقد استعار الشاعر تلك الصورة في موضع التهنئة والحـــض على الاستمتاع بملذات الحياة ممّا جعل الخضاب ضمنها غير ذي قيمة لأنّه لا يحيل البيـــاض الى سواد .

والموضع الثالث الذي ورد فيه الخضاب على سبيل المجـــاز قوله : (متقـــارب)

وَكُلُّ سُرُورٍ أَرَى أَنّـــــهُ
خِضَابٌ عَلى لِمّتِي زَائِلُ (2)

فقد شبّه السرور في قصر مدته وسرعة انتهائه بالنسبة اليه بالخضاب الذي يستر به شيبه ولكنه سرعان ما ينحسّر عن لمته ليعـــود إلى الشعر لونه الحقيقي ، ممّا يعني أنّ السرور أمر طارئ وسريع الانتهاء في حياته المليئة بالأحـــزان .

فصدق الشريف الرضي مع نفسه وتوقه الى الحياة ألحقه دونما تمويه أو تزييف ، جعلاه يرى في الشيب أمرًا واقعًا ومبغوضًا فـــي آن واحد ،وفي الخضاب مغالطة للنفس لا تغيّر من ذلك الواقع في شيء ، ممّا أدى به الى الابقاء على لون شَعْرِهِ-بعد أن شاب - طبيعيا مثله في ذلك مثل شِعْرِهِ وقد تركه على سجيته ليعبّر عمّا يعتلج في نفسه من أحاسيس ، فالمرأة التي طالما تغنى بهـــا الشاعر في غزله ومدحه وفخره ورثائه ، كانت في مساحة كبيرة مـــن ذلك الشعر مصدرًا من مصادر معاناته وحزنه ، فالبرغم من حبّـــه لها وتعلقه بها فقد كانت في كثير من الأحيان قاسية عليـــه

---

1) الديـــوان 1/ 101 .

2) الديـــوان 2/ 37 .

تفارقه ،وتصد عنه ،ممّا زاد في محنته وعجل بالشيب الى رأسه فأشعره كلّ ذلك بالوحدة التي حاول أن يكسرها ولو على حساب راحته النفسية ،فحبّه للمرأة هو ما حدا به الى معاتبتها بمرارة في قوله : (خفيف)

سَاءَنِي ،مُنْذ نَأَيْتُ نِسْيَانُ ذِكْرِي
فَاذْكُرُونِي ،وَلَوْ ذُكِرْتُ بِسَوْ (1)

---

1) الديوان 2/569.

الخاتمـــــــــــــــــة

إنّ التفجع الذي تميّز به شعر الشريف الرضي لم يكن طارئاً على نفسه ،أو متكلفاً أراد به الشاعر استجلاب الاهتمام نحو شعره ،فتأصّل ذلك الحزن في أعماقه ،وصدق حرارته يغطّيان جُلّ ما ورد في ديوانه من شعر هو في حقيقته مرآة عكست حقيقة الرضي في عصره وبين أفراد مجتمعه. فلقد عاش القرن الرابع الهجري بخيره المتمثل في ازدهار العلم والأدب والفكر ، في مقابل ما اكتنفه من بؤس وشقاء باضطرابه سياسيا ،واختناقه بالأحداث الطائفية ، وتفشي الشعوبية المقيتة بين أفراده ، فأثّر كلّ ذلك تأثيره العميق في نفسيته . فلقد عاش في سن العاشرة أحداث نكبة أبيه ، وذاق مرارة فراقه ،فقاسى طفولته حزينة جعلته ينظر الى الحياة بريبة واكتئاب ، اضافة الى الأحداث والنكبات المريعة التي صادفته في مختلف مراحل حياته كما أن شعوره بالتميّز على غيره من أفراد مجتمعه ـ لانتمائه الى البيت العلوي ـ جلب الى نفسه المتاعب لاحساسه بأنّه موضع عداء وحسد من لدن الكثير من أبناء ذلك المجتمع . هذا بالاضافة الى الظلم التاريخي المتجذر في أعماقه جراء ما وقع على أجداده العلويين من حيف وظلم وقتل وتشريد بسبب استماتتهم في المطالبة بحقهم الشرعي في امامة المسلمين . كما أنّ لفشله في الوصول الى غاياته في تحقيق طموحاته أثره البالغ في تأجيج حزنه واثارة أشجانه . أضف الى ذلك المعاناة التي سبّبها الحرمان من الخلف زهاء العشرين سنة حاول الشريف خلالها تكرار الزواج مرتين ولكنه فشل فضاعف ذلك من آلامه ـ وقد زاد في محنته تتابع موت الأهل والأحبة والأصدقاء ، ويعتبر فشله في تكوين صداقات قائمة على دعائم قوية ـ تتعارض والقيم المادية التي يتسم بها

مجتمعه - من أهم روافد حزنه ،كما أن للشيب - الذي حطّ برأسه وهو ما زال فتيّاً - أثره الفعّال في تأجيج لواعج حزنه ، ومرجع ذلك تحميل نفسه من الهموم ما لا طاقة لها به . كلّ ذلك جعل شعره سيلاً من الدموع المعبّرة عن أسى نفس برحها الوجد وأضناها الأسى فتقاذفتها أمواج الحزن مبددة لحظات سعادتها التي كانت بمثابة الومضات السريعة في اشعاعها ومعاودة الخفوت.

فمن تتبعنا لشعر الشريف الرضي ، ومحاولة الغوص في أعماقه وجدنا أنّ التفجع سمة أصيلة فيه ، لأنّه متولد عن أحداث متعلقة به تعلقا مباشرا ، ومرتبطة بجميع مراحل حياته ، فهي ليست وليدة أحداث مؤقتة تزول بزوال المؤثر.

فشعره في آل البيت عامة وفي رثاء الحسين على وجه الخصوص لا يمثّل مرحلة معينة لأنّه امتداد تاريخي عبر ثلاثة قرون من الظلم والاضطهاد وضياع الحق ، ما برح الشاعر يعيشه ،ويتألم بسببه ، ممّا جعل ذلك الشعر يتميّز بتعابيره التفجعية المعبرة عن قوّة الانتماء والارتباط الروحي ، لكونه فرداً من الأسرة العلوية ، بحيث ترك ذلك الحزن ظلا من الأسى على جل مضامين شعره نستطيع ادراكه من خلال الحاحه على طلب الماء وشكوى العطش بربط ذلك بعطش الحسين .

أمّا رثاؤه في الأهل والأصدقاء والأقارب فيمتاز في معظمه بالبساطة والبعد عن التعقيدات الفلسفية الما ورائية فطبيعة نفسه الخيرة ، وشفافية روحه ورقة احساسه وايمانه العميق ، جعل نظرته الى ما بعد الموت لا تتعدى كونها وصفا للحياة البرزخية بروح مشبعة بمبادئ الاسلام بعيدة عن التشاؤم والانطواء ، لذلك فإنّ ما بلغه

ذلك الرثاء من حزن بلغ مرحلة التفجع - في معظم الأحيان - هو في حقيقته تعبير عن صدق اخلاص الشاعر ووفائه تجاه من رثاهم ، ومحاولة لاقناع نفسه بأنّ دوام الحال من المحال . وفي رثائه للدول المندثرة وأيامها ، بكى الشاعر مجده الزائل المتمثل في نكبة الطائع ، كما أنّ رثاءه للحيرة وملوكها العرب كان بمثابة التحسّر على مجد العرب الزائل حين استوقفته تلك الأطلال مستثيرة أشجانه ومؤججة أساه فصدر شعره في مجال رثاء الدول مشحونًا بدفعات متتابعة من الحزن . أمّا تكراره رثاء الشخص الواحد أكثر من مرّة فقد قصره على أفراد معينين وجد فيهم الصورة المتوخاة للمثل والقيم التي ينشدها ، فهي اعتراف بالجميل في بعض جوانبها وتعبير عن الوفاء في جوانب أخرى ، وتوق الى الاصالة العربية والحنين الى الصحراء في جانب ثالث ، وذلك ما أحال معاودة الرثاء في أولئك الأشخاص الى حزن ممزوج بالحسرة لشعوره بذهاب خصال الخير والحب والأصالة لذهاب من يمثلونها ، فهو يتذكر أولئك الأصدقاء كلّما ضاقت به الحياة فيعاود البكاء عليهم والتحسر على فقدهم. وبسبب ذلك الحزن العظيم الذي يكاد يملأ جوانب نفسه استحالت مرثاته في نسقها الى موجات من معاني التفجّع الرابطة بين عناصرها الموحدة بين معانيها مع افتقارها للوحدة العضوية ،لاتكائها في تعابيرها على ما تنوء به نفس الشاعر من أسى وشجن واكتئاب فجاءت مناسبة في معانيها قاتمة في أخليتها وصورها مستجيبة لما في الحياة من تناقضات في معاكستها للشاعر في قلب آماله والحيلولة دون استقراره في كنف الاطمئنان والراحة ،كلّ ذلك من خلال ما ورد فيها من مطابقات ومقابلات .

وقد لاحظنا أن للمجتمع دوره الأساسي في تفجّع الشريف اذ برزلنا ذلك بجلاء في شعره الاجتماعي ، فبغض النظر عمّا كان يصطرع بداخله من ألم جراء شعوره بسلب الخلفاء العباسيين لحق أسرته العلوية ، ومعاناته من الغربة وضياع المجد العربي ،فبغض النظر عن كلّ ذلك حاول الرضي أن يجسّد من خلال ذلك الشعر غربته في مجتمعه لما رأى في أفراده من رضوخ واستكانة ،وما تفشى فيه من عيوب تأباها نفسه لتعارضها مع قيمه وأخلاقه ،ولاحساسه بالعجز عن الاصلاح لكونها صادرة من السلطة ، ممّا أدّى به الى الانكفاء على الذات ومعاتبة الدهر والتبّرم من الأيام. ولشعوره بالوحدة في ذلك المجتمع فقد حاول أن يندمج فيه من خلال تكوين صداقات مبنية على أسس أخلاقية متينة ، ولما كان ذلك يتعارض مع ما جبل عليه أبناء ذلك المجتمع من تكالب على المادة أخفق الرضي في معظم الحالات في الحصول على الصديق المثالي الذي يتوخاه ،فظلّ ينشده في شعره ، باكيًا ندرة الوفاء ممّا أحال شعره في الصديق والصداقة الى شكوى حزينة وتنهدات ملتاعة وعتاب هو أقرب الى التدلّه منه الى القسوة ، وفقدانه للصديق المثالي في ركام قيم مجتمعه المنهارة هو ما حدا به الى اجترار الماضي من خلال أصدقاءه الأوفياء الذين افتقدهم.

وفي مجال بحثنا عن أسباب تفجّع الرضي من خلال شعره تمكّنا من ادراك معاناته من أبناء أسرته من العلويين وما سببوا له من أسى جراء احتكاكه المباشر بهم عن طريق النقابة ، امّا منافسة له على الوصول اليها باتباع وسائل معوجة وأساليب ملتوية ،وبذل المال في سبيل اقصائه عنها ، أو محاولة ارغامه على الرضوخ لمآربهم

أثناء تقلده اياها ، هذا بالاضافة الى الاختلاف في وجهات النظر بينه وبين كلّ من أبيه وأخيه في طريقة التعامل مع الخليفة العباس والاستجابة لرغباته والرضوخ لأوامره ، فقد شكّل ذلك عبئا ثقيلا على نفسه ، فطفر في شعره أحزاناً مقهورة حاول الشاعر كبتها فتفجرت على شكل غيظ معزوج بالأسى .

ويمكننا أيضا اعتبار علاقته بالمرأة رافداً من روافد تفجعه ، فلقد رثاها أمّا وأختا وزوجة ، كما صوّر في نسيبه وغزله عذاب نفسه وحرقة فؤاده ، فمن خلال علاقته بالمرأة استطعنا ابراز ما حواه شعره من صراع محتدم بين عقله وقلبه ، كما سعينا من خلال تلك العلاقة الى توضيح أثر المرأة في مضامين شعره المختلفة ، وقد توصلنا من خلال ذلك الى نتيجة نعتقد منها أن المرأة التي شغلت نفس الرضي وأضنت فؤاده وأججت مشاعره فجاء وصفها في شعره بالعذاب والنعيم ، ما هي الاّ صورة للحياة التي عاشها وحاول أن يطوعها لتتجاوب مع ما يعتلج في نفسه من طموح ، ولكنه لم ينل من ذلك سوى بكاء الشباب ، فقد غزا الشيب رأسه قبل أوانه ،إلاّ أنّه لم يحاول أن يموهه بالخضاب لتوقه الى الحقيقة ونشدانه المثالية .

لقد عاش الشريف الرضي شعره بكلّ احساساته ،فعبّر به عمّا كانت تنوء به نفسه المثقلة بالأسى في مختلف مراحل حياته وعلى هذا يمكننا اعتبار شعره ملحمة جسّد فيها حزن انسان القرن الرابع الشيعي بكلّ ما يتفاعل في نفسه من آمال ويراودها من طموح ومحاولة الى التسامي في مجتمع لا يعترف إلاّ بأسلوب القهر والقوّة والتسلّط في ادارته لشؤون الناس.

ٱلفَهَـارِسُ

فهرسُ ٱلأعْلام . (1)
فِهرس ٱلأماكِن .
فهرسُ الأشعار .
جَدوَلة الدّيوانِ حَسبَ طَبعاتِه ٱلمتوفّرة .
فِهرسُ المصادرِ والمَراجِع . (2)
فهرسُ ٱلمَوضُوعاتِ .

---

(1) رتبنا أعلام العصور القديمة حسب شهرة كل علم بغض النظر عن ابن أو أبو ، كما رتبنا أعلام العصر الحديث حسب الاسم الثاني أو الثالث لكل علم.

(2) رتبنا المصادر والمراجع بحسب أسماء مؤلفيها متخذين من ترتيب فهرس الأعلام نسقا لذلك .

فهـــــــــرس الاعـــــــــلام

آغا بزرك الطهراني : 468
الآمدي (الحسن بن بشر) : 101
ابراهيم (زكريا) : 556
ابراهيم (طـه) : 103
ابراهيم بن عبد الله بن الحسن : 5
ابراهيم (محمد أو الفضل) : 72 - 83 - 91 .
ابراهيم بن موسى الكاظم : راجع (المجـاب)
الأ بيرد الرياحي : 447
الأثري (محمد بهجت) : 331
ابن الا ثير (عزالدين محمد بن محمد) : 3 - 9 - 11 - 12 - 13 - 14 - 17 -
18 - 19 - 20 - 23 - 26 - 33 - 39 - 40 - 41 - 42 - 49 - 55 - 56 -
128 - 153 - 157 - 162 - 163 - 173 - 182 - 214 - 225 - 244 -
457 - 506 - 803 .
الأحدب المـــزوّر (علي بن محمد) : 128
أحمد : راجع محمد بن عبد الله (ص)
أحمد (محمد خلف الله) : 61
أبو أحمد الموسوي (الحسين بن موسى) : 32 - 40 - 54 - 118 - 119 -
124 - 125 - 126 - 127 - 128 - 129 - 130 - 131 - 132 - 135 -
138 - 139 - 142 - 150 - 155 - 157 - 161 - 172 - 173 - 214 -
227 - 228 - 229 - 346 - 349 - 350 - 569 - 788 .
الأحنف العبكري (عقيل بن محمد) : 111
أربد بن ربيعة : 447
أرسطو طاليس : 102 - 226 .
الا زهري (أبو منصور محمد بن أحمد) : 96
أبو اسحاق الطبري : راجع الطبرى (ابراهيم بن أحمد)
اسحاق بن المقتدر العباسي : 587 - 595
الا سفراييني (أبو حامد أحمد بن محمد) : 224
أسماء بنت عميس : 502
اسماعيل (عزالدين) : 2 - 3 - 543

أبو الأسود الدؤلي : 462

الأشعري (علي بن سهل) : 90

الاصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) : 48 - 61 - 102 - 467 - 470 - 472 - 473 - 475 - 476 - 480 .

الاصمعي (عبد الملك بن قريب) : 95 - 473 - 830 .

الأطرقجي (واجدة مجيد) : 48 - 217 .

الأطروش (الحسن بن علي الكبير) : 121 - 133 - 567 .

ابن الأعرابي (محمد بن زياد الكوفي) بن الأعرابي : 248

أكثم صيفي : 835

أمير المؤمنين : راجع علي بن أبي طالب

أمين (أحمد) : 8 - 22 - 31 - 32 - 38 - 56 - 69 - 72 - 76 - 80 - 81 - 92 .

الأمين (السيد محسن) : 83 - 120 - 121 - 251 - 437 .

الأميني (عبد الحسين) : 118 - 120 - 182 - 206 - 253 - 254 - 271 - 281 - 454 - 468 - 473 - 481 - 483 - 503 .

الأمين (محمد بن الرشيد) : 6

ابن أميّة (محمد) : 838

امرؤ القيس : 104 - 260 - 312 - 435 .

أنيس (ابراهيم) : 106 - 419 - 421 - 581 .

أم أيمن (بركة) : 457

أيوب بن سليمان : 442

ابن بابويه (أبو جعفر محمد بن علي) : 76 - 78 .

البابي الحلبي (عيسى) : 265 - 267

الباشا (حسن) : 3 - 6 - 7 - 13 - 27 - 37 - 38 - 53 .

الباقر (محمد بن علي بن الحسين) : 118 - 122 - 194 - 208 - 211 - 466 .

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب) : 61 - 90 .

البتول : راجع : فاطمة الزهرا

البتّي (أحمد بن علي) : 309 - 624 - 760 - 761 .

بجكم : 29

البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي) : 101 - 316 - 629 - 630 - 631 - 632 .

البحراني (يوسف) : 118 - 159 - 170 - 281 .
البخاري (أبو عبد الله بن اسماعيل) : 77
بختيار : راجع عز الدولة
ابن بختيار : 22
الباخرزي (علي بن عبد الحسين) : 792
بدوي (عبد الرحمان) : 84 - 196 - 204 - 280 - 556
بديع الزمان (أحمد بن الحسين الهمذاني) : 35 - 100
البرقوقي (عبد الرحمان) : 30 - 45 - 114 - 243 - 318 - 319 - 320 -
338 - 448 - 450 - 591 - 592 - 717 - 802 - 814 - 838 .
بروكلمان (كارل) : 248 - 254 - 284
ابن بسام الاندلسي (أبو الحسن علي الشنتريني)صاحب كتاب الذخير: 222
البستي : راجع أبو الفتح
بشار بن برد : 130
البغدادي (عبد الوهاب) : 41
ابن بقية (أحمد بن أبي موسى) : 19
أبو بكر الصديق : 452 - 454 - 456 - 458 - 471 - 472 - 499 -
506 .
البلاذري (أحمد بن يحي) : 444 - 464 - 465
بلال الحبشي - مؤذن الرسول (ص) : 54
بهاء الدولة (أبو نصر فيروز) : 14 - 17 - 22 - 130 - 131 - 141 -
146 - 147 - 153 - 161 - 162 - 163 - 170 - 173 - 174 - 175 -
176 - 177 - 178 - 179 - 180 - 181 - 182 - 224 - 230 - 232 -
308 - 334 - 335 - 338 - 342 - 344 - 376 - 391 - 600 - 602 -
605 - 641 - 642 - 718 - 720 .
بهاء الدين العاملي (محمد بن الحسين) : 195
البهنساوي (سالم) : 73 - 74
بوذا : 75
بويه بن بهاء الدولة : 600
البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد) : 68 - 69

تاج الدولة (أحمد بن بويه) : 18 - 43 - 64
التبريزي (ابن الخطيب يحي بن علي) : 101
أبو تراب : راجع علي بن أبي طالب
الترمذي (محمد بن عيسى الضحاك) : 77
أبو تغلب الحمداني : 15
تقية ابنة سيف الدولة : 63 - 659
أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي) : 101 - 259 - 260 - 311 - 415 - 790.
تميم بن المعز لدين الله : 521
التنوخي (القاضي أبو القاسم محمد بن داود) : 111
التنيسي (الحسن) :108
التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد) : 44 - 48
توزون (المظفر أبو الوفا) : 9 - 30
الجابري (علي بن حسين) : 83
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : 33
جاسم (مكي السيد) : 265
الجبائي (أبو علي عبد الوهاب بن سلام) : 71 - 90 - 198 - 250.
ابن جبير (سعيد) : 70
الجرجاني (القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز) : 99 - 101 - 102.
الجرجاني (محمد بن يحي) : 249
جرير بن عطية الخطفي : 314 - 315
جذيمة الأبرش : 635 - 651
جعدة بنت الأشعث بن قيس : 463
جعفر بن أبي طالب : 458 - 504
جعفر بن عثمان : 475
ابن جني (أبو الفتح عثمان) : 67 - 93 - 94 - 96 - 101 - 247 - 248 - 318 - 377 - 607 - 619 - 667.
الجواد (محمد بن علي الرضا) : 122 - 208
ابن الجوزي (عبد الرحمان بن علي بن محمد) : 173 - 182 - 225 - 227 - 237 - 244.

جولد تسهيـــر (أجنـــاس) : 458
الجوهـري (أبو نصر اسماعيل بن حمّاد) : 96 - 427 - 435 - 657 .
الجوهـري (علـي بن أحمـد الجرجانـي) : 488 - 491 .
الحاتمي (أبو علـي محمد بن الحسيـن) : 102 - 321 - 326
حـازم القرطاجنـــي : 407
الحاكم بأمر اللـه الفاطمي (المنصـور بن العزيـز) : 68 - 282
الحاكم النيسابـــوري (محمد بن عبد اللـه بن محمـد) : 76
حـاوي (ايليـا) : 545 - 630
ابـن حجـاج (الحسـن بن أحمـد) : 34 - 63 - 259 - 260 - 311 -
485 - 490 - 617 - 618 - 750 - 751 .
الحجـاج بن يوسـف الثقفـي : 70 - 466
ابن أبـي الحديد(عبد الحميد بن محمد المدائني): 54 - 118 - 119 - 120-
138 - 146 - 158 - 168 - 173 - 182 - 183 - 186 - 191 - 214 -
217 - 224 - 245 - 254 - 255 - 256 - 257 - 258 - 281 - 464 -
550 .
حجـر بـن عـــدي : 496
حـرب بن أميـة بن عبد شمـس : 479
الحسـن البصـري (أبو سعيـد بن يسـار) : 85
الحسن بن علـي بن أبـي طالـب : 120 - 122 - 208 - 217 - 244 - 457-
462 - 463 - 466 - 483 - 496 - 504 - 541 .
حسـن (محمد عبد الغني) : ب - 10 - 22 - 64 - 138 - 170-
185 - 251 - 253 - 265 - 267 - 793 .
أبـو الحسـن المعلـم : 14
حسّـان بن ثابـت : 212 - 453 - 456 - 468 .
أبو حسّان (المقلد بن المسيّب العقيلي) : 608 - 642 - 643 - 678 -
694 .
أبو الحسيـن (أحمد بن الحسيـن) : 652
حسيـن (طـه) : 101 - 107 - 115 - 382

الحسين بن علي بن أبي طالب : 55 - 119 - 120 - 122 - 208 - 217 -
286 - 288 - 437 - 457 - 464 - 465 - 466 - 469 - 470 - 472 -
475 - 476 - 480 - 482 - 483 - 486 - 487 - 490 - 491 - 492 -
493 - 495 - 496 - 497 - 504 - 510 - 511 - 513 - 517 - 518 -
519 - 520 - 521 - 522 - 527 - 528 - 529 - 530 - 531 - 534 -
536 - 537 - 538 - 539 - 540 - 541 - 542 - 543 - 545 - 546 -
549 - 550 - 562 - 648 - 663 - 790 .
الحسين بن موسى : راجع أبو أحمد الموسوى
الحسيني (أحمد) : 119
الحصري القيرواني (أبو اسحاق ابراهيم بن علي) 99 - 110 - 114 - 317 -
536 - 629 .
الحطيئة (جرول بن أوس) : 425 .
ابن أبي حفصة (مروان) : 449 - 474 - 475 .
الحكم بن العاص : 550
الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل : 67
أبو الحكيم الخبري (عبد الله بن ابراهيم) : 296
الحلّاج (الحسين بن منصور البيضاوي) : 113
الحلبي (محمد بن علي) : 202
الحلو (عبد الفتاح محمد):جـ119 - 120 - 126 - 127 - 174 - 186 -
194 - 195 - 199 - 200 - 265 - 284 - 285 - 286 - 287 - 289 -
393 .
الحلّي (الحسن بن يوسف المطهر) : 196 - 206 - 207 - 209 - 452 -
453 - 471 - 482 - 503 - 504 - 505 .
الحلّي (عبد الحسين) : أ - 118 - 119 - 120 - 127 - 161 -
163 - 173 - 181 - 182 - 184 - 190 - 193 - 253 - 254 - 287 -
292 - 334 - 340 - 792 - 794 .
الحمزاوي (رشاد) : 96
حمزة بن عبد المطلب : 458
حمدان الأحول : 85
ابن حمّاد (اسماعيل) : 80

ابن حنبل (أحمد بن محمد) : 77 - 81 - 89 .
ابن الحنفية (محمد بن علي بن أبي طالب) : 463
أبو حنيفة (النعمان بن ثابت) : 80 - 85 - 89 .
حيدر أو حيدره : راجع علي بن أبي طالب
حيدر (أسد) : 517
الحيدري (محمد) : 265
الخالدي (أبو بكر) : 485
الخالع (الحسن بن علي) : 237
ابن خالويه (الحسين بن أحمد) : 67 - 93
خديجة ابنة الحسين بن موسى (أخت الرضي) : 789
أم المؤمنين خديجة بنت خويلد : 453
الخشّاب (يحي) : 54
الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت) : 118 - 505
خفاجي (محمد عبد المنعم) : 61 - 97 - 103
ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد) : 39 - 70 - 82 - 194 - 201 - 205 - 206 - 226 .
ابن خلف (أبو سعيد علي الكاتب) : 281 - 279 - 551 - 675 - 744 .
ابن خلكان (أحمد بن محمد) : 41 - 70 - 71 - 80 - 83 - 85 - 88 - 90 - 93 - 182 - 222 - 243 - 245 - 247 - 248 - 251 - 254 - 259 - 260 - 271 - 282 - 296 - 365 .
الخليل بن أحمد الفراهيدي : 68 .
ابن الخمّار : 68 - 69
الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الشريد) : 449 - 450 - 451 - 663 .
الخوارزمي (أبو بكر محمد بن موسى) : 197 - 249 .
الخوانساري (محمد باقر) : 118 - 170 - 182 - 190 - 193 - 243 - 271 - 279 - 281 - 788 - 789 .
الخولي (محمد مرسي) : 41
د . محفوظ : ب - 170 - 614
أبو داود (سليمان بن الاشعب بن اسحاق) : 77
ابن داود (أبو الحسن محمد بن أحمد القمي) : 76

الدجيلي (عبد الصاحب) : 478
دريد بن الصمة : 835
ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن) : 95
الدروبي (سامي) : 803
دعبل بن علي الخزاعي : 477 - 478 - 479 - 485 - 520 - 536 - 551 .
الدمشقي (أحمد) : 108
ابن أبي ديب (محمد بن عبد الرحمان) : 77
الدياجي (سهل بن أحمد) : 75
ديك الجن (عبد السلام بن رغبان) : 476 - 477 - 480
أبو الذواد العقلي : 606
أبو ذر الغفاري (جنابه بن جندب) : 84 - 87
ابن رائق (محمد) : 27
الرازي (أبوبكر) : 80
الراضي بالله (أبو العباس أحمد بن المقتدر) : 27
أبو رافع مولى رسول الله (ص) : 74
الرافعي (مصطفى صادق) : 74
الرباب ابنة أمرئ القيس : 486
الربعي (أبو الحسن علي بن عيسى النحوى) : 94 - 247
الملك الرحيم (خسرو فيروز البويهي) : 13
رزق (محمود) : 311
رسول الله (ص) : راجع محمد بن عبد الله (ص)
الرشيد (هارون بن المهدى) : 6 - 26 - 611 - 629 .
ابن رشيق القيراوني (أبو علي الحسن) : 100 - 360 - 362 - 407 - 574 - 582 - 591 - 602 - 649 - 651 - 660 - 835 .
الرضا (علي بن موسى بن جعفر) : 6 - 7 - 122 - 202 - 208 - 211 - 232 - 467 - 514 .
الشريف الرضي (محمد بن الحسين الموسوى) : أ - ب - جـ - د ـــــــ 32 -
36 - 49 - 51 - 52 - 54 - 62 - 64 - 66 - 69 - 71 - 72 - 73 - 75 - 78 ـــ
82 - 91 - 93 - 94 - 101 - 103 - 112 - 113 - 114 - 115 - 116 -
117 - 118 - 119 - 120 - 123 - 124 - 125 - 126 - 130 - 131 - 133 -
134 - 135 - 137 - 138 - 139 - 141 - 142 - 143 - 145 - 146 - 147 -

-163 - 161 - 159 - 158 - 157 - 156 - 155 - 152 - 151 - 150

-173 - 172 - 171 - 170 - 169 - 168 - 167 - 166 - 165 - 164

-183 - 182 - 181 - 180 - 179 - 178 - 177 - 176 - 175 - 174

-193 - 192 - 191 - 190 - 189 - 188 - 187 - 186 - 185 - 184

-204 - 203 - 201 - 200 - 199 - 198 - 197 - 196 - 195 - 194

-217 - 216 - 215 - 214 - 213 - 212 - 210 - 209 - 207 - 205

-227 - 226 - 225 - 224 - 223 - 222 - 221 - 220 - 219 - 218

-238 - 237 - 236 - 234 - 233 - 232 - 231 - 230 - 229 - 228

-248- 247 - 246 - 245 - 244 - 243 - 242 - 241 - 240 - 239

-259 - 258 - 257 - 256 - 255 - 254 - 252 - 251 - 250 - 249

-270 - 269 - 268 - 267 - 266 - 264 - 263 - 262 - 261 - 260

-281 - 280 - 279 - 277 - 276 - 275 - 274 - 273 - 272 - 271

-291 - 290 - 289 - 288 - 287 - 286 - 285 - 284 - 283 - 282

-303 - 301 - 300 - 299 - 298 - 297 - 296 - 295 - 293 - 292

-317 - 316 - 315 - 312 - 311 - 310 - 309 - 307 - 305 - 304

-327 - 326 - 325 - 324 - 323 - 322 - 321 - 320 - 319 - 318

-339 - 338 - 336 - 335 - 334 - 333 - 331 - 330 - 329 - 328

-350 - 348 - 347 - 346 - 345 - 344 - 343 - 342 - 341 - 340

-361 - 360 - 359 - 358 - 357 - 356 - 355 - 354 - 353 - 352

-372 - 371 - 370 - 369 - 368 - 367 - 366 - 365 - 364 - 363

-385 - 384 - 383 - 382 - 379 - 378 - 376 - 375 - 374 - 373

-401 - 397 - 396 - 395 - 394 - 393 - 392 - 391 - 389 - 386

-414 - 412 - 411 - 410 - 409 - 408 - 406 - 405 - 404 - 402

-451 - 445 - 430 - 421 - 420 - 419 - 418 - 417 - 416 - 415

-498 - 498 - 497 - 496 - 495 - 494 - 492 - 488 - 487 - 486

-511 - 510 - 509 - 508 - 507 - 506 - 505 - 504 - 501 - 500

-529 - 528 - 527 - 526 - 523 - 522 - 518 - 517 - 516 - 513

-544 - 543 - 541 - 540 - 538 - 536 - 534 - 532 - 531 - 530

-558 - 557 - 555 - 554 - 553 - 552 - 551 - 550 - 548 - 547

-574 - 571 - 569 - 568 - 565 - 563 - 562 - 561 - 560 - 559

-596 - 595 - 592 - 590 - 588 - 586 - 584 - 583 - 582 - 580

-609 - 607 - 606 - 605 - 603 - 602 - 601 - 600 - 599 - 597
-621 - 620 - 619 - 618 - 617 - 615 - 614 - 613 - 611 - 610
-639 - 638 - 637 - 635 - 634 - 633 - 632 - 631 - 624 - 622
-653 - 652 - 651 - 650 - 648 - 647 - 645 - 643 - 642 - 640
-676 - 674 - 671 - 666 - 663 - 661 - 659 - 658 - 656 - 654
-690 - 689 - 688 - 687 - 686 - 684 - 682 - 681 - 680 - 679
-707 - 706 - 704 - 699 - 698 - 696 - 695 - 694 - 692 - 691
-725 - 724 - 721 - 720 - 718 - 717 - 716 - 715 - 714 - 712
-743 - 742 - 740 - 738 - 735 - 731 - 730 - 728 - 727 - 726
-756 - 755 - 753 - 751 - 750 - 749 - 748 - 747 - 745 - 744
-768 - 767 - 766 - 765 - 764 - 763 - 762 - 761 - 758 - 757
-781 - 779 - 778 - 777 - 776 - 774 - 773 - 772 - 771 - 770
-792 - 791 - 790 - 789 - 788 - 787 - 786 - 785 - 784 - 783
-808 - 805 - 803 - 802 - 800 - 797 - 796 - 795 - 794 - 793
-818 - 817 - 816 - 815 - 814 - 813 - 812 - 811 - 810 - 809
-830 - 829 - 828 - 827 - 826 - 825 - 824 - 823 - 821 - 820
845 - 843 - 841 - 840 - 839 - 836 - 834 - 833 - 832 - 831

ركن الدولة (الحسن بن بويه) : 11 - 15 - 127 - 154 .

الرّماني (أبو الحسن علي بن عيسى النحوى) : 247

ذو الرّمة (غيلان بن عقبة) : 314

الروذراورى (أبو شجاع محمد بن الحسين) : 14 - 17 - 18 - 19 - 20 - 23 - 34 - 38 - 46 - 131 - 156 - 157 - 162 - 163 - 164 - 228 - 230 - 612 .

ابن الرومي (علي بن العباس بن جريج) : 311 - 317 - 475 - 476 - 579 - 580 - 835 .

الزبيدي (محمد حسين) : 12 - 15

الزبير بن العوام : 459 - 508

زراد شت : 75

الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) : 427 - 657 - 658

الزنجاني (ابراهيم الموسوى) : 83 - 196 - 206 - 210

زيدان (جرجي) : 61 - 70 - 81 - 85 - 119 - 254

أبو زهـــرة (محمـــد) : 475
الزهري (ابن شهاب أبوبكر محمد بن مسلم) : 74
زهير بن أبي سلمى : 312
زياد بن أبيه : 464
ابن زياد (عبيد اللـــه) :466
زيد بن علي بن أبي طالـب : 37 - 194
أبو زيد القرشي (محمد بن الخطاب) : 435 - 626 - 653
زينب ابنة الحسين بن موسى (أخت الرضي) : 127 - 788 - 789
زينب ابنة عقيل بن أبي طالب : 465
الزينبي (الشريف علي بن الحسين) : 168
زين العابدين (علي بن الحسين) : 84 - 118 - 120 - 121 - 122 -
194 - 208 - 211 - 437 - 466 .
سابـــور بن أردشيـــر : 65 - 178 - 228 - 229 - 844
السامانـي (نوح بن منصور) 68
سبكتكيـن (الحاجب) : 22 - 49
سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزغلي) : 454 - 468
السجستاني (أبو بكـر) 81
ابن سريـج (القاضي أبو العباس أحمد بن عمـر) : 81
سراقة البارقي : 444
سعد (طه عبد الرؤوف) : 265 - 282 - 416
ابن سعد (أبو عبد الله محمد الزهري) : 471 - 482 - 506
سعيد (جميل) : 326
السفاح (أبو العباس محمد بن علي) : 4
ابن سكره الهاشمي (أبو الحسن محمد بن عبد اللـه) : 44 - 47 - 109 -
ابن السكيـت (يعقوب بن اسحاق) : 247 - 248
سكينة بنت بهـا الدولة : 13
سكينة بنت الحسين بن علي : 470
ســـلام (محمد زغلـــول) : 45 - 47 - 107
أبو سلمة الخلال (حفص بن سليمان) : 4
السلجماسي (أبو محمد القاسم) : 549
سلطان الدولة أبو شجاع : راجع بهاء الدولة

سلمان الفارسي : 54
سلوم (داود) : 102 - 106 - 266
سنان بن هلال الصابيء : 264
ابن سهل (الحسن) : 7
أبو سهل المسيحي : 68 - 69
سويف (مصطفى) 331
سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) : 93 - 269
السيد الحميري (اسماعيل بن محمد) : 472 - 473
السيرافي (أبو سعيد الحسن بن عبد الله) : 93 - 94 - 243 - 244 - 245 - 246 - 247 - 248 - 266 - 296
سيف بن ابراهيم : 629
سيف الدولة (علي بن عبد الله بن حمدان) : 62 - 67 - 93 - 251 -448- 659.
ابن سيناء (أبو علي الحسين بن عبد الله) : 68 - 69
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر) : 203
الشافعي (محمد بن ادريس) : 81 - 224
ابن شاهويه (أبو بكر) : 23 - 24
الشاوش (الحبيب) : 52
شبر (جواد) : 119 - 170 - 465 - 468 - 469 - 470 - 476 - 479 - 480 - 490 - 517 - 537.
أبو شجاع (بكر بن أبي الفوارس) : 655
شرف الدولة (أبو الفوارس شيرزاد) : 16 - 17 - 23 - 43 - 130 - 140- 141 - 153 - 156 - 157 - 160 - 161 - 176 - 344 - 346 - 579 - 600 - 601 - 603 - 658 - 778.
شرف الدين (عبد الحسين) : 452
الشريف : راجع (الرضي)
شكر (خادم عضد الدولة) : 16
شلبي (سعد اسماعيل) : 50
شلش (محمد جميل):ب - 293 - 412
شمر بن ذي الجوشن : 520
الشيبي (رضى) : 221

الشيرازي (أبو أحمد عبد الرحمان بن الفضل) : 66
الشيرازي (محمد الحسيني) : 200
الصابي (أبو اسحاق ابراهيم بن هلال) : 17 - 99 - 110 - 190 -191-
224 - 228 - 241 - 259 - 261 - 262 - 263 - 264 - 311 - 319 -
331 - 378 - 414 - 415 - 614 - 616 - 617 - 639 - 640 - 646 -
647 - 648 - 656 - 657 - 695 - 696 - 751 .
الصابي (هلال بن الحسن) : 33 - 43 - 55 - 56 - 163 - 765 .
الصادق (جعفر بن محمد) : 5 - 52 - 53 - 85 - 118 - 122 - 202 -
208 - 519 .
الصاوي (محمد) : 314 - 315 - 316
صخر بن عمرو بن الشريد : 449 - 450
أبو صخر الهذلي (عبد الله بن سلم) : 445
الصدر (حسن) : 70 - 74 - 76 - 78 - 82 - 83 - 84 - 85 - 91-
200 - 203 .
الصدر (محمد باقر) : 206 - 452
صريع الغواني (مسلم بن الوليد) : 663
الصعلوكي (أبو سهل محمد بن سليمان) : 109
الصفار (رشيد) : 42 - 120 - 221
الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) : 170 - 282 - 451
صمصام الدولة (أبو كالنجار المرزبان) : 17 - 18 - 130 - 138 - 156 -
157
الصولي (محمد بن يحي) : 75
الضحاك بن قيس الفهرى : 443
ضيف (شوقي) : 45 - 69 - 105 - 203 - 289 - 310 - 410
الطائع (عبد الكريم بن المطيع) : 13 - 14 - 130 - 140 - 141 - 142 -
143 - 145 - 148 - 149 - 153 - 155 - 158 - 159 - 160 - 162 -
164 - 165 - 166 - 167 - 170 - 175 - 176 - 182 - 189 - 191 -
241 - 314 - 315 - 340 - 341 - 378 - 586 - 587 - 588 - 590 -
592 - 593 - 594 - 595 - 597 - 599 - 632 - 633 - 634 - 639 -
745 - 746 - 834 .
طاهر بن الحسين : 10

أبو طاهر الحمداني (ابراهيم بن ناصر الدولة) : 607 - 644 - 648 - 654 - 683 - 686 - 708
ابن طباطبا (محمد بن أحمد العلوي) : 106
الطبري (ابراهيم بن أحمد) : 245 - 246 - 248
الطبري (محمد بن جرير) : 4 - 5 - 6 - 7 - 26 - 57 - 70 - 71 - 77 - 80 - 89 - 13 - 123 - 271 - 453 - 456 - 460 - 462 - 465 - 469 - 474 - 496 - 506 - 519 - 629 .
طعمه (سلمان هادي) : 517
طفيل الغنوي : 441
طلحة بن عبيد الله : 459
الطوسي (محمد بن الحسن) : 78
الظاهري (داود) : 79
أم المؤمنين عائشة ابنة أبي بكر : 460 - 541
العاني (حسن) : 5 - 25 - 89
ابن عباد (الصاحب أبو القاسم اسماعيل) : 19 - 20 - 30 - 35 - 63 - 68 - 99 - 103 - 178 - 281 - 318 - 481 - 482 - 521 - 610 - 611 - 612 - 684 - 692 - 803 .
عباس (احسان) : 138
أبو العباس الأعمى (السائب بن فروخ) : 628 - 630 - 632
ابن عباس (عبد الله) : 70 - 461 - 503
العباس بن عبد المطلب : 456
العباس بن علي بن أبي طالب : 519
القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني : 90 - 250
عبد الحميد (محمد محي الدين) : 36 - 119 - 142 - 225 - 239 - 285 - 286 - 288 - 291
ابن عبد ربه الاندلسي (أحمد بن محمد) : 4 - 8 - 412 - 430 - 434 - 442 - 443 - 448 - 449 - 450 - 458 - 462 - 492 - 663 - 790 - 835 - 838 .
عبد شمس بن عبد مناف : 628
عبد الله بن أحمد بن حنبل : 81
أبو عبد الله (أحمد بن موسى) : 123

عبد الله بن الحسين بن علي (الرضيع) : 520
عبد الملك الحارثي : 441
عبد الملك بن مروان : 314 - 315 - 829
عبده (الشيخ محمد) : 132 - 190 - 257 - 290 - 453 - 455 - 457
أبو عبيد (القاسم بن سلام) : 247
ابن عتبة (جمال الدين أحمد بن علي) : 118 - 131 - 159 - 168 - 182 - 186 - 193 - 224 - 227 - 234 - 245 - 252 - 271 - 295 .
عتبه بن أبي لهب : 455
عتيق (عبد العزيز) : 407 - 539
عتي بن مالك : 433
عثمان بن عفان : 452 - 458
العجاج الراجز (عبد الله الطويل بن رؤبة) : 428
عدّاء بن مالك : 433
عدنان بن الشريف الرضي : 295 - 802 - 803 - 804
عدي بن زيد العبادى : 835
العرجي (عبد الله بن عمر بن عمرو) : 314
ابن العرّاق (أبو نصر) : 69
عز الدولة (بختيار بن معز الدولة) : 15 - 17 - 19 - 23 - 30 - 40 - 64 - 126 - 127 - 128 - 153 - 154 .
ابن عساكر (علي بن الحسن الدمشقي) : 478
العسكري (الحسن بن علي بن محمد) : 83 - 122 - 208
عضد الدولة (أبو شجاع خسرو) : 13 - 15 - 16 - 17 - 23 - 32 - 40 - 43 - 62 - 64 - 65 - 66 - 126 - 127 - 129 - 138 - 139 - 140 - 153 - 154 - 155 - 156 - 157 - 299 - 578 - 743 - 748 .
عقيل بن أبي طالب : 444 - 465 - 504
عقيل بن فارج (أحد نديمي جذيمة الأبرش) : 651
العلّاف (أبو الهذيل محمد بن الهذيل) : 250
علم الهدى : راجع الشريف المرتضى
عليان (رشدى محمد) : 79 - 198
علي بن الحسين الموسوى : راجع المرتضى

علي بن أبي طالب : 54 - 74 - 83 - 118 - 120 - 122 - 132 - 163 -
188 - 202 - 204 - 206 - 207 - 208 - 210 - 211 - 212 - 214 -
231 - 243 - 253 - 254 - 257 - 258 - 290 - 349 - 357 - 444 -
452 - 453 - 454 - 455 - 456 - 457 - 458 - 459 - 460 - 461 -
462 - 464 - 466 - 468 - 469 - 474 - 478 - 481 - 482 - 483 -
494 - 496 - 498 - 499 - 501 - 502 - 503 - 504 - 505 - 506 -
507 - 508 - 509 - 518 - 520 - 534 - 541 - 542 - 543 - 635 -
636 - 678 - 714 - 716 .
أبو علي الفارسي (الحسن بن أحمد النحوي) : 94 - 247 - 248 - 579 .
أبو علي (وزير بهاء الدولة) : راجع الموفق
العماد الحنبلي (عبد الحي) : 6 - 7 - 8 - 9 - 10 - 14 - 23 - 29 -
33 - 37 - 38 - 39 - 55 - 56 - 68 - 77 - 80 - 81 - 83 - 85 - 89 -
90 - 132 - 152 - 153 - 162 - 163 - 173 - 182 - 197 - 200 -
214 - 243 - 244 - 245 - 248 - 249 - 251 - 281 - 587 - 642 -
658 .
عماد الدولة (علي بن بويه) : 11
عمدة الملك : راجع : الموفق وزير بهاء الدولة
عمر بن اسحاق بن المقتدر العباسي : 587
عمر بن الخطاب : 87 - 243 - 457 - 458 - 472 - 499 - 506 .
عمر بن عبد العزيز : 74 - 510
ابن عمر (عبد الله) : 74 - 507
عمر بن علي بن الحسين : 120
عمر بن علي بن أبي طالب : 119
عمرو بن عبيد : 88
العمري (أبو الحسن) : 280
العمري (عثمان بن سعيد) : 83
عميد الجيوش (الحسين بن أبي جعفر) : 612
ابن العميد (أبو الفضل محمد بن الحسين) : 19 - 65 - 99 - 281
العميدي (أبو سعيد محمد بن أحمد) : 659
ابن العوجاء (عبد الكريم) : 75
العيبي (حاكم) : 225

عيسى بن موسى : 5
الغالب (أبو الفضل ابن القادر) : 163
فاتك الاسدي : 591 - 592
الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان) : 67
ابن فارس (أبو الحسين أحمد) : 95 - 96
فاطمة بنت الحسين بن علي : 470
فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) : 120 - 188 - 194 - 217 - 256 - 257 - 458 - 471 - 494 - 498 - 504 - 506 - 520 - 529 - 540 - 541 - 542 - 544 - 549 - 716 .
فاطمة بنت الناصر : 127 - 217 - 563 - 567
أبو الفتح بن الطائع العباسي : 586 - 595 - 599 - 652
أبو الفتح (علي بن محمد الستي) : 41 - 109 - 110
فخر الدولة (أبو الحسن علي) : 17 - 20 - 30 - 224
فخر الملك : راجع : ابن خلف
ابن الفرات (أبو الحسن علي بن محمد بن موسى) : 26 - 30
أبو فراس (الحارث بن سعيد الحمداني) : 67 - 112 - 436 - 608
الفرّاء (يحي بن زياد) : 203
فرّوخ (عمر) : 112
الفرزدق (همام بن غالب) : 314 - 315 - 316
أبو الفضل (العباس الشيرازي - وزير بختيار) : 39 - 40 - 49 - 126
فلوتن (فان) : 3
أبو الفوارس البويهي : راجع : شرف الدولة
الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) : 427 - 430 - 436
فيّاض (عبد الله) : 5 - 53 - 78 - 84 - 89
القائم بأمر الله (أبو جعفر عبد الله بن القادر) : 13
قابوس بن وشكمير الزياري : 69
القادر (أحمد بن اسحاق بن المقتدر) : 13 - 54 - 146 - 153 - 158 - 162 - 163 - 164 - 165 - 166 - 167 - 171 - 172 - 173 - 174 - 175 - 176 - 189 - 191 - 192 - 341 - 353 - 586 - 633 - 634 .
أبو القاسم (علي بن أحمد) : 228
أبو القاسم (عبد العزيز بن يوسف الحكّار) : 66 - 655

القاشانـــي (علي بن القاسم) : 66
القالي (أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادى) : 42 - 62
القاهر بالله (أبو منصور محمد بن المقتدر) : 27
ابن قتّه (سليمان) : 449 - 536
ابن قتيبة الدينـــوري (عبد الله بن مسلم) : 4 - 5 - 6 - 70 - 518
قداسة بن جعفر : 97 - 100 - 103 - 407 - 408
أبو القسم الخرقي الحنبلي : 81
ابن القصّار (أبو الحسن) : 80
قطب (سيـــد) : 552
القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد) : 228
القمّي (أبو بشر أحمد بن ابراهيم) : 82 - 91
القمّي (عباس) : 77 - 85 - 131 - 465 - 519
قوام الدين : راجع بهاء الدولة
قيس بن عاصم المنقري : 835
قيس الماصر : 85
كاشف الغطاء (محمد رضا) : 197 - 254
الكاظم (موسى بن جعفر الصـــادق) : 89 - 118 - 119 - 122 - 132 - 208
كافور الأخشيـــدي : 62
الكتبي (محمد شاكـــر) : 628 - 663
ابن كثير (اسماعيل القرشي) : 505
كثيّر عـــزة : 314
الكرخي (أبو الحسن عبد اللـه) : 80
كعب الغنوي (أخو أبي الغوار) : 430
أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب : 465
الكلينـــي (محمد بن يعقـــوب) : 78 - 85
الكميت بن زيد الأسدي : 87 - 314 - 435 - 470 - 471 - 472 - 474 - 485 - 520 - 536 - 627 - 653
الكناني (أبو حفص عمر بن ابراهيم) : 248 - 249
لبيد بن ربيعـــة : 447 - 448 - 626
ابن لنكـــك (أبو الحسن محمد بن محمد) : 50 - 110

أبو لـــؤلـــؤة (فيـــروز المجوســـي) : 87
أبو ليلـى البدوى (عمر أو كعـب) : 184 - 642 - 644
ابـن ماجـة (محمد بن يزيـد القزويني) : 77
مالـك بـن أنـــس : 5 - 56 - 77 - 80 - 89
مالـك بـن فـارح (أحد نديمي خذيمة الأبـــرش) : 651
مالـك بـن نويـــرة : 430 - 446 - 662
مأمون خـــوازم : 68
المأمون (عبد اللـه بن الرشيـد) : 6 - 7 - 10 - 88 - 89 - 232 - 477 .
مانـــي : 75
المـاوردى (علـي بن محمد) : 37 - 81 - 233 - 763
مبـارك (زكـــي) : ب - 124 - 184 - 250 - 252 - 329 - 370 - 383 - 607 - 740 - 792 - 795 .
المبـــرّد (محمد بن يزيـــد) : 447 - 449
متـــز (آدم) : 16 - 20 - 29 - 30 - 31 - 33 - 46 - 48 - 50 - 51 - 67 - 73 - 99 - 152 - 250 - 359 .
المتقي باللـه (أبو اسحاق ابراهيم بن المقتدر) : 9 - 29 - 30
متمم بـن نويـــرة : 430 - 446 - 662
المـتنبـــي (أحمد بن الحسين) : 15 - 30 - 45 - 62 - 67 - 99 - 101 - 102 - 103 - 112 - 113 - 114 - 158 - 243 - 250 - 310 - 317 - 319 - 320 - 321 - 322 - 323 - 326 - 327 - 329 - 330 - 333 - 337 - 410 - 415 - 417 - 420 - 421 - 423 - 424 - 448 - 450 - 591 - 592 - 653 - 659 - 717 - 802 - 813 - 838 - 842 .
المتوكـل (جعفر بن المعتصم) : 8 - 90 - 480
المجـــاب (ابراهيم بن موسى الكاظم) : 118 - 122
المجلســي (محمـد باقـــر) : 437 - 467 - 469 - 488 - 503 - 504 .
محمـد بـن بشيـر الخارجي : 438
محمـد بن الحسيـــن : راجع الشريف الرضـــي
أبو محمـد الخـــازن : 803
محمـد بن عبد اللـه (ص) : 36 - 54 - 70 - 73 - 74 - 76 - 79 - 104 - 139 - 140 - 164 - 166 - 188 - 189 - 200 - 202 - 205 - 206 - 207 - 208 - 210 - 211 - 212 - 214 - 231 - 253 - 267 - 307 -

- 455 - 454 - 453 - 452 - 444 - 357 - 354 - 349 - 348 - 340
- 478 - 474 - 473 - 472 - 470 - 468 - 459 - 458 - 457 - 456
- 498 - 496 - 495 - 491 - 490 - 489 - 488 - 483 - 482 - 479
- 530 - 529 - 510 - 506 - 504 - 503 - 502 - 501 - 500 - 499
- 550 - 548 - 547 - 546 - 545 - 544 - 542 - 541 - 540 - 536
.763 - 716 - 714 - 629 - 570 - 569

محمود الغزنوى : 69

محمود الوراق : 835

محي الدين (عبد الرزاق) : 12 - 42 - 65 - 79 - 90 - 118 - 132 -
.251 - 195

أبو مخنف (لوط بن يحي بن سعيد) : 519

المديني (أبو عبد الله جعفر) : 76

الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوى) : 42 - 52 - 54 - 65 -
-129 - 127 - 124 - 118 - 117 - 112 - 91 - 90 - 83 - 82 - 75 - 72
- 204 - 202 - 200 - 199 - 198 - 173 - 133 - 132 - 131 - 130
- 224 - 223 - 222 - 221 - 220 - 219 - 218 - 217 - 213 - 209
- 317 - 295 - 287 - 282 - 281 - 280 - 254 - 251 - 245 - 227
- 615 - 614 - 584 - 580 - 536 - 421 - 420 - 417 - 344 - 337
.838 - 814 - 802 - 789 - 631

مردم (خليل) : 331

المرزباني (محمد بن عمران) : 266

المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد) : 431 - 433 - 438 - 439 -
.446 - 445 - 442 - 441

مروان بن الحكم : 479 - 510

ابن مزيد (يزيد) : 448

المستكفي بالله (عبد الله بن المكتفي العباسي) : 13 - 30 - 153

المستعين بالله (أبو العباس أحمد بن محمد) : 8

مسكويه (أحمد بن محمد) : 9 - 11 - 12 - 15 - 16 - 17 - 19 -
-44 - 42 - 41 - 40 - 33 - 32 - 31 - 30 - 29 - 27 - 26 - 22 - 20
.244 - 153 - 152 - 123 - 100 - 65 - 57 - 56 - 55 - 49

المسعودى (علي بن الحسين بن علي) : 6 - 7 - 120 - 121 - 204 -

463 - 464 - 465 - 567 .
مسلم (ابن الحجاج القشيـــــري) : 77 - 541
أبو مسلم الخراساني (عبد الرحمان بن مسلم) : 3 - 5
مسلم بن عقيل بن أبي طالب : 464
المسيح (عيسى بن مريم (عليه السلام)) : 75
المصطفى : راجع محمد بن عبد الله (ص)
مصعب بن الزبير : 56
المطهر بن عبد الله (وزير عضد الدولة) : 16 - 139
ابن مطير الشاعر (الحسيـــن) : 591 - 663
المطيع لله (الفضل بن المقتدر) : 142 - 153 - 170 - 189
المظفر (أبو الحسن عبد الله بن محمد) : 656
المعافى بن هزيـــم : 445
معاوية بن أبي سفيان : 132 - 354 - 458 - 460 - 462 - 463 -
496 - 508 - 518 - 534 .
معاوية بن مالك : 661
معاوية بن المغيرة بن العاص : 550
ابن المعتـــز (عبد الله) : 9
المعتصـــم (محمد بن الرشيـــد) : 7 - 8 - 25
ابن المعتمـــر (بشـــر) : 198
المعـــري (أبو العـــلاء أحمد بن عبد الله) : 133 - 141 - 561-562 .
قاضي القضاة ابن معـــروف (عبيد الله بن أحمد) : 129
معز الدولة (أحمد بن بويه) : 11 - 20 - 22 - 28 - 30 - 31 - 55 -
65 - 66 - 123 - 127 - 153 - 154 - 244 .
المعز لدين الله (معد بن المنصور الفاطمي) : 11 - 483
معن بن زائدة : 449 - 591 - 592 - 663
مغنيّة (محمد جـــواد) : 202
المفضل بن محمد الضبي : 248
المفيد (محمد بن محمد بن النعمان) : 53 - 82 - 91 - 132 - 200 -
216 - 245 - 246 - 248 - 452 - 496 .
المقتدر بالله (جعفر بن المعتضـــد) : 9 - 26 - 27 - 30
ابن مقلة (أبو علي محمد بن علي) : 237

المكتفي بالله (علي بن المعتضد) : 9 - 11
المنصور (أبو جعفر عبد الله بن محمد) : 4 - 5 - 25 - 75 - 88 - 89 - 474 - 628
أبو منصور (المرزبان الشيرازي) : 615 - 616 - 694
منصور النمري : 448
المهدي (محمد بن المنصور العباسي) : 5 - 6
المهدي المنتظر (محمد بن الحسن العسكري) : 78 - 83 - 119 - 122 - 208 .
الوزير المهلبي (أبو محمد الحسن بن محمد) : 19 - 20 - 30 - 65 - 224 .
مهيار الديلمي : 159 - 282 - 337 .
المهيري (عبد القادر) : 93
موسى بن جعفر : راجع الكاظم
موسى بن عمران (عليه السلام) : 201 - 434 - 482
أبو موسى (محمد) : 720
الموسوي (محمد بن موسى) : 118 - 122
الموسوي (موسى بن ابراهيم) : 118 - 122
الموسوي (موسى بن محمد) : 118 - 122
الموفق (أبو علي الحسن بن محمد)وزير بهاء الدولة : 178 - 230 - 231 - 335 - 376 .
مؤنس الخادم : 9 - 27
مؤنس الخازن : 9
ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي) : 6 - 274 - 427 - 434 - 657 .
مؤيد الملك (أبو علي الحسين بن الحسن الرخجي) : 43
مويلك المزموم : 440
ميثم بن علي البحراني : 425
ابن نباتة التميمي (عبد العزيز بن عمر) : 251
ابن نباتة الفارقي (أبو يحي عبد الرحيم) : 251
النجاشي الشاعر (قيس بن عمرو) : 463
نجم (محمد يوسف) : 261
نحرير الخادم : 17

ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحاق) : 70 - 76 - 77 - 79 - 80 - 82 - 85 - 93 - 266
النسائي (أبو عبد الرحمان أحمد بن علي) : 77
النظّام (ابراهيم بن سيار) : 250
النعيمي (حسام) : 93
النفس الزكية (محمد بن عبد الله بن الحسن) : 4 - 89 - 474
نفطويه (ابراهيم بن محمد) : 92
نكلسن (رينولد) : 25 - 37 - 57 - 62 - 67 - 642
النمر بن تولب : 104
النهرسابسي (أبو الحسن محمد) : 227
أبو نواس (الحسن بن هاني) : 316
النوبختي (الحسن بن موسى) : 452
نوفل (محمد محمود) : 331
النيفر (محمد الطاهر) : 85 - 86
النيّال (محمد البهلي) : 112
الهادي (علي بن محمد الجواد) : 122 - 208 - 211
هارون عليه السلام : 482
هاشم بن عبد مناف : 168
ابن هانئ الأندلسي (أبو القاسم محمد) : 483 - 484 - 802
هشام بن الحكم : 85
أبو هلال العسكرى (الحسن بن عبد الله) : 61 - 103
الهمذاني (محمد بن عبد الملك) : 34 - 113 - 123
ابن هند : راجع معاوية بن أبي سفيان
الواثق (هارون بن المعتصم) : 7
واصل بن عطاء : 71 - 85
وجدي (محمد فريد) : 119
الوزير المغربي (الحسين بن علي) : 282
الوصي : راجع علي بن أبي طالب
ياسين : راجع محمد بن عبد الله (ص)
آل ياسين (محمد حسن) : 83
ياقوت (أبو عبد الله شهاب الدين الحموي) : 459

يحـــي بن عمر العلـــوي : 476
يزيـــد بن معاويـــة : 464 - 491 - 510 - 521
اليزيـدي (محمد بن العبـاس) : 447
يعقـــوب عليه الســـلام : 431
اليعقوبـــي (أحمد بن أبي يعقوب العباسي) : 6 - 455 - 456 - 457 .
اليعـــلاوي (محمـــــد) : 562
يوسف الصدّيق عليه الســـلام : 431

فهـــــرس الأماكـــــن

الابرقيـــن (منطقة باليمن) : 819
أحـــد : 478
اسبانيـا : 285
اصفهـان : 64
افريقيـا : 480
ألمانيـا : 285
الأندلس : 9 - 61 - 62 - 67
الأهـــواز : 18 - 43
ايـــران : 53 - 54 - 208 - 285
البحرين : 293
بـــدر : 354 - 478
بريطانيا : 285
البصـرة : 5 - 18 - 35 - 37
بغـداد : ب - 3 - 6 - 7 - 8 - 12 - 15 - 16 - 17 - 18 - 22 - 25 -
30 - 31 - 33 - 39 - 40 - 41 - 42 - 50 - 51 - 56 - 62 - 63 - 123 -
127 - 129 - 130 - 138 - 139 - 154 - 156 - 157 - 160 - 164 -
173 - 174 - 176 - 179 - 208 - 222 - 230 - 244 - 255 - 256 -
265 - 284 - 292 - 346 - 367 - 374 - 389 - 440 - 441 - 505 -
527 - 614 - 778 - 790 - 793 - 795 .
البقيـــع : 208

بلـــخ : 35
بمبـــاي : 292 - 293
بيـــروت : 72 - 254 - 285 - 292 - 293 - 468 - 469 - 517 .
تركيـــا : 285
تونـــس : 293
جرجـــان : 9
جنوب فـارس : 10
الجـــولان : 635
الحجـــاز : 10 - 53 - 820 - 821
حـــرّاء : 453
حلـــب : 9 - 67 - 717
الحيـــرة : 628 - 632 - 634 - 635 - 636 - 638 - 639 .
خراســـان : 6 - 7 - 68
الخليـــج : 10
خـــوارزم : 68
خيبـــر : 456 - 466 - 502 - 505 - 506 .
الخيـــف : 219 .
د مشـــق : 478
الديلم ،أو جبال الديلـــم : 120 - 567
ذي سلـــم : 825
ذي قـــار : 461 - 720
الربـــاط : 285
الـــزوراء : 125
سامـــراء : 8 - 208
السعودية : 285
سقيفة بنـي ساعـــدة : 454 - 478 - 509
سلـع (منطقـة بالحجـــاز) : 820
سوريـا : 284 - 468
الشـام : 9 - 39 - 53 - 67 - 84 - 449 - 450 - 460 - 480 - 606 - 658 .
شبه جزيـرة العـرب : 820

شعب (مكان بالحجاز) : 818
شيراز : 62 - 128 - 138 - 154 - 296
صفين : 452 - 508 - 534
طبرستان : 69 - 567
الطفوف أو الطف : 208 - 472 - 490 - 536 - 537
طهران : 468
طوس : 208
العذيب : 620 - 621
العراق : 9 - 16 - 17 - 18 - 22 - 23 - 24 - 42 - 52 - 54 - 64 - 66 - 67 - 70 - 80 - 81 - 99 - 105 - 123 - 126 - 127 - 132 - 136 - 138 - 154 - 161 - 162 - 173 - 175 - 178 - 180 - 208 - 222 - 244 - 250 - 282 - 285 - 449 - 450 - 460 - 464 - 480 - 607 - 635 - 642 - 658 - 718 - 730.
غدير خم : 207 - 349 - 453 - 454 - 471 - 473 - 478 - 498 - 499.
الغرى : 208
فارس : 9 - 64 - 123 - 138 - 178 - 230 - 344 - 345 - 480 - 606.
فدك : 456 - 466 - 471
فرنسا : 285
قاشان : 44
القاهرة : 265
قم : 44
القنان (مكان بالحجاز) : 818
كربلاء : 119 - 287 - 464 - 470 - 473 - 475 - 476 - 484 - 485 - 486 - 489 - 490 - 494 - 496 - 497 - 500 - 516 - 517 - 531 - 536 - 537 - 538 - 540 - 541 - 544 - 545 - 548 - 549 - 550.
الكرج : 44
الكرخ : 48 - 126 - 790 - 793 - 795
كردستان : 10

كرمـــان : 16
الكوفـة : 23 - 35 - 38 - 177 - 243 - 464 - 628 - 635 .
الكويـت : 261
المدائـن : 3 - 635
المدينـة المنورة : 4 - 5 - 77 - 89 - 208 - 465 - 550 .
مصـــر : 9 - 39 - 53 - 54 - 62 - 63 - 67 - 172 - 173 - 177 - 183 - 284 - 480 .
المغـــرب : 9 - 67
مكـة المكرمة : 620
منـــى : 929
الموصـل : 9 - 642 - 717
نجـــد : 621 - 819
نجـــران : 635 - 636
النجـف : 254
النهـروان : 508 - 509
الهنـــد : 285
همـــذان : 64
هولنـــدا : 285
واســـط : 18 - 23 - 34
اليمـــن : 628 - 636

فهـــرس الأشعـــار (الشواهـــد)

المطلـــع	القافيـــة	البحـــر	العدد	القائـــل	الصفحة
أأشقـــى	خـــلاءُ	طويـــل	1	المرتضـــى	221
ألا أن يـــوم	دواءُ	"	1	"	537
جـــزاءُ	عطـــاءِ	"	2	الرضـــي	142
					378
فقـــدت	دائِ	"	1	"	729
وليـــس	بسخـــاءِ	"	1	"	774
ألا قُـــلْ	دواؤهـــا	"	3	أبو اسحاق الصابي	110
خطـــوب	الضـــراءُ	وافـــر	5	الرضـــي	36
					742
كـــأن	جـــلاءُ	"	1	"	371
أمـــر	البكـــاءُ	"	3	"	743
نجرينـــي	رائِ	"	4	"	175
فلم أنـــا	ورائـــي	"	1	"	176
					445
أنعـــاك	خبـــاءَ	كامـــل	4	"	595
يا راحـــلا	ضيـــاءَ	"	4	"	596
فاستبـــق	الأعـــداءَ	"	3	"	596
أحبابـــي	الـــدهاءَ	"	3	"	663
فاخلـــط	رعـــاءَ	"	2	"	689
آبـــاؤك	التعمـــاءِ	"	3	"	121
لهكيـــك	بدائـــي	"	2	"	150
					286
					563
					650
ومن العمـــول	الأدواء	"	2	"	217
أم مـــن	الضـــراءِ	"	2	"	218
					573
وتـــداول	الارجـــاء	"	1	"	327

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
لو كان	لوائي	كامل	1	الرضي	561
وألوذ	عزائي	"	1	"	563
كيف	بازائي	"	2	"	564
فبأي	دعائ	"	4	"	564
كم أمر	دوائي	"	1	"	565
ما كنت	بغدائ	"	1	"	565
انضيت	الاعبائ	"	2	"	566
آباؤك	النعمائ	"	3	"	566
لهفي	البيدائ	"	3	"	567
كان	أحشائي	"	1	"	568
					488
معروفك	الغبراء	"	2	"	571
لو كان	عن الآباء	"	1	"	572
					488
طورًا	وحيائي	"	2	"	671
بعدا	الاعضاء	"	1	"	691
وكأنّ	الاسراء	"	1	"	704
رزآن	بقائي	"	1	"	710
وتغرّق	القربائ	"	1	"	784
وجرى	رجائي	"	2	"	785
وخلائق	للاعطائ	"	1	"	841
ومسنديون	أعضاؤه	"	2	"	560
ومؤمر	قرناؤه	"	2	"	587
					593
ان الذي	خباؤه	"	5	"	589
لا تعجبن	بقاؤه	"	2	"	590
واذا أعاد	آناؤه	"	2	"	590
نادته	حوباؤه	"	4	"	593

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
قد كان	صفاؤه	كامل	4	الرضي	594
ولقد مررت	ارجاؤه	"	6	"	699
واحسيناً	الاعداء	خفيف	2	الرباب زوج الحسين	486
قال لي	الظماء	"	4	الرضي	822
كربلا	المصطفى	رمل	1	"	287
548					
يا رسول الله	وسبا	"	5	"	495
529					
547					
لو بسبطي	ما عدا	"	1	"	510
أدرك	فاشتفى	"	1	"	513
أنتم	الروا	"	1	"	534
قتلوه	الكسا	"	1	"	541
يا قتيلا	الهدى	"	1	"	542
546					
أي جد	يا أبا	"	1	"	542
رضينا	الطلا	متقارب	1	"	380
واني	الصبا	"	1	"	380
807					
بني	الوغى	"	1	"	380
حلفت	بالذرى	"	1	"	381
وحاشاك	الهوى	"	1	"	381
سأشدو	الوجى	"	1	"	361
السنا	الضرائبُ	طويل	4	"	168
يغرّ	المحجّبُ	"	1	"	185
348					
اذا قلت	مطنبُ	"	4	"	214
333					
347					

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
أهدب	واكذبُ	طويل	2	الرضي	333
تقول	طبيبُ	"	2	كعب الغنوي	430
أأدهن	سليبُ	"	4	محمد بن الحنفية	483
ومن أكبر	الملجّبُ	"	3	الكميت بن زيد	472
فان هي	وأقربُ	"	1	"	474
أبعد النبي	يُنسبُ	"	1	الرضي	497
نظرت	مغرّبُ	"	9	"	225
قتيل	مذهبُ	"	1	الكميت بن زيد	536
أفي كل	مقاربُ	"	1	الرضي	880
سئمت	العقاربُ	"	1	"	737
واني لأرعى	الأقاربُ	"	1	"	800
وما لي بالعياء	نسيبُ	"	1	"	819
ألا أيها الركب	قريبُ	"	1	"	819
اذا قعدت	نواديا	"	2	"	585
لأظعانا	نوائبا	"	2	"	709
أصابت	العواقبا	"	3	"	711
وخطب	الجوانبِ	"	4	"	125
لأمجد	بن غالبِ	"	1	"	348
وهل	السباسبِ	"	1	"	555
لنا كل	النوادبِ	"	1	"	577
					708
ونأمل	كاذبِ	"	1	"	577
من القوم	الاطائبِ	"	1	"	577
كفى	التّرْبِ	"	3	"	583
					673
وممّا يطيب	أوقُرْبِ	"	1	"	225
					584
أفي كل	جانبِ	"	1	"	680

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
لتبك	الرغائبِ	طويل	1	الرضي	690
مصاب	الغواربِ	"	3	"	698
ومن كانت	الركائبِ	"	1	"	705
ومن أصبح	ضاربِ	"	1	"	705
نعم وانّها	لطالبِ	"	1	"	709
وما النّاس	ساربِ	"	1	"	710
مقام	العجائبِ	"	1	"	776
أقول وقد	جنبي	"	3	"	789
فهذى المعالي	رقابها	"	2	"	178
وأقرب	حبابها	"	3	"	231
أمانيّ	ايابها	"	1	"	335
شربنا	شرابها	"	5	"	722
نشاق	حسابها	"	1	"	824
أحن الى	هبوبه	"	1	"	825
سأصبر	عواقبه	"	2	"	726
صاحب	لعبه	مديد	3	"	762
سقياً	تحلّبُ	بسيط	1	الخنساء	663
المجد	لعبِ	"	2	الرضي	116
298					
301					
باشر	النسبِ	"	2	"	162
اذا مدحتك	نسبي	"	1	"	353
فليت	لم تغبِ	"	2	المتنبي	448
اني لمن	نبي	"	1	الرضي	502
يهاب سيفك	مخضوبِ	"	1	"	834
844					
ومن هوى	غير مخضوبِ	"	2	المتنبي	842
واصْدِمْ	الكربِ	"	2	الرضي	844

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
يريدون	الطلابُ	وافر	2	الرضي	238
وأولنا	الذهابُ	"	1	"	555
سواء من	الترابُ	"	1	"	558
وبعض العدم	عابُ	"	1	"	780
اذا نزل	غضابا	"	1	معاوية بن مالك	661
سقى الله	العِذابِ	"	5	الرضي	208
أجلّ عن	بالسبابِ	"	2	"	211
قسيم	العَذابِ	"	1	"	503
وساقي	الحسابِ	"	1	"	504
ومن سمحت	الكعابِ	"	1	"	505
أمّا في باب	الحبابِ	"	1	"	505
أهذا البدر	بالضبابِ	"	1	"	507
والغظ	الشروبِ	"	1	"	533
ولو لا	كل بابِ	"	2	"	721
أبيت	للركابِ	"	1	"	806
أقول	وطيبي	"	4	"	724
لا يبعدن الله	سليبا	كامل	3	"	829
لم أنسى	مغرّبُ	"	2	القاضي التنوخي	111
ولقد وقفت	نهبُ	"	3	الرضي	365
يشكو	شاربُ	"	2	"	741
من لي	عابُ	"	8	"	748
قد عزّ	الطالبُ	"	1	"	772
إنّ الرزية	الكوكبِ	"	1	لبيد	448
عوملت	عجابِ	"	5	الصاحب بن عباد	481
قتلوا	لما بي	"	3	"	483
ولقد أكون	الأقربِ	"	4	الرضي	831
انّا نعيب	ولا نصابُ	م . الكامل	2	"	213
ما للهموم	تشبّ	"	4	"	624

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
ما أخطأتك	تحبُّ	م. الكامل	1	الرضي	625
لوداع	تخبُّ	"	2	"	707
لا لوم	من تغابى	رجز	2	"	584
آه من	بطبيبُ	رمل	1	"	231
يا ريم	الرطبِ	سريع	1	"	819
يا دهر	العجبُ	منسرح	2	"	635
ولوعةٍ	عن كثبِ	"	5	"	615
يا مقول	من القصبِ	"	2	"	616
يا عين	الطربِ	"	4	ديك الجن	475
يا علم	الطنبرِ	"	3	الرضي	694
واذا قلّبَ	ولبّ	خفيف	1	"	777
إنّ طيف	وشعبرِ	"	5	"	818
يا دين	يخبو	مجتث	1	"	576
شقيقتي	لخطبُ	"	7	"	581
إنْ كان	قربُ	"	4	"	789
طلبت	طلوبُ	متقارب	5	"	135
طلوع	الخطوبُ	"	3	"	346
					351
					376
لقد كان	الكاربُ	"	4	"	612
وكنت	الجانبُ	"	1	"	613
وما بقي	الواجبُ	"	4	"	661
بمن أتسلى	قضيبا	"	2	"	681
تعمدت	الخطوبا	"	3	"	702
أحين فشا	بالخضابِ	"	2	"	342
وعرّج	عن كثبْ	"	4	"	171
أبى الناس	الكذبْ	"	3	"	239
وقل لبني	الغضبْ	"	3	"	515

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
سقى	رفاتُ	طويل	1	مسلم بن الوليد	663
فسوف تراني	لعتي	"	3	الرضي	358
فكم زعزعتني	بالمتشبثِ	"	4	"	393
مررت	حلتِ	"	3	سليمان بن قتة	470
تجاوبن	النطفاتِ	"	1	دعبل	477
وما نال	ترابِ	"	4	"	478
ديار رسول الله	الحجراتِ	"	4	"	478
أظلوا علينا	وبالتي	"	5	الرضي	514
أناطم	فراتِ	"	2	دعبل	520
وانّ قتيل	فذلّتِ	"	1	سليمان بن قتة	536
أرى فيأهم	صفراتِ	"	1	دعبل	551
بنو هاشم	قذاتها	"	2	الرضي	385
يطول	خسأتها	"	1	"	390
أحنّ	كل وقتِ	وافر	2	"	825
يا مؤنسًا	بليتُ	كامل	2	مجهول	442
قل للذين	غلتي	"	1	الرضي	387
قد قلتُ	مصمتِ	"	2	"	727
أعدد تكم	كل ملمة	"	2	"	769
يا ضيعة	يا ضحيتي	"	1	"	769
أفكر	اخوتي	م . الرجز	6	تاج الدولة	18
يعبن	بالميتِ	سريع	2	الرضي	363
قد عدونا	الحانات	خفيف	1	أحمد الدمشقي	118
من يكن	بالزفراتِ	"	3	الرضي	597
وعجيب	قليتك	"	2	"	510
اذا رمت	بالنبائثِ	طويل	2	"	364
ما الى الدنيا	النفاتُ	"	3	"	242
طلقتها	ثلاثُ	"	1	"	841
بني المصطفى	مفرجُ	"	5	ابن الرومي	475

المطلع	القافية	العدد	البحر	القائل	الصفحة
قد أتى	المهجّ	4	م . الخفيف	ابن سكرة	44
فمن ماله	يمدحُ	1	طويل	الرضي	361
فبانّ تك	تترنّحُ	2	"	"	362
سأبكيك	الجوانحُ	2	"	منصور النمري	448
ليس العلوم	سَمَحَا	1	بسيط	الرضي	403
نالوا المعالي	كَدَحَا	1	"	"	731
أرى رجالا	صَرَحَا	2	"	"	732
هل يبلغنهم	قَرَحَا	2	"	"	799
أغار	المراحِ	1	وافر	"	155
					314
فما لي تطلب	اللواحِ	1	"	"	156
أ تصحو	بالرواحِ	1	"	جرير	314
وسيّال	المزاحِ	1	"	الرضي	315
ألستم خير	بطون راحِ	1	"	جرير	315
صبرا	القريحُ	2	كامل	الرضي	378
نظروا	استقبحوا	1	"	"	402
ان أحرجوا	لم يبجحوا	1	"	"	409
ردت اليه	من الاصباحِ	1	"	"	502
وأبي الذى	نطاحِ	2	"	"	508
وأسأل به	النطّاحِ	1	"	"	508
					509
وأسأل شراه	وقاحِ	1	"	"	509
وليت	اصلاحي	3	"	"	766
دع الدنيا	من ذبائحها	3	م . الرجز	أبو سهل الصعلوكي	109
دونكم	مُباحُ	2	سريع	الرضي	313
فبهتهم	الصباحُ	4	"	"	356
اذا تفكرت	قادحة	3	منسرح	أبو بكر الخالدي	485
واذا رمتك	أجرحُ	1	متقارب	الرضي	770

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
أكاثر	بامتداحي	متقارب	2	الرضي	402
					728
أحب الخيام	المراحِ	"	2	"	609
وما العيش	المستباحِ	"	5	"	719
دعوت	القدحْ	"	2	أبو الفتح البستي	109
أبلغا عني	ساخا	خفيف	4	الرضي	129
					299
والعقاب	سماخا	"	3	"	130
تمر بنا	الجلامدُ	طويل	1	"	387
سللنا	المقاودُ	"	5	"	394
الأحبّذا	البعدُ	"	1	الحطيئة	425
تضميهمُ	تذادُ	"	2	ابن هانئ	521
وتختلفُ	واحدُ	"	1	الرضي	524
وكيف يغضُّ	الاباعدُ	"	1	"	531
يدل بغير	عاضدُ	"	4	"	139
وانني لأرجو	العوائدُ	"	2	"	178
تعود الى الحلم	وعائدُ	"	4	"	229
سرى طيفُ	رقودُ	"	2	المرتضى	280
فردتْ	وُرودُ	"	2	الرضي	280
تغرّب	المجدُ	"	1	"	318
نُصافي	قاعدُ	"	1	"	345
					351
					388
يقرُّ بعيني	العذاوِدُ	"	2	"	345
ولاحت	لا يغدو	"	2	"	364
اذا عربي	الجدُّ	"	1	"	720
أكلّ قريب	حقِدُ	"	2	"	739
اذا قلّ	الودّ	"	1	"	771
					790

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
وفقد الشباب	يفقدُ	طويل	1	ابن الرومي	335
ولما قرعنا	جلدا	"	2	المرتضى	314
آل بويه	فقدا	"	2	الرضي	177
دعاني	أوردا	"	2	"	178
فتى سنّه	ومحتدا	"	2	"	278
برغمي	بردا	"	5	"	620
أتاني	نجدا	"	1	"	621
أبرّ	محتدي	"	2	"	134
فلو قيل	العهدِ	"	1	"	804
وأعظم	حدّي	"	3	"	223
أصاحب	الودّ	"	3	المرتضى	223
فتى هاشم	وسؤددِ	"	2	الرضي	357
سقى	بمسعدِ	"	3	"	371
يفاخرنا	عَدِي	"	3	"	499
ألا ليس	بزائدِ	"	3	"	513
سلا ظاهر	أبدي	"	1	"	580
ألا م	ما أُبدي	"	1	ابن الرومي	580
مضى	المعضّدِ	"	5	الرضي	643
وكانوا	المتنجد	"	1	"	679
فقل	أو ردى	"	2	"	689
لعا لكم	العقيّدِ	"	1	"	691
فلا نعم	مشهدِ	"	4	"	695
ضاع الشباب	الرعاديدُ	بسيط	1	"	278
لأي حال	تصريدُ	"	1	"	531
بشرى	صعدا	"	1	أبو محمد الخازن	803
ليت الأحبة	تبعيدِ	"	2	الرضي	798
مني الدهر	مصفودِ	"	2	"	801
ما لي بغير	تمهيدِ	"	1	"	807

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
ليس الغريب	مودود	بسيط	1	الرضي	236
					403
					729
أرى وجوها	الجود	"	3	"	363
ما الفقر	محمود	"	1	"	774
فمهما شئت	سودُ	وافر	4	"	387
وللانسان	ومستردُ	"	2	"	559
تفوز	لا يردُّ	"	3	"	648
أ ابراهيم	يحدُّ	"	2	"	986
مصابك	جمادا	"	2	"	655
فقل للقلب	الرقادا	"	2	"	688
كأنّ الناس	الحدادا	"	1	"	703
انظر	تزيدُ	كامل	3	"	141
					351
هذا أمير المؤمنين	المولدُ	"	3	"	188
					498
					715
ردّوا تراث	ولا البردُ	"	2	"	190
					716
قد عاود	غيدُ	"	3	"	347
وُعلّيَّ	المتعودُ	"	1	"	348
أذكرتنا	محمدا	"	1	الوزير المغربي	282
أقريش	الندي	"	1	مهيار الديلمي	282
لولا هواك	فؤادي	"	1	الرضي	807
لهفي لأيّام	الا بردِ	"	4	"	831
قد كان	ميلادي	"	1	"	358
أثر الهوادج	القودِ	"	2	"	374
أعلمت	النادي	"	1	"	378

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
ضربوا	أوتاري	طويل	2	الرضي	560
الفضل	ميلادي	"	1	"	641
من البلاغة	الوادي	"	5	"	616
يا ليت	لفؤادي	"	1	"	617
ضاقت	بلادي	"	3	"	657
ولقد كبا	لرقادي	"	1	"	691
لا تطلبي	المرتادِ	"	1	"	692
أعزز عليّ	العوّادِ	"	3	"	695
لو كنت	طرادِ	"	2	"	706
ان الدموع	جوادِ	"	3	"	712
كانت غبابة	السعد	"	3	"	745
عادات	جوادِ	كامل	1	"	779
ما للزمان	تلادي	"	2	"	780
وا لهفتاه	قيادها	"	1	"	495
					542
إنّ الخلافة	سوادها	"	2	"	511
يا جد	بعدادها	"	2	"	540
يا يوم	ايقادها	"	1	"	541
هل تطلبون	سهادها	"	1	"	543
شغل الدموع	أولادها	"	1	"	544
ضربوا	زيادها	"	1	"	545
أترى درت	عند ولادها	"	1	"	550
صفدات	أصفادها	"	1	"	551
هذى المنازل	جمادها	"	3	"	649
يا غائبا	البعادا	م . الكامل	2	"	383
ولبي النقابة	أبي وجدي	"	2	"	233
					355
قل للعدى	مرادي	"	5	"	764

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
لا تعدد	أيام تعدّ	رمل	2	الرضي	558
اذكرونا	بردُ	"	3	"	720
قيل	بشدّه	م. الرمل	2	ابن سكره	109
صدت	الجيدُ	سريع	2	الرضي	839
يا ابن	يعيدُ	"	2	"	840
لشدّ	سودُ	"	1	"	840
أنا الذي	بيدي مارِ	"	4	"	356
نحن في عصبة	رشادِ	خفيف	2	"	137
					527
كلّ حيّ	العوادي	"	2	"	557
بني عمنا	ومدّا	متقارب	3	"	306
أعينتي	الندا	"	2	الخنساء	449
كأنا بنجد	رمدا	"	2	الرضي	527
أراك عصي	ولا أمرُ	طويل	2	أبو فراس الحمداني	436
أما والذي أبكى	الأمرُ	"	3	أبو صخر الهذلي	445
حلفت	النحرُ	"	5	الابيرد الرياحي	447
أخي ما أقل	كثُرُ	"	1	الرضي	713
فيا عجبا	غرّارُ	"	3	"	716
يقولون	الدهرُ	"	2	"	725
وما كنت	عاقرُ	"	1	"	791
وقالوا أح	البرى	"	4	"	226
					791
طلعت	الظِفرا	"	1	"	389
لقد ساءني	أقصرا	"	4	"	583
وانبي لارباب	العقابرِ	"	2	عبد الملك الحارثي	441
لقد أولع	من نذرِ	"	5	الرضي	585
					701
تناسيت	والغمرِ	"	2	"	649

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
عقيد	أسير	طويل	4	الرضي	775
ومن قيد	العذر	"	1	"	782
رأتني الغواني	النواضر	"	1	محمد بن أميّه	838
لك السوابق	أثرُ	بسيط	1	الرضي	353
فالعين	أستارُ	"	3	الخنساء	450
أبا المغيرة	لمغرورُ	"	2	الضحّاك بن قيس	443
قد كان قبلك	أبصارا	"	2	مجهول	439
في كلّ يوم	مغرورا	"	3	الرضي	738
حتّى متى	الفكر	"	3	تاج الدولة	43
من يعشق	الكدر	"	1	الرضي	324
					778
					505
أرى أميّة	من عذرِ	"	2	دعبل	479
يا جدّ	مقهورِ	"	1	الرضي	495
يا ابن النبي	مختصرِ	"	1	"	349
بني أميّة	موتورِ	"	5	"	512
وخرّ للموت	العحاضيرِ	"	2	"	520
يوم حدا الظعن	مطرورِ	"	2	"	540
تُسبي	مستورِ	"	1	"	540
					546
ما لي تعجب	مسبورِ	"	1	"	543
والدّمع	توتيرِ	"	1	"	544
كأنّ بيض	من النورِ	"	1	"	545
إنّ السلوّ	بمحظورِ	"	1	"	552
إنْ كنت	على قدرِ	"	1	"	759
يا قلب	الساري	"	1	"	819
فمذ اضاء	عن مزاري	مخ . البسيط	2	"	840
أيا للمجد	يغارُ	وافر	2	"	731

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
وكيف تتسم	الفجور	وافر	2	الرضي	328
					741
أمّا في هذه	الدّهور	"	2	"	531
هبّ لي	الزاهرُ	كامل	2	"	346
لو شاب	ناظرُ	"	1	"	398
ما المجد	الخاسرُ	"	1	"	409
أيّها مؤمل	إمرارُ	"	5	"	757
جانبت	عذاري	"	1	الحسن التنيسي	108
قومي	أوغادِ	"	5	الرضي	305
نشرت	لم تنشرِ	"	1	"	319
أو ما رأيت	بالعمرِ	"	1	"	411
يترادفون	يسري	"	1	"	411
وإذا أشار	غرّ	"	2	"	413
ألقي السلاح	المغوارِ	"	3	"	607
					667
يا تغلب	النّظّارِ	"	4	"	608
					667
					670
					683
اليوم	الأقدارِ	"	3	"	654
					667
خلي	الذخرِ	"	5	"	656
يا طالبا	الثارِ	"	6	"	668
					669
					670
اين القباب	للزّوارِ	"	1	"	668
بكرت	الأقطارِ	"	1	"	668
إنّي ذكرتك	بالاطوارِ	"	1	"	668

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
واجتاح	التيّارِ	كامل	1	الرضي	670
هيهات	الثارِ	"	1	"	670
خرس	جوارِ	"	1	"	708
لا زال	واستعبارِ	"	2	"	712
لو يفتدى	ضمائري	"	2	"	833
لا مرحباً	ظاهري	"	2	المرتضى	838
سالم	الناصرِ	"	1	الرضي	781
وقصيدةٍ	النضرِ	م. الكامل	3	"	314
وإذا عزانا	البدورِ	"	3	"	349
مستجدون	على الحضورِ	"	1	"	390
غدر السرور	يوم الغديرِ	"	2	"	498
يا من ثناه	وعنبرٌ	"	6	ابن سكره	47
عمرٌ	العمرِ	رجز	1	الرضي	771
عشرون	وطري	"	5	"	832
عضد الدولة	القَدَرُ	رمل	2	عضد الدولة	15
لا تخدعنك	بقرُ	منسرح	3	ابن لنكك	50
وابيضاض	نذيرُ	خفيف	1	عدي بن زيد	835
إنّما المرء	ليعرى	"	1	الرضي	324
أين عقباك	الأوكارا	"	2	"	638
المهيبون	النارا	"	2	"	638
ربطوا	عذارا	"	2	"	638
وقباب	مثارا	"	2	"	639
لكن الأمر	مبرّا	"	4	"	675
وكأنّ القبور	عطرا	"	1	"	703
اذا قلت	ظفرا	"	1	"	704
كم حشوت	أغرّا	"	1	"	706
لحن الله	النهارا	متقارب	3	"	240
					737

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
وقالوا انتظرها	للمنتظرُ	متقارب	2	الرضي	523
نأبى	تعزّى	م. الكامل	1	"	399
هم خلفوا	حبيسا	طويل	2	"	799
إذا كنت	مثل غارسي	"	1	"	181
ويجري	نفسي	"	1	"	558
رجال	تمسي	وافر	2	المرتضى	631
شرف الخلافة	أبو العباسِ	كامل	2	الرضي	165
يا للرجال	براسي	"	2	المرتضى	282
ليت شعري	نفسي	خفيف	3	أبو العباس الأعمى	628
فلها	حبسِ	"	2	البحتري	630
أين أبو العوام	والدلاصِ	رجز	4	الرضي	644
فقل للعدا	من الفضّ	طويل	1	"	424
تهضمني	غضّتي	"	3	"	767
خليلي	مخضِ	"	1	"	776
قد لبست	عرضا	خفيف	4	"	396
أين لا أين	وعضّا	"	1	"	423
أبا علي	اللّغطا	رجز	1	"	579
أرجّي الرزق	غليظِ	وافر	2	"	424
وما أنا	مفجّعُ	طويل	1	طفيل الغنوي	442
رمتني	جزوعُ	"	1	الرضي	605
فهجرًا	رجوعُ	"	3	"	605
وقد كنتُ	ولوعُ	"	4	"	641
					697
أضمُّ	نزوعُ	"	4	"	641
ذكرتك	لعوعُ	"	3	"	677
بمن تدفع	تضيعُ	"	2	"	693
أترضى	مهضّعُ	"	1	"	705
يقولون	واظلعُ	"	3	"	724

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
وما واثق	يسرعُ	طويل	1	الرضي	782
وكم ليلة	ومسامعُ	"	2	"	820
مجاور قومٍ	المشيّعا	"	3	"	560
فيا قبر	مضجعا	"	2	الحسين بن مطير	591
ألا ناشدًا	المزعزعا	"	2	الرضي	608
فيا بانيًا	ما رعى	"	2	"	609
أقول وقد	تربّعا	"	2	متمم بن نويرة	662
ألمّا على معنٍ	مربعا	"	1	الحسين بن مطير	663
فليس القنا	بقطّعِ	"	2	الرضي	559
وقالوا غلامًا	النزعْ	"	2	"	839
لكم على الدهر	دفعُ	بسيط	2	"	674
ما لليالي	ومرتبعي	"	2	"	682
أخي	ومستمع	"	1	"	686
ما كان	على طمعِ	"	4	"	622
لمّا رأيت	اتضاعُ	مخ . البسيط	3	المعافى بن هزيم	445
ويوم الدوح	أطيعا	وافر	3	الكميت بن زيد	471
نزوي	اسماعُ	كامل	2	الرضي	560
فلقد تركتِ	فتجزعُ	"	2	مويلك المزموم	440
رأس من بنت	يرفعُ	"	2	دعبل	536
يا من يبدّل	لا تنزعُ	"	4	المتنبي	591
واهًا له	يرقعُ	"	2	الرضي	688
إنْ عشت	تفجعِ	"	1	أيوب بن سليمان	442
ما للزمان	أدمعي	"	1	الرضي	522
من يشرق	يقدعِ	"	2	"	655
أمسى	المرضعِ	"	2	"	672
يا صاحب	المصدوعِ	"	4	"	796
ألهاكِ	الا ربعِ	سريع	2	"	841
ألامُ أنّي	أولعه	منسرح	3	"	646

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
عارضا بي	سلعِ	خفيف	1	الرضي	820
بليت	مطمعُ	متقارب	2	"	410
خليفة	وبغا	م. الرجز	2	مجهول	8
سلام	مضاعفُ	طويل	4	عبد الوهاب البغدادي	41
جرى	أوجفُ	"	2	الرضي	136
لنا الدولة	منصفُ	"	2	"	315
لنا العزّة	يتخلّفُ	"	2	الفرزدق	316
ورثنا رسول الله	والمعرّفُ	"	2	الرضي	341
أبونا الذي	يتقصّفُ	"	3	"	341
وهذا أبي	ومخلّفُ	"	2	"	357
بكى الشام	ترجفُ	"	1	مروان بن أبي حفصة	449
كفاني	كافِ	وافر	4	الرضي	235
أنبت	قذفُ	كامل	7	"	760
ساوى	وتصافِ	"	3	المعري	124
أوفيت	العوفي	"	3	الرضي	355
كان الشباب	لا مألوفِ	"	2	"	836
قضت	موقفها	"	3	"	373
رفقا	تطرفها	"	5	"	754
ان تكرمت	عنيفُ	خفيف	6	"	752
قد بلاك	عنفا	"	2	"	400
أفقدتنا	الشريفِ	"	1	أبو اسحاق الصابي	262
كم ذميل	وصدوفِ	"	1	الرضي	262
تلوم	طالقُ	طويل	3	محمد الافريقي	46
كفى حزنا	صديقُ	"	2	الرضي	241
					404
					750

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
أصون	أشفقُ	طويل	1	الرضي	800
فواها	تفرقوا	"	3	"	826
أبا حسن	فتصدقا	"	2	أبو اسحاق الصابي	190
					263
سننت	رونقا	"	2	الرضي	191
					263
وما العيش	وملتقى	"	1	"	325
					405
					785
لقد سلّ	واشراقا	"	1	"	532
خليلي زمّا	سهوقا	"	3	"	557
سقاه	سقا	"	3	"	664
فمن للاوابي	العوارقِ	"	5	"	619
طوى	المهارقِ	"	1	"	620
ألا يا لقومي	بعارقِ	"	3	"	687
أعرّض	ووارقِ	"	2	"	697
فكل غريب	المغارقِ	"	1	"	773
بانوا	شرقُ	بسيط	1	"	404
وما مدحتهم	ورقى	"	2	"	240
قد قسم الله	بالتفاريقِ	"	3	الأحنف العكبري	111
عطفا	نتفرّقُ	كامل	3	الرضي	117
					167
شرفت	ومغوقُ	"	2	"	344
ومفازة	بروقُ	"	3	"	374
من لي	يصدقُ	"	2	"	750
واذا الحليم	الأحمقُ	"	1	"	783
لولا يذم	اسحاقِ	"	5	"	640
					646

المطلع	القافية	العدد	البحر	القائل	الصفحة
ان تمضي	بواقي	1	كامل	الرضي	678
يا ليلة	باقِ	6	م. الكامل	"	815
نور الغواشي	العشاقْ	3	رجز	"	342
خطبتها	بعطلاقْ	1	"	"	811
يا قوام الدين	مضيقة	2	م. الرمل	"	343
وصفت	تذقِ	1	منسرح	ابن الرومي	317
لقاؤك	اشتياقا	2	متقارب	الرضي	811
فقال أتبكي	الدكادكِ	2	طويل	متمم بن نويرة	431
لقد لامني	السوافك	1	"	"	446
هوت	البرامكِ	2	"	سيف بن ابراهيم	629
أما تحرك	ملكُ	5	بسيط	الرضي	733
الكأس	درْكُ	4	"	الحلاج	113
يا صفقة	الدركا	4	"	الرضي	603
من للأسود	انتهكا	4	"	"	603
اذا رجا	ونكا	4	"	"	604
ياظبية	مرعاكِ	2	"	"	219
					819
مرت بنا	أشواكِ	1	"	المرتضى	219
أنت النعيم	وأحلاكِ	1	"	الرضي	794
أهوىً	ما اشتاكا	1	كامل	"	405
					805
يا ديار	ابلاكا	5	خفيف	"	718
ابتغي	العلكْ	2	رمل	"	736
يود الفتى	يفعلُ	1	طويل	النمر بن تولب	104
يحلّفن	منصلُ	1	"	الكميت بن زيد	520
تعزّ	بديلُ	3	"	الرضي	598
تلفت	حبولُ	3	"	"	598
لقد كنت	غسيلُ	3	"	"	599

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
نؤمل	أكولُ	طويل	2	الرضي	679
لماذا تربي	بعولُ	"	2	"	682
ومن نظر	سيزولُ	"	1	"	784
اذا لم يكن	سبيلُ	"	1	"	785
مسيري	جمالُ	"	2	"	834
وماذا ترجى	العرجّلُ	"	1	دريد بن الصمة	835
شباب الفتى	صقيلُ	"	3	الرضي	837
وليس خضاب	قذالُ	"	1	"	843
وما العمر	صقالُ	"	1	"	843
أراقب	خيالا	"	2	"	377
ولما رأيت	وأنالا	"	2	"	377
وأكبر همي	بلالا	"	1	"	523
عتبت	منجلِ	"	3	"	289
علّي دماء	رعيلِ	"	3	"	352
أعدّاء	بجميلِ	"	1	عتي بن مالك	433
وليل	ليبتلي	"	1	امرؤ القيس	435
بنو الوقت	جهّالِ	"	2	المعري	562
وقد كنت أبي	عقالي	"	4	الرضي	809
يا قائد الخيل	الى القبلِ	"	1	"	910
وليلة وصل	طوال مطالِ	"	3	"	806
أباحوا	والأسل	"	5	ابن حجاج	490
أمل من مثانيها	طلولها	"	1	الرضي	369
خليلي	مذيلها	"	1	"	369
نعيل	دليلها	"	1	"	404
ألا هي ضيف	دليله	"	2	"	837
وأين قوم	نزلوا	بسيط	2	"	408
ولى الشباب	العجلُ	"	2	"	836
وغافلين	مكتهلُ	"	2	"	844

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
أحظى الملوك	الاسلِ	بسيط	3	الرضي	160
أبي الوصي	بعده رسلِ	"	1	"	502
سلّ	عطبولِ	"	3	الكميت بن زيد	627
يا أرض	الحولِ	"	1	الرضي	685
لولا الكرام	الجللِ	"	1	"	777
ورب ليل	بالمقلِ	"	5	"	797
					817
وحسب	بالقبلِ	"	1	"	813
شغلى	غِلّا	وافر	4	"	764
محمد	الرفلّا	"	2	"	766
اذا خلت	المولىُ	"	3	"	20
زمان	جهولِ	"	2	ابن لنكك	110
نغالب	النبالِ	"	1	الرضي	320
نعد المشرفية	قتالِ	"	1	المتنبي	320
أقول لها	غير بالي	"	2	الرضي	366
فهل لي	الغزالِ	"	1	"	406
أبت همي	الزلالِ	"	1	"	536
هي الأيام	بالأوالي	"	3	"	652
نعي	الطوالِ	"	5	"	659
العفو	مغفّلُ	كامل	1	"	777
ولا دخلن	أليلُ	"	1	"	313
وما العرض	نبالُ	"	1	"	776
واهاً	كفك آلا	"	3	"	610
أكذا المنون	الا جبالا	"	6	"	611
					692
إنّ المشمر	الأذيالا	"	1	"	612
يا أمر	الا جالا	"	2	"	684
طرح الرجال	إجلالا	"	2	"	698

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
لا تأمنن	الابدالا	كامل	1	الرضي	812
					841
في الخد	محولا	"	3	المتنبي	814
ولأنت	من الذلّ	"	3	الرضي	137
واذا أمير المؤمنين	المفضلِ	"	2	"	157
أعدى	عقيلِ	"	5	"	651
ومقبل كفي	بالتقبيلِ	"	1	"	794
ومن دواء	عاجلُ	م. الكامل	1	"	324
لهفي	بديلا	"	3	"	149
					633
ان عاد	جميلا	"	1	"	167
صانعت	الغليلا	"	3	"	633
يا ناظر	كليلا	"	5	"	634
قمت	الجمالِ	رمل	4	"	169
ان للطائع	بلالي	"	3	"	598
لا أرى	غالي	"	3	"	588
قاده	الطوالِ	"	2	"	589
أيّها الظاعن	الجلال	"	2	"	592
أيها القبر	حالي	"	2	"	592
فاتني	بمقالي	"	1	"	600
اشترُ	بغالِ	م. الرمل	5	"	20
عجلت	تعجلا	سريع	4	"	145
					772
					828
جعدة	الثاكلِ	"	2	النجاشي	463
لا عجب	مقلُ	منسرح	1	الرضي	343
كم الى كم	مفضولُ	خفيف	1	"	194
					500

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
يا حسامـا	الصقيلُ	خفيف	10	الرضي	492
أنا مولاكم	البتولُ	"	1	"	494
أترانـي	الغليلُ	"	1	"	495
					528
يا غريب	قتيلُ	"	3	"	538
يا ابن	قليلُ	"	1	"	549
غاية	الذبولُ	"	1	"	784
عين	آل الرسولِ	"	2	سراقة البارقي	444
وكل سرور	زائلُ	متقارب	1	الرضي	845
يدلّ	الجلالِ	"	4	"	392
بكيتُ	الأملْ	م. المتقارب	2	محمود الوراق	835
حبيبي	أعجمُ	طويل	3	الرضي	49
ولا مثل	منعما	"	1	"	317
تعرّب	حكما	"	1	المتنبي	318
أ أبقى	سمّا	"	5	الرضي	722
نشرتهم	الدراهمِ	"	1	المتنبي	319
ومن غرّه	بالتيممِ	"	1	الرضي	328
وأولى	ولومِ	"	3	ابن هانئ	484
وأولى	يغنمِ	"	1	الرضي	776
اذا أقسم	الكرمْ	"	2	أبو الفتح البستي	110
وما خضب	فاحمهْ	"	1	الرضي	842
يا من يعز	قَدَمْ	بسيط	1	المتنبي	62
واحر	سَقَمْ	"	1	"	450
من أضمر	النَدَمَ	"	1	الرضي	783
هل كان	ارغامِ	"	2	"	161
أنا زهير	هرمِ	"	1	"	312
ماذا تقولون	آخر الأممِ	"	2	زينب ابنة عقيل	465

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
لله درّك	لضرغام	بسيط	4	الرضي	601
أين السرير	بسّام	"	5	"	601
لم يجر	بالشام	"	3	"	658
جدي	الأمم	"	1	"	714
بتنا	الى قدم	"	1	"	796
وبات	من الظلم	"	1	"	796
والمستنني	من العنم	"	3	"	821
ما ساعفتني	بذي سلم	"	3	المتنبي	825
ومن خبر	ظلام	وافر	2	"	838
اذا المرء	الصيام	"	1	"	328
أبا مطر	السليم	"	2	"	361
محمد	عمي	"	7	الامام علي	458
ألا انّ الوصية	وحسام	"	4	السيّد الحميري	473
وما لي	التميمي	"	2	الرضي	645
أرى	العظيم	"	5	"	303
لله تم لك	الأقدم	كامل	2	الرضي	159
164					
لا تهتدي	وأنتم	"	1	"	166
340					
للراى	مبرم	"	2	"	340
قد يبلغ	المعدم	"	2	"	735
أأفاق	صارما	"	2	عضد الدولة	16
أعريت	عرموم	"	4	الرضي	151
573					
أنى يكون	الأعمام	"	1	مروان بن أبي حفصة	474
لم لا يكون	الأعمام	"	2	جعفر بن عثمان	475
وسمتك	العرزم	"	4	الرضي	568
664					

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
إنّ ابن موسى	لم يخطمِ	كامل	3	الرضي	569
إنّ الخطوب	المسلمِ	"	3	"	570
حمل	الأقومِ	"	1	"	570
عمرى لقد	بمرجّمِ	"	1	"	571
رقد	النومِ	"	2	"	571
عيش	لعقوّمِ	"	2	"	572
ومحوكة	الأعجمِ	"	3	"	573
ملأت	العمي	"	2	"	575
لم يلحقوا	الأزلمِ	"	2	"	575
من جب	مقامها	"	1	مهيار الديلمي	282
دمن	حرامها	"	6	لبيد	626
أبا نزار	العدمْ	رجز	1	الرضي	362
يا برق	بدمْ	م. الرجز	6	"	733
نحن قوم	بالقسمْ	رمل	1	"	727
يا ملبسي	أعظمي	سريع	4	"	147
وكيف نوم	الأرقمِ	"	5	"	148
أقارب	السهامْ	"	2	"	235
					768
يا قاتل	الجمامْ	"	1	"	812
وانّما الناس	عجمْ	منسرح	1	المتنبي	717
أيها العاجز	الجمامُ	خفيف	2	الرضي	361
ولهت	الطعامِ	"	1	الكميت بن زيد	435
اذا ما أتحنا	المقاما	متقارب	2	الرضي	189
أريد الكرامة	الجساما	"	1	"	238
					337
واني شقيق	الجسامِ	"	3	"	188
جنانني	جبانُ	طويل	2	"	338
أنست بها	حنيني	"	5	أبو علي القالي	42

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
زمان الهوى	أعزّ مكانِ	طويل	1	الرضي	138
اذا ما تعدت	رجلانِ	"	1	أبو اسحاق الصابي	262
ظمائي	قضاني	"	1	الرضي	262
ولولا الجوى	الودجانِ	"	1	"	279
تضاجعني	أدناهما مني	"	2	"	359
					808
ما كنت	أبي الحسنِ	"	4	عتبة بن أبي لهب	455
أبا كل شيء	أبا الحسنّ	"	1	أبو اسحاق الصابي	262
					414
جزا الله	كأبي حسنٌ	"	5	حسّان بن ثابت	456
أسل بدمعك	أعوانُ	بسيط	1	الرضي	370
سيرهب	ولدانُ	"	1	"	371
لا تخلدن	جيرانُ	"	1	"	732
لهفي	السّننا	"	1	ابن عبد ربه	434
من بعد	يدنيني	"	3	الرضي	14
وربّ يوم	العينِ	"	5	"	51
أعجب لمسكة	العونِ	"	6	"	144
					745
هيهات أغترّ	السلاطينِ	"	1	"	193
دع من دموعك	للظعنِ	"	1	"	263
					415
عاشورنا	ياسينِ	"	6	الجوهري	488
ما للحمام	ويطيني	"	4	الرضي	746
أقارب	ويعدوني	"	3	"	769
ما كنت	لتنهشني	"	2	"	781
الليل ينصل	الهتنِ	"	4	"	521
فيا حادى	الأربعينا	وافر	1	"	278
					309

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
ألا أبلغ	الشامتينا	وافر	2	أبو الأسود الدؤلي	462
لقد علمت	ودينا	"	1	"	462
مدينة جدنا	جينا	"	2	أم كلثوم ابنة علي	465
وصلت جواهر	المعاني	"	3	الرضي	316
يضمّ الخائف	الأماني	"	1	"	532
هو الذكر	اللدانِ	"	1	"	804
نازعتم	وحجونُ	كامل	3	ابن هانئ	483
يا صاحب	الأزمانُ	"	4	الرضي	622
ونعى الميّ	الخوّانِ	"	5	"	143
حلل	الأزمانِ	"	6	"	635
أ مقاصر	الغزلانِ	"	2	"	637
ما ينفع	فَانِ	"	1	"	637
لله ما أغضت	عَانِ	"	1	"	809
يا نفس	تكوني	رجز	3	العباس بن علي	519
ومستهلات	تفني	سريع	3	الرضي	103
يا أرض	الأعينا	"	1	"	685
لولوى	يدانِ	خفيف	4	"	654
ويأبى الجوى	اللسانُ	متقارب	1	"	791
ذكرتك	والجنانُ	"	3	"	150
لقد نال	غير ثاني	"	4	"	231
فأين تسرعه	اللدانِ	"	5	"	617
فزل كزيال	الغواني	"	2	"	618
نعوه	الناعيانِ	"	2	"	677
فواها كيف	وآها	وافر	1	"	827
ساقي	بسوّ	خفيف	1	"	846
يناديهم	منادي	طويل	6	حسّان بن ثابت	453
أيعلم	المعاليا	"	2	الرضي	640
					647

المطلع	القافية	البحر	العدد	القائل	الصفحة
رضيت	راضيا	طويل	3	الرضي	647
فوا لهفي	فؤاديا	"	1	"	827
مضى	غيّ	وافر	3	"	735
أمرر على	الزكية	م. الكامل	5	السيد الحميري	472
ما متامي	جمّي	خفيف	5	الرضي	171
أضرّ	جيرانيه	متقارب	1	"	770

جدولة الديوان

الرقم	طالع القصيدة	مناسبتها	بحرها	تاريخها	عدد ابياتها	ط صادر	ط بيروت البيان الاعلمي	ط عبد الحميد	ط الحلو	
1	جزاء امير المؤمنين شنائي ... وعطاء	في مدح الخليفة الطائع	طويل	377 هـ	55	9	5	1	187	
2	بهاء الملك من هذا البهاء ... الفياء	في مدح بهاء الدولة	وافر	381 هـ	66	13	8	11	193	
3	ابا لله اي هوى اضاء ... تراءى	في الفخر وشكوى الزمان	=	—	44	18	12	22	لم يذكر	
4	أي العيون تجانب الاقذاء ... البرحاء	في رثاء ابن الطائع	كامل	385 هـ	65	21	41	28	=	
5	ابكيك لو نفع الغليل بكائي ... بدائي	في رثاء والدته	كامل	385 هـ	68	26	18	36	=	
6	اترى السحاب اذا سرت عشراؤه ... مداه	في رثاء صديق وقيل الطائع	كامل	—	51	30	22	45	=	
7	مالي اودع كل يوم ظاعنا ... لقاء	في رثاء صديق	كامل	—	8	34	25	52	=	
8	جنّ بين النقا وبين ... الامشاء	في النسيب	خفيف	—	9	35	26	53	=	
9	خطوب لايقاومها بقاء ... الفراء	الى صديق في نكبه	وافر	—	50	36	26	54	=	

10	تعيرني فتاة الحي انـــي ... الفتـــاء	في الفخر والهجـاء	وافـر	–	5	39	29	60	لم يذكر	
11	رضينا الظبى عن عناق الظبى ... الظـلا ء	في جواب عن قصيدة سعيد بن خلـف	متقارب	–	56	40	29	60	=	
12	كربلا لازلت كربا وبلـــى ... المصطفـى	في رثاء الامام الحسين	رمل	–	62	44	33	69	=	
13	اشكو الى الله قلبا لاقرار له ... احيـــاء	في الغـــــزل	بسيط	–	3	48	36	78	=	
14	كريم له يومان قد كفلالـــه ... وسخاشـه	في المـــــدح	طويـل	–	2	49	36	78	=	
15	لوكان قرنك تغر بمنعـــه ... وابـــاء	في الفخـــــر	كامل	–	2	49	36	79	=	
16	رجعت بهن دوامي العفـــا ... شوك القنـا	في الفخـــــر	متقارب	–	2	49	39	79	=	
17	وهل انجدن بعبديـــــه ... للحـــدا	وصف الناقـــه	متقارب	–	2	50	37	80	=	
18	غدا يهدم -المجد التؤثل مابنى والقنا	في الرثـــاء	طويل	–	2	50	37	80	=	
19	لوعلى قدر مايحاول قلـبي ... غضـــبي	في مدح الخليفه الطائع	خفيف	378	36	51	37	82	201	
20	يدفي قائم العضـــب ... بالضـــرب	في مدح بهاء الدولـة	هزج	398	43	53	39	87	205	
21	حييا دون الكثيـــب ... الربيـــب	في مدح بهاء الدولـة	الرمل	400	61	57	42	94	211	
22	مايضع السير بالجرد الراحيب .. مكـذوب	في مدح سابور بن اردشير	بسيط	376	50	61	45	102	217	
23	اشوقا ومازالت لهن قبـاب ... نقـــاب	في مدح الوزير ابي منصور	طويل	380	69	64	48	110	222	
24	اماني نفسي ماتناخ ركابها ... ايابهـــا	في مدح الوزير ابي علـي	طويل	–	36	69	52	122	226	
25	ترى نوب الايام ترجى صعابها .. ماشابهـــا	في التذكر والمداقه	طويـل	394	42	72	55	128	232	

26	طلوع هداه اللينا المغيب ... الخطوب	في مدح والده	متقارب	376	–	50	75	57	135	242	
27	لغام المطايا من رضابك اعذب...واطيب	في مدح والده	طويل	377	–	73	79	60	142	248	
28	مثواى اما صهوة او غارب ... قاضب	في مدح والده	كامل	378	–	67	84	64	152	258	
29	الاحيّنها رب العلى من غوارب... والمطالب	في مدح والده	طويل	380	–	64	88	68	166	259	
30	أرابك مشيبي ما ارابا ... عاتبا	في مدح والده	وافر	380	–	72	93	72	179	266	
31	لكل مجتهد خط من الطلب ... الشهب	في مدح خاله	بسيط	–	–	49	98	77	195	272	
32	الان جوانبي غمز الخطوب ... المشيب	في مدح ابي سعيد بن خلف	وافر	–	–	46	102	80	208	280	
33	وفى ذا السرور بتلك الكرب ... التعب	في تهنئة بقدوم من سفر	متقارب	–	–	26	105	83	220	لم يذكرها	
34	لشكرتك هاتاحت مطوّقة ... الذى وجبا	في الشكر	بسيط	–	–	5	107	84	228	=	
35	لغير العلى منى اليقلى والتجنّب... ارغب	في الفخر والمدح	طويل	–	–	72	107	85	229	=	
36	المجد يعلم ان المجد من اربى ...لعب	في الفخر	بسيط	–	–	8	112	89	247	=	
37	الا لله بادرة الطلّاب ... بالعتاب	في الفخر بآل البيت	وافر	–	–	58	113	90	248	=	
38	انا نعيب ولانعاب ... ولانصاب	في الفخر	م الكامل	–	–	56	117	93	261	=	
39	دوام الهوى في ضمان الشباب ... التصّابي	في الفخر والتأسي	متقارب	–	–	52	121	96	270	=	
40	اغدرا يازمان وياشباب ... المصاب	في الفخر	وافر	–	–	45	124	99	279	=	
41	اثرها على مابها من لغب ... والحقب	في الفخر	متقارب	–	–	55	128	102	288	=	

42	هل الطرف يعطي نظرة من حبيبه ... وجنبه	نسيب وفخر	طويل	–	52	132	106	300	لم يذكرها	
43	كان قضاء الله مكتوبا ... مغلوبا	في تعزية بها الدولة بولده	متسرح	396 هـ	40	135	109	308	=	
44	كذا يهجم القدر الغالب ... والحاجب	في رثاء عميد الجيوش	متقارب	401 هـ	46	148	111	317	=	
45	من اى الثنايا طالعتنا النوائب.. المصائب	في رثاء ابي القاسم الزينبي	طويل	384 هـ	59	142	114	325	=	
46	لناكل يوم رنة خلف ذاهب ... النوادب	في رثاء خاله احمد بن الحسين	طويل	391 هـ	77	146	118	336	=	
47	اى الدموع عليك لم تصب .... لم يجب	في رثاء ابي منصور الشيرازي الكاتب	متسرح	383 هـ	38	151	123	354	=	
48	لالوم للدهر ولاعتابا ... منتغابى	في تعزية اخيه عن بنته	رجز	–	36	154	125	360	=	
49	لاظامعلينا واورى المصائبا ... نوائبا	في تعزية اخيه عن مولده	طويل	–	34	156	127	369	=	
50	يادين قلبك من بنا ... ويختو	في رثاء احدى اخواته	مجتث	–	76	159	129	376	=	
51	اودع في كل يوم حبيبا ... غريبا	في رثاء بعض اصدقائه واهله	متقارب	367 هـ	49	164	134	392	=	
52	لوكان يعتبني الحما ..... عتبي	في تعزية صديق	م الكامل	–	8	168	136	401	=	
53	اذهب ولاتبعدن من رجل ... قدذهبوا	في رثاء بعض الرؤساء	متسرح	–	8	168	137	402	=	
54	على اى غرس آمن الدهر بعدما ... الرطب	في رثاء زوجته	طويل	–	8	169	137	404	=	
55	ماللهموم كأنها ... تشب	في رثاء احمد بن علي البتي	م الكامل	405 هـ	8	170	138	406	=	
56	اقول وقد ارسلت او نظرة ... الى جنبي	في النسيب	طويل	–	3	171	138	408	=	
57	ايا شاكيا مني لذنب جنيته ... الى حبيب	في النسيب	طويل	–	5	171	139	409	=	

58	لاوالذى قصد الحجيج لبيته ... وقريب	في النسيب	كامل	–	5	172	139	410	لم يذكر	
59	ان طيف الحبيب زار طروقا ... وشعب	في النسيب	خفيف	–	9	172	139	411	=	
60	حلفت باعلام المحصّب من منى ... الرحب	في المداقة والصديق	طويل	–	17	173	140	413	=	
61	يقر بعيني ان ارى لك منزلا ... ويطيب	في النسيب	طويل	–	16	174	141	415	=	
62	اغيب فانسى كل شى سوى الهوى ... النوائب	في النسيب	طويل	–	5	176	142	418	=	
63	هل تناشد لي بعقيق الحمى ... الركب	في النسيب	سريع	–	9	176	142	419	=	
64	رماني كالعدو يريد قتلي ... الحبيب	في النسيب	وافر	—	3	178	142	421	=	
65	وشممت في طفل العشية نفحة ... وركابي	في النسيب	كامل	–	9	177	143	422	=	
66	اى عيد من النهى عاد قلبي ... التركب	في النسيب	خفيف	–	8	178	143	423	=	
67	الا ايها الركب اليمانيون عهدكم ... قريب	في النسيب	طويل	–	8	179	144	425	=	
68	بماريم ذا الاجرع يرعى به .... الرطب	في النسيب	طويل	–	8	179	144	427	=	
69	لايبعدن الله برد شبيبة ... سليبا	في الشباب والشيب	كامل	392 هـ	8	180	145	428	=	
70	ولقد مررت على ديارهم ... نهب	في الوقوف على الطلل	كامل	–	3	181	145	429	=	
71	ولقد اكون من الغواني مرة ... الاقرب	في النسيب وذم الشيب	كامل	–	12	181	145	430	=	
72	غدا في الجمرة الغادين لبنى ... وشابا	في النسيب	وافر	–	2	183	146	433	=	
73	تمل من التصابي حين تمسي ... ولاقريب	في النسيب	وافر	–	3	183	146	433	=	

74	الدمع مذ بعد الخليط قريب ... يجيب	في النسيب	كامل	–	9	183	147	435	لم يذكرها	
75	سأصبر ان الصبر مر صدوره ... عواقبه	طموح	طويل	–	3	184	147	437	=	
76	وابيض كالنصل من همه ... للطالب	مدح	متقارب	–	5	184	147	437	=	
77	ابر الي المجد من حرص على الطلب ... الرتب	في الطموح والفخر	بسيط	–	6	185	148	439	=	
78	لعل الدهر امضى منك غربا ... وقلبا	في الهجاء	وافر	–	8	185	148	439	=	
79	خليلي مابيني وبين محرق ... والقواضب	في الفخر	طويل	–	8	186	149	441	=	
80	اياك ان تسخو بوعد ... انتلفيه	في العتاب	الكامل	–	5	187	149	442	=	
81	سماكيطون الاتن ريعان عارض ... جنوب	في وصف السحاب والنسيب	طويل	–	36	187	149	443	=	
82	ياسعد كل فؤاد في بيوتكم ... والشنب	في الفخر	بسيط	–	6	190	151	451	=	
83	الى كم لا تلين على العتاب ... الجواب	هجاء وفخر	وافر	–	26	190	152	452	=	
84	لم يبق عندى من الابهاء ... الغلب	تاسف وتحسر	متسرح	–	5	192	153	457	=	
85	اباحسن اتحب ان شوقي ... الخطوب	في الصداقة والصديق	وافر	–	21	193	154	458	=	
86	جاءت به من مضر مهذبا ... مذربا	في المدح	رجز	–	3	194	155	461	=	
87	لاتنكرى حسن صبرى ... ضربا	في الفخر	مجتث	–	2	194	155	462	=	
88	نزوت نزاء الجندب الجون ظلة ... اغلب	في الفخر والمدح والهجاء	طويل	–	13	195	155	462	=	
89	لكم لقحة الارض تحمونها ... والحلب	هجاء	متقارب	–	3	196	156	465	=	

90	انظر ابالقرّان ماتعيب ... لبيب	قالها فيمن يسرق شعره	رجز	–	17	196	156	466	لم يذكرها	
91	كيف اصبحت ابا الغمر بها ... الجنب	في وصف سكران	رمل	–	5	198	157	468	=	
92	يعاقبني وهو المذنب ... ياجنب	هجاء	متقارب	–	18	198	157	469	=	
93	نزل المسيل وبات يشكوسيله ... مراقب	هجاء	كامل	–	3	200	159	471	=	
94	وركب تفرى بينهم قطع الدجى ... التربا	في الفخر والمدح	طويل	–	5	200	159	472	=	
95	اسنة هذا المجد ال المهلب ... ومغرب	مدح	طويل	–	10	201	159	473	=	
96	قل للخطوب ضعي سلاحك قدحمى ..ابوالخطاب	مدح ابي الخطاب	كامل	–	4	202	160	474	=	
97	دعوا لي اطباء العراق لينظروا ... الحب	نسيب	طويل	–	3	202	160	475	=	
98	صاحب كالغرليس ارى ... ولالعبه	في الصديق المنافق	مديد	–	4	203	160	476	=	
99	بين عزمي وبينهن حروب ... المغلوب	نسيب	خفيف	–	2	203	160	477	=	
100	اساءته شهوة شرة ... الارنب	هجاء	متقارب	–	2	204	161	477	=	
101	اخافك ان الخوف منك محبة ... محببا	نسيب	طويل	–	2	204	161	478	=	
102	ضموا قوامي كل سرح ضارب ... المتقارب	رثاء	كامل	–	2	204	161	479	=	
103	آه من داشين عدم ومشيب ... يطيب	تأوه وتحسر	رمل	–	1	205	161	479	=	
104	كأنّ نزارا والخمول ردائه ... واجلبا	هجاء	طويل	–	2	205	161	479	=	
105	ترفق ايها الرامي المصيب ... القلوب	في النسيب	وافر	–	2	205	161	479	=	

106	عذرى من المشرين يغمزن معدتي ... مروتي	في الشكوى والفخر	طويل	–	63	205	162	توقف	=	
107	ابيّنتها ذاكرتك شياتها ... صهواتها	في الفخر	طويل	–	71	210	165	–	=	
108	يا ابن عبدالعزيز لو بكت العين ... لبكيتك	في رثاء عمر بن عبدالعزيز	خفيف	–	11	215	169	–	=	
109	من يكن زائري يجدني مقيما ... بالزفرات	في قريب من معنى الرثا	خفيف	–	3	216	170	–	=	
110	اذا مضى يوم على هدنة ... الناشبات	في الحض على اغتنام الفرص	سريع	–	3	216	170	–	=	
111	قد آن ان يسمعك الصوت ... ام ميت	في الزهد	سريع	–	4	217	170	–	=	
112	من معيد لي ايامي ... السمرات	في الغزل	م الكامل	–	21	217	170	–	=	
113	احن الى لقائك كل يوم ... كل وقت	في النسيب	وافر	–	3	219	172	–	=	
114	قال لي عند ملتقى الركب عمرو ... فاتماتا	في التحسر	خفيف	–	5	219	172	–	=	
115	قد قلت للنفس الشعاع اضمها .. مصمت	في عتاب الدهر	كامل	595 هـ	25	220	172	–	=	
116	وقفنا لهم من وراء الخطوب ... خصاصاتها	في التأمل في الحياة	متقارب	–	13	222	174	–	=	
117	هل يبلغنهم نغوب مدامعي ... حسرات	في النسيب	كامل	–	2	223	174	–	=	
118	يعين موتاهم باحيائهم ... بالعبرات	في الهجاء	سريع	–	2	223	174	–	=	
119	رجونا ابا الهيجاء اذ مات حارث ... وارث	في رثاء حرب بن سعيد بن حمدان	طويل	382 هـ	47	224	175	–	=	
120	يا أمن الاقدار بادر صرفها .. حشاث	في الزهد	كامل	–	13	228	178	–	=	
121	خذوا نفثات من جوى القلب نافث ... بثابث	في الهجاء	طويل	–	53	229	178	–	=	

122	وان لنا النار القديمة للقرى ... وتورث	في الفخر	طويل	—	3	233	182	—	لم يذكرها	
123	لي الحرب معطوفا علي هياجها ... وعجابها	في الفخر	طويل	—	8	234	182	—	=	
124	اداري المقلتين عن ابن ليلى ... الا لجاجا	في رثاء ابن ليلى البدوي	وافر	—	50	235	182	—	=	
125	لاتيأسي فربّما ... وفرجا	نصح وارشاد	تام الكامل	—	2	239	185	—	=	
126	اني اذا حلب البخيل لبانها ... الاوداج	في الفخر	كامل	—	2	239	186	—	=	
127	والعيس قد كشف منها السرى ... الاجاج	في الجمال بعد تعب الارتحال	سريع	—	2	239	186	—	281	
128	اغار على ثراك من الرياح ... والمراح	في مدح الطائع العباسي وذم اعدائه	وافر	374 هـ	40	240	186	—	285	
129	تخطينا المفوف الى رواق ... والرماح	في مدح القادر بالله العباسي	وافر	387	49	243	188	—	لم يذكرها	
130	مثال عينيك في الظبى الذى سنجد جرحا	في مدح ابيه	بسيط	383 هـ	3	246	189	—	286	
131	بروم السيوف وغرب الرماح ... والسماح	في الفخر	متقارب	—	48	247	191	—	لم يذكرها	
132	بعض الملام فقد غفت طماحي ... اللاحي	في النسيب والفخر	كامل	—	53	230	194	—	=	
133	شبهتهم مثل عوالي الرماح ... الصباح	في الفخر والهجاء	سريع	—	43	254	197	—	=	
134	في كل يوم للاحبة مطرح ... مسفح	في النسيب والشكوى	كامل	—	45	257	199	—	=	
135	سليمان لو وفيت مدحي حقّه ... تنجح	في الهجاء	طويل	—	5	260	202	—	=	
136	اعيذك من هجاء بعد مدح ... طلح	في العتاب	وافر	—	15	261	202	—	=	
137	ابتك اني راغب عن معاشر ... واسمح	في الفخر	طويل	—	3	262	203	—	=	

138	صبرا على نوب الزمان ... القريح	في التأملو الاعتبار	م الكامل	—	9	262	203	—	لم يذكرها	
139	ولو كنت فيها يوم ذا الاثل لم تؤب ـ تنفح	في الوصف والهجاء	طويل	—	6	263	204	=		
140	الا من عذيري في رجال تواعدوا ... ورامح	في هجاء من يسرقون شعره	طويل	—	22	264	204	=		
141	قيدت ازمة كل مزن رائح ... دالح	في وصف السحاب الممطر	كامل	—	2	265	206	=		
142	ذكرت على فترة من مراح ... فالملاح	في وصف الطلل	متقارب	—	2	266	206	=		
143	فلو كنت شاهدها في الدجى ... الاقيح	في وصف الناقة	متقارب	—	2	266	206	=		
144	في قتال كن للطير على قتلاه ملح ... ذبح	في وصف الطيور الكاسرة	م الكامل	—	2	266	206	=		
145	ابلغا عني الحسين الوكا ... ساخا	في الشماتة	خفيف	372 هـ	7	267	206	=		
146	اقول لنهاحيث انتهى مبقط البقيع ... مربح	عند عودته من الحجاز	طويل	394	4	268	207	=		
147	الى كم الطرف بالبيداء معقود ... القيود	في مدح الطائع وتهنئته بالعيد	بسيط	377	53	269	207	291		
148	من رأى البرق بغورى السند ... ويقيد	في مدرح وشكر بهاء الدولة	رمل	403 هـ	58	273	210	296		
149	ابى الله الا ان يسوءك العدى ـ الردى	في بهاء الدولة بعد ان ابلي من علة	طويل	403 هـ	46	277	214	302		
150	اباء اقام الدهر عني واقعدا ... وابعدا	في مدح الصاحب بن عباد	طويل	375 هـ	73	280	216	306		
151	اثر الهوادج في عراص البيد ... القود	في مدح الصاحب بن عباد	كامل	385 هـ	84	285	220	311		
152	اعاتب ايامي وما الذنب واحد ... العوائد	في مدح سابور بن اردشير	طويل	—	37	291	225	317		
153	اكافينا النصيح بقيت ... ابدا	في عتاب كافي الكفاة وزير البهاء	م الوافر	—	5	293	227	320		

154	اذا احتبى بالعشب الوادي	الغادى	في مدح ابيه وذم الزمان	سريع	374 هـ	37	294	227	–	321
155	شقيت منك بالعلاء الاعادى	الحساد	في مدح ابيه وتهنئته بالعيد	خفيف	376 هـ	60	297	230	–	325
156	خير الهوى ماناجا من الكمد	الكبد	في مدح ابيه	منسرح	–	53	301	233	–	329
157	نصافئ المعالي والزمان معاند	قاعد	في مدح ابيه	طويل	–	78	305	236	–	333
158	انظر الى الايام كيف تعود	تزيد	في مدح ابيه	كامل	380 هـ	38	310	240	–	338
159	جرى النسيم على ماء العناقيد	معمود	في مدح اخيه في مولودة جائته	بسيط	–	56	313	243	–	341
160	عجبت من الايام انجازها وعدي	على بعد	جواب على قصيدة من اخيه	طويل	–	32	317	246	–	345
161	بادار من قتل الهوى بعدي	عندى	في ضيق بعد نكبه	كامل	–	36	321	249	–	348
162	اسائل سيفي اى بارقة تجدي	بالوعد	في تهنئة بمولود	طويل	–	46	323	251	–	351
163	هو سيف دولتنا الذى يوم الوغى	بفرنده	في المدح	كامل	–	3	341	253	–	355
164	ابارق طالعنا من نجد	المربد	في الفخر وشكوى الزمان	رجز	–	25	327	253	–	لم يذكرها
165	لحيا عهدهن حيا العهاد	كل ناد	في الفخر والتذكر	وافر	–	37	329	255	–	=
166	مرفت بعدكم صدور الصعاد	الاعادى	في الفخر والشكر	خفيف	–	12	332	257	–	=
167	لاى حبيب يحسن الرأى والود	عهد	شكر وفخر	طويل	–	51	333	256	–	=
168	ليت الخيال فريسة لرقادى	وبعاد	نسيب وشكر	كامل	–	70	336	260	–	=
169	اراك ستحدث للقلب وجدا	نجدا	بالفخر بقريش وتزار	متقارب	385 هـ	65	342	264	–	=

170	لو علمت اى فتى ماجد - - - البارد	في الفخر	سريع	—	38	346	268	—	=	
171	هل ربع قلبك للخليط المنجد - - - موعدى	في النسيب والشكوى والفخر	كامل	389 هـ	63	349	270	—	=	
172	ياقلب جدد كمدا - - - - غددا	في النسيب والفخر	الرجز	—	62	353	273	—	=	
173	ابر على الانواء فضلي وشائلي - - - ومحتدى	في الفخر	طويل	—	2	357	277	—	=	
174	قل للعدى موتوا بغيظكم - - - مردى	في الهجاء والفخر	الكامل	—	7	358	277	—	=	
175	يفاخرنا قوم بمن لم يلدهم - - - اوعدى	فيمن يفخر قريش على ولد علي	طويل	—	9	359	277	—	=	
176	نزلنا بمستن المكارم والعلى - - - ولامجدا	في الفخر	طويل	—	4	360	278	—	=	
177	هذى المنازل بالغميم فنادها - - - جمادها	في رثاء الامام الحسين	كامل	391 هـ	58	360	278	—	=	
178	وراءك وراءك عن شاك قليل العوائد - - - الابأعد	في رثاء الامام الحسين	طويل	595 هـ	26	364	281	—	=	
179	تفوز بهذا المنون وتستبد - - - ولايرد	في رثاء ابى طاهر بن ناصر الدولة	وافر	—	39	366	283	—	=	
180	اعامر لاتليوم انت ولا الغد - - - المقلد	يرثي ابا احسان بن المقلد	طويل	391 هـ	62	369	285	—	=	
181	الا من يمطر السنة الجمادا - - - النجادا	في رثاء ابي شجاع	وافر	—	46	374	289	—	=	
182	سلا ظاهر الانفاس عن باطن الوجد - ابدى	في رثاء عمه احمد بن موسى	طويل	381 هـ	41	377	291	—	=	
183	اتاني ورحلي بالعذيب عشية - - - بنانجدا	في رثاء احد فقها الشيعه	طويل	394 هـ	40	380	293	—	=	
184	اعلمت من حملوا على الاعود - - - النادى	في رثاء ابي اسحاق العبا	الكامل	384 هـ	82	381	294	—	=	
185	ترك الدنيا لطالبها - - - مقتصدا	في الزهد	مديد	—	5	386	298	—	=	

186	ياغائبا نقض الودادا ... البعادا	في النسيب	م الكامل	—	13	387	299	—	لم يذكرها	
187	مثل ودى لايغيره ... ولابعد	في النسيب	مديد	—	5	388	300	—	=	
188	اترى الاحباب مذ ظعنوا ... ماأجد	في النسيب	مديد	—	4	388	300	—	=	
189	خذى نفسي ياريح من جانب الحمى .. نجد	في النسيب	طويل	—	12	389	300	—	=	
190	اقول وقد جاز الرفاق بذى النقا .. وزرود	في النسيب	طويل	—	11	390	301	—	=	
191	ياطيب نجد وحسن ساكنه ... وعدوا	في النسيب	منسرح	—	3	391	301	—	=	
192	صدت وماكان لها الصدود ... والجيد	في التحسر	سريع	—	6	391	302	—	=	
193	أ اميم ان اخاك غض جماحه ... سودا	في التحسر	كامل	—	5	392	302	—	=	
194	تحمل جيراننا عن منى ... موعد	في النسيب	متقارب	—	9	392	302	—	=	
195	سقى الله يوما ساعدتنا كؤوسه ... بمسعد	في وصف مجلس خمر	طويل	—	5	393	303	—	=	
196	حططت المكارم عن عاتقي ... محتدى	فخر وصداقه	متقارب	—	13	394	303	—	=	
197	هب للديار بقية الجلد ... الكمد	في النسيب والفخر والعتاب	طويل	—	53	395	304	—	=	
198	تزود من الماء التنقاخ فلن ترى ... ولابردا	تذكر ومدح وهجاء	طويل	—	48	398	307	—	=	
199	ارى وجوها وايمانا مقفلة ... الجود	في الهجاء	بسيط	—	3	402	310	—	=	
200	هوى لكما ان الشباب يعاد ... سواد	في النسيب والتذكر والهجاء	طويل	—	51	402	310	—	=	
201	ارى بغداد قد اخنى عليها ... الجليد	في وصف سقوط الجليد على بغداد	وافر	398 هـ	9	406	313	—	=	

202	ردوا تراث محمد ردوا ... ولا البرد	فخر باحقية الخلافة	كامل	–	5	407	313	–	لم يذكره	
203	بان عهد الشباب منكم حميدا ... جديدا	في النسيب	خفيف	–	4	407	313	–	=	
204	احاجي رجالا ما ملابس سود ... جديد	عتاب وهجوم	طويل	–	3	408	314	–	=	
205	باقادحا بالزناد ... بلوذى	في النسيب		–	2	408	314	–	=	
206	هذا امير المؤمنين محمد ... المولد	تمني الخلافة وفخر	كامل	–	3	409	314	–	=	
207	غيرى افلكم فلم اتا شاشد ... واجد	في العتاب	كامل	–	2	409	314	–	=	
208	اتوا بمخالب الاساد سلت ... الجلود	في المدح	وافر	–	2	409	315	–	=	
209	ظبى برامة كحله من طرفه ... من جيده	في النسيب	كامل	–	2	410	315	–	=	
210	فن كل سارية كأن رشاشها ... برودا	في وصف السحاب الممطر	كامل	–	2	410	315	–	=	
211	بعادا فليت اليم بدونك ازبدا ... المهند	في العتاب	طويل	–	2	410	315	–	=	
212	ولاحت لنا ابيات ال محرق ... ولايغدو	في الهجاء	طويل	–	2	411	315	–	=	
213	جعلت لك الفرخين بانصر طعمه ... واقعد	في التهكم	طويل	–	2	411	315	–	=	
214	اقول لبيك ولم تناد ... الجواد	في الفخر	رجز	–	4	411	316	–	=	
215	ترى النازلين بارض العراق ... كذا	في الغزل	متقارب	–	5	412	316	–	=	
216	ماللبياض والشعر ... بغرر	في مدح بهاء الدولة وتنئته بالنيروز	م الرجز	–	87	413	416	–		
217	ايامرحبا بالغيث تسرى بروقه ... ولانزرا	في مدح الصاحب عميد الجيوش	طويل	396 هـ	8	419	321	–		

218	لن تشكوا لذا الجواد غبارا ... والعثارا	في مدح فخر الدين بن خلف	خفيف	396 هـ	53	420	322	–		
219	يا اناشد الشعراء قلوا اشرها ... بحريها	=	رجز	–	14	423	325	–		
220	قرت عيون المجد والفخر ... على النبدر	في مدح ابي سعيد بن خلف	سريع	–	28	425	325	–		
221	نطق اللسان عن الضمير ... البشير	في مدح ابيه الحسين	م الكامل	396 هـ	69	427	327	–		
222	رأيت المنى تهزه الشائر ... القامر	=	متقارب	–	47	431	331	–		
223	وقف على العبرات هذا الناظر ... ساهر	=	كامل	375 هـ	61	434	333	–		
224	من الظلم ان نتعاطى الخمارا ... العقارا	=	متقارب	–	48	438	336	–		
225	اما ذعرت بنا بقرب الخدور ... والقصور	=	وافر	–	75	441	339	–		
226	بغير شفيع نال عفو المقادر ... بالمعاذر	=	طويل	374 هـ	119	446	343	–		
227	بلاء القلب ناظره ... كاسره	=	م الوافر	–	66	454	349	–		
228	شيمي لحاظك عنا ظبية الخمر ... وطرى	في مدح ابيه وهجاء بعض الناس	بسيط	–	41	458	353	–		
229	لك السوابق والاوضاح والغرر ... لحظة اثر	في مدح واعتزاز لخاله	=	–	61	461	355	–		
230	لبست الوغى قبل ثوب الغبار ... الغرار	في تهنئة اخيه بمولده	متقارب	–	34	465	359	–		
231	جربت آل الغوث ثم تركتهم ... قبل الدار	في المدح	كامل	–	7	467	360	–		
232	عقيد العلى لازلت تستعبد العلى ... كل اسير	في الاستماح	طويل	–	4	468	361	–		
233	لاى ضائعه اشكر ... انظر	في شكر صديق	متقارب	–	6	468	361	–		

234	سانزل حاجاتي اذا طال حبسها ... والاجر	في الذم	طويل	–	2	469	361	–	–	
235	ياحبذا فوق الكثيب الاعفر ... الغمر	في الفخر وهي من اول اقواله	كامل	–	39	469	462	–	–	
236	امالولم تعاقره العقار ... الوقار	في الفخر	وافر	–	48	472	364	–	–	
237	قد زبلت عظيمة لشمري ... وامهري	في الفخر	رجز	–	43	475	366	–	–	
238	ولقد شهدت الخيل دامية ... الصمر	في الفخر	كامل	–	3	478	369	–	–	
239	ماعند عينك في الخيال الزائر... خاطر	شيب وشكوى وفخر	كامل	–	59	479	369	–	–	
240	قربوهن ليبعدن المغارا ... دارا	بالفخر بالاسلام وقوته على الفرس	رمل	397 هـ	59	483	372	–	–	
241	صاحت بذودي بغداد فانسني ... والعير	في رثاء الامام الحسين	بسيط	377 هـ	41	487	476	–	–	
242	القي السلاح ربيعة بن نزار ... المنقزار	في رثاء ابي طاهر الحمداني	كامل	382 هـ	59	490	378	–	–	
243	او مارأيت وقائع الدهر ... بالعمر	في رثاء المظفر بن الجن	كامل	396 هـ	52	494	381	–	–	
244	لعمري لقد ماطلت لودفع الردى ... الدهر	في رثاء ابي بكر بتن شاهويه	طويل	–	9	498	384	–	–	
245	لو رأيت الغرام يبلغ عذرا ... صبرا	في تعزية ابي سعيد بن خلف	خفيف	393 هـ	49	499	385	–	–	
246	تناسيت الا باقيات من الذكر... والغمر	في رثاء قوم من عشيرته	طويل	–	71	502	387	–	–	
247	وذي نفد لايقطع الطرف عرضه ... تغورا	في رثاء زوجته	طويل	–	22	507	391	–	–	
248	ابن باثوك ايها الحيرة البيضاء... الديارا	في رثاء آل المنذر بن ماء السماء	خفيف	–	15	509	393	–	–	
249	طلعت والليل مشتمل ... والازر	في النسيب	مديد	–	5	510	394	–	–	

250	الا يالبالي الخيف هل ترجع الهوى ... القطر	في النسيب	طويل	–	8	511	394	–	–	
251	ارتاح ان اخذ الملحاف زينته ... قد مطرا	في النسيب	بسيط	–	3	512	394	–	–	
252	ذات القلوب وسوف تنأى الدار ... الاسرار	في المديح والتشوق اليه	كامل	–	10	512	395	–	–	
253	ورب ليل طربت فيه ... العشار	في وصف مجلس خمر	م البسيط	–	6	513	395	–	–	
254	خذا اليوم كلي للبياع على النهى .. ولا اشر	تحسر على ضياع الشباب	طويل	–	5	514	396	–	–	
255	لاموا ولو وجدوا وجدى لقد عذروا ... مغتفر	في وصف جاريه سوداء	بسيط	–	11	514	396	–	–	
256	ليس على الشيب للغواني ... قراري	تحسر على ضياع الشباب	مخ البسيط	–	9	515	397	–	–	
257	انا الفدا الظبي ما اعترفت له ... استره	في النسيب	بسيط	–	5	516	397	–	–	
258	اقول وقد عاد عيد الغرام ... الاجفرا	في النسيب	متقارب	–	5	516	398	–	–	
259	ياقلب ما انت من نجد وساكنه ... البيارى	في الغزل	بسيط	–	9	517	398	–	–	
260	اشكو لبالي غير معتبة ... من القصر	في قصر الليل	منسرح	–	3	518	398	–	–	
261	احسب سوء الظن يجرح في فكرى ... الصبر	في العفو عن صديق	طويل	–	15	518	399	–	–	
262	الا انها غصر السخائم والغصر ... الدهر	في التحسر	طويل	–	3	519	399	–	–	
263	الا رب دوية خبطتها ... تجورها	في وصف السماء والنجوم	متقارب	–	4	520	400	–	–	
264	لعارأيت جنوذ الجهل غالبة ... الضارى	حديث مع النفس	بسيط	–	3	520	400	–	–	
265	صبرا فما الفايز الامن صبر ... بالظفر	في المدح والمدح	رجز	–	14	521	400	–	–	

266	ارى ركدة ريحها يرتجى ... ينتظر	تأسي وتحسر	متقارب	—	7	522	401	—	—	
267	اذا ضافني هم امل طروقه ... به صدرا	تذكر وتحسر	طويل	—	5	522	401	—	—	
268	ناديته بالرمل والامر ذكر ... الصدر	في وصف اقدام رجل	رجز	—	9	523	402	—	—	
269	خذ من صديقك مرى دون مستمع ... والخبر	في النصح والارشاد	بسيط	—	5	324	402	—	—	
270	ياذا المعارج كم سألتك نعمة ... الاوفر	شكرلله على سلامته ورجوعه من الحج	كامل	—	3	524	403	—	—	
271	في كل يوم مودات مظلقة ... مغرورا	نصح وارشاد	بسيط	—	9	525	403	—	—	
272	من شافعي وذنوبي عندها الكبر.. يغتفر	تحسر وشكوى	بسيط	—	63	525	404	—	—	
273	ارى ماء وجه المرء من ماء عرضه ... قاطره	في النصح والارشاد	طويل	—	4	530	407	—	—	
274	تجاف عن الاعداء بقيا قريبا ... ولا ظفر	=	=	—	7	530	407	—	—	
275	ولولا هناة والهناة معاذر ... ضامر	عتاب ومدح وفخر	=	—	69	531	508	—	—	
276	فياعجبا مما يظن محمد .... غرار	حديث الشاعر مع نفسه	=	—	7	536	412	—	—	
277	رموا بمرامي بغيهم فاتقيتها ... الدهر	تهكم وسخريه	=	—	2	536	412	—	—	
278	بغى الذلان عايتنا واني ... القصار	هجاء	وافر	—	3	537	412	—	—	
279	لامثالها يسخر الساخر ... ياعامر	=	متقارب	—	2	537	413	—	—	
280	اما تراها كالجراز البتار ... الاشعار	فخر	رجز	—	2	537	413	—	—	
281	وعين عوان بالدموع وغيرها ... بكسر	تأسي	طويل	—	2	538	413	—	—	

282	يقولون ثم في هدنة الدهر أمنا ... الدهر	تأسي	طويل	-	3	530	413	-	-		
283	تطاير في مر العجاج كأنها ... وكورها	وصف	=	-	2	539	413	-	-		
284	ايا ربة الخدر الممنع بالقنا ... منظرا	نسيب	=	-	2	539	414	-	-		
285	اناشد انت اطلالا بذي القور ... والصور	في ذكر الاطلال	بسيط	-	3	540	414	-	-		
286	ومن عامر غلمة كالسيوف ... يلطر	مدح	متقارب	-	2	540	414	-	-		
287	رأيت شباب المرء ليلا بجنه ... ويستر	في الشباب والشيب	طويل	-	3	541	414	-	-		
288	صبرت على عرك النوائب فيكم ... الصبر	فروسية	=	-	3	541	414	-	-		
289	واللتين ابو عامر ... الاشقر	مدح بالفروسية	متقارب	-	3	542	415	-	-		
290	لهذه كان الزمان ينتظر ... وطر	تحسر	رجز	-	3	542	415	-	-		
291	لا يغررنك سلم جاء يطلبه ... ماعقرا	تحذير	بسيط	-	2	542	415	-	-		
292	رب شاء الملاط يحسب جيدا ... وصداره	في وصف بعير	خفيف	-	3	543	415	-	-		
293	اغلب لايخشى وعند السفر ... بالزجر	وصف	رجز	-	1	543	415	-	-		
294	كم قابس عاد بغير نار ... عشار	حكمة	رجز	-	1	543	416	-	-		
295	اطمح بطرفك هل ترى ... او معزا	في رثاء صديق	م الكامل	-	13	544	416	-	-		
296	شرف الخلافة يابني العباس ... ابو العباس	فيمدح الخليفه القادر	كامل	381 هـ	45	546	417	-	-		
297	تمنى رجال نيلها وهي شامس ... اللوامس	في مدح بهاء الدولة	طويل	394 هـ	57	549	419	-	-		

298	الول لركب خابطون الى الندى ... الحنادس	في مدح بهاء الدولة	طويل	—	13	553	422	—	—	
299	اترقدن على الاذى ... ابن موسى	في مدح ابيه وفخر بنفسه	م الكامل	—	25	554	523	—	—	
300	باذاكر النعماء ان نسيت ... درســـا	في مدح صديق له	كامل	—	16	556	424	—	—	
301	خذي حديثك من نفسي عن النفس ... ملتمس	في الفخر وشكوى الزمان	بسيط	—	28	557	425	—	—	
302	قربت بالبعد من الناس ... بالياس	في التشكي من المجتمع	سريع	—	6	560	427	—	—	
303	بقاء الفتى مستأنف من فناته ... في الرمس	في رثاء بعض اصدقائه	طويل	—	8	560	427	—	—	
304	بقلبي للنوائب جائحات ... الاواسي	تشكي من زوال الشباب	وافر	392 هـ	23	561	428	—	—	
305	امغرة بالبدر طالعة ... الشمس	في الغزل	كامل	—	6	563	429	—	—	
306	هم خلفوا دمعي طليقا وغادروا ... حبيسا	في التشبيب	طويل	—	4	563	430	—	—	
307	باح بالمضمر الدفين لسان ... النفس	في وصف سواد الشعر	م خفيف	—	7	564	430	—	—	
308	كنا نعظم بالامال بعضكم ... الناس	خيبة امل	بسيط	—	2	564	430	—	—	
309	كم عرفوا لي بالدنيا وزخرفها ... راسا	في اباء النفس	بسيط	—	2	565	430	—	—	
310	ومعتادة للطيب ليست تغبه ... اللمس	غزل	طويل	—	2	565	431	—	—	
311	لتهدى اليوم نوة آل كعب ... الخدوش	في رثاء بعض اصدقائه	وافر	—	5	566	431	—	—	
312	ماهاج من ذي طرب مخماص ... والقلاص	في رثاء صديقه ابي ليلى البدوي	رجز	—	25	567	431	—	—	
313	بابؤس مقتنص الغزال طماعة ... القانص	في النسيب	كامل	—	4	569	433	—	—	

314	لمن الديار طلولها وقص ... شخص	هجاء وتعريض وتأسي	كامل	–	32	570	433	–	–	
315	رب مستغمز اباشي وفي الناس ... وقموص	في الهجاء والفخر	خفيف	–	15	572	435	–	–	
316	كيف اهداء البرق اذا اومضا ... الغضا	في مدح بهاء الدولة	سريع	397 هـ	28	574	436	–	–	
317	عند قلبي علاقة ما تقضى ... عضا	في الفخر وذم الزمان	خفيف	–	49	576	438	–	–	
318	موالد نيرانهم قرة ... ابيض	هجاء	متقارب	–	2	580	441	–	–	
319	حذار فان الليث قد فر شابه ... وانهضا	تحذير	طويل	–	3	580	441	–	–	
320	اهلا به من رائح متمعد ... ونوابض	وصف السحاب والبرق	كامل	–	3	581	441	–	–	
321	فوأ حين اومضا ... والغضا	وصف المطر	مخلع	–	2	581	441	–	–	
322	لغير تقديز ذرعن الارضا ... والعرضا	وصف	رجز	–	1	581	442	–	–	
323	لجام للمشيب شنى جماحي ... وراضا	في وصف ايام المشيب	وافر	–	5	582	442	–	–	
324	رضيت من الاحباب دون الذي يرضى ... ولايقضى	في عتاب اخيه المرتضى	طويل	–	42	582	442	–	–	
325	ارى موضع المعروف لو استطيعه ... لم اغض	في الفخر	طويل	–	7	586	444	–	–	
326	قالوا تزاور عطفه ... ابياضه	هجاء	مجتث الكامل	–	8	586	445	–	–	
327	ابا علي للالد ان سطا ... اللفظا	في رثاء ابي علي الفارسي	رجز	377 هـ	14	588	445	–	–	
328	كانك لم تقد بعوبرضات ... قطاطا	في رثاء صديق له من العرب	وافر	–	46	589	446	–	–	
329	سنحت لنا بلوى العقيق الغارط	في النسيب	كامل	–	5	593	449	–	–	

330	مالذا الداني الى القلب شط ... الـــط	نسيب وتذكر وشكـــوى	رمل	–	46	593	449	–	–	
331	قل للهوامل في الدنيا ما بالكم ... ايقاظ	في الزهد	كامل	–	5	597	452	–	–	
332	ياعمرو لا اعرف ثقلا بهظك ... ملحظـك	مدح	رجز	–	2	598	452	–	–	
333	اسبغ المغيظ من يثوب الليالي ... المغيظ	شكوى	وافر	–	3	598	453	–	–	
334	الهاك عنا ربة البرقع ... الاربـــع	في مدح بهاء الدولة	سريع	394 هـ	59	599	453	–	–	
335	تمضي العلى والى ذراكم ترجع ... تطلـــع	تهنئة ابي شجاع بسن قوام الدين	كامل	403 هـ	52	603	456	–	–	
336	طلاب العز من شيم الشجاع ... المساعي	في مدح ابيه الحسين	وافر	366 هـ	52	606	459	–	–	
337	لاغنتك عن وملي الهموم القواطع ... الشوارع	في تهنئة اليه عـــن مولود	طويل	374 هـ	56	610	463	–	–	
338	تخيرته اطول القوم باعا ... ذراعـــا	في مدح ابي الخطاب حمزه بن ابراهيم	متقارب	398 هـ	26	613	465	–	–	
339	غالي بها الزائد حتى ابتاعها ... انتاعها	في الفخر	رجز	391 هـ	77	615	469	–	–	
340	خميم من الايام لي وشقيع ... ويطيـــع	=	طويل	–	52	620	471	–	–	
341	اظن الليالي بعدكم ستريع ... فـــتروع	عودة لرثاء قـــوام الدين	=	404 هـ	53	624	474	–	–	
342	منابت العشب لا حام ولا راع ... والبـــاع	في رثاء احد امرائه بني عقيـــل	بسيط	385 هـ	41	627	477	–	–	
343	لوكان يرتدع القضاء بمردع ... ومقنـــع	رثاء عبد العزيز الحكار	كامل	388 هـ	64	630	479	–	–	
344	الا ناشدا ذاك الجناب الممنعا ... المزعزعـا	في رثاء امير عقيـــل	طويل	391 هـ	76	635	482	–	–	
345	عظيم الاسى في هذه غير مقنع ... منجـــع	في رثاء قاضي القضاة ابن معـــــروف	طويل	381 هـ	37	640	487	–	–	

346	آب الرديني والحسام معا ... معـــه	عودة الى رثاء ابي طاهر الحمداني	منسرح	–	21	642	489	–	–	
347	يابوسف ابن ابي سعيد دعوة ... موجـــع	في رثاء يوسف بن ابي سعيد السيرافي	كامل	385 هـ	15	644	490	–	–	
348	قف موقف الشك لاياس ولاطمع ... ولاجـزع	في رثاء بعض النـاس	بسيط	387 هـ	43	645	491	–	–	
349	صبرت عنك فلم الفظك من شبع ... من الجزع	في رثاء صديق له	=	381 هـ	27	648	493	–	–	
350	ذكرتك لما طبق الافق عارض ... لمـــوع	عودة لرثاء ذلك الصديق	طويل	–	11	650	495	–	–	
351	ياصاحب القلب الصحيح اما ... المصدوع	في الغزل	كامل	–	16	652	496	–	–	
352	أ اتزك الغر من لذاتي ... والدروع	في رثاء بعض اهلـه	م البسيط	–	8	651	496	–	–	
353	اقول ماحنت بذى الاثل ناقتي ... المرجع	في التذكر والاشتيـاق	طويل	392 هـ	39	653	497	–	–	
354	الابـأغزال الرمل من بطن وجرة ... شـــروع	في التشبيب	طويل	–	11	655	499	–	–	
355	تشاهقن لما ان رأين بمفرقي ... من البدع	بين الشيب والغواني	=	–	6	657	500	–	–	
356	عارضا بي ركب الحجاز أسائله ... سلـــع	في النسيب	خفيف	395 هـ	8	657	500	–	–	
357	وقفت بربع العامرية وقفة ... خواضـــع	في الغزل	طويل	–	6	658	501	–	–	
358	للقلبي بغوري البلاد لبانة ... المطالـــع	في النسيب	=	–	8	659	501	–	–	
359	تجمجم بالاشعار كل قبيلة ... وضائـــع	في الوصف والفخـــر	=	–	9	660	502	–	–	
360	وعاري الشوى والمنكبين من النوى ... الاشاجع	في وصف الذئـــب	=	–	17	661	502	–	–	
361	لك القلم الجوال اذ لا مشقف ... مواقعـــه	في وصف القلـــم	=	–	5	662	503	–	–	

362	ولاقرن الا ادمع الطعن نحره ... مدامعه	في وصف معركة	طويل	-	3	663	504	-	-	
363	وليل كجلباب الشهاب رقعته ... طلائعه	في وصف الليل	=	-	2	663	504	-	-	
364	ومروع لي بالسلام كانما ... وداع	في وصف مغن بارد	=	-	7	664	504	-	-	
365	اروم انتصافي من رجال اباعد ... اجمعا	في الشكوى	=	-	2	664	505	-	-	
366	سيسكتني يأسي وفي الصدر حاجة ... المطامع	=	=	-	23	665	505	-	-	
367	ما اخطأتك سهام الدهر رامية ... بمن تقع	=	بسيط	-	3	666	506	-	-	
368	يقولون ماش الدهر من حيث ... واظلع	=	طويل	-	4	667	506	-	-	
369	ولرب يوم هاج من طربي ... ذرعي	في وصف مجلس انس	كامل	-	3	667	507	-	-	
370	عميدك السيف الذي لم يزل ... المقطع	في وصف الشجاعة	سريع	-	3	668	507	-	-	
371	خلطوا الموارم بالقنا وتعمموا ... دروعا	في مدح قوم	كامل	-	2	668	507	-	-	
372	شرس تيقظ تيقظ خائف ... شجاع	=	=	-	2	668	507	-	-	
373	لكل امرئ نفسان نفس كريمة ... يطيعها	نصح وحكمة	طويل	-	2	669	507	-	-	
374	وظلعاء من مظلمات الخطوب ... سطلع	في وصف الخطوب	متقارب	-	2	669	508	-	-	
375	ومنسوبة من بنات الوجيه ... برقعا	في وصف فرس	=	-	2	669	508	-	-	
376	تضيق صدور العتب والعذر ... اطوع	في المذيق والمداق	طويل	-	12	670	508	-	-	
377	ومهتزة العرنين رقراقة ... اللوامع	في وصف مسكين اهديت له	=	-	5	671	509	-	-	

378	مقيم من الهم لايقلع ... لايرجع	في عتاب صديق	متقارب	–	48	671	509	–	–	
379	لئن قرب الله النوى بعد هذه ... بلاغ	نسيب	طويل	–	3	675	512	–	–	
380	بالجد لا بالمساعي يبلغ ... وقفوا	في مدح الملك بهاء الدولة	بسيط	400 هـ	46	5	514	–	–	
381	قل لاقني يرمي الى المجد ... خطا	في مدح ابي شجاع بن قوام الدين	خفيف	404 هـ	42	9	517	–	–	
382	ردوا الغليل لقلبي المشغوف ... المطروف	في الفخر والتذكر	كامل	–	39	12	519	–	–	
383	ردي مر الورود ولاتعافي ... تخافي	في الفخر والتبرم من النقابة	وافر	–	36	15	521	–	–	
384	وفي بعواعيد الخليط واخلفوا ... ولم يفوا	في الفخر بآبائه	طويل	–	70	17	523	–	–	
385	اشكو اليك مدامعا تكف ... تجف	تشوق وعتاب	طويل	–	35	21	527	–	–	
386	جرعتني غصصا ورحت مسلما ... اغفالها	في عتاب الاصدقاء	كامل	–	15	24	529	–	–	
387	كل شيء من الزمان طريف ... وحتوف	في عتاب صديق	خفيف	–	16	25	530	–	–	
388	كم ذميل اليكم ووجيف ... وصدوف	في رد على قصيدة للصابي والتشوق اليه	خفيف	396 هـ	53	27	331	–	–	
389	قفت المنازل يوم كاظمة ... موقفها	في عتاب صديق	كامل	–	49	30	534	–	–	
390	اقول لها بين الغديرين ... المنادف	مدح وفخر وهجاء	طويل	394 هـ	53	34	537	–	–	
391	الله يعلم ميلي عن جنابكم ... واللطف	هجاء وذم	بسيط	–	13	37	540	–	–	
392	لمن الحدوج تهزهن الانيق ... ويغرق	في مدح القادر بالله العباسي	كامل	382 هـ	52	39	541	–	–	
393	رأى على الغور وميضا فاشتاق ... الاماق	في تهنئة قوام الدين بالنيروز	رجز	401 هـ	39	42	544	–	–	

394	خل دمعي وطريقه ... احرام ان اريقه	في تهنئة لؤام الدين بالنيروز	م الرمل	402 هـ	65	45	546	–	–	
395	يادار ماطربت اليك النوق ... ومشوق	في مدح ابيه الحسين بن موسى	كامل	375 هـ	74	49	330	–	–	
396	لوضح ان البين يعشقه ... اينقه	=	=	–	46	34	554	–	–	
397	بود الرذايا انها في السوابق ... غير لاحق	في تهنئة ابيه بعيد الفطر	طويل	–	76	57	556	–	–	
398	سيدى انت ليس كل صديق بصادق	في الصديق والمداقه	م الخفيف	–	27	61	560	–	–	
399	الا بالقومي للخطوب الطوارق ... بعارق	في رثاء ابن جني	طويل	392 هـ	59	63	562	–	–	
400	خفيف الطير فانبانه ... علوق	في رثاء ابن ليلي النهدوى	سريع	393 هـ	46	67	565	–	–	
401	الوي حبازيمي عليك تحرقا ... ومارقا	في رثاء صديق له	طويل	–	57	70	568	–	–	
402	لايبعد الله فتياشا رزيتهم ... والورق	في رثاء محمد بن الفضل المهلبي	بسيط	399 هـ	8	74	571	–	–	
403	لولا يذم الركب عندك موقفي ... اسحق	عودة الى رثاء الصابي	كامل	393 هـ	16	75	571	–	–	
404	أمن ذكر دار بالمعلى الى منى ... المورّق	في النسيب	طويل	–	8	77	572	–	–	
405	بالية كرم الزمان بها ... بساق	في الغزل	م الكامل	–	6	77	573	–	–	
406	ولقد اقول لصاحب نهبته ... رواقي	في الاشتياق	كامل	–	9	78	573	–	–	
407	ايها الرائح المغذ تحمله ... المشتاق	في النسيب	خفيف	–	6	79	574	–	–	
408	ياحسن الخلق قبيح الاخلاق ... مشتاق	=	سريع	–	3	79	573	–	–	
409	اذا قلت ان القرب يشفي من الاشتياق	في الصديق والمداقه	طويل	–	9	80	575	–	–	

410	كفى حزنا اني صديق وصادق ... صديـــق	في الصديق والصداقة	طويل	—	2	80	574	—	—	
411	لوكان ماتطلبه غاية --- السابق	=	سريع	—	6	81	575	—	—	
412	وليل تمزق عنه النسيم --- وشرقـــا	في وصف النيلوفـــر	متقارب	—	3	82	576	—	—	
413	مارفع الواشون في ولفقوا ... اومشق	في عتاب الصديق	كامل	—	16	82	576	—	—	
414	برئت بالوعد في دجى املي ... اذا برقا	في الوفاء بالوعد	سريع	—	5	84	577	—	—	
415	اهز عاسية العيدان آبية ... ولا ورقا	مجاملة لكسر الشر	بسيط	—	6	84	577	—	—	
416	قمر غاض ضوءه في المحاق ... وانطلاقي	شيب ورمد وصداقـــه	خفيف	—	36	85	577	—	—	
417	أ اخي ما اشبع الزمان --- وضاقـــا	في الصديق والصداقه	م الكامل	—	7	88	579	—	—	
418	لقاؤك جر علي الفراقا --- اشتياقا	في التشوق للاصدقاء	متقارب	—	13	88	580	—	—	
419	سننت لهذا الرمح غربا مذلقا ... رونقـــا	اجابة على قصيدة للصاحب	طويل	—	33	90	581	—	—	
420	جاءبها قالصة عن ساق --- الغيداق	في وصف الناقة السريعة	رجز	—	15	93	583	—	—	
421	شبهت مني بدا ابدا الغيداق --- الراقي	فخر وهجاء ووعيد	رجز	389 ♣	28	94	584	—	—	
422	مالخيال الحبيب قد طرقا --- قلقـــا	في النسيب	منسرح	—	2	96	586	—	—	
423	ضاعت ديونك عند الغيد اعناقا.. مشتاقـــا	في النسيب	بسيط	—	2	97	586	—	—	
424	خلوا عليك مظال السفر وانطلقوا... عشقـــوا	في النسيب	بسيط	—	2	97	586	—	—	
425	وردنا بها بين العذيب وضارج ... البـــوارق	في وصف السحب المتفرقة	طويل	—	2	97	586	—	—	

426	دولة تطلب الفرار ومجد محلـــــــق	بين الرجاء واليأس في طلب الخلافه	م الخفيف	–	3	98	586	–	–	
427	اترى نراح من الفراق ... التلاقي	نسيب	م الكامل	–	3	98	586	–	–	
428	يا اراك الحمى تراني اراكا ... جناكا	في مدح بهاء الدولـــة	خفيف	397 هـ	46	99	587	–	–	
429	لقد جثمت تعبيسة في المضاحك ... السوافك	في الفخر	طويل	374 هـ	22	102	589	–	–	
430	دع الذميل الى الغايات والرتكا ... هادركا	في رثاء قوام الدين	بسيط	403 هـ	40	104	591	–	–	
431	يا ظبية البان ترعى في خمائله ... مرعـــاك	في النسيب	بسيط	395 هـ	18	107	593	–	–	
432	يا قلت ليتك حين لم تدع الهوى ... هواكـــا	=	كامل	–	13	108	594	–	–	
433	يا مقلقي قلقي عليك اظنه ذنبي اليكـــا	في العتـــاب	م الكامل	–	4	109	595	–	–	
434	اما تحرك للاقدار نابضة ... ولاملـــك	عتاب الدهر ولومه	بسيط	–	5	110	595	–	–	
435	افي كل يوم انت رام بهمة ... الشوابك	عتاب النفـــــس	طويـــل	–	5	110	595	–	–	
436	ورب غو رميت منطقة ... تعترك	فخـــر	منسرح	–	3	111	596	–	–	
437	ايا راكبا ترمي به الليل ... ووراك	مدح سلطان الدولـــة وذم اعدائه	طويل	–	31	111	596	–	–	
438	لايرعك الحي ان قيل هلك ... وترك	في عتاب الزمان	رمل	–	5	113	598	–	–	
439	انا للركائب ان عرضت بمنزل ... لم ارحـــل	في مدح الخليفه الطائع	كامل	376 هـ	82	114	598	–	–	
440	امبلغي ما اطلب الغزل ... الذبـــل	=	كامل	377 هـ	71	119	603	–	–	
441	مسيرى الى ليل الشباب ضلال ... وجمـــال	=	طويل	377 هـ	55	124	607	–	–	

442	احظى الملوك من الانام والدول ... والاسل	في مدح شرف الدولة	بسيط	376 هـ	50	128	610	–	–	
443	لازعزتك الخطوب ياجبل ... العلل	في تهنئة قوام الدين بعد مرض	منسرح	398 هـ	53	131	612	–	–	
444	ابن الغزال المطاول بعدك يامنازل	في مدح قوام الدين	م الرجز	399 هـ	84	135	615	–	–	
445	اهلا بهن على التنويل والبخل ... والابل	في مدح قوام الدين	بسيط	402 هـ	56	141	620	–	–	
446	ذكرت على بعدها من امثالي ... والمطالي	=	متقارب	402 هـ	66	145	623	–	–	
447	ردى ياجيادى واذني برحيل ... قليل	في مدح ابيه	طويل	378 هـ	69	150	627	–	–	
448	ما ابيض من لون العوارض افضل ... الاول	=	كامل	379 هـ	74	155	631	–	–	
449	الى الله اني للعظيم حمول ... قليل	=	طويل	379 هـ	64	160	636	–	–	
450	من لي برغبلة من التبزل ... الرحل	=	كامل	–	14	164	639	–	–	
451	ارائب من طيف الحبيب وصالا ... خيالا	في شكر ابن جني النحوي	طويل	–	35	166	640	–	–	
452	أ ابقى كذا ابدا مستقلا ... وذلا	صداقه ومدح	متقارب	–	38	168	642	–	–	
453	اتذكراني طلب الطوائل ... غافل	في الفخر وذم الزمان	رجز	–	44	171	644	–	–	
454	لمن دمن بذى سلم وضال ... البوالي	في الفخر والعتاب	وافر	–	51	174	647	–	–	
455	قلق العدو وقد حظيت برتبة ... والامثال	طموح وذم بعض اعدائه	كامل	–	6	182	654	–	–	
456	حب العلى شغل قلب ماله شغل ... والعذل	في الفخر وذم الزمان	بسيط	–	66	178	650	–	–	
457	امل من مثانيها فهذا مقيلها ... وطلولها	في الوقوف على منازله	طويل	404 هـ	55	183	654	–	–	

458	راحل انت والليالي نزول - - - الطويل	في رثاء الامام الحسين	خليف	307 هـ	52	187	658	-	-	
459	ابرجع مبتا رنة وعويل - - - خليل	في تعزية الطائع عن اخيه	طويل	377 هـ	51	191	661	-	-	
460	إن كان ذاك الطود خر - - - طويلا	في رثاء ابهام الطائع العباسي	م الكامل	381 هـ	37	194	664	-	-	
461	اى طود فك من اي جبال - - - بعد حبال	في رثاء الخليفة الطائع	رمل	393 هـ	61	197	666	-	-	
462	اكذا المنون تقتطر الابطالا - - - الاجبالا	في رثاء الصاحب بن عباد	كامل	385 هـ	112	201	670	-	-	
463	الا يكن ثملا فقمد ثمول - - - بخنسول	في تعزية ابي سعيد بن خلف عن ابنه	=	-	35	209	677	-	-	
464	تغالب ثم تغلبنا الليالي - - - على الشمال	في رثاء ابنة سيف الدولة	وافر	399 هـ	35	212	678	-	-	
465	مابعد يومك مابسلوبه التالي - - - على بالي	في رثاء صديق	بسيط	-	26	215	681	-	-	
466	نخطو مساخطونا الا الى الاجل - - - لم يطل	في تعزية صديق عن بنته	=	-	38	217	683	-	-	
467	ما التمت الارض الفضاء - - - او قبله	في رثاء بعض اصدقائه	كامل	-	3	219	685	-	-	
468	إن اثر الخطب فلا روعة - - - لصبر جميل	في الزهد	سريع	-	4	220	685	-	-	
469	خليلي هل لي لو ظفرت بشية - - - سبيل	في النسيب	طويل	-	13	220	686	-	-	
470	ورب يوم اخذنا فيه لذتنا - - - ولاوجل	في الغزل	بسيط	-	7	222	686	-	-	
471	تحيرى عن الود المريح يحول - - - العقول	في الصديق والمداقه	كامل	-	5	222	687	-	-	
472	ومقبل كفي ودت لو انه - - - - بالتقبيل	في الغزل	=	-	5	223	687	-	-	
473	وقد كنت ابي ان ازل لصبوة - - - عقالي	في الغزل	طويل	-	7	223	688	-	-	

474	عجلت ياشيب على مفرقي --- ان تعجلا	في عتاب الشيب	سريع	383 هـ	19	224	688	–	–	–	
475	احبك بالطبع البعيد ---- من الخبل	عتاب في الحب	طويل	–	8	225	689	–	–	–	
476	ايا اثلات القاع كم نفع عبرة ... بذي الاثل	نسيب	=	–	6	226	690	–	–	–	
477	اصبت بعيني من اصاب بعينه ... طلـــة	=	=	–	6	227	690	–	–	–	
478	سهمك مدلول على مقتلي --- بماقاتل	=	سريع	–	4	228	691	–	–	–	
479	وماتلوم جسمي من لقائكم --- عجـــل	تشوق لبهاء الدولة	بسيط	–	5	228	691	–	–	–	
480	لاتحسبه وان اسأت به --- العدلا	حثيث مع النفس	كامل	–	2	229	691	–	–	–	
481	سليمان دلتني يداك على الغنى ... محجّـــلا	مدح وفخر	طويل	–	9	229	691	–	–	–	
482	اوعيدا يابني جشم --- والخللا	وعيد وفخر	مديد	–	9	230	692	–	–	–	
483	لا تعذلني في السكوت --- لايقـــال	طموح وفخر	م الكامل	–	5	231	693	–	–	–	
484	وقائل لي هذا الطود مرتحل ... محملـــه	رثاء	بسيط	–	3	232	693	–	–	–	
485	قصدت العلى والمكرمات سهيل ... قليـــل	فخر ومـــدح	طويل	–	13	232	693	–	–	–	
486	عصينا فيك احداث الليالي --- المعالـــي	عتاب وفخـــر	وافـر	–	24	233	694	–	–	–	
487	ان لم اطع همما واعصي عواذلا ... مقـــاولا	فخر	كامـل	–	7	233	695	–	–	–	
488	وجد القريض الى العتاب --- سهـــولا	في عتاب صديق	=	–	9	236	696	–	–	–	
489	لعمرك ماجر ذيل الفخار بهـــل	=	متقارب	–	21	237	695	–	–	–	

490	راح يحول شعاعها ... العقول	في وصف الخمر	م الكامل	–	3	239	698	–	–	
491	سأبدل دون العز اكرم نهجة ... على رجل	فخر	طويل	–	3	239	698	–	–	
492	زللت في وقفتي على طلل ... الزلل	هجاء ووصف طلل	منسرح	–	3	240	698	–	–	
493	ابيعك بيع الاديم النعل ... السجل	هجاء وفخر	متقارب	–	15	240	698	–	–	
494	تطاط لها فيوشك ان تجلى ... تولسي	طلب الاعطاء من النقابة	وافر	384 هـ	35	242	699	–	–	
495	اشتر العز بما يبيع ... بغال	طموح	م الرمل	384 هـ	5	244	702	–	–	
496	بحيث انعقد الرمل ... المطل	حنين للاصدقاء وفخر	هزج	391 هـ	43	243	702	–	–	
497	اغر ابامي مني ذا الطلل ... احتمل	فخر وطموح	رجز	–	24	248	704	–	–	
498	لحب البيّ بالدهناء ملقى ... الرحال	وصف فراخ حمامه	وافر	–	17	250	706	–	–	
499	اقول والهم زميل رحلي ... بيلي	شكوى من الزمان	رجز	–	4	252	707	–	–	
500	لقد طال هزى من قوائم معشر ... نصلا	هجاء ومدح وفخر	طويل	–	23	232	707	–	–	
501	اذا رابني الاقوام بعد ودادة ... قيال	هجاء وفخر	=	–	15	254	709	–	–	
502	غلت عرسي تجرم لي ذنوبا ... المقل	عتاب ولوم	وافر	–	2	255	710	–	–	
503	ابى الله ان تأتي بخير فترتجي ... اولها	هجاء	طويل	–	5	256	710	–	–	
504	وذي فنن معولة كلماته ... نبله	وصف الاسد وهجاء	=	–	25	256	710	–	–	
505	تغير القلب عما كنت تعرفه ... معلال	قطيعه	بسيط	–	3	259	712	–	–	

506	ولما بدالي ان ماكنت ارتجي ... اقبلا	لوم النفس وتأنيبها	طويل	–	7	259	712	–	–	
507	اشم ببابل بو الصغار ... افعل	عيوب المجتمع الحضري	متقارب	–	15	260	713	–	–	
508	اياك عنه عذل العاذل ... شاعل	في مدح ابي العوام	سريع	398 هـ	45	261	714	–	–	
509	جمحت بك الحاجات في غلوائها ... قليلا	الطريق لصون النفس	كامل	–	5	264	716	–	–	
510	وقالوا اسفها انماهي مضغة ... وجندل	فخر ووفاء واخلاص	طويل	–	5	265	717	–	–	
511	لباك مشزور القوى ذيال ... فعّال	مدح	رجز	–	5	265	717	–	–	
512	ان غرب الدهر مصقول ... مسلول	تهنئة بعض الاصدقاء	مديد	–	7	266	718	–	–	
513	سل الهضب مابين الهضاب ... بالزلازل	رثاء	طويل	–	3	267	718	–	–	
514	رست قبورهم علي ... والمعالي	=	م الكامل	–	4	267	718	–	–	
515	تكلفني عذر البخيل ولي مال ... والقال	فخر	طويل	–	3	268	719	–	–	
516	تقارعنا على الاحساب حتى ... غير آل	=	وافر	–	2	268	719	–	–	
517	ياسعد سعد الخيل والابل ... البزل	حث على المسير	كامل	–	2	269	719	–	–	
518	الا حي ضيف الشيب ان طروقه ... دليله	بكاء على الشباب	طويل	–	2	269	719	–	–	
519	وقد تركت صوارمهم بحجر ... عقال	مدح	وافر	–	2	269	719	–	–	
520	ومعترك للوصل ... وقاتل	نسيب	طويل	–	2	270	720	–	–	
521	واذا ما دعوا وقد نشط الروع ... الاجلال	مدح	خفيف	–	2	270	720	–	–	

522	اصبحت لا ارجو ولا ابتغي ... الفضل	فخر	بسيط	–	2	270	720	–	–		
523	يا عاذلان اساتما العذلا ... ولا اهلا	نسيب	كامل	–	4	271	720	–	–		
524	رائعات اخلين شكلن ... جليل	وصف الهموم	خفيف	–	2	271	720	–	–		
525	تدارعن بالايدي من الغور ... صاقل	وصف	طويل	–	2	271	721	–	–		
526	تذكرت بين المازمين الى منى ... سليمها	نسيب	=	–	11	272	721	–	–		
527	حبيبي ما أزرى بحبك ... اعجم	غزل في غلام اعجمي	=	–	3	273	722	–	–		
528	بالبلة الفتح الا عدت ثانية ... الايم	نسيب	بسيط	–	28	273	722	–	–		
529	نظمنا نظام العقد ودا والفة ... نظام	في اجتماع الاصدقاء	طويل	–	9	275	724	–	–		
530	المع برق ام ضرم ... العلم	في مدح قوام الدين	م الرجز	390 هـ	77	276	724	–	–		
531	زار والركب حرام ... سلام	=	م الرمل	397 هـ	61	282	729	–	–		
532	لبهان الغمد مابقي الحسام ... تمام	تعزية قوام الدين عن بنته	وافر	400 هـ	43	286	733	–	–		
533	وسمتك حالية الربيع المرهم ... العرزم	في رثاء والده	كامل	400 هـ	89	290	736	–	–		
534	اعلى الغور شعرفت الخياما مقاما	في مدح قوام الدين	رمل	400 هـ	54	297	742	–	–		
535	يامن رأى البرق على الانعم ... المظلم	في طلب الاعداء من النقابة	سريع	400 هـ	71	301	746	–	–		
536	احق من كانت النعماء سابغة ... الامم	في مدح فخر الدولة	بسيط	–	15	306	751	–	–		
537	لكم حرم الله المعظم ... زمزم	مدح	طويل	–	3	308	752	–	–		

538	ثورتها تنتعل الظلما ... سلامي	في شكر قوام الدين	رجز	401 هـ	36	308	752	–	–	
539	يادهر ماذا الطروق بالالم ... الكرم	امنيات بالشفاء للنهباء	منسرح	–	3	311	754	–	–	
540	ولامثل ليلى بالشقيقة والهوى... منعما	في وصف السواد	طويل	–	11	312	755	–	–	
541	ياقلب ما اطول هذا الغرام ... المقام	في ذم الزمان	سريع	392 هـ	57	313	755	–	–	
542	لعمر الطير يوم ثوى ... كريم	في رثاء ابي ليلى البدوي	وافر	–	27	317	759	–	–	
543	ضربن الينا خدودا وساما ... كراما	في مدح الطائع العباسي	متقارب	379 هـ	73	319	761	–	–	
544	رب اخ لي لم تلده امي ... همي	في البصرين والصداقة	رجز	–	2	324	766	–	–	
545	لا اشتكي صبري من لناس ... اعلم	ايمان بالله وقدرته	م الرجز	–	3	325	766	–	–	
546	قديبلغ الرجل الجبان بماله ... المعدم	بين المال والمركز	كامل	–	2	325	766	–	–	
547	ولي كبد من حب ظمياء اصبحت ... السدم	نسيب	طويل	–	3	326	767	–	–	
548	ابا نزار تفد القوم النعم ... العدم	هجاء	رجز	394 هـ	36	326	767	–	–	
549	وكم صاحب كالرمح ... يقوما	عتاب صديق	طويل	–	14	329	769	–	–	
550	ياعذولي قد غفت جماحي ... بزمامي	ذم الشيب	خفيف	–	9	330	770	–	–	
551	تألق نجدي كأن وميضه ... ريم	مدح	طويل	–	7	331	771	–	–	
552	عطون باعناق الظباء واشرقت ... نعيم	نسيب	طويل	–	9	332	771	–	–	
553	هي سلوة ذهبت بكل غرام ... الايام	في مدح الطائع العباسي	كامل	376 هـ	80	333	772	–	–	

554	امير المؤمنين بشت فينا --- عظيم	في مدح الطائع العباسي	والر	–	31	339	777	–	–	
555	لله ثم لك المحل الاعظم --- الاقدم	=	كامل	380 هـ	71	341	779	–	–	
556	اترى ديار الحي بالجزعين --- الخيام	في مدح بهاء الدولة	م الكامل	388 هـ	51	346	783	–	–	
557	وليلة ماخلعت مشها --- مشام	وصف مجلس انس	مخ البسيط	–	5	350	786	–	–	
558	ابراهم انحها انني --- دما	هجاء	متقارب	–	15	350	787	–	–	
559	اتطمع ان القي اليك مقادتي --- الخزائم	فخر وهجاء	طويل	–	3	351	788	–	–	
560	أ ابقى على نفو الهموم كأنما --- سما	شكوى الزمان	=	–	5	352	788	–	–	
561	ابا مطر وجدمك من معد --- السليم	هجاء وفخر	والهز	–	5	352	788	–	–	
562	قالوا رجوته الذي منه بلا سبب --- الكرم	مدح	بسيط	–	5	353	789	–	–	
563	اذا ارعدوا يوما لنا بوعيدهم --- بالصوارم	فخر	طويل	–	3	353	789	–	–	
564	في كل يوم اثوف المجد تطلعني --- قدم	رثاء	بسيط	–	3	354	789	–	–	
565	وكأنما اولى الصباح وقد بدا --- متلثم	في وصف الصباح	كامل	–	2	354	790	–	–	
566	شرطنا الايام وهي تقيم --- سليم	شكوى من الايام	طويل	–	2	355	790	–	–	
567	بعثت بها معرقة الهوادي --- السهام	هجاء	والر	–	2	355	790	–	–	
568	اعقل قلوصك بالاجزاع من اضم --- اللوم	مدح	بسيط	–	3	355	790	–	–	
569	كأن ايديها بوادي الرمام --- وارام	وصف	رجز	–	3	356	791	–	–	

570	وسود النواظر حمر الشفاة ... الدمسا	غزل	متقارب	–	2	356	791	–	–	–	
571	ربما رد عنك سهم المرامي ... الايام	شكوى وتظلم	خفيف	–	2	356	791	–	–	–	
572	كل يوم يجب مني سنام ... الايام	=	=	–	2	357	791	–	–	–	
573	اتقوا بذلة العيون فغابو ... الانام	مدح	=	–	2	357	791	–	–	–	
574	يعلم الجد انني لا اضام ... همام	فخر وهجاء	=	–	12	357	791	–	–	–	
575	بيني وبين الموارم البهم ... قدم	فخر ومدح في ابيه	منسرح	–	48	358	792	–	–	–	
576	ولا عادت الكاس عليل الشيم ... الهموم	تذكر وشوق وحب	سريع	–	37	362	795	–	–	–	
577	بني عامر ما العز الا لقادر ... المظالم	في الشكوى والوصف	طويل	–	21	364	797	–	–	–	
578	شوق يعرض لا الى الارام ... الاحلام	في مدح ابيه	كامل	–	23	366	799	–	–	–	
579	هو الدهر فينا خلع اللجام ... محامي	من اول قوله في الفخر	متقارب	374 هـ	53	368	800	–	–	–	
580	لامر بابني جشم ... الادم	فخر	م الوافر	–	37	373	804	–	–	–	
581	اما آن للدمع ان يستجم ... لا تلم	من اول اقواله في الفخر	متقارب	–	82	374	806	–	–	–	
582	الا خبر عن جانب الغور وارد	الرواسم	طويل	–	16	380	811	–	–	–	
583	الا لبت اذيال الغيوث السواجم ... المعالم	في الفخر وذم الزمان	×	–	51	381	812	–	–	–	
584	هذى الرماح عمي الضال والسلم ... الهمم	من اول اقواله في الفخر	بسيط	–	52	385	316	–	–	–	
585	قال الضمير بماعلم ... فاحتكم	عتاب	م الكامل	–	9	388	819	–	–	–	

586	عجزنا عن مرامية الحسام --- بالانام	في رثاء ابنة صديق	والر	–	36	309	820	–	–	
587	لله جيد ماتمهد غير احشاء المكارم	مدح	م الكامل	–	3	392	822	–	–	
588	البستني شعما على نعم --- علم	مدح وشكر	كامل	–	5	392	822	–	–	
589	شهته عتابك الا ان هذا جرم --- متهم	عتاب صديق	بسيط	–	9	393	822	–	–	
590	قليل من الخلان من لا تذمه --- همه	في الفخر وذم الزمان	طويل	–	68	394	822	–	–	
591	بعادا لم صاحبت غير المنوم --- البدم	في مدح الوزير ابي منصور	=	378 هـ	93	399	827	–	–	
592	هي ماعلمت فهل ترد همومها --- بليمها	في تعزية الوزير ابي منصور	كامل	378 هـ	36	406	833	–	–	
593	ارى نفسي تتوق الى النجوم --- العظيم	في ذم الزمان والفخر	والر	379 هـ	54	408	835	–	–	
594	رأت شعرات في عذاري طلقة --- الوسم	عند ما بنت الشيب بعارضه	طويل	–	3	412-	839	–	–	
595	هل كان يومك الا بعد ايام --- ارغام	في رثاء شرف الدولة	بسيط	379 هـ	38	413	839	–	–	
596	متى انا قائم اعلى مقام --- بالسلام	في مدح الطائع العباسي	والر	380 هـ	38	416	841	–	–	
597	طفت بها عيد الرؤوس سوام --- زمام	مدح ابيه وتهنئته	طويل	381 هـ	49	419	844	–	–	
598	ما ان رأيت كمعشر --- اللزبات والذمم	مدح	كامل	–	3	422	847	–	–	
599	قعد الراضون بالذل فلم --- عزم	في ذم الزمان والفخر	رمل	–	45	423	847	–	–	
600	تأبى الليالي ان تديما --- أو تعيما	في الاعتذار للوزير ابي علي	م الكامل	–	45	426	850	–	–	
601	من الركب مابين النقا والاشائم --- العمائم	فخر وغزل	طويل	–	88	429	853	–	–	

602	تأمل ان تخرج في دار الحزن --- الظعن	في التألم لفقد الماضين	رجز	402 هـ	56	436	858	–	–	–	
603	نعوه على فن قلبي به --- الشاعبان	في رثاء ابن حجاج	متقارب	391 هـ	21	441	862	–	–	–	
604	اقول والاقدار ترتمينا --- مالقينا	مواساة بهاء الدولة	رجز	–	15	443	864	–	–	–	
605	لواعج الشوق تخطيهم وتصميني --- يغريني	في وصف عزل الطائع	بسيط	381 هـ	51	444	865	–	–	–	
606	اسل بدمعك وادي الحي ان بانوا --- اعوان	في الفخر وذم الزمان	=	386 هـ	68	448	868	–	–	–	
607	ملك الملوك نداء ذي شجن --- الزمن	في الاعتذار لبهاء الدولة	كامل	388 هـ	37	454	873	–	–	–	
608	اماكنت مع الحي --- وليتنا	فخر	هزج	390 هـ	36	456	875	–	–	–	
609	ما اقل اعتبار نا بالزمان --- الاماني	في رثاء احد ابناء العباسيين	خفيف	391 هـ	76	459	877	–	–	–	
610	غزال ماطل ديني --- الغديرين	فخر وشكوى الزمان	هزج	–	34	464	882	–	–	–	
611	فخرت قحطان ان كان لها --- رعين	فخر بآباءه واجداده	رمل	392 هـ	13	467	884	–	–	–	
612	مازلت اطرق المنازل بالنوى --- النعمان	في رثاء الحيرة واهلها	كامل	392 هـ	36	468	885	–	–	–	
613	بامسقط العلمين من رمل --- ديون	نسيب	=	–	6	471	886	–	–	–	
614	أذات الطوق لم اقرفك قلبي --- ديني	في الغزل بالودوات	وافر	–	11	472	888	–	–	–	
615	ذكرتك ذكرة لاذاهل --- الحنان	في رثاء زوجته	متقارب	–	7	473	889	–	–	–	
616	بماروض ذي الاثل من شرقي كاظمة --- اديانا	حنين واشتياق	بسيط	–	12	474	889	–	–	–	
617	باطاشر الدان غريدا على متن --- البان	نسيب	=	–	11	475	890	–	–	–	

618	اذاع بذي العهد عرفانه ...	اديانه	عتاب ونسيب	متقارب	—	46	476	891	—	—	
619	ياظالمي والقلب ناصره ...	يجني	نسيب وتشوق	كامل	—	7	479	893	—	—	
620	اعاد لي عيد الغنى ...	مني	وتشكي ونسيب	م الرجز	394 هـ	55	480	894	—	—	
621	تضاجعني الحسناء والسيف ...	مني	فخر	طويل	—	5	484	897	—	—	
622	وماكنت ادري الحب حتى تعرفت ...	عين	نسيب	=	394 هـ	14	484	898	—	—	
623	وصاحب في اصحاب انخت به ...	بغشانا	وصف رفيق سفر	بسيط	—	6	486	899	—	—	
624	وليس من الفراغ يشرن عني ...	الجنان	شكوى وهم	وافر	—	2	487	899	—	—	
625	يارفيقي قفا نضويكما ...	المنحنى	نسيب	رمل	—	12	487	899	—	—	
626	ما اسرع الايام في طينا ...	تمضي بنا	في تعزية وزير في ولده	سريع	396 هـ	33	488	900	—	—	
627	ياصاحبي تروحا بمطيتي ...	سلبني	نسيب	كامل	—	3	491	902	—	—	
628	قد قلت للرجل المقسم امره ...	العين	نصح وارشاد	=	—	3	491	902	—	—	
629	ظلالا لسائل هذي المغاني ...	الغواني	مدح الموفق وزير البهاء	متقارب	390 هـ	48	492	903	—	—	
630	زمان الهوى ما انت لي ...	مكان	في مدح ابيه	طويل	374 هـ	63	495	906	—	—	
631	امن شوق تعانقني الاماني ...	زماني	في مدح ابي سعيد خلف	وافر	376 هـ	58	500	910	—	—	
632	اسقني فاليوم نشوان ...	ريان	غزل ووصف	مديد	—	24	504	913	—	—	
633	حبيبي هل شهود الحب ...	حنين	نسيب	وافر	—	4	506	914	—	—	

650	ظماني الى من اراد سقاني --- فظماني	شكرومدح العامري	طويل	—	46	539	942	—	—	—	
651	دع من دموعك بعد البين --- للظعن	شكرومواساة العامري	بسيط	—	59	542	945	—	—	—	
652	تواعد ال الخليط لان بينا --- فلا قطبنا	مدح بهاء الدولة وتهنئته	وافر	398 هـ	74	546	949	—	—	—	
653	جناني شجاع ان مدحت وانما --- جبان	اعتذار لبهاء الدولة	طويل	—	5	552	954	—	—	—	
654	دعا بالوحاف السود --- دعاني	شيب	=	—	14	552	954	—	—	—	
655	أفي كل يوم لي عشار تشوقها --- الظعائن	في قوم يسرقون شعره	=	—	16	554	955	—	—	—	
656	ومستهلات كعوب الحيا --- تلتني	وصف الشعر	سريع	—	4	555	957	—	—	—	
657	روضة خلفت لنا من حازم --- وحزوننا	رأى المأمون	كامل	—	2	556	957	—	—	—	
658	اي المنازل ترتضى بعدكم وطنا --- ظعنا	الم الفراق	بسيط	—	2	556	957	—	—	—	
659	هذى المنازل فاضربي بجراني --- الاوطان	تحية الاطلال	كامل	—	2	556	957	—	—	—	
660	قصور الجد مع طول المساعي --- فلان	اجتناب السقي المذموم	وافر	—	3	557	957	—	—	—	
661	سبق الدهر جدكم في الرهان --- النيران	مدح	خفيف	—	2	557	958	—	—	—	
662	هبي لي ني زورك البواني --- اليماني	حديث مع الناقة	وافر	—	2	557	958	—	—	—	
663	بئس التحية بيننا المران --- طعان	هجاء	كامل	—	2	558	958	—	—	—	
664	وبرق حدا المزن حدو الثقال --- فحيينا	وصف البرق والمطر	متقارب	—	2	558	958	—	—	—	
665	الى اين مرمى قصدها وسراها --- بوجاها	هجاء	طويل	397 هـ	43	559	959	—	—	—	

666	تلفته والرمل ما بيننا --- او رباه	نسيب	متقارب	—	10	562	961	—	—	
667	احبك ما اقام مني وجمع --- اخشباها	=	وافر	—	12	563	962	—	—	
668	يا طالبا ملك بني بويه --- ولا اليه	مفح بهاء الدولة	رجز	394 هـ	25	564	963	—	—	
669	عاد الهوى بظباء مكه --- كما بدأها	نسيب	م الكامل	390 هـ	23	566	965	—	—	
670	اكبح النفس ان جمحت --- غاية بها	فخر بقوة الاحتمال	م خفيف	—	4	568	966	—	—	
671	لمن بعده اسيافه وقناه --- سواه	رثاء	طويل	—	2	568	966	—	—	
672	عليق القلب من اطال عذابي --- وغدوي	عتاب صديق	خفيف	—	4	569	966	—	—	
673	اقول لركب رائحين لعلكم --- اليمانيا	نسيب	طويل	400 هـ	26	570	967	—	—	
674	من رأى اعينا --- الجواريا	تذكر من رحل من اصدقائه	م الخفيف	392 هـ	62	572	968	—	—	
675	ما مقامي على الهوان وعندي --- حمي	فخر وثورة على الوضع	خفيف	—	11	576	972	—	—	
676	اتذهل بعد انذار المنايا --- الحمايا	زهد وذم الزمان	وافر	392 هـ	26	577	973	—	—	
677	مضى خسيس من الدنيا ودين --- وغي	رثاء اخي صديق له	=	—	4	579	975	—	—	
678	ايعلم قبر بالجنينة اننا --- المعاليا	عودة لرثاء الصابي	طويل	—	34	579	975	—	—	
679	املتمسا مني صديقا لنوبة --- لك ثانيا	في الصديق والصداقه	=	—	3	582	977	—	—	
680	أ انكر والمجد عنوانيه --- اقرانيه	في الفخر وذم الزمان	متقارب	—	38	582	977	—	—	
681	ودجى هتكت قناعه --- خفيه	وصف البدر والثريا	م الكامل	—	3	582	980	—	—	

582	اراعي بلوغ الشيب والشيب دائما فنائيا	مدح الطائع وعتابه	طويل	377 هـ	92	586	900	-	-		

ملاحظـــــــات :

(1)- لقد جمعنا الطبعات " بيروت - البيان - الأعلمي " في العمود رقم "5" لتناسب ترقيم الصفحات بينهـا .

(2)- يقصد من ترقيم القصائد والمقطوعات والأبيات مطابقة ترتيبها حسب ورودها في كل طبعة من طبعات الديـوان .

(3)- ينتهي ما شرحه محمد محي الدين عبد الحميد من الديوان بالبيتيـن رقم " 105 " .

(4)- ينتهي ما حققه عبد الفتاح محمد الحلو من الديوان بالأبيات الخمسة رقم "215" من الجدول مع ملاحظة اشـارة الجـدول الى القصائد التي لم ترد عند المحقق بالاشارة اليها بعبارة " لم يذكرهـا " .

(5)- وردت القصيدة رقم "160" بزيادة بيت واحد في الجزء الذى حققه الحلو عنه في نسخ الديوان الأخرى .

(6)- تقدمت النتفة رقم "129" على القصيدة رقم "130" في طبعة صادر بخلاف ترتيبها في بقية الطبعات الأخـرى .

نسخ الديوان التي اعتمدتها في الدراسة

1 - ديوان الشريف الرضي - المطبعة الأدبية - ولاية بيروت - 1307 .

2 - ديوان الشريف الرضي - دار البيان - بغداد - د . ت - (نسخة مصورة عن نسخة بيروت) .

3 - ديوان الشريف الرضي - مؤسسة الأعلمي - بيروت - د . ت - (نسخة مصورة عن نسخة بيروت) .

4 - ديوان الشريف الرضي - ج 1 - بشرح محمد محي الدين عبد الحميد - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ط 1 - 1949 .

5 - ديوان الشريف الرضي - دار صادر - بيروت - د . ت - (المعتمد في دراسة شعره) .

6 - ديوان الشريف الرضي - ج 1 - تحقيق محمد عبد الفتاح الحلو - وزارة الاعلام بغداد - ط 1 - 1977 .

فهـــــرس المراجـــــع

-ابراهيم (زكريا) :

مشكلة الحياة - مكتبة مصر - القاهرة - ط 1 - 1971

-ابراهيم (طه أحمد) :

تاريخ النقد الأدبي عند العرب - دار الحكمة - بيروت - د . ت

-ابن الاثير (عزالدين بن محمد) :

الكامل في التاريخ - دار الطباعة المنيريه - القاهرة ط1- 1353 هج

-أحمد (محمد خلف الله) :

من الوجهة النفسية في دراسة الأدب - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - ط 2 - 1970 .

-اسماعيل (عزالدين) :

1-في الشعر العباسي الرؤية والفن - دار المعارف - القاهرة 1980 .

2-الشعر العربي المعاصر - دار العودة - بيروت - ط 3 - 1957 .

-الاصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) :

1-الأغاني - دار الثقافة - بيروت - 7 3 - 1963 .

2-مقاتل الطالبيين - دار احياء علوم الدين - بيروت - 1961 .

-الاطرقجي (واجده مجيد) :

المرأة في أدب العصر العباسي - دار الرشيد للنشر - بغداد - 1981 .

-أمين (أحمد) :

ظهر الاسلام - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 5 - 1969 .

-الاميني (عبد الحسين أحمد) :

الغدير في الكتاب والسنة والأدب - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 4 - 1977 .

-الاميني (السيد محسن) :

1-أعيان الشيعة - مطبعة الأزمان - دمشق - ط 1 - 1946 .

2-في رحاب أهل البيت - دار التعارف - بيروت - 1980 .

-أنيس (ابراهيم) :

موسيقى الشعر - مكتبة الانجلو مصرية - القاهرة - ط 5 - 1981 .

-الباشا (حسن) :

دراسات في تاريخ الدولة العباسية - دار النهضة العربية - القاهرة - 1957 .

- البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد) :
ديوانه - دار المعارف - القاهرة - 1963 .
- البحراني (يوسف) :
1- لؤلؤة البحرين - مطبعة النعمان - النجف - د . ت
2- الكشكول - مكتبة نينوى الحديثة - طهران - د . ت
- الباخرزي (علي بن الحسين) :
دمية القصر - مطبعة المعارف - بغداد - 1971
- بدوي (عبد الرحمان) :
1- مذاهب الاسلاميين - دار العلم للملايين - بيروت - ط1- 1971 .
2- الموت والعبقرية - وكالة المطبوعات - الكويت - د . ت
- بديع الزمان (أحمد بن الحسين الهمذاني) :
مقامات بديع الزمان الهمذاني - دار الشرق - بيروت - ط 7 - 1973 .
- البرقوقي (عبد الرحمان) :
شرح ديوان المتنبي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1979 .
- بروكلمان (كارل) :
تاريخ الأدب العربي - دار المعارف - القاهرة - ط 3 - 1974 .
- بهاء الدين العاملي (محمد بن حسين بن عبد الصمد) :
الكشكول - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - د . ت
- البهنساوي (سالم علي) :
السنّة المفترى عليها - دار البحوث العلمية - الكويت - ط 1 - 1979 .
- تميم بن المعز :
ديوانه - دار الكتب المصرية - القاهرة - 1957 .
- التوحيدي (أبو حيّان علي بن محمد) :
الامتاع والمؤانسة - لجنة التأليف والنشر - القاهرة - ط 2 - 1953 .
- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد) :
1 - التمثيل والمحاضرة - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - 1961 .
2 - فقه اللغة وسر العربية - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - 1981 .
3 - اللطائف والظرائف والمواقيت في بعض المواقيت - مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده - القاهرة - 1334 هـ .
4 - يتيمة الدهر - دار الفكر العربي - بيروت - ط 2 - 1973 .

- الجابري (علي حسين) :
الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشرية - مكتبة الفكر الجامعي - بيروت - ط 1 - 1977 .
- الجاحظ (عمرو بن بحر) :
البيان والتبيين - مؤسسة الخانجي - القاهرة - ط 3 - د . ت
- الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز) :
الوساطة بين المتنبي وخصومه - عيسى البابي الحلبي وشركائه - القاهرة - د . ت
- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان بن علي) :
المنتظم في تاريخ الأمم - دار المعارف العثمانية - حيدر آباد - الدكن - ط 1 - 1358 هـ .
- جولد تسهير (أجناس) :
العقيدة والشريعة في الاسلام - دار الرائد العربي - بيروت - د . ت
- الجوهري (اسماعيل بن حماد) : الصحاح - دار العلم للملايين - ط 2 - 1979 .
- الحاتمي (محمد بن الحسن المظفر) : الرسالة الحاتمية - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - 1931 .
- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء - دار الغرب الاسلامي - بيروت - ط 2 . 1981 .
- حاوي (ايليا) : فن الوصف - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط 3 - 1980 .
- ابن أبي الحديد (عزالدين بن هبة الله المدائني) :
شرح نهج البلاغة - دار احياء التراث العربي - القاهرة - ط 2 - 1965 .
- حسن (محمد عبد الغني) :
الشريف الرضي - نوابغ الفكر - دار المعارف - القاهرة - 1970 .
- حسين (طه) :
حديث الاربعاء - دار المعارف - القاهرة - ط 10 - 1973 .
- الحصري القيرواني (أبو اسحاق ابراهيم بن علي) :
زهر الآداب - دار احياء التراث العربي - القاهرة - ط 1 - 1952 .
- الحطيئة (جرول بن أوس) :
ديوانه - دار صادر - بيروت - 1967 .
- الحلّي (الحسن بن يوسف المطهر) :
نهج الحق وكشف الصدق - دار الكتاب اللبناني - بيروت - 1982 .

- الحلّي (عبد الحسين) :
حياة الشريف الرضي - دار البيان - بغداد - 1968 .
- الحمزاوي (رشاد) :
تقديم كتاب " نظريات ابن جني النحوية " - حوليات الجامعة التونسية - العدد 13 .
- الخشاب (يحي) :
التقاء الحضارتين العربية والفارسية - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - 1962 .
- الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي) :
تاريخ بغداد - دار الكتب العربية - بيروت - د . ت
- خفاجي (محمد عبد المنعم) :
1 - الآداب العربية في العصر العباسي الثاني - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - 1957 .
2 - مقدمة تحقيق كتاب " نقد الشعر " - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ط 1 - 1980 .
- ابن خلدون (عبد الرحمان) :
المقدمة - دار العودة - بيروت - 1981 .
- ابن خلف (علي الكاتب) : مواد البيان - جامعة الفاتح - طرابلس - 1982 .
- ابن خلكان (أحمد بن محمد) : وفيات الأعيان - دار الثقافة العربية بيروت . د . ت .
- الخنساء (تماضر ابنة عمرو بن الشريد) :
ديوانها - دار المسيرة - بيروت - ط 2 - 1982 .
- الخوانساري (محمد باقر) :
روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات - مكتبة سماعيليان - قم د . ت .
- الخولي (محمد مرسي) :
أبو الفتح البستي حياته وشعره - دار الأندلس - بيروت - ط 1 - 1980 .
- د . محفوظ :
الشريف الرضي - مكتبة بيروت - بيروت - 1944 .
- دائرة المعارف الاسلامية : ترجمة محمد ثابت الفندى وزملاؤه - القاهرة - 1933 .
- الدجيلي (عبد الصاحب) :
مقدمة تحقيق " ديوان دعبل الخزاعي " - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط 2 - 1972 .

- الدروبي (سامي) :
علم النفس والادب - دار المعارف - القاهرة - 1971 .
- دريد بن الصمّة الجشمي :
ديوانه - دار قتيبة - دمشق - 1981 .
- دعبل بن علي الخزاعي :
ديوانه - دار الكتاب اللبناني - ط 2 - 1972 .
- ديك الجن (عبد السلام بن رغبان) :
ديوانه - مطابع الفجر الحديثة - حمص - 1960 .
- الرافعي (مصطفى صادق) :
تاريخ آداب العرب - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 4 - 1974 .
- رزق (محمود) :
عصر السلاطين المماليك - مكتبة الآداب - القاهرة - 1962 .
- ابن رشيق (أبو علي الحسن القيرواني) :
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - دار الجيل - بيروت - ط 4 - 1972 .
- الشريف الرضي (محمد بن الحسين الموسوي) :
1 - تلخيص البيان عن مجاز القرآن - عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ط 1 - 1955 .
2 - حقائق التأويل في متشابه التنزيل - ج 5 - دار المهاجر - بيروت - 1335 / هـ .
3 - رسائل الصابي والشريف الرضي - دائرة المطبوعات - الكويت - 1961 .
4 - المجازات النبوية - مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - 1971 .
- ابن الرومي (علي بن العباس بن جريج) :
ديوانه - الهيئة المصرية العامة - القاهرة - 1973 .
- الروذراوري (محمد بن الحسين) :
ذيل كتاب تجارب الأمم - مطبعة التمدن الصناعية - مصر المحمية - 1916 .
- الزبيدي (محمد حسين) :
العراق في العصر البويهي - دار النهضة - القاهرة - 1969 .
- الزنجاني (السيد ابراهيم الموسوي) :
عقائد الشيعة الامامية - مؤسسة الوفاء - بيروت - 1982 .
- الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) :
أساس البلاغة - دار صادر - بيروت - 1965 .

- أبو زهـــرة (محمـــد) :
الميـراث عند الجعفرية - دار الرائد العربي - بيـــروت - 1970 .
- زيـــدان (جرجـــي) :
تاريخ آداب اللغـة العربية - دار مكية الحياة - بيروت - د . ت
- السبكي (تاج الدين عبد الوهـاب) :
طبقـات الشافعية الكبـــرى - عيسى البابي الحلبي - القاهـرة - ط 1 .
- ابن سعـــد (أبو عبد الله محمد الزهـــري) :
الطبقـات الكبرى - دار بيروت - بيـــروت - 1980 .
- سعيـــد (جميل وزميلـــه) :
نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة - مكتبة الاندلـــس - بغـــداد - 1971 .
- ســـلام (محمد زغلـــول) :
دراسات في الادب العربي / العصر العباسي - منشأة المعارف - الاسكندريـــة - د . ت .
- السلجماســـي (أبو محمد القاسم) :
المنزع البديع - مكتبة المعارف - الرباط - ط 1 - 1980 .
- الشـــاوش (الحبيـــب) :
الشريف الرضي والشريف المرتضى نقيبا الطالبيـــن - حوليات الجامعة التونسية - العـــدد 15 .
- شبّـــر (جـــواد) :
أدب الطـــف - دار الصادق - بيـــروت - 1970 .
- شرف الدين (عبد الحسيـــن) :
1 - فلسفة السياق والولاية - دار الصادق - بيروت - ط 5 - 1977 .
2 - المراجعـات - دار الاندلـــس - بيـــروت - 1979 .
- شلبـــي (سعـد اسماعيل) :
الشعـر العباسي - التيار الشعبـــي - مكتبة غريب - القاهـرة - د . ت.
- شلـــش (محمد جميل) :
الحماسة في شعـر الشريف الرضي - وزارة الاعـــلام - بغـــداد - 1974 .
- الصابـــي (هـــلال بن المحسن) :
تاريخ هـــلال بن المحسن الصابي - بتصحيح - هـ - ف - أمدروز - د . س .
مرجليـــوث - القاهـرة - 1919 .

- الصـــاوي (محمد اسماعيل) :

1 - شرح ديوان جرير - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - 1353 هـ.

2 - شرح ديوان الفرزدق - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - 1353 هـ .

- الصـــدر (حســـن) :

1 - الشيعة وفنـــون الاســـلام - دار المعرفة - بيـــروت - د .ت .

2 - تأسيس الشيعة لعلوم الاســـلام - دار التـراث العربي - بيروت - 1980 .

- الصـــدر (محمد باقـــر) :

مقدمة كتاب " تاريخ الامامية وأسلافهم الشيعة " - مطبعة أسعد - بغـــداد - 1972 .

- الصفـــار (رشيـــد) :

مقدمة تحقيق ديوان الشريف المرتضى - دار احياء الكتاب العربي - القاهرة . 1958 .

- الصفـــدي (صـــلاح الدين خليل بن أيبـــك) :

الوافي بالوفيات - باعتناء هلموث ديتر - ط 2 - 1922 .

- ضيـــف (شوقـــي) :

1- الرثاء - دار المعارف - القاهرة - ط 2 - د . ت .

2 - عصر الدول والامارات - دار المعارف - القاهرة - 1980 .

3 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي - دار المعارف - القاهرة - ط 10 - 1978 .

- الطبـــري (محمد بن جريـــر) :

تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف - القاهرة - ط 4 - 1979 .

- عاقـــل (فاخـــر) :

معجم علم النفـــس - دار العلم للملايين - بيروت - ط 2 - 1977 .

- الحر العاملي (الشيخ محمد بن الحسن) :

أمل الآمـــل - مكتبة الاندلس - بغـــداد - د .ت.

- العانـــي (حسن فاضـــل) :

سياسة المنصور أبي جعفر - دار الرشيد للنشر - بغـــداد - 1981 .

- ابن عبد ربه الاندلســـي (أحمد بن محمد) :

العقد الفريد - دار الكتاب العربي - بيروت - 1982 .

- ابن عنبـــة (جمال الدين أحمد بن علي) :

عمدة الطالب - المطبعة الحيدرية - النجف - 1961 .

- عتيـــق (عبد العزيـــز) :

علم البديع - دار النهضة العربية - بيروت - ط 2 - 1976 .

- الامام علي بن أبي طالب :
نهج البلاغة - شرح محمد عبده - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .د .ت.
- عليان (رشدي محمد) :
العقل عند الشيعة الامامية - مطبعة دار السلام - بغداد - ط 1 - 1973 .
- العماد الحنبلي (عبد الحي) :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب - المكتب التجاري - بيروت - د .ت .
- العميدي (أبو سعيد محمد بن أحمد) :
الابانة عن سرقات المتنبي - دار المعارف - القاهرة - ط 2 - 1969 .
- ابن فارس (أبو الحسين أحمد) :
الصاحبي في فقه اللغة - مؤسسة بدران للطباعة والنشر - بيروت - 1964 .
- فروخ (عمر) :
التصوف الاسلامي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1981 .
- أبو الفضل ابراهيم (محمد) :
مقدمة تحقيق كتاب أمالي المرتضى - دار الكتاب العربي - بيروت - 1967 .
- فلوتن (فان) :
السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات - النهضة المصرية - القاهرة - ط 2 - 1965 .
- الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب) :
القاموس المحيط - المؤسسة العربية - بيروت - د .ت .
- فيّاض (عبد الله) :
1- تاريخ الامامية وأسلافهم من الشيعة - مطبعة أسعد - بغداد - ط 1 - 1970 .
2- تاريخ التربية عند الامامية وأسلافهم من الشيعة - مطبعة أسعد - بغداد - 1972 .
- ابن قتيبة الدينوري (عبد الله بن مسلم) :
المعارف - دار المعارف - القاهرة - ط 4 - 1981 .
- قدامة بن جعفر :
نقد الشعر - مكتبة الكليات الازهرية - القاهرة - ط 1 - 1980 .
- القرشي (أبو زيد محمد بن الخطّاب) :
جمهرة أشعار العرب - دار نهضة مصر - القاهرة - 1981 .
- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد) :
الجامع لأحكام القرآن - دار الكتاب العربي - بيروت - د . ت .

- قطب (سيد) :
النقد الأدبي أصوله ومناهجه - دار الشروق - بيروت - ط 4 - 1980 .
- القلقشندي (أبو العباس أحمد) :
صبح الأعشى - المطبعة الاميرية - القاهرة - 1964 .
- القمّي (عباس) :
الكنى والألقاب - انتشارات بيدار - قم - د . ت.
- الكتبي (محمد شاكر) :
فوات الوفيات - دار صادر - بيروت - 1973 .
- ابن كثير (اسماعيل القرشي) :
تفسير القرآن العظيم - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - 1981 .
- الماوردي (علي بن محمد) :
الأحكام السلطانية - دار الفكر - القاهرة - ط 1 - 1983 .
- مبارك (زكي) :
عبقرية الشريف الرضي - المكتبة العصرية - بيروت - ط 2 - د . ت.
- متز (آدم) :
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 4 - 1967 .
- المجلسي (محمد باقر) :
بحار الأنوار - مؤسسة الوفاء - بيروت - ط 2 - 1983 .
- مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط - مطبعة المعارف - القاهرة - ط2-1972 .
- محي الدين (عبد الرزاق) :
أدب المرتضى - مطبعة المعارف - بغداد - ط 1 - 1957 .
- الشريف المرتضى (علي بن الحسين بن موسى) :
1 - أمالي المرتضى - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 2 - 1967 .
2 - ديوانه - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ط 1 - 1958 .
3 - طيف الخيال - مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ط 1 - 1955 .
- المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد) :
شرح ديوان الحماسة - مطبعة لجنة التأليف - القاهرة - ط 2 - 1967 .
- المسعودي (علي بن الحسين بن علي) :
مروج الذهب - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ط 4 - 1964
- مسكويه (أحمد بن محمد) :
تجارب الأمم - مطبعة التمدن الصناعية - مصر المحمية - 1915 .

- المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله) :
سقط الزند - مطبعة الاسلام - القاهرة - ط - 1906 .
- مغنية (محمد جواد) :
تفسير الكاشف : دار العلم للملايين - بيروت - ط 1 - 1968 .
- المفيد (محمد بن محمد النعمان) :
النكت الاعتقادية - مؤسسة أهل البيت - بيروت - د . ت.
- مقتل الحسين (المنسوب لأبي مخنف) - مكتبة العلوم العامة - البحرين - 1973 .
- مكتبة الأوقاف العامة : فهرست المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة - بغداد .
- مكتبة المثنى : مجلة المكتبة - بغداد - العدد 88 - السنة العاشرة .
- ابن منظور (محمد بن مكرم) :
لسان العرب المحيط - دار لسان العرب - بيروت - د . ت.
- مهيار الديلمي :
ديوانه - دار الكتب المصرية - القاهرة - ط 1 - 1930 .
- المهيري (عبد القادر) :
مقدمة تحقيق كتاب " علل التثنية " - حوليات الجامعة التونسية - العدد 2 .
- أبو موسى (محمد) :
خصائص التراكيب - مكتبة وهبة - القاهرة - ط 2 - 1980 .
- الموسوعة العربية الميسرة : اشراف محمد شفيق غربال - الدار القومية - القاهرة .
- ابن النديم (محمد بن اسحاق) :
الفهرست - طهران - 1971 .
- النعيمي (حسام سعيد) :
الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني - دار الرشيد - بغداد - 1980 .
- نكلسن (رينولد) :
تاريخ الأدب العباسي - المكتبة الاهلية - بغداد - 1967 .
- النوبختي (الحسن بن موسى) :
فرق الشيعة - المطبعة الحيدرية - النجف - د . ت.
- نوفل (محمد محمود) :
تاريخ المعارضات في الشعر العربي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط 1 - 1983 .

- النيفـــر (محمد الطاهـــر) :
أهـم الفـرق الاسلامية ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ تونـــس ـ 1974 .
- النيـال (محمد البهلـــي) :
الحقيقـة التاريخية للتصـوف الاسلامي ـ مكتبة النجاح للنشر والتوزيـــــــــع ـ تونـــــس ـ 1965 .
- ابـن هانـــي (محمد الازدي الاندلســـي) :
ديوانـــــه ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ 1980 .
- الهمذانـــي (محمد بن عبـد الملـــك) :
تكملـة تاريخ الطبـــرى ـ دار المعـارف ـ القاهـرة ـ 1977 .
- وزارة الثقافـة والارشـاد القومي : شروح سقط الزنـد ـ الدار القومية للطباعـــــة والنشـر ـ نسخـة مصورة عـن دار الكتب ـ 1947 .
- آل ياسيـــن (محمد حســن) :
المهـدي المنتظـــر ـ المكتب العالمي للطباعـة والنشـر ـ بيروت ـ ط 3 ـ 1979 .
- ياقـوت (أبو عبد الله شهاب الديـن الحموي) :
معجـم الأدبـــاء ـ دار المستشـرق ـ بيروت ـ د . ت .
- اليزيـــدي (محمـد بـن العبـاس) :
كتـاب الامالـي ـ عالـم الكتب ـ بيروت ـ د . ت.
- اليعقوبـــي (أحمد بن يعقـوب بن جعفـــر) :
تاريخ اليعقوبـــي ـ دار صادر ـ بيروت ـ د . ت.
- اليعـــلاوي (محمـــد) :
أبو العـلاء المعـري شاعـــرا ـ حوليات الجامعـة التونسية ـ فصلـة العـدد 21 .

فهـــــــرس الموضوعـــــات

المقدمـة

الباب الأوّل ـ الشريف الرضي ـ عصره ـ حياته ـ شعره 1-122

الفصل الأوّل : عصر الشريف الرضي 1-115

تمهيـــد 1-2

1ـ الحالـة السياسية : 3-23

بداية الانخرام في سلك الدولة العباسية : 3

تسلـط العنصر التركي : 8

تسلط البويهيين على الخلافة العباسية 10

الخلاف داخل البيت البويهي وآثاره السياسية . . . 14

الوزارة في العهد البويهي 18

علاقة البويهيين بالأتـــراك 21

2ـ الحالة الاقتصادية : 24-35

تصرف الخليفة في بيت المال 25

موقف الأمراء والملوك والوزراء من تصرف الخليفـــة

في المـــال 27

أمـــوال خزانـة الدولـة 28

وسائل الأتراك وبني بويه في جمع المال وانفاقه . . 29

المال وأثـره في حياة عمال الدواوين 31

أثر الحالة الاقتصادية في الحالة الاجتماعية 33

3ـ الحالة الاجتماعية : 36-57

4ـ الحالة الثقافيـــة : 58-115

تعدد مواطـن العلـم 60

تشجيع الحكام للعلـوم والآداب 63

تطـور العلـوم والآداب 69

علـــم التفسيـــر 70

علـوم الحديث الشريـف 73

علـــم الفقـــــه 79

علـــم الكـــلام 84
علـــم النحـــــو 91
علـوم اللغـــــة 94
الأدب والنقـــد 97
النثـــــــر 98
الشعـــــــر 105
الفصـــل الثانـــي : حياة الشريف الرضـــي 116-283
نسبـــــه 116
مكانـة أسرتـه ومنزلـة أبيـــه 123
مراحـــل حياتـــه 133-151
مرحلـة الصبـــا 133
مرحلـة الشبـاب 140
مرحلـة الكهولـــة 145
حياتـه السياسيـــة 152-182
علاقتـه بالمطيع العباسي وبعز الدولة بختيار . . 153
علاقتـه بعضد الدولـة البويهي 154
علاقتـه بالطائع العباسي 155
علاقتـه بشرف الدولـة البويهي 160
علاقتـه بالقـادر العباسي 162
علاقتـه ببهـاء الدولة البويهي 174
الشريف الرضي والخلافـــة 182-212
عقيدتـه 193
الامامـــة 205
العصمة 208
المهـدي المنتظـــر 210
موقفـه من الصحابـــة 211
حياتـه الاجتماعيـــــة 212-242
علاقتـه بأســـرتـه 213
بأبيـــــه 213
بأمـــــه 216
بأخيه المرتضى 218

حياته الزوجيـــة 225
بأفراد أسرته من العلويين 232
علاقته بمجتمعـــه 236
حياتـــه العلمية 242-276
مصادر ثقافته 243
أسلوبه في التأليف 252
وفاتـــــه 276
الفصـــل الثالـــث : شعر الشريف الرضي 284-411
الديـــوان : 284-296
مخطوطاتـــه 284
تحقيقـــــه 285
طبعاتـــــه 292
الاختلاف بين طبعاته 293
تنسيقـــــه 294
التطور في تجربة الرضي الشعرية 296-309
تأثره بمن سبقه من الشعراء 309-321
1- تأثره بالشعر الجاهلي 312
2- تأثره بالشعر الأموي 313
3- تأثره بالشعر العباسي 316
شعر الحكمة بين المتنبي وبين الشريف الرضي . . 321-330
شاعرية الشريف الرضـــي 330-335
مضامين شعر الشريف الرضي 336-372
المـــدح 337
الفخـــر 353
الهجـــاء 359
الوصـــف 365
شكل القصيدة عنـــده 372-422
مقدمة القصيدة بين المحافظة والتجديد . . . 373
الوحدة العضوية في قصيدته 378
الصورة الفنية في شعـــره 383

الصـــورة الجزئيـــة 385
الصـــورة المركبـــة 392
البديع اللفظي والبديع المعنوي في شعره 397
موسيقـــى شعـــره 411
البـــاب الثانـــي : التفجع في شعر الشريف الرضي . . . 423-446
مدخل : أوصـــاف الحـــزن في اللغـــة 423-451
الشجن والشجـــا 430
الأســـى والبـــث 431
الترح والكمد والكآبة والكرب 432
الوجد واللهـــف 433
الوجوم والأسف والولـــه 434
الهـــمّ والكســـوف 435
اللـوع والفجـــع 436
كلمة تفجّع وبعض مشتقاتها في الشعر العربي . . . 438-451
الفصـــل الأوّل : بين التفجّـــع والتشيّـــع 452-553
جـــذور الحـــزن الشيعـــي 452
بـــروز الشعر الشيعي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين . . 468
مكانـة الشريف الرضي بين شعـراء الشيعة في عصره . . 487
مصادر تفجع الشريف الرضي في شعره الشيعـي . . . 496-553
1- أثر اغتصاب الخلافة في شعـره 498
شعـره في الأمويين وفي بني العباس 509
2- فاجعة كربـــلاء في شعـره 517
العطش الحسيني في شعـره 518
الماء و العطش في شعر الشريف الرضي 521
تفجع الشريف الرضي لمقتل الحسين 538
الفصـل الثانـي : التفجع والموت في شعر الشريف الرضي . . . 554-713
الرثاء في شعر الشريف الرضي 554
النظرة الما ورائيـة للموت في شعر الشريف الرضي 555
تفجع الشريف الرضي في رثاء الأهل والأقارب 562-586
تفجعه في رثاء الخلفاء وأبنائهم 586-600
تفجعه في رثاء بني بويـــه 600-606
تفجعه في رثاء الأصدقـــاء 606-625

أ- رثاء أمراء الأمصار المجاورة 607
ب - رثاء الوزراء - الصاحب بن عبّاد - عميد الجيوش . . . 610
جـ - رثاء الكتاب والأدباء والعلماء والفقهاء 613
رثاء أبي منصور الشيرازي 615
رثاء أبي اسحاق الصابي 616
رثاء الشاعر الحسين بن الحجاج 617
رثاء أبي الفتح بن جني 619
رثاء أحد فقهاء الشيعة 620
رثاء الأصدقاء من عامة الناس 621
رثاء الدول العند ثرة وأيامها في الشعر العربي . . . 625
رثاء الدول العند ثرة وأيامها في شعر الشريف الرضي . 632-639
ظاهرة تكرار رثاء الشخص الواحد عنده 639-648
1- تخليد المواقف والاعتراف بالجميل 640
2- تمجيد الفروسية والهيام بالروح العربية . . . 642
3- الوفاء والحب 645
شكل المرثية في شعر الشريف الرضي 648
نسق المرثية عند الشريف الرضي 650-664
1- العبرة والموعظة 651
2- تمني التغلب على الموت 653
3- هول المصيبة وفداحة الخطب 654
4- تحسّر الشاعر على الفقيد 656
5- التأبين 657
6- تعزية أقارب المتوفى 660
7- الدعاء بالسقيا 661
مرثاة الشريف بين الوحدة العضوية والوحدة المعنوية . . . 664
التعابير التفجعية في رثاء الشريف الرضي 671-696
1- التفجع المعنوي في مرثاته 671
2- الصور التفجعية في مرثاته 696
3- البديع وصدق العاطفة في تفجع الرضي 707
الفصل الثالث - التفجع والمجتمع في شعر الشريف الرضي . . . 714-786
الصراع بين الماضي المسلوب والواقع المؤلم والمستقبل المرتقب . 714-727

أولا ـ الماضي المسلوب والواقع المؤلم 715
1ـ الانتماء لآل البيت 715
2ـ عامل الانتماء العربي 717
ثانيا ـ المستقبل المرتقب 721
غربة الشريف الرضي في مجتمعه 727
موقف الشريف الرضي من عيوب مجتمعه 730
نكبات الأفراد وأثرها في شعر الشريف الرضي 742
الصديق والصداقة وأثرهما في شعر الرضي 748
أثر العلاقة الأسرية في تفجع الرضي 763
الحكمة في شعر الشريف الرضي 771-786
أ ـ الحكمة في شعر المدح 774
ب ـ الحكمة في شعر الفخر 779
جـ ـ الحكمة في شعر شكوى الزمان 781
د ـ الحكمة في شعر الصداقة والصديق 782
هـ الحكمة في شعر الرثاء 784
الفصل الرابع : المرأة وأثرها في تفجع الشريف الرضي . . . 787-846
مكانة المرأة في شعر الشريف الرضي 787-800
أ ـ مكانتها كأم 787
ب ـ مكانتها كأخت 788
جـ ـ مكانتها كزوجة 790
د ـ مكانتها كحبيبة 791
المرأة وحنينه الى العقب في شعره 800-804
صراع العقل والقلب في شعر الرضي 805
الصراع بين الحب والحرب في شعر الرضي 808
استخدام مفهوم المرأة في شعره عامة 810
التفجع في نسيبه ـ اللقاء ـ الوداع ـ الحنين ـ الطلل 813
بكاء الشباب في شعر الرضي 830
ذم الشيب في شعر الشريف الرضي 833-840
أ ـ الغنية والشيب 835
ب ـ نفور الغواني والشيب 837
جـ ـ الشيب والخضاب 842

الخاتمـــة 847
فهـــرس الأعـــلام 852
فهـــرس الأماكـــن 875
فهـــرس الأشعـــار الشواهـــد 897
جدولـــة الديـــوان 910